


# خريف الفرح

SUDAN AUTUMN OF JOY






أسرار السودان

١٩٥٠ - ١٩٧٠م

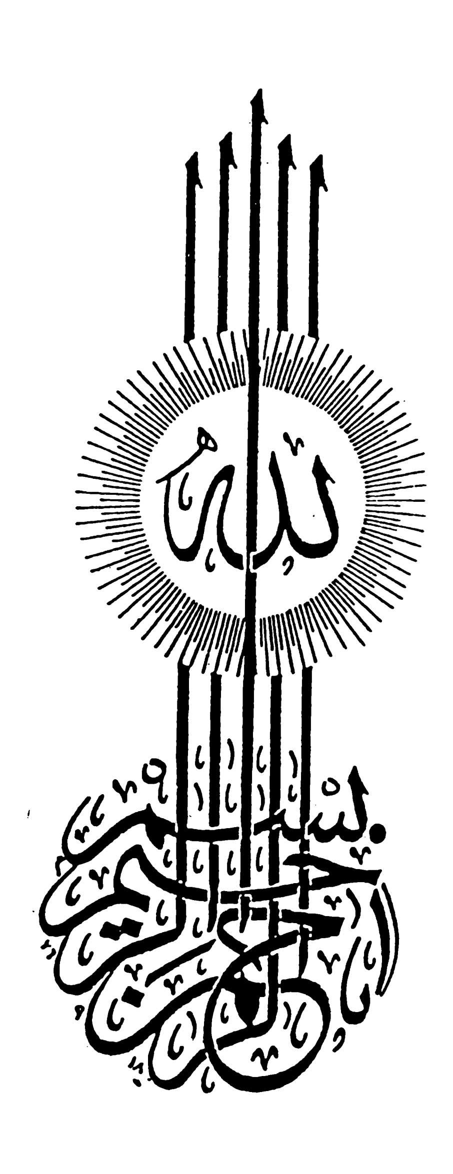



عبد الرحمن مختار

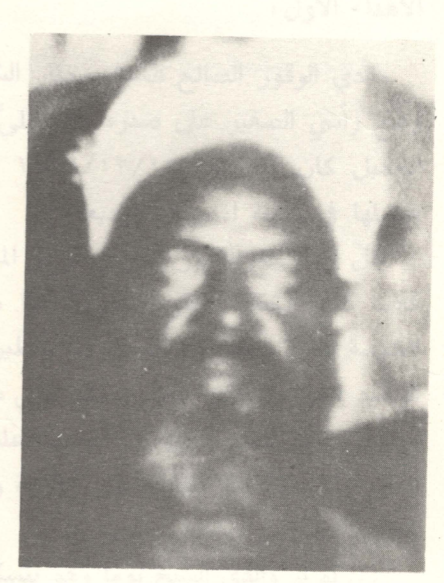




مسطورات
MUSTORAT
ARCHIVE
INTERNET


بسم الله الرحمن الرحيم

# ﴿ الفصل الاول ﴾



والدي الشيخ مختار الشفيع



رفيقة الدرب وصديقة العمر

## الاهـــداء

**الاهداء الأول:**

والدي الوقور الصالح الشيخ مختار الشفيع كان في الثالثة والستين من عمره عندما وضع رأسي الصغير على صدره وقرأ عليَّ صورة يس والقرآن الحكيم بصوته الجهوري الجميل كان ذلك في ١٥/١٢/١٩٤٢ والطائرات الايطالية بأزيرها المخيف تقصف بقنابلها في مدينة امدرمان الوديعة.

قال لي الشيخ الوقور وهو في سرير المرض وقبل ان يودع هذه الحياة الفانية بدقائق كلاما كثيرا اختتمه بانني ساكون شيئا ما هذا الحديث كان بالنسبة إليَّ وانا لم اتعد الخمسة عشر ربيعا كالاحاجي والاساطير، ولم أكد أتبين له معنى أو مقصداً، الشيء الوحيد الذي رسخ في عقلي وتملك علي مشاعري ووجداني هو نصيحته لي بالا اواصل دراستي وان العلم يمكن أن أتحصل عليه تحت ظل شجرة أو حائط ولا بد لي من العمل والاجتهاد مع المثابرة على القراءة والاطلاع حتى يتسنى لي ان اواجه مسئولياتي العائلية نحو امي واختي واخي.

... لم ار والدي الشيخ يوما وهو يتسكع كبقية الناس في الاسواق أو في الحدائق، ولم اسمع منه لغوا او قطيعة أو نميمة، ولم أره يوما عبوسا أو هائجاً أو متشنجاً، وانما عرفته طيباً متسامحاً باسماً قضى كل وقته في العبادة والذكر والمذاكرة وترتيل القرآن بل وكتابته فقد خط بيده الكريمة مايزيد عن عشرة مصاحف أهداها كلها لاصدقائه واحبائه ومازالت حروفها الكريمة تضيء نوراً وتنفث عطراً ومسكا.

.. ما رأيت الشيخ الوقور الا وهو يؤم المصلين في المساجد وأمام داره. أوليس من حقه عليَّ بعد كل هذا أن أهديه كتابي هذا وأقول لروحه الطاهرة:

«... صدقت نبوءتك يا أبي فنم قرير العين مع الشهداء والصديقين ولك الرحمة واسعة بقدر ما احسنت وعلمت وربيت».

الاهداء الثاني :

... ما رأيت أمي وهي تسعى يوما للكوافير او صوالين ألموضة والزينة ، وما قضت وقتا تستمع فيه إلى ام كلثوم أو تشاهد فيه فيلما سينمائياً او رواية مسرحية ، وانما قضت كل شبابها وكل شيخوختها داخل جدران «التكل» السوداء «المطبخ بلغة العصر» وهي تعد الطعام من أول المساء إلى منتصف الليل تواجه الفحم والحطب والنيران للذاكرين والمصلين والمادحين من أحباب وأصدقاء زوجها الشيخ الوقور ومع كل ذلك كانت لي نعم الأم وكانت لزوجها نعم الرفيقة . كانت أوفى زوجة لأوفى زوج .

الاهداء الثالث :

.. الى زوجتي ورفيقة عمري ودربي التي اصبحت لي بمرور الزمن اختا واما وابا وصديقة وحبيبة ، بدأت معي رحلة الشقاء والعذاب في فبراير ١٩٥٠ يوم كانت تبحث عن ثوب جميل فلا تجده ، وعن عطر ومسك فلا تملكه ، وعن فاكهة او لقمة شهية فلا سبيل اليها . ما تبرمت لحظة وما غضبت وما ثارت ، وما شكت وما بكت فقط ظلت تحيطني برعايتها وتطوقني بحنانها وتأسرني بعطفها ونبلها وتأخذني بيدها الدافئة وتدفعني دائما إلى الامام وهي صابرة ، وهي ساكتة ، وهي باسمة وهي متفائلة ، وهي مؤمنة ومطمئنة .

... خطوة خطوة ونحن نبتعد عن دنيا الفاقة والتبطل ونودع أشباح الظلام والفقر والعوز رويدا رويدا وظللنا نتسلق أعتاب النجاح خطوة خطوة وسلما سلما ومن غير تعجل ولا تسرع ولا شفقة حتى أدركنا الغاية التي ينشدها كل طموح وصابر ومجاهد .

إلى والدي الشيخ الوقور ، ولامي الوفية ، وزوجتي الامينة ... اليهم جميعها اهدي «خريف الفرح» كما اهدوني كل الفرح بل وكل الحياة وكل النجاح والفلاح .

عبد الرحمن مختار

الخرطوم ١٥/٧/١٩٧٨

# المقدمة

## دعـــــاء

يـــا رب
البحر والسماء
والليل الصامت !

... في وداعه الأخير قال لي والدي الشيخ وهو يضع رأسي على صدره العاري بعد ما تلا سورة يس بصوته الجهوري الجميل بان كل اهلي فقراء ومساكين ينتظرون قدومي وتنبأ لي بانني ساكون شجرة وارفة يستظل تحتها كل أهلي من عناء السفر وضيق الحياة ولفحات البرد وهجير الشمس. كانت كلماته هذه وأنا في الخامسة عشرة من عمري مجرد الغاز وطلاسم لم أستطع أن أدرك معناها ومغزاها الا بعد عشرين عاما حين فاجأني أحد أهل الله وأوليائه من أصدقاء أبي ففك لي هذه الالغاز فكانت مفاجأة لم تخطر لي على بال وكان وقعها عليَّ كالصاعقة أوشكت أن أنهار معها لولا بقية من أمل وايمان.

.. قال لي الشيخ الولي ان والدي قد تنبأ لي وهو في لحظاته الأخيرة بأنني سأكون ذا شأن ولكنني لن أرزق بذرية لا صالحة ولا طالحة وقال ان الشجرة التي وضعك بها والدك ستظل الآخرين من اهلك وصحبك ولكنها هي نفسها عارية مكشوفة تماما لحرارة الشمس وزمهرير الشتاء ومياه الامطار والأهوية والأتربة!

.. لقد رزقت أربع مرات لكنهم ما رأوا النور، وما تنسموا الهواء ومع ذلك فايماني بالله ظل يكبر مع مرور الايام واستسلامي لمشيئة الله ظل يملأني دائما بالايمان ويجعلني أكثر قربا منه وتقربا اليه في صلواتي وقيامي وقعودي وترحالي. وفي يوم السبت ١٩٦٤/٩/٢٩ أبحرت وزوجتي من ساوثهامبتون بانجلترا إلى نيويورك على ظهر الباخرة «اس اس فرانس» فكتبت خواطري ودعائي لله والبحر والسماء والليل الصامت الحزين... ذلك الدعاء الذي رددته معي النجوم والاسماك والامواج فارجو أن ترددوه معي:

« .. خمسة ايام كاملات قضيتها في المحيط الاطلنطي بين ساوثهامبتون ونيوريوك .. خمسة أيام لم أر خلالها غير جمال الله في سمائه ومائه وصفائه ... خمسة ايام كاملات كنت استمتع فيها بالنظر الى الفضاء اللا نهائي غير انني احسست لاول مرة باكذوبة القائلين بان البصر لا حد له، فقد كنت لا أرى أكثر من بضعة أميال تنحني عندها السماء فتلتقي بالمياه لتطوقها من كل جانب ... كنت اخرج في هدأة الليل إلى سطح الباخرة فلا اسمع غير هدير المياه الصاخب ثم لا يلبث أن يهدأ فيطوقني الصمت، وتحتضنني النسمات العذبة البكر لساعات وساعات كنت احس خلالها بالخوف والرهبة احيانا، وبالسعادة والانشراح احيانا أخر، لكنني كنت لا أرى خلال الاحساسين غير الله .!

كنت أصحو مبكرا لارقب الشمس عند مشرقها ومغربها .. كانت تشرق من البحر بعد فجر محمر فتشق الليل وينبعث نورها في اشعاع حالم يبدد قليلا قليلا ما تبقى من ظلمة، ثم تمتد خيوطها من داخل المحيط مستديرة «كشبكة الصياد» فتلتقي بمياه البحر في عناق طويل لن تلبث لحظات حتى تخرج بعدها من القاع وأمواج البحر ترتفع اليها في اندفاع مستمر كأنما تريد ان تعيدها إلى جوفه غير ان الشمس تبتعد قليلا قليلا في صدود كله دلال وغرور وهي تربت على أطراف امواجه العالية منها والخافضة وكأني بها تخاطبه « .. لن يطول فراقي فانت أعز على من كل عزيز وأقرب إليَّ من كل قريب! سأعود اليك يا حبيبي ... سأعود اليك عند المغيب! »

.. ولم تكذب الشمس وعدها ولم تخلف ميقاتها ساعة، وكم من لحظات قضيتها في المغيب كما أفعل عند الشروق وأنا أرقبها تعود الى البحر ... إلى حبيبها بنفس المودة والحرارة لتودع فيه أطرافها المصفرة فيضمها هو في حنان دافق ويلتقيان في عناق طويل لن تلبث الا ان تسلم جسدها المضيء إلى أمواجه من جديد، وتذوب في جوفه بعد لحظات وانا كعادتي اقف فوق سطح الباخرة الضخمة ارقب المشهد الساحر، وأتابع في كل شروق وعند كل غروب لوعة الفراق وفرحة اللقاء، وكنت عند كل شروق التقي بعد مسرحية الوداع بالنور والنار والوجوه السمراء والبيضاء والأجساد الرشيقة والمترهلة التي تبدأ طوافها على سطح الباخرة فينقطع من حولي تيار الصمت الحلو الذي عشت فيه فيبدأ، بعد ذلك يوم جديد من عمري!!

... اما لقاء الغروب بين الشمس والبحر فما أبدع سحره، وما أحلى صوته، فانه لقاء يدغدغ المشاعر، ويرهف الاحاسيس، ويبعث في النفس نشوة تفوق كل نشوة، فليل البحر الذي يبدأ بعد المغيب فيه تلتمس النفس الراحة، وتستمد منه معان كبيرة عميقة تعلم الانسان كيف يحب، وكيف يسمو ويصفو حتى اذا ما تمعن في الليل والبحر والسماء والنجوم، أسلم روحه وجسده للنسمات البكر، أحس بوجود الله من حوله واستمع اليه في سكناته وحركاته وخطواته وانفاسه ثم لن يلبث ان يراه في أمواج

البحر... وفي الهواء... في الليل... في السماء... في الصمت فيغمض عينيه حلم سماوي ملائكي يحس الانسان فيه بانه انسان!!

.. لقد عشت ايامي الخمسة في البحر بكل مشاعري فعلمني ما لم أكن أعلم... لقد أشعرني بانني انسان عمره خمسة ايام.. خمسة ايام أذابتني فيها نسمات البحر، وجعلتني أتلمس بحواسي كلها سر البحر والفضاء، وكلما تعمقت فيما حولي، كلما تجردت من نقائصي وكنت قريبا إلى الله فاخافه في صمت، وأدعوه في صمت، وأتلمس قدرته في صمت، وأتكىء على حاجز الباخرة وأنا في قمة علوها الشامخ ثم لا يلبث الصمت ان يخيفني، ويهزني هدير الأمواج، وتأكل وجهي نسمات الليل الباردة فاعود إلى حجرتي لاجد زوجتي تصلي وتدعو الله كعادتها ان يهبها طفلا يبدد وحشتها، وينير ظلامها ويملأ عليها فراغ حياتها، فأردد معها الدعوات في صمت:

«أيها البحر الكبير.. أيها الليل الصامت الحزين.. ايتها الأمواج العالية.. أيتها النجوم السابحة في فضاء أزرق بعيد.. أيتها الشمس الوهاجة الدافئة.. يا نسمات تهب من كل جانب.. أيها الكون الصغير الكبير الصامت، أنت معجزة صنعك فنان ماهر فهبني من لدن صانعك معجزة صغيرة في مولود يبدد ظلمتي، ويؤنس وحشتي، ويحمل اسمي من بعدي حتى لا اظل بقية عمري اصارع الدروب وحدي، واغادر هذا العالم وانا مغترب كما جئت اليه!!»

.. يا صانع الكون هبني يدا واحدة تقف إلى جانبي اتوكأ عليها كما وهبت موسى عصاك وجعلت له فيها مآرب أخرىٰ..

.. يا خالق الليل والصمت والنجوم انني مخلوق صغير فوق بحرك العريض أسير وتحتي الملايين من مخلوقاتك الضخمة التي تتقاذفها امواجك كعيدان القصب!

لا أريد وأنا في عالمك هذا ان تهبني قوة البحر، وحلاوة النسمات، وجمال القمر، وزرقة السماء، وصفاء النجوم، ولكنني اطلبك أملاً صغيراً هو أن تسمعني كلمة أبي قبل ان تسد اذني بقطعتين من القطن فلا اسمع بعدها شيئاً، فلكم والله هفني الشوق إلى سماعها واشتاقت لسماعها زوجتي المسكينة التي حرمتها الاقدار من اربعة قبل ان يروا قوة بحرك ويقفوا على أعتاب بابك كما أفعل الان أنا!

أيها البحر الهائج.. أيتها الأمواج الهادرة.. أيتها النسمات البكر.. يا زرقة السماء الصافية.. ايتها السحب الذائبة في جوف البحر.. ايتها النجوم السابحات في الفضاء البعيد، رددي دعائي فان في صمتك سحر ورهبة، وفي هدوئك جلال وروعة تجعلني أمامك مخلوقا صغيراً، وتجعلك أمامي قوة تختفي وراءها قوة الله، لكنني مع ذلك احس بانني قريب لانني آمنت به فيك، وسبحت بقدرته في ابداعك وتصويرك، وفي حلاوة صمتك وجمالك.!

... خمسة ايام ظللت اردد الدعوات حتى خيل إلى ان أزير الباخرة الضخمة التي

تشق المحيط الكبير ظل يرددها معي وأن الآلاف الثلاثة من المسافرين وربان الباخرة وموظفيها وعمالها هي الأخرى كانت تردد معي الدعاء في خطواتها وبسماتها وحركاتها .

الباخرة التي قطعت بها الرحلة من مرفأ ساوثهامبتون في انجلترا إلى ميناء نيويورك كانت عالما بأسره فقد جمعت عديدا من الاجناس واللغات والعادات وعلى كثرتهم وتناقض بيئاتهم وتقاليدهم فقد ألف البحر بين قلوبهم، وجعل البسمة الدائمة في الشفاه تحية الود والصداقة والسلام لان الابتسامة هي اللغة الوحيدة التي تجمع من فرق بينهم اللسان والبيان .

لقد قرأت كثيرا عن حياة البحر واستمعت إلى أغانيه الساحرة التي يرددها البحارة :

انت يا بحر صديق لدود
حلو في غضبتك
وحلو في هدأتك
ولكن حلاوتك هذه تخفيني
بقدر ما تحببني فيك
وتشدني اليك
فكم من رفيق لي ابتلعته
في جوفك .. جوف اسماكك
دون ان تستجيب لرجائه
حتى صرخاته تبتلعها أمواجك
في صمت مخيف ..
ولكنني مع ذلك ..
أعبدك ... واحبك
رغما عن انك تخيفني
وربما تبتلعني يوما ما !!

.. هذه الاغنية رددناها في ايامنا الخمسة في صالة الموسيقى بالطابق الخامس من الباخرة التي تسع ستمائة من الراكبين .. ورددها ورددها معنا البحر الكبير وكانت كلماتها الحلوة العميقة بالنسبة لنا كقارب النجاة عند المحن، ففي اسطرها معان عميقة تهدىء النفس وتعمق المحبة بينها وبين أمواج البحر الهائج . وفي موسيقاها الهادئة راحة تطمئن كل نفس قلقة مضطربة . وعندما تنظر إلى وجوه المئات من الرجال والنساء والاطفال وهي تردد انشودة البحر الكبير ، تدرك لاول مرة انه الف بين القلوب وجعل راكبيه كلهم اسرة واحدة على الرغم مما بينهم في الأرض من فوارق طبقية واجتماعية وجغرافية .

وها هي الشفاه .. كل الشفاه تردد الاغنية وفي العيون اكثر من معنى .

انت يا بحر صديق لدود

ولكنني مع ذلك

اعبدك ... واحبك

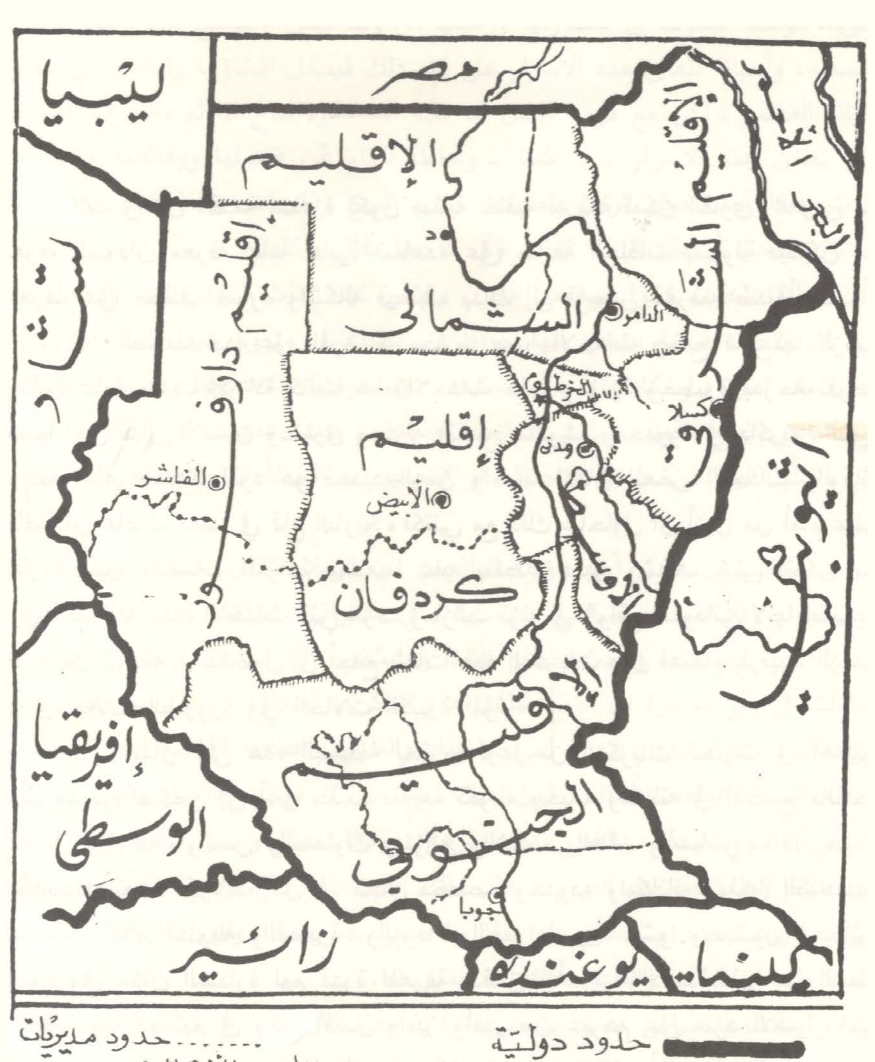
رغما من انك تخيفني

وربما تبتلعني يوما !!

وفي ميناء نيويورك بدأ الركاب وعددهم أكثر من الفين يهبطون إلى الارض ويندسون في صفوف البشر لتبتلعهم نيويورك الصاخبة غير أن البحارة الثلاثمائة سيعودون ويجيئون مرات ومرات وهم يرددون اغنيتهم من جديد !!

# الفصل الثاني

- السودان بلاد المليون ميل و٢٢ مليون سياسي وزعيم .
- ماذا قال برجنيف عن السودانيين ؟!



ليبيا
مصر
الإقليم
الشمالي
إقليم
كردفان
الفاشر
الأبيض
الدامر
الخرطوم
كسلا
ود مدني
جوبا
أفريقيا
الوسطى
زائير
يوغندا
كينيا
حدود دولية
حدود إقليمية
حدود مديريات
عواصم الأقاليم
عاصمة الدولة

.. لابد لي من مقدمة صغيرة تكون بمثابة خلفية سريعة تمكن القارىء العربي من معرفة السودان معرفة عامة عابرة تساعده على متابعة الحلقات بسهولة فيتمكن من التعرف على مختلف صوره واشكاله فيضيف بذلك إلى قاموس معرفته صديقاً جديداً.

.. من الصعب جدا على المرء ان يختزن صور الاحداث ويتابع تسلسلها الزمني لثلاثين عاما مضت الا اذا كانت هذه الاحداث هامة ومؤثرة وخطيرة بدرجة تفرض نفسها على كيان الانسان وتخترق وجدانه فتصبح منقوشة ومحفورة في ذاكرته. الشيء الوحيد الذي يصعب امره هو تحديد الزمن واحيانا المكان لبعض الاحداث والوقائع خاصة ان غاصت بعيدا في قاع التاريخ، لكنني مع ذلك سأحاول ان أزيل من أمام عيني غبار السنين والضباب المتراكم مستعينا عليه بمنظار دقيق وشفاف حتى أتمكن من الرؤية الصادقة لتلك الاحداث التي أثرت ومازالت تؤثر في الواقع السوداني لانها اصبحت جزءاً من تاريخه .. سأحاول أن أجمع شتات هذه الذكريات دون اهتمام بترتيبها الزمني الا في حالات الضرورة وفي الحالات الكبيرة المؤثرة.

.. كل انسان على هذه البسيطة يختزن نوعاً من الذكريات تتفاوت في اهميتها وتأثيرها من شخص إلى آخر حسب طبيعة تكوينه وحياته ومكانته في المجتمع فالتاجر والعامل والموظف واللص والصعلوك والمؤرخ والاديب والفنان والسياسي .. كل هؤلاء لهم انطباعاتهم وذكرياتهم كل في مجال تخصصه وحدوده وامكاناته، ولكن الصحفيين أصحاب الأقلام الطويلة والقصيرة، والزرقاء والحمراء ممن عاشوا ويعيشون في دائرة الضوء وفي مكان الصدارة لهم قدرة المعرفة بدقائق الأسرار والالمام بكثير من الخبايا والخفايا مما يجعلهم في وضع افضل وأميز وأقدر من غيرهم على سرد الاسرار التي أثرت وتؤثر بشكل متفاوت على مجريات الاحداث في مختلف أوجه الحياة.

.. الصحفي مهما كانت قوته وقدرته وشجاعته، ومهما بلغ شأنه، وقوي قلمه، ومهما كان ذكاؤه وبعد نظره، فانه لا يستطيع مطلقا ان يكتب كل شيء وأي شيء خاصة ان كان هذا الشيء يدخل في دائرة الاسرار المحرمة والأحداث الخطيرة المؤثرة التي كثيرا ما تحاك خيوطها وراء الكواليس وفي الخفاء والظلام بعيدا ... بعيدا عن كل عين ورقابة.

لا يستطيع الصحفي ان يذيع كل الاسرار التي تتجمع لديه بحكم منصبه وعلاقاته وذلك اما خوفا عليها أو خوفا منها فهناك من الأحداث السياسية المؤثرة التي تجري عادة في سراديب الحكومات والمؤتمرات والمحادثات وصالونات الاحزاب وميادين السياسة تفوق في حساسيتها وخطورتها كل محاولة لافشائها واذاعتها وقد واجهتني في حياتي الصحفية الطويلة مواقف تتفاوت في خطورتها ورهبتها ... وقد يصل «الموجع منها» حد التهديد بالتصفية، وأحيانا تتعالى هذه الاسرار على كل ذلك فيدخل افشاؤها واذاعتها في نطاق الخيانة العظمى، لكن مع مرور الزمن قد يجد الصحفي المناخ الملائم والظرف المناسب لنشر بعض هذه الاسرار - لا كلها - واماطة اللثام عن فصولها ووقائعها خاصة اذا توارت بعيدا خلف جدار الزمن واصبحت مجرد تاريخ وذكريات، وهنا ينبغي ان تجىء الامانة والصدق في مقدمة ما يروى وفي كل ما يقال ويكتب.

.. لطالما شعرت كثيرا بنوع من الحزن والاسى كلما مات صحفي كبير وارتحل عنا دون ان تتاح له فرصة يسجل فيها خواطره وانطباعاته، ويروي فيها تجاربه وذكرياته فتدفن معه اسراره وحكاياته ويحرم مجتمعه من معرفتها والالمام بها وقد يكون منها ما ينفع الناس ويمتع عقولهم ويثري افكارهم ومنتدياتهم ويبدد عنهم بعض الظنون والمآخذ التي وصلوا اليها عن طريق الاجتهاد او التخمين او الخطأ لأن الحقيقة كانت غائبة عنهم

.. اوشكت أن أكون أحد هؤلاء الرائحين من الزملاء الذين سافروا عنا في رحلة بدون جواز وبلا عودة رغم انني قد سجلت في مذكراتي المتراكمة التي اعتلاها التراب والصدأ كل واقعة هامة وحدث خطير عشته وعايشته لا في السودان وانما في العالم كله وحاولت في غير ما مرة ان اجمع شتات هذه المذكرات المبعثرة وارتبها حتى ترى النور ويراها النور. كل مشاغل الحياة التي تخنقنا، والظروف الصعبة القاسية التي تحيط بنا احاطة السوار بالمعصم حالت دون ذلك، والزمن لا يرحم، فالايام والسنون تدور وتجري، والقوة تضعف، والعمر يتقدم بسرعة «ورذالة» حتى واتتني فرصة طيبة التقيت فيها بالاخ العزيز والزميل الكريم عرفان نظام الدين بلندن في نوفمبر عام ١٩٨١ فألح عليَّ بضرورة الكتابة وشجعني بل وظل يلاحقني حتى ابدأ، ومن هنا بدأت فله مني التحية وله مني الشكر والتقدير فلكم انا مدين له.

.. أمتلأت باحساس عميق يدفعني للبداية وهنا كان لابد لي من وقفة مع النفس والزمن.. وقفة طويلة ومتأنية استريح فيها من عناء السفر والجري المتواصل وزحمة الحياة المعقدة حتى استجمع قواي المشتتة واريح انفاسي اللاهثة فشعرت بحاجتي الماسة لأتكىء على شجرة الذكريات الكبيرة وأستمتع بظلها الوارف ثم اقوم بهزها هزا عنيفا حتى تتساقط حبال الذكريات منها رطبا جنيا فاجمع خيوطها المبعثرة المتشابكة دون التقيد باي شيء وانا ارتبها وأصوغها الا بالحقيقة والحقيقة وحدها مجردة وبعيدة من

كل غرض ومرض.

.. لابد ان افعل ذلك بسرعة وعلى عجل حتى لا تشيخ الشجرة وتجف عروقها، وتصفر اوراقها ويذبل الثمر ويجمد المداد ويتكىء القلم على جدران النسيان الاتكاءة الأبدية فيموت كل شيء!

السودان ماذا؟

اعود لأعطي القارىء العربي نبذة قصيرة وصغيرة ومضغوطة عن السودان حتى تكون له بمثابة «كارت» تعارف وصداقة آملا ان تنمو وتقوى مع مرور الحلقات والزمن، أما القارىء السوداني ذلك الصديق الذي اعرفه ويعرفني جيدا وبيني وبينه حبال من الود مازالت موصولة وممدودة طيلة الثلاثين عاما الماضية.. هذا القارىء قد يتساءل ومن حقه ان يسألني لماذا لم انشر له الذي اكتبه اليوم في صحيفتي بالامس؟ وقد كنت وكان قريبا مني فاجيبه بما قلته في المقدمة بان الوقت آنذاك لم يكن يسمح بنشرها واذاعتها وحتى الان فهناك بعض الاسرار ما زالت مطوية في الصدور لم يحن الوقت بعد لنشرها فليسمحني وحتى نربط معنا القارىء العربي الكريم ونكسب مودته وثقته فلا بد من أن نعطيه نبذة عن السودان سأراعي فيها القصر والاختصار ما كان ذلك ممكنا ثم بعد ذلك نبدأ مسيرتنا حتى نستبين معالم الطريق ونتحسس دروبه الوعرة وسراديبه المظلمة ونمشى في ذلك القطر الافريقي الكبير بخطوات آمنة مطمئنة.

.. السودان «بلد المليون ميل مربع» قطر زنجي يتوسط القارة الافريقية وهو على مرور الزمن يمكن ان يكون جسرا قويا يربط الحضارتين العربية والافريقية ويمكن له كذلك ان يلعب دورا رئيسيا وبارزا وكبيرا ومؤثرا في مختلف ميادين وأوجه الحياة في العالمين الافريقي والعربي.

.. للسودان ثمان دول مجاورة فمصر وليبيا في شماله، واثيوبيا وكينيا في شرقه وتشاد وافريقيا الوسطى في غربة ويوغندا وزائير في جنوبه. أرضه الشاسعة الواسعة ذات المائتي مليون فدان صالحة للزراعة ومازالت بكرا. قالت تقارير الامم المتحدة المعتمدة والموثقة ان المجاعة التي ستجتاح العالم كله ما بين عام ٢٠٠٠ و٢٠٥٠ سوف لن تشمل السودان اذا ما استثمر كما ينبغي.

والسودان قطر يقطنه عشرون مليون قائد وزعيم سياسي منهم في الجنوب اربعة ملايين من العناصر الزنجية الافريقية الغالبية العظمى منهم بين مسيحي ووثني يجمعهم خليط من اللهجات واللغات والثقافات والتقاليد والعادات. اما بقية سكانه في الشمال والشرق والغرب فجلهم من عنصر عربي زنجي يدين بالاسلام وقد أثرت مصر فيهم تأثيراً مباشرا فمنها استمدوا الحضارة والثقافة والمعرفة وظلت العلاقات بين الشعبين تزداد قوة على مر الزمن... قوة استمدوها من النيل الخالد الذي يربط بينهما منذ الازل.

.. الشعب السوداني شعب بسيط وطيب وودود لكنه حساس وعاطفي ومصداق لدرجة المبالغة فالكلمة الحلوة ترضيه وتروضه، والكلمة المرة، «حتى ان كانت في شكل نكته او فكاهة قد تثيره وتهيجه وهو سريع الانفعال سريع الغضب سريع الرضا. لا يؤمن بالمواقف الوسط. يعرف اللون الابيض واللون الاسود جيدا ولكنه لا يؤمن باللون الرمادي!

.. مشكلة الشعب السوداني الوحيدة انه شعب يحب السياسة ويهوى النقاش والمجادلة فالعامل البسيط والجزار والفكهاني والتاجر والموظف يعرف ما يجري في نيكاراجوا وسان سلفادور وكمبوديا قدر معرفته بما يجري في عالمه العربي والمحلي والافريقي وهو مولع بالندوات والتحليلات والاستنتاجات قدر ولعه بانتقاد الرؤساء والوزراء والساسة ومناقشة بياناتهم وتصريحاتهم وتقييم كل ما يصدر عنهم مهما كان تافها وصغيرا ومع كل هذه الزحمة السياسية الغارق فيها الشعب السوداني حتى اذنيه، فانه يتابع ايضا وبشغف شديد انباء الرياضة ونجومها وتحركات اهل الفن والغناء والأدب والشعر الخ الخ.

.. السير جيمس روبرتسون حاكم نيجيريا السابق وآخر سكرتير اداري بريطاني للسودان «والحاكم الفعلي» كان فيه ذا أثر كبير يجمع بين أصابعه كل خيوط اللعبة السياسية وقد امضى في السودان معظم سنوات شبابه وزهره عمره فعرف السودان شبرا شبرا وشيخا شيخا وزعيما زعيما.. قال عن السودان في أواخر ايامه وقبل ان يبرحه قولته المشهورة «ان السودان بلد صعب لا يستطيع ان يحكمه الا «نبي او غبِي» وقال ايضا ان السودان بلد معقد ومتشابك وصعب للغاية وانني ومن داخل قلبي أرثي واشفق على الذي يحكمه!!

.. الشعب السوداني شعب «اسري» ينفرد بخصائص ومزايا وعادات قل ان تجد لها مثيلا او شبيها فهو كريم ومعطاء بقدر ما هو صريح وواضح وناكر لذاته. قد يحسدنا من الوهلة الاولى والانطباع السريع بعض الناس على هذه الخصائص: رغم انني بعد الممارسة والتجارب الطويلة اري فيها بعض المساوىء التي اثر ويؤثر بعضها على مسيرتنا الحياتية خاصة في محيط الانتاج القومي وذلك بسبب الاتكالية والاعتماد على الغير. فالسوداني كما قلت بني تكوينه على نظام الترابط الاسري وعندما تكون الاسرة كبيرة وفيها «نوارة» يعني شخصية ذات جاه وثراء يطحنها ويسحقها فقراء الاسرة بلا رحمة ولا توقف ولا نهاية. فالثري في السودان لا تنتهي مسئولياته عند زوجته واولاده كما هو متعارف ومعروف، بل تشبع بكل هذا ـ فتمتد لتشمل الجيران وأهل الجيران والمعارف والاصدقاء وأصدقاء الاصدقاء لذلك فان السوداني شيخا كان ام شابا يستطيع ان يظل عاطلا ـ وبكل معنى العطالة ـ لمدة قد تطول وتطول جدا لانه يسكن ويأكل ويشرب ويلبس على حساب غيره من الاهل او المعارف المقتدرين بل وفي احيان قليلة

متفرقة قد يمتد شره العاطل فيدخن ويدخل السينما ودور الرياضة وربما يسافر ويسامر ويجامل ايضا على حساب برنامج الاعاشة الذي فرضته العادات والتقاليد في الاسرة السودانية. هذه الظاهرة الفريدة على الرغم من انها مازالت موجودة وتمارس بشكل محصور ومحدود، الا انها اخذت تتلاشى قليلا مع الظروف الاقتصادية الصعبة والضغوط الحياتية المتزايدة لكنها لم تنته بعد!

.. ثمة تقليد آخر لكنه حلو وعظيم اتمنى ان يبقى ما بقى السودان هو الاشتراكية التعاونية الفطرية العفوية في اسمى صورها وأروع معانيها والتي مازال يحرص عليها الكبير والصغير، الغني والفقير، المثقف والجاهل، أهل الحضر وأهل الريف... يتعاونون في مضمارها سواسية كاسنان المشط كل حسب طاقته وامكاناته وقدراته.

.. هذه الاشتراكية التعاونية التي يمارسها السودانيون بالفطرة والعفوية وعن طيب خاطر حتى اصبحت عقيدة راسخة وتقليدا موروثا.. هذه الاشتراكية الفريدة تمارس في مختلف أوجه الحياة، ولكنها تظهر وتتجسد بشكل بارز وملموس في الافراح والأحزان فالذي يفقد عزيزا لديه ينبغي الا يحمل هموم الصرف والاعاشة على ليالي العزاء التي كانت ايام زمان تمتد إلى اربعين يوما تقلصت بسبب الظروف الاقتصادية والحياتية ومشاغل العصر إلى شهر ثم إلى اسبوعين فاسبوع واخيرا ثلاثة ايام ونفس الشيء كان يحدث ايضا في الأفراح من زواج إلى موضوع الختان إلى عمرة إلى حج إلى شفاء فقد درجت العادة في حالة المآتم ان يتوافد اهل الحي على بيت المأتم كل يحضر معه «طاولة الأكل» والشاي والقهوة إلى ان يجيء آخر يوم للعزاء حيث يعد فيه «كشف الاعانات» فيتسابق عليه الناس بعد صلاة المغرب والترحم على الفقيد لتسجيل اسمائهم ثم يدفع كل منهم ما استطاعه، اما في حالات الزواج ففي يوم الحناء اليوم الاول او الثاني للزواج يعد كشف مماثل باصدقاء وأهل وجيران العريس وتقف وسط الحلقة بين الغناء والزغاريد أمرأة يشترط ان تكون ذات صوت جهوري مميز لتعلن وهي تتمايل وترقص على انغام «الدلوكة» الطبل وفي ايقاع حلو محبب:

.. ابو العريس دفع الماية، اخو العريس «هنيالو» هنيئا له دفع نصف الماية وزيد وعبيد إلى آخر القائمة التي يتوقف عدد افرادها وكمية حصيلتها من المال على مستوى الاسرة وامكانياتها وقد تنتهي بورصة الافراح هذه مع ساعات الفجر الاولى او الاخيرة. وفي كثير من الاحيان يخرج أهل المرحوم او الزوج السعيد بارباح متفاوتة تعينهم على مواجهة المستقبل.

## زعيم السوفييت والسودان!

.. في نوفمبر عام ١٩٦١ زار الزعيم السوفييتي ليونيد برجنيف السودان وعند عودته

بالعربات من رحلة إلى مشروع الجزيرة رأى خيمة تنصب عادة للمآتم ووقف الركب وترجل الزعيم السوفييتي وقدم عزاءه لآل الفقيد وجلس أرضاً كغيره وظل يراقب كل حركة وكل وجه ويحملق في صواني الأكل الصغيرة والكبيرة والشاي والقهوة التي كان يحضرها أهل الحي حتى تجمعت وأصبحت بالعشرات والعشرينات ثم جلسوا في حلقات صغيرة وأقبلوا على الطعام والضيف الكبير يراقب هذا الذي يجري أمامه بدهشة وحيرة وتطلع وانبهار.

.. استفسر الرئيس السوفييتي من مضيفه آنذاك الرئيس ابراهيم عبود قائد انقلاب نوفمبر ١٩٥٨ عن سر الخيمة وكل الذي يراه وبعد شرح مستفيض ومفصل للحياة السودانية والاشتراكية الشعبية الموروثة من مضيفه، خرج الزعيم السوفيتي عن وقاره وصرخ في هستيريا واضحة:

«اذن لماذا تهاجموننا.. ولماذا تتهموننا بالكفر والالحاد والشيوعية؟.. انتم شيوعيون اكثر منا!! اننا في الاتحاد السوفييتي نسعى جاهدين ومنذ بداية الثورة الاشتراكية لنصل الى ما وصلتم اليه!» وعند عودته إلى بلاده نقل إلى اللجنة المركزية والشعب السوفييتي في حديث مذاع ومتلفز انطباعاته عن السودان ولم ينس الزعيم السوفييتي ان يكرر حكاية السر وراء الخيمة المنصوبة في احدى قرى الجزيرة... في السودان الافريقي العربي!

## السودان والفكاهة!

.. قالوا فيما قالوا ان الشعب السوداني عبوس لا يضحك ولا يهضم النكتة او يقبل الدعابة وفي هذا القول بعض الحقيقة لا كلها فالشعب السوداني ليس عبوسا ولكنه قد يبالغ كثيرا في جده وحزمه حتى ان عبارة «أرجوا بالله لا تهزر معانا» لا تداعبنا مألوفة في الشارع السوداني ومع ذلك فانه نقص نقي صافي النية ويتبادل النكتة على طريقته الخاصة والمعروف عن الشعب السوداني إلى درجة تكاد تميزه انه عاطفي المزاج، بالغ الحساسية سريع الانفعال سريع الغضب سهل الهياج ويبدو ان مرد ذلك يرجع إلى حرارة الطقس فالشمس في السودان هي الاخرى هائجة ومنفعلة وغاضبة فهي اسطوانية عمودية مشتعلة محرقة تشوي الوجه من لحظات شروقها الاولى حتى غروبها وذلك لاكثر من سبعة اشهر في العام وتصل درجة الحرارة في معظم ساعات النهار واحيانا في الليل من ست واربعين إلى خمسين درجة مئوية فتغلي الرمال وتصفر الاشجار وتذوب شوارع الظلط «الاسفلت» وتهاجر الطيور وتهيج الحيوانات وتخلو الشوارع من الحياة ونتيجة لكل هذه العوامل الطبيعية اللئيمة فلعل الشعب السوداني هو الوحيد الذي يستعمل في نقاشه او خلافه جملة «ارجوك ما تفور دمنا» وفوران الدم

تعبير شائع وموروث ومتعارف عليه في الشارع السوداني ومن ثم فآثاره المباشرة تظهر بوضوح في سلوك الناس وفي تصرفاتهم اليومية.

.. أما فيما يختص بالتهمة الاخرى بان الشعب السوداني لا يحتمل النكتة ولا يهضم بعض الدعابات هضما تاما وكاملاً ويسيراً فقد جربنا هذا عمليا عندما ادخلت الصحافة السودانية في بداية الستينات رسوم الكاريكاتير لاول مرة ولكنها امام «فوران الدم» وحساسية الناس وثورتهم واحتاجاتهم ثم كثرة القضايا التي احيلت للنائب العام ضد الصحف تراجعنا وتوقفنا لبعض الوقت ثم عاودنا الكرة من جديد ولكن باسلوب يتمشى مع مزاج الناس ويمنع «فوران الدم» ومع ذلك لم نسلم منهم.

.. اذكر ان جريدة «الصحافة» نشرت في منتصف الستينات صورة كاريكاتورية للزعيم الديني السيد الهادي المهدي إمام الانصار وهو يقود طائرته الخاصة في رحلات للدعاية الانتخابية واسميناها رحلات الشتاء والصيف فما كان من اتباعه الا ان توافدوا على دار الصحافة محتجين ثائرين على صورة زعيمهم التي ظهرت بشكل قبيح «ومتعرج» لا يليق بمكانة زعيمهم ولولا قدرة الله ولطفه وتدخل الوسطاء وبعض الزعماء والسياسيين وأهل الخير لهدموا الدار بمن فيها ومن عليها... ليس هذا فحسب فرئيس الوزراء السوداني السابق صديقي العزيز الشاعر والاديب والقاضي محمد احمد محجوب ومعه وزير شئون رئاسته السيد عبدالحميد صالح ونائب رئيس مجلس الشعب في عهد النميري قد احالا جريدة الصحافة للنائب العام بتهمة انها نشرت رسما كاريكاتيريا غير لائق لرئيس الوزراء ووزيره وهما يركبان حماراً عجوزاً «مكعبلا» في اتجاه مضاد «معكوس» وذلك بسبب تضارب بعض التصريحات السياسية التي صدرت عنهما.

.. وليس ببعيد يوم ان ثار بعض المواطنين السودانيين على صحيفة الشرق الاوسط عندما نشرت رسمياً كاريكاتيريا اعتبروه ماساً بالكرامة السودانية ولكن تمكن الحافظان الناشران للجريدة من ان يصلها ماء باردا ومثلجاً على تلك الثورلاة في كلمتها القصيرة التي استطاعا فيها ان يخاطبها العواطف فهدأت الخواطر ورضى عنهما الثائرون كل الرضا وعادوا من جديد يطالعون الشرق الاوسط وكان شيئا لم يكن!

.. حتى اخانا الكريم الاستاد عبدالله الجفري لم يسلم هو الآخر من فوران دم «بعض قرائه يوم ان كتب رأيه عن الاديب السوداني الطيب صالح قبل سبعة اعوام ومع هذاوذاك فان الخصائص الحميدة الاخرى قد تكون شفيعة للشعب السوداني فتغفر له بعض ممارساته. على الاقل ارجو ذلك!

.. هذا هو السودان الذي خلق من نطفة نصفها دم عربي ونصفها الآخر دم زنجي والذي وضع تاريخيا وجغرافيا في قلب القارة الافريقية وتأرجح ابناؤه كثيرا في الاختيار بين الافريقية والعربية ومازالوا يتأرجحون منذ زمان بعيد دون ان تستقر موازينهم

فظلت الرياح تتلاعبه «بكفوفها» حتى وقفت من نفسها في الوسط تماما كموقع سودانها وظل أهله يقفون في الوسط ويؤمنون في حياتهم بالوسطاء والوسيط والاوسط لكن عندما تهب عليهم الرياح مهما كانت درجتها، فانهم يميلون وبسرعة شديدة الى اقصى اليمين او إلى اقصى اليسار وهي اللحظات الوحيدة التي يتركون فيها نقطة الوسط ولكنهم سرعان ما يرجعون اليها عندما تهدأ الرياح!

.. للشعوب عادة قيادة يلتفون حولها بعض الوقت لا كل الوقت وجزئياً يؤيدونها لا كليا وبالاجماع المطلق لكن الشعب السوداني باسره وبكل اتجاهاته وميوله قد بايع يوما الامام محمد احمد المهدي ودعوته مبايعة صافية صادقة خالصة باعتبارها امتدادا لجهاد الرسول ودعما لقرآنه وأحاديثه ومواصلة لرسالته السامية، وكلما جاءت مناسبة ذكر فيها الامام المهدي الا واحس السوداني بنوع من الاعزاز فيشعر بنفسه، ويحس وجوده في هذا العالم الضائع الحائر المضطرب رغم ان دعوة الامام المهدي التي مازالت تحملها القلوب والافئدة قد طولها الزمن بمائة عام كاملة. ومصداقا لكل هذا الذي اقوله فقد ووجهت مرة بحدث غريب ترك في نفسي اثراً مطبوعاً ظل يلاحقني كلما قرأت كلمة «اليابان» او استمعت اليها من المذياع في نشرات الاخبار او حتى في اعلانات تيوتا وتوشيبا مما جعلني بين الحيرة والدهشة ومرد هذا كله انني عندما قمت بزيارة لهذه اليابان في اكتوبر عام ١٩٦٨ بدعوة من وزارة الخارجية فوجئت يومها بوفد من جامعة طوكيو يزورني في الفندق ويطلب إليَّ ان اعد لجامعتهم محاضرة عن ثورة الامام المهدي، ولم تزل دهشتي وانا استفسر عن سر هذه الرغبة الا عندما ابلغني سفيرنا في طوكيو انذاك الاخ صلاح زروق بان كل الشعوب في الشرق الاقصى تعرف الامام المهدي تحبه وتعظمه وتعتبره القائد الوحيد في العالم الذي أخذ لهم بثأرهم عندما ذبح الجنرال غردون الذي كان قبل أعوام قليلة من ذهابه للسودان جلادا وقائدا للمذابح والمجازر الفظيعة التي ارتكبها عندما كان ضابطا في الصين.

وفعلا عندما زرت الصين في منتصف مايو تأكدت بنفسي من مشاعر الاعجاب والاحترام التي يكنها قادة وشعب الصين للامام محمد احمد المهدي وللثورة المهدية.

.. المفاجأة الكبرى الثانية التي كانت تنتظرني في اليوم الثاني لالقاء المحاضرة في جامعة طوكيو هي ان قرأت منها قد ظهرت في الصحف الرئيسية وفي الاذاعة والتلفزيون مما أدخل في نفسي كثيرا من البهجة والفرحة والفخار وانا أرقب العيون والنظرات في الشارع والفندق تلاحقني والاعناق التي كانت تتطاول في اعجاب لرؤية رجل من بلاد الثائر الامام المهدي وهنا فقط تمنيت ان يبعث المهدي للحياة ولو للحظات ليرى الذي اراه، ويسمع الذي اسمعه.

# الفصل الثالث



الامام الاكبر محمد احمد المهدي

- السودان ماذا ... وكيف سار ؟
- الثورة التي بدأت برجل واحد وانتهت بتحرير أمة .

.. تغير وجه السودان الحر المستقل وانزل علم المهدية ذو اللون الاسود تتوسطه «الحربة» ليرتفع مكانه العلمان البريطاني والمصري ودخل بذلك مرحلة جديدة ذاق فيها الامرين من التنكيل والحرمان وخنق الحريات ومحاربة الارزاق وبدأ يعايش ظروفه الجديدة بمرارة وألم وكان لابد له ان يتخذ مسارا جديداً يبدأ فيه من الألف ويضع فيه الاساس الذي سيبني عليه مستقبل ايامه ويبدأ به المسيرة الطويلة المجهولة. واخذ الاستعمار من جانبه يخطط ويضع كل الركائز التي سيبني عليها صرحه البغيض ليحمي مصالحه مستغلا الحالة النفسية المتدنية للشعب السوداني الذي لم يفق بعد من صدمة الغزو ومرارة الهزيمة.

.. بسقوط المهدية وبداية الحكم الثنائي ظهر على المسرح الديني اولا ثم السياسي ثانيا مولانا السيد علي الميرغني زعيم طائفة الختمية الذي يدين له بالولاء والطاعة معظم سكان شمال وشرق السودان فقد كان ذا حظوة كبيرة ومكانة مرموقة في مصر، اما آل المهدي والخليفة عبدالله التعايشي الحاكم الفعلي للسودان بعد رحيل الامام المهدي بعامين.. اما هؤلاء وعلى رأسهم السيد عبدالرحمن النجل الاكبر للامام المهدي فقد كانوا في مقدمة من واجهوا غضبة الاستعمار وشراسته فقد شردوا وعذبوا وطوردوا ولوحقوا لفترة طويلة من الزمن وكانت تحركات وتنقلات السيد عبدالرحمن المهدي بالذات محكومة ومحصورة ومحسوبة.

.. بدأت جماهير الانصار المدحورة المغلوب على أمرها تتجمع من جديد ولكن بحذر وحيطة وكانوا يلتقون جماعات لاداء الصلاة ثم بعدها يتلون «راتب المهدي» المأخوذ اساسا من القرآن وبعض الاحاديث النبوية وهم يتابعون من بعيد بحسرة واسى، وحرقة وألم نجل قائدهم السياسي وزعيمهم الروحي وهو شريد يهيم على وجهه في دنيا الفاقة والمذلة والضياع لكن احدا لم يستطع أن يحرك حتى لسانه وهو اضعف الايمان لان الاستعمار قد احكم قبضته وقويت شوكته واشتدت سواعده وركائزه.

.. ومع مرور الايام وانخفاض درجات الغليان والفتور الذي خيم على البلاد، بدأ العلماء الدينيون وعلى رأسهم مولانا فضيلة الشيخ ابو القاسم احمد هاشم شيخ المعهد



الملك ادوار السابع مع الزعماء السودانيين في لندن ١٩٣٩ بمناسبة حفلات التتويج إلى يمينه مولانا الميرغني فالشريف يوسف الهندي وإلى يسار الامام عبدالرحمن المهدي

العلمي «الازهر السوداني» ومولانا الشيخ البدوي من كبار الائمة... بدأوا شتى الوسائل والسبل لازالة حدة الخلاف والجفوة بين الحكام الانجليز وبين آل المهدي ممثلين في زعيمهم السيد عبدالرحمن وقد مارسوا كل الضغوط المتاحة والممكنة لتحقيق هذه الغاية فلم يكلوا ولم يملوا ولم يقطعوا يوما حبال الأمل فواصلوا مشوارهم الطويل ومسيرتهم الصعبة حتى كان لهم ما أرادوا فازالوا جسور الخلاف بين الانجليز وآل المهدي بشروط معينة وتمت المصالحة وسمح للسيد عبدالرحمن ان ينحصر في «الجزيرة ابا» وقد كانت عاصمة لوالده المهدي وبدأ يستثمر أرضها ولا يبرحها شبرا الا باذن السلطات، وما ان دقت طبول الفرح ودوى النفير بانباء الصلح في جماهير الانصار خاصة في مراكز ثقلهم وكثافتهم بمديريات كردفان ودارفور والجزيرة حتى سارعوا بالهجرة إلى «الجزيرة ابا» ليلحقوا بزعيمهم ويقفوا وراءه مؤيدين ومناصرين واقبلوا على الارض الجرداء يفلحونها ويزرعونها ويروونها بعرقهم دونما اجر او مقابل الا ابتغاء مرضاة الله ورسوله والامام المهدي وقد عرف عن جماهير الانصار ولاؤهم الشديد، وحبهم الاكيد وطاعتهم العمياء للامام ـ ولن أبالغ والشواهد على ذلك كثيرة وقوية وثابتة ـ لن ابالغ ان قلت ان الانصاري لن يتردد في قتل ابيه او اخيه او ان يبقر احشائه او ان يقفز من برَج ايفيل او يدفع بنفسه في شلالات نياجارا ان كان في ذلك ما يرضي الامام او يريحه ويسره.

.. وقد شهد السودان في مناسبات سياسية مختلفة سنتعرض لبعضها فيما بعد ان حشد الامام انصاره في العاصمة للضغط على خصومه السياسيين عندما تدلهم الخطوب

مستميتين فيما يؤمنون به وكان أهل العاصمة وجلهم من المستنيرين والمثقفين يعلمون كما يعلم السودانيون في كل بقعة ومكان ان الانصاري عندما يستدعيه الامام لمثل هذه الاحداث كان يطلق زوجته واولاده ويضع على كتفه «الكفن» ثم يهاجر إلى الخرطوم انتظارا للجهاد مهما كان شاقا ومريراً!

.. أصبح الامام عبدالرحمن المهدي بعدما اقبل انصاره على الارض من أثرى أثرياء السودان وعندما فك عنه القيد وأزيل الحصار عاد إلى ام درمان عاصمة والده الوطنية وبنى له ولآله مساكن تحيط بالقبة التي دفن فيها والده. وفي قلب الخرطوم شيد له قصرا منيفا وأشرف بنفسه على اقامة حديقة غناء كان أجمل ما فيها أرضها المنبسطة التي تبلغ حوالي الفدانين والنصف «عشرة الاف متر مربع».

.. صار قصر الامام عبدالرحمن في الخرطوم قبلة لانصاره ومريديه ومؤيديه ومع مرور الزمن اسس حزب الامة وكان في طليعته زعماء العشائر ونظار القبائل وعدد من كبار رجالات الدولة وأعضاء الاسر المرموقة والعريقة في السودان. وتحسنت مع الايام علاقة الامام بالانجليز ونمت وتطورت وترعرعت حتى وصلت حدا اتهمه فيه اعداؤه التقليديين بالتعاون السافر والتبعية المطلقة للاستعمار البريطاني ومضوا يشيرون بأصابعهم وأيديهم في كل مناسبة وندوة وخطابة مشككين في هذه العلاقة واسرارها ودوافعها واسبابها ومسبباتها ومع مرور الزمن واشتداد هذه الحملات التصقت التهمة تماما خاصة بحزب الامة المهدوي. الذي جعل حملات الشكوك والمناورات حقيقة واضحة هي مشاركة حزب الامة المهدوي في جميع المؤسسات التي خلقها الحكم الانجليزي كالمجلس الاستشاري لشمال السودان والجمعية التشريعية التي قاطعها الوحدويون وشريحة كبيرة من المثقفين والطلبة والعمال تساندهم الطائفة الميرغنية وعلى رأسها راعيها مولانا السيد علي الميرغني وقد وصلت هذه المقاطعة حد التظاهرات والاصطدامات بقوات الأمن وراح فيها عدد من الضحايا.

.. كانت للامام عبدالرحمن المهدي صحيفتان يوميتان الاولى صحيفة «الأمة» وهي الناطقة باسم حزبه وكان شعارها «السودان للسودانيين» أما الصحيفة الثانية فكانت تسمى «النيل» وهي الناطقة بلسانه ولسان طائفته وكان شعارها «لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب، ديننا الاسلام ووطننا السودان»!!

.. السيد الامام عبدالرحمن كان ملتحياً فارع الطول ممتلىء الجسم قوي البنية أنيقا في ملبسه ومظهره ومسكنه حلواً في حديثه ومعشره رفيع الخلق، بعيد النظر، ثاقب الفكر، وكانت يده ممدودة مبسوطة لكل عمل خير. لم يطرق بابه صاحب حاجة فرده خائباً او حاسرا. كان قصره المنيف في الخرطوم دائب الحركة لا يهدأ ولا ينطفىء ولا يفرغ الا ليمتلىء ويمتلىء وما زار السودان ضيف او وفد الا وكان المهدي السباق لاستضافته والترحيب به. كان بحق وبلا خلاف ومنازع وجه السودان المشرق ورجله الاول.

.. كان للسيد الامام عبدالرحمن اربع زوجات وعدد كبير من البنين والبنات برز منهم في مسرح الأحداث السيد الصديق الذي تولى الخلافة والامامة من بعده في ظروف صعبة ومريرة ابان الحكم العسكري في نوفمبر١٩٥٨ وقد برزت ملامح السيد الصديق السياسية في اعظم صورها عندما تصدى للحكم العسكري بمواقفه الشرسة لدرجة وصلت حد الصدام المسلح مما جعل كل قوى المعارضة من النقابات والطلاب والاحزاب تبايعه وتقف تحت رايته حتى الحزب الشيوعي السوداني العدو الاول للطائفية والقبلية لم يجد مفرا من مبايعته والتسليم بقيادته .

.. مات الامام الصديق فجأة في ٢ اكتوبر ١٩٦١ بالذبحة الصدرية «النوفمبرية» في وقت كانت الحاجة اليه ماسة اذ بسبب مواقفه العنيدة ضد الحكم العسكري والتأييد المطلق له كانت البلاد على اعتاب الخلاص ولكنه مات ومات معه كل رجاء وامل ولكن إلى حين .

.. بايع الانصار من بعده اخاه الامام الهادي الذي شهدت خلافته اكبر واخطر انقسام داخل الاسرة والطائفة معا لان «البيعة» تمت على عجل وبلا تمهيد ولا توقع ولا اعداد نسبة لوفاة الامام الصديق المفاجئة وكان لهذا الانقسام الخطير آثاره القريبة والبعيدة على السودان كله وقد كان نقطة تحول بارزة في تاريخ السودان ومجريات الأحداث مما يجعلنا نتعرض له بالتفصيل في مقام آخر حسب تسلسل الاحداث ذلك لان طائفة الانصار كانت تشكل الركيزة الاولى والاساسية لدعم الاستقلال وسلامة البلاد .

.. كانت طائفة الانصار تتألف من تشكيلات عسكرية منظمة .. وكانت تدريباتها وتقسيماتها إلى مجموعات صغيرة ومتوسطة وكبيرة تشبه كثيرا التدريبات العسكرية مما جعلها قوة لا يستهان بها ولا يمكن تجاهلها!

.. يبلغ تعداد الانصار المنتمين بالبطاقات حسب احصائيات مراكزهم في ١٩٥٥ حوالي الثلاثة ملايين في كل مناطق السودان وهم من الرعاة والزراع الذي يشكلون طبقة ما دون الوسط خاصة في التعليم والثقافة . وقد كان الامام عبدالرحمن يحرص بنفسه على ادارة شئون الانصار خاصة في التجمعات والمناسبات الدينية الكبيرة كمولد النبي وذكرى الامام المهدي الكبير و٢٧ رجب الذي تتم فيه مئات الزيجات . كان الامام عبدالرحمن حريصا وحذرا تجاه طائفته بدرجة لم يسمح فيها لاي سياسي في حزبه مهما كبر مقامه وقوي نفوذه ان يخترق السور الحديدي الذي ضربه حول طائفته او ان يتعرف عليها وعلى اسرار تنظيماتها لا من قريب ولا من بعيد اللهم الا ابنه السيد الصديق باعتباره خليفته في «الامامة».

.. كانت طائفة الانصار هي الجيش الذي يعتمد عليه الامام اعتمادا كليا وهي الجسر المنيع الذي سيقوده طال الزمن أم قصر إلى عرش السودان .

.. لقد عايشت هذا الذي اقوله معايشة تامة وقريبة وحتى ادعم ما ذهبت اليه اروي

قصة خرافية حضرت احداثها وشاهدت فصولها وانا في حضرة الامام.
.. كان في زيارته مجموعة من الانصار الرعاة الذين بدأوا رحلة الهجرة إلى ام درمان من اقاصي الغرب فقطعوها سيرا على الاقدام وباللواري ثم بالقطار حتى يسلموا زكاتهم وزكاة اهليهم لمكتب شئون الانصار بالخرطوم باعتباره الراعي لشئونهم الدينية فيقوم هو بتوزيعها على الفقراء نيابة عنهم.
.. شاهدت هؤلاء الانصار الزائرين القادمين من اقاصي السودان عندما اقتربوا إلى حيث جلس الامام المهدي وهم يصرخون ويولولون فرحين بلقاء امامهم وقائدهم وكانوا يزحفون زحفا نحو الامام ولما بلغت المسافة بينهم وبينه حوالي العشرة امتار توقفوا عن السعي مأخوذين مشدوهين من شدة الانفعال والفرح والامام عبدالرحمن يغطي نصف وجهه «بشال» ملفحة صغيرة وهو يردد عباراته المعروفة الشهيرة:
.. «الانصار طيبين.. الأهل طيبين» وجلس الانصار «القرفصاء» رافعين إكفهم للسماء وابصارهم مشدودة إلى وجهه طالبين «الفاتحة والبركة»! انتهت مراسيم اللقاء الفريد وصرخ احد الانصار وهو شيخ في عقده السادس طالبا من الامام ان يعطيه «ملفحته» للتبريك وما ان فعل ذلك حتى انقض عليها بقية الانصار وعددهم يزيد على العشرة فقطعوها ومزقوها اربا اربا ثم تقاسموا اجزاءها الصغيرة ليعودوا بها إلى اهليهم فيتفاخروا ويتبركوا بها.
.. لقد اخذت بهذا الذي تراه عيناي مأخذا كبيراً وادركت مبلغ الحب والطاعة والتبعية التي تكنها جماهير الانصار لامامهم وقائدهم ولكن الذي شدني اكثر من ذلك ان الامام بعد كل الذي جرى قال لي عندما لاحظ حيرتي وانبهاري وقد علت وجهه ابتسامة الرضا والفرح:
«الانصار ديل يا ابني اهم عندي واقرب إلى قلبي من كل سياسي مهما بلغ شأنه».
.. الشيء الذي فاتني ان اذكره وانا اسبح في بحور هذه الذكريات الطويلة القديمة ان «الخلافة والامامة» كانت تتم على طريقة الملوك والاباطرة.. مات الملك.. عاش الملك!
.. بعد هذا السرد التاريخي المستفيض الذي كان لابد منه حتى تكتمل صورة الاحداث وتصبح معالمها واضحة، نعود إلى الجانب الآخر المضاد لنكمل صورة الطائفية وآثارها ومؤثراتها في مجرى الحياة في السودان فنتحدث عن طائفة «الختمية» التي يرعاها مولانا السيد علي الميرغني بجانب رعايته للحركة الوحدوية.
.. كان مولانا الميرغني قصيرا نحيل الجسد عرف بذكائه ودهائه الخارقين وسعة ادراكه واطلاعه. كان قليل الكلام، قليل الظهور قليل الحركة الا انه كان كبير الاثر واسع الانتشار وبالرغم من انه كان يحاول دائما الابتعاد عن اضواء السياسة الا انه كان غارقا فيها حتى اذنيه فقد وضع بصمات ظاهرة بارزة في كل حديث ومناسبة وجمع بين يديه كل الخيوط الرئيسية للحركة السياسية في السودان وظلت أصابعه تحرك هذه

الخيوط وتسيطر على كل اطرافها سيطرة كاملة لم يتمكن معها خيط واحد من ان يلتوي او يختفي او يضيع وكانت علاقاته مع مصر قوية وعميقة. وكلمته عند كل الحكومات المصرية نافذة وفاعلة ومؤثرة. كانت لقاءاته وتحركاته المستترة منها والظاهرة والتي كثيرا ما تجري في سرية وحذر تسبب صداعا مستديما ومزمنا للادارة البريطانية في السودان. كانت له صحيفة واحدة اسمها «صوت السودان» هي الناطقة باسمه واسم طائفته وقد توالى على تحريرها نخبة مميزة من «الدكاترة» خريجي الجامعات المصرية فكانت صحيفة ممتازة حملت لواء المعارضة واقلقت مضاجع الانجليز وكان مولانا الميرغني رغم مشاغله الكثيرة يتابع ما ينشر في صحيفته بل وكثيرا ما يوجه القائمين عليها ويختار لهم موضوعات الساعة وافتتاحية العدد.

.. كان مولانا الميرغني مولعا بحركات التحرر في جميع انحاء العالم متابعا للانتفاضات الاسلامية. اذكر انه استدعاني عام ١٩٦٠ عندما كنت متجها لامريكا لحضور الجلسة الافتتاحية للامم المتحدة وبدأ يتحدث معي عن حركة الزنوج والصحوة الاسلامية التي اخذت تظهر تباشيرها في الولايات المتحدة وتناقشنا في عديد من القضايا المطروحة في الامم المتحدة آنذاك خاصة عن الجلسة الافتتاحية المرتقبة التي سيطرت فيها احداث افريقيا بعد مقتل لوممبا واحداث الكنغو الشهيرة وانتفاضات عدد من الدول الافريقية.

وفي ختام لقائي بمولانا الميرغني طلب إليَّ أن احضر له أي مخطوطات عن حركة الزنوج: مسارها، آثارها ومستقبلها حتى ان مولانا الميرغني تنبأ في ختام حديثه بي بأن الزحف الزنجي سيصل قمته المؤثرة في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ ولا يستبعد في أو بعد هذا التاريخ بقليل ان يقتحم البيت الأبيض سيد أسود!! ضحكت وضحك وودعني متمنياً لي كل التوفيق.

.. تحدث مولانا الميرغني معي طويلا عن الزعيم الزنجي مارتن لوثر كنج زعيم حركة الزنوج والذي كان آنذاك ملءْ السمع والبصر ووصفه بانه قريب للاسلام اكثر منه للمسيحية وقال لي مولانا الميرغني انه قرأ فيما قرأ دعوة للزعيم الزنجي للفتيات الزنجيات ان يلدن باية طريقة او وسيلة يعني دعوة صريحة «للزنا» ليسهمن في زيادة عدد الزنوج حتى لا يعودوا اقلية فاذا عرف الزعيم الزنجي ان الذي يواجهه الان واهله هو نفس ما واجه الاسلام عند ظهوره وفي فجره وهو مشكلة الاقليات لذلك نزلت الاية الكريمة ﴿وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع... الخ الآية﴾ حتى يتزايد ويتضاعف عدد المسلمين وتشتد شوكتهم ويبدو ان هذا كان فحوى الرسالة التي اعطاني اياها للزعيم كنج وقد نفذت رغبته فور وصولي إلى واشنطن فاتصلت بمكتب الزعيم الراحل وقابلته بعد ثلاثة ايام يبدو انه تمكن خلالها من جمع المعلومات والخلفيات

عن مولانا الميرغني وقد ظهر واضحا عند لقائي بالزعيم الزنجي انه كان ملما بشخصية الميرغني وابدى إعجابه الشديد بتحليل الاسلام الزواج من اربع نساء دفعة واحدة ثم تكرار العملية باربع أخر عند الطلاق ووصف مارتن لوثر رسالة الميرغني وما جاء فيها من تعاليم القرآن انها عملية وجيدة وتستحق الدراسة والمتابعة واكد لي الزعيم الزنجي وهو يسلمني رسالة للميرغني ردا على رسالته انه اذا ما قام بزيارة افريقيا فان اول بلد ستطئه قدماه هو السودان واول يد سيصافحها هي يد مولانا الميرغني.

وهكذا فان هموم مولانا الميرغني لم تكن قاصرة على السودان والعالم العربي وحركات التحرر الافريقية وانما امتدت إلى الولايات المتحدة في رسالته الصريحة التي دعا فيها الزعيم مارثن لوثر كنج واهله الزنوج إلى دخول الاسلام باعتباره دين السماحة والنور والحق والعدالة والطهارة والنقاء والصفاء.

وبهذه المناسبة اقول بان مولانا الميرغني طيب الله ثراه كان مثقفا ومطلعا وباحثا وهو يملك مكتبة ثرة وضخمة ومتنوعة قل ان يكون لها مثيل وفوق كل ذلك فانه يقرأ اللغة الانجليزية بفهم وتمعن وادراك وتعمق الشيء الذي يجهله اقرب الاقربين اليه.

.. لم يكن مولانا الميرغني ثريا كنده الامام عبدالرحمن المهدي وكان كذلك يعتمد اساسا على اراضيه الزراعية الواسعة الشاسعة في شمال وشرق السودان. وكان اتباعه ومريدوه يقبلون ايضا على فلاحة وزراعة اراضيه بلا مقابل ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومولانا الميرغني يمتلك الميرغني قصرا منيفا في الاسكندرية وآخر في قلب الخرطوم ايضا اما رئاسته ومسكنه المفضل الدائم فقد كان في الخرطوم بحري.

.. ظل مولانا الميرغني يرعى الحركة السياسية الوحدوية وحزب الوطني الاتحادي الذي يرأسه السيد اسماعيل الازهري اول رئيس وزراء للسودان المستقل ورغم ان السيد الازهري ورفاقه واتباعه العديدين من جمهرة المثقفين والعمال والطلبة لم يكونوا يوما طائفيين الا انهم اضطروا ان يركبوا الصعب لمواكبة الظروف السياسية المتأزمة فانضموا مكرهين تحت راية زعيم طائفة الختمية حتى يتمكنوا من مواجهة خصمهم المشترك صاحب المال والقوة والجاه والنفوذ الامام عبدالرحمن المهدي.

لم تكن اسرة الميرغني كبيرة لانه لم يكن مزواجا وقد ترك عند وفاته عام ١٩٦٧ ابنين تولى احدهما خلافته وهو السيد محمد عثمان أما ابنه الآخر السيد احمد فقد انصرف إلى دنيا الاعمال حتى الآن..

.. نعود معا الى الماضي البعيد.. إلى اول ثورة سودانية عملاقة بدأت برجل واحد وانتهت بتحرير أمة كاملة، نعود إلى عام ١٨٨٣ عندما كان السودان يئن تحت وطأة الاستعمار المثلث الانجليزي التركي المصري فذاق من الوان العذاب والفساد والتردي ما جعل الشاب الشيخ محمد احمد المهدي الذي كان معلما للدين - تماما كعمر المختار - مع الفارق الزمني البعيد يهب لمحاربته ومقاومته فكان ان اشهر دعوته التي قامت اساسا

على سنة الله ورسوله وسرعان ما التف حوله الشباب والشيوخ والنساء وزعماء القبائل والعشائر ثم ما لبثت دعوته ان اشتعلت كالنار في الهشيم، فازداد اتباعه وبعث برسله في السر والعلانية إلى مختلف بقاع السودان حتى بايعه الشعب كله بكل اتجاهاته ثم ما لبث ان زحف إلى الخرطوم وطوقها تماما وطلب من غوردون باشا اشهار اسلامه ورفع الراية!

.. لم تقاوم الخرطوم كثيرا ولم تصمد خاصة عندما طوقتها جيوش المهدية من كل



الخليفة عبدالله العقايشي يتقدم جنده في فتح الخرطوم

جانب. كان حاكم السودان العام في ذلك الوقت هو الجنرال البريطاني غوردون باشا فماطل رسل المهدي في التسليم ورفع الراية البيضاء باعلان اسلامه آملا في وصول الامدادات التي كانت قد ارسلت اليه بالفعل من مصر. وبعد ثلاثة ايام من التطويق المحكم انهارت قوى الاستعمار فوجهت جيوش المهدية ضربتها القاصمة عندما هجمت في شراسة واحتلت الخرطوم.

.. في غمرة نشوة الظفر والانتصار، هجمت مجموعة من الانصار على قصر الحاكم العام «قصر الشعب الآن» وذبحت الجنرال غوردون من الاذن للاذن وحملت رأسه في منديل وعندما وضعته امام المهدي ثار واستنكر هذا الذي يراه.. ثار بعنف لانه كان في دخيله نفسه قد قرر ان يفتدي الثائر المصري احمد عرابي الا ان الواقعة قد وقعت فلم يكن امام الامام مفر وهو يتطلع إلى رأس غوردون باشا الذي كان يقطر دما الا ان يتقبلها كحقيقة ثابتة وأمر نافذ وهكذا ارادت مشيئة الله ولا راد لمشيئته.

.. بعد عامين من تحرير السودان وشعبه، مات صاحب الرسالة.. مات المجاهد الاول الامام محمد احمد المهدي فجاء من بعده الخليفة عبدالله التعايشي الذي حكم من بعده السودان لثلاث عشرة سنة - كانت معظمها سنوات عجاف شهد الشعب خلالها كثيرا من الوان الضيق والحرمان كما ارهق كثيرا بالضرائب مما جعله يتململ في غير ما توقف لكنه لم يستطع ان يفعل اكثر من مجرد «الململة» خوفا من سياط الخليفة وبطشه وانقلبت الثورة التي فجرها المهدي ضد الحكم التركي ليخلص الشعب السوداني من قبضته، على الشعب نفسه وبدأت في العد التنازلي حتى ضعفت وانهارت امام الجيوش الانجليزية المصرية تحت قيادة اللورد كتشنر عام ١٨٩٨ بعد واقعة كرري الشهيرة التي استبسل فيها السودانيون وضربوا فيها اروع مثل في الجهاد والاستشهاد غير ان المعركة رغم شراستها لم تكن متكافئة من ناحية السلاح والعتاد فانتصرت قوى البغي والشر على المجاهدين والمستشهدين وقتل قائدهم الخليفة عبدالله التعايشي وبذلك اعلنت النهاية واسدل الستار على الحكم المهدوي!! وبالمناسبة فان تمثالي اللورد كتشنر والجنرال غوردون ظلا منصوبين في قلب الخرطوم الاول يمتطي حصانا والثاني يركب جملا حتى ازيحا بعد الاستقلال وارسلا إلى انجلترا حيث دخلا متحف التاريخ.

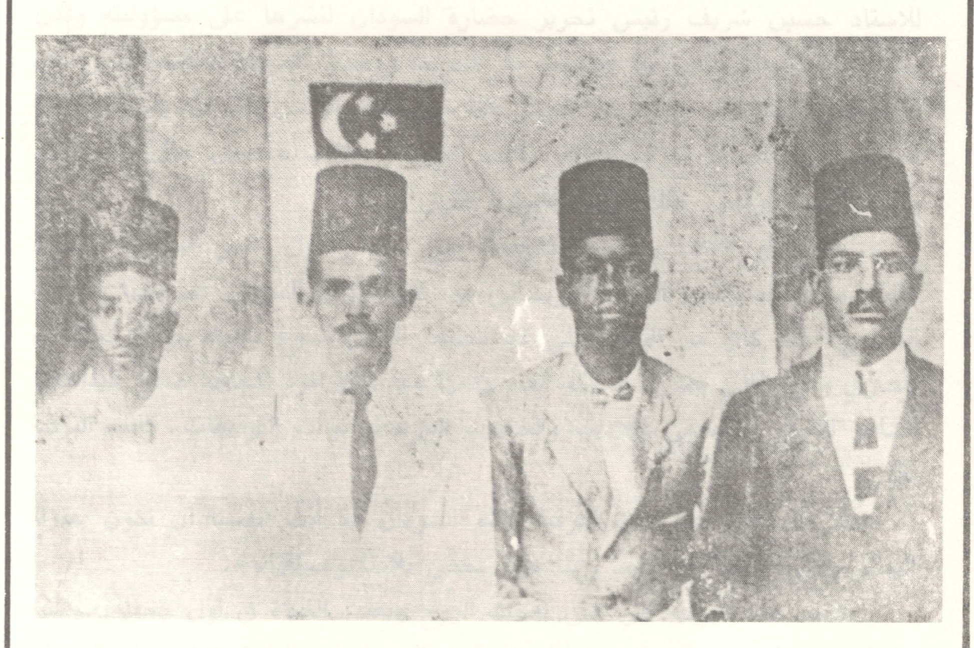
.. كانت اشهر موقعة اصطدمت فيها الجيوش الغازية بقوات المهدي هي موقعة جبل كرري الذي يقع شمال ام درمان وبالرغم من ان الجيوش الغازية كانت تحصد الانصار ببنادقها الحديثة فقد كانت صور الصمود والبطولات والتضحية لجيوش الانصار وهم بحرابهم وسيوفهم واسلحتهم البدائية رائعة ومثيرة حسب ما جاء في كتاب ونستون تشرشل «حرب النيل» والذي كان يرافق قوات كتشنر والذي اصبح فيما بعد رئيسا لحزب المحافظين ورئيسا للوزراء.

.. انفرد السودان بعد هذا الغزو بحكم لم يعرف له من قبل سابقة او مثيل هو الحكم «الثنائي» ورفع في سمائه العلمان البريطاني والمصري وسمي بعد ذلك «بالسودان الانجليزي المصري»! الى ان قامت ثورة ١٨٩٤ على اثر مصرع حاكم السودان العام البريطاني في القاهرة فطرد الجيش المصري من السودان وانفردت بريطانيا انفرادا كاملا وكليا بحكم السودان رغم ان العلم المصري ظل يرفوف حتى اعلان الاستقلال في اول يناير عام ١٩٥٦ او الفاتح من يناير كما يقول اهلونا الليبيون. وبخروج الجيش المصري دخل السودان مرحلة جديدة من مراحل الكبت والعنف فراح الاستعمار البغيض يقتل ويسجن ويشرد ويطارد وينكل بالاحرار في كل ركن ومكان ولكنهم صمدوا وثابروا وصابروا وكان نور السماء فوقهم وفي جنوبهم، والله من ورائهم محيط!

# ﴿ الفصل الرابع ﴾

- اسرار مطوية وراء ثورة ١٩٢٤
- انسحب الجيش المصري وبدأت الاعدامات .
- لماذا قالوا في المحكمة :

عبدالله خليل ليس منا لانه جاسوسكم



ثوار ١٩٢٤ من اليمين ثابت عبدالرحمن ـ اعدام . عبدالفضيل الماظ ـ اعدام . صالح عبدالقادر ـ هرب إلى مصر . محمد سليمان ـ اعدام .

# ثورة ١٩٢٤ الدامية

.. نعود قليلا إلى الوراء لنقف على اعتاب عام ١٩٢٤ الذي شهد اولى الانتفاضات الثورية المسلحة منذ زوال المهدية .. هذه الثورة لم تقم من فراغ وانما مهد لها الزعيم الخالد علي عبد اللطيف الذي كان آنذاك ملازما في الجيش السوداني وعرف بين زملائه واخوانه برقة حواسه وحبه للوطن وعشقه للكفاح مع صلابته وثورته على الاوضاع المجحفة القائمة آنذاك.

كتب الثائر علي عبداللطيف أول عريضة سياسية منفردا وباجتهاده الشخصي سلمها للاستاذ حسين شريف رئيس تحرير حضارة السودان لنشرها على مسؤوليته ولكن سلطات المخابرات علمت بها فداهمت دار الجريدة ووجدت العريضة فالقت القبض على الثائر علي عبداللطيف وطرد من الجيش كما حكم عليه بالسجن لمدة عام بسبب عريضة لم تنشر ومطالب لم تعرف للعامة. كانت العريضة تطالب بتحسين حال السودانيين والاعتراف بحقوقهم.. تلك كانت الشرارة الاولى!

.. جاء عام ١٩٢٢ وجرت المفاوضات بين سعد زغلول رئيس الحكومة المصرية والسير ماكدونالد رئيس الوزراء البريطاني عن الاوضاع في السودان كما بحثا مستقبله السياسي، فما كان من البطل علي عبداللطيف الا ان سارع باعداد برقية للرئيسين المصري والبريطاني بصورة للحاكم العام وقعها معه هذه المرة المجاهد صالح عبدالقادر الشاعر المغوار والصحفي والاديب والخطيب البارع ثم توالت التوقيعات. كانت البرقية تقول:

«نحن الموقعون على هذه البرقية باسم السودان قد أبت انفسنا ان نكون بمنزلة البهائم يقضى عليها ولا يؤخذ رأينا فيما يخص بلادنا ومستقبلنا».

كانت هذه البرقية هي التي نفخت الروح وبعثت الحياة في أول جمعية سياسية علنية «جمعية اللواء الابيض» تطالب بحقوق السودانيين بالطرق المشروعة والوسائل السلمية والا تلجأ للعنف الا عند الضرورة القصوى وعقد مؤسسوها الستة اول اجتماع لهم يوم ١٥ مايو ١٩٢٤ فاختير المجاهد علي عبداللطيف رئيسا لها وصالح عبدالقادر وكيلا ومولانا زكي عبدالسيد قاضي شرعي مدينة «سنار» سكرتيرا وعضوية كل من

الوكيل حسن صالح المطبعجي وحسين محمد شريف وعبيد حاج الأمين ووضعت أول خطة لجذب الاعضاء فكان ان رشح كل من الحاضرين خمسة اصدقاء وهكذا وبعد ايام قليلة كان اعضاؤها يزيدون على الخمسين شخصاً من المدنيين والعسكريين ولكن ما ان مضى على تكوين الجمعية ستة اشهر بالتمام والكمال حتى فجرت الثورة الخالدة.

.. كان من أبرز المدنيين الذين سارعوا بالانضمام إلى جمعية اللواء الابيض الامين هاساي وعبدالفتاح المغربي وحاج الشيخ عمر دفع الله ومحمد المهدي الخليفة عبدالله التعايشي والشيخ زكي عبد السيد قاضي شرعي «سنار» ومحمد علي وسر الختم وغيرهم وغيرهم. أما من العسكريين فكان ابرزهم وأول من انضم إلى الجمعية اليوزباشي عبدالله خليل الذي عرف بالوطنية والصرامة والجدية فاوكل اليه أمر الاتصال بالضباط في سرية تامة فكان أول صيد له هو الملازم عبدالفضيل الماظ قائد ثورة ١٩٢٤ فيما بعد والذي ترك له حرية اختيار زملائه.

.. اشتد نشاط جمعية اللواء الابيض في السر والعلن وبدأ الغليان والتظاهر وبدأت حملة الاعتقالات فقضي على عدد من أعضائها بالسجن وعلى رأسهم علي عبداللطيف الذي بلغ مجموع حصيلته من السجن حوالي السبع سنوات بتهم الاثارة والحض على كراهية الحكم. ومن الغريب انه عندما قامت ثورة ١٩٢٤ كان علي عبداللطيف داخل السجن اما صالح عبدالقادر فقد حكم عليه بسنتين سجنا وبعد خروجه باسبوع أحس بالمرارة لفراق زملائه فبعث ببرقية للحاكم العام يطالبه فيها بإطلاق سراحهم فقبض عليه في نفس اليوم وحكم عليه بسنة سجنا اخرى على ارسال البرقية ولرفضه التوقيع بالتعهد على نفسه باعتزال السياسة، والغريب المضحك انه عندما اوشك على اتمام فترة السجن لرفضه توقيع هذا التعهد قدم مرة ثالثة لقاضي الجنايات الذي طلب اليه ان يوقع على التعهد وعندما رفض مرة ثانية حكم عليه بالسجن ثمانية اشهر تبدأ عند نهاية العام الاول!

.. كانت السجون لا تفرغ الا لتمتلىء من جديد بالمجاهدين والاحرار واستمرت درجة الغليان واستمرت معها المحاكمات البربرية والتحقيقات المستمرة التي اصبحت شغل الحكومة الشاغل ولم تخل هذه التحقيقات رغم الموقف المتأزم من حكايات ونوادر واتهامات ظلت عالقة باصحابها حتى فارقوا الحياة كما ظلت الاجيال تتناقلها وتحفظها دون ان تعرف حقيقة ما وراءها.

.. من القصص الغريبة ان جمعية اللواء الابيض عندما انضم اليها اليوزباشي عبدالله خليل اعتبرته مكسبا كبيرا فاسندت اليه مهمة امانة الصندوق وجمع التبرعات لرعاية اسر المعتقلين والمسجونين وطلبوا اليه الا يحضر الاجتماعات مطلقا خوفا عليه من الطرد والمحاكمة لانه ضابط كبير، لذلك فقد اتفقت شهادات كل المعتقلين عند سؤالهم عن المشتركين معهم من المعسكرين وعلى رأسهم اليوزباشي عبدالله خليل بانه لا علاقة لهم

به وقد بلغ بعض المقبوض عليهم ومنهم صالح عبدالقادر في اقوالهم وهم تحت الجلد المبرح بالسياط والتعذيب المتواصل فقالوا: اننا لا يمكن ولن نتشرف بانتماء عبدالله خليل لجمعيتنا الوطنية لانه جاسوسكم وعميلكم!! كان هذا في محاكمة مفتوحة علنية مما جعل الحاضرين يصبون لعناتهم على عبدالله خليل «الضحية» المسكين.

.. المصيبة ان هذه التهمة التي كان يبررها خوف المعتقلين على عبدالله خليل لانه كان يرعى اسرهم قد التصقت به واستغلها خصومه حتى مات في نهاية ١٩٧٠.

.. ومن الطرائف الاخرى ان جمعية اللواء الابيض أرادت ان تضم اليها كبار المدرسين فكتبت للاستاذ عبدالفتاح المغربي ـ عضو مجلس السيادة فيما بعد ـ والذي كان مدرسا كبيرا بعطبرة ان ينضم اليها وان يستميل ويقنع كذلك زميله الاستاذ اسماعيل الازهري استاذ الرياضيات وبعد ايام ـ ويبدو ان الازهري كان حذرا وحصيفا ولاحظ شيئا ما يحوم حوله ـ قال لزميله المغربي:

«ارجو الا تفاتحني في هذا الامر».

.. مضت درجات الغليان ترتفع، والتظاهرات تخرج في كل مدينة وكان الشعور العام السائد آنذاك هو التعاطف مع مصر حتى يستعينوا بها على اخراج الانجليز فكان الهتاف بحياة مصر وسقوط الانجليز شعارا مستديما في كل التظاهرات إلى ان هدأ سيلها وهديرها عندما اعلن عن الانتخابات لاول برلمان مصري، وبعثت جمعية اللواء الابيض بوفد سري إلى مصر يتكون من اليوزباشي زين العابدين عبدالتام والسيد محمد الخليفة عبدالله التعايشي وحملاهما رسالة خاصة لسعد زغلول وكبار الوفديين ولكن السلطات القت عليهما القبض في وادي حلفا وهما متنكران في زي «مرمطونات» زي الطباخين والسفرجية» وأعيدا الى الخرطوم مكبلين بالسلاسل والقيود ليودعا السجن ويقدما للمحاكمة!

.. كان يتنافس على انتخابات البرلمان الاولى سعد زغلول وحافظ رمضان الذي زار السودان آنذاك لكسب ثقة المصريين المقيمين بالسودان ونيل أصواتهم وقد نزل عند شقيقه ابراهيم رمضان القمندان المصري للسواري في شندي، وما ان سمعت به جمعية اللواء الأبيض في الخرطوم حتى أوفدت له صالح عبدالقادر لتحيته والترحيب بمقدمه نيابة عن الجمعية وكذلك لتشرح أهدافها وكانت خيبة المجاهد صالح عبدالقادر شديدة، عندما استقبله حافظ رمضان «بالبيجاما الحرير» وهو جالس منشغل عنه «بقص اظافره» وعاد إلى الخرطوم وأبلغ اعضاء الجمعية.. وازدادت خيبة أمل الجميع عندما استمعوا اليه في النادي المصري بالخرطوم الذي امتلأت جنباته بالمئات العديدة من المصريين والسودانيين وعلى رأسهم علي عبداللطيف نفسه وبقية القادة زعماء الجمعية.. وازدادت خيبة املهم اجمعين عندما استهل حافظ رمضان خطابه قائلاً:

«يسرني ان اجدكم متآزرين متحابين وانتم في بلاد الغربة!!» فانسحب في الحال

جميع السودانيين الذين كانوا متعلقين ومعجبين بمصر والمصريين لانهم كانوا يرون فيهم الأمل والرجاء والخلاص والمستقبل وكانوا يرون فيهم الاشقاء لا الغرباء!

.. ثم جاء السودان بعد ذلك الدكتور عبدالرحمن عزام «أول أمين عام للجامعة العربية فيما بعد» جاء ليدعو لحزب الوفد كرد فعل طبيعي على زيارة حافظ رمضان ومرة اخرى أوفدت الجمعية صالح عبدالقادر لانه اديب وشاعر ومتحدث بارع وساخر طويل القلم وطويل اللسان معا... أوفدته لمقابلة عزام وذهب اليه في الفندق الكبير مرة ومرتين وثلاثاً وكان سكرتيره يقول له «البيه راح للحاكم العام... البيه عند عامر باشا.. البيه بيشرب شاي مع قاضي القضاة.. البيه عند ال القباني» فأحس صالح بان عزام الوفدي الكبير والداعية لسعد زغلول في السودان يتهرب منه ولا يريد رؤيته.

.. وفي اليوم الثالث أفرغ العم صالح كل احاسيسه ومرارته في قصيدة أدخلها في ظرف معنون لعزام باشا وأودعه عند سكرتيره وهذه فقرات من القصيدة المعبرة الساخرة التي تحكي مشاعر العم صالح:

سلام عليكم لا ملوك ولا وزر ... ففيما تجافيكم ونحن لكم ازر
سعينا لكم والسعي في العرف واجب ... لامثالكم والحر يسعى له الحر
كثير علينا ان نرد وغيرنا ... يرجح لا بأس عليه ولا هجر
فيوم «لقباني» ويوم «لعامر» ... ويوم مع القاضي ونحن لنا الظهر
تخوفت منا او تخوفت منهمو ... أم احترت في السودان ام هالك الامر
وربك انا عصبة وفدها ... تمر من الدنيا وتحوى ولا فخر
فان كنت وفدياً فكن عند ظننا ... والا فانت المرء فيما ترى حر
على كل حالٍ نحن في السخط والرضا ... ننادي باعلا الصوت «فلتحيا لنا مصر»

.. وفي اليوم الثاني استدعاه عزام واستقبله في حجرته الخاصة واعتذر له بكثرة المشغوليات فرضي العم صالح ولما بدأ يشرح له الظروف الصعبة التي يعيشها السودانيون وضرورة تدعيم مصر للجمعية ومساعدتها احس العم صالح بان عزام كان يتحاشى الحديث في الموضوع ويتهرب فكانت خيبة أمله أكبر من خيبة أمله في حافظ رمضان لان العم صالح كان يعشق الوفد آنذاك. ومرد خيبة الامل ان الجملة الوحيدة التي قالها عزام بعد خطاب صالح السياسي:

«بخصوص قصيدتك ارجو الا تنشرها او تطلع عليها أحداً من زملائك وانا متأكد بانها مجرد خواطر عابرة سرعان ما تزول» وهنا فقط خرج صالح عبدالقادر دون ان يستأذن عزام او يقول له مع السلامة!

.. ومضت الاحداث سريعة وبينما جمعية اللواء الابيض تقود حركة الكفاح والنضال وتعبىء مشاعر الملايين لمعركة الحرية والخلاص فوجىء الشعبان السوداني والمصري بالاعتداء المسلح على السير لي ستاك حاكم السودان العام عند زيارته للقاهرة يوم ٢٥

نوفمبر ١٩٢٤ وما لبث ان ملأت الاجواء السياسية المحلية منها والعالمية شائعات تقول بان السير ستاك كان مصابا بمرض خطير وأن أيامه في الحياة أصبحت معدودة ومحدودة وان بريطانيا دبرت مقتله برضائه ومشورته حتى تستطيع ان تستغله لمصلحة الامبراطورية الزائلة التي لم تغب عنها الشمس، وذهلت السلطات المصرية وجن جنون الملك فؤاد وحاولوا الصاق التهمة بعدد من المواطنين السودانيين الذين تم اعتقالهم بالفعل وعلى رأسهم الاستاذ الصحفي عرفات رئيس تحرير مجلة الفجر واحمد حسن مطر وغيرهما ممن كانوا يقضون اجازاتهم هناك وذلك حتى تبعد مصر عن نفسها المسؤولية وتبعات ما ينجم عنه مثل هذا الحادث الخطير، ولكن السير لي ستاك خيب آمال المصريين وهو يلفظ انفاسه الاخيرة في اليوم الثاني للاعتداء عليه وذلك امام لجنة تحقيق كبرى نصفها من الانجليز والنصف الآخر من المصريين قال السير ستاك وهو في حشرجة الموت :

«انا لم يقتلني سوداني وانما قتلني مصريون!!»

.. وبعد اربع وعشرين ساعة من اعلان موت الحاكم العام ستاك وهو يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٢٤ وجهت الحكومة البريطانية انذارها المشؤوم لمصر ضمنته شروطا كثيرة على رأسها خروج الجيش المصري من السودان في اربع وعشرين ساعة ودفع فدية قدرها ربع مليون من الجنيهات وزيادة مساحة الأرض المزروعة في مشروع الجزيرة وطرد المدرسين المصريين من السودان و.. وقامت القيامة في الخرطوم وزلزلت الارض تحت الاقدام ووجد السودانيون في كل هذا الذي يجري فرصة العمر للتعبير عن حقدهم الدفين فانطلقت الشياطين وفك الشعب وثاقه وبدأت التظاهرات الشعبية وهي تعلق آمالها العراض في مصر وكانت تهتف بحياتها وسقوط الانجليز وتوالت الاحداث ورغم اعلان حالة الطوارىء فقد جرت الاتصالات واللقاءات السريعة بين الضابط عبدالفضيل الماظ ورفاقه وبين قائد الطبجية وضباط الجيش المصري الذي كان يعسكر في الخرطوم بحري من جهة اخرى وتواعدوا وتعاهدوا على التمرد والعصيان ورفض الانذار البريطاني حتى ولو ادى ذلك للاصطدام المسلح وكان أبرز بنود العهد ان تقوم مدفعية الجيش المصري بنسف «طابية» الجيش الانجليزي وقصر الحاكم العام عند سماع أول طلقة من الجانب السوداني كما اتفقوا بان استجابة الجيش للانسحاب عار ودمار لمصر والسودان.

.. على اثر هذا العهد تطورت الاحداث السريعة وما لبث في العصر ان قرر الجنود السودانيون بقيادة الملازمين عبدالفضيل الماظ وثابت عبدالرحيم وسيد فرح وسليمان محمد سليمان وعلي البنا وهم مدججون باسلحتهم وذخيرتهم بداية مسيرة الجهاد الكبرى ليلحقوا بزملائهم المصريين بالخرطوم بحري وفي مدخل الكبري الذي يفصل الخرطوم عن الخرطوم بحري - مسيرة ربع ساعة بالاقدام - اعترضتهم قوات الجيش البريطاني

ثم ما لبثت بعد الانذار والتهديد والوعيد ان وقعت الواقعة «والتفت الساق بالساق وقيل انه الفراق» فزمجر الرصاص وانطلقت المدافع فحصدت المئات من الجنود البريطانيين وسرعان ما دعم الانجليز مواقعهم ومواقفهم بقوات كبيرة اخرى واستمر القتال غير المتكافىء حتى فرغت ذخيرة الجنود السودانيين فاستشهد من استشهد وسلم امره لله من سلم. وبكت السماء وانشق القمر واعلن سواد الليل الحالك الحداد وينسحب البطل المغوار الملازم عبدالفضيل الماظ ومعه عدد قليل جدا من بقايا المؤمنين ويندسون في جوف الظلام الحالك وهم يركضون ويركضون حتى ادركوا مستشفى النهر الذي كان قد أخلي قبل ايام خيفة وتوجسا وظل يتصيد الجنود البريطانيين بحرقة «حشا» وبسالة اسد جريح وغزالة تنوح وتبكي وليدها الميت.. ومضى يصارع ويجاهد ويقاوم ويقتل والضباط والجنود الانجليز وقفوا عاجزين عن رصد تحركاته في المستشفى الكبير وهو يمضى في تصيدهم الواحد تلو الآخر حتى جن جنونهم وفقدوا عقولهم وظنوا انهم انما يواجهون الشياطين والابالسة ويناطحون الهواء ويحرثون في البحر واخيرا.. واخيرا جدا صدرت الأوامر للمدفعية الثقيلة من القائد الاعلى البريطاني بقصف المستشفى من اساسه فانطلقت القذائف الملتهبة بالعشرات وانهدم المعبد، واتكأت المأذنة وتوقف الاذان وانهار المبنى وصمت الرصاص ودفن الماظ وجنوده عميقا عميقا تحت الانقاض.

.. وفي الميدان الكئيب الصامت الميت في الخرطوم بحري الذي كان يشاهد ويراقب كل الذي جرى سمعت عجلات القطار التي تحمل الجيش المصري صوب الشمال تجري وهي تنوح في بكاء والم مخترقة دخان المعركة الكثيف مسرعة خائفة واجفة وهي تمضي بعيدا بعيدا عن استغاثات المصابين، وتكبير المستشهدين وزمجرة المدافع وسيل الدماء ورائحة الجثث!!

.. استشهد بالامس البطل الخالد الماظ، واعلنت في الغد محاكم التفتيش الهمجية احكام الاعدام بعد ساعة واحدة من انعقادها فذبحت العدالة ونحرت الانسانية على منصات المشانق وارتفعت المسدسات فعوى الرصاص ومزق صدور قادة الثورة الباقين وهم الملازمين ثابت عبدالرحيم وسليمان محمد سليمان وسيد فرح، وامتلأت ساحات السجون بالنبلاء والشرفاء والمجاهدين الذين صالوا وجالوا في اشرف ميدان، وصابروا وصبروا وثبتوا في أروع صور مازال الشعب يحكيها ويرويها ويفاخر ويعتز بها. وبدأت حملات التنكيل والتعذيب والتحقيق التي لم يعرف لها مثيل الا في عهد هولاكو وجنكيز خان وبدأ الاحرار يتساقطون واحداً تلو الآخر.

.. الزعيم الكبير علي عبد اللطيف مات مختل العقل لان رقة مشاعره «ورهافة» أحاسيسه لم تعد تتحمل الذي كان.. والمناضل عبيد حاج الامين مات جريحا في منفاه بأحراش الجنوب، لدغه الف ثعبان، وانقض عليه «مراح» من الاسود الضارية ومات القاضي زكي وعلي فرغلي وسر الختم.. مات السودان كله. فرثاه شاعر اللواء الابيض

العم صالح عبدالقادر وهو يرى رفقاء دربه يرحلون عنه رحلة الابدية فقال فيما قال:

غاب شيطانه فضاع بيانه
وعصاه االقريض وهو بنانه
فرأى ان يجفف بالدمع مصابا تنوعت ألوانه
فبكى ما اراد ربك ان يبكي
فزادت لنوحه أشجانه
مصرع «للعبيد» مازال قريبا وما انطوت أحزانه
«وزكي» وقبله «فرغلي» ذاك اقدامه وهذا اتزانه
رحم الله بعد ذلك «سر الختم» من كان كلامه بنيانه !
فرأيت العزاء في «عرفات» ورأى الله ان يكون مكانه

.. وعلى الرغم من ان مشاعر الشعب نحو مصر قد أصابها كثير من اليأس والفتور بسبب هروب الجيش المصري من المعركة رغم عهوده ووعوده الا ان حبال المودة والأمل ارتخت كثيرا لكنها لم تنقطع ومع اشتداد حملات التعذيب، هرب اليها من المعتقلين والسجناء من هرب وكان صالح عبدالقادر من بينهم لكنه فجع في نهاية مطافه يوم ادرك القاهرة فلم يجد يدا تمسح دموعه ولا رفيقا يأويه ويؤنس غربته ووحشته ولا حبيبا يسليه وينسيه جراحات والام نفسه حتى ضاقت به الحياة وضاق بها فعاد مع من عاد إلى الخرطوم يائسا حزينا جريحا مكسور الخاطر «والظهر» فقبض عليه واودع السجن وكان أن انشد قصيدته المعروفة التي حفظها العديد من ابناء جيله ورفقاء دربه فأودع في أحرفها وأسطرها كل أحزانه ومرارته وسخطه تجاه مصر الشيء الذي كان شفيعاً له عند الانجليز في نهاية الامر.

.. كانت القصيدة مجاراة لقصيدة لابي الطيب المتنبي واستميح القارىء ان نسيت او اخطأت في نقلها لان ذاكرتي لم تعد تختزنها كما كانت وهي قصيدة طويلة انقل اليكم فيما يلي بعضا من ابياتها التي لا اذكرها جيدا .. لا بأس ان هي اعطتكم مجرد الفكرة او الانطباع الصحيح:

| | |
|---|---|
| «ابا الطيب اسمعني فقد جئت باكيا | اشكو إليك ..... المتجهم |
| ابا الطيب ماذا كنت في مصر فاعلا | ثم نزحت إلى الشام والشام أشوم |
| توهمت ان بمصر كل مطالبي | فوالله ما ضرني الا التوهم!! |

.. ومنذ ذلك الوقت انضم صالح إلى الجبهة الاستقلالية الانفصالية وأصبح الكاتب والشاعر المتخصص في مهاجمة الوحدة وكل ما هو وحدوي.

.. عندما اصبح الاميرلاي عبدالله بيك خليل رئيسا لوزراء السودان زاره صديق عمره وكفاحه ورفيق شيخوخته الاستاذ صالح عبدالقادر ذلك الرجل النحيل والاسد الهصور ذو الحنجرة المجلجلة والذي كان على ابواب السبعين عاما فقال له وهو يقف امامه «زنهار!»

.. ياعبدالله وقد اصبحت رئيسا للحكومة ماذا اعددت لامثالي ..!؟

فاجابه عبدالله: «والله ياصالح سأقيم لك تمثالا من الذهب بعد موتك»!

ضحك صالح ورد عليه:

« .. ايا هذا اتق الله وكف عن هرائك.. انا جائع اليوم أما قطعت لي يدا من تمثالي «لاصرفها» واستعين بها على الحياة»!!

.. لابد ان قرائي واحبائي خاصة في السودان قد شدتهم هذه الحقائق والحكايات والاسرار التي لم ينشر ولم يذع كثير من جوانبها وفصولها ومن حقهم علي ان يتساءلوا ومن واجبي نحوهم ان اجيب: كيف تحصلت عليها؟ .. اقول لكم بامانة:

.. في يوم ٨ أو ٩ اكتوبر عام ١٩٦٩/٦٨ دلف إلى مكتبي في دار الصحافة شيخ وقور أغلق الباب من ورائه... كانت تبدو على وجهه المصفر الشاحب كل علامات الأسى والحزن... لم يجلس ولم يضع وقته فقال لي:

ارجوك يا استاذ ان تضع القلم وتقوم معي لزيارة عمك صالح عبدالقادر فهو على فراش الموت ولا يملك «قوت لحظة ناهيك عن ثمن الدواء» ولما كنت اعرف بل وأعلم علم اليقين بان العم صالح مهما ضاقت به أبواب الحياة لا يمكن ان يتقبل حسنة او عطاء من احد فقد ارسلت على الفور في طلب الاستاذين محمد علي محمد صالح وشريف طمبل احد كبار المحررين انذاك ومازال ليصحباني ومعهما فريق من جماعات المصورين وآلات التسجيل وانطلقت بنا العربة في سرعة مجنونة حتى ندرك الفارس الجريح قبل ان يغمد سيفه. وامام منزل صغير بائس يتكىء في احد الأزقة المهجورة المملوءة بالغنم والبهائم وفضلاتها وروثها في ابي روف بأم درمان وقفنا ونزلنا مسرعين ودخلنا الحجرة التي خلت من كل شيء الا «عنقريب» سرير متسخ تكومت فوقه بقايا انسان يحمل في صدره تاريخ أمة وجهاد امة.

قلت له: عم صالح لا بأس عليك «يا ابو الرجال» هانحن قد جئناك نيابة عن قرائنا وشعبنا لتحكي لنا كل الذي جرى.

.. ضحك العم صالح ولم تتوقف سخريته حتى وهو على فراش الموت فقال:

«يا ولدي ياعبدالرحمن شكرا لك على هذه الزيارة المفاجئة» والتفت نحو الشيخ الذي جاء بي وهو صديقه في آن واحد فعاتبه بنظراته الصامتة وكأنه يقول له لماذا فعلت هذا ياهذا!!؟

ثم مضى يخاطبني:

«على كل حال لا مانع لدي مادام الذي تهدف اليه في داخلك هو الذي اسعى اليه في داخلي!!»

.. وبدأنا «التسجيل» وكان في ذاته قصة مثيرة اخرى تصلح لمسرحية منفصلة فقد عشنا كلنا لحظات الحزن تطبق على صدورنا وتخنق العبرة حلوقنا ونحن نرى الاسد

الشيخ يروي حكاياته وهو يتألم في صمت ويبكي في صمت وينوح في صمت واحيانا وفي مواقف معينة يرفع يديه الضعيفتين المرتجفتين إلى السماء ويحوم بهما في فراغ الحجرة الكئيبة كأنما يبحث عن جوهرة مفقودة. نسيت ان اقول لكم ان العم صالح وقد تعود على لغة المحاكم واجراءات التحقيق قال قبل التسجيل:

«انا صالح عبدالقادر اشهد الله الذي سألقاه عما قريب ان الذي سأرويه لكم هو الحق كل الحق» وادرنا آلة التسجيل وبدأت الحكاية وكان الشيخ لا يقوى على متابعة الحديث اكثر من ربع ساعة ثم لا تلبث أنفاسه ان تعلو وتهيج ويبدو عليه التعب والارهاق فنتركه للغد حتى استطعنا خلال اسبوع ان نحصل منه في ثلاث ساعات كاملات الذي سطرته لكم في صحيفة واحدة.

.. آمل في مناسبة سعيدة وقريبة ان شاء الله ان اهدي هذه التسجيلات الفريدة القيمة للاذاعة السودانية حتى يستمع الشعب كله إلى قصته وتراثه وتاريخه بصوت بطل من صناعَه اصبح هو نفسه في عداد التاريخ!

.. ثمة تساؤل ظل يلاحقني كلما استمعت إلى هذا التسجيل في ساعات فراغي وكل ما شعرت بحاجتي لامجاد الماضي.. ترى هل كان العم صالح رحمه الله مصيبا عندما قال فيما قال وهو في حالات من حالات بؤسه ويأسه :

رأى اللـــه ان اعيش غـــريبـــا بيـــن شعـــب تنـــافـــرت شطـــآنـــه

بيـــن شعـــب «مفكـــك مستكيـــن» في سبيـــل الحيـــاة هـــان هـــوانـــه!!

## ﴿ الفصل الخامس ﴾

- الاحزاب السودانية من اين ... وإلى أين ؟
- نهاية مأساوية لعلاقة المهدي بهيلاسلاسي
- صراع خطير بين المهدي ومصر سببه الصاغ صلاح سالم .



محمد نجيب مع الزعماء السودانيين عند توقيع اتفاقية وحدة الاحزاب

.. عاد الهدوء الحذر إلى البلاد بعد الثورة وسلسلة الاعدامات الطويلة التي اعقبتها ولكن الهدوء عادة ما يسبق العاصفة فبالرغم من ان الانجليز كانوا قد أحكموا قبضتهم بعد خروج الجيش المصري وظلوا يطاردون الاحرار في كل زاوية ومكان ويخنقون الحريات ويسكتون كل صوت يقول «آه»، الا ان ذلك كله لم يثن اولي العزم والصبر والمثابرة والتضحية من المضي قدما في طريق الاشواك فمضوا في تنظيم تشكيلاتهم، وعقد ندواتهم وتكوين لجانهم مستغلين في ذلك وفي سرية تامة الأندية الثقافية والمناسبات الدينية وصلاة الجمعة. ومع مرور الزمن وتزايد الوعي الوطني أصبحت الأصوات ترتفع يوما بعد يوم.

.. كانت الاندية الثقافية المنتشرة في مختلف بقاع السودان مصدرا من مصادر الاشعاع والوعي يجيء في مقدمتها ويتربع على عرشها نادي «ود مدني» عاصمة الجزيرة برئاسة السيد احمد خير المحامي ووزير خارجية حكومة نوفمبر الذي كان صاحب الفضل وصاحب الاقتراح الاول لانشاء وتكوين مؤتمر الخريجين العام الذي انبعثت منه اولى شرارات اللهب السياسي في السودان.

وبدأ المؤتمر نشاطه المكثف بعد ان تمركز في ام درمان ـ العاصمة الوطنية الاولى ـ في تأسيس المدارس وتدعيم الأندية واقامة الندوات الثقافية والرحلات المتواصلة للارياف والاقاليم لربطها بالعاصمة والمدن وبدأت الادارة البريطانية تراقب وتطارد وتعتقل وتستميل الضعفاء من ذوي الضمائر الميتة ولكن كان السيف قد سبق العذل فقد قويت شوكة المؤتمر ووقف قويا على قدميه «وخرجت أسنانه» ودخل السودان بذلك عهداً جديداً من عهود الصمود والكفاح وبدأت مسيرته الطويلة إلى الغد المشرق والصباح الجديد بخطوات ثابتة ومركزة ومطمئنة.

.. تكونت الأحزاب السياسية فكانت متعددة الاتجاهات والسياسات وكثرت مع مرور الأيام بحسبانها «تقليعة» جديدة تنفس عن الصدور المكبوتة والأصوات التي ظلت مخنوقة وهي على كل حال ظاهرة صحية جديدة وطيبة لشعب ظل مكبوتا لنصف قرن من الزمان.

.. كان أبرز الأحزاب التي ظهرت على السطح السياسي هو حزب الاشقاء برئاسة اسماعيل الازهري وحزب الشعب الديمقراطي وحزب الاحرار وحزب وحدة وادي النيل والجبهة المعادية للاستعمار (الشيوعيين) والقوميين العرب وحزب السودان... و... و.. وبمناسبة تعدد الاحزاب الوحدوية هناك طرافة حدثت مازالت تذكرها المجالس وتتندر بها. فعندما رأت مصر شوكة المهدي تزداد قوة وعناوة دعت زعماء جميع الأحزاب الوحدوية وهي كثيرة ومتعددة الى القاهرة في محاولة لدمجها في حزب واحد حتى يواجه خصمه الاستقلالي الشرس في الانتخابات البرلمانية الاولى وكان يشرف على هذه الدعوة الصاغ صلاح سالم وزير الارشاد القومي وشؤون السودان وعندما وافق المجتمعون على اقتراح يدعو إلى تشكيل لجان ثلاث يراعى فيها تمثيل جميع الاحزاب اخذت الحيرة تلف صديقنا العزيز السيد الطيب محمد خير رئيس حزب الاحرار الوحدويين وقد كان فيما اذكر هو الرئيس والسكرتير والقاعدة الشعبية ايضا واخذ المجتمعون ينتظرون ويرقبون اخانا ابا الطيب الذي عرف بملاحته وظرافته وطرافته ليرشح لهم عدداً من أعضاء حزبه للمشاركة في اللجان ولما صوبت اليه النظرات وطال الصمت، رفع يديه لاعلى وقال بصوته الجهوري وفي نبرات «يوسف وهبي» «ايا سبحان الله»... يا جماعة انا أروح فين ولا فين يعني انا اتقطع؟ فضحك الجميع واقترح عليه الصاغ ان يقسم الوقت بين اللجان الثلاث فيكون بذلك قد مثل حزبه وقاعدته الجماهيرية وادى رسالته وواجبه الوطني.

.. كان في مقدمة القادة الوحدويين الذين لعبوا دورا كبيرا وسجلوا بصماتهم في تاريخ البلاد هم بدون ترتيب السيد الازهري ويحيى الفضلي والشيخ محمد احمد المرضى ومبارك زروق والشريف حسين الهندي والشيخ علي عبدالرحمن وخضر حمد وحماد توفيق ومحمد نور الدين الذي كان يدعو للاندماج التام مع مصر وعرف في لقاءاته الجماهيرية بجملته الفريدة المميزة التي كان كثيرا ما يختتم بها لقاءاته السياسية الجماهيرية:

« .. انني ياالخواني ادعوكم للاندماج الكامل مع اختنا الكبيرة والمسألة في غاية البساطة ومافيهاش اي تعقيد هي نجيب ونحضر آلات كبيرة عشان نكسر الحائط بيننا مرة واحدة وإلى الابد والسلام عليكم»!! ولكن لم يستطع نور الدين ان يصف او يحدد لمستمعيه يوما رغم الصراخ والاعتراض مكان هذا الحائط ونوعه وبأي قدر من الاسمنت والخلطة قد بني!؟

أما الاحزاب التي كانت تقف في الجانب الاخر للمعركة فهي حزب الامة والحزب الجمهوري الاشتراكي (حزب زعماء العشائر) وحزب السودان (للكمونولث) وحزب الله وحزب الجنوب وحزب الاحرار الجنوبيين.. و... و بالمناسبة فان الأحزاب الجنوبية كانت تسبب سرطانا لا يتوقف. فقد كان شعورهم بالنقص والتخلف وعدم الاستقرار

والوقوع المباشر تحت قبضة الانجليز جعلهم كثيري المطالب والاتجاهات فتارة ينادون بالوحدة مع السودان الشمالي ثم ينقلبون ويطالبون بالانفصال التام او الموت لكنهم جميعا كانوا ضد مصر بل ويخافون مجرد ذكر اسمها كما كان المتطرفون منهم والداعون للانفصال عن شمال السودان متأثرين إلى درجة الحساسية بالافكار التي زرعها الاستعمار الانجليزي في رؤوسهم بان الشماليين وعلى رأسهم الامام المهدي والزبير باشا كانوا يبيعونهم في الاسواق ويجلدونهم بالسياط ويستبيحون كل شيء لديهم.

.. الحقيقة المؤلمة ان الادارة البريطانية استطاعت طيلة حكمها للسودان ان تجعل من الجنوب منطقة محرمة مغلقة وتمكنت الكنائس من زرع بذور التفرقة والعنصرية والكراهية بين الجنوب والشمال ومارست كعادتها شعار (فرق تسد) وزرعت من الألغام الزمنية التي انفجرت كالبراكين في المواعيد الموقوتة عددا لا يستهان به. كان من السهل على المواطن السوداني في الشمال ان يحصل في دقائق على تأشيرة دخول إلى سومطرا او شيلي او الاسكيمو، اما ان يدخل جنوب السودان فهذا امر غير وارد.

.. كان في مقدمة القادة السياسيين المؤثرين في الأحزاب الاستقلالية بعد الامام المهدي راعي حركتها هو السيد/ الصديق عبدالرحمن المهدي رئيس حزب الامة وعبدالله خليل ومحمد احمد محجوب والقاضي محمد صالح الشنقيطي وعبدالرحمن علي طه ومحمد علي شوقي وعبدالله الفاضل المهدي ومحمد الخليفة شريف وهما من بيت الامام، ومن الشباب امين التوم وعبدالله عبدالرحمن نقد الله أمين عام شباب الانصار* ووزير الداخلية ومساعد سكرتير الحزب فيما بعد.

.. ما أن اطلت بوادر الانتخابات لأول برلمان عام ١٩٥٣ حتى تقلصت واندمجت كل هذه المظاهرات الحزبية الضخمة وبسرعة البرق الخاطف في اتجاهين قويين عتيدين هما حزب الامة الذي يدعو للاستقلال والحزب الوطني الاتحادي الذي ينادي بالاتحاد مع مصر.

.. شهد السودان على اثر تكوين الأحزاب السياسية واعتراف الادارة البريطانية بها مرغمة... شهد هيجاناً وفوراناً سياسيا وصل به إلى اعلا درجات الغليان والانفجار كما شهد صراعا مريرا وساخنا في كل ميدان واتجاه بين الزعيمين الرئيسيين الامام عبدالرحمن المهدي وطائفته وحزب الامة وتعاون الانجليز من جهة، وبين مولانا السيد علي الميرغني وطائفته والأحزاب الوحدوية، وتأييد مصر من جهة اخرى ولم تخل ندوة سياسية أو مناسبة دينية حتى الاعياد والموالد الا ووقع الاختلاف والالتحام والاصطدام بين انصار الزعيمين المتنافسين المتطلعين لقيادة السودان.. ذلك الاصطدام الذي كثيرا ما كان له جرحى وضحايا من الجانبين.

هناك ظاهرة كبيرة وهامة لابد ان اتوقف عندها ولو قليلا، لانها ظاهرة غير معروفة ولا مألوفة في العوالم الاخرى وهو ان الخلاف الكبير رغم انه وصل في احيان كثيرة إلى

درجة الاصطدام المسلح، الا انه لم يؤثر على الصفاء والاخاء والمودة، ففي الاسرة الواحدة كنا نتحسس هذا الصراع ونرى معالمه واضحة وبارزة كذلك كنا نراه في الشارع السوداني من اقصاه إلى اقصاه ومع ذلك فان حبال المودة والصداقة لم تنقطع ابدا بين الناس .

... كان زعيم المجلس وزعيم المعارضة يتبادلان في البرلمان اعنف الاتهامات همزاً ولمزاً، شعرا ونثرا اشارة ووصفا حتى ليظن القريب بيننا انه لن تمضي لحظات الا وتشهر المسدسات والسيوف والخناجر (ويلعلع) الرصاص فيسيل الدم القاني ليصل (حد الركب) ولكن وبعد نهاية الجلسة المثيرة يركب الصديقان اللدودان عربة واحدة ويتناولان طعام الغداء معا دون ان يلفت ذلك النظر او الانتباه او يثير الحيرة والتساؤل!

.. اشتدت الحركة السياسية شراسة في السودان على أثر توقيع الحكومتين الانجليزية والمصرية اتفاقية الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودانيين في ١٢ فبراير ١٩٥٣ تلك الاتفاقية التي تعهدت بموجبها الحكومتان المتعاقدتان على ان تنهيا فترة الانتقال بأسرع وقت ممكن وهي الفترة التي بدأت بأول برلمان سوداني جرى انتخابه في اول يناير عام ١٩٥٤ . وما ان اعلنت واذيعت بنود هذه الاتفاقية الكبيرة الخطيرة حتى بدأ الحزبان الرئيسيان يستعدان ويخططان لهذه المعركة المصيرية ذات الخطين المتوازيين والطريقين المتباعدين الذي يقود أحدهما إلى مصر، بينما يقود الثاني إلى الاستقلال التام . وقد نجح الحزب الوطني الاتحادي الذي انصهرت فيه جميع الأحزاب والفئات الوحدوية برئاسة السيد اسماعيل الازهري ورعاية مولانا الميرغني في اكتساب تأييد الطبقة الوسطى من المثقفين والعمال والمزارعين وأهل المدن والحضر كما نجح في توسيع دوائر الشكوك والظنون والاتهامات ضد حزب الامة بسبب تعاونه مع الادارة البريطانية ومساهمته في كل مؤسساتها الاستعمارية، وان «شعار السودان للسودانيين» والمناداة بالاستقلال التي ينادي بها الانفصاليون ما هي الا دعوة حق أريد بها باطل وذرا للرماد في العيون . وقد اسهمت الصحافة والاذاعة المصرية في تعميق هذه الاتهامات كما كان للزيارات المتكررة للزعماء والصحفيين المصريين للسودان وفي طليعتهم الصاغ صلاح سالم وزير الارشاد القومي وشؤون السودان انذاك اثرها الواضح في الشارع السوداني .

.. الحقيقة الكبرى التي تطل برأسها متحدية كل قول ان الاتجاه الاتحادي بالسودان كانت تؤيده وتغذيه وتدعمه مصر بمالها ونفوذها وصحافتها واذاعتها الشيء الذي ظل حزب الامة يقاومه بعنف ويستنكره بصوت مسموع باعتباره تدخلا صارخا وسافراً ومؤثرا في شؤون السودان الداخلية وكم من مرة اشهد فيها العالم منذرا ومحذرا بان هذا الذي تقوم به مصر يجب ان يتوقف لانه يؤثر تأثيراً مباشرا على حرية السودانيين في اخطر وأحرج لحظات عمرهم وتاريخهم .

.. دفعت مصر في سبيل تحقيق الوحدة التي ظلت تناضل وتسعى لها السنين الطوال ملايين الجنيهات لتدعيم موقف الاتحاديين خاصة عند مواجهة الانتخابات ولم تجد صعوبة في تصدير هذه الأموال لأن العملة المصرية هي التي كانت متداولة في السودان آنذاك .

.. أما الجانب الاستقلالي فقد كانت تسانده وتعززه بريطانيا وتدافع عنه صحافتها التي ظلت تلاحق وتتابع ما يجري في السودان خاصة فيما يتعلق بالتدخل المصري السافر .

.. كان الصاغ صلاح سالم كثير الزيارات للسودان حتى اصبحت الخرطوم في نظره «كالجيزة» او «روض الفرج» وقد سببت كثرة زياراته مضايقات شديدة للمعارضين والادارة البريطانية معا حتى اذا ما جاءت معركة الانتخابات لأول برلمان سوداني عام ١٩٥٣ انغمس الصاغ بكل ثقله ونفوذه وأمواله في المعركة وفي يناير ١٩٥٤ قام الصاغ صلاح سالم بزيارة فريدة وجريئة من نوعها اذ دخل احراش وغابات الجنوب ورقص مع القبائل «شبه عار» فشنت عليه الصحف الاستقلالية هجوما لا هوادة فيه مما زاد في تعميق الخصومة مع مصر . ليس ذلك فحسب بل خرجت صحيفة «الديلي تلغراف» من وقارها يومذاك فزجت تعليقا هستيريا بعنوان :

«ارفع ركبتيك إلى أعلا أيها الصاغ» وراحت تتحدث عن المحاولات الصبيانية الساذجة التي يمارسها الوزير المصري المتهور لكسب مشاعر وتأييد القبائل الجنوبية الساذجة الفقيرة العارية وتدخله في شؤون السودانيين ونسيت الصحيفة يومها ان الاستعمار البريطاني هو المسؤول الاول عن العري والفقر والجهل والمرض فقد حكم السودان لنصف قرن من الزمان دون ان يزيل او يساعد على ازالة هذه المساوىء البغيضة فذهب إلى غير رجعة مخلفاً وراءه كل هذه المساوىء .

... أما صحيفة «التايمز» الاكثر وقارا فقد خاضت ايضا معركة السودان وظلت تسبق الأحداث وتنشر من الانباء الدقيقة والخطيرة عن الموقف السياسي في السودان ما يجهله الصغار والكبار معا . في يوم ٦ ديسمبر عام ١٩٥٤ أزاحت الصحيفة اللندنية الستار عن تفاصيل وأسرار الاتفاقية الانجليزية المصرية حول الاستفتاء في السودان فوضح مما نشرته ان الدولتين المتعاقدين قد اكتسبتا بموجبها حقوقا جديدة في السودان وان سلطات خطيرة منحت للجنة الدولية التي اصبح من حقها تأجيل عملية تقرير المصير اذا ما دعت الظروف .

.. قالت «التايمز» ان وزير الخارجية المصري والسفير البريطاني في القاهرة قد وقعا على تعديل لاتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ وعلى ملحق جديد اخر حول تكوين اللجنة الدولية وسلطاتها للاشراف على الاستفتاء وقيام الجمعية التأسيسية التي انحصرت مسؤولياتها في وضع دستور السودان وفق نتيجة الاستفتاء ووضع القوانين الانتخابية للبرلمان القادم .

.. ومضت التايمز اللندنية تعلن بان مصر وبريطانيا قد اتفقتا على التشاور مع ممثلي البرلمان السوداني على الخطوات التي ستتخذ لانهاء الحكم الثنائي، ولما سئل الوزير السيد/ مبارك زروق زعيم مجلس النواب ليعلق على ما ورد في صحيفة التايمز كانت اجابته مفاجأة كبرى اذ انه أكد بان حكومة السودان لا تعرف شيئاً عن هذه الاخبار وانها لم تتسلم حتى الان محاضر اجتماعات الدولتين ولا صورة من هذا الاتفاق ان كان هنالك اتفاق!

.. ومضت الصحافة البريطانية تثير المخاوف والاضطراب وتشعل الفتن والاحقاد وهي تراقب في حسرة وأسى غروب شمس امبراطوريتها العجوز في السودان فقد واصلت الاهتمام بكل ما يجري في السودان بطريقة استفزازية تدعو إلى الشك والريبة بقدر ما تدعو إلى الاسف.

طالعوا بحذر شديد المقال الافتتاحي الذي خصصته صحيفة الديلي تلغراف بعد يوم واحد فقط من اعلان الاستقلال اذ كتبت تقول:

«اعلن البرلمان السوداني بالامس الاستقلال دون اي زمن محدد أو خطة موضحة وقد جاء الاعلان مفاجأة لمصر وبريطانيا مما وضعهما في موقف صعب لكن لا خيار امامهما سوى الاعتراف به كأمر واقع فبريطانيا تعتقد ان مسؤوليتها في تحمل اعباء الوصاية على السودان قد انتهت اما مصر فقد فقدت بهذا القرار كل آمالها وأحلامها في السيطرة على السودان.

ويمضي المقال فيصف الازهري بانه تسرع وبدون تخطيط مسبق عندما اعلن الاستقلال. وقالت انه استغل اتخاذ هذا القرار الخطير للمناورة السياسية والكسب الشخصي لذاته رغم انه يحكم السودان باغلبية صوت واحد وقد كان من الافضل والممكن ان يأتي اعلان الاستقلال عن طريق حكومة قومية كان الأمل كبيرا في تشكيلها وكان من المتوقع اذا تم ذلك الا يكون الازهري رئيساً لها! «وانتم مالكم ومالنا».

ومضت الصحيفة التي اماطت عن وجهها القبيح كل معاني الوقار والامانة لتقول ان اعلان الازهري للاستقلال الذي اصبح حقيقة واقعة بعد ان اقرته مصر وبريطانيا كان يهدف في الاساس لانقاذ نفسه من الضعف وكسب عطف وثقة الشعب السوداني للانتخابات المقبلة التي كان من المحتمل ان ينتهي فيها حزبه بالفشل. واختتمت الصحيفة احقادها الدفينة عندما قالت: (ان جنوب السودان قد فقد كل الضمانات التي كانت توفرها له الاتفاقية)!

إلى هذا الحد من السفالة والوقاحة كان تدخل الصحافة والاذاعة البريطانية وهي تساند الحركة الاستقلالية الانفصالية في السودان!!

.. كان حزب الامة يعتمد في تمويله وحملاته على مساندة ومساعدة بريطانيا التي بدأت تجاري نفس السياسة المصرية فنزلت المعركة بثقلها وكان الملك الراحل سعود

يعين الحركة الاستقلالية في الخفاء، أما الامبراطور هيلاسلاسي عاهل اثيوبيا فقد كان ابرز من جاهر بمساهمته وبدعمه للحركة الانفصالية في السودان. فقد جمعت بينه وبين الامام عبدالرحمن المهدي علاقات ود قديمة ترجع إلى عام ١٩٣٩ يوم ان غزت ايطاليا بلاده فجاء الى السودان طريدا شريدا لاجئا فاحتضنه الامام المهدي وأكرم وفادته ومنحه احد قصوره على شاطىء النيل الازرق... نفس النيل الذي ينبع من بحيرة (تانا) الاثيوبية وظل المهدي يرعاه ويحتضنه لاكثر من عامين حتى سقط الحكم الايطالي وعاد هيلاسلاسي إلى بلاده ودخل العاصمة وهو يمتطي صهوة جواد وعلى رأسه قبعة الرئيس البيضاء وفي يده عصا الصولجان ومن حوله ترجل شعبه وفي مقدمتهم القساوسة والنبلاء وأصحاب الياقات البيضاء.

.. تعمقت بين المهدي وهيلاسلاسي علاقات الود والصداقة وازدادت قوة ومناعة على مرور السنين وقد كان الامبراطور لا يرفض طلبا للامام المهدي ولعله بذلك يرد الجميل الذي صنعه فيه وطوقه به يوم ان اضطرته ظروف القهر والهزيمة للجوء للسودان. ظلت حبال الالفة والمحبة بينهما ممدودة عن طريق الرسل والرسائل ولما كان هيلاسلاسي على غير وفاق مع مصر والود بينهما مفقود تماما فقد كانت عبارة «وحدة مصر والسودان» كافية لتثيره وتستفزه وتهز العرش من تحته لذلك فقد كان سخيا في عطائه، يداه ممدودتان مبسوطتان في غير ما توقف وحساب للحركة الانفصالية.

.. وقد لاحظ الخبثاء من المراقبين السياسيين السودانيين عند بداية كل معركة انتخابية هبوط الجنيه الذهب في الاسواق وذلك على اثر تدفق الحقائب الامبراطورية المنتفخة بالجنيهات الذهبية ولكن وا اسفاه ووا حسرتاه على الامبراطور سبط يهوذا وملك ملوك سبأ وزعيم الكنيسة اليهودية في اسرائيل فعندما مات الامام المهدي عام ١٩٦٠ نسي الامبراطور وبلا مقدمات اخاءه ووفاءه، وخرج عن وقاره وشيخوخته فقذف بكل مشاعره واحاسيسه واخلاقياته في أول مزبلة في الشارع عندما بدأ يطارد ورثة صديقه وحبيبه الذي اصطفاه وواساه وأسلاه ساعة الضيق ووقت الشدة!

.. ظل الامبراطور العجوز يطارد ويلاحق ورثة الامام عبدالرحمن في غير ما توقف وبلا كلل ولا ملل عن طريق سفارته في الخرطوم بل وعن طريق الحكومة القائمة ليسترد جزءاً ولو تافها من أمواله التي اسماها ديونا على دائرة المهدي التجارية وهو الذي تنوء خزائنه في الداخل والخارج بزكائب الذهب والدولارات. مضى الامبراطور يضغط على ورثة صديقه المهدي بشتى الوسائل والسبل حتى قضي عليه فسقط مرة ثم سقط مرة ثانية عندما أفل نجمه، وغابت شمسه، وزال حكمه، وسقط تاجه وهوى عرشه، ومات اكثر من مرة ثم مات من بعده ولحق به صديق عمره ورفيق دربه (الاسد الشيخ) الذي كان يلهو دائما تحت أقدامه في قصره (جنة اللول)!

«قال انما اوتيته على علم عندي أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون».

«صدق الله العظيم»

(سورة القصص)

.. ما زلنا نطل عل اعتاب الفترة الحرجة التي اعقبت اعلان تقرير المصير وتحفزت بعدها الاحزاب وبدأ الزعماء يمارسون اللعبة السياسية ويتبارون في الكيد وصنع المقالب والمكائد والمؤامرات سعيا وراء المكاسب مهما كانت تافهة وصغيرة. وبقدر ما عرف عن مولانا الميرغني ذكاؤه المعتد وسرعة البديهة والمبالغة في الحيطة، فقد كان الامام المهدي لا يقل عنه درجة وقد يسبق احداهما الاخر في بعض المجالات والميادين لكنهما كانا متعادلين في الميزان الا في بعض المواقف فقد يخف او يزيد احدهما عن الاخر ولكن بقدر يسير.

كان الامام المهدي شأنه شأن كل زعيم يتطلع إلى قمة السلطة وعرش البلاد... كان دائم التوجس والقلق تحيط برأسه دائما علامات تعجب واستفهام كثيرة وعديدة لم تتوقف عن الرقص والدوران امامه لحظة واحدة وكان بالغ الحذر خاصة ممن يتعاملون معه ويحومون حوله، كما كان يشرف بنفسه على اختيار معاونيه وموظفيه وسكرتاريته حتى جيشه الجرار من خدمه كان يفحص جذورهم ويعرفهم واحدا واحدا وأبا عن جد كذلك فقد كان للشعار الذي اختاره والنظرية التي آمن بها وظل يطبقها طيلة فترة حياته على من حوله هي الولاء المطلق والطاعة العمياء والوفاء غير المحدود والذي كثيرا ما يخضع للتجربة والاختبار اما الكفاءة... اما الشهادات... ودرجات الذكاء والثقافة.. أما اي شيء آخر فيأتي في مؤخرة مؤخرة قائمة المهدي.

عندما استدرجت المخابرات المصرية يوما شابا من موظفي سكرتاريته السياسية لا الطائفية ـ غابت عنها هذه الحقائق الكبيرة التي لو وقفت واستقصت عنها لتفادت كثيرا من المخاطر ومواقف الحرج قبل ان تتقدم بوصة واحدة إلى الامام!

.. ذهب الشاب إلى مكان اللقاء الموعود حيث استقبله وحياه الصاغ صلاح سالم الذي كان من أبرز وأقوى اعضاء مجلس ثورة ٢٣ يوليو. كان الصاغ يمتلىء انذاك بالحيوية والنشاط والقوة.. كان شابا ثائرا ومتحمسا بقدر ما كان متعجلا ومتهورا ينفعل بسرعة ويثور بلا سبب ربما لانه كان في دائرة الضوء والبرق الخاطف الذي لم تقو عيناه على تحمله رغم انهما كانتا تختفيان وراء نظارات سوداء سميكة كيف وهو الذي يشرف اشرافا تاما على كل ما يجري في السودان باعتباره وزير شؤونه. كانت حقائبه لا تفرغ الا لتمتلىء، مقابلاته لا تنتهي، نشاطه لا يتوقف فقد جاب السودان قرية قرية طولا وعرضا شمالا وجنوبا شرقا وغربا قابل الشيوخ والشباب ونظار القبائل وزعماء العشائر، والعمال والمزارعين وأصبح يتدخل حتى في اتفه وأصغر الامور حتى ضاق به

أصدقاؤه من القادة والزعماء الاتحاديين فنصحوه وواجهوه ثم تحدوه وتوعدوه ولكن الصاغ كان اقوى بكثير من كل تهديد ووعيد ..

.. استقبل الصاغ صلاح سالم الشاب «الانصاري المهدوي» وبعدما حياه استأذنه لانه على موعد مع مولانا الميرغني وتولى امر الشاب من بعده مندوبه وأمين سره الذي اراد ان يصل إلى هدفه بسرعة وبأقصر الطرق ومهما بلغ الثمن . قال للشاب نحن سعداء بمعرفتك ويشرفنا جدا ان يكون هذا اللقاء بداية طيبة لتعاون مثمر طويل ... انت مازلت في ريعان الصبا ولابد من أن تكون لك طموحاتك وامالك التي لا تستطيع ان تصل اليها الا بعد رحلة طويلة من العمر ونحن لا نريد منك الا مجرد الموافقة المبدئية على التعاون معنا حتى تتمكن من تحقيق امانيك واحلامك في سن مبكر وبأقصر وأسرع الطرق وأؤكد لك بانك لن تضار .

شكر الشاب مضيفه وابدى مرونة ظاهرة في الحديث ثم استفسر عن نوع الخدمات التي يطلبونها مما جعلت مندوب الصاغ يحس بنشوتي الفرح والنجاح فسارع بفتح حقيبته وأخرج منها ظرفا منتفخا مده لضيفه الشاب قائلا له انها هدية لك من الصاغ عربونا للصداقة وعند الوداع فجر المندوب قنبلته الاولى عندما طلب من الشاب وفي همس لا يكاد يسمع ان يواتيه في اللقاء المقبل يوم كذا ، الساعة كذا بمعلومات محددة وافترقا بعد عناق طويل وأمل وترقب وانتظار .

.. لم يكن الصاغ صلاح سالم ولا مندوبه يحلمان لا في اليقظة ولا في المنام ولن ولم يخطر على بالهما من قريب او بعيد ان الشاب لم يكن سوى طعم سام فقد كان قد أخطر مولاه وامامه المهدي مسبقا بأمر الدعوة وان الامام كان ينتظره في تلك اللحظات على أحر من الجمر . عاد الشاب وقبل يد الامام وجلس (أرضا) بقرب قدميه كما هي عادة المريدين والمقربين المحبوبين من انصاره وروى له بالتفصيل كلمة كلمة وحرفا حرفا كل شيء حتى طعم الليمون ولون الشاي ونوع البسكويتة لم ينس ان يوصفه له يعني بالاختصار والايجاز .. «من طأطأ للسلام عليكم» .

وعلى الفور استدعى الامام المهدي مجلسه الخاص المكون من ابنه الصديق خليفته ورئيس حزبه وعبدالله خليل السكرتير ورئيس الوزراء والدفاع فيما بعد وعبدالرحمن علي طه وزير المعارف ومحمد صالح الشنقيطي قاضي المحكمة العليا ورئيس البرلمان فيما بعد وأعاد لهم الشاب روايته وبعد ان تدارسوا الأمر فيما بينهم وقلبوا أطرافه وجوانبه توصلوا إلى قرار خطير هو تصعيد الموقف بين مصر والسودان واستغلال الواقعة إلى ابعد واقصى حدود الاستغلال حتى لو ادى ذلك إلى القطيعة الكاملة والجفوة التامة .

أوفد الامام عبدالرحمن بعد اكتمال المشاورات نجله الصديق وعبدالله خليل لابلاغ الحادثة إلى الحاكم العام والسكرتير الاداري لحكومة السودان الذي ابرق الخبر سرا

لوزارة الخارجية البريطانية ثم جاء واجتمع بالامام في جلسةمحكمة ومغلقة.

.. المفاجأة الكبرى التي لعبت الاقدار فيها دورا اساسيا هي ان الامام كان قد وجه دعوة مسبقة للصاغ صلاح سالم والاميرلاي المصري عبدالفتاح حسن العضو المصري فيما بعد في لجنة الانتخابات وعدد اخر من كبار المصريين الضيوف والمقيمين في السودن وذلك لتناول الشاي في اليوم التالي للواقعة المشؤومة. وكان الغرض من هذه الدعوة هو مد جسور التفاهم والصداقة حتى لا يتهم المهدي بالعداوة السافرة لمصر. والصاغ صلاح سالم في موقعه المميز ومكانته المرموقة البارزة لا يمكن لاحد ان يتجاهله عندما يزور السودان خاصة ان كان هذا الاحد في مكانة الامام المهدي الذي يعتبر نفسه ويعتبره الاخرون أباً وواجهة (كبير العيلة السودانية).

اعد الامام المهدي ومجلسه الخاص العدة للغد المرتقب ووضعوا لكل شيء حسابا دقيقا وميقاتا معلوما لمواجهة الموقف الخطير عند استقبال ضيفهم الكبير الوزير الخطير وعدوهم الشرس اللدود الصاغ صلاح سالم.

وما ان اطلت الساعة الخامسة والنصف في نهاية عام ١٩٥٣ ـ حتى دخل ركب الصاغ سراي الامام واستقبله ورحب به السيد الصديق المهدي واكتمل عقد الضيوف في الحديقة الفاخرة لسراي الامام وبعد تبادل عبارات الود والمجاملة اسر الامام المهدي لكبير خدمه الذي غاب للحظات داخل القصر ثم عاد ومعه نفس الشاب بطل الرواية وبعد ان قبل يد امامه وراعيه افترش الارض بجانب قدمي الامام..

مرت اللحظات بطيئة متثاقلة يتخللها صمت كأنه الموت وتعمد الامام ان يطيل في لحظات الصمت والكآبة والترقب حتى تحدث مفعولها واثارها المعنوية المطلوبة فمضى يداعب مسبحته ثم بدد ضباب الصمت الذي احتوى كل شيء بصوته الجهوري حين وجه سؤاله في أدب ورقة وهدوء «يا سعادة الصاغ، بتعرف ابننا دا (هذا)؟!

«الصاغ: ابدا والله يا سيادة الامام عمري ما شفتوش. ثم اتجه الامام لمندوب الصاغ سائلا: وانت ياضيفنا العزيز هل قابلت وتحدثت مع هذا الشاب؟!

«المندوب: (نفس الاجابة) ابدا والله ياسيادة الامام عمري «ما شفتوش ولا كلمتوش!»

الامام موجها حديثه للشاب:

(اقف) قف يا ولد واحكي للمجلس دا وبصوت مرتفع ما حدث لك بالامس. وبدأ الشاب يروي القصة بحذافيرها ومن أولها إلى آخرها فتصبب العرق الحار على الوجوه والرقاب وتكهرب الجو ولم يحتمل الصاغ هذا الذي يجري امامه فوقف بقامته السمهرية المديدة وهو في حالة من الهياج والثورة وقال بانفعال شديد:

.. يا سيادة الامام انا احتج احتجاجا شديداً بالنيابة عن حكومتي ضد هذه المؤامرة الاستعمارية المكشوفة التي دبرت بليل لضرب العلاقات الازلية بين مصر والسودان ثم

انسحب الصاغ وانسحب معه اعضاء وفده رغم المحاولات التي بذلت لابقائه ليكمل شرب الشاي ويأكل بقية «الكعك» وقطع السندوتشات الصغيرة المملحة جدا.

.. بعد خروج الصاغ مباشرة بدأت حلقات المسلسل تدور في خطها المرسوم فنقل الامام المهدي القضية وروى تفاصيلها للواء محمد نجيب رئيس الجمهورية انذاك في محادثة هاتفية وطلب اليه في نهايتها ان يسارع فورا باستدعاء الصاغ من السودان على الا يعود اليه مرة اخرى. لم ينته الامام عند حد هذه المطالبة بل مضى إلى أبعد من ذلك بكثير حينما طلب من اللواء محمد نجيب في محادثته تلك الهاتفية الطويلة ان يتعهد له بوقف زيارات جميع المسؤولين المصريين والوفود الصحفية والاذاعية في هذه الظروف بالذات التي لا تقبل المساومة والمجاملة ولم يكتف الامام بهذا القدر من الانذارات الخطيرة الموجهة بل طالب اللواء نجيب كذلك بان يبعد الصحافة والاذاعة المصرية عن شؤون السودان الداخلية وان يتوقف على الفور البرنامج الاذاعي «ركن السودان من القاهرة» و... و.. وكانت اجابات الرئيس نجيب صاحب الجذور السودانية الأصيلة الذي عرف بطبيعته وبساطته هي: حاضر يافندم.. إن شاء الله.. حنشوف يافندم خير إن شاء الله يافندم بس ياسيادة الامام والحديث للرئيس نجيب (لي رجاء عندك وارجو ما تخيبوش وهو ان تتعهد لي بحق ما بيننا من مودة واحترام ان تدفن هذا الذي جرى في بئر والا تسمح باذاعته او نشر تفاصيله لانه قد يثير الخواطر ويحدث آثارا سيئة والاستعمار والانجليز يتربصون بنا وبكم. فوعده الامام ان مصر تعهدت كذلك وفعلا أوفى الامام بوعده وكذلك مصر ولكن لبعض الوقت لا كل الوقت.

.. لم يمض الصاغ صلاح سالم ليلتَه تلك في الخرطوم ويبدو انه قد استدعي فعلا وعلى عجل فقطع زيارته التي بقي لها خمسة ايام اخرى. وفي الصباح فوجىء الشارع السياسي السوداني بقطع زيارة الصاغ حتى كبار المسؤولين من رجالات الأحزاب الاتحادية امتدت اليهم الدهشة والمفاجأة وبذلت الصحف كثيرا من المحاولات والاجتهادات لمعرفة السر الكبير وراء قطع الزيارة ولكنها لم توفق الا ان الاذاعة المصرية قد خففت من حدة الدهشة والمخاوف فسارعت في مقدمة نشراتها التالية واذاعت خبرا صغيرا في نبرات عادية وهادئةاعلنت فيه بان الصاغ صلاح سالم وصل إلى القاهرة لارتباط مسبق وسيعود إلى الخرطوم في الاسبوع المقبل... نواصل نشرة الاخبار من القاهرة.. هنا القاهرة!

.. هذه هي قصة الأزمة الشهيرة التي كان السودان كله يتلهف باحثا عن أسرارها وأسبابها وقد شاءت الاقدار والصدف ان أحضر الفصل الأول منها ثم ما لبثت ان خرجت مكرها وبدافع الحياء والخجل والحرج عندما لاحظت بعد انسحاب الصاغ ان الامام المهدي بدأ يتحدث همسا مع قادة وزعماء حزبه ومضوا يتشاورون سرا فيما بينهم غير ان السيد عبدالله خليل روى لي فيما بعد أحداث الفصل الثاني والثالث والختامي

كما أكده كذلك السيد عبدالله خليل فقد الله امين عام شباب الانصار ووزير الداخلية فيما بعد.

.. اما الشاب بطل القضية فقد علمت انه ذهب اجازة لاهله وظللت اتابع اخباره والاحقه لمجرد حب الاستطلاع علني اجد في لقائه اي خيط ولو رفيع يقودني إلى الحقيقة او جزء من الحقيقة ومع مرور الايام وزحمة الأحداث نسيت الشاب لكنني علمت فيما بعد ان المنية قد سبقتني اليه وعاجلته بغتة في حادث مشؤوم..

والان وانا مواجه بهذه الواقعة الخطيرة التي كانت من الممكن ان تنسف العلاقات بين مصر والسودان وتعرضها في ساعة حدوثها إلى هزات ومخاطر لا يعلم الا الله مداها.. لابد لي وانا أمام هذه المواجهة من وقفة قصيرة الجأ فيها إلى العقل والمنطق ولو لثوان معدودات... لابد من وقفة متأنية متجردة أضع فيها كل هذه الوقائع والبيانات في ميزان مرهف وحساس (ومضبط) دون ان اتجاهل صرخات الصاغ بان كل الذي جرى ما هو الا مؤامرة قذرة وتمثيلية مفضوحة دبرها الاستعمار الانجليزي للفتنة والايقاع بين الشعبين الشقيقين.

ثمة اسئلة كثيرة وعلامات تعجب كبيرة تدور بسرعة شديدة في الافق العقلي وهي تبحث عن اجابات واضحة وصريحة ومحدودة فالقصة كما سمعت وشاهدت بعض فصولها تبدو من الوهلة الخاطفة الاولى وعند الغاء العقل واسترخاء الجسد والاستسلام لمجرد العاطفة وكأن فيها من بعيد جدا بعض معالم الحقيقة وملامح الصدق وهنا تلح الضرورة في البحث عن اجابات للاسئلة وعلامات التعجب التي تقف باصرار لتفرض نفسها في مثل هذه الواقعة التي زلزلت الارض تحت اقدام كبيرة وقوية وذات وزن لا يمكن لأحد ان يستهين به.

اولا: هل القصة حقيقة وقعت أم هي مؤامرة دبرت.. وهل كان الصاغ صادقا في صرخاته وانفعالاته ام كان المهدي صادقا في اتهاماته!؟

ثانياً: هل يمكن للعقل ان يقبل وان يصدق بان المخابرات المصرية بكل ما عرف عنها من دقة وقوة ان تتدلى إلى هذا الدرك السحيق من السذاجة والعبط بحيث لا تضع في حساباتها ما يترتب على مثل هذا السلوك من مضاعفات خطيرة خاصة في ظروف حرجة ودقيقة مثل التي كان يعيشها السودان؟!

ثالثاً: وهل بالضرورة ان ارادت الاستخبارات المصرية ان تجند عميلا او تستدرج عدوا ان تفتح له ومنذ اللحظات الاولى صدرها وقلبها وأبوابها هكذا وبكل سهولة وبساطة وعفوية إلى درجة يقابل ويتحدث فيها العميل او المستدرج في أول لقاء لوزير كبير في قمة المسؤولية مثل الصاغ صلاح سالم!؟

رابعاً: هل يمكن للمخابرات المصرية ان تجازف وتخاطر وتتهاون إلى الحد الذي تورط فيه عضو مجلس ثورة بدرجة تعرضه إلى مثل هذا الحد من المواجهة المباشرة والفضيحة المجلجلة!؟

خامساً: ان ابجديات المخابرات وواجبها الاساسي الذي يعرفه البسطاء والبلهاء والسذج هي السرية والشك مع الحيطة والحذر، فهل يمكن للمخابرات المصرية ان تتجاهل وتسقط من حساباتها دور المخابرات السودانية صاحبة الارض والزمان والمكان والتي يشرف عليها اشرافا تاما ومحكما كبار الضباط الانجليز العتاه المنتقين خصيصا لتلك الفترة الحساسة الحرجة وقد كانت كما يعلم حتى المتسكعون من اهل الشارع انها تتخصص في متابعة الصاغ لتحصي أنفاسه، وتعد خطواته بل وتعرف نكاته وضحكاته!؟

الحقيقة الوحيدة الماثلة امامي بوضوح هي ان القصة قد استغلت فعلا إلى نهاية النهاية وحققت كل أغراضها وأهدافها ولكن قبول مصر لتهديدات وانذارات المهدي وبدون تهيج او تشنج وانفعال لابد بل من المؤكد ان يكون وراءه أمر جلل وسر عظيم.

لا اريد بهذا الذي سطرته وذهبت بعيدا في شرحه ان اصل بالقارىء إلى حكم فاصل وجازم على هذه الواقعة المزلزلة وما رويته لا يخرج عن كونه مجرد اجتهادات او استنتاجات قد تصل او لا تصل بنا إلى الحقيقة العارية، وبما انني قد نقلت الدلائل والبيانات والروايات والشهادات وكل الظروف المحيطة بهذه الواقعة رغم انها غاصت بعيدا في زوايا التاريخ والنسيان، فانني آمل ان يتمكن القارىء العزيز وهو في ساعات صفائه من حل هذه المعادلة الصعبة والتروي في الوصول إلى الحقيقة قبل ان يصدر حيثيات ادانته على اي من الفريقين.

اعود مرة أخرى إلى موقف مصر الرسمي واستجابتها لمطالب الامام المهدي هكذا ببساطة وهدوء ودون تشنج وبلا انفعال وهياج.. اعود مؤكدا بان الذي كان وراء اتخاذ هذا القرار والموقف الصعب هو البكباشي جمال عبدالناصر نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية آنذاك والقابض على كل شيء من وراء الستار.

لم اصل إلى هذه النتيجة المؤكدة اعتباطا او تخمينا او اجتهادا، ولكنني تيقنت منها عندما التقيت وتحدثت فيما بعد إلى الرئيس الراحل جمال عبدالناصر في اكثر من لقاء وفي اكثر من مقابلة وعرفت عن قرب قريب الرأي الثابت الدائم الذي كونه عن السودان وأهل السودان من واقع تجربته ومعايشته الخاصة منذ ان كان ملازما صغيرا في الجيش المصري في الخرطوم في بداية الاربعينات.

جملة واحدة انتهى منها ولخص فيها الرئيس المصري موقفه ورأيه عن السودان وظل يتمسك ويؤمن به منذ ان كان ملازما حتى اصبح رئيسا للجمهورية كان يجاهر به في جميع لقاءاته بالسياسيين والصحفيين السودانيين، خاصة اذا ما برزت على السطح السياسي بوادر خلاف او نزاع او مشكلة من المشاكل كان يقول:

(الشعب السوداني شعب حساس جدا جدا نعد حساباتنا بدقة اشد عند تعاملنا معه ومع زعمائه).

لا أريد أن أقفز فوق الأحداث وانتقل من حديث إلى آخر بلا ترتيب وذلك حتى لا

تتشابك خيوطها فافقد القدرة على عاملي السيطرة والمتابعة فيضطرب توقيتها الزمني مما يفقدها طبيعة التسلسل المطلوب.. صدقوني انا اريد هذا ولكن قد تفرض بعض الأحداث الكبيرة نفسها فرضا مما يدفعني لمتابعتها ومجاراتها دون التقيد بعنصري الزمن والتسلسل فليعذرني القراء اذن.

أعود من جديد لاكمل توقعاتي واستنتاجاتي الخاصة بمسلك مصر الغريب الذي صبت بعده الماء البارد على ثورة الامام ذلك لان الرئيس عبدالناصر الذي عرف اخلاقيات السودان بحكم معايشته له عامين كاملين في فجر شبابه جعله يخمد الفتنة دون أن يوقظها ففعل عن رضا واقتناع.

# ﴿ الفصل السادس ﴾

- من المسؤول عن افساد الحياة السياسية في السودان؟
- أحداث مارس الدامية غيرت مسار السودان
- الرئيس المصري يرجع بعد ساعة من وصوله الخرطوم.
- وزير الخارجية البريطاني حاول ان يكون «ستاك» ثانياً.



الصاغ صلاح سالم يتوسط أول حكومة برئاسة الازهري على يمينه

وقعت بريطانيا ومصر اتفاقية الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان في ١٢ فبراير عام ١٩٥٣ وتعهدت بموجبها الدولتان على ان تنهيا فترة الانتقال بأسرع وقت ممكن وهي الفترة التي تبدأ بانتخاب أول برلمان سوداني في يناير ١٩٥٤ لتشكل على أثرها حكومة وطنية حددت لها ثلاث مهام رئيسية أولا : سودنة الجيش والخدمة المدنية، ثانياً : اجلاء قوات دولتي الحكم الثنائي. ثالثاً : تنظيم اجراءات تقرير المصير.

.. ما أن اذيعت بنود هذه الاتفاقية حتى بدأت الاستعدادات والصراعات للحملة الانتخابية بين الكتلتين الرئيسيتين طائفة الانصار وحزب الامة تساندهما الحكومة البريطانية واثيوبيا من جهة، وطائفة الختمية والوطني الاتحادي تساندهما مصر من جهة أخرى ونزل الفريقان المتصارعان حلبة السباق (الملاكمة) ونزل معهما الشعب السوداني المتعطش للحرية والحياة الكريمة بكل ثقله وبكل فئاته وبلا استثناء، وبدأت المشاعر تغلي كالمرجل وتلتهب بشكل محموم يشبه في كثير من جوانبه حالات (الصرع) ونشطت وفود الاحزاب فجابت أرجاء السودان مدنه وقراه غاباته واحراشه صحاريه وفيافيه وأخذت مكبرات الصوت تنتشر في كل ركن ومكان حتى ان الادارة البريطانية المهيمنة على الحكم كانت تتحاشى التصديق باقامة اي تجمع سياسي للفريقين المتناحرين في مكان واحد في وقت واحد تجنبا لاحتمال الصدام، وبالرغم من الحرص والاحتياطات الا ان بعض الاصطدامات الخطيرة قد وقعت بالفعل..

.. كان الصاغ صلاح سالم الوزير المصري قد نزل هو الآخر بكل ثقله وحقائبه ولم يترك مجالا الا ودخله رغم احتجاج المعارضة. بدأ تدخله بانتخابات المجالس البلدية (المحلية) خاصة في مدينة أم درمان حتى يختبر قوة حزبه او قوته الشخصية فكان ان فاز فيها الاتحاديون باغلبية كبيرة مما شجع الصاغ وجعله يستعرض عضلاته لا في الخرطوم فحسب وانما في القاهرة ايضا مما زاد من صلاحياته ودعم نفوذه وقوى مركزه.

.. ووسط هذا الجو المتوتر كثيرا ما تحدث بعض الفكاهات النوادر التي تقلل من درجة الحرارة والغليان ولو للحظات قصيرة. اذكر ان السيد محمد الخليفة شريف وهو

من اعماق بيت الامام المهدي وكان اديبا وشاعرا، لكنه عرف اكثر بالسخرية والجرأة وطول اللسان وجه في تلك الايام على سبيل المجاملة دعوة غداء للصاغ صلاح سالم وعدد من كبار المصريين وحضر المائدة ايضا عدد من كبار رجالات حزب الأمة وفي مقدمتهم عبدالله خليل وعبدالرحمن علي طه ومحمد صالح الشنقيطي وعبدالرحمن عابدون والدكتور علي بدري وشخصي كلهم انتقلوا إلى رحمة الله ماعدا الاثنين الأخيرين، أمد الله في عمر عمنا الدكتور علي بدري، ومنحني فسحة من الايام حتى اكمل ما بدأته.

.. توجه الجمع الى مائدة الغداء العامرة بكل معاني الكلمة كما هي عادة المضيف وما ان جلس الناس حتى بدأ السيد محمد الخليفة يوجه لومه للصاغ لتدخله في انتخابات المجالس وخصوصا مجلس أم درمان الذي هزم فيه الانفصاليون هزيمة شديدة.

.. كان الصاغ صلاح سالم اعتاد ان يحمل في جيبه مصحفا صغيرا ظل يخرجه ويقسم عليه بالنفي كلما وجه اليه السيد محمد تهمة من الاتهامات وما أكثرها ولما زاد عدد المرات التي أخرج فيها الصاغ المصحف الشريف أقسم عليه على خمس مرات ما كان من السيد محمد الا ان فجر قنبلته الاولى والاخيرة عندما قال:

«صلاح سالم!! «انت المصحف مألفو ابوك؟! فضحك الجمع للحظات ولكنها كانت قصيرة للغاية ساد بعدها الوجوم ثم ما لبث الصاغ وفي عصبية شديدة ان قذف على اثرها «بالفوطة» وأنسحب من المائدة وخرج دون ان يقول مع السلامة ثم لحق به بقية زملائه» الغريب ان السيد محمد الخليفة بدلا من ان يطيب خاطر ضيفه قال وراء ظهره:

«روح في ستين الف داهية انت واللي جابوك»!

.. نعود بعد هذه الواقعة التي أرجو ان تكون فاصلا مريحا لنرفع الستار من جديد حتى نتمكن من متابعة فصول الأحداث.

... اجريت الانتخابات الحرة المباشرة في نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٥٣ بعد معارك عنيفة لأول برلمان سوداني ولم تكن مفاجأة بالمعنى الكبير اذ فاز فيها الحزب الوطني الاتحادي وشكل السيد اسماعيل الازهري اول حكومة وطنية منح فيها الجنوبيون ثلاثة مقاعد من الدرجة الثالثة ـ وذلك حتى يستميل اليه الجنوبيين والجنوب.

.. استقبلت طائفة الختمية وراعيها مولانا الميرغني والأحزاب الاتحادية وعلى رأسها اسماعيل الازهري هذا الانتصار بالتهليل والفرح والسرور ونحر انصارهم الوف الذبائح في مختلف بقاع السودان وزغردوا وهللوا وكبروا وظلت مواكبهم تعيش أفراحها لايام وايام.

... أما طائفة الانصار والامام المهدي والأحزاب الاستقلالية فقد تجرعوا كؤوس الهزيمة مريرة وحتى نهايتها فاطفئت الأنوار في دورهم وهدت كل الزينات التي نصبت

توقعا للفوز ولكن هل يمكن لهذه القوة الكبيرة المؤثرة المنتظمة ان تستسلم هكذا وبسهولة إلى هذه الهزيمة النكراء!!؟

.. ثمة ملاحظة هذا مكانها ولابد لي من ذكرها حتى لا تتداخل وتفوت في زحمة الأحداث هي أن الاحزاب ـ جميع الاحزاب كثيرا ما كانت تدعي بل وتتبجح بأن السودان قد اتخذ المنهج الديمقراطي السليم ـ على قرار وستمنستر ـ صوت واحد حر لكل مواطن حر وهذه الدعوى ـ وأنا أقول من التجارب والوقائع ـ انها كانت مجرد اكذوبة بلهاء بيضاء لان الذي كان بيننا وبين الديمقراطية السليمة فراسخ ووهاد وأميال لاتحصى، وأن أجراس كنيسة وستمنستر ذاتها كانت تدق في عنف وهي تصرخ بأنها بريئة مما كنا ندعي ونقول، والحقيقة التي لا يختلف عليها سودانيان راشدان عاقلان هي أن شعار صوت واحد للمواطن كان بعيدا عنا وانما الذي نعرفه اجمعين بانه كانت هناك ثلاثة ملايين صوت للامام عبدالرحمن المهدي ومليونان ونصف المليون صوت للميرغني وبقية الاصوات للازهري ومناطق الوعي وجماهير العمال وهي الوحيدة التي يمكن ان تعتبر خارج نفوذ الطائفتين وأقرب ما تكون إلى ديمقراطية وستمنستر.

.. فالمرشح لحزب الأمة أو طائفة الميرغنية مهما كبر نفوذه وقويت حجته وبلاغته وفصاحته لا يمكن بل ويستحيل عليه الفوز في دائرته الانتخابية الا اذا باركه زعيم الطائفة وأصدر اشارته الممهورة «بختمه» تأكيدا للتأييد لذلك فقد كنت ترى زعيما كبيرا كالسيد عبدالله خليل سكرتير الحزب يرشح نفسه في دائرة «أم كدادة» وهي في اقاصي الغرب والمسافة بينها وبين الخرطوم كالمسافة بين الخرطوم وباريس لانها دائرة مغلقة ومضمونة وتحت نفوذ الامام المهدي. وعبدالله خليل فاز في دائرته بالتزكية رغم أنه ما قام بزيارة أهليها الا نادرا جدا وفي أوقات متباعدة جدا جدا!!

.. كونت اللجان القومية لسودنة الجيش والخدمة المدنية في أبريل ١٩٥٤ واستطاعت أن تنجز كل اعمالها في أول أغسطس ١٩٥٥. تقول المادة التاسعة من الاتفاقية ان فترة الانتقال يجب الا تتعدى الثلاثة أعوام تنتهي بأن يجيز البرلمان قرارا يعبر فيه عن رغبته في الشروع لتقرير مصيره يرفعه الحاكم العام للحكومتين البريطانية والمصرية وهذا ما حدث بالفعل ففي يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٥ قدم السيد اسماعيل الازهري رئيس الحكومة الاقتراح التالي للبرلمان:

«نحن أعضاء مجلس النواب في البرلمان مجتمعا نعرب عن رغبتنا في الشروع في اتخاذ التدابير لتقرير المصير فورا ونرجو من معالي الحاكم العام اخطار الحكومتين المتعاقدتين بهذا القرار بمقتضى الاتفاق بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلنده!

ثنى الاقتراح السيد الصديق المهدي رئيس حزب الامة فقال: «ان المداولة في هذا الاقتراح أمر تقتضيه النظم البرلمانية ولولا ذلك لما احتاج موضوع اليوم لحديث قليل أو

كثير لان اجماع الشعب منعقد على الجلاء والاستقلال شئنا في هذا المجلس أم لم نشأ »

.. أما الزعيم الجنوبي المرموق بوث ديو رئيس حزب الاحرار والممثل لوجهة النظر الثالثة في البرلمان والذي عرف بتطرفه الشديد وتخوفه الأشد من مصر فقد أستشهد بكلمة نسبها إلى جلادستون أحد رؤساء الوزارات البريطانية قالها في مجلس العموم البريطاني عام ١٨٩٧ (ان السودانيين الذين يناضلون من أجل حريتهم يجب ان يرفع عنهم الطغيان المصري) وأضاف بوث ديو: اننا اليوم سنضرب آخر مسمار في نعش السيطرة الاجنبية وخاصة سيطرة الدول المجاورة لنا!!

وفجأة ظهرت ولأول مرة في تاريخنا السياسي «البورصة» وسوق النخاسة وشراء بعض النواب ومع الأسف فان عددا كبيرا من النواب الجنوبيين ممن كان الواحد منهم يتقاضى قبل انتخابه للبرلمان مرتبا لا يزيد على العشر جنيهات ومعهم عدد قليل من النواب الشماليين الضعفاء ظلوا يتأرجحون بين التيارين يعلنون انضمامهم لهذا او ذاك لانهم لم يستطيعوا مقاومة الصاغ صلاح سالم وحقائبه المنتفخة دائما وأبداً. والحقيقة المؤلمة الباقية الخالدة أن الصاغ صلاح سالم هو المسؤول الاول والثاني والأخير عن افساد الحياة السياسية في السودان هو المسؤول عن كل مشكلة وأزمة وخلاف، ولكنه في النهاية دفع الثمن غاليا وباهظا «بعد أن خرب مالطا وما وراء مالطا) ثم بعد ذلك فقد نفسه.

... ظل عدد كبير من النواب الجنوبيين يسببون صراعا مزمنا ومستمرا للاحزاب خاصة في لحظات التصويت لحجب الثقة مما جعل بورصة المزايدات وسوق النخاسة رائجة في تلك الفترات بشكل يدعو للاسف «والقرف» معا.

.. تحدث في هذه الجلسة التاريخية بعد الأربعة أعضاء الرئيسيين عدد كبير من النواب في نفس المعنى وعند اجراء التصويت لم يسمع صوت واحد يقول: لا ـ كانت كلمة ـ نعم بالاجماع المطلق.

.. منذ الصباح الباكر لهذا اليوم التاريخي في عمر الشعب السوداني.. اليوم الذي أطلق عليه «يوم الجلاء» توقفت الحياة تماما في دواوين الحكومة والاسواق والمدارس وظلت جماهير الشعب تموج تحت وهج الشمس المحرقة وهي تهتف: الجلاء.. الجلاء لا أحلاف لا استعمار الشعب يطالب بالاستقلال... عاش السودان حرا مستقلا.

.. وفي منتصف الواحدة خرج النواب والشيوخ من البرلمان يتقدمهم الازهري رئيس الحكومة ومحمد احمد محجوب زعيم المعارضة فهجمت عليهما الجماهير المتراصة وحملتهما على الاعناق وظلت المظاهرات تجوب شوارع العاصمة المثلثة وجميع مدن وقرى السودان وهي تعبر عن فرحتها.

.. هناك شيء هام وكبير كان له الاثر المباشر في (الدربكة والفوران السياسي) وهو أحداث التمرد في جنوب السودان التي بذرها وزرعها وخطط لها الاستعمار البريطاني

فبمجرد سودنــة الجيش الســودانــي وطـرد الضبــاط والقضــاه والموظفيــن والاداريــن البريطانيين من الجنوب، وفي جو ملتهب مشحون بالاثارة والمخاوف عند المواطنين الجنوبيين والشائعات والنظريات التي ارضعتهم وربتهم عليها الكنائس وجيوش المبشرين ذلك ان الشماليين ما هم الا مستعمرون جدد يريدون استبعادهم وبيعهم في الاسواق كالماضي حتى بدأت الثورة في الجنوب وأعلن جنود الجيش والبوليس عصيانهم وتمردهم وقاموا بقيادة جنود لا تتعدى رتبهم الشاويش والصول والملازم وهي اكبر وأقصى رتب كان يحتلها المواطنون الجنوبيون مع عدد قليل من الاداريين والمدنيين... وقاموا بذبح وتقتيل وحرق معظم الشماليين من الاداريين والموظفين والتجار ونسائهم وأولادهم وأطفالهم حتى زاد عدد الضحايا على الخمسمائة.

.. كان ذلك في نوفمبر ١٩٥٥ واستطاعت القوات الشمالية بعد جهد جهيد ان تحتوي العصيان والتمرد لكن معظم المتمردين كانوا قد دخلوا الغابات والاحراش وهربوا إلى الدول المجاورة يوغندا والكنغو واثيوبيا فشكلوا بعد ذلك جيشا آخر ظل يغير على السودان ويصطدم بقواته اصطداما مباشرا وغير مباشر بتأييد ومساندة بعض الدول والكنائس الاستعمارية لسنوات طويلة حتى تم الصلح ووقعت معاهدة أديس ابابا المعروفة في عهد النميري وتوقف الرصاص وجفت الدماء ولكن إلى حين.

.. مع أفراح الشمال بقرب موعد اعلان الاستقلال كانت المحاكم العسكرية قد شكلت في الجنوب لمحاكمة المتمردين فبلغت أحكام ـ الاعدامات رميا بالرصاص اكثر من مائتين كلها صدرت تحت توقيع وبموافقة الحاكم العام البريطاني السير نكس هلم.

.. من الاحكام الصارمة التي مازلت اذكرها لتلك الحوادث المشؤومة هو صدور حكم الاعدام على خمسة وأربعين شخصا أتهموا باطلاق النار وحرق الشهيدين الفاضل الشفيع مفتش مركز (ياي) والملازم عصمت بحيري وثلاثة من موظفي الغابات الشماليين كما صدرت أحكام الاعدام على واحد وعشرين متهما بقتل اليوزباشي ابراهيم الياس قومندان فرقة (كبويتا) والتاجر الشيخ محمد الغزراي. وقد بلغ عدد المعتقلين والسجناء الجنوبيين الذين نقلوا للشمال اكثر من ألفين.

.. كان من أبرز رؤساء المحاكم العسكرية في الجنوب انذاك اللواء ابراهيم عبود قائد انقلاب نوفمبر ١٩٥٨ فيما بعد والذي ظل الصدام المسلح في عهده بين القوات الشمالية وقوات المتمردين مستمرا بضراوة وشراسة لا تعرف اللين ولا تؤمن بالهدنة والمهادنة.

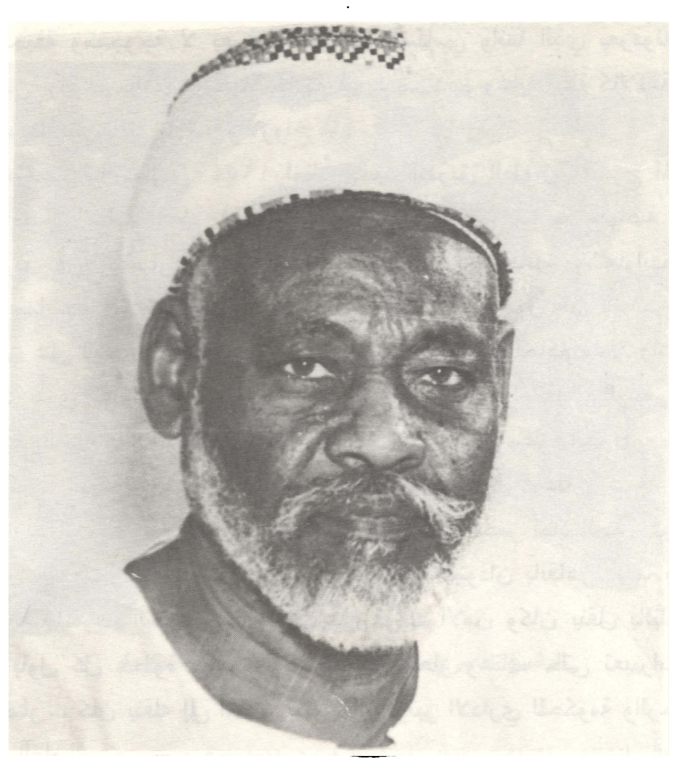
استغل قادة الاحزاب الجنوبية الجو الملتهب الدامي فتوحدوا فيما بينهم وبدأوا ـ يضغطون بشتى الوسائل والسبل على القادة السياسيين في الخرطوم رافعين راية الحكم الفدرالي واحيانا راية الانفصال.. وكانوا يهددون كلما أعلن حكم الاعدام على مجموعة من اهليهم بالانفصال التام أو الموت الزؤام فتربعت قضية الجنوب على قمة الاحداث وأصبحت حيوية وحساسة خاصة ولم يدع احد من قادته للاشتراك في المحادثات بين

أحزاب السودان ومصر مما زاد المرارة، لكن القادة في الشمال ظلوا يعالجون الموضوع كله بتعقل ولين وهدوء وسياسة وشفقة حتى استطاعوا أن يحتوا مشاعر الاثارة والغضب ويكسبوا العقلاء من العناصر الجنوبية المتشددة.

.. حدد اليوم الاول من مارس ١٩٥٤ لافتتاح البرلمان وقد وجهت الحكومة الميرغنية الاتحادية برئاسة الازهري الدعوة لكل من الرئيس المصري اللواء محمد نجيب والمستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية لحضور احتفالات ومراسم الافتتاح وقد اثارت دعوة اللواء محمد نجيب ثائرة الانفصاليين وألهبت مشاعرهم الملتهبة أصلا فأضافت إلى مرارة هزيمتهم في الانتخابات مرارة جديدة لايمكن ان يقبلوا طعمها ويتجرعوها بسهولة هذه المرة!

.. كانت كل الدلائل تشير إلى أن شيئا ثقيلا وحالكا ومقبضا يحوم فوق الرؤوس، وأن نذر التحفز والشر والخطر بدأت معالمها تبرز وتزيد حتى أن كل مواطن استطاع ان يتحسسها بسهولة ويتعرف على ملامحها وبدأت وفود الامام ورسله (الطائفيون لا السياسيون) تطوف سرا مناطق نفوذه في كل شبر وزاوية في السودان وما ان جاء الاسبوع الأخير من فبراير حتى أمتلأت العاصمة بأنصار الامام المهدي وهم بزيهم المميز المعروف يحملون الحراب والسيوف والفؤوس يطوفون شوارع العاصمة في طوابير عسكرية منظمة ويعزفون «سمفونية مخيفة» كموسيقى أفلام هتشكوك، تفزع القلوب وتهيج المجانين. كانوا يقولون بصوت واحد وايقاع واحد «السودان بلدنا ونحن اسياده» السودان للسودانيين يعيش حرا مستقلا. كانت هذه الهتافات لها مدلولها السياسي الخطير انذاك اذ كان الشعور السائد ان الوحدويين سينادون بالاتحاد من داخل البرلمان وأن هذه الكارثة (بالنسبة للانفصاليين) ستحقق لان الاغلبية العددية يتمتع بها الوحدويون لذلك فلابد اذن من المعارضة والمقاومة بل والصدام المسلح الدامي ان اقتضى الامر لايقاف مثل هذه المحاولة الخطيرة.

.. ظلت مواكب الانصار تجوب الشوارع صباحا ومساء فتعطل كل شيء واختفى الخبز والسكر من الأسواق وأغلقت المطاعم وحرص المواطنون وخاصة المواطنات الا يخرجوا للشوارع ولا يبرحوا دورهم مهما بلغ بهم الامر بل ومبالغة في الحرص اغلق البعض ابواب بيوتهم «بالضبة والمفتاح» وأعلنوا حالات الطوارىء من الداخل وبالرغم من أن الحكومة قد اتخذت كل وسائل الحيطة والحذر والترقب الا أنها كانت تبدو ضعيفة عاجزة عن مقاومة هذه الجيوش الجرارة ناهيك عن حفظ الامن والنظام والارواح والممتلكات لان عدد الانصار الذين دخلوا العاصمة بل وطـوقوها من الخارج ـ تماما كما فعل قائدهم الاكبر الامام محمد احمد المهدي عام ١٨٨٣).. كان عددهم اضعاف قوات الأمن مما جعل وقوع الكارثة شيئا ملموسا وواضحا وبارزا وواقعا لا محالة.



الامام عبدالرحمن المهدي نجل المهدي الكبير

.. لم تعرف جماهير طائفة الختمية ولا جماعات الازهري يوما بالعنف لأن معظمهم كانوا من الحضر المستنيرين ومن جمهرة المثقفين كما أنهم لم يربوا على وسائل العنف والاثارة والتضحية المدمرة كما هو شأن طائفة الانصار التي استمدت عنفها وشدتها وولاءها المطلق منذ تاريخها ومنازلة الحكم التركي البريطاني بل والانتصار عليه وذبح قائده غردون باشا حاكم عام السودان.

.. طائفة الختمية وجماعات أزهري قد تعارك بالهتافات والخطب هجاء، شعرا ونثرا وقد تصل في القليل النادر إلى الاشتباك بالايدي، أما لغة السيوف والحراب والفؤوس والرصاص والدماء فهذا ما لا تعرفه ولا تريد ان تعرفه لاخوفاً ولا جبنا، وانما سلما وسلاما ونورا وحضارة فماذا كان اذن وماذا حدث؟!!

.. اقتربت الساعة وانشق القمر ودقت ساعة الصفر وجاءت لحظات الانتقام الرهيبة المرعبة التي أعدها ومهد لها قادة وزعماء الانصار الطائفيين كي (ينفسوا) بها على انفسهم وما علق بهم من هزيمة منكرة في أول انتخابات برلمانية ابعدتهم تماما عن السلطة وميدان الجاه والصولجان وأرادوا بالذي دبروه في الخفاء والعلن ان يثبتوا وجودهم للعالم أجمع وعلى الأخص مصر وان يؤكدوا كذلك بان الاغلبية العددية في

البرلمان ... والانتخابات الحرة المباشرة وصوت حر واحد لكل مواطن حر ما هي الا شعارات سخيفة وممجوجة لا يعرفها قاموسهم السياسي وانما الذي يعرفونه هو لغة العنف وفرض ارادتهم بالقوة المسلحة خاصة في هدف كبير وغاية نبيلة كالاستقلال الذي يسعون له ويدافعون عنه بالمهج والارواح.

.. ومنذ فجر اول مارس ١٩٥٤ امتلأ جانبا الطريق الطويل المتعرج المؤدي من المطار إلى قصر الحاكم العام (قصر الشعب الان) بكتل بشرية متراصة في نظام عسكري فريد من الانصار بزيهم الموحد وهم يرددون هتافاتهم وشعاراتهم بالحرية والاستقلال مما جعل الاتحاديين وأنصار طائفة الختمية يبتعدون من الساحة ويكتفون بالمشاركة من على البعد لكن معظمهم بما فيهم زعماء حزبهم الحاكم وعلى رأسهم السيد اسماعيل الازهري كانوا قد احتلوا فناء المطار ليكونوا في استقبال الرئيس المصري محمد نجيب والصاغ صلاح سالم، وما ان ظهرت الطائرة في سماء الخرطوم في حوالي الساعة العاشرة صباحا حتى ارتفعت الصيحات المعادية إلى عنان سماء الخرطوم وأخذت زغاريد الحرب التي تشبه كثيرا صرخات الهنود الحمر تملأ الجو رعبا وتهديدا ووعيدا. كان القومندان السيد /بابكر الديب ـ سفير السودان بالقاهرة فيما بعد أطال الله عمره هو المشرف السوداني الرئيسي على قوات الامن وكان ينقل بالتليفون من عربته اولا باول كل خطوة وهمسة ويسجل كل شعار وهتاف حتى تعبيرات الوجوه وتحفز الانصار.. كان ينقله إلى المستر بيتون السكرتير الاداري للحكومة والرجل الثاني بعد الحاكم العام.

.. هبط الرئيس المصري والصاغ صلاح سالم والوفد المرافق لهما أرض المطار فارتفعت صيحات الوحدويين بالهتاف بحياة مصر وحياة نجيب والازهري الا انها كانت هتافات مخنوقة محصورة فقط في أرض المطار وفنائه الصغير. وظهر القمندان بابكر الديب وعلى الفور أصدر أوامره لقوات الأمن في المطار والقوات المرافقة للرئيس المصري بالغاء خط السير المرسوم لركب الرئيس المصري وتحويله رغم اعتراضات واوامر الرئيس الازهري إلى الاتجاه المضاد ... الفراغ الواسع الذي يؤدي إلى قرية (بري) شرق المطار فوابور المياه فشارع النيل المؤدي إلى قصر الحاكم العام، بينما تجمعات الأنصار الرئيسية كانت تقف في الطريق المرسوم في الجانب الغربي للمطار ـ الجانب المضاد تماما وقد أنقذ تصرف القمندان بابكر الديب السودان من كارثة محققة لم يكن يعرف سوى الله وحده نتائجها وأبعادها فقد علمت المخابرات السودانية وعدد قليل ممن يعرفون ويلمون ببواطن الأمور انه كانت هناك خطة تهدف إلى اغتيال اللواء نجيب وصلاح سالم وجميع من معه من مرافقين عسكريين ومدنيين وصحفيين ومصورين ولا بأس من أن تمد حملة التقتيل لتشمل الازهري وجميع وزرائه ونوابه وكبار رجال القوات المسلحة والموظفين هذا على الاقل ما ورد في تقارير الامن.



الرئيس المصري محمد نجيب عند وصوله للخرطوم

.. طال انتظار المواكب الانصارية الهادرة المتفجرة المتوعدة وازداد غليانها وعلا هديرها بعلو الشمس وارتفاع درجات الحرارة فتصبب العرق حارا على الوجوه وبدأ (فوران الدم) الذي كان هادئا باردا حتى النسمات الأخيرة من فجر ذلك الصباح وسرعان ما ذاع وشاع خبر تحويل ركب الرئيس المصري فصدرت الأوامر العليا إلى جيوش الانصار بالزحف إلى القصر وكانت التعليمات تعطى الى رؤساء المائة ثم رؤساء الخمسين فرؤساء العشرة ثم القاعدة العريضة، هكذا كان تنظيمهم وكان كبار قادة الانصار الذين ينقلون أوامر وتعليمات القيادة يلبسون شارات مميزة صرفت لهم قبل ساعات من بداية الخطة وذلك حتى تميزهم فيتعرف عليهم بقية القادة المباشرين كما يتعرف عليهم جنود الانصار.

.. بدأ الزحف الكبير وكان على هذه الأمواج ان تمر في طريقها الى القصر بمنزل السيد/ الصديق المهدي المكون من طابقين والذي كان يعتلي (سطحه) جمع من كبار قادة الطائفة وعلى رأسهم الامام عبدالرحمن المهدي نفسه الذي كان يلوح لهم بيده اليمنى مشيرا إلى طريق القصر فكان الأنصار كلما ما مروا قريبا منه تزداد صيحاتهم وترتفع صرخاتهم وتتهيج وتتشنج كل اعضائهم واحاسيسهم.

.. وفي ميدان وزارة المالية والاقتصاد حيث ما زال تمثال اللورد كتنشنر منصوبا وهو على صهوة جواد رافعا يده اليمنى مشيرا بأصبعه إلى ام درمان عاصمة المهدية ... في ذلك الميدان المتاخم لقصر الحاكم اطلق النفير ودقت الطبول وأذنت الشياطين، وهربت الملائكة وفجر البوليس القنابل المسيلة للدموع وجفلت جماهير الانصار ... أول الامر خطوات إلى الوراء الا أن زعماءهم كانوا يشجعونهم في غير ما توقف وصاروا يصرخون في وجوههم:

(يا انصار المهدي الشجعان البواسل لا تهابوا هذا الدخان انه مجرد شطة لا تؤذي المؤمنين وأصحاب المهدي)... وبدأت الحراب والسكاكين والفؤوس تعلو وترتفع لتقتل وتحصد وتذبح كل من يعترض سبيلها وكان اول الضحايا هم من رجال البوليس خاصة السواري الذين يمتطون الجياد، وما ان مضت نصف ساعة حتى كانت جميع جياد السواري يمتطيها الانصار ... ومع مضي الثواني والدقائق امتلأت الساحة على كبرها ووسعها بالدخان وروائح الرصاص ومضى الزحف الانصاري الرهيب فقتل في الحال «المستر بكتنو» قومندان عام البوليس كما قتل مصطفى المهدي مساعده وعدد زاد على الثلاثمائة من الجانبين وعلى رأسهم ميرغني عثمان صالح وجامعيين وطلبة واساتذة.

## عمر جديد

كان من المفروض لولا الاجال المسطرة ان أكون احد الضحايا فقد هجم علينا وكنا مجموعة مكونة من حوالي العشرين شخصا تجمعنا في ركن قصير خلف مرحاض عام تظلله اشجار كثيفة.. هجم علينا انصاريان يمتطيان جوادين وفي يد كل منهما سيف مسلول يخطف الابصار مع اشعة الشمس فاطلقنا سيقاننا للريح كل في اتجاه ... وكنت أجري في خفة الغزال وعلى طريقة (ستيف اوستن الرجل الذي يساوي الستة ملايين دولار) على الرغم من ان الله قد منحني بسطاً في الجسم، ولما أحسست بعلو الصرخات واقدام الحصانين تقترب مني في سرعة مذهلة، رفعتني الملائكة إلى شجرة عالية ثم قذفت بي فوق الحائط ورمتني ارضا داخل منزل المستر ايفانز مدير الاتصال العام والذي يلاصق وزارة الزراعة حاليا وبدلا من ان يستقبل المستر ايفانز ضيفه الذي هبط من السماء بالفرحة والترحاب شهر عليه من بعد بعيد بندقيته الاوتوماتيكية بينما وقفت بجانبه زوجته وهي تحمل مسدسا طوله نصف قدم وما ان تعرف عليّ حتى هدأ وزوجته وهدأت انفاسي اللاهثة بعض الشيء لكن اعضائي كلها بدأت تخور فجأة وبلا مقدمات ثم فقدت القدرة على الحركة والمستر ايفانز وزوجته اراهما كشبحين يتراقصان ويتأرجحان امام عيني بلا توقف حتى اصبحا سرابا بعيدا واغمي علي تماما ولم اشعر الا وانا على اريكة مريحة وصحوت بعد مضي بعض الوقت على رائحة العطر في وجهي

وامامي كوب من الليمون البارد قال لي المستر ايفانز بعدها:

«انت رجل محظوظ وقد كتب لك عمر جديد لابد ان تعتبره ربحا خالصا وهدية من السماء» وقليلا قليلا هدأت آثار المعركة في حوالي الخامسة والنصف مساء خرجت بعدها مودعا شاكرا مضيفي ومضيفتي وما أن تقدمت بضع خطوات إلى الشارع الرئيسي حتى رأيت ما لايقل عن ثلاث جثث مكومة على الارض وهي تنزف دماء حارة غزيرة وأطلقت ساقي للريح من جديد إلى حيث تقف عربتي وذهبت إلى منزلي لاطمئن اهلي اولا ثم استحم لاجفف عرقي المنصب واغير ملابسي المملوءة برائحة البارود والعرق والدخان والقنابل المسيلة للدموع وتوجهت بعد ذلك إلى مستشفى الخرطوم حيث تكومت عشرات الجثث ومئات الجرحى على كل شبر من عنابر وفرندات وميادين المستشفى واعلنت بالطبع حالة الطوارىء كما اعلن الحداد العام واقتصرت برامج الاذاعة على تلاوة القرآن الكريم.

## قصر الحاكم

.. نعود مرة اخرى إلى المسرح الرئيسي للاحداث... إلى قصر الحاكم العام فكما غير القومندان بابكر الدين خط سير اللواء محمد نجيب فانقذه هو ورفاقه من موت محقق وانقذ بلاده كذلك من كوارث لا يعلم مداها الا الله فقد صدرت الاوامر إلى الرئيس المصري ورفاقه بان يتوجهوا إلى المطار فورا ويغادروا البلاد وباسرع فرصة ممكنة وتم ذلك بالفعل عند انطلاق اول رصاصة.

## اشتباك آخر

.. ثمة حادث صغير وخطير راح في غمرة الهيجان ولا يعلم به الا نفر قليل جدا حتى هذه اللحظة.. حادث اشبه ما يكون بمصرع السير «لي ستاك» حاكم السودان العام عند زيارته للقاهرة والتي قيل انها مؤامرة دبرها الحكم البريطاني مع ستاك المريض الذي كان بينه وبين الموت بوصه واحدة فقد روى لي ضابط البوليس السيد سليمان ابو داود - القاضي بام درمان حاليا - انه كان على رأس القوة التي تحرس قصر الحاكم العام وعندما اشتد الصدام ودوى الرصاص والقنابل وارتفعت السيوف والفؤوس والسكاكين، نزل المستر «سلوين لويد» وزير الخارجية البريطاني من القصر مترجلا يريد الخروج لمشاهدة ما يجري، كان المستر سلوين لويد يرتدي قميصا صيفيا أبيض وبنطلوناً رمادياً فاعترضه الضابط سليمان وطلب اليه في ادب جم ان يعود ادراجه خوفا من ان يتعرض لأذى فما كان من المستر سلوين لويد الا ان قال له في

لهجة متكبرة متعجرفة:

«الا تعرفني ياحضرة الضابط؟ انا المستر سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا العظمى» ودخل الاثنان في عراك كلامي أصدر على أثره الضابط أوامره للجنود بان يغلقوا على عجل جميع بوابات القصر الحديدية الضخمة.. وبالطبع فان الضابط سليمان كان في حالة غليان وهستريا مما يرى ويسمع ومنظر الدماء ورائحة الموت تغطي كل شيء ولما ضايقه الوزير البريطاني صرخ الضابط في وجهه قائلا باللغة العربية والوزير لا يعرفها:

«يا عم روح بلا سلوين لويد بلا وجع راس أنا قلت ليك أرجع يعني أرجع» وعندها فقط أحس الوزير البريطاني الكبير ان الضابط جاد فيما يقول وانه لن يستطيع بأي حال من الأحوال ان يخرج ليتنزه في دخان المعركة ويقفز بخفة ورشاقة فوق الجثث والدماء الحارة التي غطت ساحة الميدان وهو يخاطر بحياته... ترى هل كان فعلا يخاطر بحياته ليصبح (ستاك) اخر؟!

## صحف العالم

... احتلت اخبار هذه المجزرة الرهيبة صدر صحف واذاعات العالم وبدأت الكلمات الافتتاحية خاصة في صحافة لندن تصب على النار المتقدة مزيدا من البنزين لتزيدها علوا واشتعالا بينما العاصمة السودانية كانت كلها تعوم في مآتم وأحزان ودموع ونواح لا يتوقف. وفي المساء عادت جيوش الانصار إلى مراكزها الرئيسية في قبة الامام المهدي في ام درمان وقصوره وقصور ذويه المنتشرة في الخرطوم وأم درمان كما صدرت الاوامر لانصار الجزيرة القريبين من الخرطوم ان يعودوا ادراجهم حالا وبسرعة ومع ذلك فقد تم القاء القبض على عدد صغير جدا من رجال الصف الثالث والرابع ومن بينهم اثنان من خدم الامام عبدالرحمن وكان ابرز المعتقلين هو السيد/ عبدالله عبدالرحمن نقد الله باعتباره امين عام شباب الانصار وهو وزير الداخلية ايضا فيما بعد. أما الكبار فكانوا يعتبرون الذي حدث جهادا شريفا قضوا به على الدعوة الاتحادية مرة واحدة وإلى الابد وفتحوا بذلك كل الأبواب والنوافذ التي تقود الى طريق الاستقلال التام.. اما هؤلاء واولئك فمن هم غارقون إلى اذانهم في معركة الكرامة والشرف كما اسموها فلم يجرؤ احد من الحكام الاداريين البريطانيين ولا حتى السيد اسماعيل الازهري ومجلس وزرائه ونوابه وطائفته وباغلبيتهم العددية في البرلمان... لم يجرؤوا ان يشيروا حتى بأصابعهم الى الكبار ناهيك عن محاولة اعتقالهم - وهي بعيدة ومستحيلة - او تقديمهم للمحاكمة وهذا اكثر بعدا واستحالة!! وهذا التصرف من جانب حكومة الازهري كان عين العقل اذ هم بذلك جنبوا البلاد مزيدا من الكوارث والاصطدامات.

.. هدأت العاصمة كثيرا عندما اختفت طوابير الانصار وتجمعاتهم الرهيبة فقد بدأوا رحلة العودة إلى ديارهم من الجهاد الأكبر وفرحوا وهللوا ورقصوا ساخرين من الرئيس المصري الجبان الذي هرب من خلف الاسوار والجدران كالفأر عائدا إلى بلاده بعد ساعة من وصوله.

.. بدأت محاكمات محرضي الشغب كما كانوا يطلقون عليهم وعددهم لا يتجاوز العشرة اشخاص حكموا على اثنين منهم بالاعدام هما عبدالله عبدالرحمن نقدالله وعوض صالح كما حكم على الاخرين بالسجن لمدد متفاوتة غير ان حكمي الاعدام خفضا إلى سنوات والسنوات خفضت إلى اشهر.

## شجاعة الصديق

.. قام السيد/ الصديق المهدي بنفسه ومنفردا في مساء الأحداث الأليمة بزيارة المستشفى لاستكشاف الحالة ومعاينة المصابين خاصة من أنصاره وظل يطوف على اسر الشهداء ليواسيهم ويعزيهم ويخفف جراحاتهم، ومن المشاهد المثيرة التي لا يستطيع العقل ان ينساها او يتجاهلها ان السيد/ الصديق المهدي خرج من المستشفى وكنت قريبا جدا منه فطلب مني ان اصحبه في عربته إلى ام درمان لنعزي سويا اسر الشهداء وكان لابد او اوافقه على طلبه ولكنني قلت له ان عربتي بالخارج واخشى عليها من هذه التجمعات الملتهبة، لذلك فانني سأتبعه حتى يمكنني ان اعود بها إلى اهلي. لابد ان يكون السيد/ الصديق قد ادرك مدى جبني ورعشتي اذ أن الركوب بجانبه في تلك الامسية الحزينة التي تقطر دمعا ودما من المأساة معبأة الموت... لا بل الانتحار خصوصا وان سكان العاصمة قد هزتهم الكارثة فخرجوا في جماعات يتصيدون الانصار ويقذفونهم بالحجارة والعصي لكنهم في النهاية غالبا ما يطلقون سيقاهم للريح تماما كجمعنا ذاك..

.. وعند خروجنا من كبري أم درمان وامام «سوق الموردة» شاهدت تجمعا يزيد على المائة مواطن في وسطهم شيخ انصاري في عقده السادس كانوا يركلونه بالاقدام ويضربونه بالايدي وفي نفس الوقت شاهدت السيد/ الصديق يضرب سائقه ضربا مبرحا على قفاه (رقبته) لانه كما يبدو لي خالف أوامر الصديق بالتوقف خوفا عليه من غضبة الجماهير، ولكنه في النهاية توقف وترجل السيد/ الصديق بزيه الأبيض المميز المعروف «القفطان الحرير» والعباءة البيضاء والعمامة الكبيرة فوق الرأس. أما انا فقد ارتجفت تماما ولم أعد في تلك اللحظات اميز بين اليمين واليسار او بين الفرامل والاشارة والفتيس والتعشيقة والدركسون كلها اختلطت امامي وأصبحت «عجينة من الحديد» وقد اصبحت امام خيارين كلاهما صعب ومرير فتوقفت متوكلا على الحي الذي لا

يموت في بطء ... وترجلت نحو الجميع في بطء أكثر وسمعت الصديق المهدي يصرخ في ذلك الجمع ويداه الاثنتان في جيبيه «وأنا اعرف انه في تلك اللحظات كان يقبض على مسدسين سريعي الطلقات».. صرخ قائلا:

«عيب عليكم ياجبناء.. اختشوا على حالكم ورجولتكم لا يمكن حتى للنساء ان يعتدوا على شيخ مسن بهذه الوحشية، فما كان من الجميع الا ان اطلقوا سيقانهم للريح خاصة بعدما اعلن عدد منهم انهم امام الصديق المهدي. واخذ الصديق الانصاري من يده وأدخله معه في عربته ولابد لهذا الانصاري انه استعاد كل وعيه وقوته ومازال يفاخر بانه يوم الجهاد كتب الله له ان يجلس بجانب الصديق المهدي. وهنا فقط تنفست الصعداء وحمدت الله للمرة الالف ان جنبنا اصطداما محققا وكان السيد الصديق في حالة من الهياج والاثارة لن يتردد معها في المواجهة مهما غلا ثمنها.

لابد لاي مراقب سياسي او اجتماعي قريب من مسرح الاحداث ان يكون قد انتهى بنهاية أحداث مارس الدامية الى نتيجة واحدة بارزة المعالم والخطوط، هي ان الوجه السياسي للسودان بعد وقوع الاحداث قد تغير تماما واتخذ مسارا جديدا في كل تحركاته وخطواته وبرامجه وتخطيطاته. اما الشيء الثاني الذي لا يقل أهمية عن هذه الظاهرة هي ان جماهير الانصار وحزب الأمة استطاعت بعد ذلك وبحد السيف ان تثبت فعاليتها وقوتها ونفوذها ووجودها فبعد هزيمة الانتخابات المريرة القاسية استعاد الانصار كرامتهم الممزقة وكبريائهم المشروخ ووقفوا بعدها بأقدام فولاذية ثابتة وعلى ارض قوية صلبة وبدأوا بعد ذلك مسيرتهم لتحقيق غايتهم الكبرى في الاستقلال التام.

.. في نهاية المطاف فان افتتاح البرلمان لم يتم بالطبع وصدر اعلان بتأجيل انعقاده إلى وقت يحدد فيما بعد وانشغلت بعد ذلك حكومة الازهري في المحاكمات وفي محاولات كثيرة ومتعددة تستعيد بها كرامتها المهددة وكبرياءها المسلوب.

# ﴿ الفصل السابع ﴾

- لقاء المهدي والميرغني «لقاء المستحيل»!
- الاتحاديون يتنكرون للاتحاد فيفقدون مصر.
- عندما تمرد الازهري على مصر والسيدين، انكمشت أغلبيته البرلمانية من ٩٦ إلى ٥١ نائباً.



الامام المهدي والميرغني يدخلان القصر الجمهوري (لقاء المستحيل)

.. توقف النواح وجفت الدموع بعد احداث اول مارس الأليمة وانتهت ليالي المآتم والأحزان الطويلة بعد صلوات الترحيم والغفران على الشهداء من الجانبين وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها رويدا رويدا ولكن بخطوات متثاقلة بطيئة وبمرور الايام التأم الجرح الغائر في صدر السودان وشعبه وبدأت العجلة السياسية تسير في حركات بالسرعة البطيئة ولكن سرعان ما اشتد دورانها وهي تنهب الأرض علوا وارتفاعا في اتجاه وطريق يختلف كثيرا عما كانت تسير عليه قبل الاحداث المؤسفة.

.. فتحت جميع الأحزاب دفاترها القديمة وبدأت تراجع حساباتها بأسلوب مستحدث وجديد يتمشى مع الواقع المعاش اذ ان احداث أول مارس رغم مرارتها فقد تركت بصمات واضحة وظاهرة بحيث لا يمكن تجاهلها او اغفالها.

.. اختل الميزان السياسي اختلالا واضحاً بعدما ظل منذ تكوينه يسير في اتجاهين متضادين متخاصمين متنافرين احدهما يدعو للاستقلال والثاني يقود إلى الاتحاد... اخذت الموازين والمفاهيم السياسية التي ظلت سائدة لسنوات مضت تتأرجح في غير ما توقف وذلك على أثر المناورات واللقاءات السياسية السرية منها والعلنية، الظاهرة منها والباطنة، الواضحة منها والخفية وما كان لاحد ان يتوقع إطلاقا بان موازين القوى الاستقلالية أخذت تثقل شيئا فشيئا بينما الدعوة الاتحادية أخذت موازينها تخف سريعا سريعا ومصر المؤيدة والمناصرة لها في غير ما تحفظ وعلى رأسها الصاغ صلاح سالم كلهم وضعوا أيديهم على رؤوسهم من هول المفاجأة والصدمة وهم يرون آمالهم تنهار طوبة طوبة، وشمس امانيهم تغرب رويدا رويدا، وأحلامهم تتلاشى في غير ما توقف وما كانت مصر بكل استقراءاتها واستخباراتها وحساباتها وعيونها وأصدقائها وحلفائها واحبابها ومريديها لتصدق شيئا مما ترى وتسمع الا عندما بدأت تصريحات بعض المسؤولين الوحدويين المحسوبين عليها والغارقين في أموالها ونعيمها وحنانها ودلالها وعطائها بدأت ترتفع وهي تدافع عن الاستقلال وتتنكر لدعوة الاتحاد وتتخذ بذلك مسارا غريبا وجديدا ومفاجئا ومحيرا لم تصنع له مصر اي توقعات ولم تكن في الحسبان ولا في الاحلام وبدأت الاتصالات الهاتفية المرصودة بين قادة مصر وقادة

الاحزاب الاتحادية تستفسر عن سر الذي يجري بالسودان ثم نشطت الوفود المصرية وعلى رأسها الصاغ صلاح سالم وجاءت للسودان لاهثة حائرة وظلت تسهر الليالي الطوال داخل الغرف المغلقة مع القادة الاتحاديين لعل وعسى ان يكون الذي سمعوه مجرد اشاعة مسمومة أو مؤامرة مدبرة ولكن الاصوات الاتحادية التي كانت تهمس في خوف وارتجاف وخجل مدافعة عن الاتجاه الاستقلالي ظلت ترتفع وترتفع في جنون محموم وبسرعة مذهلة شجعها وألهب نيرانها توتر الصاغ وهجومه المحموم على قادة الاتحاد حتى نادت وطالبت جهرا بالاستقلال وكان الرئيس الازهري على رأس من جاهروا بالاستقلال التام الكامل غير المرتبط بأية جهة صافعاً بذلك الصاغ صلاح سالم وصحفه واذاعته.

.. كان لابد لمصر وقد اصيبت بالذهول وفقدت توازنها وهي تجري في الظلام بتخبط دون ان تتمكن حتى من رؤية الطريق ومسالكه المتعرجة ودروبه المتفرعة ان تبحث عن (القشة) في أعماق البحر ولم يبق لها من امل انذاك الا مولانا الميرغني رجلها الاول والاخير وظهرها وسندها القوي المنيع فلجأ اليه الصاغ صلاح سالم في جنون محموم وهو يشكو له طوب الأرض وانه لا يمكن ان يصدق بان الازهري واعوانه يصلوا إلى هذا الدرك من الخيانة وعدم الالتزام بالعهود والمواثيق وان يخونوا «العيش والملح» والعشرة الطويلة والحقائب الجلدية المنتفخة و... و.. ومولانا الميرغني يستمع اليه في برود ويرد عليه بطريقته واسلوبه الفريد المميز الذي يستعمله عند الضرورة والضرورة القصوى. جملتان قصيرتان فقط يلجأ اليهما مولانا الميرغني عند المحن واشتداد الكوارث السياسية والتهرب من المواقف الصعبة وفي حالات الطوارىء فقط (نحن رجال دين... ولا شأن لنا بالسياسة).

.. اذن ماذا هناك وماذا كان يجري.. وكيف انقلبت الموازين رأسا على عقب هكذا وبسرعة خاطفة وأصبح الوحدويون بين عشية وضحاها أعداء للوحدة ومن المجاهرين بدعوة الاستقلال.

.. تلك كلها أسئلة ظلت تحوم في الافق السياسي تماما كما سببت صداعا دائما بل وسرطانا مستمرا وانهيارا تاما للصاغ صلاح سالم شخصيا وللحكومة المصرية.

.. الحقيقة الكبرى التي ذكرتها سلفا ان حوادث مارس الدامية قد فرضت نفسها وتربعت فوق الاحداث وعلى أثرها بدأ الاستقلاليون يتخذون مسارا جديدا يتقربون به إلى مولانا الميرغني ليدخلوا معه في حلف او ائتلاف ولكن الميرغني كان في البداية يتجاهل هذه المحاولات لانه لايمكن ان يقبل بأن ينادى بالسيد الامام عبدالرحمن المهدي رئيسا للجمهورية وهو حي يرزق ومع ذلك فلم تتوقف الاتصالات ولم ييأس الداعون لها وعلى رأسهم عبدالله خليل سكرتير حزب الامة والمقرب جدا إلى الامام المهدي خاصة

وقد لاحظوا عن قرب ومن مجريات الأحداث ان الازهري بدأ يتملص من قضية الميرغني ولا يعبأ كثيرا بمطالبه وتعليماته..

.. من الناحية الاخرى كان السيد/ اسماعيل الازهري يرقب هذه التحركات والاتصالات التي جرت وتجرى من وراء ظهره عن قرب قريب ويحصيها ويعدها بحيطة وحذر خاصة والسيد/ الازهري الذي تخرج من جامعة بيروت الاميركية كان من أبرز بل وأبرز اساتذة الرياضيات في السودان.

اشتدت حركة الاتصالات والمساعي التي تهدف وتدعو لمصالحة السيدين المهدي والميرغني ومع هذا التيار بدأت اللقاءات تنشط بين كبار الاستقلاليين والاتحاديين المنضوين تحت قيادة الازهري والمحسوبين اصلا على مولانا الميرغني وأحس الزعيم الازهري ان خطرا ما يحوم في الافق السياسي وفوق رأسه شخصياً يهدد قيادته وزعامته... أحس بذلك من داخل مجلس وزرائه عندما بدأ ثلاثة من الوزراء (الختمية) يعارضونه ويهاجمونه بصوت كان همسا ثم ما لبث ان ارتفع وصار صراخا مطالبين بحل الحكومة واستبدالها بحكومة قومية تجمع السودان كله في صعيد واحد وما لبثت هذه الدعوة التي دبرت وحيكت خيوطها في الخفاء ان اصبحت شعارا تلقفه حزب الامة والجبهة الاستقلالية ولكن كان الذي ينقصه مباركة السيدين الكبيرين. اشتد الضغط على الازهري لكنه كان يقاوم بشراسة وقوة واستغل كل وسائل الاعلام. في مخاطبة الشعب رأسا حتى كسب عطفه وتأييده ولكن في حدود لا يقوى معها على كسب المعركة كلها.

.. شيء هام اريد ان ألفت اليه الانظار للمرة الثانية وهو انه رغم كل خلاف كان يسود الجو السياسي.. ورغم كل التوترات والمشاحنات وتبادل الاتهامات، فان العلاقات الشخصية لم تتأثر بها أو يؤثر فيها يوما ما. الخلاف الوحيد الذي كان قد شذ وخرج عن هذه القاعدة الموروثة والمعروفة والمألوفة هو الخلاف العميق المتأصل والمترسب بين الزعيمين الرئيسين المهدي والميرغني لانه خلاف لا يقبل المساومة ولا يحتمل التسوية فقد يقبل المنطق والعقل السوداني مثلا زواج ابن كينيدي من ابنة خرتشوف، او قبلة يطبعها ريجان على خد كاسترو او عناقا بين صدام حسين والخميني، الا انه لا يستطيع لا عقلا ولا منطقا ولا احتمالا ولا املا ان يتم لقاء السيدين ولكن مع هذا ورغم كل هذا فقد حدثت المعجزة الكبرى عندما تلاقت المصالح المتبادلة والمنافع المشتركة التي فرضت نفسها قسرا وبالقوة فتم اللقاء وتمت المصالحة وامتدت الايدي تشد بعضها بعضا (والمستحيل) ظل يراقب كل الذي يجري أمامه لانه كان مستحيلا (واحد زايد واحد لا يمكن ان يكون حاصلهما اثنين في السودان) في كثير من الاحداث والمواقف.

.. اما كيف تم هذا اللقاء والمستحيل فلذلك قصة اسطورية خرافية سأحاول ان أرويها بتحفظ شديد حتى تتضح أمامنا الصورة ونستبين أمرها ونرى الى اي مدى يمكن للمبادىء ان تتحطم على حائط المصالح والمنافع!

.. عندما كان رجال الأحزاب منشغلين في دوامة لا قرار ولا نهاية لها، اصيب الامام المهدي بنوبة قلبية (وهو اصلا مريض بالقلب) وعلى عجل وبأول طائرة قادمة من (جنيف) وصل طبيبه الخاص الدكتور دوشوزان وبعد اجراء الفحص حذر ذوي الامام بضرورة ان يلزم السيد الراحة التامة والا يتعرض لاي ارهاق او اثارة فان عاقبة ذلك ستكون وخيمة وأعد تقريره السري الخاص وعاد إلى بلاده بعد يومين. وما ان استعاد المهدي صحته تدريجيا حتى إزدادت المعارك السياسية شراسة وضراوة ونزل بكل ثقله رغم نصائح ابنائه وأحبائه ومريديه.

.. الشخص الوحيد الذي لم يكل ولم يمل ولم ييأس من التمهيد لمصالحة السيدين هو السيد/عبدالله خليل رغم ان شريحة مؤثرة من حزبه كانت ترى ان اللقاء والمصالحة مع الازهري أفضل وأبقى وأضمن.

.. كان السيد عبدالله خليل قد عرض اثناء محاولاته ومحادثاته التي لا تفتر مع السيد الميرغني للمصالحة ان يرشح ابنه محمد عثمان ليكون نائبا لرئاسة الجمهورية التي سيشغلها بالطبع الامام المهدي غير ان الميرغني لم يقتنع ولم يقبل، بل عارض في عنف مبدأ المصالحة ذاته لانه كان يعتقد في قرارة نفسه ان السيد عبدالرحمن قد خطط ودبر في السر بان يكون ملكا على السودان باعتباره ارثا مشروعا الشيء الذي لا يمكن معه الموافقة او المزايدة او المساومة ناهيك عن اللقاء والمصالحة، المخاوف التي كانت تحيط بالميرغني وممن حوله كبيرة لا يمكن الاطمئنان معها على اي خطوة دون تريث وتحسب وحذر.

## الورقة السحرية !!

.. وبدأت في هذا الجو المشحون بالتوتر وعدم الثقة... بدأت اللعبة السياسية تخرج من محيط المواجهة المباشرة للمواجهة غير المباشرة، ومن محيط العلن والضوء إلى دائرة السر والظلام، وتدخلت مخابرات المعسكرين لتلعب لعبتها المدروسة وخطتها الموضوعة لتضرب بها الضربة القاضية وتسجل هدف النصر الاول والأوحد والأخير وقد اتهم السيد عبدالله خليل بانه كان وراء كل ما يجري وجرى حتى ان الرسالة السحرية الخطيرة التي لا تتعدى اسطرها العشرة والتي غيرت التاريخ وقلبت الموازين السياسية قد وصلت إلى اصابع مولانا الميرغني بتدبير محكم وفي ظلام شديد وسرية تامة وحذر محسوب وكانت اللعبة مكتملة النضوج والتخطيط ولم تترك ثغرة ينفذ من خلالها شك ولا ريبة.

.. أخرج مولانا الميرغني نظارته وما ان بدأ يطالع محتويات الرسالة السحرية العجيبة حتى انبهر ووقف مشدوها تحيط به الف علامة استفهام وتعجب وظل يعيد ويعيد قراءتها في غير ما توقف الا انه كان تواقا ومتعجلا لمعرفة بعض ماورد فيها من

اصطلاحات ورموز طبية مما دفعه على عجل ان يستعين بالدكتور امين السيد «وزير الصحة» فدعاه مع من دعا من خلانه وامناء سره وأصفيائه وأمن الدكتور امين السيد على كل محتويات الورقة التي كانت عبارة عن التقرير الذي أعده الدكتور السويسري دوشوزان عن حالة السيد عبدالرحمن المهدي والذي أكد فيه بأن عامل السن مع الارهاق المستمر المتواصل وحياة الاثارة مع كثرة الهموم والتوتر ومشاغل العقل التي لا تتناسب مع الشيخوخة قد لا تسمح لحياة المهدي مع الاسف الشديد ان تمتد او تعمر لاكثر من ستة اشهر.

.. توقف كل شيء وصمت كل شيء الا من نظرات بعيدة فارغة مشدوهة وانفاس تعلو وتهبط بلا توقف وانفض بعد ذلك اقصر وأخطر اجتماع في حياة مولانا الميرغني واتخذ على اثره القرار الذي توصل اليه بعد اقتناع شديد.

.. ولم تمض ايام قليلة جدا حتى تمت المصالحة بين السيدين الكبيرين وقام الامام عبدالرحمن المهدي باول زيارة لنده في ٣٠ نوفمبر ١٩٥٥ وبعد اسبوع واحد رد السيد علي الميرغني الزيارة للامام عبدالرحمن في قصره المنيف بالخرطوم ولكن ماذا حدث، وماذا بعد هذا «اللقاء» المستحيل؟!

.. اهتزت البلاد من اقصاها إلى اقصاها والتفت جماهير الانصار والختمية في الأزقة والشوارع وفي الحارات والاسواق وفي الميادين وفي كل مدينة وقرية التفت بالعناق الحار والأحضان الدافئة وذبحوا الابل والنوق والشياه والخراف والاغنام والماعز وظلت طبول الفرح تدق وتدق والزغاريد ترتفع إلى عنان السماء بعد ان تهز الارض هزا حتى ان بعض المراقبين وصفوا اللقاء بانه كان أكبر حدث في تاريخ السودان على الاطلاق وبالطبع فان اكثر الناس سعادة وفرحة بهذا اللقاء كان السيد عبدالله خليل.

.. وقع خبر لقاء المصالحة بين السيدين على السيد اسماعيل الازهري ورفاقه الحقيقيين القدماء من حزب الاشقاء وقوع الصاعقة اذ كان يحمل كل نذر الشر للحزب الوطني الاتحادي الذي ضم الاحزاب الاتحادية بما فيهم شريحة كبيرة ومؤثرة من الطائفة الختمية التي تقع تحت قبضة مولانا الميرغني وعقد مجلس الوزراء اجتماعا عاجلا برئاسة اسماعيل الازهري لمناقشة الاحتمالات السياسية المترتبة على لقاء السيدين بعد مشاورات جانبية جرت بين قادة الحزب وعدد من نوابه استعرضوا خلالها الأحداث المتلاحقة لكن الرؤية لم تكن واضحة بسبب الضباب والغبار الذي ملأ الساحة السياسية وكان عدد كبير من الوزراء والنواب من أصول (ختمية) تتفاوت في ولائها وطاعتها لزعيم الطائفة مولانا الميرغني.

وتوالت الأحداث بسرعة البروق الخاطفة للقلوب والابصار فلوح ثلاثة من الوزراء من جانب الميرغني مهددين بالاستقالة وهم السيد ميرغني حمزة وزير الاشغال وخلف الله

خالد وزير الدفاع ومحمد نور الدين (الوحدوي الاندماجي) وكان وزيرا للاشغال ولكن الرئيس الازهري عاجلهم بالضربة القاضية (فتغدى بهم قبل ان يتعشوا به) فقام بفصلهم اجمعين بعد مقدمة وعنوان أصبح بارزا ومعروفا للازهري هو: إلى من يهمه الامر سلاماً. ثم يذيع بيانه وغالبا ما يكون بفصل وزير او وكيل وزارة او نائب برلماني.

.. على أثر لقاء السيدين التاريخي ظهرت على سطح الاحداث ولأول مرة ما سمي بجبهة الاحزاب المؤتلفة كرد فعل سريع وعاجل للقاء والمصالحة وهي تركيبة او خلطة جمعت (الشامي على المغربي) كما يقولون.

.. كانت خلطة سياسية غير متجانسة لا في الفكر ولا في السياسة ولا في الانتماء جمعت بين الاستقلالي المتطرف والوحدوي الاندماجي وبين المطالبين بالحكم الفدرالي بين الشمال والجنوب وبين الداعين للانفصال والوحدة وبين الشيوعيين ومشايخ الطرق الصوفية والنظار وزعماء القبائل واخيرا جمعت بين الانصار والختمية (سمك ـ لبن ـ تمر هندي ـ سفن أب). الحقيقة التي لابد من الاعتراف بها هي ان التجمع الجديد الذي ظهر كالنبت الشيطاني والذي يضم زعماء الطائفتين وتابعيهم وتابعي تابعيهم والجنوبيين والشيوعيين كلهم.. كلهم زائد مصر وصلاح سالم شخصيا جمعهم وألف بين قلوبهم وعقولهم وحناجرهم شيء واحد وواحد فقط هو الاطاحة بالازهري مرة واحدة وإلى الابد اما بعد ذلك ماذا يحدث فهذا شيء غير مهم وغير وارد وغير محسوب... الازهري اصبح الهدف والموقع والميدان والمعركة ولكن الازهري كما قلت كان يضع حساباته بدقة متناهية وبحذر وتخطيط فهو قطب علم الرياضيات في السودان ورجل صلب يتلذذ من أجواء العواصف والتحديات فلن ينحني للعاصفة وما هزت شعرة من رأسه وما عاد يهتم كثيرا بمشاركة قيادة الختمية في اتخاذ القرار بل صرح في اكثر من مناسبة بانه يحمد الله الذي حرره من قيود الطائفية الثقيلة التي ارهقت اقدامه، وشدت وثاقه كثيرا حتى لم يعد يحتملها، وأمام هذا التيار الكبير الكاسح لجأ الازهري لمخاطبة جماهير الشعب السوداني الواعي الواعد فلم تخذله ولم تتخل عن قيادته.

.. آمنت بدعوته للتحرير من قبضة الطائفية والقبلية وعلى الرغم من موجه العطف الملتهبة التي آزرته وايدته الا ان ذلك لا ينفي حقيقة واقعة هي انه امام خصوم عتاة اشداء لن يقوى زعيم على مواجهتهم الا بانتشار التعليم والوعي والتحرر وقد يأخذ ذلك زمناً طويلا لن يحضره الازهري على كل حال ولكن محاولات الازهري وعدائه الساخر للطائفية كانت بصماتها ظاهرة وواضحة في الشارع السوداني ولكن كيف وإلى متى يستطيع الازهري الصمود والبقاء وهو يواجه تجمعا كبيرا وهائلا وهادرا يشبه تماما طوفان (نوح) وانطباق البحر على فرعون!؟

.. نجح عبدالله خليل بعد محاولات لم تعرف اليأس ولم تؤمن بالمستحيل في تحقيق

غايته التي ظل يسعى لها ويلاحقها حتى تم اللقاء بين الندين المتضادين اللدودين وزينت الاذاعة والصحافة صدر أخبارها بهذا الحدث التاريخي الهام في مسيرة السودان وراح الشعراء والكتاب والمعلقون يصفقون له ويثنون عليه ويباركونه في غير ما تحفظ باعتبار أنه وضع خاتمة لاحزان السودان وقضى على التفرقة والخلاف ويسر كثيراً من الصعاب والعقبات التي كانت تعترض طريق الاستقلال.

.. حدث كل هذا دون ان يلم احد بعد بتفاصيل اللقاء وماذا جرى بين السيدين في لقائهما الاول الذي دام عشرين دقيقة فقط كما لم يعرف تفاصيل اللقاء الثاني وقد ظل السياسيون المقربون من السيدين لا يزيدون في تصريحاتهم بان لقاء السيدين هبة ونعمة من السماء لانه لقاء الاحبة في الله والدين والوطن ولاعلاقة له بساس وبسوس غير ان كل هذه التصريحات لم تشبع تطلعات الناس مما جعل رجال الصحافة يضغطون ويلهثون وراء المزيد من المعلومات.

.. طلب الصحفيون والمصورون المحليون والأجانب من الزعيمين الجليلين في لقائهما الثاني عند خروجهما من بهو القصر المهدوي المضيف ان يعلقا بأي شيء وان يسمح لهم بأخذ صورة تذكارية، عندما قال الميرغني انه اعترض على التصوير في منزله وهو يعترض عليه هنا حتى لا يفرق بين الدارين ولكنه عندما علم ان الصورة للصحف قال في حصافته المعروفة وذكائه المتشدد:

«ان الصحفيين يأخذون عادة صورهم بلا استئذان فأعتبر هذا تلميح ذكي من الميرغني والتقطت لهما بعد ذلك عشرات الصور ونشرتها صحف اليوم التالي التي نفدت في الأسواق بمجرد صدورها ذلك لان أنصار الطائفتين قد قطعوا صور اللقاء العظيم من الصحف وبروزوها وعلقوها في بيوتهم ومتاجرهم للتبريك والذكرى العطرة.

تطاولت الأعناق في كل مكان خاصة في دور الصحف بحثا عن نتائج اللقاءين ولما أدرك السيدان ان الشعب السوداني كله في شوق وقلق وشغف يتطلع إلى معرفة اي شيء، قاما بتفويض الصديق نجل المهدي والقاضي الدرديري محمد عثمان من المقربين جدا للميرغني باعداد بيان يذاع للشعب السوداني وبالمناسبة فقد نفدت ايضا كل الصحف التي نشرته في ساعات قليلة بعد صدورها لان اعدادا كبيرة من المريدين والاتباع (قطعته) وقامت ببروزته وعلقته ايضا على جدران المنازل وحيطان وواجهات المتاجر والمطاعم.

.. صدر البيان وكان قصيراً ليشتمل على اربع فقرات رئيسية بدأت بعزم السيدين على الوقوف متكاتفين (متلاصقين) باسم الله والصلاة والسلام على رسوله في كل ما يعود على الامة السودانية بالخير والسعادة والحرية والسيادة الكاملة. واظهرا حرصهما على ان تجتاز البلاد هذه المرحلة الدقيقة بطمأنينة وسلام. ثم أهاب السيدان بالمواطنين جميعا ان ينسوا ذواتهم في سبيل خدمة وطنهم حتى يتوفر الاستقرار والطمأنينة

الضروريان في هذه الظروف العصيبة ليتهيأ بذلك الجو الملائم لتعاون جميع الاحباب والمريدين على البر والتقوى وطاعة الله ورسوله والخير العام.

.. ثمة سؤال ظل يلح في خاطري باحثا عن اجابة، ولعل نفس السؤال خطر على بال الكثيرين:

(ترى هل كان الامام المهدي وهو في غمرة افراحه ونشوته واخلاصه وكثرة تطلعه وشوقه للقصر الجمهوري (قصر ابيه).. ترى هل كان يعرف او حاول ان يعرف لماذا قبل مولانا الميرغني لقاءه ومصالحته هكذا فجأة وبسرعة وبلا توقع... ثم هل عرف الاجابة فيما بعد ام ظل يجهلها حتى مات!؟

جاهر الازهري بتمرده على قيادة الختمية وبتمرده كذلك على مصر اللتين لولاهما معا لما استطاع ان يكتسح الانتخابات ويصبح أول رئيس وزراء للسودان وذلك اثر عودته من زيارته المشهورة لانجلترا. قليلا قليلا انقطعت كل حبال الود والمحبة والتعاون بينهم وظلوا في كثير من المناسبات يتبادلون الاتهامات ويهاجمون الازهري غمزا وهمزا ويصفونه بالعقوق والجحود ونكران الجميل مما جعله يتمسك اكثر واكثر بدعوته للاستقلال التام (ودون الارتباط باحد) حتى انقلب الهمز والغمز فيما بعد إلى صياح شديد ظلت تردده مع المعارضين اذاعة وصحافة القاهرة والصاغ صلاح سالم الذي قبل المستحيل بتعاونه مع الزعيمين يجمع بينهم هدف واحد هو اسقاط الازهري وليكن بعد ذلك ما يكون!

مضت الجبهة الجديدة المتصالحة التي توحدت كلها في الأحزاب المؤتلفة تضغط وتنادي بضرورة تكوين حكومة قومية، كما ظهر اتجاه جديد مستحدث في الافق السياسي وهو اعلان الاستقلال من داخل البرلمان بدلا من الجمعية التأسيسية او الاستفتاء الشعبي لان كلاهما أمر شاق ومرهق ومكلف وقد تكون الظروف في الجنوب غير ملائمة لعملية الاستفتاء بسبب الخريف ولكونه خرج حديثا وقويا من حرب اهلية طاحنة.

.. كان معروفا ان حزب الازهري يرفض وبصورة قاطعة الدخول في حكومة قومية مادام وضعه الحكومي مريحا واغلبيته البرلمانية كبيرة ومطمئنة الا ان بوادر العصيان والتمرد عليه من داخل صفوفه بل ومن وزارته وهيئته البرلمانية اخذت تظهر واضحة جلية بعد ان أوعز اليها مولانا الميرغني فاخذ تابعوه ومريدوه يعلنون التمرد والعصيان والخروج من الوطني الاتحادي والانضمام إلى الاحزاب المؤتلفة حيث باركها زعيمهم ومولاهم الميرغني ولم تمض ايام قليلة الا وأخذت اغلبية الازهري البرلمانية التي يعتمد عليها اساسا في الحكم تنكمش قليلاً.. قليلاً حتى اوشكت ان تصل مشارف الضوء الاحمر وقد ينشط سوق النخاسة ووصلت حقائب صلاح سالم المنتفخة التي كانت لعهد قريب من الزمن تصب في أطراف الازهري وتوضع تحت تصرفه... تحولت ضده إلى الجانب

الاخر فتحول معها عدد كبير من النواب . والذين عاصروا تلك الفترة والفترات التي تلتها يتذكرون كيف كان النواب يباعون ويشترون في مواقف معينة قبل حالات سحب الثقة من الحكومة او لومها او اجازة الميزانية حتى أصبح لكل نائب من هؤلاء سعر محدد ومعروف بل وله وسطاء وسماسرة .

.. تزايد الضغط على الازهري مما اضطره وهو يقف على حافة الهاوية وبعد ان تقلصت اغلبيته في البرلمان من ستة وتسعين نائبا إلى واحد وخمسين حتى صار يحكم باغلبية صوت واحد او صوتين اضطر ان ينحني قليلا إلى العاصفة العاتية ويبدي بعض المرونة «البعبع» الحكومة القومية الذي ظل شبحه يلاحقه صباحا ومساء فلمح مرغما بقبول المبدأ وشكل وفدا من رجالاته للتشاور مع خصومه اللدودين بشأنها ، ولكن الأزهري كما قلت اكثر من مرة كان يتلذذ ويستمتع بالمواقف الصعبة لانه كلما خرج منها سليما اعطته مناعة اكثر ومنحته تأييدا شعبيا أكبر خاصة وقد كان في تلك الظروف مصدر عطف وشفقة من الشعب وهو يرى شخصاً واحدا يصارع طائفتين كبيرتين قويتين يساندهما مصر الحكومة والصحافة والاذاعة (أسود كبيرة تطارد حمامة صغيرة ) .

.. كان الازهري قد أعد حساباته جيدا وعندما يحل المعادلة الصعبة التي تواجهه يبدأ عادة في «لملمة» جميع أطراف الخيوط المبعثرة حتى اذا ما استقامت وانحنت ثم استسلمت في لين بين اصابعه ضرب ضربته القاضية وكثيرا ما تكون قاتلة حيناً وموجعة احيانا !

.. كان المتفاوضون من رجال حزبه هم مبارك زروق والمرضى ويحيى الفضلي هم زملاؤه ورفاق دربه في حزب الاشقاء بل ومن نفس الحي والمدرسة يعرفون كلامه من النظرات واللمحات ويدركون غرضه وهدفه من مجرد الصمت أو الضحك فكانوا (من نفس الطينة والعجينة) ولهم باع معروف ومعترف به ومشهود له في المقالب والتآمر ونصب الشراك وتصيد الأحداث ويبدو انهم اتفقوا فيما بينهم على اطالة المفاوضات واختلاق عمليات المد والجزر وقطع الجلسات وتأجيلها ليوم او يومين حتى يعرضوا الأمر للازهري ورجال الحزب ..و ... ومضت الساعات والايام وكلها كانت لصالح الازهري حسب ما أعد وخطط وهو يماطل ويسوف ويؤجل بينما يلوح في الصحف كل يوم بأنه يبارك الحكومة القومية ويؤيدها وانها سترى النور عما قريب ان شاء الله وعما قريب هذه أخذت تطول وتعرض وتنتفخ حتى استنفدت كل أغراضها مما لفت اليها أنظار الأحزاب المؤتلفة التي ما كادت تلوح باسقاط الحكومة حتى اصدر الازهري بيانا انتظره الشعب وعلى رأسه الاحزاب المؤتلفة «بفارغ الصبر» نقتطف من أجزائه الهامة مايلي :

اولاً: ان الحكومة القومية بالصورة المقترحة من قبل الاحزاب المؤتلفة لا تعني اكثر من اتاحة الفرصة لها للاشتراك في الحكم مما يتجافى مع المبادىء الدستورية والاوضاع الديمقراطية، ولكن الحزب الوطني الاتحادي يقبلها على اساس تحقيق مصالح وطنية عليا وهي الوصول إلى الاستقلال الكامل غير المشروط بشرط او المقيد بقيد من أحلاف ومعاهدات او «مركز ممتاز لدولة من الدول».

ثانياً: ان يتم تقرير المصير وتحقيق الاستقلال بأقصر الطرق واقراره من داخل البرلمان.

ثالثاً: اذا وافقت المعارضة على هذه الاسس فانها تمثل في الحكومة القومية بنسب عدد نوابها في البرلمان.

وما ان صدر هذا البيان حتى قامت زوبعة سياسية لا حد لها وأخذت تصريحات قادة وزعماء الاحزاب المؤتلفة تنهمر على الصحف كالخريف المجنون وهي تعترض عليه وتهاجمه. وسبب بيان الازهري وشروطه للحكومة القومية ليلا طويلا متوترا لاحزاب المعارضة وما ان اصبح الصبح بعد قلق وسهاد وظمأ، حتى أصدرت بياناً ترد فيه على الازهري نقتطف منه اهم العبارات:

أولاً: ان شروط الوطني الاتحادي (ازهري) معناها رفض صريح للحكومة القومية مما يعني انه الوحيد الذي لا يقدر دقة الوضع وحساسية الموقف الذي يمر به السودان وانه يتشبث فقط بمقاعد الحكم. وفي الختام قال البيان ان قيام الحكومة القومية يعني ان البلاد يمكنها مواجهة اي خطر من الداخل او الخارج صفا واحدا موحد الهدف.

## الظروف تتدخل

في هذا الجو المتوتر والمشتعل تدخلت الظروف لتعين الازهري المحتاج فعلا إلى الاعانة وهذه المرة جاءه الغيث والمدد من الخارج عندما نشرت جريدة التايمز البريطانية تفاصيل الاتفاق الانجليزي المصري الذي وقعه وزير الخارجية المصرية والسفير البريطاني في القاهرة وأدخلا بموجبه تعديلا على اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ (تقرير المصير) كما وقعا على ملحق جديد حدد عمل الجمعية التأسيسية بوضع دستور وفق نتيجة الاستفتاء بإشراف لجنة دولية منحت صلاحيات خطيرة تعطيها السلطة لتأجيل «كل عملية تقرير المصير اذا ما قررت ان هناك ظروفا او تدخلا يجعل من المستحيل على الناخبين ان يعبروا عن آرائهم في حرية وعدم تحيز في الانتخابات وفي الاستفتاء».

.. مضت الاقدار تمنح ازهري كل حبها وصداقتها وودها وعواطفها ففي اليوم الثاني جاءت الاخبار وايضا من خارج الحدود بان الهند اعلنت تعيين مندوبين في اللجنة الدولية المنتدبة للاشراف على تقرير المصير في السودان كما اعلنت يوغسلافيا ايضا عن

تعيين مندوبيها وقالت الاخبار ان وكيل وزارة الخارجية المصرية سلم مبعوثي تلك الدول نص الاتفاق الذي ابرم بين مصر وبريطانيا حول هذه اللجنة..

.. وهنا جر الأزهري أول الخيط وقامت القيامة في السودان وفي دوائر الأحزاب عندما أعلن الراديو هذه الاخبار وقال الأزهري في نبرات حزينة مخاطبا عواطف الشعب السوداني وهو ادرى كيف يمكن ان يتلاعب بالعواطف السودانية فيلهب مشاعرها ويغليها من الداخل والخارج ويجعلها تثور وتتهيج وتتشنج فقال الازهري معلقا على أخبار الخارج المزعجة:

(اخواني كل ذلك يحدث وحكومتكم الوطنية الشريفة صاحبة الامر والشورى لا تخطر ولم تخطر بالاتفاق الانجليزي المصري الذي تم وراء ظهورنا ونيابة عنا وعنكم ياشعبنا العظيم الباسل ونحن قد بلغنا ولله الحمد الرشد لكن الاستعمار قد طعن شرفنا ومرغ كرامتنا في الوحل عندما جعلنا في موضع (كالزوج آخر من يعلم) وفي صراخ متشنج هتف الازهري يسقط الاستعمار ونحن الاشراف و ... و .. وخرجت المظاهرات وتدفقت سيول الجماهير الهادرة في الشوارع ورددت الهتافات في كل مدينة وقرية حتى تربع صوت الازهري المثير وعباراته المهيجة المهتاجة على قمة الاخبار والنشرات والاذاعة والاحراش والمجالس فاسقط في يد المعارضة ولم يعد امامها من خيار الا ان تجاريه وتلاحقه وهي لاهثة متهالكة لا تقوى على رؤية شيء امامها بعد ما خطف منها الازهري كل المصابيح والأضواء وظلت الجماهير تشيد بشجاعته وأصالته وجرأته وتهتف بحياته طيلة تلك الامسية وصباح اليوم التالي.

.. قال لي صديق خبيث من المقربين للازهري بعد مدة من هذه الواقعة ان الازهري اعدها ودبرها وطبخها ووضعها في صحن من الفضة وقدمها للشعب الذي اقبل عليها وخطفها بشراهة وأكلها وهضمها بما في ذلك رجال الاحزاب المؤتلفة وان عملية الإثارة والهياج والتشنج التي أبداها الازهري كانت من تأليفه واخراجه وتمثيله ولكن الازهري كان امام المقصلة ولابد له ان ينقذ نفسه وحياته ومستقبله ومستقبل حزبه ولابأس مما فعل مادام قد حقق غرضه وضرب ضربته في النهاية وكانت موجعة هذه المرة!

كسب الازهري ثلاثة ايام وهي كثيرة كثيرة بعمر الزمن اذ لم يبق على اعلان الاستقلال وهو هدفه وغايته وضالته سوى ايام معدودات وبعد نهاية الفصل الاول من الدراما عادت وفود الاحزاب تنعقد وتنفض وتحاور وتناور والصحافة المحلية تعكس وتنشر ما حولها ولكنها لم تكن وحدها هذه المرة في هذا الميدان المثير المشتعل فقد شاركتها صحف مصر وبريطانيا عندما نقلت اذاعة الجمعة ٩ ديسمبر الحوار الذي دار بين صحيفة (نيوستيتسمان اندنيشن) والرئيس الازهري حيث قال الازهري ردا على احد اسئلتها المثيرة للخلاف انه يؤيد قيام الحكومة القومية فورا ولكن بعد اعلان

الاستقلال مباشرة ان شاء الله وعندما اثارت الصحيفة الاشتراطات التي اعلنها حزبه وخصوصا الاشتراط الذي جاء فيه وجوب موافقة الدولتين المتعاقدتين على ان يقرر البرلمان الحالي مصير السودان. قال رئيس الوزراء الازهري:

«ان هذا الشرط أسيء فهمه وليس معناه ان يتأجل قيام الحكومة القومية».

عموما ظل الازهري يخلق من الحبة قبة ويصطنع المشاكل ويتعمد الاثارة حتى يدير الرؤوس ويشغل كل الناس ويخلق بذلك جوا متوتراً ومضطرباً يحول به الانظار ويغير به المسار ليكسب ولو ساعات من الزمن.

قلت في غير مرة ان الازهري كان على موعد دائم مع القدر ويبدو انه دخل معه في حلف دفاع وهجوم كما وقع معه معاهدة صداقة وسلام وحسن جوار اذ ما ان جاء يوم الاثنين ١٢ ديسمبر حتى حمل في منتصفه حدثا رئيسيا وبارزا من أحداث تلك الايام المتوترة فقد قام السيد/ نكس هلم الحاكم العام بزيارة غير متوقعة للازهري وابلغه بنبأ استقالته ثم ما لبثت الاخبار ان تدفقت عبر البرقيات من لندن والقاهرة فقد حمل بيان وزارة الخارجية البريطانية الذي اذاع فيه استقاله الحاكم العام ان سفير المملكة المتحدة في القاهرة أبلغ رئيس الوزراء المصري بأن حكومة صاحبة الجلالة مستعدة لقبول استقالة الحاكم العام وانها لا تنوي ترشيح حاكم بريطاني اخر ليحل محله واضاف البيان ان حكومة صاحبة الجلالة تقوم الان بمشاورات مع الحكومة المصرية على الخطوات التي يجب اتخاذها بخصوص منصب الحاكم العام متوخية في ذلك ما تتطلبه الاتفاقية الانجليزية المصرية من ضرورة ايجاد جو حر محايد فيما تبقى من فترة قصيرة جدا لتقرير المصير.

.. وجاءت كذلك الاخبار سريعة وكبيرة وخطيرة لاحقة من القاهرة تقول ان مصادر مصرية مسؤولة وكبيرة (جمال عبدالناصر) بان مصر ستوافق على كل ما يجمع عليه السودانيون بما في ذلك تقرير المصير في البرلمان سواء اقر السودانيون الاستقلال التام أو اقروا اي صيغة من صيغ العلاقات المميزة مع مصر. ولكن مصر تشترط الموافقة على كل ذلك ان تؤول سلطات الحاكم العام اولا إلى لجنة قومية يتفق عليها السودانيون وبسرعة حتى لا يحدث اي فراغ دستوري.

وفي نفس ذلك المساء تحركت مصر بسرعة كبيرة واستطاعت ان توصل قرارها ذاك إلى كل زعماء الأحزاب السودانية بل إلى الشعب بأسره. والواقع ان مصر الشقيقة الكبرى اعطت السودانيين في تلك المناسبة دعما قويا ودفعتهم دفعاً لاتخاذ خطوتين اساسيتين:

اولاً: اختيار رأس الدولة السوداني حالا وبسرعة.

ثانياً: تقرير المصير عن طريق البرلمان. وقالت مصر في كلمات واضحة ان كل ما يجمع عليه السودانيون سيتحقق على الفور وان الموقف كله في ايديهم وحدهم دون

سواهم وهم يستطيعون باتفاقهم واتحاد كلمتهم ان ينالوا ما يشاؤون.

اذن فقد ظهر «جمال عبدالناصر» في الصورة وبشكل واضح وبارز وظهرت معه نغمة جديدة ما كانت معروفة ولا متوقعةمن أحزاب السودان وشعب السودان اذ لاول مرة بدأت مصر الجارة الوفية تخاطب السودانيين كلهم لا الجانب الاتحادي فقط كما كانت تفعل. كانت تخاطبهم جميعا كاشقاء متساوين امامها كأسنان المشط لا تفرق بينهم كاحباب واشقاء وجيران.

كان لهذه النغمة الجديدة الحلوة المسكرة للسياسة المصرية وقعا طيبا ومؤثرا على الشعب السوداني بكل أحزابه وطوائفه وقد أشاد بها وطرب لها حتى خصوم مصر التقليديين وتجاوبوا معها على الفور فتم الاتفاق على اختيار لجنة قومية (مجلس السيادة فيما بعد) لتؤول اليه سلطات الحاكم وتسد بذلك أية ثغرة دستورية.

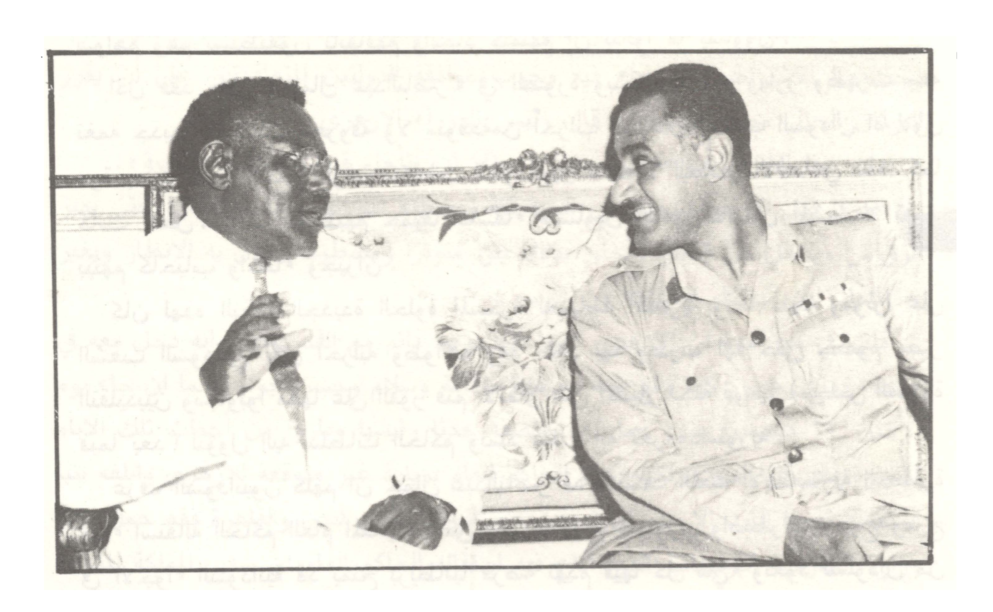
عرف السودانيون كلهم ان جمال عبدالناصر قد اكتشف اللعبة الاستعمارية الخطيرة وراء استقالة الحاكم العام المفاجئة حتى يحدث فراغ دستوري واضطراب وهرج ومرج في الاجواء السودانية قد يمنح بريطانيا فرصة تهدم فيها كل شيء وتعود للسودان من (الشبابيك او الازقة الخلفية).

الم اقل لكم اكثر من مرة ان الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ذلك الشاب الذي قضى زهرة عمره في السودان قد عرف الشعب السوداني كما عرف شعبه وانه كون عنه فكرة معينة آمن بها منذ ان كان (ملازما) حتى صار رئيسا للجمهورية!؟ أخذت الصحف تتناول في تعليقاتها وأخبارها موقف مصر الجديد وأخذ قادة وزعماء الحكومة والمعارضة يرحبون ويثنون عليه وكان أبلغ ما قيل هو تصريح للسيد مبارك زروق وزير المواصلات وزعيم مجلس النواب في جلسة هامة في البرلمان حين قال:

«الحمد لله لقد ذهب الخوف وزال القلق والتوتر إلى غير رجعة من اعتراض مصر او انجلترا على قرار اعلان الاستقلال فمصر صرحت مشكورة بلسان ناطقها الرسمي بانها توافق كل الموافقة على مايقره البرلمان وانجلترا كذلك لا تمانع» انتقل زروق بعد ذلك إلى الموضوع الحساس وهو الحكومة القومية فوصفها بانها الجهاز الذي سينفذ كل شيء.

استمرت المفاوضات المشتركة بين الأحزاب المؤتلفة والوطني الاتحادي (الأزهري) صباحا ومساء وهي تبحث عن وسيلة مناسبة ومعقولة تتفق عليها لقيام الحكومة القومية وبعد اخذ ورد وعطاء وخلاف وكلام ونقاش طويل ومطول، وافق الجميع بعضهم (على مضض) وسلموا للازهري برئاستها باعتباره صاحب الاغلبية ولانه رئيس الوزراء الاول والحالي ولان اسمه ارتبط بكل خطوات الاستقلال.

التقت الاحزاب واتفقت على الجانب الهام وهو رئاسة الوزارة وكان ذلك في منتصف ديسمبر ١٩٥٥ ولكن الأزهري الذي وصفته في مناسبات سابقة بانه يتلذذ من الفوران



الرئيس المصري جمال عبدالناصر مع اسماعيل الازهري

والعراك السياسي ويستمتع جدا بالمنازلة والمبارزة فجر قنبلة مدوية لم تكن في حسبان احد خاصة في الجانب الاخر فقال في كلمتين للصحافة والاذاعة.

«انني سأعلن الاستقلال يوم الاثنين القادم باذن الله وعونه من داخل البرلمان سواء اتفقت الأحزاب ام لم تتفق»... وقامت القيامة وحدث الفوران الذي قصده الازهري وهاجت وماجت قوى المعارضة ضده بما فيها الامام المهدي ومولانا الميرغني والأحزاب المؤتلفة، اما مصر فقد اختفت تماما من الصورة ومن دائرة الضوء ولم تتدخل في هذا الذي يجري لا من قريب ولا من بعيد، حتى صحافتها واذاعتها توقفت عن نشر واذاعة اي شيء يجري في السودان، لا استجابة لتهديدات المهدي او غيره، ولكن لانها كانت تؤمن بالذي تفعله. وبذلك ضرب الازهري هذه المرة ضربته التي لم تكن موجعة فحسب بل كانت القاتلة القاضية!

.. ما ان افاقت المعارضة من آثار انفجار «القنبلة الازهرية» التي هزت الاركان والاقدام حتى دعت لاجتماع خطير عاجل ومشترك بينها وبين خصمها اللدود الوطني الاتحادي (الازهري) فحضره نيابة عنه السيد/ مبارك زروق الذي سارع قبل ان يشتد النقاش وتدور ساقيه الخلافات فقدم للمجتمعين مفاجأة مثيرة دارت معها الرؤوس قبل ان تفوق وتلين فعرض صيغة الاقتراح الذي سيقدمه في جلسة الاثنين وفيما يلي كلماته وأسطره القليلة الكبيرة:

«انه من رأي هذا المجلس ان يكون السودان دولة مستقلة كاملة السيادة ويطلب من الحكومة ان تتصل بالدولتين المتعاقدتين فورا للاعتراف بذلك».

# ﴿ الفصل الثامن ﴾

- الازهري يسحب البساط من الجميع ويعلن الاستقلال .
- الأزهري ومحجوب يرفعان العلم .
- نهاية الصاغ صلاح سالم .

.. ما أن اعلنت الدولتان المعنيتان موافقتهما على استقلال السودان حتى بدأ الرئيس الازهري يستعجل اللعبة التي خطط لها منذ أمد طويل وسرعان ما جمع بين اصابعه كل خيوطها، فقد انتهز مجلس وزرائه حسن نوايا الدولتين فقرر ان يعلن الاستقلال فورا ومن داخل البرلمان وكان الازهري يتسابق مع الزمن بسرعة شديدة ولكن بحذر أشد. ففي الوقت الذي فاجأ فيه مندوبه السيد مبارك زروق وفد الأحزاب المؤتلفة بقراءته لصيغة الاقتراح لاعلان الاستقلال والذي كان وقعه عليهم كوقع الصاعقة، حتى ثاروا وهاجوا وماجوا وأعلن السيد ميرغني حمزة (الختمي) والوزير الذي فصله الازهري، اعلن ان موضوع اعلان الاستقلال من الاهداف التي اتفق عليها مسبقا بان تحققها الوزارة القومية لا حزب منفرد او شخص بعينه وانه لابد من اتصالات مع الدولتين لايجاد تفاهم حتى يكون الاجراء مضمونا. وبدأت الساقية تدور والنقاش يطول وما كانوا يعلمون ساعتها ان الرئيس الازهري كان في دار الاذاعة يخاطب الشعب رأساً وباسلوبه (البلدي) العاطفي - بلا نحو ولا قواعد ولا شعر - الشيء الذي حبب فيه قاعدة الجماهير العريضة. كان يخاطبهم دائما بلغة الشارع ويستميل العواطف لدرجة انه كان أقدر الزعماء على الاطلاق في اثارة الناس واكتساب عواطفهم ومشاعرهم وتأييدهم متى ما أراد ومتى ما دعته الظروف إلى ذلك.

ما أحوج الأزهري اليوم بل اللحظة وهو يختتم قصة كفاحه الطويلة المريرة وقصة صراعه الأمر مع السيدين العملاقين والأحزاب المؤتلفة... ما أحوجه إلى الناس وقد جاءت فرصته ودقت ساعة التاريخ لتعلن نهاية كفاح وبعث أمة.

قطع الارسال الاذاعي ليعلن للشعب السوداني ان السيد اسماعيل الازهري رئيس مجلس الوزراء سيلقي بعد لحظات بيانا خطيرا وهاما فانتظروه.. ظل المذيع يكرر هذه العبارة التي لها مدلولها الكبير في تلك الساعات الحرجة من تاريخ السودان.. ظل المذيع يطلب من الشعب انتظار البيان، ولكن الشعب كله توقف وماتت الحركة في كل مكان، والتف الناس حول المذياع وكل يتطلع إلى جاره ويراهن بان الأزهري سيعلن استقالة حكومته وتشكيل الوزارة القومية.

والذين ذهبوا إلى هذا الاستنتاج كانوا الغلبة والكثرة وهم محقون فيما ذهبوا اليه لأن ذلك كان موضوع الساعة الشاغل، ولكن ما ان جاء صوت الازهري وبدأ - وكثيرا ما كان يحيي المواطنين بمطلع اغنية شعبية مازالت عائشة في الشارع السوداني..

ايها المواطنون والمواطنات

«ازيكم... كيفكم... انا ما غريب... أنا منكم»

وبدأ الازهري خطابه الطويل الخطير الهام الذي شد اليه العقول والقلوب معا. اورد بايجاز أهم ما جاء فيه:

«بعد ايام لا تزيد على اصابع اليد الواحدة سيهطل علينا المطر من السماء في عز الشتاء... سيهطل علينا هذا الخريف فتخضر ارضنا وزرعنا وضرعنا وعقولنا وقلوبنا وأجسادنا.. بعد ثلاثة ايام سأعلن ومن داخل البرلمان الاستقلال التام غير المشروط بأحلاف او تمييز... الاستقلال الذي سيحدد علاقتنا مع الجميع بكرامة وشرف على قدم المساواة، لا فرق عندنا بين أحمر وأصفر وأخضر وابيض وحبيب وجار الا بما تمليه علينا مصالحنا ومصالح السودان العظيم الحر المستقل العملاق وعاش السودان حرا مستقلا... وعاش شعبنا الباسل... و...و..»وما ان انتهى من خطابه حتى قامت القيامة وخرجت المواكب الهادرة وملأت كل الطرقات حتى النساء اللاتي لم يعتدن انذاك الخروج، ساهمن بزغاريدهن وهتافاتهن بحياة الأزهري الذي سحب البساط تماماً من تحت الزعيمين الكبيرين ومن الطائفتين العملاقتين ومن مصر ومن الأحزاب المؤتلفة التي كان الأزهري دائما ما يضيف اليهما ضاحكا مداعباً كلمة (المختلفة)!

.. ماتت مرة واحدة، انذاك فكرة الحكومة القومية.. ماتت امام الفيضان الشعبي الكاسح الذي ينادي بالاستقلال والاستقلال فقط وقد بقيت له ثلاثة أو أربعة ايام، ولم يجد أعداء وخصوم الازهري المجتمعون والمؤتلفون جميعا في جبهة واحدة غير الركوب مع الموجة العاتية حتى لا تجرفهم بعيدا إلى قاع البحر!

توقف الحديث والنقاش عن كل شيء الا الاستقلال ومواجهة اليوم الأكبر وأخذت التطورات السريعة تتلاحق دون توقف فقد أبلغت مصر الحكومة السودانية (الازهري) والحزب الوطني الاتحادي الجمعة ١٦ ديسمبر ١٩٥٥ بترحيبها الحار وتدعيم موقفها اذا ما اعلنت الاستقلال يوم الاثنين. لم تكتف مصر بهذا بل حملت السيد بابكر الديب (منقذ نجيب والسودان من أحداث مارس الدامية) والذي أصبح وكيلا لحكومة السودان بالقاهرة (سفيرا)، حملته وجهة نظرها بقبولها وتأييدها للاستقلال وذلك عقب اتصال تليفوني بين عبدالناصر والازهري، ليس ذلك فحسب بل طلبت من الحزب الوطني الاتحادي ان يبعث بأحد كبار وزرائه إلى القاهرة ليبحث معها تفاصيل الوضع ليصل الطرفان إلى اتفاق. ولم يضع الازهري لحظة واحدة بل ارسل في مساء نفس اليوم - بعد ساعتين من الاتصال - السيد محمد احمد المرضي وزير الحكومة المحلية إلى القاهرة

مندوبا عن حكومته وحزبه وشخصه.

وفجأة بدأت لغة العواطف تظهر على مسرح الأحداث. ألم أقل لكم اننا شعب عاطفي سريع الغضب.. سريع الانفعال.. سريع الرضا.. بدأت لغة العواطف عندما أعلن الحزب الوطني الاتحادي (الازهري) وهو يرد التحية لمصر الشقيقة «انه ليس من رأيه ان يقوم في السودان استقلال معاد لمصر او متنكر للمصالح المشتركة».

## سباق الود

وكما بدأت مصر تفتح قلبها للسودان وتتسابق لاحتضانه وكسب مودته دخلت بريطانيا ايضا السباق مع مصر لتسهيل امور السودان وقد اشارت التعليقات البريطانية الاولية إلى انباء الاستقلال من البرلمان الى ان بريطانيا ستكون أول من يوافق كما أعربت عن رغبتها في اجراء محادثات مع مصر في ذلك الشأن وساد اعتقاد بين السياسيين وأحزابهم ان هذا الاتجاه من جانب بريطانيا قد حدا بمصر إلى المسارعة والمجاهرة باعلان موافقتها وتأييدها وتدعيمها للاستقلال.

.. أما في الخرطوم فقد بدأ كل شيء وفي كل مكان يستعد للحدث التاريخي الكبير جنبا إلى جنب مع المساعي التي تحركت لتذليل المصاعب والخلاف الذي سببه بيان الازهري، فقد قامت وفود من اخيار السودانيين بوساطة مشكورة بين الأحزاب ترمي الى تأجيل فكرة الحكومة القومية ولو إلى حين (مؤقت) والتعجيل بالاتفاق على اعلان الاستقلال وقيام (مجلس السيادة الذي ستؤول اليه سلطات الحاكم العام)» (المستقيل عمدا وقصدا وتوقيتا) فاتصلت هذه الوفود الكريمة بالسيدين وبقادة الاحزاب المؤتلفة فوافقوا مرغمين.

من الأخبار الغريبة المدهشة المفاجأة التي ماتت في حينها دون ان ترى اشعة الشمس ان السيد محمد احمد محجوب زعيم المعارضة كان قد تقدم بشكل عاجل ومستعجل للغاية بثلاثة اقتراحات لكاتب مجلس النواب ليدرجها في أجندة المجلس لاجتماع يوم الاثنين.. يهدف الاول لاعلان الاستقلال والثاني بقيام لجنة وصاية، والثالث وهذا هو الاهم (ومربط الفرس) سحب الثقة من الحكومة... لكن يبدو ان هذه الاقتراحات وبسبب الاقتراح الاخير ماتت في مهدها وقبل ان تتنفس لانها تشوه جلال المناسبة وتقتل الابتسامة وتؤثر على الخريف الموعود واخيرا لان الشعب كله سيقاوم مسألة اسقاط ازهري بصلابة ويرفضها بشراسة.

الجانب المعارض الاخر الذي يحس بالمرارة وعلى رأسه السيدين الجليلين لم يستطع ان يهضم هذا الذي يجري فقد كان الكأس الذي «خلطه» وأعده (الازهري) علقما مريراً وسماً زعافاً، وعلى الرغم من ان الظرف المواجه كان دقيقا وحساسا يميل كله إلى

صالح الازهري فقد اخذ المؤتلفون يعقدون اجتماعاتهم داخل الجدران المغلقة ليضعوا من التخطيطات والمؤامرات ما يثأر لهم من الازهري فكان ان ظهرت صحف اليوم التالي وهي تحمل عنوانا مثيرا وبالخط العريض يقول:

(قيادة الختمية تسفر عن عدائها للوطني الاتحادي) «الازهري» ثم بدأت حملات المهاترات الشديدة والتهديدات المستمرة. وكرد فعل لهذه التحركات نشطت حملة قومية لتجميع الصفوف وتخفيف حدة التوتر الذي ظهر بلا مقدمات على السطح السياسي فقام العقلاء ومعهم تسعة عشر نائبا من الوطني الاتحادي بزيارة لمولانا الميرغني سعيا وراء اقناعه بقبول رئاسة الازهري للحكومة القومية. كما تكونت وفود اخرى من الزعماء القبليين والدينيين وبعض المثقفين المستقلين واجتمعوا بالسيدين الجليلين كل على حدة.

وفي هذا الجو المتوتر دخل اخواننا الجنوبيون حلبة الحرب وهددوا بعدم الوقوف مع الاستقلال الا اذا اعترف الشمال بحقوقهم ومنحهم الحكم الذاتي واستمرت هذه العربدة الشيطانية، والساعات تقترب من نهاية عمر المباراة السياسية والشعبية. فتمكن الوسطاء وأهل الخير من أعضاء تلك الوفود ومن العقلاء من المعسكرين المتخاصمين المتحاربين من احتواء كل اسباب الفرقة والخلاف وانتهت بذلك الأزمة التي اوشكت ان تطيح بالائتلاف وبكل شيء.

## خريف الفرح !

وجاء الغد الكبير الاثنين ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ الجلسة رقم (٤٣)... جاء يوم السعد.. جاء يوم الخلاص.. جاء خريف الفرح... فغسل بمائه السماوية العطرة كل بقايا وفضلات الاستعمار البغيض واهلت على الناس بشائر السعد والحب والخير والسعادة وعندما بدأ اجتماع مجلس النواب والشيوخ وامتلأت قاعات البرلمان عن بكرة أبيها وساد الصمت وبدأ الترقب وارهفت الاذان، وخرجت العيون من محاجرها وتطاولت الأعناق، وتوقفت دقات القلوب، وساد الصمت الرهيب الا من أنفاس الناس وصوت (التكييف) وكاميرات المصورين... عندها وقف النائب السيد عبدالرحمن محمد ابراهيم دبكة الذي دخل التاريخ ليقدم اقتراح البقاء والخلود، وفي صوت وقور مجلجل قال:

«نحن أعضاء مجلس النواب في البرلمان مجتمعا نعلن باسم شعب السودان القوي الباسل ان السودان قد أصبح دولة مستقلة كاملة السيادة ونرجو من معاليكم ان تطلبوا من دولتي الحكم الثنائي الاعتراف بهذا الاعلان فوراً».

بعده تقدم المنصة السيد محمد احمد محجوب المحامي وزعيم المعارضة الذي قال فيما قال لقد كان السودانيون في الماضي فريقين وربما بدا للعالم انهما كان مختلفين في

الهدف ولكن حقيقة الامر التي أدركناها كسودانيين ان الاختلاف لم يكن على الهدف الاسمى للبلاد الا وهو الاستقلال التام والسيادة المطلقة، بل كان على الوسائل. ومضى السيد محجوب يقول ان هذه الحقيقة التي جعلتنا كسودانيين نحترم بعضنا بعضا ونقدر وجهات النظر ونحاول ان نقنع كل منا الاخر إلى ان كتب الله لنا ان نلتقي في الهدف والسبل فكان لقاء وطنيين وحدوا طريق الكفاح، واخذوا يرفعون الحواجز واحدا بعد الاخر في يسر واتساق.

.. واختتم التعقيب السيد مبارك زروق المحامي وزير المواصلات وزعيم المجلس بحديث طويل قال فيه عندما نطلب الاستقلال فليست تلك دعوى ندعيها وانما اصبح الاستقلال حقيقة واقعة فجهاز الحكم تطهر من اي اجنبي، والسلطات التنفيذية كلها أصبحت في يد الحكومة، والسلطات التشريعية كلها في يد البرلمان لسان الشعب وواجهته، والسلطات القضائية كلها في يد هيئة مقدسة محترمة، والجيوش الاجنبية بارحت البلاد... لم يبق لنا في الواقع الا ان نستعيد اخر حق مغتصب وهو الاستقلال والسيادة.. ومضى السيد زروق قائلا نحن لا نشك لحظة ان الدولتين ستقران بالاستقلال وتعطيان اعترافهما فورا لان كلتيهما حريصتان على صداقتنا وسيختم هذا الاعتراف صفحة مضت بخيرها وشرها خاتمة سعيدة لنفتح صفحة جديدة أساسها المساواة والاحترام المتبادل.

وكان مسك الختام اشارة خاصة ومنفردة ومميزة إلى مصر عندما قال زروق انها الجارة العزيزة التي ربطتنا بها روابط الاخاء والزمالة والعروبة والمصالح المتعددة المشتركة والتي نكن لها كل ود ولا نتنكر لاياديها الماضية. وقال إن السحابة التي ظللت علاقاتنا بمصر لفترة من الزمن ليست الا سحابة صيف عابرة فلتطمئن مصر إلى ان استقلال السودان هو قوة لمصر الشقيقة والشرق الاوسط كله.

## محجوب وزروق...

السيدان الكبيران الاستاذان محمد احمد محجوب ومبارك زروق كانا من أبرز وأكفأ وأنجح القياديين وأعظم السياسيين والبرلمانيين على الاطلاق وقد تركا بصماتهما واضحة ومشرفة في سجل السودان. فبالرغم من ان القاسم المشترك بينهما كانت مهنة المحاماة، الا انهما أيضاً كانا صديقين متلاصقين متساويين في الذكاء وسرعة الخاطر والطموح، والعادات حتى الأناقة والرشاقة والموضة وعالم الازياء والأحذية والشرابات ورباط العنق والدنجوانية الوقورة كانا يتنافسان ويتباريان فيها تماما كما كانا يتنافسان في منصة البرلمان وهما الخطيبان البارعان المتمكنان من اللغة الانجليزية تمكن العارفين من أهلها. الشيء الوحيد الذي كان يفرق بينهما ان المحجوب كان قاضيا ومهندسا وشاعرا

وأصبح فيما بعد رئيسا للوزارة وبالمناسبة فان اسم محمد احمد محجوب منقوش في حجر الأمم المتحدة الرخامي الذي يضم أعظم وأكبر المتحدثين فيها .

## لحظات تاريخية

وبعد تعقيب زعيمي المعارضة والمجلس اجيز الاقتراح بالاجماع الشامل وانفجر المجلس بأعضائه وزواره وخدمه وحشمه وصحفيه في تصفيق حار استمر طويلا كان أشبه بسمفونية بتهوفن الخامسة التي تسمى (الامبراطور) ولم يتدخل السيد رئيس المجلس تقديرا لهذا الشعور الوطني الملتهب رغم ان اللوائح الداخلية للمجلس تمنع وتحرم التصفيق منعا باتا . ولولا الوقار لانغمس الرئيس نفسه في هذه الموجة العاطفية الطاغية التي تحرف الانسان معها مهما كبر مقامه وعلا شأنه .

بعد انتهاء هذه الجلسة التاريخية توجه السيد اسماعيل الازهري ومجلس وزرائه لزيارة السيدين الكبيرين وأبلغهما بالقرار وتبادلا أحر التهاني والامنيات ثم توجه إلى مكتبه لمقابلة السفراء والدبلوماسيين . وما ان وطئ عتبة مكتبه حتى علم ان القاهرة على التليفون وكان المتحدث هو الرئيس جمال عبدالناصر الذي أبلغه تهانيه الشخصية وتهاني الشعب المصري .

وفي القاهرة أصدر ( البكباشي ) زكريا محيي الدين وزير الداخلية بيانا اعرب فيه عن اغتباطه ثم استجابة حكومته لرغبات الشعب السوداني التي عبر عنها في البرلمان وقال ان حكومة القاهرة على اتصال مستمر بالحكومة البريطانية للوصول إلى اتفاق لتحقيق هذه الرغبة .

## في لندن

.. وفي لندن اجتمع السير نوكس هلم الحاكم العام بالمستر هارولد ماكميلان وزير خارجية بريطانيا ثم اعلنت الخارجية البريطانية ان حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين الاعتبار والعطف في اي قرار يتخذه البرلمان السوداني للوصول للاستقلال الكامل وصولا مباشرا . وعند منتصف الليل اصدر مكتب المبعوث التجاري البريطاني في الخرطوم (السفارة فيما بعد) بيانا قال فيه ان حكومته ترحب بقرار البرلمان السوداني الخاص بالاستقلال وهي تقوم الان بمباحثات مع الحكومة المصرية لاتخاذ الخطوات النهائية لتنفيذ هذا القرار .

وفي منتصف نهار الثلاثاء أصدر الامام المهدي ومولانا الميرغني بيانا مشتركا هنآ فيه الشعب على وقفته الجماعية وراء مطلب الاستقلال وأهابا بالسودانيين كافة ان يصونوا

ذلك الاستقلال بالعمل القويم والمنهج السليم وبالتضحية ونكران الذات ثم دعيا كل مواطن ان يجعل من نفسه جنديا حارسا للأستقلال وان يستشعر (الواجبات) قبل ان يطالب (بالحقوق) وان يتحلى بالتسامح والعفة والصدق والامانة في تعامله مع الاخرين.

وادلى الامام عبدالرحمن المهدي للصحف بحديث خاص مختصر قال فيه: لقد فرغنا من الجهاد الأصغر لنواجه الجهاد الاكبر وهو تشييد دولة السودان على اسس قويمة وان واجبنا الا يبطرنا النصر او يغرنا، واشار إلى العلاقات السودانية المصرية فقال:

«ان بعض ظروف جهادنا الأصغر اقتضت ان نختلف مع مصر ويلزمنا الآن ان نفتح صفحة جديدة في العلاقات معها فننميها بما يخدم شعبي البلدين ويرعى مصالحهما ويصون استقلالهما».

## صلاح سالم !

.. وفي منتصف نفس النهار (الثلاثاء) وصل الصاغ صلاح سالم للخرطوم وقضى يوما مليئا بالحركة وقابل الازهري ثم قام بزيارتين إلى الامام المهدي ومولانا الميرغني ليعبر لهما عن فرحته الشخصية. وفي المساء اجتمع بزعماء الاحزاب وأدلى باحاديث صحفية قال فيها انه في زيارته للسودان لا يمثل الا نفسه وانه لا ينوب عن الحكومة المصرية، بل جاء في أول فرصة اتيحت له «بعد غيبة طويلة» اقتضتها الخلافات




الصاغ صلاح سالم والأزهري

والمعارك السياسية في الفترة الماضية وقال ان مصر لا تريد من السودان اي ضمانات او مواثيق ولا تطالب غير صداقة الجميع. وقال ان مصر قد ازالت جميع أسباب الخلافات والمطاحنات، وتنظر إلى السودانيين جميعا نظرة متساوية وترغب في التعاون معهم جميعا لا مع فريق دون آخر!!

كان الصاغ صلاح سالم عين مصر ومجلس الثورة المصرية على السودان وبجانب وزارة الارشاد القومي كان وزيرا لشؤون السودان التي تقلدها بعده البكباشي زكريا محيي الدين وكان الصاغ قد انغمس بثقله في شؤون السودان كما سبق وروينا ذلك تفصيلا ولكن بعد زيارته الاخيرة وتصريحاته الغريبة التي لا تشبهه، أخذ نجمه في الافول وبدأ يختفي رويدا رويدا من مسرح الاحداث لا في السودان وحده، وانما في مصر كذلك وفي تقييم القاهرة لاحداث ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ رأت مصر (عبدالناصر) ان جزءاً اساسيا من اسباب فشل سياستها في السودان يرجع كليا إلى اخطاء الصاغ صلاح سالم وعدم تقديره تقديراً سليما وواعيا لما يجري في السودان فعزل لذلك من جميع مناصبه واختفى كليا بل وحددت اقامته فيما بعد!

اما في لندن فقد ناقش مجلس العموم البريطاني قضية السودان ووافقت الحكومة بشقيها موافقة اجماعية على الاعتراف باستقلال السودان. وفي هذه المناسبة اذكر ان رئيس حزب العمال الجديد المستر (هيوجيتسكل) تحدث لاول مرة في البرلمان بعد توليه منصب رئاسة الحزب فأيد في حديثه الاستقلال.

## يوم الفرح الأكبر!

في جلسة يوم السبت ٣١ ديسمبر اجاز البرلمان اوصاف العلم السوداني وهي ازرق رمزا للنيل وأصفر رمزاً للصحراء وأخضر رمزا للزراعة.

اكتملت افراح السودان في اول يناير ١٩٥٦ عندما اصطف النواب البرلمانيون في فناء البرلمان في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحا يتقدمهم في الصف الاول اعضاء مجلس السيادة ثم رئيسا المجلسين (النواب والشيوخ) ثم رئيس الوزراء وزعيم المعارضة ثم الوزراء وخرج الموكب يحف به رجال البوليس وكانت جماهير الشعب الغفيرة المبتهجة تسد الطرقات وتتبع الموكب المهيب وهي تهتف بحياة السودان وحياة الزعيم الازهري حتى وصل الجمع إلى حدائق سراي الحاكم (قصر الشعب الان) حيث جلس السيدان المهدي والميرغني في مقدمة المقدمة وبدأ الاحتفال بتلاوة من القرآن العظيم ثم بخطاب قصير القاه الازهري صدحت بعده موسيقى القوات المسلحة (نوبة المساء) عندما بدأ ثلاثة من ضباط الجيش ينزلون العلمين الانجليزي والمصري من ساريتيهما فيتسلمهما الازهري ويسلم احدهما للمستر دودز باكر وزير الدولة البريطاني والاخر للاميرلاي

عبدالفتاح حسن مندوب مصر .

ثم تأتي اللحظات الفاصلة الرهيبة عندما بدأ الازهري وزعيم المعارضة يرفعان علم السودان الحر المستقل وعندها عزفت الموسيقى (نوبة صحيان) واطلقت المدفعية مائة وعشر طلقات تحية للعلم فوقف جميع الحاضرين اجلالا وابتهاجا واحتراما بمن فيهم السيدان الكبيران وتعلقت انظار الجميع وهي ترقب في اجلال علم الحرية والخلاص يرتفع رويدا رويدا حتى استقر خفاقا عالياً فوق سماء السودان ولم يتمالك الامام المهدي مع المشهد الرهيب المهيب فانفجر في بكاء حار فرحاً سعيدا بالمناسبة ثم نهض وسارع في خطوات مهرولة لا تتناسب مع وقاره وشيخوخته واتجه إلى الرئيس الازهري وشد على يديه بل قام باحتضانه وهكذا بدأ (خريف الفرح)! في السودان.

ثمة تعقيب ورأي خاص بي اريد ان اسطره رغم انه ثقيل على النفس ويشكل بعض الحساسيات. ولكنه في نظري وفي رأيي واقع مزعج هو اننا نلنا الاستقلال باقل خسارة ممكنة، وبعدد قليل من الضحايا والتضحيات اذا ما قارنا انفسنا بالمليون شهيد في الجزائر او الانتفاضات الافريقية المجاورة ومرد ذلك في الحقيقة يعود اصلا إلى وضعنا الغريب تحت الحكم الثنائي الانجليزي المصري فقد ظلا كلاهما يتسابقات لارضائنا وكسب مودتنا وصداقتنا عندما اصطدمت مصالحهما فكان الاستقلال بمثابة الوجبة الشهية التي قدمتها لنا الاقدار في طبق في الفضة وملاعق من الذهب!



الأزهري ومحجوب يرفعان علم السودان

# ﴿ الفصل التاسع ﴾

- بعد رفع العلم توقف الجهاد وسقط الساسة .
- عبدالله خليل يتشفع للصاغ سالم وعبدالناصر يستجيب .
- النواب يباعون في سوق النخاسة .

انتهى الجهاد الأصغر ليبدأ الجهاد الاكبر كما دعا الامام عبدالرحمن المهدي عند اعلان الاستقلال . والحقيقة الاولى جميلـة وعـذبـة وحلـوة وهـي اننـا انـزلنـا العلميـن الانجليزي والمصري، ورفعنا مكانهما علم السودان الحبيبة وأخرجنا أو خرج الجيش البريطاني وتوابعه وتابعوه من الوجوه الحمراء والعيون الزرقاء والخضراء من بقايا القضاة والاداريين والمهندسين البريطانيين وتربع رجالنا على مقاعدهم وسكنوا بيوتهم فآل الينا كل شيء، وهذا واقع مفرح انتهى معه جهادنا الأصغر . أما الحقيقة الثانية وهي مع الاسف مريرة ومؤلمة فهي اننا لم نبدأ بل ولم نفكر في جهادنا الاكبر فقد توقف جهاد القادة والزعماء السياسيين في النقطة او المحطة التي تفصل بين الجهادين . توقفنا تماماً فبدلا من ان ينصرفوا بعد خريف الفرح الذي بشر به الازهري في عز الشتاء ليرتوي الشعب من امطاره الغزيرة، ويسعد من خيراته، ويستمتع بنسماته الصحوة الجميلة فينصرف القادة الى ما ينفع الناس ويشبعوا تطلعاتهم وآمالهم في حياة كريمة واستقرار دائم ومستقبل مشرق باسم ... بدلا من ان يفعلوا ذلك الذي جاءوا بسببه، وفوضوا شعبيا وكليا من أجله، انحرفوا بسفينة البلاد الى قاع النيل عندما انحصروا في ذواتهم الفانية ومصالح احزابهم ونـوابهـم ولا غـرو فقـد انتفخـوا وطـالـوا ، واشتـدت سواعدهم، وانتصبت أعوادهم وكبروا واغتروا وسعوا في الارض مرحا كأنهم بلغوا الجبال طولا وعرضا !

.. من ناحية اخرى فان البذور التي غرسها الصاغ صلاح سالم وبدأ بها الفساد السياسي وشراء الذمم والتي لم تكن معروفة ولا معهودة في الحياة السودانية من قبل .. هذه البذور نمت وترعرعت وأينعت وحان قطافها بعد ان كبرت وتعددت سيقانها وكثرت فروعها وأوراقها حتى صارت غابة كثيفة منظرها مخيف ورائحتها تزكم الانوف ودخل فيها القادة والزعماء فغاصوا في وحلها ومنحدراتها حتى الاذنين وشعر الرأس !!

بعد فرحة الاستقلال مباشرة، انحلت حكومة الازهري وشكلت حكومة قومية برئاسته ثم سقطت وتشكلت مكانها حكومة ائتلافية برئاسة عبدالله خليل ثم سقطت وجاءت اخرى وسقطت الاخرى و ..و .. وكان القاسم المشترك الكبير والأعظم في كل ما لطخ

وجه الحياة السياسية الوليدة في السودان حتى صارت كالحة مصفرة وكئيبة حزينة هو أسواق النخاسة والمزايدات المنتشرة في كل مكان لشراء الذمم وأصوات النواب ليناصروا هذا ويعارضوا ذاك ويسقطوا الاول ويفوزوا الثاني، ثم يسقطوا الثاني ليفوز الاول. نشطت بورصة النواب حتى صار لها سماسرة ومندوبون بل ومكاتب وفروع وبيوت وتليفونات وعربات وقناصون وقناصات تماما كبورصات القطن والصمغ واسواق البترول.

.. يبدأ الشعب يتألم ويتوجع بل وكثيرا ما يبكي وهو يرقب القادة الذين حملهم بالامس على الرؤوس والاعناق وفي القلوب وحدقات العيون يهبطون بالمظلات إلى احط وارذل (البرك الراكدة) وهم يتسابقون في السر والعلن وكلما تقدمت للبرلمان ميزانية، او صوت ثقة لشراء الضعفاء والمستضعفين من النواب الشماليين والجنوبيين ممن فقدوا كرامتهم ووطنيتهم وعلقوا الضمير والعقل والوفاء وأصوات الشعب المسكين على المشانق بعدما خنقوه وداسوه تحت الاقدام في أرض قذرة مليئة بالدود والطين!

.. ظل الشعب يسمع كل يوم رواية وقصة وحادثة ونكتة ومقلبا في دوائر الاحزاب والقادة فتارة يضحك ويقهقه، ولكنه كثيرا ما يتوجع ويئن وينوح ويبكي (ويلطم الخدود).

## اكبر صفقة نخاسة

كانت اكبر صفقة في سوق البورصة النيابية عندما اشترى صلاح سالم عشرة نواب جنوبيين دفعة واحدة دفع لزعيمهم الكبير عشرة الاف جنيه ولكل من الاخرين الفين من الجنيهات ففاجأوا في اليوم الثاني المجتمع السياسي والاعلام ببيان يعلنون فيه تمردهم على معسكرهم الاستقلالي الذي ينتمون إليه وليناد وا بالوحدة مع الشقيقة مصر، والمصيبة ان العشرة كانوا يسكنون مع عدد اخر من زملائهم وبضفة دائمة في أحد منازل الامام المهدي المتاخمة لقصره وكان يشرف على راحتهم مجموعة من خدمه!!

كان بيان العشرة مصدرا للتندر والسخرية والازدراء وهو من الاسباب الكبيرة المفضوحة التي عجلت بنهاية الصاغ ولكن الذي لا يعرفه الكثيرون من الناس هو ماذا كانت ردود الفعل في دوائر حزب الامة وكيف استقبل هذا النبأ المزعج؟ لهذا قصة غريبة جدا ومضحكة جدا جدا وقعت فصولها في السر ووراء الجدران!

## الصورة الاولى

«في اليوم الثاني لصدور بيان العشرة، عقد السيد/ عبدالله خليل سكرتير عام حزب

الامة اجتماعا رسميا وهو أول اجتماع في العالم ـ حسب علمي القليل وادراكي المحدود ـ والله اعلم ينعقد بتلك الصورة وعلى ذلك المستوى الذي تشبه حلقاته مسرحية (شاهد ماشافش حاجة) اذ بعدما استعرض الاجتماع الكبير الهام الذي كانت الصحف ترقبه بشغف وتطلع وتنتظر نتائجه على احر من الجمر، اتخذت القرارات السرية الخطيرة الآتية التي بالطبع لم تنشر ولم تعرف حتى الان!

أولا: تشكل لجنة فنية متمكنة من شباب الحزب المعروفين بولائهم الطائفي اولا ثم الحزبي ثانيا لتقيم حفلا ساهرا صاخبا للنواب الجنوبيين لانهم يحبون بل ويعشقون بنت الحان إلى حد الشراهة، ربما كان هذا نتيجة لحياة الحرمان والفقر والبؤس التي ظلوا يعيشونها طيلة فترة الحكم الانجليزي القاهر.

ثانيا: ان يصرف فورا لهذه اللجنة مبلغ ثلاثمائة جنية عدا ونقداً لشراء كل اللوازم والاحتياجات لهذا الحفل الصاخب.

ثالثاً: قبل طلوع الفجر ـ وبعد ان (يقضى) تماما على النواب الجنوبيين تقوم اللجنة (بنشلهم وتفريغ كل محتويات جيوبهم ومحافظهم وحقائبهم وساعاتهم و ... و ..)!

رابعا واخيرا ان تتوجه اللجنة بعد انسحابها فنيا بكل غنائمها الى منزل احد القادة لتسليمه جميع الودائع والمسروقات وبالفعل تمت الخطة بحذافيرها وتفاصيلها وكانت الحصيلة ثلاثة وعشرين الف جنيه عدا ونقدا وسبع ساعات وعددا من اقلام الباركر حتى المناديل والكرفتات والشرابات لم تنسها اللجنة فقد (لملمتها كلها) وسلمتها للقيادة لانها كانت «جديدة لنج» فيما يبدو!

.. كنت بين مجموعة الحاضرين عندما اتخذ هذا القرار الخطير ولم أتمالك نفسي فضحكت كثيرا جدا وبصوت مرتفع جدا جدا حتى كاد ان يغمى عليّ الشيء الذي لم اعتده خصوصا في حضرة اهلي واباتي الكبار مما جعل عبدالله خليل ينظر إليّ من تحت اطراف نظارته السميكة نظرة شزر يطير منها الشرر ـ كنت قد تعودت من قبل عليها فما كان منه وانا اتابع ضحكي الا ان صرخ في وجهي صرخة عسكرية افزعتني فعلا قال لي:

«اسمع ياولد انت معانا هنا بصفتك انصاري وولدنا فقط امشي اعمل طرطشتك دي واكتب اسرارنا والله العظيم اضربك رصاص. فهمت؟»

نعم فهمت جدا لانني ايضا قد تعودت على هذه النغمة واستوعبتها اكثر من مرة وعرفتها وهضمتها الف الف مرة .

الأهم من ذلك كله ان الجنوبيين العشرة ومعهم زملاؤهم الابرياء الذين كما يبدو قد امتدت إلى جيوبهم أصابع اللجان الفنية (فراحوا في فزع القيامة).. الاهم من ذلك كله انهم توجهوا في الصباح وبعد وقوع الاعتداء الاثم والهجوم الخاطف المباغت إلى قصر الإمام المهدي الذي كان ملماً بالخطة اللعينة وضحك لها اكثر مما فعلت.. توجهوا

وطلبوا مقابلته في الحال وعندما سمح لهم بالمقابلة قام زعيمهم واعلن التوبة وقال اننا كنا قد قررنا بعد ان (نستلم قروش الصاغ) ان نخبرك اولا ثم نعقد مؤتمرا صحفيا ونصدر بيانا هاما ننفي فيه كل ما جاء في البيان الاول «وكان قصدنا ان نخفف عليك الاعباء المالية» وبعدما فعلوا ذلك فعلا اصدر الامام المهدي قرارا خطيرا بارجاع كل المسروقات والمنشولات إلى أصحابها والغريب ان الذي قام بتوزيعها واعادتها لهم هو عبدالله خليل وكان ذلك في حضرة الامام!!

## الصورة الثانية

أما الصورة الثانية فهي لا تقل اثارة وطرافة عن سابقتها فقد كانت لمجموعة من النواب الشماليين هذه المرة دفع لهم حزب الأمة مضطرا ومجبراً ليجاري سلاح صلاح سالم الف جنيه ولما أصبح الصباح وانتهت أجندة البرلمان الروتينية وازفت ساعة التصويت بالثقة لاحظ عبدالله خليل ومساعدوه من المراقبين (والفنيين) ان ثلاثة ممن دفع لهم صوتوا بجانب الازهري وحنثوا بالايمان والعهد بالرغم من أنهم قبضوا ثمن اصواتهم واقسموا كالعادة على المصحف الشريف وانفض المجلس وكان عبدالله في غاية التوتر والغضب ولكنه ليس بالشخص الهين الذي يمكن ان يلعب عليه الصغار من الخونة (ويستكردوه) فعزم على شيء كبير، وما ان دقت الساعة الواحدة صباحا حتى انطلق بعربته بصحبة ثلاثة من شباب حزبه الاقوياء (الفتوات) واتجه إلى منزل النائب رقم واحد ودق بابه والصوت من الداخل يسأل مين؟ من بالباب في هذه الساعة المتأخرة من الليل وربما لاح في خاطر النائب الهمام انه (زبون) جديد لان الزبائن عادة يأتون في مثل هذه الساعات المتأخرة وعبدالله خليل يواصل طرقاته في عنف وما ان فتح النائب الباب حتى امسك عبدالله القوي بيده اليسرى عنق الرجل (زمارة رقبته) وسابت ركبتا الرجل الذي شلته المفاجأة غير المتوقعة ولم يزد عبدالله وهو كما قلت قليل الكلام على جملة واحدة فقط فقال له:

«هات الفلوس» وكان الرد موجزاً ايضا: «حاضر ياسعادة البيه»

انتظر عبدالله امام الباب ودخل الرجل وتبعه (الثلاث فتوات) ثم عادوا ومعهم سبعمائة وثلاثين جنيها ولما استفسر عبدالله عن بقية المبلغ (وين راح) قال النائب وكان في حالة يرثى لها ... قال:

«والله يا سعادة البيه كانت علي شوية ديون وحللتها.. واشتريت للاولاد بعض الحاجيات، فقال له عبدالله: «تحل ديونك يا ابن ... بفلوس الحزب؟»

معليش ياسعادة البيه والله اعوضك في المرة الجاية «يعني الصوت القادم» قال عبدالله خليل للنائب المحترم:

«الساعة اللي في يدك دي جديدة جبتها من وين... اشتريتها من فلوسنا طبعا!؟
النائب مترددا ومتلعثما:
«ابدا يا سعادة البيه دي اشتريتها والله في التصويت «اللي فات!!»
عبدالله خليل موجها حديثه للنائب وللفتوات: انت بتعرف الله؟ بسرعة اقلعوها من يده وكمان خذوا معاها القلم والولاعة وعلبة السجاير!! وبالطبع (خلعوا كل شيء ونظفوا الرجل تماما) ودارت العربة في طريقها للنائب رقم اثنين وثلاثة.

## الجانب الثاني

.. أما السكرتير الاخر في الجانب الاخر من المسألة او (المهزلة) فقد كان صديقي العزيز الشيخ محمد احمد المرضي سكرتير الحزب الوطني الاتحادي (الازهري) في فترة من الفترات يساعده في مهمته القاسية (شراء النواب) السيد/ يحيى الفضلي الرجل الذكي القوي والخطيب الكبير الذي عرف باسم «الدينمو» والذي يلي الازهري في الشأن ومعهما كذلك صديقي الشريف حسين الهندي وهو الثالوث الخطير الذي يهابه حزب الامة ويعمل له الف حساب لانه كان ثالوثا معروفا بحبك المؤامرات وتخطيط المقالب ذات الشراب المرير والطعم الامر (الأخوة كارامانوف)!

.. دق بابي في الثالثة صباحا ـ وهذا أمـــر مألوف ـ حسبت ان امرا ما يخص الجريدة قد وقع، ولكنني وجدت الثالوث امامي وهم في حالة اعياء شديد دخلوا مسرعين وقال لي شيخ المرضى ـ طبعا بدون اعتذار وبدون ابداء حرج أو أسف ـ فقد قلت ان الذي يجمع بيني وبينه هو الذي يجمع بين الشقيقين.. قال لي:

(تور المرا) يعني صحي امرأتك لتعد لنا طعاما فنحن نكاد نموت من الجوع ولم يطل بي التفكير فقد ادركت ان مهمتهم في مثل هذه الساعات المتأخرة من الليل لابد ان تكون متعلقة بشراء النواب ففي نفس الصباح كان صوت الثقة بالحكومة يتربع في قائمة الاجندة وهنا بادرتهم بسؤال تقليدي وهم منشغلون عني تماما بالتهام الطعام وبطريقة شرهة (ملوخية في الفجر) زائدا لحمة زائدا بيض زائدا موز وشاي وزبادي) حاجة غريبة!!

قلت وأنا اتثاءب: يا مولانا ان شاء الله خيرا أرجو ان يكون صيدكم ثمينا وكثيرا!؟
قال لي شيخ المرضى بايجاز شديد وقد عرف بحلاوة حديثه وفكاهته: «والله يا أخي تعبنا خلاص. أهلك ما خلو لنا شيء (يقصد الانصار) غايتو بعد تعب شديد حصلنا على رأسين!!»

وضحكنا سويا وعندما أكلوا وشربوا الشاي (هنيئا مريئا) وخرجوا كان اذان الصبح قد بدأ باسم الله يدعو للصلاة والتوبة والرحمة والغفران.

هذه وقائع وأحداث مضغوطة ومختصرة قصدت رغم ما فيها من طرائف وفكاهات واثارة ان أعطي بها صورة حية واقعة ومعاشة كان الشعب يحسها ويلمسها ويسمع بها (حتى فاتت اذانه). هذا ما كان عليه حالنا وحال قادتنا وزعماء بلادنا وهم في بداية الطريق للجهاد الأكبر!!

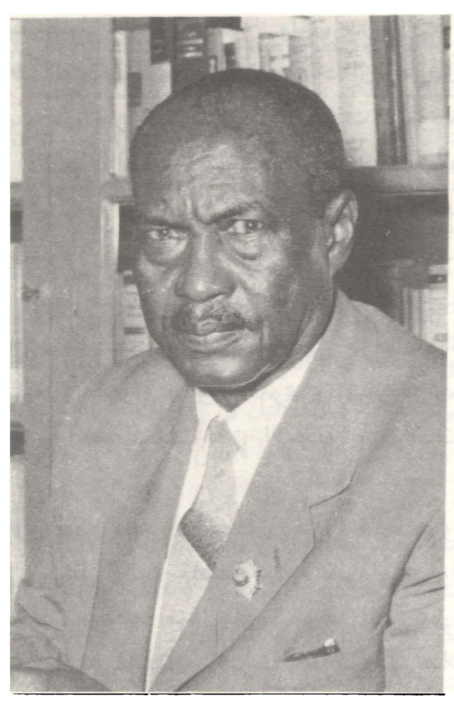
الم اقل لكم ان بذور الصاغ صلاح سالم التي غرسها فأفسد بها الحياة النيابية قد أصبحت غابة فصار الزعماء والقادة يتسابقون من بعده ليتحاربوا بنفس السلاح وبنفس الوسيلة؟، ذهبت كثيرا، وكان لابد من ذلك في سرد المساوىء والانحرافات التي حدثت في الميدان السياسي والتي كان لها وقعها العميق الموجع في نفوس الناس وسببت لهم الكثير الكثير من خيبات الأمل والتحسر والألم مما جعلهم ينصرفون عن قادتهم وزعمائهم وينفضون من حولهم قليلا قليلا لكني ما دمت قد فعلت ذلك، فلابد لي ان اسدل الستار الأسود من الفصل الاول على حياة الاحزاب بعد ان أطلقت على رأسها الرصاص وغمست في احشائها الخناجر وودعت الحياة ولكن إلى حين... قبل ان افعل ذلك من الأمانة بل ومن الواجب ان اذكر محاسن بعض القادة والزعماء السياسيين الذين تركوا بصماتهم العميقة في تاريخ السودان خاصة الذين عرفتهم عن قرب قريب مما جعلني في موقف متمكن وموقع قوي استطيع معه ان اكتب وباختصار شديد الجوانب الاخرى من حياتهم الخاصة التي لا يعرف الناس عنها شيئاً الا فئة قليلة من دوائر الخلان والاصدقاء.

**السيد عبدالله خليل:**

رجل عسكري النشأة والطباع والعادات لا يعرف الخطابة ولا يؤمن بها ويسميها (ثرثرة فارغة ودوشة دماغ) غامض جداً جداً، وجهه جامد لا يعبر عن اي شي لا تحدث فيه اي ردود فعل مهما كان الموقف كبيرا. شجاع قوي الشخصية قوي البنية بجانب انه ودود ووفي لاهله وأصدقائه كريم جدا وفي صمت حتى يخيل للانسان ان جيبه مثقوب ويده كذلك مثقوبة.

من قصص وفائه وكرمه ورجولته الخارقة: انه عندما كان في القاهرة في احدى زياراته كرئيس للوزراء وكثيرا وغالبا ما كنت رفيقه ويومها تركته في القاهرة وليومين فقط سافرت خلالهما إلى طرابلس في رحلة خاصة حملني فيها رسالة للسيد عبدالمجيد كعبار رئيس وزراء ليبيا وكان فحوى الرسالة اعتذاراً عن الزيارة التي كان من المقرر ان يقوم بها إلى ليبيا اما الرسالة الشفوية التي حملتها لرئيس الوزراء الليبي فكانت تهدف إلى تقوية العلاقات بين البلدين ومحاربة الشيوعية ومقاومة اي دولة تحاول ان تتدخل في شؤون البلدين والاشارة هنا كانت واضحة.

اذكر ان رد رئيس الوزراء الليبي انحصر في ان ليبيا فقيرة (وفي حالها) لا تقوى



عبدالله خليل

على منازلة احد في اي ميدان لكنها بالطبع تؤمن بمقاومة الشيوعية وبضرورة، تحسين العلاقات بين السودان وليبيا الممتدة من عهد المهدي الكبير.

قابلت مع العم عبدالله خليل الرئيس عبدالناصر اكثر من مرة في الخرطوم والقاهرة وسمعت الرئيس ناصر يقول له في كل لقاء عبارة مكررة:

«يا سعادة البيه رغم ما بيننا من خلاف وجفوة، فانا احترمك جدا واحب صراحتك جدا جدا».

كان أصعب واخطر مواجهة بين الاثنين هي الخلاف حول منطقة (حلايب) في حدود البلدين عندما ادعى كل منهما ملكيتها ودخلها الجيش المصري واحتلها عنوة فما كان من عبدالله خليل رئيس الوزراء ووزير الدفاع الا ان اعلن حالة الطوارىء واصدر أوامره للجيش بالتوجه فوراً إلى منطقة النزاع وطرد الجيش المصري بالقوة وقبل أن تقع الواقعة تدخلت العناية الالهية وصدرت الاوامر للجيش المصري بالانسحاب فورا لا خوفا من الاصطدام كما يتبادر إلى الاذهان ولكن لان الشعب السوداني كله بما فيه الوحدويون والموظفون والطلبة والعمال والشيالون والنشالون والصعاليك كان ولأول مرة في تاريخ عبدالله خليل قد أيد وشد من أزره ووقف بجانبه ولاول مرة كذلك ينزل الشوارع هتاف جديد غير معروف ولا مألوف، ومن شرفة مجلس الوزراء كان عبدالله خليل يراقب الذي يجري في جمود وبلا ردود فعل ظاهره وهو يسمع الهتافات: «وراك

رجال يا عبدالله... يخوضوا النار يا عبدالله» ولكن سرعان ما علق قائلاً: «عالم ما عندهاش شغل»! ولعبدالله تاريخ معروف اذ اعتاد ان يستقبل كل يوم المظاهرات العدائية في منزله القريب من منزل الازهري وهي تهتف بسقوطه وخيانته وفي يوم من الايام وفي مناسبة لا اذكرها بالضبط لان التظاهرات كانت كثيرة ومتعددة تقوم بلا سبب ولاي سبب... في يوم من الايام ونحن على طاولة الغداء بدأنا نسمع هدير مظاهرات تتقدم نحو داره: «يسقط عبدالله عميل الاستعمار.. يسقط عبدالله عدو الشعب» فابتسم وقال: اليوم سأضع خاتمة نهائية لهذه المظاهرات المزعجة وفعلا عندما قربت من بابه بدأت في قذف الحجارة والطوب حتى خرج عبدالله وبيده بندقية سريعة الطلقات وما أن أفرغها في الهواء بصوتها المرعب المخيف، حتى اطلق المتظاهرون سيقانهم للريح تاركين وراءهم كميات من الاحذية والدراجات وكانت فعلا خاتمة المظاهرات!

أعود للموقف المتأزم بين مصر والسودان. نزل المتظاهرون المؤيدون بالاجماع لعبدالله خليل للشوارع في كتل رهيبة غاضبة هائجة ثائرة وهجموا على السفارة المصرية وحطموا ابوابها ونوافذها ومداخلها مما جعل اخواننا المصريين رغم كثرتهم يختفون تماما من الشوارع واغلقوا على انفسهم البيوت حفاظاً على سلامتهم وكان ذلك أول وأخطر مواجهة مباشرة بين الشارع السوداني ومصر والمصريين مما جعل عبدالناصر يأمر وبعجل بل ويعلن الانسحاب في المذياع بنفسه قبل أن تتطور الامور وتخرج من اليد فتترتب عليها آثار قريبة وبعيدة لا تخدم مصالح الشعبين الشقيقين.

ولست ادري واذكر حتى الان وعلى سبيل التحديد مصدر الخطأ الذي صعد الخلاف الى هذا الحد وعبدالناصر يعرف جيدا اهل السودان وطبائعهم!!

.. لست ادري ولا اذكر ولكن لابد ان يكون ثمة خطأ ما غير مقصود ولا محسوب قد وقع. عندما عدت من رحلتي لليبيا توجهت ونزلت في فندق شبرد حيث اعد جناح خاص لعبدالله خليل وقد كان فندق شبرد وقتها هو أكبر وأضخم وأول فنادق القاهرة على الاطلاق. هنا اروي لكم قصة الاخلاق الرفيعة والسماحة والعفو عند المقدرة بكل معانيها. قال لي عبدالله خليل وقتها بالضبط وبالحرف: عندي ليك مفاجأة كويسة اليوم وفعلا تهيأت جدا وظننت ان المفاجأة هي زيارة اخرى للرئيس عبدالناصر، وما أن ركبنا العربة حتى كانت المفاجأة كبيرة وكبيرة جدا وغير متوقعة حين قال عبدالله خليل لسائق العربة وكان يرافقنا ضابط مصري برتبة لواء وعدد من عربات الجيب والدراجات البخارية... قال له: «من فضلك يا اسطى عايزين نروح بيت الصاغ صلاح سالم وكان وقتها معتقلا في بيته واختفى تماما وراء الاسوار ووراء الأحداث بعد ان فقد كل جاهه وسلطانه ووظائفه وفقد معها نفسه، اضطرب اللواء والسائق معا ونزلا مهرولين مسرعين إلى أول عربة من عربات الجيب المملتئة بالحرس الخاص لرئيس الوزراء..

هرولا معا بعد ان قال اللواء مضطربا ومرتجفا ومتلعثما: «بس ياسعادة البيه .. ارجوك لحظة واحدة .. عن اذنك ثانية .. مش حتأخر!» وضحك عبدالله وأنا أنظر اليه في حيرة ودهشة لان الصاغ انذاك كان مجرد ذكر اسمه يعني من المحرمات وانتظرنا ونحن في داخل العربة والطريق مغلق امام المارة دقيقة وخمس دقائق وعشر دقائق جاء بعدها اللواء وهو في حالة نشوة وفرح قائلا: خلاص يا سعادة البيه أمرك مجاب وتحرك الركب بانواره الحمراء وبصفافيره المزعجة حتى أدركنا منزل الصاغ وقد خلا شارعه تماما من كل شيء الا بعض الحراس وهم يحملون مدافعهم الصغيرة ووقفت العربة امام الفيلا ودخل امامنا اللواء وعدد من الضباط مسرعين مهرولين ليبلغوا الصاغ السجين ان رئيس الوزراء السوداني عبدالله بيك خليل في زيارتك ثم انسحبوا ويبدو ان الصاغ عندما سمع «صفير العربات والدراجات البخارية» كان قد فكر الف مرة ترى من يكون غيره؟ ان القادم هو بلا شك صديق عمره ورفيق دربه جمال عبدالناصر جاء ليفرج عنه خاصة وقد بدأ المرض يداهمه ويلازمه، ولكن مفاجأة الصاغ كانت أكبر عندما عبر عنها بصرخات مجنونة محمومة، سأحاول مستعينا بالذاكرة والذاكرة لا تخون في مثل هذه الوقائع الكبيرة ان اذكر الألفاظ والعبارات ذاتها:

«مش ممكن... عبدالله بيك خليل.. يا ناس انا في حلم والا في علم ايه اللي انا بشوفه ده مش معقول!! عبدالله بيه انا حاربتك ودفعت ملايين الجنيهات علشان احطمك تقوم تزورني وانا ضعيف وانا معتقل؟» انقض الصاغ بجسده الفارع الذي بدأ يتراخى ويتقوس وأدخل عبدالله خليل في أحضانه وظل يبكي قليلا قليلا ثم بصوت عال ومرتفع... امال فين صحابي... فين المرغني... فين الازهري فين نور الدين... ده انا صرفت عليهم الملايين ماحدش يسأل عليّ في مصيبتي ومحنتي غير الشخص اللي ناصبته العداء وغلطت في حقه؟!

رد عليه عبدالله خليل وكما قلت فانه قليل الكلام... رد على كل هذا الانفعال بجمل قصيرة حين قال:

«والله يا صلاح سالم مش عارف اللي بعملوا ده هو عبط ولا بلاهة؟ لكن على كل حال احنا السودانية طبعنا كدة بس انت ما كنتش قادر تعرفوا! بعد ذلك بدأ حديث المجاملة وكان الصاغ هو الذي يتحدث بلا توقف وعبدالله يستمع في نظرات صماء ووجه جامد غير معبر فشكا حاله وانه مريض وان طفلته اصيبت بالشلل وان عقله ذاته قد انشل وحالته وحالة عياله صعبة والحياة قاسية وذكر ملحوظة لم اتمالك ـ معها نفسي فاغرورقت عيناي بالدموع عندما قال:

«راضي بحكمك يارب... ده يمكن اللي عملتو في السودان وفي الناس الطيبين زيك يا سعادة البيه... راضي بحكمك وظل يرددها حتى لاحظت وبعد عشرتي الطويلة ـ ومنذ ولادتي ـ ان وجه عبدالله خليل الجامد بدأ يتحرك بل وبدأ ينفعل ولم يتمالك

عبدالله نفسه ساعتئذ فضم اليه الصاغ بحنان لم اشهده فيه من قبل وقال عبدالله خليل للصاغ وهو يتأهب للقيام بالحرف: بكرة حاقابل عبدالناصر واكلمه عنك ثم أخرج من جيبه ظرفا دسه في جيب الصاغ - واقسم جازماً رغم انني أعرف أدق أسرار عبدالله خليل لأنني كنت موضع ثقته وفي منزلة ابنه تماماً إلا أنني لم أستطع ان اعرف كم كان في الظرف المنتفخ. ولم يتمالك الصاغ نفسه وهو يودع عدوه الشرس وعيناه ممتلئتان بالدموع الغزيرة الا ان قال: رأسك أبوسها ياعبدالله بيه ولم ينس حين ودعني ان يقول لي بالعبارة السودانية المعروفة:

«أبقو عشرة على رجالكم يا مختار»! يعني خلو بالكم من رجالاتكم وامنحوهم الرعاية والعناية والاهتمام».

هذا ما كان من امر العملاق والامبراطور الصاغ سالم عضو مجلس ثورة ٢٣ يوليو وزميل عبدالناصر ووزير الارشاد القومي ووزير شؤون السودان والأهرام الأكبر في أحداث السودان الذي انهار وانهار وذاب ثم غاص في اعماق النيل!

## ومفاجأة أخرى!

.. أما المفاجأة الثانية والاخيرة ان عبدالله خليل عندما قام في اليوم الثاني بزيارة للرئيس عبدالناصر لتكملة ما بينهما من محادثات قال لعبد الناصر بالصراحة التي أحبها واعجب بها رغم الخلاف والجفوة... قال بالبلدي السوداني الذي يعرفه ناصر جيدا قال:

«يا أخي قبل ما نبتدي النقاش والكلام اللي يوجع الراس، واللي لا يودي ولا يجيب واللي ما فيهوش فايدة ومش حيوصل لشيء... قبل كله دا عايزك تسامح اخوك صلاح.. طبعا انت عارف انا زرته امبارح في بيته لقيتو تعبان خالص... دا انهد خالص يا ريس وعيب والله واحد قام بثورة معاك وزميل سلاح ينتهي بالشكل المؤلم ده»

عبدالناصر:

«ما انتو السبب... الصاغ راح ضحيتكم وضحية نفسه لانه متهور وعمل لينا مشاكل كثيرة... فاكر حكايتو مع المهدي؟!. ولازم كل واحد يغلط فينا ياخد جزاه... الصاغ أخطاؤه كبرت ووسعت ورغم نصائحي المتكررة ليه وهو الذي خلق لي وجع دماغ مستمر من عمايلو في السودان وكل مرة يقول معليش لغاية ماخربت مالطة وقربنا نفقد اهلنا وأحبابنا السودانيين»

عبدالله خليل:

«معليش دلوقت الراجل مسكين راح في شربة مية وكمان مريض ومحتاج هو وعياله لعلاج وكمان (جعانين) ما عندوش اكل يا اخي ما يصحش وانفعل عبدالله خليل

حتى اوقع بالطريقة السودانية اليمين المغلظ عندما ناوله عبدالناصر كوب الليمون عبدالله خليل: علي الطلاق مش حاخذ (جقمة) يعني رشفه من ليمونك الا اذا وعدتني وعد رجال ـ وانا بعرفك كويس خالص عندما تعد بتوفي انك حتصالح صاحبك وترحمه وقد كان واوفى عبدالناصر الوفي بعهده وبعد ايام قليلة ظهر في الصحف والاذاعة نبأ تعيين صلاح سالم رئيسا لمجلس ادارة جريدة دار المساء!!

**صورة ثالثة:**

.. عندما تم اختيار عبدالله خليل رئيسا للوزراء لأول مرة جاءه المجاهد صالح عبدالقادر رفيق دربه وزميل طفولته يقول له ان الشعب قد توج جهادك وكفاحك فرد عليه قائلا:

«كلام فارغ انا مازلت في نظر الناس جاسوسا وعميلا للانجليز والشعب لم يتوجني ولم يخترني وانما الذي جاء بي إلى هذا المقعد هو حزب الامة والسيد عبدالرحمن المهدي وانت يا صالح وبقية الاخوان عملتوها في بشهاداتكم في محاكمات ١٩٢٤ الله يجازيكم!!»

قال له صالح وهو يبتسم ساخرا: مش برضو احسن اهو مازلت عايش وبقيت رئيس حكومة ولا كنت عايز تنشنق ولا تضرب رصاص زي اخوانك... الحق علي انا اللي انقذتك من مصايب ثورة ١٩٢٤!!

عبدالله خليل:

اخواني مالهم على الأقل ماتوا شهداء والشعب بيحترمهم... فرد عليه صالح قائلاً: ياهذا لا تكن مخرفا او نظريا مين دلوقت اللي عارفهم حد جايب خبر «علي عبداللطيف ولا الماظ» ما خلاص ماتوا والتاريخ ذاته اعطاهم ظهره فلم يعد يذكرهم... اهو انا اللي قدامك مش قادر آكل لقمة!!

# ﴿ الفصل العاشر ﴾

- من قتل دوق هرر الاثيوبي؟
- هيلاسلاسي يستدعى عبدالله خليل فورا ليتحقق في اشاعة الانقلاب .

.. نعود إلى الخرطوم بعد غيبة قصيرة طفنا خلالها على بعض الدول الافريقية وقد تضطرنا الظروف والاحداث متى ما كان ضروريا ان نعيد الكرة مرة ومرتين لأن الذي يربط بين السودان والدول الافريقية امره كبير وجلل فمن واقع الجيرة والانتماء الروحي والسياسي والاهداف المشتركة والعلاقات الازلية لابد ان تتشابك بيننا الاحداث حلوها ومرها مما يؤثر علينا تأثيرا مباشرا في مسيرتنا الحياتية خاصة واوجه الشبه بيننا وبين العالم الافريقي كبيرة وعميقة وكثيرة ومؤثرة.

نعود إلى الخرطوم والى ميادين السياسة لنجدها في قمة فورانها وغليانها ولنلمس حقيقة مريرة هي ان الجهاد قد توقف تماما بخروج الانجليز ورفع العلم واعلان الاستقلال لينصرف إلى زوايا منحرفة ضيقة انحصرت تماما في الاشخاص والمنافع الحزبية والسياسية وما ان فازت حكومة مؤتلفة او قومية الا وتهددها الاسقاط والسقوط من جديد لان سوق النخاسة وشراء النواب والذمم والضمائر اصبح قويا وعريقا ورائجا ومتمكنا .. وقليلا قليلا بدأ الشعب ينفض من أحزابه وزعمائه وقادته حتى الكبار امثال الامام المهدي بدأ يشكو لطوب الأرض من الاعباء المالية الكبيرة التي تكاثرت وتزايدت بسبب المزايدات النيابية والسياسية فضاق ذرعا بها خاصة عندما بدأ يلاحظ بداية التمرد والتفتح والنضوج السياسي حتى بين صفوف انصاره!

اذكر مرة انه استدعى كعادته وفدا من رجالاته ليعطيهم «الاشارة» والاشارة في قاموس الانصار معناها الامر السامي الذي يصدره الامام دون ان يقوى احد على معارضته كان الامام يجلس كعادته في منتصف الصالون الكبير للقصر وحوله الانصار وبعد التحية والسؤال عن الحال والأهل قال لهم في شكل آمر ولكن في لين شديد يؤكد سمو اخلاقه وتواضعه.

«استدعيتكم حتى تؤيدوا «فلان الفلاني» ولنقل ان اسم فلان هذا هو «سندس» وتعطوه اصواتكم في الانتخابات المقبلة وتجاهدوا حتى ينجح ويفوز، فما كان من احد الكبار الا ان وقف بظهره المقوس ولاول مرة في تاريخ الحياة الانصارية وقف ليقول للامام انه سيعمل بأوامره وينفذ مشيئته ولكنه شخصياً لن يعطي صوته لسندس هذا. ثم

روى أسبابه في قصة تحكي الواقع الاليم رغم ما فيها من طرافة وقد كانت عبارة عن حيثيات طويلة تدعم اسباب رفضه. قال موجها حديثه للامام:

«طلبت مني يا سيدي ان ننتخب «سندس» في المجلس الأول ويومها تزوجت أمراتي الرابعة فلم يتكلم «سندس» ثم انتخبناه للمجلس الثاني ولم يتكلم ثم وضعت زوجتي ابني الاول وانتخبناه للمجلس الرابع فلم يتكلم وكبر ولدي وتكلم «وسندس» لم يتكلم بعد لذلك فانني أرى بانه غير جدير بتمثيلنا لكننا لا نستطيع ان نرفض لك امراً وجلس الشيخ بين صمت الحاضرين وتطلعهم المتواصل إلى وجه امامهم وكبيرهم».

لم يتمالك الامام نفسه فاستأذنهم لدقائق ودخل مكتبه متأملا في حديث الشيخ الذي عركته الاحداث والسنون لكنه ما لبث ان خشي من حديث الشيخ الخطير الذي يمثل ظاهرة جديدة وخطيرة لابد ان يهيىء لها نفسه ويضع لها الف حساب فالطريقة التي وضع بها الشيخ حيثياته بالرغم من انها كانت مؤدبة ومقنعة الا أنها كانت ظاهرة غريبة في مفهوم الامامية والانصارية التي كانت تأمر فتطاع دون اعتراض او مقاومة مهما كانت مفلسفة ومهما كانت صغيرة. بدأ الامام المهدي بعد هذه الواقعة التي تعطي مؤشرا كبيرا وهاما بالاضافة إلى تمرد النواب وسوق النخاسة التي ترتبت عليها مشاكل مالية كبيرة لابد للامام ان يواجهها ان اراد كسب المعارك، بعد كل هذا وذاك زاد ضيقه بالحياة البرلمانية والنيابية كلها مما جعله فريسة للضيق والتبرم. وفي هذا الجو المضطرب المليء بالاحداث السريعة والمتلاحقة بدأ ابنه السيد الصديق رئيس حزب الامة يفقد ثقته بالائتلاف القائم بينهم وبين الميرغني والختمية بسبب المشاكل المتأصلة والعميقة بين التيارين الحاكمين. فالتيار المصري الذي كان يقوده في مجلس الوزراء الشيخ علي عبدالرحمن كان طاغيا وجارفا وبارزا وعبدالله خليل رئيس وزراء الائتلاف اصبح عاجزا عن اتخاذ القرار واصبح خائفا في نفس الوقت من سقوط حكومته ان هو حاول المعارضة المكشوفة، لكنه في قرارة نفسه كان يفضل هذا الموقف على اية محاولة لتقريب وجهات النظر مع التيار القوي الثالث وهو تيار الوطني الاتحادي برئاسة الازهري وكان مما شجعه على موقفه هذا انه كان يراقب بعين نصف مغمضة محاولات التقريب ومساعي اللقاء والوفاق التي كان يقوم بها السيد الصديق المهدي رئيس حزبه مع زعماء وقادة الوطني الاتحادي. ورغم ان هذه اللقاءات التي مهد لها نفر من الجانبين كانت تتم في سرية تامة الا أن أبعادها وملامحها بدأت تتضح لكل ذي عقل وبصيرة حتى أصبحت عارية ومكشوفة في الشارع، وحتى أوشكت ان تكلل بالنجاح فيشكل حزب الامة حكومة جديدة بالوفاق مع الازهري بدلا من الميرغني. هذا ما كان يسعى ويؤمن به السيد الصديق المهدي.

## وجهة نظر أخرى ...

.. ومن جهة اخرى بدأ عبدالله خليل يلعب لعبته الخطيرة لأن مثل هذا اللقاء ان تم فانه يهدد مستقبله السياسي وكان معناه ان يفقد مقعده لا في رئاسة الوزراء وانما قد يتهدد في مقعد سكرتارية الحزب وبدأ لعبته بالهمس في اذن الامام المهدي بان البلاد لا يمكن ان تستمر بهذه الطريقة المزرية المضطربة وان شيئا ما لابد ان يتم لانقاذ ما يمكن انقاذه. ونشطت الاجتماعات السرية والعلنية بين مختلف التكتلات السياسية والحزبية حتى ظهرت في الشارع السوداني اشاعة قوية تتحدث عن انقلاب عسكري يعد له عبدالله خليل في الخفاء ليطيح بكل شيء.

## خليل إلى اثيوبيا

في هذا الجو المتوتر فاجأ السيد عبدالله خليل رئيس الوزراء وسائل الاعلام ودوائر الاحزاب والشعب كله بانه مريض وانه سيقوم بزيارة خاصة لاثيوبيا حيث يقضي بعض الوقت في حمامات «بشفتو» ذات المياه المعدنية الساخنة ولما كنت انا شخصيا قد فوجئت بهذا النبأ واعلم علم اليقين بأنه ليس مريضا وانما ينوي شيئا كبيرا الححت عليه في ان أصحبه في رحلته هذه فوافق من الوهلة الاولى قائلا:

«كويس برضوا حاحتاج لك... استعد للسفر».

بدأت التصريحات والتعليقات في الصحف الحزبية والمستقلة تتزايد وتتكاثر حول رحلة رئيس الوزراء في ظروف صعبة وملتهبة وبدأ المحللون وقادة الاحزاب ينتقدون ويهاجمون ويشككون في امر هذه الرحلة في وقت تتحدث فيه البلاد كلها همسا ثم بصوت مرتفع عن انقلاب عسكري منتظر ولكن عبدالله خليل كان قد سد «اذنه اليمنى بطينة واليسرى بعجينة» كما يقول المثل! فلم يرد بل ولم يأبه لما يكتب او يقال او يشاع!!

.. كل شيء في الخرطوم كان فائرا ومتوترا وملتهبا ومتربا ومرعدا. الطقس، السياسة، الاحزاب، الصحف، البيانات، الاتهامات، التصريحات، السادة، القادة، (اهل الله)، وأهل الفن، وناس الشارع. الاشاعات بوقوع انقلاب عسكري كانت مفروشة في السوق العربي، وفرندات الدكاكين، عدد كبير من الزعماء والسياسيين وعلى رأسهم الازهري وعلى عبدالرحمن ومبارك زروق كانوا بعيدين عن السودان. كانوا في العراق . عبدالله خليل كان رئيسا للحكومة الائتلافية بين حزبي الامة والشعب الديمقراطي. السيد الصديق المهدي رئيس حزب الامة كان يحاور ويناور الوطني الاتحادي للدخول في حلف او اتفاق وعبدالله خليل يراقب كل ذلك في صمت ولا يريد بالطبع أن ينسحب

البساط من تحت قدميه فكان هو الآخر يحاور ويناور مولانا السيد علي الميرغني للابقاء على الائتلاف بينهما. في هذا الجو المضطرب والملبد بالغيوم والضباب يفاجىء عبدالله خليل الساحة السياسية المرتجفة بعزمه على السفر لاثيوبيا في رحلة خاصة للاستشفاء فتقوم القيامة، ويتكهرب الجو، وتعلو الانفاس والصيحات والاحتجاجات، ولكن سعادة البيك لا يعبأ لها ولا يهتم لها فهو جندي صارم وعنيد يعرف الهجوم فقط ولا يؤمن بالتراجع والتقهقر فلماذا اذن سافر، وماذاحدث بعد سفره، وماذا حدث في اثيوبيا، وماذا حدث بعد عودته..؟!

وفي صباح ٢٩ اكتوبر ١٩٥٨ اقلعت بنا من مطار الخرطوم الطائرة المقلة للسيد عبدالله خليل رئيس الوزراء في طريقها إلى اديس ابابا ولم يرافق عبدالله خليل في هذه الرحلة اي رفيق رسمي حتى يؤكد بانها خاصة وشخصية ولم يكن معه في الطائرة سوى السيد ملس عندوم سفير اثيوبيا في الخرطوم وشخصي وخادمه الخاص. كان عبدالله قد استغرق في النوم وبدأت ادردش مع السفير ملس الذي تجمعني به صداقة وطيدة قوية فملس وشقيقه امان عندوم الذي كان قائدا للحرس الامبراطوري الاثيوبي كانا اصلا قد ولدا وترعرعا في الخرطوم حتى عاد بهما الامبراطور من منفاه في الخرطوم في اوائل الاربعينات لاثيوبيا وقام بالاشراف على تربيتهما «تربية امبراطورية» فاصبحا في عداد ابنائه المخلصين. كان الشقيقان ملس وأمان يتحدثان ويكتبان وينطقان العربية بدرجة يشك أقرب الاقربين اليهما انهما غير سودانيين وفي نفس الوقت كانا يتحدثان «الامهرية» باعتبارها طبعا لغة الآباء والامهات.

قال لي ملس ونحن ما زلنا في الطائرة:

«... عمك عبدالله الدور دا حيعملها فيكم لكن اعتقد ان الامبراطور سوف يتمكن من ايقافه او على الاقل ارجو ذلك!»

قلت له:

«ايه حكاية الرحلة الخاصة التي احدثت ضجة في الخرطوم... ما هو أصلها؟!».

اجابني ملس:

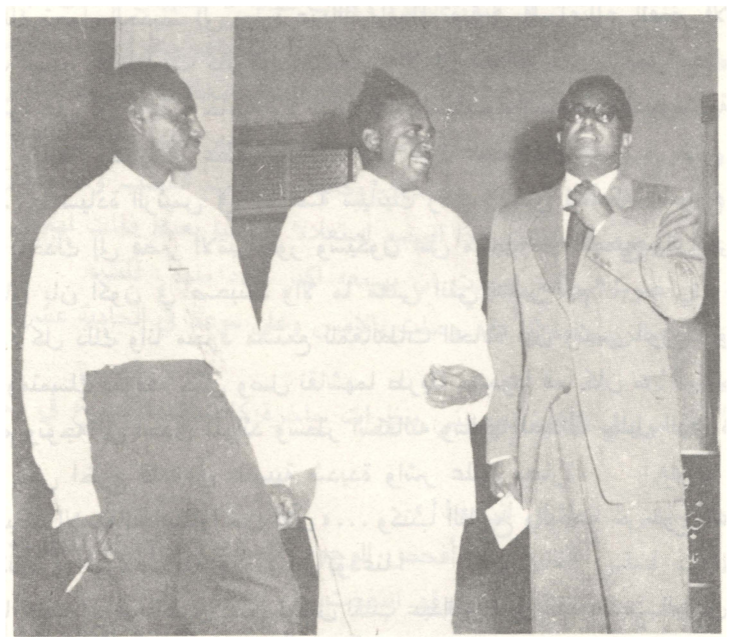
«والله شوف هي مش خاصة، وانما دعوة عاجلة وشخصية من الامبراطور لعبدالله للحضور فورا إلى اثيوبيا... طبعا انت عارف انا كتبت تقرير سرى للامبراطور عن اشاعة الانقلاب والامبراطور انزعج وطلب من عبدالله الحضور فورا ومضينا نتجاذب اطراف الحديث حتى اعلن قائد الطائرة باننا على وشك الهبوط في مطار اديس ابابا.

ومن النافذة ونحن نقترب من الهبوط رأيت عجبا... استقبالات رهيبة وحشودا كبيرة للغاية كلها تنفي بالبنط العريض ان الزيارة خاصة ثم ما ان هبطت الطائرة حتى رأيت الامبراطور ووزراءه والحرس وكبار المستقبلين ورجال السلك الدبلوماسي والجالية السودانية و... و... آلاف من المواطنين من الجنسين.

نزلنا من الطائرة وتلقى الضيف والمضيف قرة قول الشرف وعزفت الموسيقى السلامين السوداني والاثيوبي وبدأ الركب المهيب وعشرات الدراجات البخارية تشق الشارع في صعوبة شديدة وأمواج المستقبلين تفور والفتيات الاثيوبيات وبنات الفنون الشعبية يغنين ويرقصن ويزمرن ويهتفن في الشوارع، كل الشوارع.

كانت المفاجأة الكبرى ان الامبراطور قد استضاف ولاول مرة زائرا له في قصره الجديد «الجبولي» الذي لم يفرغ بعد من التشطيبات النهائية وكان ذلك بمثابة المبالغة في تكريم عبدالله خليل. وكان القصر الذي يعتبر اليوم المقر الرئيسي لحكم منغستو هيلا مريام وهو في مواجهة قاعة افريقيا تحفة معمارية نادرة فقد اعد في الطابق الاول جناح لعبدالله خليل كما اعد لي جناح صغير بالطابق الارضي وان كنت قد مضيت معظم وقتي في ضيافة صديقي العزيز السيد خليفة عباس سفيرنا في اثيوبيا آنذاك.

كان من المفروض ان يتم اول لقاء رسمي بين الامبراطور وعبدالله خليل في الخامسة والنصف من مساء نفس يوم الوصول بقصره «جنة اللولي» وما ان جلسنا في البهو الفاخر ثلاثتنا عبدالله خليل والسفير خليفة عباس وانا حتى بدأت المشاكل تطل برأسها في عنف وفي عنف شديد.



المؤلف يتوسط السفير ملس عندوم على يمينه والسفير خليفة عباس على يساره

# خليفة عباس

.. السيد خليفة عباس من أبكار رجالات السلك الدبلوماسي السوداني عمل سفيرا لنا بجانب اثيوبيا في العراق وتركيا وواشنطن وتدرج حتى أصبح وكيلا لوزارة الخارجية ثم اختارته حكومة قطر مستشارا لسفيرها في لندن ثم تونس وهو الآن اكتفى بمداعبة مزرعته في «الجيلي» احدى قرى الخرطوم. وعرف خليفة في تاريخه الحافل بالحزم والشدة والصراحة والصرامة والصدق والامانة مما افقده الكثير من الاصدقاء وقد جمعتنا واسرتينا صداقة عميقة امتدت جذورها إلى ثلاثين عاما.. قبل ان نأخذ انفاسنا فجر السفير خليفة اولى قنابله المحرقة اذ قال لرئيس وزرائه ان التعليمات التي وصلته من الخرطوم تقول بأن الزيارة خاصة وهي كما يبدو بعيدة كل البعد عن الخصوصية وهي اكثر من رسمية في استقبالاتها وجميع مظاهرها وطلب من رئيس الوزراء تفسيرا يعينه في واجبه تجاه زملائه ووضعه كسفير للسودان في العاصمة الاثيوبية فما كان من عبدالله خليل الا ان أكد له بأنها زيارة خاصة مما جعل السفير يخرج البرنامج في حالة شبه عصبية ليدعم حجته بانها رسمية ثم ما لبث ان دخل الاثنان في مغالطة وعراك كلامي بعد ذلك تحول الحديث إلى زيارة عبدالله بك المرتقبة في المساء إلى القصر الامبراطوري وطلب السفير لاعتبارات كثيرة ان يصحبه، الا ان عبدالله خليل رفض مصاحبة السفير له مصرا على ان الزيارة خاصة ولا شأن لها بالسياسة والحكومة والدبلوماسية مما جعل السفير خليفة ينفجر في عصبية شديدة هذه المرة عندما قال:

« .. يا سيادة الرئيس في الخامسة سيأتيك ركب رسمي تسد له الشوارع والطرقات حيث يأخذك إلى قصر الامبراطور وسيكون على مشهد من الجميع وكرامتي ومنصبي يقتضيان بان أكون في صحبتك والا ما معنى انني سفير لكم؟!

... كل ذلك وانا مجرد مستمع للمغالطات الحادة بين رئيس الوزراء وسفيره كل مصر ومتمسك بموقفه حتى وصل نقاشهما طريقا مسدودا فما كان من السفير خليفة الا ان قام وتوجه إلى احدى الموائد وسطر استقالته وسلمها لعبدالله خليل الذي ما ان اطلع عليها حتى اخرج قلمه في عصبية شديدة واشر عليها بعبارة:

«قبلت الاستقالة اعتبارا من الآن»... وكتب التاريخ والساعة ثم خرج السفير خليفة بعد ذلك في ثورة شديدة ودون ان يودعنا!

ولما كنت اعرف الطرق التي توصل لقلب عبدالله خليل فقد طلبت اليه ان يذهب إلى جناحه ويخلع ملابسه ويرتاح قليلا ثم أخذت ورقة الاستقالة ووضعتها في جيبي وهو يراقب كل ذلك في صمت.

كانت الساعة آنذاك حوالي منتصف النهار ولم يبق على الغداء الا ساعة واحدة تركت خلالها عبدالله خليل يأوي ويأخذ قسطا من الراحة بينما رحت اتجول في حجرات

وردهات القصر المنيف ولشد ما كانت دهشتي عندما لاحظت ان جميع الخدم كانوا من الفتيات الرقيقات في مقدمتهن ثلاث يابانيات يانعات كن بمثابة الرئيسات وقد بلغ عدد الحسناوات اللاتي سهرن على راحتنا حوالي الخمس عشرة فتاة كلهن خريجات لاكبر جامعات الفندقة وكلهن يتسابقن ويتنافسن في الفتنة والمرح والجمال والدلال.

.. لم تكن هذه هي زيارتي الاولى ولا الثانية لاثيوبيا فقد كنت ازورها مرة أو مرتين واحيانا ثلاث مرات في العام اما لعمل صحفي واما برسالة هامة من الخرطوم إلى الامبراطور الذي عرفني معرفة تامة خلال هذه الزيارات المتكررة واصبحت في مقام ابنائه.. كل ذلك يرجع إلى علاقتي الاسرية بالامام المهدي التي وثقت من علاقتي ورابطتي بالامبراطور واسرته إلى درجة افاخر بها امام زملائي.

## مؤتمر القمة...

.. اذكر في افتتاح مؤتمر القمة الافريقي ابان تولى الصادق رئاسة الوزراء عام ١٩٦٦ ورئاسة مجلس السيادة الازهري كنت ضمن وفد السودان لاثيوبيا وعندما ذهبت إلى بهو الصحافة في فندق هيلتون في اليوم الثاني وجدت عددا لا يستهان به من كبار صحفيي العالم وعلى رأسهم اريك دوننتون كبير مخبري الديلي تلغراف وكنزلي مارتن وجون فاين وغيرهم وغيرهم من الصحفيين العرب وقد كنت اعرف معظمهم من لقاءات ومناسبات مختلفة ومتكررة ووجدتهم يشكون لطوب الارض من أنهم طلبوا مقابلة الامبراطور منذ اسبوع دون ان يتمكن احدهم من ذلك وكانت صيحات الغضب والاستنكار واضحة وبارزة على الوجوه فاستغللت هذا الوضع استغلالا صحفيا بعيدا فقلت لهم في شيء من الكبرياء وفي صوت مرتفع تعمدت ان يسمعه اكبر عدد منهم، قلت:

«هذا شيء غريب اما انا فقد وصلت بالامس وعلى موعد في الحادية عشرة مع جلالة الامبراطور؟!»

وبدأ كل من في القاعة يحدجني بنظرات ساخرة كانت كلها تصرخ في وجهي قائلة بصوت مرتفع:

«بلاش فشر... بلاش أنزحة!!»

واطلقت قنبلتي الثانية وأنا أفحص الوجوه المستنكرة والأفواه المفتوحة والتي لم تصدق مزاعمي عندما قلت لهم وقد انتفخت كل أوداجي»:

«من المدهش ان اتوكتما وزير الخارجية هو الذي سيحضر ليرافقني إلى الامبراطور ولست ادري لماذا تأخر هكذا!»

.. وهنا تبادل الجمع النظرات في سخرية غريبة واوشك بعضهم ان يطبق على عنقي المتطاول حتى يعيده مكانه وصمت الجميع وهم يرقبون هذا المغرور المعتوه المجنون

الذي يتحدث في كبرياء وتعال محاولا الغاء عقولهم ووجودهم!!

لم تخذلني فراستي، ولم تطل حيرة الجميع ونظراتهم المشدودة الساخرة حتى دخل وزير الخارجية صديقي اتوكتما وبالأحضان ثم حيا بقية الجالسين بحركة من رأسه وقال لي فاتحا ذراعيه:

«هل انت جاهز!؟

وهنا فقط بدأت انتفخ كبالون الهواء وغيرت طريقة حديثي حتى مشيتي في الارض وتعمدت قبل ان أخرج من الباب أن أرفع كلتا يدي بحركة ملوكية مودعا جمع الصحفيين وهم بين مكذب ومصدق وراحوا يتابعونني ويلاحقونني بنظراتهم حتى اختفيت عن عيونهم!؟

. بدأت علاقتي بالامبراطور واسرته في ١٩٥٦ . وفي يوليو عام ١٩٥٧ عندما انشأت اول وكالة انباء افريقية في الخرطوم قمت بزيارة اثيوبيا تسبقني توصية من السفير وفي جيبي خطاب شخصي من الامام عبدالرحمن المهدي لجلالة الامبراطور وكان قصدي من الزيارة ان احصل على بيان من جلالة الامبراطور افتتح به الوكالة الجديدة فاستقبلت استقبال الكبار وفي يومين قابلت الامبراطور وحصلت منه على بيان كبير وهام وخطير آنذاك ما ان صدر في أول عدد من اعداد الوكالة حتى رددته صحف واذاعات العالم مما فتح أمامي آفاقا عديدة ومن يومنا الأول فكانت بداية طيبة وموفقة للوكالة الوليدة التي جاءت عملاقة.

.. تكررت زياراتي لاثيوبيا وتعرفت على عدد كبير من أعضاء الاسرة المالكة وعلى رأسهم دوق هرر الذي كان معبود ومحبوب والده الامبراطور. كان دوق هرر شابا حيا متحمسا استطاع ان يثبت وجوده في الشارع الاثيوبي وكان نشطا يتقدم ويتبنى كثيرا من المشروعات الاصلاحية والتعليمية والاجتماعية في بلاده مما زاد في حب الناس له والتفافهم حوله، انه خرج عن القاعدة الامبراطورية الموروثة وتزوج مدرسة من عامة الشعب كانت أجمل ما في اثيوبيا ... زهرة صغيرة حلوة رقيقة تسعى في مشيتها كأنها النسيم وعندما تضحك او تتحدث او تتثنى يتحرك حولها الصخر وتتراقص الثريات وتصدح أسراب الحمام اعجابا وحبا وهياما.

## من القاتل ؟

.. لم يكن دوق هرر ابن الامبراطور من زوجته ام ولي العهد الذي كان دائم المرض ومنطويا على نفسه بدرجة جعلت امه الامبراطورة تخشى عليه من اخيه لابيه من ان يسطو على كل شيء بحيويته الفائرة وشخصيته المحبوبة فبدأت تكرهه وتغير منه بدرجة كبيرة حتى ان أصابع الناس ... كل الناس ظلت تشير اليها بانها كانت وراء مقتل دوق



هرر في حادث التصادم المشئوم الذي راح ضحيته والذي أدخل الامبراطور في عالم الأحزان والالم بشكل مستديم لم يستطع ان يخرج منه حتى مات ولحق بابنه!!

وبالمناسبة فان زوجة الامبراطور هيلاسلاسي كانت في الاصل زوجة للامبراطور منليك الذي سطا على عرشه هيلاسلاسي وقضى عليه وورث عنه الحكم بما فيه زوجته ويبدو من تسلسل أحداث التاريخ ان الامبراطورة المفجوعة في عرشها وزوجها الاول ظلت تكيد للامبراطور حتى عرفت مواجع الألم فيه فقضت على حبه قضاء تاما عندما اتهمت بمصرع فلذة كبده ومحبوبه وصفيه دوق هرر!

لن انسى اثيوبيا مطلقا فقد أودعتها ذكريات حلوة وعطرة ستبقى ما بقي الزمن فالاصدقاء الذين ما زالت تربطني بهم علاقات قديمة اوفياء بالرغم من أن معظمهم مات مقتولاً في احداث الانقلابات فتفراورك وزير القلم وأقوى شخصية ثم الرأس تفرا وزير الدفاع وصهر الامبراطور «وهبت والد» رئيس مجلس النواب «ومكنون اندلكشو» رئيس الوزراء كانوا من أول ضحايا الثورة في المجزرة الرهيبة التي مزقوا فيها بالرصاص في قصر الامبراطور!!

كانت الصلة التي تربطني بالسفير ملس عندوم الذي يعيش الآن في المنفى في

القاهرة على مقعد متحرك وشقيقه امان عندوم قائد الحرس الامبراطوري صلة قوية وعميقة وكانا يعتبران من ابناء الامبراطور المحبوبين والمقربين خاصة الجنرال أمان الذي تدرج في الجيش حتى أصبح جنرالاً وقائداً للحرس الإمبراطوري، وكان يسكن في القصر مع الامبراطور ... وكان ظلا لا يفارق الامبراطور ومع ذلك فقد انتهى كل شيء بينهما نهاية مأساوية غريبة ورهيبة سنخوض تفاصيلها فيما بعد.

قصدت من كل هذا ان اعطي فكرة واضحة عن مدى العلاقة التي كانت تربط بيني وبين اثيوبيا والتي مكنتني إلى حد كبير من الالمام الماما تاما بما كان يجري في ردهات قصورها من همسات ومؤامرات وتخطيط. ومع ذلك فقد كان الامبراطور قويا عاتيا تركع له الجباه وتقف امامه الانفاس ودقات القلوب وبالرغم من انه كان قصيرا نحيلا يداعب رفيقه الاسد العجوز فقد وهبه الله قوة في صوته تشبه قصف الرعد وكان لا يجلس في حضرة ضيوفه الا على منصة حتى يصبح أعلى من الجميع.

.. ومن الاشياء التي استرعت انتباهي وظلت عالقة وستظل كذلك إلى الابد انني عندما دخلت على الامبراطور مرة وكان يصحبني السفير ملس تسمرت في مكاني كالأبله وانا ارقب السيد السفير ينبطح على الارض امام قدمي الامبراطور ويرفع يديه ثم يخفضهما مرات والامبراطور يبتسم ويرفع له أصابع يده اليمنى في شكل «صليب» علامة التبريك ثم يقف السفير على قدميه ويتقهقر حتى يختفي من صالة العرش.

وعند خروجي من الامبراطور انحصر همي في سؤال صديقي السفير ملس عن سر الحركة التي قام بها دون ان يمد يده ليسلم على الامبراطور فقال لي وقد جحظت عيناه:

« .. انت مجنون ياعبدالرحمن لا انا ولا اي مخلوق غيري من الوزراء استطاع ان يلامس يد الامبراطور حتى الآن والذي يركع امامه كما رأيتني هم فقط المقربون اليه!».

عجبي!

قلت له:

وماذا عن تفرا ورك وزير القلم وهو أقوى وزير في البلاط الاثيوبي الم يمس يد الامبراطور ايضا؟!

فرد السفير قائلا:

«تفرا ورك» «مين يا عمي؟ كذاب من يقول لك انه لمس يد الامبراطور الا الأجانب وأهل بيته وهذه عندنا عادة معروفة ومقدسة كالفرض المؤكد دلالة على الوقار والاحترام ولا تنس ان الامبراطور هو زعيم الكنيسة وسيف الله المختار والرجل المنزه الكامل وملك الملوك، وسبط يهوذا من سلالة النبي سليمان وملكة سبأ.

# ﴿ الفصل الحادي عشر ﴾

- رسالة خطيرة من سفير السودان بمصر.
- حسناء تهمس في اذني:
  الامبراطور يريدك الآن
- الابن الذي اطاح بعرش ابيه لماذا؟
- العودة إلى البركان الثائر



صورة لاحدى زيارات عبدالله خليل الرسمية إلى أثيوبيا

اخذ عبدالله خليل قسطا لا بأس به من الراحة حتى اذا ما جاء موعد الغداء ذهبت لاتفقده وضحكت كثيرا عندما وجدته مستلقيا في استرخاء شديد على ارض غرفته فضحك هو الآخر قائلا: «يا اخي فرش السرير وثير وناعم لدرجة لم ترح ظهري فنصف المرتبة الاعلى من الحرير وريش النعام تماما كما كان في عهد هارون الرشيد... حاولت مرة ومرتين ان استمتع به، لكنني غطست واوشكت ان اختنق ثم لبس ونزلنا معا للغداء وكانت مناسبة لا بأس بها للتحدث معه بشأن خلافه مع السفير خليفة. كان عم عبدالله يبدو صحوا ونشطا بعد فترة الراحة ثم كان سعيدا بوجوه الحسان اللاتي التففن حولنا في المائدة «كعقد اللؤلؤ» وهن يتراقصن بالاواني وأطباق الأكل والملاعق والشوك التي كانت تحدث صوتا يشبه موسيقى السامبا ويتمايلن باجسادهن النحيلة، وثغورهن الباسمة كهبات النسيم العطر مما جعل العم عبدالله في اغماءة شديدة ونشوة دغدغت عليه مشاعره وأحاسيسه المتعبة المرهقة.

نعم هذه هي الفرصة المناسبة... قلت له:

الا تعتقد يا عم عبدالله بانك ظلمت السفير خليفة!؟

أجاب:

«هو خليفة صاحبك ده اصله معقد وبتاع مشاكل خلاص انا قلتلو الزيارة خاصة يعني خاصة!!»

أنا:

لكن الحقيقة يا عم عبدالله «ربنا ما شافوه بالعين لكن عرفوه بالعقل». الحقائق والاستقبالات والامبراطور والركب والمدافع كلها تقول انها زيارة رسمية... الا تعتقد ذلك!؟

قال:

«كلام فارغ! ده الامبراطور صاحبي خالص وأراد تكريمي فقط وبالمناسبة انت حطيت الاستقالة بتاعت صاحبك في جيبك انا شايفك... روح حطها في شنطتي!!

انا:



«يا عم عبدالله ما في داعي للمشاكل وانا عندي حل وسط ينقذ الموقف المتأزم ويحفظ ماء وجه السفير ويوفر عليك مشاكل كثيرة. وباكر اذا وصل خبر استقالة السفير للخرطوم حتستغلوا المعارضة والصحف استغلالا تكون الخاسر فيه أنت!

عبدالله: بلا صحف بلا معارضة بلا قرف..!

«ايه الحل الوسط بتاعك عاملي زي جحا!؟»

قلت له:

«الحل بتاعي ان السيد خليفة بوصفه سفيرنا من حقه ان يكون برفقتك في العربة الامبراطورية والموكب الرسمي وذلك من دواعي المظهر ليحفظ حقه ومكانته امام زملائه وامام رجال القصر على شريطة الا يدخل معك للامبراطور وهذا من حقك انت كرئيس للوزراء!»

.. صمت عم عبدالله ولم يعلق على اقتراحي وهذا يعني بالنسبة لي موافقة مبدئية يمكن على ضوئها ان اتصرف بسرعة لان موعد مقابلة الامبراطور لم يبق له سوى ثلاث ساعات. وقبل ان اكمل معه الغداء استأذنته وخرجت ولابد انه عرف وجهتي فلم يعترض وذهبت رأسا إلى منزل صديقي السفير خليفة وبعد محاولات طويلة قبل عرضي المتواضع لأنه حفظ عليه ماء وجهه وارضى بشكل ما رئيس الوزراء فكانت خاتمة طيبة ومفرحة للازمة الدبلوماسية بين رئيس الوزراء وسفيره وانتهت قبل ان يسمع بها احد على الاطلاق!

جاء معي السفير خليفة إلى قصر الضيافة وهو في زيه الرسمي ونياشينه المعلقة وفي لباقته المعهودة استطاع ان ينقي ويصفي الجو بينه وبين عبدالله خليل وما ان شارفت

الخامسة حتى وصل الركب الرسمي بلواءاته ودراجاته البخارية وصفافيره وحراسه وهيلمانه واغلقت الطرقات توجه عبدالله خليل ومعه سفيره ودخل قاعة العرش واستغرقت مقابلته مع الامبراطور حوالي الساعة والنصف والسيد خليفة ينتظره في غرفة مجاورة مع السفير الاثيوبي بالخرطوم وكبار موظفي القصر. وعاد عبدالله خليل وسفيره بنفس الركب والهيلمان الرسمي إلى قصر الضيافة وودعنا السفير خليفة على امل ان اقضى معه ومع اسرته تلك الليلة على دعوة عشاء سودانية.

.. كان عبدالله خليل في حالة قلق واضطراب. لم يكن سعيدا كما خرج وطلع إلى جناحه وخلع ملابسه بنياشينها وأحزمتها والبدلة الفراك السوداء التي لها ذنب طويل كفستان الزفاف ورباط العنق. وبالمناسبة فان بروتوكول البلاط الاثيوبي كان من أصعب وأعقد البروتوكولات فالذي أنعم عليه الامبراطور مثلا بوسام ما في وقت ما لابد ان يلبسه عندما يزور قصره وكذلك يتمسك البروتوكول بضرورة البذلة الفراك والياقة المنشاة والبمياق الاسود، ولكن يمكن لزائر الامبراطور ان يستعيض عن كل ذلك بزيه القومي المتكامل وهذا ما كنت افعله انا في جميع لقاءاتي واضعا نياشيني في العباءة وهي بالمناسبة اكبر نياشيني الامبراطورية ولكن العباءة السودانية الطويلة كانت كثيرا ما تسبب لي المشاكل وتوقعني في حرج ضحك له الامبراطور مرة بصوت عال اذ جرت العادة الا يعطي الزائر ظهره للامبراطور مهما كان مقامه او مكانه وعليه بعد الوداع ان يعود ويرجع متقهقراً «حركة وراء» ملوحاً بكلتا يديه حتى يدرك المخرج وكثيرا ما انطوت عباءتي تحت قدمي وانا في حالة التقهقر هذه فاوقعتني مرة على الارض متكوما كجوال الارز مما جعل الامبراطور يضحك بصوت مرتفع على غير عادته.

لم يفاتحني عم عبدالله خليل يوما بنيته في التمهيد لقيام انقلاب عسكري في السودان رغم ان رائحته فاحت في الشارع السوداني وأصابع الاتهام كلها بدأت تتوجه نحوه خاصة عندما أعلن عن زيارته المفاجئة لاثيوبيا ولما كنت أعرف طباعه ومزاجه ولحظات نشوته التي يمكن استغلالها للدخول معه في دردشة خاصة وسرية فقد تجنبت في لحظات توتره بعد عودته من مقابلة الامبراطور ان أتحدث اليه حتى يهدأ وتظهر عليه علامات الرضا والاستعداد للدردشة.

.. استلقى عبدالله خليل على الارض بجلبابه السوداني وانا اقلب بعض الصحف والاوراق ثم قال لي بطريقته العفوية:

«يا اخي انا في حيرة شديدة... حاولت أستحم فلم اعرف مكان الحنفية ولا الدش.. كل الذي وجدته ازرارا حمراء وخضراء حتى «بيت الادب» لم أعثر له على اثر.. قوم من فضلك شوف لي المصيبة دي!!»

.. دخلت الحمام فاذا به مجموعة الغاز لم اعهدها ولم أرها ولم أعرفها من قبل.. لا وجود لمعالم اي بانيو ولا مغسلة ولا «بيت ادب»... وفي الحائط الرخامي المرمري

الجميل مجموعة أزرار وكأنها شبكة مواصلات او دائرة تلفزيونية. كان من الممكن ان انادي على واحدة من الحسناوات لتحل لنا اللغز ... وكان عبدالله خليل يمكنه ايضا ان يفعل ذلك ولكن طبعنا الذي يغلفه الخجل والحياء وعدم الظهور بالجهل هو الذي أدخلنا في هذه المآزق الحرجة التي كنا في غنى عنها!!

.. المهم توكلت على الله وبدأت أضغط الازرار واحدا بعد الآخر... أزرار حمراء وسوداء واخرى خضراء. خرج البانيو من بطن الارض بحنفياته المذهبة التي تشبه الثعابين ثم خرج «البديه» فحوض اليد وتمردت أحواض كثيرة اخرى وأقسمت رغم توسلاتي الا تخرج ثم بدأت اواجه مشكلة اخرى كيف احصل على الماء؟ المهم في النهاية وقفت عاجزا وحاولت ان اعيد كل شيء إلى ما كان عليه ففشلت مما اضطرني بعد محاولات يائسة ان استعين بواحدة من الحسناوات فجاءت وبخفة ورشاقة وحلاوة تحسد عليها ففكت الطلاسم والألغاز واستطاع عم عبدالله ان يستحم ومياه الكلونيا تعطره من كل جانب.

... طلبت من الفتاة ان تجهز لنا الشاي «والنسكفي» بكل لوازمه فعم عبدالله يحب دائما ان يتناول واحدا منهما في مثل ذلك الوقت. وكانت الفرصة مواتية وقد خرج عم عبدالله لتوه من الحمام وهو معطر بارياح باريس ونهر السين ووجد أمامه الشاي والقهوة على أوان من ذهب وفضة خالصة... وبدأت الدردشة اذ جاء وقتها وحلت ساعتها.

قلت له:

«عمي... ماذا هنالك... لماذا عدت من الامبراطور وانت مش على بعضك»؟!

عبدالله:

«مش وقته سأحدثك فيما بعد!!؟»

أنا:

«لكني اريد ان اراك سعيدا لا متجهما هكذا فان كان خيرا شاركتك فيه وان كان غير ذلك احاول ان اخففه عنك».

عبدالله:

«يا أخي بلاش فلسفة.. كل ما هنالك انني زهجت مما يجري في السودان. الشعب كل يوم مظاهرات واصبح في حالة فوضى أخلاقية لا حدود لها.. والسياسيين كلهم كفروا بنعمة الحرية وبدأوا يعربدون زي العيال والبلد كلها بقت في حالة من الفوضى تهددنا جميعا بالخراب.. واذا سكتنا عنها حنروح في ستين داهية وحا يخدها عبدالناصر ونبقى (في حيص بيص) ولذلك فلابد من عمل شيء يؤدب العالم دي!!»

أنا:

.. لكن ايه دخل الامبراطور بالمسائل دي!؟

عبدالله :

«الامبراطور صديق من زمان وما تنساش انا كنت على رأس جزء من القوات التي حررت بلاده وأعادته الى عرشه وهو فوق كل ذلك راجل واعي وحكيم وعنده خبرات كثيرة ممكن نستفيد منها وفوق كل ذلك فهو جارنا وشايل معانا الهموم».

أنا :

طيب يا عم عبدالله انا عرفت انو الامبراطور هو الذي دعاك... صحيح!؟

عبدالله :

«مين اللي قالك الكلام الفارغ ده... طيب انا بعد باكر مسافر «بشفتو» مع الامبراطور علشان الحمامات وانت عارف الرطوبة عاملة عمايلها معاي!»

أنا :

«ابلغني بذلك ملس... قال الامبراطور سمع باشاعات الانقلاب لذلك استدعاك على عجل للتأكد من الحقيقة!»

عبدالله :

«هو ملس صاحبك ده ليه بيطلع اسرارنا؟ دا أنا حاكلم الامبراطور علشان يرفتوا حالا بس لكن انا بحبو كثير علشان هو ولد مؤدب خالص وبعرف كمان انه صديقك خالص خالص.

انا :

«علشان كده انا عارف وسامع كل شيء بس دي أول مرة يا عم عبدالله تخفي عني حاجة... هل خذلتك في يوم من الايام!؟

عبدالله :

يا اخي باكر حتعرف كل شيء ما تفتح معاي محضر بس انت عارف «وكالعادة وللمرة الالف قال لي: «والله العظيم تتكلم ولا تحاول تعمل شاطر وتطلع اسراري حاضربك بالرصاص»!!

لم يحدثني عبدالله في تلك الامسية بشيء وكانت الساعة قد اوشكت على التاسعة فاستأذنته بانني سأقضي الليلة مع السفير خليفة واسرته فقال: «طيب مع السلامة»

# ليلة مع السفير !

.. كانت الليلة التي قضيتها مع صديقي السفير خليفة من أطول الليالي فلم يتمكن النوم من اقتحام جفوننا حتى الساعات الاولى من الصباح ... تحدثنا في كل ما يجري في السودان حديث المشفقين على بلدهم وأهلهم وكان خليفة على علم بكل الشائعات التي ظهرت في الخرطوم عن التمهيد للانقلاب العسكري ثم جاءت زيارة عبدالله خليل وخلافه معه فزادت من علامات الاستفهام والحيرة وبالطبع فاننا ما تركنا شائعة ولا شاردة ولا واردة ولا ميدانا او حدثا الا وتناولناه بتفصيل واسهاب، الشيء الوحيد الذي لم أتعرض له بالطبع هو سر الزيارة وتفاصيلها وأسبابها. وبالرغم من ان صديقي السفير خليفة حاول بطرق وأساليب مختلفة ان اسره بشيء مما يعتقد هو أنني أعلمه، إلا أنني ما فتحت له أبواب قلبي وما نطق لساني بشيء رغم العلاقة الوطيدة الحميمة والثقة المتبادلة التي تربطنا منذ عديد السنين..

.. في الصباح قام السيد عبدالله بزيارات خفيفة عاد منها في منتصف النهار وتناولنا طعام الغداء ومعنا السفير خليفة. الشيء الذي لاحظته من تساؤلات عم عبدالله الايحائية وغير المباشرة انه كان يتوقع محادثة خاصة من الخرطوم اما الاخبار الاخرى بما فيها السياسية والديوانية فكان يزوده بها السفير أولا باول ولحظة بلحظة.

ودعنا السفير خليفة بعد الغداء والدردشة الخفيفة وطلع العم عبدالله لجناحه حيث اعتاد ان يتسطح أو ينام كما شأن السودانيين بعد تناول الغداء وظللت أتشاغل بالقراءة في بعض الصحف واقلب احيانا التقارير الواردة من الخرطوم ورحت في اغفاءة صغيرة وكانت الساعة آنذاك حوالي الثالثة والنصف ظهرا وبعد ساعة تقريبا دق جرس التلفون الداخلي لينبئني بأن هناك محادثة عاجلة من وزير خارجية السودان للسيد رئيس الوزراء ورأينا ان نستشيرك اولا قبل ان نزعج سيادته ... قلت له:

«هات المحادثة!..».

هلو مين!؟

أنا امين التوم «وكان آنذاك وزيرا للخارجية بالانابة» كيف حالك يا عبدالرحمن ممكن بالله اكلم عبدالله بك عندي رسالة هامة جدا ومستعجلة جدا جدا!؟

أهلا أخ أمين... بس والله عبدالله بيه طلع يرتاح.

أمين التوم:

طيب حضر ورقة وقلم وخدها جاهز... نعم:

امين التوم وبصوت مرتفع:

رسالة هامة من السيد يوسف مصطفى التني سفيرنا في القاهرة إلى السيد عبدالله بك خليل رئيس الوزراء ووزير الدفاع:

التحية والاحترام:

«يصل الى القاهرة بعد غد ٢ نوفمبر السيد اسماعيل الازهري وبرفقته الشيخ محمد احمد المرضى ومبارك زروق قادمين اليها من بغداد كما وصلها اليوم الشيخ علي عبدالرحمن رئيس حزب الشعب الديمقراطي وبرفقته السيد محمد نور الدين وعدد من قادة حزبهم وقد استقبلوا في القاهرة استقبالا ملفتا ومنقطع النظير كما تستعد الجهات الرسمية لاستقبال السيد اسماعيل الازهري استقبالا كبيرا مما جعل التكهنات والاستنتاجات كثيرة ومثيرة من أمر هذا التجمع الغريب والمفاجىء.

وقد علمت من مصادري الموثوق بها ان الرئيس جمال عبدالناصر سيستقبل الوفدين كلا على حده ثم يستقبلهم معا في جلسة هامة وذلك بعد اجراء مشاورات وصفت بانها خطيرة للغاية وتهدد مستقبل السودان السياسي!!».

يمضي السفير في الرسالة فيقول:

أسرني نفر ممن أثق فيهم من رجال الصف الاول في الثورة وفي الصحف بان مصر تعد خطة محكمة للوفاق بين الازهري وحزب الشعب الديمقراطي وان الاحتمال كبير للغاية في اكمال هذه الخطوة وتتويجها باللقاء والتفاهم.

ومن تحليلاتي واستقراءتي الشخصية - والكلام هنا مازال للسفير - التي ظهرت في الاجواء السياسية العليا ان الهدف من وراء هذا الاتجاه الجديد هو اسقاط الحكومة عند عودتهم مهما كلف الثمن وبلغ الجهد ثم تشكيل حكومة جديدة برئاسة الازهري ونيابة علي عبدالرحمن تمهيدا لاعلان الوحدة بين السودان ومصر من داخل البرلمان ويبدو ان سبب هذه التحركات الغريبة والمريبة التي تجري في القاهرة هو الاشاعات التي ملأت الأجواء السياسية بان هناك تمهيدا لانقلاب عسكري مما زاد من مخاوف مصر والمعارضة السودانية معا. في انتظار تعليماتكم وتوجيهاتكم تقبلوا سيدي فائق الاحترام.

التوقيع يوسف مصطفى التني سفير السودان بالقاهرة. انتهت الرسالة!

أعدت قراءة هذه الرسالة مرة ومرتين وثلاثاً وبدأت تتجمع أمامي وبشكل سريع ومرتبك كل خيوط القصة التي يبدو ان السيد/ عبدالله خليل قد اعد أطرافها منذ عهد بعيد ثم حاول ان يستفيد من العوامل الزمنية بشكل مخطط ومدروس ومحسوب. ولأول مرة استيقن بعد الاطلاع على هذه الرسالة الخطيرة ان مسألة الانقلاب جادة وحقيقية وليست اشاعة وأوهاما وان المثل السوداني الذي يقول (مافي دخان بلا نار) بدأ يتحقق في شكل واضح وسافر وسريع.

.. توهمت في لحظة من لحظات التفكير العميق والحيرة والتأمل بان الرسالة قد

تكون مطبوخة ومزيفة من أولها إلى آخرها بل ومتفق عليها مسبقا حتى تعطي التبرير الكافي لعبد الله خليل للاعداد لانقلاب عسكري ومرد هذا التوهم ان صديقي يوسف التني وهو مهندس وشاعر ومرموق ومحدث لبق وزينة مجالس من أخلص المخلصين لعبدالله خليل الذي الحقه سفيرا بالسلك الدبلوماسي، واذا سلمت نفسي وعقلي إلى التوهم لقلت ايضا ان السيد أمين التوم وهو مساعد لسكرتير حزب الامة الذي هو عبدالله خليل نفسه وانه يقوم بتصريف شئون وزارة الخارجية وهو بالاضافة إلى كل هذا وذاك من أقرب الاقربين واخلص المخلصين لعبد الله خليل... اذا اسلمت نفسي وعقلي إلى هذا التوهم كله الذي تبرره قرائن الأحوال وملابسات الظروف التي تبدو مريبة في الحقيقة، فانني لا استطيع مع كل هذا وذاك ان انفي او الغى بعض جوانب الاحتمالات التي وردت في رسالة السفير الخطيرة. فالحقيقة الثابتة ان اشاعة التمهيد لانقلاب عسكري قد ملأت الشارع السوداني ومن ثم فان السفارة المصرية باستخباراتها المتقدمة لابد ان تكون لديها معلومات اكثر تفصيلا من الشارع مما يجعلها تضع حسابات دقيقة لاحتمالات الانقلاب، بل وتقاومه ان استدعت الظروف او اقتضت المصلحة او تبحث لها عن صاحب مصلحة حقيقية يقاومه لمصلحته ونيابة عنها في آن واحد. كل ذلك وارد ومحتمل اذ لا يمكن لمصر او للمعارضة السودانية ان تقف متفرجة دون ان تحتاط لكل أمر أو خطر ترى او تعتقد انه يهدد مصالحها بطريق مباشر او غير مباشر.

.. المهم ما أن اكملت اعداد الرسالة وسرحت بعيدا في تحليلها وأبعادها وغصت في بحور عميقة من الحيرة والتساؤلات هل هي حقيقة واقعة، ام مزيفة ومتفق عليها، ام هي مجرد اجتهادات!؟ ما أن اكملت كل شيء حتى هرولت بجلبابي إلى الطابق العلوي ودخلت على عم عبدالله وقلت له: كان امين التوم معي في التلفون وحملني رسالة خطيرة من يوسف التني ناولتها له فاعادها إلي وطلب مني أن اقرأها ففعلت وظللت أتطلع إلى وجهه فكان جامدا كعادته خاليا من كل تعبير او انفعال او رد فعل، ولعلني في مناسبات سابقة كررت وصفي هذا الذي عرف به عبدالله خليل.

قال لي عم عبدالله في لهجة حازمة آمرة:

«كويس خالص... قم بترجمتها للانجليزية ترجمة جيدة وحرفية وبسرعة شديدة وحذار ان تطلع صاحبك السفير خليفة او اي شيطان على تفاصيلها لا هنا ولا في الخرطوم واذا فعلت فانت عارف بانني سأضربك رصاص!!» (الجملة التقليدية) وقبل ان أهم بالخروج وضع عم عبدالله نظارته على وجهه وبدأ يفتح حقيبته الخاصة ويراجع بعض الاوراق ثم قال لي بلهجة آمرة اخرى:

# تفرا ورك

«قبل ما تخرج اطلب لي في التليفون (تفرا ورك) بسرعة». وكما ذكرت من قبل فان تفرا ورك هذا كان وزير القلم كما كان أكبر وأخطر شخصية في البلاط الاثيوبي. كان كتلة من الذكاء والدهاء والمكر وكان فوق ذلك ظل الامبراطور الذي لا يفارقه الا في ساعة النوم. فعلت ذلك وبدأت المحادثة الخطيرة لكنني خرجت عندما حدجني عم عبدالله بنظرة حادة وعرفت ساعتها ان الامور تتطور بسرعة شديدة وبخطورة أشد!

ما ان فرغت من اعداد الترجمة وخرجت إلى البهو حتى سمعت هرجاً ومرجاً وقرة قول سلاح وصراخ من الحرس و... ودخل بعض الضباط بزيهم الرسمي والخاص يتوسطهم تفرا ورك وزير القلم وهو يتمخطر في مدخل القصر بهندامه المنضبط واناقته المعهودة.

لم يحيني وانما قبض على يدي وهمس في اذني بسرعة عجيبة بان لي رسالة عاجلة سأبلغ بها الان فاندهشت وذهلت ولكن الوزير الخطير لم يمنحني فرصة للاستفسار فمضى في سيره نحو عبدالله خليل الذي ما ان سلمته ترجمة الرسالة حتى عدت إلى حجرتي وقبل أن استعد إلى الخروج سمعت طرقات خفيفة على بابي فأذنت لصاحبها بالدخول فاذا بها امرأة حلوة تبدو عليها ملامح المسئولية والكبرياء حيتني بانحناءة نصف دائرية كعادة أهل اثيوبيا وهي تشبه إلى حد كبير طريقة اليابانيين والصينيين وأهالي شرق آسيا.. وما أن همست المرأة الوقور في اذني حتى تسمرت في مكاني وأوشكت دقات قلبي ان «تطير» ثم تبلدت تماما للحظات واوشك عقلي ان يتوقف كليا... قالت هامسة:

«جلالة الامبراطور يريد رؤيتك الآن.. نعم الآن والعربة وانا في انتظارك تعليماتي لك الا تخبر احدا... ارجو ان تسرع يا سيدي... «اكزهارستلنج» وهي كلمة امهرية معناها شكرا من القلب المفتوح!!

ما هذا الذي يجري حولي... ماذا يعدون لي... كيف أتصرف... ما معنى لا ابلغ احدا... اسئلة كثيرة ظلت تحوم في رأسي بسرعة البروق الخاطفة وقد أوشك ان يغمى علي ورحت في شبه غيبوبة لكن عقلي الذي يفكر ويقدر وكثيرا ما يساعدني على الخلاص قد هرب من رأسي ولم أصح الا على يد السيدة الاثيوبية الوقور الجميلة وهي تضغط على ذراعي وتردد ارجوك يا سيدي ان تسرع فان موقفي حرج ومهمتي قاسية وخطيرة فالامبراطور ينتظرك. خرجت ونهبت بنا العربة المرسيدس ٦٠٠ الطويلة بلا

رقم ولا بطاقة ولا علامة فهي عربة القصر الامبراطوري... نهبت بنا الارض وما هي الا دقائق حتى كنت في حضرة الامبراطور ورفيقتي هي التي كانت تحرس المدخل وقد علمت فيما بعد انها من سكرتارية القصر وفي قسم الاستخبارات الخاصة بالقصر.

وبالمناسبة فان اثيوبيا كلها كانت عيونا وآذانا للامبراطور صاحب القبضة الفولاذية فبالرغم من ان وسائل مخابراته الرسمية كانت قوية جدا الا أنه كان يستعين على بعضها البعض بفروع مختلفة للاستخبارات: البوليس، الجيش، أمن الدولة، استخبارات القصر شأنه في ذلك شأن كل حكام العصر، لكن الامبراطور كان يعتمد ايضا وكليا على عيون الكنيسة وعلى الوف العيون والآذان التي زرعها في المتاجر والمدارس والمصالح والأسواق والمزارع وحتى بين اللصوص والشحاذين والصعاليك والمجانين لدرجة خشي منها الجميع وظنوا انه ساحر او نبي او صاحب وحي ورسالة وانه يرى بقدرة الرب والصليب ما يفعلون ويسمع ما يقولون ولو كانوا بين جدران مغلقة!!

.. سمعت قصصا خرافية وحكاوى عجيبة وكثيرة مما يحتمل ان تكون المخابرات قصدت اطلاقها وزرعها في الشارع الاثيوبي وفي قلوب الناس حتى يتمتع الامبراطور بالهالة والقداسة، لكنني اعرف قصة وقعت في قصره ومع وزير شاب اعرفه قيل انه كان فاسداً ومرتشياً وما ان احكمت حلقات الخطة لاعتقاله حتى نفذها الامبراطور بنفسه.

... ذهب إلى الوزير في مكتبه وظل يأمره بان يفتح الدرج الاسفل ثم الخزينة الجانبية ثم... ثم. كان الامبراطور على علم مسبق بكل محتويات الاماكن التي اشار اليها فظهر ان للوزير الشاب حسابا في سويسرا وانه اختلس كذا وشارك او ساهم في كذا فما كان من الامبراطور الا ان امره برد كل الذي اختلسه وعندما هم بالخروج رجع الشاب وأمسك بحذاء الامبراطور وظل يبكي ويطلب الغفران ودقات قلبه في تلك اللحظات كانت تعد ما تبقى له في الحياة ان سحب منه الامبراطور قدمه فهي علامه عدم الرضا، لكن الامبراطور ظل واقفا ودموع الشاب قد غسلت حذاءه وبللت «جوربه» وهي علامة الرضا وقبول التوبة. علمت فيما بعد ان الشاب كان ابنا لاحد جنود الامبراطور المخلصين ومن قدامى المحاربين فاكتفى بان أصدر امره بنقل الوزير الشاب كاتبا في مصنع للاسمدة، بعد ان يقضي فترة غفران وتوبة لستة اشهر خادما للكنيسة ثم جرد بالطبع من كل شيء الا الحياة!!

... كانت الساعة حوالي السادسة من مساء يوم ٣٠ اكتوبر اي ثاني يوم وصولنا وقد وجدت الامبراطور يداعب «حفيد أسده العجوز» يناوله بيده قطع السندوتش والحلوى والشكولاته والشبل الصغير يقفز هنا وهناك فرحا مرحا لكنه اخافني فوقفت ثم تراجعت وباشارة صغيرة من يد الامبراطور دخل الشبل المنعم تحت مقعده «وتكرفس» في ادب دون ان تبدر منه اية حركة اخرى!

انحنيت بجسدي الضخم انحناءة نصف دائرية كالعادة وكانت متعبة للغاية خاصة وقد

تناولت عند الظهيرة غداء دسما وفاكهة وحلوى ومياهاًمعدنية كتب في وسط زجاجتها عبارة «القصر الامبراطوري الاثيوبي».

.. من اللحظة الاولى احسست بان الجو كان خاليا من جميع عقد البروتوكول وكان الامبراطور يرتدي زيه الوطني كما لاحظت ولاول مرة غياب تفرا ورك الذي كان يقوم بمهمة الترجمة الا ان الامبراطور في حالات نادرة وشاذة يتحدث الانجليزية بطلاقة كما يفهم العربية اكثر مما يتحدث بها ويبدو ان الحالة التي اواجهها هي من الحالات النادرة والشاذة معا اذ لم الاحظ لا من قريب ولا من بعيد شخصاً ثالثا او اي شخص الا الخدم الذين كانوا يحيطون من بعيد بالامبراطور ليلبوا طلباته كما كنت الاحظ من وقت لآخر ظل المرأة التي جاءت بي وهي تقف وراء الباب!

.. الذي اقلقني بعض الشيء وجود آلة صغيرة بالقرب من الامبراطور حسبتها بادىء الأمر انها وضعت خصيصا لترصد كلماتي وحركاتي. لاحظ الامبراطور انني لم أكن طبيعيا فقد كان القلق والخوف واضحا وباديا على تصرفاتي.. القلق من أي شيء والخوف من كل شيء ولأن التجربة التي اواجهها ليست بالامر الهين الذي يمكن لشخص مثلي ان يهضمها او يحتملها فقد ظلت الهواجس تلعب بي كما يلعب الموج الثائر بمركب صغير حتى افقدها القدرة على الاتزان والوصول إلى بر الامان وكانت اصابع يدي العشرة تتشابك وتتداخل في بعضها البعض وقد اصبحت مبللة بالعرق كما كانت نظراتي شبه زائغة وعاجزة عن التركيز في اي شيء حتى وجه الامبراطور الذي لا يبعد عني اكثر من ثلاثة او اربعة امتار كنت اتحاشى النظر اليه لست ادري ان كانت هي الرهبة ام الخوف ام القلق ام الترقب ام الحذر ام كلها مجتمعة في اناء واحد!؟

لابد ان الامبراطور بخبرته الطويلة وتجربته المستمرة في وجوه الناس استطاع ان يقرأ بفراسته المعروفة ما أشعر به في حضرته في تلك اللحظات الرهيبة لذلك فقد اراد ان يكسر حواجز الجلال والرهبة والخوف ليريحني ويساعدني ولو قليلا في «اخذ او انزال انفاسي المعلقة» فبادرني بابتسامة حلوة صافية وقال لي بالعربية:

سلام عليكم وبخير ان شاء الله.. يا عبد الحران!! قلت في نفسي وقبل ان اجيب جلالته:

«الحمد لله الذي لم يجعله يضع ميما «م» مكان النون في أسمي الذي كان يسبب لي مشكلة مستديمة بسبب طوله وعرضه!!»

## الامبراطور وانا

.. بدأ الامبراطور حديثه قائلا : تعرف طبعا مدى تعلقي وحبي وحب اثيوبيا للسودان ومدى العلاقة التي تربط بيني وبين الامام المهدي ومن هذا المنطلق فان الذي يصيب السودان ينعكس بدوره ان سلبا او ايجابا على اثيوبيا لذلك فانني اريد ان اتحاور معك بوصفك صحافياً ثم بوصفك لصيقاً بالاحداث وبالمهدي وعبدالله خليل وبدأت اسئلة الامبراطور :

س : ما هو الموقف بالضبط وهل صحيح هناك مخاوف من مصر ! ؟

ج : حقيقة ان الموقف متأزم والمناورات السياسية على اشدها لكنها حسب رأيي لا ترقى إلى درجة المخاوف من مصر .

س : والرسالة التي جاءتكم من القاهرة وترجمتها بنفسك ما هو سرها هل هي صادقة وماذا نقول في توقيتها ؟

ج : مبلغ علمي على الاقل ان بعضها حقيقة واقعة وهي وصول الازهري وعلي عبدالرحمن إلى القاهرة واجتماع عبدالناصر بهما أما بقية الرسالة فهي لا تخرج عن كونها استنتاجات او اجتهادات او استطلاعات .

س : ان اعتبرنا جزءاً منها مجرد استنتاجات فما هو رأيك انت فيما يجري ! ؟

ج : الاستنتاجات لا تخرج عن كونها وجهة نظر خاصة قد تكون حقيقة او قريبة من الحقيقة أو قد يجانبها الحظ، لكنني شخصيا وبحكم مواقف عبدالناصر المعروفة منذ تقرير المصير ووقوف مصر مع استقلال السودان يجعلني استبعد تماما التفكير في مسألة اعلان الوحدة من البرلمان .

س : هل الامام المهدي على علم بتحركات خليل وهل صحيح ان محاولة الانقلاب التي يشاع عنها وراءها اتفاق مع العسكريين بان ينصب المهدي ملكا او رئيسا على السودان .

ج : (أ) الحقيقة ان الامام المهدي ضاق ذرعا بمسلك النواب وتعليقاتهم السياسية ومطالبهم التي لا تتوقف مما ارهقه ماديا وعقليا وجسديا وكما تعلم جلالتكم ان مسألة شراء النواب اصبحت مسألة خطيرة هي في حد ذاتها تهديد للديمقراطية .

(ب) اما ان الامام المهدي على علم بما يجري فهو كذلك لكنني لا استطيع ان اقول بانه وصل حد العلم باشاعة الانقلاب كحقيقة واقعة وثابتة .

ج : اما ان هناك اتفاق او شبه اتفاق مع العسكريين لتنصيب المهدي رئيسا للسودان

فانا لست في موقف اجيب على هذا السؤال لكن من واقع الانقلابات وتاريخها فان هذا يكاد يكون مستحيلا .

س : ما رأيك وتقييمك الشخصي هل تعتقد ان الانقلاب حقيقة واقعة ام هو مجرد فكرة لتقضي على فكرة اخرى؟!

ج : اعتقد يا جلالة الامبراطور ان السيد خليل هو الوحيد الذي يستطيع ان يجيب على هذا السؤال لكن اشاعة الانقلاب في السودان صارت اكبر من اشاعة .

س : ما رأي الشارع السوداني في الانقلاب هل سيؤيده ام يعارضه اذا وقع؟!

ج : رأي الشارع السوداني يأتي دائما من خلال اجهزته واحزابه وتكويناته السياسية التي تحرك الشارع وتعبر عنه وهي مع الاسف مشغولة عنه بمشاكلها وخلافاتها الشخصية والتطلعات إلى كراسي الحكم دون الاهتمام بتطلعات ومطالب الرأي العام . والمسرح السياسي الان في السودان يشكو على الاقل من جفوة بين الشعب والاحزاب من جهة ، وبين الشعب والحكومة من جهة اخرى .

وفي ختام الحديث قال الامبراطور :

اريد أن احملك رسالة للامام المهدي وهي ان مجرد التفكير في وقوع الانقلاب فيه خطر ان لم يكن قريب المدى فسيكون بعيد المدى والانقلاب في السودان ان فتحت ابوابه فلن تقتصر عليه وحده ومن الافضل للسودان ان تشجع كل الخطوات التي سعى ويسعى اليها السيد الصديق المهدي للوصول إلى حد ادنى من الوفاق بين حزب الامة وحزب الازهري وهذا هو الطريق الوحيد المتاح الذي يمكن ان يحقق للسودان نوعا من الاستقرار .

# نهاية العرش الامبراطوري

.. صدقت كل رؤى الامبراطور الشيخ فقد وقع الانقلاب في ١٧ نوفمبر وبعد عام واحد هبت عاصفة على اثيوبيا ووقع فيها انقلاب منغستو الاول لا منغستو هيلامريام وذلك عندما كان الامبراطور في زيارة للبرازيل وقد قطع زيارته وعاد إلى عرشه عن طريق السودان وخضعت له اسمرا اولا اذ كان الحاكم فيها صهره ثم دخل عاصمة بلاده على صهوة جواد ابيض يحيط به رجال القساوسة وكوكبة من الفرسان ومع ذلك تراكمت السحب الداكنة فوق سماء اثيوبيا من جديد وهبت العاصفة وكانت قوية هوجاء لم تهدأ حتى اقتلعت شجرة الامبراطور هيلاسلاسي من جذورها مرة واحدة وإلى الابد.

.. كنت في بيروت عندما وقع الانقلاب الاخير في اثيوبيا ولشد ما كانت دهشتي شديدة ومحيرة عندما اعلن ان قائد الانقلاب هو الجنرال امان عندوم ابن الامبراطور الذي جاء به من الخرطوم والذي تعهده وتولاه ورباه وجعله ابنا من ابنائه وادخله المدارس والجامعات حتى تخرج من كلية سانت هيرست العسكرية المعروفة وتقلب في وظائف القصر حتى اصبح قائد الحرس الامبراطوري. *ما استطعت ان افهم او اهضم* هذا والذي اسمعه من الاذاعات فسارعت نحو التليفون وطلب محادثة شخصية مع الجنرال امان قائد الانقلاب وصديقي الكبير منذ سنوات عديدة وبعد ساعات جاءني صوته من خلال التليفون وهو يبادرني بنفس السؤال الذي كنت انوي توجيهه إليه وبعربية طلقة قال:

.. اهلا بيك ياعبدالرحمن طبعا مستغرب جدا ومن حقك ان تكون كذلك في قيادتي للانقلاب ضد والدنا الامبراطور لكنك لو كنت مكاني لما ترددت في ان تقوم بنفس الذي قمت به.. ومضى الجنرال يقول لا اريد هنا ان اوضح اكثر فحاول ان تتصل باخي ملس وقد كان سفيرا لاثيوبيا في القاهرة. وبعد فترة لا تزيد على الاسبوع استطعت ان اجمع الاسرار الخطيرة والكبيرة وراء الانقلاب والتي لا اعتقد انها كانت معروفة حتى لوسائل الاعلام.

.. قبيل الانقلاب الاثيوبي احس الجنرال أمان عندوم ان الامبراطور بدأ يفقد ذاكرته بشكل متدهور حتى اصبح لا يفرق بين الابيض والاسود ولا بين موظفيه ومستشاريه وابنائه وظل الجنرال ومعه تفرا ورك وزير القلم القوي يضربان حصارا شديدا على الامبراطور الا من اطبائه الخصوصيين الذين عجزوا عن مداواته. وخشي الجنرال ان يفتضح امر الامبراطور خاصة في أوساط القوات المسلحة التي كانت فائرة

بعدد من الضباط المتهورين - حسب تعبيره - فبدأ الوزير الخطير يضغط على الجنرال الشاب يستعجل هو للاستيلاء على السلطة قبل ان يقوم بها متهور آخر لان الاحتمالات واردة اذا تسربت انباء الامبراطور وحالته الصحية للشارع الاثيوبي وفعلا قام الجنرال امان ببعض الاتصالات بمن يثق فيهم من الضباط وتم الانقلاب في صورته الاولى تحت شروط مسبقة وضعها الجنرال وقبلها الضبط وهي تنحصر في النقاط الآتية :

أولاً : يعفى الامبراطور من جميع سلطاته على ان يعين ابنه الامير اصفا واتسون ولي العهد امبراطورا على اثيوبيا .

ثانياً : تقديرا واحتراما لمكانة الامبراطور يظل في قصره «جنة اللول» يتمتع بالتقديس المعروف له ولاسرته دون ان يسمح لافراد الاسرة بالعمل العام .

لكن بعد مرور اقل من شهرين على هذا الوفاق بدأ بعض اعضاء مجلس الثورة يتململون من هذا الوضع غير المريح وغير السليم بالنسبة لتغيير اداة الحكم مما جعلهم يشكلون ضغطا متواصلا على الجنرال امان رئيس مجلس الثورة ويكسبون كل يوم ارضاً جديدة حتى جاء يوم الفصل وما هو بهزل ففاتحوا الجنرال بضرورة انهاء هذه الصورة باخراج الامبراطور من القصر الى مكان آخر هكذا بدأت المشادات ولكنها بالطبع كانت تخفي وراءها ما تخفي .

وفي يوم عاصف انتهى فيه مجلس الثورة إلى طريق مسدود خرج الاعضاء في عصر ذلك اليوم وقد بيتوا النية على الاستيلاء الكامل والمباشر على السلطة رغم انف رئيسهم الجنرال عندوم فطوقوا داره في المغرب وامروه عن طريق مكبرات الصوت ان يستسلم فأبى في شجاعة الفرسان وظل يتبادل معهم النيران الحامية اكثر من الساعة والنصف ثم توجهت المكرفونات لسكان المنطقة المجاورين باخلاء منازلهم ووجهوا نحو منزل الجنرال امان نيران المدافع والدبابات حتى هدموا فوقه وفوق اهله البيت من اساسه ثم جاءوا «بالبلدوزرات» فازالوا الانقاض بما فيها جثمان الجنرال امان فانطوت بذلك مأساة اثيوبيا وتربع بعدها منغستو هيلاماريام على قمة عرش الامبراطور .

.. وهكذا صدقت نبوءة الامبراطور عندما قال ان محاولة الانقلاب في السودان ان نجحت فستكون بداية لعاصفة لن تهدأ وسيتأثر بها الجيران وعلى رأسهم بالطبع اثيوبيا وفعلا لم تهدأ العاصفة الهوجاء الثائرة حتى اقتلعت النظام الامبراطوري العريق من جذوره مرة واحدة وإلى الأبد .



اخر لقاء وآخر وداع بين الامبراطور وعبدالله خليل

## العودة إلى البركان السياسي

.. انتهت زيارة السيد عبدالله خليل لاثيوبيا وكانت فاشلة بكل المقاييس اذ انها لم تحقق الغايات التي كان يصبو اليها وهي اقناع الامبراطور هيلاسلاسي بتأييد الانقلاب الذي كان يسعى إلى تنفيذه رغم المحاولات التي بذلها في لقاءاته المتعددة به والتي اعتمدت كما يبدو اساسا على الرسالة الخطيرة المخيفة التي بعث بها سفيرنا بالقاهرة المرحوم السيد يوسف مصطفى التني وقد بذل الامبراطور من جانبه جهدا متواصلا في محاولة لاقناع السيد عبدالله خليل بالعدول عن محاولاته لما تترتب عليه من مخاطر مستقبلية لا على السودان وحده وانما على جيرانه وقد وصف الامبراطور المحاولة الانقلابية بانها باب اذا ما فتح فمن العسير اغلاقه والتحكم فيه نسبة لما يصحب الانقلابات عادة من عواصف هوجاء لا يمكن التحكم فيها ولا يمكن التعرف على سماتها وافرازاتها غير المرئية وقد أصاب الامبراطور السيد عبدالله خليل في موضع الالم والجرح عندما دعاه لتأييد خطوات السيد الصديق المهدي الرامية إلى انجاح الحوار الدائر مع السيد الأزهري لما فيه من خير على السودان واستقرار للاوضاع السياسية.

.. وعدنا الى الخرطوم في الرابع عشر من نوفمبر ١٩٥٨م وكان لابد لنا من ان نعود اليها فوجدناها اكثر هياجا وفورانا وململة، واصبحت تعيش تحت بركان هائج ينذر بين كل لحظة واخرى بالهيجان والانفجار وكان السيد الصديق المهدي آنذاك قد سافر إلى سويسرا للاستشفاء مما جعل الحوار الذي بدأه مع السيد الازهري يصاب بنوع من الهزل والفتور اذ كان غياب الازهري في رحلته لبغداد ايضا من العوامل التي زادت من هذا الفتور.

# اجتماع خطير

.. شهدت سراي الامام عبدالرحمن المهدي أكبر وأخطر تجمع سياسي في الساعة الثامنة والنصف من مساء ١٥ نوفمبر ترأسه الامام عبدالرحمن نفسه وعلى غير العادة فقد عقد في سطح الطابق الاول للسراي هروبا من مئات الضيوف والمواطنين الذين يروحون ويغدون في حديقة القصر وفي طابقها الاول وقد دعا لهذا الاجتماع عدد من اقطاب حزب الامة ليستمعوا الى تقرير مفصل من السيد عبدالله خليل عن رحلته إلى اثيوبيا اولا وعن الاشاعة الانقلابية ثانيا التي ملأت شوارع المدينة وقد كانت بمثابة جلسة محاسبة للسيد عبدالله خليل اكثر منها تجمعا سياسيا تقليديا.

.. حضرت هذا اللقاء من لحظاته الاولى حتى انتهى في حوالي الواحدة صباحا كان عاصفا وعنيفا ومثيراً وخطيراً تغطيه سحب داكنة من الشكوك وعدم الثقة والحيرة والحذر وتبادل الاتهامات المريرة التي خرجت عن كل الحدود والتقاليد المرعية في مثل هذه الاجتماعات مما جعل الامام عبدالرحمن يدق على المائدة بين الفينة والاخرى ليسكت الاصوات المتشنجة والمرتفعة التي راحت تكيل السباب بغير حساب وبلا توقف وكان الهدف بالطبع هو السيد عبدالله خليل الذي ظل يتابع المتحدثين بنظرات شزرة دون ان يفتح فمه بكلمة الا مرة أو مرتين وهو يطلب من الامام حمايته من هذه المواجهة القاسية الصعبة. وعندما جاء دور السيد عبدالله خليل في الحديث لوح بان الموقف السياسي خطير للغاية وان مستقبل السودان واستقلاله وحريته «أصبحت في كف عفريت» وقد طلب من الحاضرين ان يمنحوه تفويضا كاملا لحماية البلاد حتى يتمكن من تعطيل البرلمان والصحف واعلان الاحكام العرفية فتصدى له بالحديث السيد محمد احمد محجوب وكان عنيفا على غير عادته فقال:

«لن نسمح لك ان تكسر الاقلام وتغلق ابواب الهواء والحياة والحرية والديمقراطية التي لا يمكن ان تتحقق وتترعرع وتزدهر الا بمزيد من الديمقراطية ولو سمح لك خيالك ان تسبح في الظلام وتتصور الاشباح ثم تريد ان تخيفنا بها فنحن لسنا صغارا نهاب الأشباح وانا - ومازال الحديث لمحجوب - من هذا المكان أرفض جملة وتفصيلا منحك مثل هذا التفويض الذي يقوض الديمقراطية من اساسها».

ما أن انتهى محجوب من حديثه حتى قاطعه السيد عبدالله خليل بجملة واحدة قال فيها:

«نحن مش في ندوة أدب وشعر يا محجوب... نحن مواجهون بمصائب لا اظنها غائبة على أحد..»

.. اشترك في النقاش والجدل الحاد عدد كبير من قادة حزب الامة وكان الأمام عبدالرحمن يديره باسلوب ديمقراطي ويخفف في كثير من الأحوال من بعض الحدة في القول وعوامل الاثارة الا أنه شخصيا لم يبد رأيا واضحا فيما دار كعادته لان الاجتماع انتهى بمفاجأة لم تكن متوقعة، ولم تكن في الحسبان.

كان اكثر المتحدثين إيلاماً وعنفاً وتهجماً على السيد عبدالله خليل هو المرحوم الدكتور مأمون حسين شريف وزير مواصلات حزب الامة وابن اخت الأمام عبدالرحمن وصهره وصهر السيد الصديق المهدي في آن واحد وقد انحرف بالجدل السياسي وخرج من نطاقه المعروف لينال من شخصية وتاريخ عبدالله خليل وكان في حالة هياج شديدة لم يستطع حتى الامام عبدالرحمن نفسه من اسكاته والجامه فما كان من عبدالله خليل الا ان خرج متوجها إلى سلم الهبوط في عصبية ظاهرة لم تفلح معها ولأول مرة في تاريخ الحزب صيحات الامام عبدالرحمن لعبدالله خليل بالرجوع.

كانت آخر كلمات السيد عبدالله خليل التي مازال صداها يتردد بوضوح في ذهني وعقلي قبل خروجه من حلقة الاجتماع الملتهبة.

«طيب حتشوفو باكر..»

.. كان عليَّ في تلك اللحظات الحاسمة ان افكر بعجل وبسرعة وبلا توقف فخروج عبدالله خليل بتلك الصورة العصبية: وعدم انصياعه لصيحات الامام عبدالرحمن - وهو شيء غير مألوف ولا معروف - لم تترك امامي الا خيارين كلاهما مر فاما ان أبقى لنهاية الاجتماع الذي خرج نجمه الاساسي واما ان الاحق النجم قبل ان يغيب فقررت وبسرعة ان الاحق السيد عبدالله خليل لسبب بسيط وهو ان الاجتماع لم يعد مثيرا ولا مفيدا بعد خروجه وقد كان محورا للاجتماع ذاته وادرت عربتي على عجل وتبعت عربة عبدالله خليل «الهمبركوك» فاتجه شمالا نحو شارع النيل وكان طبيعيا ان يلف لليسار غربا وهو الاتجاه الطبيعي لام درمان، لكن دهشتي كانت شديدة ومتواصلة أحاطها شيء كثير من الارتباك والخوف والغموض عندما دارت عربة عبدالله بك إلى اليمين «شرقا» وهو اتجاه لا يمكن ان يصدق أو يفهم او يهضم خاصة وان كوبري شمبات الحالي كان لايزال مجرد فكرة أو حلم بعيد. ومضيت أتعقبه في ذلك الليل المخيف وقد توقفت الحركة تماما وهو يعبر كوبري الخرطوم بحري وهو يتجه يسارا حتى طلمبة البنزين ثم يتجه يمينا ثم يسارا، ثم يشق المقابر ثم يدخل سراي الميرغني.

.. هنا توقفت بالقرب من المقابر، وتوقفت كذلك أنفاسي تماما، كما توقف عقلي عن التفكير وأوشكت ان اصاب بالشلل ان لم اصب به بالفعل ولم يعد السجائر كاف لاسترد به بعض تفكيري اذ كنت في حاجة الى انبوبة اكسوجين من النوع الكبير حتى اعيد انفاسي إلى الرئتين وكنت استعين على الهدوء وضبط النفس بالتدخين المتواصل وبالنظر إلى الساعة بين كل ثانية وثانية متشاغلا بالراديو.

.. الساعة كانت بالضبط في تلك اللحظات الحرجة المحسوبة تشير إلى الواحدة والدقيقة عشرين. الصمت كان مخيفا ومطبقا وصفير الهواء كان مزعجاً ومثيرا خاصة وانا اقف بين القبور والاموات وقد خيل إلي في تلك اللحظات انني اصبحت واحدا منهم لا ينقصني شيء على الاطلاق فقد مات في داخلي كل شيء ولم اعد الا مجرد شبح له عيون جاحظة وانفاس متوقفة وعقل مشوه وحائر ومن على البعد رأيت اضواء عربة تقترب شيئا فشيئا تشق هي الاخرى ذلك السكون المخيف والصمت القاتل وسرعان ما اختفيت وراء عربتي وبدأت اراقبها حتى دخلت هي الاخرى بيت الميرغني لكنني بالطبع لم استطع ان أتبين من فيها وكانت الساعة بالضبط الثانية الا ربعا وبعد عشر دقائق جاءت عربة أخرى وسارت في نفس الاتجاه وقد استطعت ان اتبين رقمها جيدا الشيء الذي فات علي ان افعله في المرة السابقة.

.. عاد الصمت من جديد يطوقني وقد هدأت أنفاسي بعض الشيء واستطعت بعد مجهود كبير ان استعيد بعض لا كل حواسي. كان الامر بالنسبة إلي اشبه بالالغاز والاساطير التي نقرؤها عادة في كتب الأحاجي، لكن بقليل من التوقف مع النفس والعقل ومع ربط الاحداث حلقة حلقة وخيطا خيطا ضاقت الشقة وتجمعت الارقام وزالت كل الغيوم وراح الضباب واصبحت الرؤيا واضحة بلا رتوش ولا زركشة، لكن الاسئلة التي ظلت ولازالت تؤرقني وتلازمني هي:

أولا: هل كان السيد عبدالله خليل على موعد مسبق مع مولانا السيد علي الميرغني في تلك الساعة المتأخرة من الليل؟

ثانياً: كيف استطاع عبدالله خليل ان يوقت حساباته وزمنه بهذه الدقة وهو لا يعلم متى وكيف ينتهي الاجتماع الخطير في سراي الامام؟

ثالثاً: اذا استجاب اجتماع حزب الامة بقيادة الامام فمنح عبدالله خليل التأييد والتفويض الذي طلبه، هل سيسعى عبدالله خليل إلى مولانا الميرغني وفي نفس الميقات؟

رابعاً: هل يمكن ان اسقط من حساباتي كل هذه الاحتمالات واقول بان لقاء عبدالله خليل بمولانا الميرغني كان سيتم رغم كل شيء واي شيء وبالتالي فان الانقلاب واقع لا محالة وتحت كل الظروف ومهما كانت النتائج؟

.. من هذه الصور العديدة المرتبكة والمربكة والمتشابكة التي عشتها وعايشتها استطيع ان أوكد بان قادة حزب الامة ـ على الاقل ممن شاركوا في ذلك الاجتماع الخطير وهم كثر ـ كانوا على غير وفاق مع السيد عبدالله خليل بدليل انهم وقفوا بشدة وبحدة وبصلابة امام محاولاته لتعطيل البرلمان والصحف واعلان الاحكام العرفية ناهيك عن تأييدهم لمحاولة الانقلاب خاصة وقد أنكرها السيد عبدالله خليل بشدة وبوضوح.

... هناك حقيقة قد يسعى وراء البحث عنها الكثيرون وهي رأي الامام عبدالرحمن

نفسه في المحاولة الانقلابية هل كان ملماً بأطرافها، هل كان يعرفها، هل كان يباركها ؟

الواقع انني رغم ابلاغي له برسالة الامبراطور هيلاسلاسي الشفوية، ورغم كل الذي كان يحدث في الساحة السياسية، فانني لست في موقف قاطع استطيع ان اجيب فيه اجابة مباشرة على هذه الاسئلة لانني اولا لم اسمع رأي الامام نفسه، لكنني استطيع من استقراءاتي الخاصة، ومما كان يدور وراء الكواليس، ومما احسست به ان الامام عبدالرحمن المهدي كان قد ضاق ذرعا بمسلك النواب المشين وتقلباتهم المؤسفة التي ارهقته ماديا وعقليا وصحيا فوق ان نتائج هذا كان قد تلخص بشكل واضح في الململة الشعبية وعدم الاستقرار الذي احاط بكل شيء واخاف كل عاقل ومتحسب.

ثمة ملاحظة اخرى ونحن نسعى للبحث عن الحقيقة ولايجاد شمعة ولو خافتة تنير لنا سراديب ذلك الماضي البعيد وهي ان السيد الصديق المهدي ما كان له ان يقوم بمحاولات اللقاء مع السيد الازهري ـ الامة والوطني الاتحادي ـ دون ان يأخذ المباركة والضوء الاخضر من والده الامام عبدالرحمن راعي الحزب ومن هنا يأتي سؤال آخر اترك الاجابة عليه للفطنة والذكاء لكل مريض بالسياسة والتاريخ وباحث عن الحقيقة المجردة.

.. هل تم انقلاب نوفمبر باعداد من السيد عبدالله خليل لحسابه الشخصي ام ان هناك من الاسباب ما خفي واندس في صفحات التاريخ؟

أما السؤال الاخر وهو فرعي هل كان الامام عبدالرحمن رغم صدور بيانه بعد يومين الذي بارك فيه انقلاب نوفمبر بتحفظ شديد يعني معرفته او مباركته المسبقة للسيد عبدالله خليل؟

.. الشيء الذي استطيع ان اؤكده ان الامام عبدالرحمن المهدي وهو كبير في كل شيء وبكل المقاييس لا يمكن ان يؤيد ابنه الصديق في مساعي اللقاء بالازهري ويؤيد في نفس الوقت السيد عبدالله خليل رغم البعد الشاسع والواسع والعريض بين التيارين في الفكر والمعنى والسياسة والهدف لانهما متضادان ومختلفان ومتناحران في كل شيء واي شيء.

.. بعد كل الذي دونته ورويته اريد ان أؤكد حقيقة كبيرة وباقية وحية شعرت بها، وتذوقت طعمها وتحسست أطرافها ومواضعها من خلال ملاحظاتي واستقراءاتي بحكم موقعي القريب والملتصق بالسيد عبدالله خليل ان لم يكن عرفانا ووفاء له فليكن تسجيلا للحقيقة والتاريخ وهو ان السيد عبدالله خليل ذلك الرجل العظيم الزاهد الشجاع مهما قيل ويقال عنه فقد فعل الذي فعله طوال حياته العسكرية والسياسية عن ايمان مطلق وثابت لا يتزحزح ولا يتزعزع،دوافعه الاساسية الاولى والاخيرة هي لمصلحة السودان وحماية السودان وخدمة السودان وحب السودان وبالطبع فان أحكام الناس تختلف ـ

ومن حقها ان تختلف ـ في تقييم الرجل غير ان التقييم في مثل هذه الحالات لابد ان ينبني من منطلق العقل والمنطق والمعرفة، أما ان بني على مجرد العاطفة والاقاويل والقصص السماعية والتسرع فان ذلك يعتبر تشويها للحقيقة والتاريخ جزئيا كان ام كليا وهذا على كل حال ليس من دوافعي على الاطلاق.

.. على كل حال حتى لا نذهب بعيدا عن نبش الماضي ونتوه في دروبه وسراديبه، لم يعد امامنا بعدما قلناه وكتبناه وقد قلنا كثيرا وكتبنا كثيرا، لم يبق امامنا سوى سويعات معدودات ونحن الان في صباح السادس عشر من نوفمبر ١٩٥٨، الا ان نستمع إلى المارشات العسكرية ويعلن علينا البكباشي عثمان نصر عثمان البيان رقم (١) لانقلاب نوفمبر فتذبل الازهار، وتترنح الاشجار، وتصفر الخضرة، ويضمر الضرع، وتجف المياه، وتنتهي الافراح، وتنهد الزينة، ويموت الربيع في السودان.

# ﴿ الفصل الثاني عشر ﴾

## انقلاب نوفمبر ١٩٥٨

- الانقلاب العسكري كان صوريا
- الامام الصديق المهدي كان قائد النضال
- رحلتي اليتيمة والمشؤومة مع عبود.
- العالم العربي «المحنط» في حاجة إلى مهدي جديد
- سافرنا لثلاث دول من أجل الصداقة ففقدناها جميعاً.

# انقلاب نوفمبر ١٩٥٨م

انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م / ٢١ أكتوبر ١٩٦٤م لم يكن انقلابا بالمعنى المعروف والمألوف في عام الخمسينات عندما بدأ ذوو الياقات والقبعات الحمراء يتسللون بمدافعهم في الظلام ويسطـون على الحكـم ويسحلــون ويقتلــون ويشردون ويملأون السجــون والمعتقلات بمئات الاشراف والاطهار . لم يكن انقلاب نوفمبر السوداني كذلك، وانما كان انقلابا ابيض لايعدو ان يكون عملية تنازل اختيارية او تسليم وتسلم قام بها رئيس الوزراء البرلماني الشرعي السيدعبدالله خليل سكـرتيـر عـام حـزب الامـة بعـد ضغـط متواصل على كبار القادة والضباط وعلى رأسهم الفريق ابراهيم عبود القائد العام للجيش السوداني آنذاك هذا على الاقل ما حوته يوميات التحقيق وجاء في اقوال قادة الانقلاب بعدما انتهى عهدهم على اثر قيام ثورة اكتوبر الخالدة، وعلى الرغم من ان عاصفة من الشائعات قد سبقت قيام هذا الانقلاب، الا انه كان سلميا وأبيض إلى درجة لم يشعر معها المواطنون بتغيير واضح وبارز في معالم الحياة اليومية باستثناء تعطيل البرلمان والدستور المؤقت فلم تقم المحاكم السياسية، ولم تعطل الصحف، ولم تظهر اية بادرة تنم عن تغيير السلطة بشكل يدعو إلى لفت الانظار، ويبدو ان ذلك يرجع إلى عاملين اساسيين اولهما الشعور بالخوف وبالذنب من جانب العسكريين الجدد وثانيا لكبر سنهم وارتباطهم الوثيق بالتقاليد الموروثة والاصالة السودانية المعروفة مما جعل اللين والمعاملة الحسنة طابعا مميزا لهم خاصة في ايامهم الاولى، ومن العوامل الاخرى التي ساعدت على الهدوء والسكينة هي الوضع الاقتصادي المستقر اذ كان فائض الخزينة العامة يزيد على المليوني جنيه استرليني وان الجنيه السوداني كان قويا ومتماسكا اذ كان يعادل اكثر من دولارين حتى إلى ما بعد نهاية الحكم النوفمبري مما جعل المواطن العادي في حالة استقرار نفسي واقتصادي لم يشعر معها بالتغيير السياسي الواضح الذي انحصر فقط في دوائر الاحزاب والطلاب وبعض المهنيين والسياسيين.. لم يكن هناك ما يبرر قيام انقلاب نوفمبر لان التجربة الديمقراطية الفريدة التي تنبع من التاريخ السوداني لم تتعد انذاك العامين ولم يكن سلوك الساسة اذا استثنينا عددا لا يتجاوز اصابع اليدين فيه ما يشين او يسيء إلى التجربة الديمقراطية أو ممارسة الحكم لكن السيد عبدالله خليل

الذي سلم السلطة للعسكريين كانت له نظرته وفلسفته الخاصة التي انحصرت اساسا في تخوفه من التغول المصري على السودان في مرحلة من مراحل الخلاف العنيفة المملوءة بالشكوك وعدم الثقة والحذر وذلك نتيجة مباشرة لمحاولات التقارب واللقاء التي كان يشرف عليها الرئيس عبدالناصر بين اسماعيل الازهري والعناصر المنشقة من الختمية التي كان يتزعمها الشيخ علي عبدالرحمن عندما التقوا جميعهم في القاهرة والتي كانت تهدف اساسا إلى اسقاط حكومة عبدالله خليل عند افتتاح البرلمان في ١٧ نوفمبر . وعلى كل حال ومهما اتفق او اختلف الناس حول سلوك عبدالله خليل وادانة حزب الامة بعملية التسليم فان الحقيقة الباقية هي ان عبدالله خليل قد فعل الذي فعله عن قناعة وايمان .

## استقرار

استطاع حكام نوفمبر العسكريون ان يحققوا نوعا من الاستقرار النفسي للناس ويقيموا كثيرا من المشاريع الانشائية كالشوارع والكباري ومصانع السكر وغيرها ويسيروا دفة الحكم بلا تغيير يذكر ولم يمارسوا أي نوع ظاهر من انواع العنف او الضغط او القهر او الكبت للدرجة التي لم يشعر معها المواطن العادي بانه فقد شيئا يذكر مما يؤثر على مساره الحياتي العادي وقلت ان هذا المسلك يعود في الاساس إلى طبيعة تكوينهم النفسي وتربيتهم العسكرية المنضبطة اذ ان الجيش السوداني طيلة العهد النوفمبري كان لا يزال يتمتع بقدرات عالية وراقية افتقدها مع مرور الزمن خاصة في العهد النميري المايوي .

الصراع الوحيد والموجع الذي ظل يلازم عهد نوفمبر هو حركة العصيان والغليان في الجنوب التي تصعدت إلى درجة كبيرة وصلت معها حد الحرب العلنية فقد آل حكام نوفمبر ان يواجهوا غضبة الجنوب بالحديد والنار ولم يفكروا بل ولم يخطر على بالهم موضوع التفاوض او بحث المظالم التي كان يشكو منها اهلونا في الجنوب مما جعل الغليان يستمر بقيادة وليم دينق رئيس حزب سانو .

انحصرت المعارضة اساسا في دوائر الاحزاب المنحلة وفي الجامعات والمدارس في شكل منشورات لكنها سرعان ما بدأت تلفت انظار العامة مع مرور الزمن ومع حرب الجنوب من جهة وململة الشارع السياسي من جهة اخرى بدأت المواجهة السافرة في اضراب عمال السكة الحديد الذي استغرق وقتا طويلا وقد انتهت المعارضة الحقيقية باعتقال القادة والزعماء السياسيين وعلى رأسهم اسماعيل الازهري وعبدالله خليل وترحيلهم إلى جوبا وسط تذمر الشارع السوداني المتحفظ بصورة ما في ذلك الوقت.

اشتدت المقاومة السياسية وكان يتزعمها ويتقدم صفوفها بلا منازع ولا مشارك السيد

الصديق المهدي النجل الاكبر للامام عبدالرحمن المهدي زعيم الانصار الذي التف حول قيادته جميع السياسيين والطائفيين والنقابيين بما فيهم قادة الحزب الشيوعي السوداني وقد سجل التاريخ السياسي للامام الصديق المهدي مواقف شجاعة مع العسكريين في مناسبات مختلفة حتى جاءت احداث المولد النبوي الشريف بأم درمان التي التحم فيها الانصار مع قوات الامن فراح عديد من الضحايا من الجانبين غير ان الامام تصرف بحكمة وتعقل واستطاع ان يقضي على الفتنة في مهدها قبل ان تنمو وتكبر وتستفحل وتستعصى.

في لحظات من لحظات اليأس بدأ الازهري يضغط على الامام الصديق لاستغلال الانصار في اسقاط الحكم غير ان الامام رفض هذا العرض لا ضعفاً منه، ولكن لانه كان يرى بان الانصار اذا ما دخلوا في ملحمة الملاحم وانتصروا فيها، فان الدعوة لعودتهم تكون بمثابة المستحيل وهو لا يستطيع ان يتحمل مسئولية الدماء والضحايا فوق انه قد لا يستطيع ان يتحكم في الامر ان انتصر الانصار في معارك مواجهة. وبنفس القوة التي رفض بها عرض اسماعيل الازهري رفض كذلك مبدأ الاغتيالات بالرغم من انها - على حسب تعبير الامام الصديق - من اسهل الحلول - الا انها ستكون بداية خطيرة لحل المشاكل وقد لا تتوقف عند حد معين وقد تصبح عادة كريهة وقبيحة مما يتنافى مع سلوك الإسلام وأخلاقيات الشعب السوداني الذي تربى على السلام والشورى والهداية.

كان الامام الصديق يجمع بين اصابعه كل خيوط المشاكل، ويضع فوق اكتافه كل هموم السودان ويتمتع بتأييد مطلق من جميع المحاور السياسية والعمالية والطلابية ومع ذلك فقد كان يتصرف بعمق ومسئولية وتجرد في الحدود الديمقراطية دون اللجوء إلى العنف الذي يؤمن في قرارة نفسه وتفكيره بان عواقبه وخيمة فوق انها لا تحقق الهدف المنشود ولا الفائدة المرجوة.. من هذا المنطلق، ومن هذا الايمان وبهذا القدر من المفهوم، كان الامام الصديق يتشاور ويتحاور مع العسكريين الذين كانوا رغم كل شيء يعملون له الف الف حساب.

# اصرار واصرار

كان الأمام الصديق يداوم على رسائله المتكررة والمعروفة للعسكريين مصرا على ضرورة عودتهم إلى الثكنات واقامة حكم الشورى والديمقراطية وكانت لقاءاته بهم كثيرا ما تصل درجة العنف والحدة مما اصبح يسبب لهم قلقا بل سرطانا مستديما غير انهم ابوا واستكبروا ولم يستبينوا النصح الا ضحى الغد.

قامت اثناء الحكم النوفمبري محاولات عسكرية اخرى لقلب نظام الحكم كان اكبرها خطرا ونفوذاً تلك التي تزعمها البكباشي علي حامد والتي انتهت باعدامه ومعه عدد من زملائه لكن محاولات الانقلاب المضادة لم تكن تجد تأييداً شعبيا او سياسيا الا في حدود محصورة جدا وضيقة جدا جدا ذلك لانها لا تعني في واقعها الا تغيير اسماء ورتب باسماء ورتب اخرى. الذي كان يهدف ويرمي ويسعى اليه الشعب السوداني هو الحكم الديمقراطي السليم بكل مؤسساته التشريعية والتنفيذية والدستورية.

ونحن نسجل التاريخ، فان الامانة تفرض علينا ان نقول بان الحكم العسكري النوفمبري ولاسباب كثيرة ذكرتها لم يكن عسكريا بالمعنى المعروف والمتعارف عليه فمن محاسنه القليلة بين مساوئه العديدة انه لم يلجأ إلى سياسات المصادرات والمحاكمات الصورية الهزلية ولم يلغ او يعطل القانون فقد ظل ساريا في حدود حققت نوعا من العدالة والمساواة والاستقرار، ولم يكن فاسدا او مرتشياً فوق انه لم يعطل الصحف كما جرت العادة عند شعوب اخرى وعلى الرغم من انه ظل يطارد الصحف ويخنقها بسلاح التخويف والتعطيل الا ان بعضها استطاعت رغم كل ظروف الكبت ان تؤدي ما عليها من واجبات تكلفها احيانا ثمنا باهظا بالتعطيل ستة اشهر كما حدث في مناسبات ثلاث على الاقل لجريدة الصحافة. ومن محاسن الحكم النوفمبري ايضا انه لم يخرب الخدمة المدنية ولم يفسد القوات المسلحة وانما استطاع ان يحافظ عليها بقدر الظروف المتاحة والمتيسرة.

من الاشياء الطريفة التي علقت بذهني وهي في حد ذاتها تأكيد صريح وواضح بان السلطة قد فرضت قسرا وقهرا على العسكريين. هي المؤتمر الصحفي الذي عقده الفريق ابراهيم عبود يوم ١٨ نوفمبر فقد رفض بل وحذر الصحفيين تحذيرا قاطعا من وصف الذي حدث بانه ثورة او انقلاب ولما ضايقه الصحفيون بضرورة تعريف هوية الذي حدث قال في نبرات حاسمة وجازمة انه «تصحيح اوضاع»! فما كان من احد الصحفيين الخبثاء الا ان قال معلقا: يعني ياسيادة الرئيس نكتب باكر مانشتات الصحف بانه قام في السودان تصحيح اوضاع!؟ فاجابه عبود بكل بساطة وبحزم «ايوه!!»



## وفاة الامام الصديق

الفترة الزمنية التي عاشها الامام الصديق كزعيم للامة السودانية جمعاء كانت بجانب انها قصيرة زاخرة ومليئة بالاحداث الجسام وعلى الرغم من انه كان يتمتع بصحة متكاملة وحركة وحيوية لا تتوقف، الا ان الاحداث الكبيرة والمواجهة العنيفة مع حكام نوفمبر ثم بعدها حوادث المولد المؤسفة بدأت تهده وتهزه هزا عنيفا وظل يشكو من متاعب المرض والارهاق ولما كنت لصيقا به في تلك الظروف فقد عرضت عليه ان نسافر معا إلى سويسرا للاستشفاء والترويح قليلا على النفس غير ان محاولاتي رغم انها كانت مستمرة ومتواصلة الا ان الامام ابى ان يترك سفينة البلاد وقد اصبح ربانها وسائقها واذكر انني قبل يومين فقط من وفاته اعدت محاولاتي من جديد الا أنه حدثني حديثا عجبا وهو في كامل وعيه وصحيانه عندما روى لي انه رأى في المنام الامام المهدي وامامه حصان ابيض وظل يناديه في غير ما توقف ان يركب الحصان ويخوض مع الخائضين فقال لي انه ركب الحصان في النهاية ولذلك فهو يرى انه عما قريب سيغادر هذه الدنيا فقلت له يا مولاي دعك من كل هذه التفسيرات التي ذهبت معها بعيدا جدا ورحت احاول اقناعه بالاهتمام بصحته وبضرورة السفر طلبا للعلاج فلاحظت انه كان ساهما شاردا بنظراته كأنما يبحث في جو الغرفة عن شيء ضائع.

وبعد يومين من هذا اللقاء المؤثر ٢ اكتوبر ١٩٦١م وانا اقود عربتي بعد المغرب بقليل في طريقي إلى أمدرمان لمعاودته والسؤال عن صحته لاحظت على غير العادة الاذاعة وهي تتلو القرآن وما ان وصلت مرسى توتي ـ مكان قاعة الصداقة الحالي حتى اوقفت عربتي بحركة لا شعورية وانا استمع إلى النبأ المفزع الحزين بوفاة الامام الصديق

وكان حالي في تلك اللحظات كحال اهل السودان اجمعين الم وحرقه وحزن وبكاء وفقدان كبير لا يعوض ولن يعوض.

قال لي صديقي المرحوم حسن محجوب والدكتور محمد الحسن ابو بكر وعدد ممن حضروا لحظات الفراق الاخيرة ان الأمام الصديق اخرج بيده امبوبه الاكسوجين ونادى ابنه الصادق وبدأ يملي عليه وصيته وقد حاول الاطباء.والحاضرون عبثا ان يثنوه عن عزمه وقال لهم قولته المشهورة ما معناه:

«ليس منا من مات ولم تكن وصيته تحت وسادته» رحم الله الامام بقدر ما ضحى وأوفى.

انتفاضاتنا وثوراتنا التي لا تقل في محتواها ومضامينها ومعانيها واسلوبها وسلوكها عن الثورات والانتفاضات العالمية التي قامت في الهند والصين وروسيا ومصر والكونغو وكوبا وايران لكن حظنا العاثر وقدرنا المشئوم وهو ما لا حيلة ولا طاقة ولا يد لنا فيه - ان حواء في بلادنا لم تنجب بعد... زعيماً كغاندي او المهدي او قائدا كماو او كاسترو او جمال أو الخميني رغم كل ما قيل ويقال عنه.

.. نحن في السودان نملك عشرات القيادات والزعامات التي تخلقها الاحداث، ولكننا لا نملك مع الاسف الشديد في اعوامنا المائة الاخيرة قائدا واحدا يخلق الاحداث اذا استثنينا الامام محمد احمد المهدي، ان قيادة الثورات والشعوب الحرة لابد لها من مواصفات محددة ومعينة تأتي في مقدمتها وقمتها عناصر التجرد والتضحية والحسم والعنف الثوري العادل والبعد عن كل مظاهر الفساد والبذخ والاسراف في المأكل والملبس والمظهر. وحتى يتبين جيلنا الحديث المعاني الساميات لمواصفات وسلوك القيادة الثورية الرشيدة اروى لهم صورة حقيقية لمستها ووعيتها وعرفت ابعادها رغم كل خلاف سياسي ونظري فمن يدري لعل هذا يدفع واحدا من شبابنا ليخلق ويتيح لنفسه فرص الانقضاض لا ان تتيح وتخلقها له الظروف والصدف.

في مايو ١٩٦٤ صحبت الفريق الراحل ابراهيم عبود ولاول مرة بعد المصالحة - في رحلته إلى الشرق الاقصى واروبا، تلك الرحلة التي كانت بحق (رحلة الشؤم) فبجانب اننا فقدنا خلالها صداقة باكستان والهند والصين فاننا قد انهينا بها ايوب خان وبعد مغادرتنا دلهي إلى بكين بيومين مات نهرو وعند وصولنا لبيكن وقع شو ان لاي فكسرت ذراعه وقبل ان نصل لندن بيومين ايضا اصطدمت الملكة اليزابيث بعربتها واوشكت ان تموت.. هذه مجرد خواطر قصدت ان ارويها حتى ازيل بها جفاف الحديث عن السياسة وحديث الذكريات وربما تدخل في النفس شيئا ما..

.. اتيحت لي فرصة اللقاء بالزعيم والاب ماوتسي تونج كما يسميه اهله وهو على غير ما توقعت طويل القامة وممتلىء الجسد لا يحمل وجهه (الرخامي) اي نوع من التعبير مهما تحسمت وتأزمت المواقف وقد كان في زيه المعروف بالافرول (بزة الكاكي)



ماوسي تونج يصافح المؤلف

قلت في نفسي هذه فرصة قل ان يحلم بها صحفي لكنني وصلت إلى نتيجة مسبقة وقناعة لا رجعة فيها بانه من العبث ان اسائله او احاوره في السياسة فبحرها عريض وطويل وعميق وواسع خاضه من قبلي من هم أعلى مني مرتبة وشأنا وعالمية فخطرت لي اسئلة غريبة ما أظن ان احدا من قبل قد سبقني اليها كما لا أظن ان الزعيم الاب ماو كان يتوقعها او يتصورها :

سألته قائلا : كم بزة تمتلك ؟

اجاب : اثنتين !

قلت : وكم جوربا (شرابا) ؟

اجاب : اثنين .

سألته : وكم قميصاً ؟

اجاب : اثنين .

سألته : من يغسل ملابسك ؟ !

اجاب : زوجتي واحيانا اغسلها بنفسي .

سألته : هل تحب «الشبس» ؟ !

اجاب : لا لانها بدعة امريكية ولكني احب البطاطس .

سألته : هل لديك عربة ؟ !

اجاب: لا ولكني احب رياضة المشي ولدي «بسكليت».
سألته: كم كتابا الفت واي الموضوعات تحب؟!
اجاب: الفت كتبا لا اعرف عددها وبقدر ما كتبت للكبار كتبت للصغار.
الفت كتبا في السياسة والاقتصاد كما الفت كتبا عن الطبخ والموسيقى وحكاوى الاطفال وتربية الدواجن واصطياد السمك والسباحة و... و...
سألته كم كتابا تملك؟!
اجاب: لا ادري.شكرته كثيرا باسم الصحافة والشعب السوداني وعندما كان يصافحني مودعا قال لي المترجم:
«الاب ماو يقول انك صحفي شاطر جدا لانك لم تسأله ابدا عن السياسة.. فاجبته بانني احببت الزعيم الاب جدا لانه يحترم الزمن باجاباته القصيرة جدا جدا، والزمن كما قيل عنه كالسيف ان لم تقطعه قطعك ويقال ايضا انه من ذهب»
استرقت السمع بعد ذلك إلى ما دار بين الزعيم والسيد احمد خير وزير الخارجية آنذاك امد الله في عمره واعزه بتاريخه والمترجم دائما وكعادته يجلس القرفصاء او يقف مقوسا وراء المتحدثين.
قال السيد احمد خير لماو:
«نحن في السودان من المعجبين بتاريخك ونضالك وقد قرأت لك كما قرأ لك العديدون في بلادنا ملاحم وبطولات الشعب الصيني لكن الاستعمار كان يسجن كل من يعثر في يده او في بيته على مؤلفاتك!
سأله ماو: وكم من السودانيين سجن بسبب قراءة مؤلفاتي؟
اجاب احمد: والله حوالي عشرة أو عشرين.
قال ماو ومازال وجهه في تجمد كقطعة الرخام:
هل تعني ان سكان السودان عشرة او عشرين فقط؟
ضحك صامت ثم تبدل الحديث إلى دنيا السياسة وعالم المجاملة هذه صورة واحدة وصغيرة ومضغوطة من صور التضحية والفداء ونكران الذات للزعيم الذي يخلق الاحداث ويفرض الاحداث ويروض الاحداث لمصلحة شعبه وامته فالزعيم ماو تسي تونج بصرف النظر عن خلاف الكثيرين معه في النظريات والايدولوجيات الا ان الحقيقة التاريخية الباقية والخالدة انه رفع امته من مستنقعات الخطيئة ووحل الرذيلة ومن غابات الافيون والمخدرات ومن كل وجوه الضياع والتيه والفاقة والبطالة والانكماش الى أمة كلها نداوة رطبة، وحيوية فائرة، واخضرار زاهر، وانتاج وافر، وعطاء متدفق وتطلع بلا حدود وآمال بلا نهاية.
عندما واجهت الصين هجمة الذباب الشرسة المعروفة والتي ولدت الامراض وفتكت بالالاف قاد ماو تسي تونج حملة الابادة بنفسه وظل يقتل عشرات من الذباب يوميا

فتبعه الشعب وفي وقت وجيز صارت الصين بلا ذبابة لكن الطريقة التي ابتكرها ماو كان لها صدى عالميا واسعا حتى ان اميركياً معروفاً اصدر كتابا كبيرا يحكي فيه حملة الابادة اسماه (الصين بلا ذبابة) CHINA WIHT NO FLY .

وقف ماو مرة في حفل كبير كان خاصا بالمرأة الصينية فاشاد بجهادها وقال لها لقد ازف الوقت ان تخلع صغيراتنا الزي الكحلي الرسمي للمرأة الافرول وان يقبلن شيئاً فشيئاً على الحياة بان يرتدين بعض الملابس جميلة المنظر قليلة الزركشة تبرز الجمال والمحاسن ولكن في وقار وبساطة. ووقفت بعده رئيسة مجتمع المرأة الصيني لتشكره وتقول له في جملة قصيرة واحدة قاطعة:

«.. ليس بعد ايها الاب العزيز المحبوب».

.. لقد جعل ماو من الشعب الصيني الذي كان غارقا في الفوضى والانحلال شعبا منضبطا إلى ابعد حدود الانضباط ففي الساعات المبكرة من الصباح والمساء يؤدي الشعب كله حركات رياضية متعارف عليها على انغام الموسيقى التي تبثها المايكروفونات المعلقة في كل شارع وحارة وزقاق حتى العابرين والراجلين يتوقفون ان كانوا في الطرقات ليمارسوا هذه التمارين المقدسة لعشر دقائق مرتين يوميا.

.. ما حزنت وما أسفت على شيء عزيز وغال افتقدته في زحمة الحياة قدر حزني واسفي على كتابين من مؤلفات ماوتسي تونج اهداني اياهما بتوقيعه ولقد ظننت - وان بعض الظن اثم - ان صديقا اجنبيا كان وقتها سفيراً لبلاده في السودان ويبدو انه كان من المولعين والمعجبين بماو قد اخذهما لانه ما ان رأى صورتي مع ماو وتوقيعه في الكتابين حتى ابدى دهشة اثارتني وكان يردد:

«يا الهي.. انا على استعداد ان ادفع عمري كله مقابل لقاء ماو او صورة تجمعني به او كتاب يحمل توقيعه! ترى هل استولى هذا الصديق على الكتابين معا دون ان يدفع اي شيء من عمره؟

اين نحن شعوب العرب وقادة العرب من شعب وزعماء الصين... الوزراء والوكلاء الذين شاركوا في المفاوضات مع الوفد السوداني وعلى رأسهم «ليوشاوشي» وزير الخارجية كانوا يمتطون البسكليتات وقد دفعني حب الاستطلاع لاتابع وزير الخارجية بعدما ركب دراجته ذات الثلاث عجلات حتى اختفى وسط الزحام وبين الوف الدراجات وبالمناسبة العربات في الصين لا يستعملها الا الضيوف ورجال السلك الدبلوماسي!

.. ارجو الا اكون بهذا قد خرجت ولو قليلا عن خط المسار لكن العبرة في النهاية هي مسألة التوفيق في ربط الاحداث بعضها ببعض ولو في صورة متباعدة والمهم والاهم انها لا تشوه الصورة امام القارىء بدرجة تربكه أو تباعد بينه وبين مجرى الاحداث ومن هذا المنطلق اوجه دعوة صريحة لابنائي الصحفيين الذين يتربعون الآن في المقاعد

الامامية او ينتظرون دورهم في المقاعد الخلفية في عالمنا العربي العريض ادعوهم ان يحملوا هذه الصور المشرقة وهذه الاسئلة التي وجهتها للزعيم الصيني الراحل لقادتنا وزعمائنا ممن يتربعون في القمة او ممن ينتظرون في الظل فانا ومعي جمهرة القراء والمواطنين العرب كم نحن في شوق وتطلع لمعرفة الاجابات!

# انقلاب نوفمبر والصحافة

.. لم اسمع في الاقاصيص والاحاجي، ولم ار في المنام او الصحيان، ولم أقرأ في كتب التاريخ والاساطير والسياسة والقصة قديمها وحديثها ان حكومة ناصبت كاتبا وصحيفة مثلما فعلت حكومة نوفمبر معي ومع جريدة الصحافة ويبدو وانا احاول تفسير هذه الظاهرة الغريبة الشاذة ان مجرد علاقتي الاسرية بالانصار ـ وعلاقتي الشخصية القريبة واللصيقة بامامهم وزعيمهم السيد الصديق المهدي العدو رقم واحد لحكام نوفمبر هو السبب المباشر لهذه العداوة التي اخذت تنمو وتتطور وتتخذ اشكالا وصلت حدا عطلت فيه جريدة الصحافة اليومية سبعة عشر شهرا خلال ثلاثة أعوام لاسباب بعضها واضح بيّن وبعضها الآخر خفي مستتر.

.. ظلت كل أجهزة حكومة نوفمبر تطارد جريدة الصحافة وصاحبها وتقرأ كل ما تكتبه جريدة الصحافة حتى الشعر والقصص بعيون محمرة وعقول عدوانية حتى وصلت درجة قدمت فيها الصحافة للمحاكمة من اجل قصة غرامية فحكم عليها بالغرامة واعدام المعروضات وايقاف النشر.

.. في منتصف عام ١٩٦٣ عطلت الصحافة لاجل غير مسمى هذه المرة بسبب خبر انساني عن مظاهرات قام بها طلبة البرازيل أو الارجنتين لا اذكر فانحاز اليها في النهاية الجيش واحتلوا القصر الجمهوري واسقطوا الحكومة. نشر هذا الخبر صباح اليوم الذي سبقته في المساء ندوة عنيفة في جامعة الخرطوم التحم في نهايتها الطلبة مع قوات الأمن التي قست كثيرا على الطلبة واستعملت الغاز المسيل للدموع واعتقلت العديدين وعندما جاءنا اخطار وزارة الداخلية في المساء بألا نشير إلى احداث الشغب كما سموها التي وقعت في الجامعة لم يكن امامنا بد من الحيلة حتى ولو كانت في شكل إيحاء محاولة منا لاداء رسالتنا ولو بالطرق الملتوية ومن النوافذ الخلفية فكان ما اصابنا وامره جلل وكبير وخطير.

.. مضى شهر وشهران واربعة وستة ودورنا مظلمة وابوابنا مغلقة وصحفنا ممزقة واقلامنا مكسرة ومحابرنا جافة ثم خزينتنا لم يبق فيها فلس واحد وعجزنا بالطبع عن الايفاء بكل التزاماتنا فشردنا صحفيينا وعمالنا وانذرنا اصحاب المطابع عن طريق وكلائهم البنك الباركليز انذاك ثم هددونا عندما عجزنا عن سداد الاقساط الشهرية التي تراكمت مع الفوائد وذلك بالاستيلاء على المطابع وعلى الرغم من ان العالم كله اصبح في نظري آنذاك اصغر من ثقب الابرة الا ان العديد من الاصدقاء والاخوان كانوا قد ابدوا

استعدادهم للمساهمة في حل الضائقة وكان ان سافر الصديق الوفي المرحوم مبارك زروق المحامي واول وزير خارجية في السودان .. سافر الى انجلترا للتفاوض باسمي محاولا اثناء المالكين عن قرارهم بالاستيلاء على المطابع وجاء وهو يحمل فسحة اخرى من الوقت .

.. لم اكن اعلم بان الاقدار كانت تعد لي مفاجأة العمر وان الحلقات التي ضاقت وضاقت واستحكمت عما قريب ستنفرج وينقلب مسلسل الاحزان والدموع واليأس إلى فرح طويل وابتسامات حلوة ففي مساء يوم من ايام فبراير قصدت منزل الاخ اللواء هاشم الكمالي الذي تربطني به علاقة المصاهرة لأهنئه بمناسبة عودته من العمرة وهو يسكن في القصر الجمهوري وكانت المفاجأة بالنسبة لي كبيرة عندما وجدت الفريق الرئيس ابراهيم عبود يجلس بين حوالي خمسة اشخاص فتعمدت وانا في قمة حالات اليأس ان احيي كل الجالسين متجاهلا الرئيس عبود عمدا ومع سبق الاصرار مما وضع صاحب الدار ومن يجلسون حوله في حرج ما بعده حرج، وخيم صمت ثقيل موحش قطعه الرئيس عبود الذي لم يكن اقل حرجا وحيرة من الحاضرين فاستفسر في شيء من الدهشة وبصوت خافت موجها سؤاله إلى اللواء الكمالي صاحب الدار قائلا:

« ... يا كمالي اليس هذا هو عبدالرحمن مختار؟ وعندما اجابه بنعم قال لي الرئيس عبود معاتبا:

«طيب يا ابني ليه ما تسلم علي؟!».

فاجبته مسرعا ودون اكتراث:

«اسلم عليك ليه يا سيادة الرئيس وانت خربت بيتي وشردتني!؟ يبدو ان الرئيس الذي اندهش بالطبع كثيرا لسلوكي الغريب وصراخي وعدم اكتراثي به وبغيره فوقف مودعا وخطا اربع او خمس خطوات في الحديقة ثم ناداني بصوت عال:

فهرولت نحوه مسرعا ويبدو انه قصد الانفراد بي حتى يكون في مأمن وبعيدا عن العيون فمسكني من يدي قائلا:

«ليه يا ابني تعاملني كده.. انا عملتلِك حاجة لك وحشة!؟».

.. لم تكن هناك فرصة مواتية لي اكثر من هذا اللقاء الانفرادي اذ كان عبود خاصة في ايامه الاخيرة في حالة عزلة تامة وقد ضرب حوله سياج حديدي لن يخترق بسهولة بدليل انني حاولت لقاءه اكثر من عشر مرات وكتبت له اكثر من خمسة استئنافات لاعادة صدور الصحافة فلم افلح ولم اتلق مجرد الرد على محاولاتي ولقد تعرضت بجانب تعطيل الصحافة الى مطاردة ومراقبة بوليسية شديدة ومتواصلة ومحكمة حتى تليفوني ورسائلي الخاصة لم تسلم هي الاخرى فهل يمكن ان افوت مثل هذه الفرصة الثمينة التي لا تقدر بالنسبة إلي بذهب العالم كله خاصة وانا اعرف ان الرئيس عبود رجل طيب يخاف الله كثيرا ويخشى حسابه وعقابه؟

كان لابد لي ان اطرق الحديد وهو ساخن قلت له:

يا سيادة الرئيس لقد عطلت الصحافة وشردتني وشردت موظفي وعمالي ولقد حاولت كثيرا ان اقابلك ففشلت كما كتبت لك اكثر من خمسة استئنافات فلم ترد علي ولذلك لم يبق لي وانا في قمة مأساتي ونهاية احزاني وبعدما قضيت على مستقبلي ومستقبل صحيفتي وانا مازلت في ريعان الشباب والطموح .. لم يبق لي الا ان اشكوك إلى الله!؟

لم يستطع الرجل ان يتماسك فانتفض جسده كله كأنما لدغه ثعبان فرد علي وقد اوشك ان يضع يده في فمي:

لا يا ابني حرام عليك ارجوك الا تكرر هذا الدعاء فهو يقلقني ويعذبني واؤكد لك يا ابني انني لم اتسلم منك خطابا ولا استئنافا كما لم يخطرني احد بطلبك لمقابلتي... واختتم عبود حديثه بقنبلة شديدة الانفجار اوشكت معها ان افقد الوعي والاحساس والادراك لولا ان استجمعت قواي قليلا قليلا وانا اكاد اطير من الفرح والمفاجأة غير المتوقعة ولا مرتبة ولا كانت في الحسبان او الخيال قال لي عبود:

«اذهب يا ابني في هذه اللحظة واجمع موظفيك ومحرريك وعمالك وعاود صحافتك غدا... فقط لا تشكوني إلى الله.. هذا كثير لا يحتمله مسلم!»

.. كانت فرحتي كبيرة إلى درجة اوشكت معها ان اخرج دون ان أودع صاحب البيت ولا الجالسين لكنني تمالكت نفسي وعدت اليهم واخفيت عنهم كل ما دار بيني وبين الرئيس عبود حتى لا ينتشر الخبر قبل ان استغله استغلالا جيدا ومحكماً ومفيدا.

.. الساعة كانت تقارب الثامنة عندما انطلقت بعربتي كالمجنون متجها نحو داري فابلغت بالطبع زوجتي واهلي ثم ادرت قرص التلفون الى السيد وزير الداخلية اللواء محمد احمد عروة وتحدثت اليه من مركز القوة وطلبت اليه في لهجة لا تخلو من الغطرسة المفتعلة ان يجهز لي في الصباح الباكر خطاب معاودة الصدور لجريدة الصحافة دون ان ابوح له بمصدري مما جعله يرد في شبه انفعال بانني اصبت بالجنون ثم ضحكنا واكدت له بانه غدا سيرى.

... جاءني خطاب الداخلية في حوالي الساعة الحادية عشرة نهارا بعدما احدث دويا هائلا وحيرة واسئلة وعلامات تعجب كثيرة في اوساط المجلس الاعلى ومجلس الوزراء وكبار رجال الدولة وقد اقسم كبارهم بان جريدة الصحافة لن ترى النور وهم على قيد الحياة وصدرت الصحافة ورأت النور وبصدورها انفضت من حولي كلاب الصيد وازيلت الرقابة واختفت الدراجات النارية والعربات التي كانت تلازمني ملازمة الظل وتطاردني اينما ذهبت واينما وقفت ومن يومها دخلت سراديب حكومة نوفمبر وحطمت الحواجز وقطعت كل الاسلاك الشائكة التي كانت تقف بيننا فاصلا منيعا وسدا قويا واختصرت علاقاتي على القمة واصبحت خلال اسابيع صديقا قريبا من الرئيس عبود فانحنت امامي

كل الهامات وانفرجت وجوه الكثيرين عند لقائي بابتسامات عريضة بعضها صفراء، لكن كلها كانت باهتة تماماً كابتسامات مضيفات الطائرات والمطاعم.

.. اخذت العلاقة بيني وبين الرئيس عبود تقوى وتزدهر شيئاً فشيئاً حتى ان لقائي به وفي منزله الخاص كثيرا ما يزيد على المرة في الاسبوع نناقش فيها ادق الموضوعات ونبحث من خلالها بعض المشاكل خاصة المستعصية منها فاصبحت في وقت وجيز على علم تام بادق الأسرار داخل اجهزة الدولة ولاول مرة خلال الخمس سنوات من عمر حكم نوفمبر طاف الرئيس عبود خلالها نصف الكرة الارضية دون ان يصحبني معه مرة واحدة بسبب سوء العلاقات... لاول مرة يصحبني معه في الرحلة.

اليتيمة والمشؤومة في زياراته لباكستان والهند والصين وانجلترا دون غيري من الصحفيين الاخرين الذين اعتادوا فيما مضى ان يرافقوه في مثل هذه الرحلات وذلك باستثناء مراسل رويتر في الخرطوم الاستاذ محمد ميرغني رحمه الله وقد احدث هذا الاختيار ضجة في اوساط الصحافة والصحفيين كما احدث ضجة في اوساط الحكومة خاصة وقد جاء اختياري من قبل الرئيس عبود شخصيا لا من وزير الاعلام كما جرت العادة.

.. كان الوفد يتكون من اللواءين طلعت فريد وزير الاعلام وحسن بشير وزير الدفاع والقائد العام والمقبول الامين وزير التجارة واحمد خير وزير الخارجية وما أن اقعلت الطائرة بنصف ساعة حتى استدعاني الرئيس عبود إلى الغرفة الخاصة والمعدة له في الطائرة وتجاذب معي اطراف الحديث واخذت له صورا فريدة «بكاميرتي» الخاصة والتي انشر بعضها في هذا الكتاب لاول مرة..

.. اوشكت ان اصاب بالجنون عندما استدعاني احمد خير وزير الخارجية وطلب مني اعداد خطاب باللغتين الانجليزية والعربية الذي من المفترض ان يلقيه الرئيس عبود عند هبوطه في مطار كراتشي ومرد الجنون والحيرة هذه انني ما تصورت ابدا ان خطابا كهذا يعد في الطائرة وقبل ساعات من هبوطها اذ ان اعداد مثل هذه الخطابات يتطلب دراسة متأنية تفي بالغرض مما يتطلب الوقت والتروي والبحث والاستقصاء وربما الرجوع إلى خلفيات معينة. كنت على الاقل اعتقد قبل هذا التكليف ان وزارة الخارجية أنشئت خصيصا لمثل هذه الاغراض، وما كنت احسب ان الارتجال يصل إلى هذه الدرجة من العفوية والهامشية التي تصل حد التخبط والارتجال.

وبالفعل اعددت الخطاب انا وزميلي الاستاذ محمد ميرغني والقاه الرئيس عبود عند هبوطه ثم اعد له خطاب آخر القاه على مئات الالوف من البشر تجمعوا في حديقة البلدية واستقبلوه بحماس بالغ وتصفيق حاد وصراخ وتشنج خاصة عندما اعلن عبود بان كشمير جزء لا يتجزأ من باكستان وبالمناسبة فان الشعب الباكستاني يعتبر السودان القطر الثاني بعد مصر من ناحية الثقل العربي والاسلامي ـ على الاقل في ذلك الوقت.

.. في صبيحة اليوم الثاني عقدت الجلسة الاولى والاخيرة للمحادثات المشتركة بين

الجانبين الباكستاني برئاسة ايوب خان والسوداني برئاسة عبود فابتدر اللقاء الرئيس خان بكلمة ترحيب حارة اشاد فيها بخطاب عبود الذي الهب مشاعر الشعب الباكستاني وطلب ان يضمن كفقرة اساسية في البيان المشترك ودار حديث ونقاش طويلين من وزير الخارجية اراد ان يفصل فيه بين الخطاب الشعبي والمحادثات الرسمية فما كان من ايوب خان الا ان يفقد اعصابه ويخرج عن كل دوائر العقل والصبر التي يتطلبها مثل هذا الموقف فما كان منه الا ان صرخ في وجه وزير خارجيتنا قائلا:

ارجو ان تصمت ولا تقاطعني يا سيادة الوزير فانا رئيس اتحدث إلى رئيس وهنا اسقط في يد الرئيس عبود وتناول الحديث من حيث انتهى وزير خارجيته فما كان من ايوب خان الا ان قال له:

«يا سيادة الرئيس انا لا اريد ان اسجل في البيان المشترك اكثر من حقيقة واحدة قلتها بالامس فلما حاول عبود ان يسوف الامر ويتحايل كما فعل وزير خارجيته ضرب ايوب خان المائدة بقبضته القوية فهو رجل فارع الطول مفتول العضلات فانقلبت اواني القهوة والشاي رأسا على عقب وخرج من قاعة الاجتماعات في عصبية شديدة ما كان ينبغي ان تكون بتلك الصورة لكن من الناحية الاخرى فالرجل معذور إلى حد ما في مطلبه خاصة وقضية كشمير في تلك الظروف كانت قضية الساعة وكانت مسألة حياة أو موت.

..غضب عبود وخرج من القاعة بعصبية اقل وغادر وفد السودان باكستان دون ان يصدر اي بيان مشترك ففقدناها وفقدنا صداقتها وهبطنا في نيودلهي التي سبقتنا اليها تصريحات عبود المتلفزة والمذاعة في كشمير والتي اثارت بالطبع حفيظة الهند فكان الاستقبال فاترا وصل إلى حد الجمود ومكثنا فيها ثلاثة أيام ثقيلة جافة باهتة خلت من كل معاني الحيوية ناهيك عن الفرح والابتسام والحرارة.

## نهرو الحياة ... نهرو الموت

كل الذي خرجت به شخصيا من نيودلهي هو لقاء خاص مع نهرو اجريت فيه حديثا صحفيا لم يتجاوز العشر دقائق اذ كان نهرو يشعر بوعكة صحية كانت معالمها واضحة في لونه المصفر وجسده المنهك وصوته الخافت وانا الذي سمعته يهز المنابر والمحاور وينشي المستمعين بأدبه وشعره ولغته المتمكنة البارعة في الانجليزية فقد عده المستر وينستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني المعروف ثالث من يجيد الانجليزية بعده وبعد برنارد شو في العالم.

● قلت لنهرو من بين ما قلت:

.. سيادة الرئيس يشاع بأنك تمهد لابنتك انديرا لتخلفك في رئاسة الحزب والحكومة فأجابني بصوت خافت:

It is still too early for me to die!

«لم تحن ساعتي بعد فامامي فسحة طويلة من العمر...»

● غادرنا نيودلهي فقدناها وفقدنا صداقتها وبعد خمسة ايام مات نهرو ثم وصلنا بكين ففقدناها هي الاخرى عندما وضع الصينيون في محادثاتهم شرطا اساسيا وهاما هو ارسال الاسلحة لثوار انجولا عن طريقنا مقابل شراء جميع اقطان السودان ومساعدته في مختلف الميادين فرفض الجانب السوداني هذا الشرط وغادرنا بكين بعدما وقع شوان لاي وكسرت ذراعه وعندما وصلنا لندن سمعنا بحادث التصادم الذي وقع للملكة والذي اوشكت ان تموت بسببه ولم يكن هناك شيء يذكر في رحلة بريطانيا اذ كانت رحلة مجاملة لم نخرج منها الا ببعض المساعدات الطفيفة.

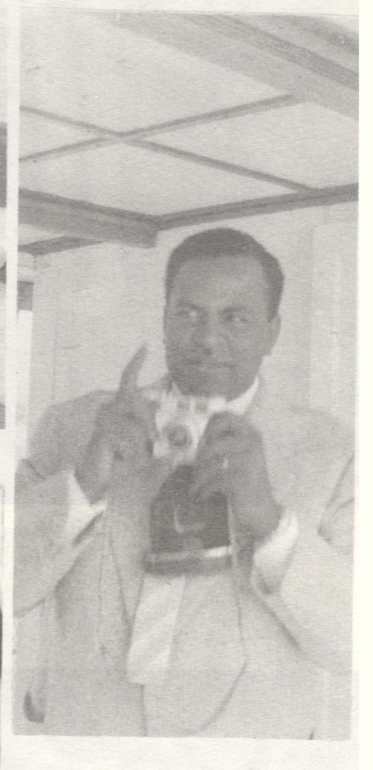
.. لم تدم صداقتي مع الفريق الرئيس ابراهيم عبود طويلاً.. ولم تعمر أكثر من بضعة اشهر ويبدو ان خلافاً بيننا تم في الوقت الضائع كما يبدو انني كنت شؤما على عبود وعهده وانا اقف بجانبه من شرفة القصر في لحظات عمره الاخيرة ونحن نستمع معا لهتافات الشارع الثائر بسقوطه وسقوط حكومته ثم مالبث ان دوى الرصاص وتطاير الدم والاحذية والدراجات في ساحة القصر والشهداء يتلوون ويصرخون ثم ما تلبث انفاسهم ان تسكت مرة واحدة وإلى الابد حتى بلغ عددهم اكثر من مائتي شهيد في ساحة القصر ولحظتها كان عبود يردد لعناته على ثلاثة من وزرائه وفي عينيه دموع ظلت تتساقط على خديه كحبات الارز وهو يضع من وقت لاخر كلتا يديه على رأسه كان يقول بصوت فيه حشرجة الموت:

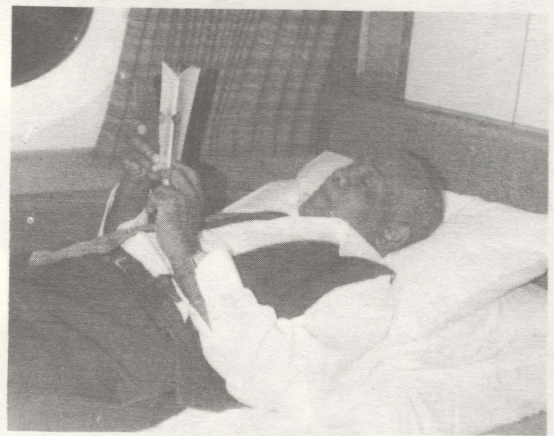
«ده انا كنت فاكر الشعب شبعان ومبسوط ومتغطي... ده انا كنت مغشوش.. الله يلعنك يا فلان... الله يلعنك يا فلان... الله يلعنك يا فلان! ثلاثة من وزرائه الكبار الذين كان بيدهم السلطان والصولجان لم يكتشف عبود خداعهم وغشهم الا بعد فوات الاوان».

وبعد يومين من التظاهرات والضحايا.. وبعد يومين من اصرار الشعب على اقتلاع حريته بأغصان النيم والاشجار، استشهد الحكم النوفمبري وأعلن عبود حل المجلس الاعلى ومجلس الوزراء ثم بعد ايام قليلة تنحى هو عن الحكم وأصبح بعد اشهر قليلة فردا عادياً يراه الناس في زنك الخضار وامام دكاكين البقالة وطلمبات البنزين وبيوت المآتم.

# لغة الكاميرا

المؤلف يلتقط صورتين نادرتين للفريق ابراهيم عبود رئيس حكومة نوفمبر وهو في الطائرة في رحلته المشؤومة يقرأ القرآن ثم يبتسم في غرفته الخاصة بالطائرة .









آخر اللحظات

في القصر الجمهوري ومع دوي المدافع الرشاشة في ساحة القصر عبود يقول آخر كلماته في ثورة اكتوبر وفي الصورة اللواء عوض عبدالرحمن رئيس برلمانه وأمين زيدان وكيل وزارة الاعلام وفي اقصى اليسار المؤلف .

عبود وعلى يمينه المؤلف في حفل شاي بقصر بكنجهام



نهرو الحياة ... نهرو الموت



شوان لاي رئيس وزراء الصين يتبادل الانخاب مع المؤلف وفي اقصى اليسار أحمد خير وزير الخارجية

# ﴿ الفصل الثالث عشر ﴾

## ثورة اكتوبر ١٩٦٤

- بيانات القادة والزعماء
- ماذا دار في أخطر اجتماع لرؤساء تحرير الصحف .
- بعد صدور عدد «الصحافة» السري :
صدرت الأوامر بتصفيتي وشمعت دار الصحافة
- عبدالخالق محجوب واحمد سليمان وقصص وحكايات .



وهكذا اندلعت ثورة أكتوبر ١٩٦٤



ألقنابل المسيلة للدموع في جامعة الخرطوم

في نحو الساعة التاسعة من ليل الاربعاء ٢٤ اكتوبر ١٩٦٤ كان اتحاد طلبة الجامعة يعقد اجتماعا في داخلية عطبرة لبحث مسألة الجنوب عندما أمرهم البوليس بفض الاجتماع فلم يفضوه .. اقتحم البوليس الندوة وطوق المكان بالسلك الشائك والقى بعد ذلك القنابل المسيلة للدموع فهرع الطلبة إلى حجراتهم ثم عادوا ووقع بينهم وبين البوليس صدام استخدم فيه الطلبة الحجارة والزجاج الفارغ واستخدم البوليس القنابل المسيلة للدموع مرات ومرات.

استمر هذا الصدام نحوا من ساعة ثم انذر الضابط المرافق للبوليس الطلبة بانه سيستخدم الرصاص ان لم ينفذوا التعليمات بعدها أمر باطلاق النار واستمر الضرب بعض الوقت .. قتل الطالب احمد قرشي وجرح اخرون جراحا متفاوتة واعلن رسميا ان عدد المصابين من رجال البوليس كان ثمانية وثلاثين ولكن لم يحجزوا احدا منهم بالمستشفى.

تأخر نقل الطلبة المصابين إلى المستشفى لان البوليس كان قد اقفل الابواب ومنع دخول الاسعاف الا بعد مضي بعض الوقت واعتقل اربعة اطباء كانوا في طريقهم لانقاذ الطلبة ... اجرت سلطات المستشفى ليلة الحادث عمليات سريعة للمصابين وصفت حالة بعضهم ليلة الحادث بالخطورة. نقل لاحد المصابين كميات كبيرة من الدم اشترك في عمليات العلاج كل الاطباء بالمستشفيات الحكومية والاطباء الخصوصيين.

كانت سلطات الجامعة قد اغلقت نادي الطلبة تفاديا لعقد الندوات وعندما علم الناس ليلاً بوقوع الاصطدامات خفت جموعهم إلى المستشفى ... الطلبة الذين اصيبوا في الحادث المشئوم هم:

بابكر حسن ـ خالد نجم الدين ـ حسن الوديع السنوسي ـ عثمان البلك ـ خالد الحاج ـ على ابراهيم احمد محمود ـ حمزة عبدالله كنة ـ احمد البشري ـ محمد الحسن محمد سعيد ـ جلال الدين عباس ـ النور عبدالخالق ـ يس الدسوقي ـ محمد فائق يوسف ـ محمد الفاتح الطريفي ـ الامين عبدالله ـ حمد احمد المهدي ـ عبد العزيز محمد فرج ـ حسن احمد عجبنا ـ سليمان عبدالواحد ـ والانسة سهام مصطفى الصاوي .

وكان ان اصدر وزير الداخلية امس ١٩٦٤/١٠/٢٤ حظرا بمنع التجول في المدن الثلاث من الساعة السادسة مساء حتى الخامسة من صباح اليوم التالي وكان الوزير قد اصدر امرا منذ صباح الامس بمنع التجمهر لاكثر من عشرة اشخاص الا فيما يتعلق بالعبادات والافراح وما إليها ... في الخرطوم تظاهر القضاة والمحامون واساتذة الجامعة والمعهد الفني وبعض موظفي مكتب النائب العام وسيروا موكبا ليحمل عريضة منهم الى القصر الجمهوري حول الموقف وقد تجمهروا أمام الهيئة القضائية الامر الذي دعا رجال البوليس لتطويق المكان فامره القاضي عبدالمجيد امام بالانصراف ثم جاءت قوات الجيش ومنعت الموكب من التحرك واطلقت بعض الطلقات النارية في الهواء .

جرت على اثر ذلك مشاورات اشترك فيها رئيس القضاء وانتهت إلى ارسال مندوبين من السادة عبدالمجيد امام من الهيئة القضائية وعابدين اسماعيل من نقابة المحامين والدكتور طه محمد خير من اساتذة الجامعة والدكتور طه بعشر من الاطباء وممثلين لاساتذة المعهد الفني ومكتب النائب العام لتقديم العريضة . اعلن هذا الحل عن مبدأ الاضراب السياسي العام السيد عابدين اسماعيل.علمت الصحافة ان مجلس الوزراء عقد اجتماعا ظهر الامس لاستعراض الموقف وانه سيجتمع اليوم ايضا ... قامت مظاهرة على اثر انفضاض موكب الامس فرقها البوليس باستخدام الغازات .

## بيانات القادة

.. ملأت المنشورات الشوارع وهي تدين التسلط والقهر واستطاعت جريدة الصحافة ان تجمع كل هذه البيانات من مختلف الاتجاهات الفاعلة وتنشرها في عددها السري المعروف وهي كما يلي:

**بيان الميرغني:**

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد علمنا بالتفصيل ما حدث في العاصمة منذ يوم الاربعاء الماضي وتتبعنا باهتمام ما يجري ويحدث وانه ليبعث في نفوسنا الاسى والاسف الشديدين ما حدث ولا شك ان هذا امر غير مرض وغير باعث على الاطمئنان ولابد من وضع حل لكل ما يثير الشعب ولهذا كله نناشد الحكومة ان تعمل على وحدة البلاد وان تحافظ على شعور الشعب وتحقق اهدافه وعلى الشعب ان يهدأ وان يستجيب لنداء العقلاء منه حتى تصون البلاد سمعتها لايجاد نظام ديمقراطي سليم يتفق مع ديننا وتقاليدنا وتراث بلادنا لحفظ وحدة البلاد واستقرارها وتقدمها والله ولي التوفيق.

**مذكرة رجال القضاء:**

إلى صاحب المعالي رئيس المجلس الاعلى للقوات المسلحة ورئيس مجلس الوزراء:

نحن رجال القضاء والمحامين نشعر ان مسئوليتنا نحو العدالة وسيادة القانون في هذا البلد تفرض علينا ان نقرر ان حادث الاعتداء الذي وقع على طلبة جامعة الخرطوم امر يهتز له ضمير العدالة ويتنافى والقواعد القانونية الواجب احترامها من قبل الحكومة قبل الافراد وذلك لأن حرم الجامعة محراب مقدس وداخليات الطلبة التي وقع الاعتداء عليهم في داخلها وسالت دماؤهم في ارضها هي مكان خاص لا يمكن القول بان ما دار فيه امر فيه اخلال بالامن العام او الطمأنينة لان هذا الوصف لا ينطبق الا على عمل يتم في مكان عام وفوق ذلك ان تصرف البوليس لم يصدر بناء على امر من قاض كما يقضي بذلك القانون وعليه فاننا نطالب باجراء تحقيق فورا بواسطة قاض في الحوادث المؤسفة التي راح ضحيتها طالب بريء واصيب اخرون فيها بجراح خطيرة في ظروف قد ترقى إلى الاتهام بجريمة القتل العمد كما نطالب بتقديم من تثبت عليه المسئولية إلى المحاكمة الجنائية سواء كان عضوا في المجلس الاعلى او وزيرا كبيرا او صغيرا وسواء اكانت

المسئولية نتيجة عمل ايجابي ام سلبي وبغير ذلك فلن يهدأ لنا بال ولن نستطيع ان ندوس على ضمائرنا ونسكت على هذا الامر الخطير ... رجال القضاء والمحامون.

**مذكرة المهدي والازهري:**

... بعث الامام الهادي المهدي بمذكرة إلى صاحب المعالي الرئيس ابراهيم عبود يستعرض فيها الاحداث ويوضح رأيه في الموقف الحالي وقد تقدم بمطالب سياسية محدودة هذا وقد بعث السيد اسماعيل الازهري ببرقية حول الموقف.

**بيان اساتذة الجامعة:**

بما ان سلطات البوليس قد انتهكت حرمات الجامعة فتصدت لندوة عامة عقدها الطلبة يوم السبت العاشر من اكتوبر ١٩٦٤ عنوانها التقييم العلمي لمسألة الجنوبّ ثم مدت تلك السلطات يدها للجنة اتحاد الطلبة فاودعتها محابس التحفظ.

وبما انها عادت يوم الاربعاء الحادي والعشرين من اكتوبر فتصدت لاجتماع داخلي بحت لجمعية الطلاب العمومية اقتصر على طلاب الجامعة شهودا ومتحدثين وعقد في فناء مساكن الطلبة بقصد تحديد الراي في مسألة الجنوب فاعتدى جنود البوليس على الطلاب العزل بعدد هائل من القنابل المسيلة للدموع ثم امطروها بالرصاص الوابل فاردوا بعضهم قتلى وتركوا البعض الاخر بين الحياة والموت ولم يقتصروا على هذه الفعلة الشنيعة بل تعقبوا الطلبة في حجرهم وقادوهم معتقلين الى الاعتقال بل بلغت بهم الجرأة ان اعتقلوا بعض اساتذة الجامعة وانتهت بهم الوحشية إلى تعويق مجهودات الاساتذة والاطباء لاسعاف الجرحى ونقلهم إلى المستشفى.

وبما انها تماديا في الكيد للجامعة واستخفافا لشأنها تصدت لموكب نعش الطالب الشهيد فحظرت نقلة للجامعة ووقف جنودها متهيئين لامتهان كرامة النعش ولابادة الاساتذة والطلبة وغيرهم من المشيعين فقد رأينا نحن الاساتذة ان هذه الجامعة فقدت مقوماتها واصبحت صورة بلا معنى وبناء بلا كيان فاذا كانت الجامعة موطنا لحرية الفكر ومنارا للعلم المتجرد فقد خنقت في هذه الجامعة حرية الفكر ودنست فيها قداسة العلم وحكمت فيها سياسة رعناء هوجاء قوامها القهر والبطش والارهاب واذا كانت الجامعة من صميم هذا الشعب تخدمه وتقوم على شئونه فقد اصبحت جامعتنا اليوم عاجزة عن ادنى مشاركة في حل المسائل القومية في هذا البلد الذي تستصرخنا حاجاته الضائعة وقضاياه التي افلست فيها سياسة الحكام واذا كان للجامعة حرم جدير بالتقديس واذا كان لطلبة العلم وحملته حق في التوقير والاكرام فقد انتهك اليوم حرم الجامعة واصبحت مسرحا لاراقة الدماء وديست قداسة العلم في اهله واصبحوا عرضة للتقتيل والتنكيل وبما ان الجامعة من جراء ذلك لم تعد موطنا للعلم ولا مجال لبحث

قضايا الامة السودانية ولم يبق لها حرم مكرم ولا اهل يوقورن وبما اننا ايقنا انه لن تقوم لاستقلال الجامعة قائمة في ظل الاوضاع الحاضرة فقد قررنا نحن اساتذة جامعة الخرطوم السودانيين الموقعين ادناه أن نطهر ايدينا منها بالتوقف عن العمل فورا والاستقالة عن وظائفنا فيها استقالة غير مشروطة ولا موقوتة الا بزوال هذا الوضع المظلم وقيام نظام دستوري يعرف للجامعة استقلالها ويقدر اهلها حق قدرهم..

بيان رؤساء الصحف:

تجتاز بلادنا الان فترة عصيبة لم تعرف لها نظيراً في تاريخها الحديث وذلك بسبب الاحداث العنيفة التي وقعت وتلاحقت من يوم الاربعاء الماضي مما هز ضمير الامة هزا عنيفا وعرضها ويعرضها إلى الخطر الجسيم ونود نحن رؤساء تحرير الصحف الموقعين على هذا البيان ان نناشد أمتنا حكومة وشعبا ان تستخدم الحكمة في هذا الموقف العصيب وان تعمل لاجتياز الخطر ولصيانة مكاسب البلاد وتأمينها بكافة السبل والوسائل.

وبعد فانه لمن دواعي اسفنا العميق الا تتمكن الصحافة السودانية في هذا الوقت العصيب من اداء واجبها بنشر الحقائق والتعليق عليها بسبب الحظر المتوالي بنشر الحقائق ففي ليل الاربعاء الماضي حين وقع الصدام المشئوم بين طلبة الجامعة ورجال البوليس مما ادى إلى مقتل احد طلبة الجامعة واصابة اخرين بجراح امرت السلطات الصحف بالا تنشر عن الحادث شيئا والا تعلق عليه وقد ترتب على هذا الموقف ان احتجبت الحقيقة وانتشرت الاشاعة وان التهبت العاطفة وانحبست الحكمة.

ان رؤساء تحرير الصحف ليستنكرون اشد الاستنكار اطلاق البوليس للرصاص على الطلبة ويعتقدون ان الموقف كان يمكن معالجته دون حاجة إلى اطلاق النار لهذا نطالب المسئولين باجراء تحقيق قضائي في مستوى عال لتحديد المسئولية ومعاقبة المتسببين في هذا الموقف ايا كانوا.

وفي يوم الخميس خرج الاساتذة والطلبة ومعهم جمع غفير في موكب كبير لتشييع جثمان الطالب الشهيد ولم يكن في وسع الصحف ان تنشر شيئا عن ذلك الموكب او تعلق عليه بسبب الحظر.. واصدرت وزارة الداخلية بيانين حول الحادث ارفقت بهما خطابا يحذر الصحف من التعليق وبذلك جردت الصحافة من كل ما تستطيع به ان ترتفع الى مستوى الاحداث..

ومنذ ذلك الوقت وقعت مظاهرات متصلة في شوارع العاصمة جنح بعضها الى اعمال التخريب والفوضى وإلى اشعال الحرائق في عدد من الاماكن والممتلكات العامة والخاصة ونحن اذ نحترم حق المواطنين في التعبير عن مشاعرهم نستنكر اعمال الفوضى التي لجأ اليها بعضهم ونرى فيما يتهدد هذا البلد وسمعته وسلامته ومستقبله لخطر عظيم.

وفي مساء الخميس الثاني والعشرين من اكتوبر ١٩٦٤ دعا وزير الداخلية بالنيابة لمؤتمر صحفي في وزارة الاستعلامات والعمل ادلى ببيان عن الحوادث واستمع الى اراء الصحفيين الذين اكدوا في ذلك المؤتمر اهمية رفع الحظر عن النشر ويؤسفنا ان الاذاعة السودانية وهي تذيع شريطا مسجلا لما دار في المؤتمر ان بترت الجزء الخاص بنقاش الصحفيين فلم تذعه على الناس.

وتوالت الاحداث حتى صباح الامس حين خرج القضاة والمحامون واساتذة الجامعة وغيرهم من المواطنين في موكب لتقديم مذكرة للمسئولين حول الموقف فاعترضتهم قوات الامن وهددتهم باطلاق الرصاص ولو لم تسد الحكمة في النهاية لتطور الموقف الى ما لا تحمد عقباه..

ان الصحافة السودانية لا تستطيع ان تؤدي واجبها في خدمة الامة وهي مكبلة بالقيود في مجتمع تنعدم فيه الحريات العامة وهي بذلك تأبى لنفسها هذا الوضع وتصر على تأدية رسالتها كاملة...

بشير محمد سعيد
الايام
عبدالرحمن مختار
الصحافة

عابدين محجوب
الرأي العام

فضل بشير
السودان الجديد

محمد مكي
الصباح الجديد

العدد السري:

وبما ان جريدة الصحافة هي الصحيفة السودانية الوحيدة التي التزمت بالعهد والميثاق فاصدرت عددها السري المعروف وضمنته جميع هذه البيانات ضد تعليمات الحكومة فقد كتب رئيس التحرير تحت عنوان عزيزي القارىء يقول:

شهدت البلاد محنة قاسية وتهددها خطر مبين كان من الممكن تفاديه ان تغلبت الحكمة على الاثارة والعقل على العاطفة.. ولو اتخذت الحكومة نفس السياسة التي

اتخذتها في ندوة الجامعة السابقة التي عقدت في العاشر من هذا الشهر لما انطلق الرصاص ولما سالت دماء ابنائنا من الطلبة ورجال البوليس، ولما عمت الفوضى واضطربت الاحوال، ولكن يبدو ان الذي أصدر امر اطلاق الرصاص مهما كان وصفه لم يكن بعيد النظر ولم يضع في الحسبان ان الطلقات التي مزقت سكون الشاطىء الوديع وفناء الجامعة الاخضر المزدهر ستكون نتائجها اكبر محنة واعنف هزة تواجهها البلاد في تاريخها الحديث.

ان الصحافة السودانية ظلت تجاري الاحداث بلا توقف ولكنها لم تستطع نقل الحقائق بسبب حظر الحكومة الذي سلب حقوق الصحفيين في ان يعالجوا الامور بهمة وينشروا الانباء للشعب بلا اثارة تدفعهم في ذلك مصالح عليا على رأسها وحدة البلاد وتجنبها الويلات.

والحكومة لابد الان ادركت خطورة حبس انفاس الحقائق على المواطنين وبسط المشاكل التي يعانونها وما يترتب على ذلك من مخاطر فلو اعطيت للصحافة حرية النشر للحقائق في اي ميدان وفي أية بقعة من بلادنا الحبيبة لما وجدت الاشاعات الضارة طريقها إلى صفوف الشعب ولما صدرت الصحافة السودانية يوم الخميس الماضي بناء على اوامر الحظر وهي تحمل في صفحاتها الاولى نبأ رواد الفضاء السوفيت وديون اتحاد كرة القدم ومنظمة اليونسكو وتحت ارجلها محنة هزت البلاد من اقصاها إلى اقصاها.. ان الحكومة لو اتاحت للصحف في ذلك الوقت فرصة تقدير الموقف وعظم المسئولية على رجال الصحافة وهم الحريصون على بلادهم... لو اتيحت لهم فرص النشر لنشروا للناس في الصباح الحقائق المجردة ولما عزل الصحفيون من مجتمع وهبوه انفسهم واقاموا صحفهم من اجله... اننا لسنا خوارج ولا نرتضي ان نعزل عن شعب نحن منه واليه وعن ارض انجبتنا وعلمتنا واحسنت صنعنا..

اننا معشر الصحافيين حريصون كل الحرص ان نجنب بلادنا الويلات وان نجنب شعبنا الهزات (والصحافة) التي اتشرف برئاسة تحريرها لم تعتد يوما على هيئة، ولم تحتقر يوما رأي مواطن ولم تحد عن مسئولياتها تجاه الشعب فقد صدرت لتبني وتعمر وتدفع بالبلاد والمواطنين الى اعلى عليين وتاريخها خير دليل وشهيد، ان الحكومة بحرمانها للصحف من نشر الانباء قد عرضت صحافة البلاد إلى محنة وباعدت بينها وبين الناس وبين الناس والحكومة ولست ادري ان كان ذلك سببه عدم ثقة وتقليل قدراتنا، غير انني أؤكد بان سياسة الحظر التي فرضتها الحكومة على الصحف لم تكن سياسة موفقة وبعيدة النظر.

ان الصحافة السودانية كما استنكرت في بيانها اعمال التخريب والحرق والاعتداء على الممتلكات ايضا تستنكر الوسائل التي اتخذت لمعالجة الموقف مما ادى إلى تفاقمه وتعريض مكاسبنا الوطنية لمخاطر لا يعلم مداها الا الله..

(والصحافة) تناشد من هذا المنبر كافة المواطنين بان يقمعوا اي حركة تخريبية وان لا يسمحوا بالاعتداء على الناس والممتلكات وهي مهمة لا اظن اي مواطن امين يحب بلاده ومواطنيه يتردد في ان يؤديها حتى تزول في غد قريب هذه المحنة التي نسأل الله ان يجعل نهايتها خيرا لهذا الوطن والمواطنين..

اللهم اننا نسألك من هذا المنبر المقدس باسم الملايين من ابنائنا واخواننا في الوطن، باسم الطلبة والمزارعين باسم العمال والموظفين باسم رجال الأمن والجيش باسم كل من أنجبته هذه البلاد الطاهرة.. باسم ماضينا التليد باسم آبائنا وأجدادنا الذين وهبوا دماءهم الحارة في سبيل الوطن المفدى باسم هؤلاء جميعا اسألك اللهم ان تنصر الحق على الباطل وتعيد لسوداني الحبيب امنه وسلامته حتى يسير في طليعة ركب الشعوب الزاحف من اجل عالم يسوده الامن والسلام والخير والعدالة والحرية..

**بيان الحكومة**
**في مؤتمر صحفي:**

عقد بوزارة الاستعلامات والعمل في السادسة والنصف من مساء الخميس الماضي مؤتمر صحفي حضره معالي اللواء احمد رضا فريد وزير الداخلية بالنيابة ومعالي اللواء محمد نصر عثمان وزير الاستعلامات والعمل ومعالي السيد احمد خير وزير الخارجية، والسيد حسن علي عبدالله الوكيل الدائم لوزارة الداخلية والسيد أحمد عبدالله ابارو نائب مدير البوليس لشئون الأمن والقى معالي اللواء رضا فريد وزير الداخلية بالنيابة البيان التالي:

منذ ان بدأت الاحداث الاخيرة في الجنوب ظهرت على الصحف الحائطية التي تحررها الهيئات الطلابية المختلفة مقالات تكيل اللوم على الحكومة الحاضرة وتنعتها بأبشع الالفاظ الشيء الذي يوقع كاتبي تلك الصحف والهيئات التي تنتمي اليها تحت طائلة القانون الا ان الحكومة رأت ان تصفح عن كل هذا في رحابة صدر طالما ان هذه الأحداث لم تتعد دائرة الطلبة وفي محيط الجامعة. ان هذا التسامح قد فسر خطأ من جانب الطلبة وظنوه تساهلا مما جعلهم يتمادون في ارتكاب خرق القانون الذي لا يميز بين افراد الشعب ومكان ارتكاب الجريمة سواء كان داخل الجامعة او في اي مكان اخر الا ان اجراء لم يتخذ امعانا في التسامح..

وفي شهر سبتمبر ١٩٦٤ كونت الحكومة لجنة شئون الجنوب التي تعرفون عن صلاحيتها الكثير وفي نفس الوقت تغاضت الحكومة عن القوانين التي تمنع الاجتماعات وسمحت بقيام ندوات لمناقشة موضوع الجنوب ايمانا بحيويته وضرورة اشراك المواطنين بالادلاء بآرائهم وفي اليوم التاسع من سبتمبر عقد طلبة جامعة الخرطوم اول ندوة لهم دعوا اليها مختلف الطبقات وخرجوا بالندوة عن محيط الجامعة إلى المحيط العام حدث

ان خرج بعض المتحدثين من محترفي السياسة والمبتورين من أصل الموضوع وتعرضوا لاشياء لا تمس موضوع الجنوب لا من قريب او بعيد وقد وجد بعضهم في هذه الندوة فرصة لمهاجمة الحكومة وارتكاب مخالفات صريحة للقانون الا ان الاجراءات الجنائية لم تتخذ واكتفى المسئولون بايقاف هذه الندوات التي اتخذها بعضهم وسيلة لمهاجمة الحكومة ولخرق قوانين البلاد الشيء الذي يعرض الامن والاستقرار الى الخطر..

رغم هذا التسامح من جانب المسئولين لم يقف طلبة جامعة الخرطوم عند حدهم بل تعدوه ونادوا بقيام ندوة في يوم ٦٤/١٠/١٠ ولما كانت ادارة الجامعة على علم بمنع قيام الندوات كهذه قفلت دار الاتحاد وتحول الطلبة إلى المكان الواقع بين داخليتي كسلا والقاش لاحياء ندوتهم الا ان البوليس منعهم واستجابوا للمنع... وفي تاريخ لاحق تقدم عشرة من لجنة اتحاد الطلبة بعريضة الى وزير الداخلية كانت كلها هجوم سافر وتحد مرير للسلطات واعتقلت السلطة مقدمي العريضة تحفظا ولم تقدمهم الى محاكمة مع العلم ان المخالفة القانونية واضحة والبينة كافية لادانتهم ومن ذلك التاريخ خرجت صحف الحائط للمعسكرات والاتجاهات المختلفة ترتكب يوما بعد يوم مخالفات قانونية واضحة وظلت السلطات المسئولة تراقب عن قرب وفي صبر هذه الاعمال الصبيانية لعل الطلبة يعودون الى رشدهم ولكن شيئا من هذا لم يحدث بل بدأ الطلبة في التحضير لتحدي الحكومة والقانون وكانت السلطات تعلم بأنهم قد اعدوا عدتهم للاصطدام بقوات البوليس لمنعها من تأدية واجبها وهو حماية القانون ففي يوم امس الاول دعا الطلبة لاقامة ليلة لدراسة مشكلة الجنوب علما منهم بان قيام مثل تلك الليلة يمنعه القانون فلما بدأ الطلبة خاطبهم الضابط المسئول بان يتفرقوا وانذرهم فلم يزدهم انذاره الا تحديا وتحدثوا عن تكميم الافواه وتقييد الحريات وقد ذكروا بانه آن للقيد ان ينكسر وعند اصرارهم اضطر البوليس إلى القوة برمي عدد من قنابل الغاز المسيل للدموع فجرى الطلبة الى داخلياتهم ثم خرجوا مرة اخرى حيث بدأوا في رمي رجال البوليس بالحجارة كما التحم بعضهم مع البوليس مستعملين العصي الغليظة وفروع الاشجار والزجاج الفارغ مما اوقع الاذى بما يزيد عن ثمانية وثلاثين رجل بوليس وكان اصرار الطلبة واضحا في تحديهم لقوات الأمن وتأكيدا لما ذكروه وهو دحر رجال البوليس مهما كلفهم الامر، ظل جماعة من البوليس يحاولون لفترة ساعة كاملة تفريق جماعة كبيرة من الطلبة مسلحة بالعصي الغليظة والحجارة والزجاج مستعملين معهم اقل ما يمكن من قوة الا ان الطلبة استغلوا هذا الموقف واحكموا الحلقة على هذه الفئة من الرجال الذين وجدوا انفسهم في موقف صعب الشيء الذي دعا الضابط المسئول وهو برتبة حكمدار ان ينذر الطلبة للوقوف عند حدهم وان يوقفوا الحاق الاذى برجال البوليس وقد كرر الضابط عبارات الانذار بانه سوف يأمر باطلاق النار... الشيء الذي تسبب في موت طالب وايقاع الاذى بالاخرين حجز بعضهم بالمستشفى. ظل الطلبة

طيلة ليلتهم يتربصون برجال الأمن الذين واجبهم حفظ الامن ورمي عرباتهم بالحجارة كما تعرضت عربات بعض المواطنين للتكسير من جراء هذه الاعمال الطائشة ومنذ الصباح بدأت جموع الطلبة تزحم ساحة المستشفى بالخرطوم متذرعين بتشييع الطالب المتوفى ولما سمحوا لهم بذلك استغلوا الموقف وخرجوا في مظاهرات عدائية لم تقف عند حد الهتافات بل تعدتها اعمال الضرر بممتلكات المواطنين كما احرقوا بعض عربات الحكومة التي كانت بسبب او اخر بدون حراسة وامتدت مظاهرات الطلبة وتفرعت إلى العديد من الشوارع والطرقات وكان رائد الطلبة في كل مظاهراتهم اظهار العنف واعمال التخريب ان قوات الامن لن تسكت عن هذا التحدي للقانون ولن تقف مكتوفة الايدي.

● قال وزير الداخلية في المؤتمر الصحفي ان قوات الامن لن تسكت ولن تتهاون وستتخذ من الاجراءات ما يضمن سلامة المواطنين وممتلكات الحكومة...

● في سؤال لوكيل الداخلية بان الداخليات جزء من الحرم الجامعي وليس للبوليس الحق في دخولها اجاب الوكيل ليس هناك الزام بعدم الدخول اذا كان هناك اخلال بالامن وان البوليس له الحق في التدخل طالما هناك جرائم واخلال بالقانون.

**الداخليات ليست حرما جامعيا:**

في سؤال للصحافة لوكيل الداخلية جاء فيه: المعروف ان البوليس لا يدخل حرم الجامعة عندما يعتصم بها الطلبة بلع يظل مرابطا خارج سور الجامعة حتى تعلن سلطات الجامعة اغلاقها فتصبح مباني حكومية وتزول عنها حماية العلم. ولكن البوليس اخترق حرم الجامعة وضرب الطلبة اجاب وكيل الداخلية بان البوليس قد دخل الداخليات وهي ليست ضمن الحرم الجامعي...

● قال الاستاذ عبدالرحمن مختار رئيس تحرير الصحافة في المؤتمر الصحفي:

.. لو رفعتم عنا الحظر لنشرنا انباء حوادث الجامعة بطريقة أقل استفزازاً من البيان الذي اصدرته الحكومة صباح الخميس.

... وقال ايضا ان الحكومة لا تعطي اعتبارا للصحافة ولا للصحفيين مما عزل الصحف تماما عن المجتمع وفي ذلك كل التحقير للصحافة والصحفيين.

.. وقال ايضا ان رئيس التحرير يستطيع في كل وقت ان يقرر الاحداث وينشر الحقائق واضعاً في الاعتبار الاول مصلحة البلاد.

# الثورة والصحف

- أسرار كبيرة في اجتماع رؤساء التحرير :
- قررنا الصدور بالاجماع ببيانات الهيئات والوقوف مع الشعب ولكن!
- الصحف سمحت للداخلية بقراءة البروفات ووقعت على التعهد فلم تصدر...
- الأيام لم تصادر ولكنها احتجبت دون أن تخطر زميلاتها للمشاركة...

في منتصف السبت ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٦٤ تعاهد رؤساء التحرير ان ينضموا إلى الصفوف الشعبية مستنكرين موقف الحكومة من طلبة الجامعة ومن فئات الشعب... ومستنكرين اطلاق الرصاص ومطالبين بانهاء الوضع... زملائي رؤساء التحرير الاساتذة بشير محمد سعيد عن الايام ومحجوب محمد صالح عن المورننج نيوز وفضل بشير عن السودان الجديد وعابدين محجوب عن الرأي العام ومحمد مكي عن الناس وحسين عثمان منصور عن الصباح الجديد وبابكر كرار عن الرسالة وعبدالرحمن مختار عن الصحافة تعاهد رؤساء التحرير ان يصدروا صحفهم اليومية كلها في صباح الاحد وهي تحمل بيان الصحفيين وبيان اساتذة الجامعة وبيان القضاة والمحامين وبيان الاطباء والزعماء ورجال الاحزاب... وتفرق الجمع باسم الله وباسم الشعب كل نحو دار صحيفته نتبادل المعلومات والانباء حتى منتصف الليل... وفي صباح الاحد لم تصدر صحيفة غير الصحافة.ماذا دار في اجتماع الصحفيين... وكيف واجهنا المحنة؟

لا اريد أن اكتب تعليقا او تقريظاً في موضوع حساس كهذا يتعلق بزملائي في المهنة ولا اريد ان افضل صحيفة على اخرى فقد كنا جميعا نعمل تحت ضغط عنيف ورقابة محكمة وتعليمات صارمة لم تكن وقفا على الصحف وحدها، وانما الشعب كله كان يعاني منها...

لا اريد شيئا عن ذلك ولكنني فقط اريد ان اسرد الحقائق والوقائع والطريقة التي اتبعناها في المناقشة ونحن نواجه محنتين المحنة الاولى هي التي كان يواجهها شعبنا امام الارهاب والكبت والرصاص والمحنة الثانية هي التي كنا نواجهها نحن أمام شعبنا من جهة ومن الحكومة من جهة اخرى...

انني سأسرد مجرد حقائق من حق المواطن والقارىء ان يعلمها ويتعرف عليها حتى لا تلتبس عليه الامور فيحكم على هدي المنطق والوقائع دون ان يظلم صحيفة او يثني على الاخرى بدون مبررات. في ليلة الاربعاء المشئومة ٢١/ اكتوبر سنة ١٩٦٤ وقبل ان اتسلم اعمالي بصفة رسمية في الصحافة حيث كنت ما زلت في طور النقاهة بعد رحلة

مرضية طويلة في الخارج ... في تلك الليلة اصطدمت قوات البوليس بطلبة جامعة الخرطوم يسبب ندوتهم التي عقدوها واستعمل في ذلك الاصطدام القنابل المسيلة للدموع والرصاص فاستشهد الطالب احمد القرشي واصيب عدد كبير من الطلبة.

ابلغني بهذا النبأ المؤسف الاستاذ حسن مختار فاسرعت إلى ميدان الاصطدام لاجد شارع الجامعة ونادي الاساتذة غاصا بالطلبة وعربات البوليس تعبر الطرقات جيئة وذهابا .

توجهت إلى المستشفى بعد ذلك ورأيت مشهد الدماء والدموع كما رأيت الاصرار على كل وجه فلم املك في تلك اللحظة الا الحرقة والتحسر والدعاء وهي اسلحة العاجز الذي لا يملك السلاح ولا يملك القلم...

ذهبت إلى المكتب لاجد مسئولا من وزارة الاستعلامات وبعض قوات الامن وهي ترابط في الخارج فاذا بالخطاب المألوف المختوم بالشمع الاحمر يمنع الصحف من ان تشير إلى اي اشي..

وبدأت اتصالاتي بالمسئولين فنفوا بادىء الامر حادث اطلاق الرصاص ثم اصروا بعنف ان لا تتعرض صحيفة الى حادث الاصطدام حتى ينجلي الامر في الصباح وتوزع الحكومة بيانا بالحادث إلى الصحف.

لا اريد ان ابرر موقفي بانني وزملائي قد استجبنا كعادتنا لامر الحكومة فقد كنا أضعف من ان نعصي لها امرا . لقد كنا جميعا سلبيين لا نحن في ميدان الصحافة ولكن معظم طبقات الشعب كانت سلبية ما عدا حوادث متباعدة منها اصطدامات الانصار بالمولد ومظاهرات طلبة جامعة الخرطوم التي كانت تقوم من آن لاخر..

اريد مرة اخرى أو اؤكد سلبية الشعب في بداية الحكم العسكري فقد كان التاجر في متجره يخشى من ان يحمي طالبا يتعقبه البوليس في مظاهرة... لقد كانت جماهير الناس في الشارع لا تشارك الطلبة في مظاهرات الاستنكار حتى تسرب اليأس الى نفوس الطلبة انفسهم وإلى المثقفين والى الموظفين والعمال ثم الى جماهير الشعب بأسره..

تعطلت الصحافة مرة بسبب مظاهرات الجامعة فقد كانت آنذاك تأمل كثيرا من الخير في قلعة الجامعة وفي جمهرة المواطنين... لم تستطع ان تكتب خبر التظاهر ولكنها استغلت في نفس الليلة خبرا عالميا نشرته بالخط الاحمر وهو يقول... طلبة البرازيل يسقطون الحكومة!!

وروت في الخبر في صبيحة مظاهرات جامعة الخرطوم كيف تظاهر الطلبة في البرازيل وكيف واجهوا الرصاص وكيف انضمت إلى صفوفهم قوات الجيش والشعب... وكيف زحفوا جميعا إلى القصر الجمهوري فسقطت الحكومة وفي العاشرة من صباح ذلك اليوم تعطلت الصحافة لاكثر من ستة اشهر وتشردنا اجمعين.

لا اريد بذكر هذه الواقعة ان ابرر موقفي ، ولكن فقط اردت ان اوضح مدى السلبية التي اشتركنا فيها جميعا والتي انتهت بالامس القريب إلى ايجابية ذخيرتها الدم الاحمر والايمان والاصرار ..

لم استطع في ليلة الاربعاء المشئومة الا ان استجيب مرغما لامر الحكومة وفي عيني دموع الحسرة وفي قلبي توجع وانين وصدرت الصحافة يوم الخميس ٢٢ اكتوبر ١٩٦٤ وهي تحمل انباء فرنسا واتحاد كرة القدم ومجلس تأديب للطيارين وتحت سمعها وبصرها رصاص ينفجر في رؤوس مواطنيها ودماء سقت فناء الجامعة الاخضر المزدهر وثورة ارتسمت على كل وجه واصرار بدا في كل عين...

كانت الصحافة على غير عادتها باهتة كئيبة مصفرة لا حلاوة فيها ولا طعم... كانت على غير عهدها منعزلة عن الناس... بعيدة عن الميدان وهي التي ظلت وفية امينة حريصة على ان تكون مع الناس طيلة حياتها القصيرة... كانت عثرة ولكنها كبيرة... كانت كبوة وذلة ومذلة ولكن الحظ والاقدار هي وحدها التي ارادت ذلك... بل وفرضت ذلك قسرا وقهرا.

عدت إلى منزلي لاقضي اطول ليلة في حياتي، ليلة كانت كلها سهاد، وألم، وعذاب حتى قررت في ليلتي تلك ان اعطل الصحافة واهجر البلاد إلى الابد كما سبق ان قررت، كنت افكر كثيرا واتحدث الى نفسي كثيرا وانا اتابع ببصري في سماء احاط بها السواد وماتت في جوفها لألأة النجوم وانمحت منها كل معالم النور والاشراق.

ومضى يوم الخميس تشهد ساعاته الطويلة اصرار امة كاملة وزحف شعب كامل أبي هذه المرة ان يتقهقر واجريت اتصالات تلفونية متعددة مع زملائي لنعقد جلسة صغيرة في مكتب «الايام» قبل ان نذهب إلى المؤتمر الصحفي الذي عقده وزير الداخلية بالانابة في وزارة الاستعلامات وذلك حتى نتدارس الموقف فيما بيننا ونواجه المؤتمر ونحن عصبة واحدة ففعلنا.

ذهبنا للمؤتمر الصحفي وارتفعت حرارة النقاش والاستنكار والمطالبة بحرية النشر وقد تجلت في المؤتمر وطنية الصحفيين بالاجماع وتجاوبوا مع المحنة ووقفوا إلى جانب الشعب..

كان لكل صحفي رأي صريح قوي، وكان اكثرنا قوة وصراحة هو الاستاذ بابكر كرار رحمه الله الذي انفعل في الوزراء وهاجم الوضع العسكري واستنكر بقاءه ثم انتقلنا بعد ذلك الى مكتب الايام لنتدارس الموقف غير ان حظر التجول قد اعلن لاول مرة عند التاسعة مساء فانفض الاجتماع ولم استطع ان اخفي ما في نفسي الى زميلي الاستاذين بشير محمد سعيد رئيس تحرير الايام ومحجوب محمد صالح أمام الزميل فضل بشير قلت لهما:

«ان الايام اوقعت زميلاتها في محنة وحرج مع الشعب وان الاعتداء الذي حدث

للزميلة الراي العام ومحاولتي الاعتداء على دار الصحافة والسودان الجديد وقعتا كسبب مباشر لاحتجاب الايام» وقلت للاستاذ بشير:

.. «عندما قررتم ان تحتجبوا عن الصدور صباح الخميس من انفسكم بعد تسلمكم انذار الاستعلامات والداخلية بعدم تعرضكم لحوادث الاربعاء المشئومة... اما كان الاجدر بالزميلة الايام وقد ساء الموقف ان تتصل ببقية زميلاتها لاتخاذ نفس الخطوة؟ الا ترى الايام ان فعلت ذلك لخدمة القضية اكثر من احتجابها منفردة لتعرض زميلاتها الاخريات إلى محنة وحرج تكسب على حسابه عطفا واحتراما مؤقتا.

قال الاستاذ بشير انه بحث عنا ولم يجدنا... وايد القول الاستاذ محجوب محمد صالح قلت لهما: ان الموقف انذاك كان يتطلب اكثر من محاولة للاتصال الشخصي لانه موقف يحتاج إلى تضافر ووقفة موحدة وكان يمكن لاي منكما ان يذهب رأسا إلى دور الصحف ويبلغها نبأ قرار الاحتجاب او يكتب مذكرة او يتصل تلفونيا بمنازلنا او يفعل اي شيء... وكان من الممكن ان تحتجب جميع الصحف ان اردتم ذلك.

## مسئولية الايام

وفي وضوح وصراحة حملت الزميلة الايام في حديثي مع السيدين محجوب وبشير أمام الاستاذ فضل بشير مسؤولية اثارة الجماهير على بقية الصحف الاخرى التي وصفت بالخيانة فاستفادت الايام من الموقف وطارت الاشاعات بانها صودرت الشيء الذي لم يحدث مطلقا انا لا أريد ان اقلل من سلامة تفكير الايام في قرار الاحتجاب فهو قرار يتمشى مع الموقف، ولكنها كانت تكبر في نظري وفي نظر الشعب ان عممت فكرتها وأبلغت زميلاتها بقرار الاحتجاب، اذن لاستحقت منا نحن معشر الصحفيين اكثر من مجرد التقدير والاحترام..

.. وجاء يوم الجمعة ثقيلا طويلا تتحرق فيه الانفاس ويتضاعف الاصرار ويتزايد عدد الضحايا ومضى الصحفيون يتجاوبون مع المواكب ويتصلون مع بعضهم حتى يتمكنوا من اتخاذ خطوة ايجابية يقفون فيها الى جانب الشعب وقفة واضحة وقوية.

واشرقت شمس السبت ترسل اشعاعاتها الحارة الوهاجة فاستمد منها الشعب حرارة فازداد اشتعالا واصرارا... وفي منتصف النهار عقد رؤساء تحرير الصحف المحلية والاسبوعية باستثناء الاخبار وانباء السودان اخطر واكبر اجتماع في مكتب الاستاذ بشير محمد سعيد ليتدارسوا موقفهم.

كنت اول المتحدثين قلت... قبل ان نناقش كيفية اصدار صحفنا لانها قد تصدر وقد لا تصدر اقترح ان نسمع صوتنا للشعب وننضم إلى صفوف المواكب الشعبية..

أ ـ ان نرسل الان برقية إلى الرئيس عبود نستنكر فيها حادث اطلاق النار ونطالب فيها بالحريات العامة وانهاء الوضع القائم..

ب ـ ان نشكل موكبا من رؤساء التحرير ليلحق بركب القضاة والمحامين والطلبة.
قال الاستاذ بشير: نحن لا نملك ان نرسل برقية كهذه لأننا لسنا هيئة او نقابة مسجلة كالمحامين، كما اننا لا نستطيع ان ننضم الى الموكب ونحن لنا منابر هي الصحف نستطيع ان نعبر فيها عما نريد.
وسقط اقتراحي. وكان المجتمعون آنذاك الاستاذ بشير محمد سعيد عن الايام ومحجوب محمد صالح عن المورننج نيوز وفضل بشير عن السودان الجديد ثم جاء عابدين محجوب عن الرأي العام وبابكر كرار الرسالة وحسين عثمان منصور عن الصباح الجديد وبدأنا نناقش نقاط البيان الذي قررنا اصداره في صحفنا..
تقرر في تلك الجلسة ان تصدر جميع الصحف يوم الاحد وهي تحمل في صدر صفحاتها بيانات رؤساء التحرير والقضاة والمحامين واساتذة الجامعة وبرقيات الاستنكار من الزعماء ثم اضفت إلى ذلك ان نكتب افتتاحية موحدة في جميع الصحف نستنكر فيها الوضع غير ان اقتراحي هذا سقط ايضاً وترك الخيار لرؤساء التحرير.
كان الاستاذ بابكر كرار قد وافق على صيغة البيان لكنه اصر على ان يوجه الى الرئيس عبود ودار نقاش طويل حول هذه النقطة انتهت إلى الاكتفاء باصدار البيان لانه يحمل المعنى الذي يرمي اليه الاستاذ بابكر كرار..

## قرار الصدور

تفرق رؤساء التحرير ليبحثوا عن العمال والمحررين بعد ان تعاهدوا على اصدار صحفهم وان يظلوا على اتصال دائم لمراقبة الموقف وتبادل الانباء والبروفات حتى تصدر كلها بقدر المستطاع في صورة موحدة تؤكد للشعب تمسكها ووقوفها إلى جانبه... وظل التعاون بين الصحف مستمرا حتى العاشرة فبعثت لنا الزميلة الايام بصورة من بيان السيد علي الميرغني مما يؤكد حسن النية والتعاون... وفي المساء جاء إلى دار الصحافة ضابطان من البوليس وحذراني من نشر البيانات او التعليق على الموقف وطلبا اليّ الا اصدر الصحافة قبل ان يطلعوا على جميع البروفات فتعهدت لهم بذلك ومضيت إلى عملي ... وبعد خروجي اتصلت بالاستاذ بشير فلم اجده ثم اتصلت بالاستاذ محجوب وابلغته بتحذير البوليس وعزمي الاكيد على اصدار الصحافة مهما تكن النتائج فابلغني بان البوليس قد وصله في اللحظات التي كنت اتحدث اليه فيها فانتهت المحادثة وفي حوالي الساعة العاشرة جاءني الاستاذ بشير محمد سعيد وابلغني بان الايام تعهدت بان لا تصدر فاكدت له عزمي على الصدور مهما تكن النتائج وبينما نحن نتناقش دخل علينا الضابط عصمت معنى وطلب مني البروفات.
وقلت له:

والله ياسيد عصمت انا لسه ما عملت حاجة وعندما تجهز سوف ارسلها لكم ... كانت بروفة الايام الصفحة الاولى في ذلك الوقت امامي..

خرج الاستاذ بشير وأوعدني بانه سيتصل بي مرة اخرى بعد ما يبحث الموقف ومضت دار الصحافة تعمل في صمت وتعد الصحافة للصدور رغما عن كل شيء وفي الحادية عشرة جاءتنا قوة من ضباط البوليس فخرجت لهم في الشارع مؤكدا لهم بان الصحافة لن تصدر قبل اطلاعهم على البروفات التي لم تجهز وان الامل ضعيف في اصدارها.

في الحال اتخذت خطوة ايجابية لمجابهة الموقف ودوريات الضباط فجمعت المحررين والعمال بعد ان خرج الضابط وامرتهم بالآتي:

١ ـ الا يرد على اي تلفون.

٢ ـ ان تطفأ جميع الانوار في المكاتب.

٣ ـ ان يحيطوا اعمالهم بالسرية التامة.

٤ ـ الا يسمحوا لاي كائن من كان ان يدخل المطبعة.

٥ ـ ان يوجهوا اي زائر او ضابط إلى مكتبي.

٦ ـ ان يغلقوا المطبعة وهم في داخلها والا يفتحوا الابواب الا عند سماع ضربات خاصة اتفقنا عليها.

٧ ـ الا يتحدثوا الا همسا وعند الضرورة.

وقبل منتصف الليل بقليل جاءني الاستاذ بشير محمد سعيد ليبلغني ان هناك استحالة في الصدور وانه ذهب إلى وزارة الداخلية محاولا السماح بالصدور وعلى صدر صفحاتها البيانات التاريخية للهيئات والزعماء التي تدين الوضع وتنادي بانهائه فورا ... ووزارة الداخلية في تلك اللحظات كانت أضخم عماد للوضع الذي اجمعنا على انهائه.

ذهبت محاولات الاستاذ بشير ادراج الرياح بالطبع ومنعه المسئول في وزارة الداخلية على حد قوله من النشر فلم تصدر الايام ولم تصدر السودان الجديد ... ولم تصدر اي صحيفة اخرى قلت له: يا أستاذ بشير طبعا ليس من المعقول ولا من المنطق ان تسمح لنا الداخلية بنشر البيانات التي تدين الحكومة وانا شخصيا لن اعرض بروفات الصحافة على الداخلية مهما كانت النتائج، كنت أحس او خيل لي ان الاستاذ بشير كان يعمل على تجميد موقف الصحف حتى لا تصدر اي منها لان موقف الايام الشعبي وفي نظر الكثيرين كان في القمة ... وفي المجد قال بشير:

هناك فكرة قد خطرت لي وهي ان نصدر صحفنا جميعا بيضاء حتى يعلم الناس اننا نعيش في جو من الكبت وان وزارة الداخلية رفضت لنا الصدور بالبيانات والانباء والتعليقات قلت له:

«الناس بتضحك علينا ... وقلت له ان المواقف السلبية لا تخدم القضية ولا تحتمل

انصاف الحلول وهناك طريقان فقط ولا ثالث لهما اما أن نختار طريق الشعب او الحكومة ولما الح علي الاستاذ بشير تقديرا للظروف العصيبة التي نعيش فيها وقدم لي كثيرا من النصح دون ان يعلم آنذاك ان الصحافة قد طبعت اكثر من ثلاثة آلاف نسخة من عددها السري وافقته وشكرته . فذهب الاخ بشير مودعا بالاحترام وعدت انا من الشارع الثاني وعاد العمال لنكمل مهمتنا العسيرة ، ومسيرتنا الشاقة .

# قصة عدد الصحافة السري



بيان رؤساء التحرير

سبيلنا الصحافة من أجل الشعب .. فلن نتهاون

الصحافة لن تستطيع أن تؤدي رسالتها وهي مكبلة بالقيود

الصحافة

رئيس التحرير
عبد الرحمن مختار
تصدر عن
دار الصحافة
ص . ب ١٢٢٨ الخرطوم

الموافق
اكتوبر ١٩٦٤

الطابعون
دار الطباعة الافريقية المحدودة
الخرطوم

السنة الثالثة
نمرة العدد ٧٤٧
الثمن ١٥ مليما

سادة الميرغني والمهدي يصدران بيانات عن حالة التوتر الراهنه

أصدر وزير الداخليه ليل امس حظرا بمنع التجول في المدن الثلاث من الساعه السادسه مساء حتي الخامسة صباح اليوم وكان الوزير قد اصدر امرا منذ صباح الامس
التجمهر لاكثر من عشرة اشخاص الافيما يتعلق
العبادات والافراح ومااليها .. في الخرطوم تظاهر القضاة والمحامون واساتذة الجامعة
الفني وبعض موظفي مكتب النائب العام موكبا ليحمل مذكرات منهم الى القصر
حول الموقف ووقفوا امام الهيئة القضائية ووصل البوليس لتطويق

الميرغني يطالب بالديمقراطية السليمة
سيادته يطالب بالهدوء واجابة رغبات الامة .

جاءنا البيان التالي من حضرة صاحب السيادة مولانا السيد
ولامه كرامتها وان يهدف الجميع لايجاد نظام ديمقراطي سليم يتفق

● **وصل العدد السري إلى الشارع الهائج فصدرت الأوامر بتصفيتي وأغلقت الدار بالشمع الأحمر.**

● **كيف واجهت اللحظات الرهيبة!؟ وإلى أين هربت وكيف!؟**

● **ليس الرجل هو الهارب، وإنما الرجل هو الذي يأوي الهارب.**

الذين يعتقدون او يظنون ان الصحافة هي مجرد اخبار وصور وتعليقات واثارة ونكات وقصص وحكايات ورسومات فحسب هم البسطاء والسذج او الواهمون والادعياء. الصحافة في الاساس رسالة انسانية تعمل على اعانة المساكين وتدافع عن المظلومين والمقهورين وتعلم الناس وتنير بصائرهم وتدعوهم الى الخير والخلق الحسن وتدفعهم دفعا إلى الانتاج والتضحية ونكران الذات من اجل أنفسهم وأوطانهم، والصحافة فوق كل هذا وذاك هي الحارس الامين على امن البلاد والمراقب الشجاع لسلوكيات الحكومة وكل مرافق الحياة.. خاصة كانت ام عامة... هي رسالة شريفة عظيمة ومقدسة لا يعرفها ولا يقدرها الا الشرفاء والمطهرون والمتطهرون لذلك فان الذين يمتهنون الصحافة لابد ان يكونوا على خلق واستقامة وامانة حتى يكونوا القدوة الحسنة لقرائهم ومواطنيهم وصحفهم.

●قبل أن اتطرق إلى الحديث عن الصحافة السودانية في فتراتها الذهبية لابد ان اتحدث في ايجاز شديد عن ام الثورات اكتوبر التي فكت وثاقنا وحررت رقابنا واقلامنا بعد ذل طويل من الحكم النوفمبري الذي مهما قيل ويقال عن مساوئه، فان من بين حسناته القليلة مقارنة بعهد مايو الاكثر ظلما وقهرا انه لم يلجأ لتأميم الصحف او لسياسة التأميم والمصادرة بشكل عام لكن مع ذلك ظلت الصحافة تعمل في عهده وهي مكبلة الايدي والاقلام حتى جاءت ثورة اكتوبر ففكت وثاقها وحررتها من السـ جن. ولفائدة القراء من شبابنا ممن لم يعاصروا تلك المرحلة الثرة المليئة بالعبر والتضحيات انقل صورا مضغوطة ولكنها واضحة وبينة عن احداث اكتوبر الخالدة كيف قامت ولماذا قامت؟

● كانت القشة التي قصمت ظهر الحكم النوفمبري هي الندوة العامة التي عقدها طلبة جامعة الخرطوم يوم السبت العاشر من اكتوبر عام ١٩٦٤ وعنوانها (التقييم العلمي لمسألة الجنوب) بعدها مدت السلطات يدها للجنة اتحاد الطلبة ثم عادت يوم الاربعاء الحادي والعشرين وتصدت لاجتماع داخلي بحت لجمعية الطلاب العمومية اقتصرت على طلاب الجامعة شهودا ومتحدثين وفي مساكن الطلبة بقصد تحديد الرأي في مسألة الجنوب فاعتدى جنود البوليس على الطلاب العزل بعدد هائل من القنابل المسيلة للدموع ثم امطروهم بوابل من الرصاص فاردوا بعضهم قتلى يمثلهم في الشهادة باعتباره اول الشهداء الطالب احمد القرشي.

ماذا قالوا عن أكتوبر؟

● في ٥ ديسمبر ١٩٦٤ أصدرت جريدة الصحافة عددا خاصا في اربع وثلاثين صفحة ننقل لكم منها رؤوس الموضوعات التي نشرت وقد زين صدر هذا السفر التاريخي الكبير العدد السري الذي اصدرته جريدة الصحافة ووزعته مجانا.

● العدد السري عنوانه الاحمر (بيان رؤساء تحرير الصحف - اصدرنا الصحافة من اجل الشعب فلن نتخاذل ولن ننعزل عنه - الصحافة لن تستطيع ان تؤدي رسالتها وهي مكبلة بالقيود - سيادة الميرغني والمهدي يصدران بيانين عن حالة التوتر - بيان اساتذة جامعة الخرطوم - مذكرة رجال القضاء والمحامين - بيان رؤساء تحرير الصحف - بيان الحكومة كيف ناقشه الصحفيون؟!

● اسرار اجتماع رؤساء التحرير: عبدالرحمن مختار يكتب: قررنا الصدور بالاجماع رغم الاوامر والرصاص، والوقوف مع الشعب، ولكن الصحف الاخرى سمحت لوزارة الداخلية بمراجعة (البروفات) ووقعت على التعهد فلم تصدر صحيفة واحدة ولم تلتزم بالاتفاق والعهد سوى جريدة الصحافة -.

● (الايام) لم تصادر كما اشيع ولكنها احتجبت من نفسها دون ان تخطر زميلاتها فاصبحت بطلة ولكن إلى حين!

● عبدالرحمن مختار يكتب عن اللحظات الحرجة القاتلة التي واجهت العدد السري - وصلت الصحافة للشعب ثم عطلت واغلقت بالشمع الاحمر.

● قوات الجيش تقفز الحيطان في بيوت عبدالرحمن مختار واهله واصدقائه وتبحث عنه في درج الدولاب!! نصحوني بالهروب قبل ان يعثروا علي فيقتلوني - السفير خليفة.

● السفير خليفة عباس يقسم الطلاق الا تدخل القوات منزله للبحث عن عبدالرحمن مختار الا على جثته - ليس الهارب هو الرجل، وانما الرجل هو الذي يأوي الهارب!

● إلى روح الشهيد الذي حرك الاعماق الساكنة بقلم الاستاذ يوسف خليل بالسجانة

● (الصحافة) مع المصابين في ثورة اكتوبر (طلحة الشفيع).

● اسرار المفاوضات كيف سارت وماذا قلنا وماذا قالوا! حديث صريح وواضح وعميق للدكتور حسن الترابي وقد كان الدكتور الترابي احد ممثلي اللجنة القومية التي باشرت تنفيذ الاضراب وباشرت تطورات الموقف وهذا نص حديث الترابي:

مع صبيحة الثلاثاء ٢٧ اكتوبر كانت الثورة الشعبية في السودان قد حققت اولى مكاسبها بعد ان اعلن عن حل المجلس العسكري ومجلس الوزراء وبدأت الجماهير في طول البلاد وعرضها تتبادل التهاني وتهلل وانظارها متجهة صوب الخرطوم حيث كانت المفاوضات جارية بين ممثلي الشعب والجيش وكان نادي اساتذة جامعة الخرطوم وسراي الامام بأمدرمان ورئاسة القوات المسلحة هي الاماكن الثلاثة التي شهدت كل التنظيمات والاجتماعات والمفاوضات حتى اكتمل نصر الشعب. وقد مثل الجبهة القومية الموحدة (هيئات واحزاب) السادة: الصادق المهدي، مبارك زروق، احمد السيد حمد، عابدين اسماعيل والدكتور حسن الترابي بينما مثل القوات المسلحة الضباط: الطاهر عبدالرحمن المقبول، عوض عبدالرحمن صغير، محمد ادريس عبدالله، والباقر ويوسف الجاك ومزمل سليمان غندور. وكان أول لقاء بين ممثلي الشعب والقوات المسلحة قد تم مساء الثلاثاء ٢٧ اكتوبر صبيحة اعلان حل المجلسين.

● ويمضي الدكتور حسن الترابي وهو يروي للصحافة اسرار المفاوضات الى ان يقول:

وكانت المفاوضات تسير بتكافؤ متساو بين الجانبين غير ان المفاوضات (جاطت) عندما وصلت نقطة التشكيل الوزاري وذلك للاسباب الاتية:

أولاً: مطالب الجيش بشأن وزارة الدفاع واختيار عبود للوزراء.

ثانياً: عملية استبعاد المرشحين ذوي الاتجاهات الحزبية والفكرية من قائمة الهيئات.

ثالثاً: رئاسة الوزارة التي رفضها بابكر عوض الله، ومبارك شداد، وعابدين اسماعيل ثم وافقت كل الأطراف على سر الختم الخليفة وقد كان سبب التأخير في اعلان الحكومة هو المشاورات التي جرت اثناء بحث تشكيل الوزارة، غير ان هذه تعتبر فترة قصيرة بالنسبة للفترة الطويلة التي تستغرقها عملية تشكيل الوزارات في البلاد الاخرى.

## تعليق الصحافة

إلى هنا انتهى حديث الدكتور حسن الترابي (والصحافة) لا تنسى ان تشير إلى دور الترابي الكبير في قيادة الحركة الشعبية وبالذات حديثه في اول ندوة تعقد في الجامعة عن الجنوب حيث اعلن فيها (ان مشكلة الجنوب لا يمكن ان تحل في ظل الحكم العسكري، وانه من الغباء حل المشكلة قبل وضع دستور البلاد).

**(الصحافة: ٥/١٢/١٩٦٤)**

● ونمضي ونحن نقلب ونقرأ مجرد العناوين البارزة فنجد تشكيل مجلس وزراء ثورة اكتوبر برئاسة سر الختم الخليفة، ومحمد احمد محجوب، وعابدين اسماعيل، واحمد السيد حمد، وعبدالكريم ميرغني، ورحمة الله عبدالله، ومحمد صالح عمر، واحمد سليمان والامين محمد الامين، وعبدالرحمن احمد العاقب، وخلف الله بابكر، وامبروز وول وكلمنت امبورو، والشفيع احمد الشيخ.

● (مذكرات جريح) إلى امة بقلم كوركيل كجو الابن الجريح.

● (عود الكبريت الذي اشعل النار) ماذا جرى في داخليات الجامعة وكيف انفجر برميل البارود بقلم الاستاذ ربيع حسن احمد وكان محررا في الصحافة آنذاك.

● محمد صالح عمر وزير الثروة الحيوانية يتحدث عن سلاح الاضراب السياسي فكرته... قصته.. بدايته... مستقبله؟!

● المرأة السودانية صنعت ثورة اكتوبر بقلم زينب الفاتح البدوي وكانت المسئولة عن صفحة المرأة بجريدة الصحافة.

حوادث الجامعة وحوادث القصر... لماذا شرحت جثة القرشي... وماذا قال التقرير الطبي عنها بقلم محمد نوراني وقد كان محررا بالصحافة والان بصحف الخليج.

● ابارو يمنع الاسعاف من حمل المصابين في الحوادث والاطباء يطردونه من المستشفى!

● اول مذكرة سياسية مكتوبة من طلاب جامعة الخرطوم الى المجلس الاعلى للقوات المسلحة (مجلس اتحاد جامعة الخرطوم ١٠ سبتمبر ١٩٥٩ ـ من داخل الاذاعة اثناء الحصار. القوات تغلق الابواب، محاولة لتعطيل الاجهزة. الاضراب نفذ في اللحظات الاخيرة).

● صف واحد في معركة الحرية بطولات اسطورية... ألوية النصر لن تسقط ابدا

انتهت بعد هذا العرض التاريخي الشيق عناوين ورؤوس الموضوعات التي تضمنها العدد الخاص الذي اصدرته جريدة الصحافة عن ثورة اكتوبر.

بعد هذا الاستعراض المضغوط والحديث عن ثورة اكتوبر لابد ومن الضروري ان نتحدث عن موقف الصحف كيف واجهت الثورة، وكيف تصرفت، وماذا كان موقفها حتى لا تضيع الحقائق والاسرار وراء اسوار التاريخ وتغطس كلها في بئر النسيان واليكم صورة حية انقلها لكم في نفس العدد الخاص الذي نشر يوم ١٩٦٤/١٢/٥ لمجرد التاريخ مع بعض التعليقات الخاصة.

## عهد ووعد

● في منتصف ظهر السبت ٢٤ اكتوبر ١٩٦٤ تعاهد رؤساء التحرير ان ينضموا الى الصفوف الشعبية مستنكرين موقف الحكومة من طلبة الجامعة ومن فئات الشعب وحوادث اطلاق الرصاص ومطالبين بانهاء الوضع وقد حضر الاجتماع زملائي الاساتذة بشير محمد سعيد عن الايام، ومحجوب محمد صالح عن المورننج نيوز الانجليزية، وفضل بشير عن السودان الجديد، عابدين محجوب عن الرأي العام، ومحمد مكي عن الناس، وحسين عثمان منصور عن الصباح الجديد، وبابكر كرار عن الرسالة وعبدالرحمن مختار عن الصحافة، تعاهدوا جميعهم ان يصدروا صحفهم في صباح الاحد مهما كلفهم الامر، ومهما بلغت النتائج والمعوقات بصورة واحدة يضمنونها بعد افتتاحياتهم وبيانهم الخاص بيانات اساتذة الجامعة والقضاة والمحامين والاطباء والزعماء ورجال الاحزاب وتفرق الجمع الهادر من قادة الفكر والرأي والممثلين الحقيقيين للشعب والبلاد... تفرقوا باسم الله وباسم الشعب كل نحو دار صحيفته واتفقنا ان نتبادل المعلومات والانباء عن طريق الاتصالات الشخصية.

## الصحافة فقط لا غير

● في صبيحة الاحد وهو اليوم الموعود لم تصدر صحيفة سودانية واحدة غير جريدة الصحافة بينما اختفت كل الصحف الاخرى ولم تصدر رغم العهد الذي قطعناه على انفسنا فكيف صدر العدد السري، وكيف وزع، وكيف استقبله الشعب ثم السؤال المهم والأهم ماذا حدث لي شخصيا، وماذا كان مصيري وكيف اختفيت، واين؟ حتى لا اقع في قبضة القوات العسكرية لا قوات الشرطة التي كان قد صدرت اليها الاوامر باطلاق النار علي اين ومتي ما وجدتني...

ليس الذي سأكتبه لكم الان عن مخاطر العدد السري هو خواطر جديدة وانما هي

قديمة سبق ونشرتها في جريدة الصحافة (العدد الخاص) الذي صدر في ٥ ديسمبر ١٩٦٤ كسجل خالد لأحداث ثورة اكتوبر، ولانها طويلة وتفاصيلها دقيقة فانني سأنقل منها مجرد فقرات محاولا الا تفقد المعنى، وها هو ما كتبته نقلا عن ذلك العدد.

## كيف صدر العدد السري؟

● (لا اريد وأنا اروي قصة اللحظات الرهيبة التي عشتها ان اسجل بطولة لان الذي فعلته مهما كان قدره في ثورة اكتوبر فانه يهون بجانب الارواح التي زهقت والدماء التي سالت، غير أنني وانا اواجه المطبعة وارقب العدد السري تحت نور الشمعة الضئيل حتى خرج للشعب صباح ٢٥ اكتوبر، كنت اعلم نتائج ما افعل وكنت أضرع بالدعاء إلى الله ان يمكنني من اصدار عشر نسخ من الصحافة لتساهم وتزيد المعركة اشتعالاً ثم اموت او اقتل، وكان ان استجاب الله لدعائي فخرجت ثلاثة عشر الف نسخة منه، ليس هدفي من رواية اللحظات المريرة والمثيرة والمخيفة التي عشناها ليلة السبت ان نسجل بطولة ولكنني فقط اريد ان اسجل تاريخا وتاريخا صادقا ومشرفا.

● جاء المساء واعلنت حالة الطوارىء من جديد وماتت الحركة في الشوارع، كان كل شيء قد تجمد وصمت حتى فروع الشجر، حتى الهواء نفسه ولكنه صمت وجمود يخفي وراءه ثورة واصرارا وعزيمة ومضت اللحظات رهيبة مملوءة بالقلق حتى كدت اسمع صوت انفاسي، ودقات قلبي والمطبعة تدور في ظلام دامس وتحت انوار الشموع غير ان حبل الامل على ضعفه وقصره آنذاك كان يدفعني إلى الحركة والتعلق بالحياة، كنت ارى الطريق امامي طويلا عريضا مظلما مليئا بالاشواك والحجارة والمطبعة تدور والقلوب تعلو تهبط مع دقاتها كلما قذفت بعدد، كنت احسب خطواتي واتحسس الارض من تحتي حتى لا يكشف امري، كنت قلقا مضطربا ارقب كل حركة من فوق السطوح ثم لن البث بعد ثوان معدودات حتى انزل إلى المطبعة ثم اعاود الكرة من جديد.

الصمت كان يلف كل شيء نحن والعمال والمحررين في داخل الدار نتحرك كالاشباح نتحدث في همس، وننظر في اصرار ونراجع بعضنا في حزم فقد ماتت في شفاهنا الابتسامة، وتجمدت تعبيرات وجوهنا لكن الهدف الذي كنا نسعى اليه اجمعين هو اصدار الصحافة مهما بلغت الخسائر.

● عربة لوري تمزق صمت الشارع وتعرج على دار الصحافة والشيخ ادريس بركات وطلحة الشفيع يقف كل منهما في نهاية الزقاق الخلفي بالبطارية ليعطيا اشارة الخطر فتقف المطبعة ويصمت كل شيء، اربعة من الضباط (الداخلية) ينزلون امام الدار ويطلبون مراجعة البروفات فاؤكد لهم باننا لم ننته بعد ثم يعودون مرة ومرتين وثلاثاً

كانت آخرها برئاسة الضابط عصمت معنى فنعطيهم بروفات مزيفة ولما ابلغونا بان كل الصحف قد اغلقت ابوابها قلنا لهم اننا كذلك سنقفل ونذهب إلى بيوتنا وصدقونا وذهبوا خاصة عند سلموني انذار وزارة الداخلية يمنع فيه منعا باتا نشر بيانات النقابات والهيئات والاساتذة والاحزاب ... و .. ولم يكونوا يعرفون آنذاك اننا قد طبعنا اكثر من خمسة آلاف نسخة.

● كانت المطبعة كلما فرغت من طبع كمية اخذها عامل إلى الحمام في الطابق العلوي وهو ايضا مظلم وهناك عامل آخر يجري عملية اللف والربط والتجهيز ثم تنزل بالحبل للعربة التي يحرسها حسن مختار وكلما اكتملت الف نسخة ينطلق بها إلى نقاط التوزيع التي اتفقنا عليها وهي منازل الاصدقاء كانت اعصابنا مضطربة وانفاسنا لاهثة، وصدورنا تعلو وتنخفض كأمواج البحر ورؤوسنا جميعا تدور وتدور نوع من الدوار حتى اوشك ان يصيبنا الشلل ونحن نواجه اللحظات الرهيبة وصوت المطبعة يهدر كطلقات المدفع الرشاش ليمزق رؤوسنا وصدورنا حتى همساتنا كانت تحدث ضجيجا في آذاننا يشبه نعيب البوم!!

● بعد انفضاض اجتماع العهد لرؤساء التحرير توجهت رأسا إلى عيادة صديقي وحبيبي الدكتور حسن عبداللطيف وكان معه من الاحياء الاخوة محمد عبدالكريم ود. احمد البلة وعبدالمنعم عبداللطيف و ... و ... عرضت عليه ما انتويت عليه. ثم عرجت على منزل مبارك زروق - قرب سينما كلوزيوم - ووجدت معه الشيخ المرضي وبالمناسبة ان العلاقة التي تجمعني بمولانا المرضي تَرجع إلى جذور عميقة في القدم فقد كان والد الشيخ احمد وعمه علي من اعز اصدقاء والدي وقد جمعتهم خلاوي القرآن كان ابي شيخا ورعا يحفظ القرآن بل وكتب بخطه الجميل المعروف مصاحف عديدة اهدى منها نسخا للامام عبدالرحمن المهدي ومولانا الميرغني والشريف يوسف الهندي. بعد لقائي بهما توجهت إلى الدكتور عبدالحليم محمد الرجل الاديب المرموق والذي ضحى بمنصبه عضوا في مجلس السيادة من اجل الرياضة فهو يعشقها ويعبدها وهو من رواد الحركة الوطنية ومكان احترام دائم... كل هؤلاء باركوا من غير تحفظ اصدار العدد السري بعدما نبهوني بوضوح لخطورة نتائجه والتي وصفوها كلهم بان المسألة مش لعب وانما هي تضحية اقرب إلى الانتحار غير ان تعليق الشيخ المرضي بسخريته المعروفة كان عنيفا لا يزال صداه يتردد في داخلي كلما تذكرت الواقعة قال لي رحمه الله:

● (اسمع يا عبدالرحمن حتى تفتح عينيك الكبار زي (القعونجة العاصرة الزير) دي خطوة قد تعرضك للمشنقة والموت... والموت حق الرجال امشي موت موتك وليك علينا ندخلك التاريخ ونعمل ليك اعظم واكبر دافنة ويا بختك شي مراثي بالشعر وشي بالنثر وضحك ضحكته اللطيفة وعندها تدخل زروق مازحا وقال: (يا مولانا قطعت قلب الراجل واصلو هو قلبو مقطوع).

لما كان التوزيع للعدد السري يشكل بالطبع المشكلة الرئيسية فقد قررنا اولا ان يكون مجانا ثم تعهد كل الذين ذكرتهم بان نقذف في بيوتهم اي كمية من العدد السري ليقوموا بعملية التوزيع بطرقهم الخاصة وقد استأجر الدكتور حسن عبداللطيف وعلى نفقته الخاصة بكاسي سافرت بالعدد السري الى رفاعة وقرى الجزيرة حتى مدني وكذلك من الجيلي والقرى حتى عطبره عاصمة الحديد والنار وفي الخرطوم كان هناك غيرهم جنود مجهولون من الشباب والفتيات اخترناهم من مواقع مختلفة في العاصمة حتى تنجح عملية الانتشار ونجحت بالفعل... ماذا كان مصيري بعد التوزيع... واين اختفيت ومن الذي آواني وحماني!!؟

سنّة حميدة ومتعارفة كنا نتبعها زمان في الصحف في ذكرى مناسباتنا الكبرى واعيادنا القومية وذلك اما بالاشارة اليها في يومها، او باصدار عدد خاص عنها - وقد اعتبرنا واعتمدنا (العدد السري) الذي اصدرناه في اكتوبر ضمن مناسباتنا الصحفية - خاصة ونحن نفتقدها - وظللنا نخلد ذكراه كل عام لسنوات طويلة حتى انقضت علينا مايو المغرمة بتشويه التاريخ فوقف هذا التقليد ستة عشر عاما وعندما انهد بنيانها وجاءت حكومة الانتفاضة ظننا - وكنا آثمين فيما ظننا - ان ابنائي في جريدة الصحافة - ورغم اشارتي لهم - خاصة ومعظمهم قد شارك بعرقه وروحه، وضحى بحياته في اصدار عدد الصحافة السري وعلى رأسهم القائم باعمال رئيس التحرير قد تنكروا لماضيهم ولأنفسهم ولتضحيتهم الخالدة، فلم يشيروا ولو بكلمة صغيرة لا لذكرى العدد السري ولا لعيد ميلاد الصحافة بينما احتفلت الايام بعيد ميلادها في عدد خاص هللت وطبلت له وفاء جميلا... ماذا تنتظرون ممن يتنكرون لتاريخهم، ولا يوفون أنفسهم حقها، وهل يمكن لامثال هؤلاء ان يكونوا اوفياء لغيرهم وفاقد الشيء اساسا لا يعطيه..!!

أعود من جديد لمتابعة مسيرة العدد السري وكيف وصل إلى القراء وكيف اختفيت ومن هم الرجال الذين حموني هم واسرهم من موت محقق؟!

● لابد لي وانا اسجل التاريخ العظيم والتضحيات الجسيمة التي قدمها الكثيرون في اعداد وتوزيع العدد السري ان اسمي بعضهم فبجانب الذين وردت اسماؤهم من الاصدقاء والمقربين اذكر من محرري وعمال دار الصحافة الذين طبعوا وأعدوا العدد القنبلة حسن مختار والشيخ ادريس بركات وطلحة الشفيع وشريف طمبل ومحمود ادريس وبكري خضر ومن العاملين عبدالله يعقوب ومحمد الدومة وعلي يوسف ويحيى عوض الله واكثرهم مازالوا يعملون حتى كتابه هذه السطور في (دار الصحافة القومية) اما الاصدقاء والاهل والاخوان فكان على رأسهم المهندس حمد عبدالله حمد بالادارة المركزية والان (بالشارقة) وقد استعان واستغل اسطول الطوارىء من عربات الهيئة بسائقيها وعمالها في توزيع العدد السري فاستحق بذلك نيشان (ابن الصحافة البار) ثم

الاساتذة بدر الدين هاشم مدير الثقافة سابقا وعبدالله مصطفى الامين وعلي يوسف هاشم... وعدد كبير ممن لا تسعفني الذاكرة باسمائهم فلهم شكري.

● نسيت واقعة هامة وانا اتنقل بين الاحداث ان عداد المطبعة عندما وصل ١٣٢٠٠ نسخة صرخ حسن مختار صرخة هستيرية افزعتنا جميعا وكاد ان يفقد معها الوعي... يا جماعة كفاية... بالله عليكم وقفوا الطبع... يا جماعة الطمع ودر ما جمع والله حنروح كلنا في ستين داهية!!

ولما وصلنا كلنا إلى نفس درجة غليانه وهستيريته فقد أمرت بايقاف الطبع فوقفت المطبعة وصمت كل شيء ومات كل شيء وعندما نزل العدد السري في السوق دون أية صحيفة اخرى ومجانا بالطبع فقد تلقفته الايدي وعلمنا فيما بعد ان نسبة الذين كانوا يقرأون النسخة الواحدة من العدد السري تزيد عن المائة مواطن وكان له سحره الخاص واثره العميق في النفوس خاصة مع مطاردة الشرطة وسرى وسط الجماهير كالنار في الهشيم وما ان تغلغل العدد السري في الشارع الكبير وهو يحمل في صدره بيانات السيدين واساتذة الجامعة والقانونيين والصحفيين و.. و.. حتى انفجر البارود انفجارا قضى على آخر انفاس الحكم النوفمبري وبعدها اختفيت تماما عن الانظار والاسماع وعلمت ان المرحوم اللواء محمد نصر عثمان وزير الثقافة والاعلام دخل القصر في حالة هياج شديد ورمى العدد السري امام الرئيس عبود قائلا له بصوت عال:

(عبدالرحمن مختار نهانا) وكان الحاضرون فيما علمت اللواء حسن بشير نصر رحمه الله واحمد خير امد الله في عمره وعباس فضل مدير الشرطة وابارو مدير الجهاز السري ومتولي عيد وكيل الثقافة والاعلام الذي اخبرني فيما بعد ان اوامر مشددة صدرت في تلك اللحظة بان يحضروني لهم حيا او ميتا وقال انه اول من ترحم على روحي! ثم صدر امر بالقاء القبض علي للبوليس واخطار القوات المسلحة للاشتراك في البحث عني واغلقت دار الصحافة بالشمع الاحمر وحولها حراسة مشددة.

# اعداد محاولات للهروب

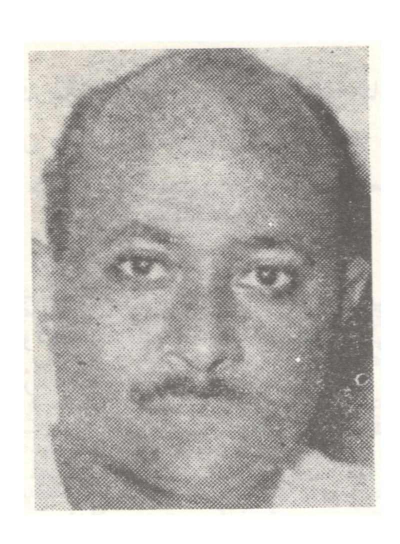
وضع اصدقائي وهم يعرفون سلفا بالطبع هذه النتائج خطة على مرحلتين، مرحلة محلية واخرى للهروب إلى اثيوبيا بعدما عرفوا بالاوامر الخطيرة التي صدرت وقد اعد لاندروفر باشراف د. حسن عبداللطيف خصيصا لتنفيذ المرحلة الثانية.

كان اول من حماني واواني في الرابعة والنصف صباحا هو المهندس حمد عبدالله الذي اتصلت من منزله بمحطة بري مباشرة بمحمد توفيق (كاتب الجمرات) وكان توفيق ولازال وسيزال الصديق والحبيب الوفي الذي انقذني هو واولاده من موت محقق. كان محمد توفيق يسكن آنذاك في بري لمدة تسع سنوات بعدما ترك منزل الحكومة والوظيفة سألني عن مكاني ثم صمت وقال لي لابد ان تحضر لمنزلي حالا لانني عملت اتصالات بشأنك وفي منزلي حتعرف الموقف كويس واحسن اسرع حتى نتصرف وقد ابلغت (حميدة) ـ زوجته بأن يرتبوا ليك كل شيء بعدها ادخلني المهندس حمد في بوكس الهيئة مغلق ومولع نار وذهب بي رأسا الى منزل محمد توفيق فوجدت حجرة قد خصصت لي كانت تحتفظ بمفتاحها دائما ابنته الكبرى خوفا من ان يراني اخوانها الصغار. وفي الظهر عاد محمد وابلغني بالاثر الكبير والخطير الذي احدثه العدد السري في الشارع (الفاير) كما ابلغني بان عباس فضل مدير الشرطة والمفروض فيه ان يعمل كل ما في وسعه للعثور والقبض علي كان يعرف مكاني ويعمل مع محمد توفيق والاصدقاء على مساعدتي وانقاذي ومتابعة تطورات الموقف وفعلا في اليوم الثاني اتصل تليفونيا بمحمد توفيق وقال له بهدوء:

(الامانة اللي عندك وزعها) وما ان ابلغني محمد بذلك وهو في حالة من الرثاء والشفقة اخافتني وكادت ان توقف قلبي ترى هل معنى ذلك ان امري قد انكشف وان انكشف فما اسبابه اذن كيف نتصرف وظللنا محمد وانا نتبادل النظرات الجامدة في بلاهة وبلا معنى!! (قيل يطلع من الفسيخ شربات) واحيانا من البكاء والخوف والدموع تأتي الطرافة فابن محمد توفيق الصغير عدلي الله يجازيه ويعفو عنه ويهنيه في وقت واحد وقد كان في السادسة او السابعة من عمره رآني فجأة لست ادري من (ثقب الباب) كما كنت افعل للاخرين ام من فتحة الشباك فخرج مهرولا الى الشارع يصرخ بفرحة لكل من يلاقيه في الشارع وكأنه اكتشف زحل: (عبدالرحمن مختار قاعد عندنا جوه) ان يقول ذلك في بري وبالقرب وبالقرب من منزل اسرة زوجتي المحاصر بالعيون فذلك هو الخطر نفسه وكاد محمد توفيق ان يصاب بالشلل والجنون وعلى

عجل اوقف عربته ملاصقة للباب واخرجني بين زوجته وابنته الكبرى واصر علي ان (ارقد) على ارضية العربة حتى لا يراني احد وانطلق كالسهم بالخلاء الواقع شرق المطار - لم يكن هناك آنذاك لا امتداد ناصر ولا الرياض ولا يحزنون.. خلاء وحفر وتضاريس والعربة تنهب بنا الارض نهبا وترتجف كعيدان القصب ولكم بعد ذلك ان تتخيلوني بجسدي الممتلىء كم كنت اعاني لكنني ما كنت أشعر في الواقع بما اعاني!!

وصلنا منزل دكتور حسن عبداللطيف شارع ١٩ امتداد الدرجة الاولى والذي اخذني بدوره رأسا إلى غرفة في السطوح وصار يقبلني من الوجنتين وفي عينيه دموع الفرح ثم بكينا معا دون ان نتحدث وعاد محمد توفيق لكنه كان على اتصال دائم بنا.



## توفيق وعبدالخالق محجوب

هنا يستوقفني حدث كبير وخطير ليفرض عليَّ نفسه ويأبى الا أن ادونه قبل ان امضي في مسيرتي وانساه في وسط اكوام الاحداث وحاشا لي ان انساه.

● السيد محمد توفيق وزير الثقافة والاعلام وكاتب (جمرات) في الصحافة منذ عام ١٩٦١ رجل مرح وساخر لكنه قبل كل هذا وذاك انسان كامل متكامل وفيّ وشجاع ومخلص واب بار بأهله.. وصديق (منتشر) في كل ميدان... كان من اقرب المقربين للاستاذ عبدالخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي مما اضطر الاخير يوم فشل محاولة انقلاب هاشم العطا الا يلجأ لاي سوداني او بيت سوداني الا لمحمد توفيق وبيت محمد توفيق ففعل ولكن وبعد يومين فقط انكشف امره وطوقت الدبابات والمصفحات بيته واعتقل هو وعبد الخالق محجوب معا وقد لاقى ما لاقى في الاعتقال ولولا لطف الله ومساعدة الاصدقاء من حوله لصفي محمد توفيق ولكان اليوم في عداد الشهداء والصديقين وحسن اولئك رفيقا.

● اعود من جديد لاكمل الصورة صبيحة صدور العدد السري فقد طوقت قوات البوليس منزلي في بري الدرايسة كوريا وقفزوا الحيطان وضربوا خادمي المخلص الامين واخي الآن محمد عبدالله الذي مازال معي حتى كتابة هذه السطور فعذبوه واذلوه واغروه في نفس الوقت ليدلهم على مكاني، محمد عبدالله هذا التحق بخدمتي وعمره سبعة عشر عاما وقد تزوج وله سبعة ذكور واناث من الاولاد، وقد اصبح جزءاً لا يتجزأ من الاسرة بعدما ضرب المثل الاعلى في الوفاء والاخاء والمودة.

● وقوة اخرى مشتركة من القوات المسلحة والشرطة كانت (تقفز الحيطان) لمنزل اسرة زوجتي ببري المحس طيلة ساعات الليل في محاولات متكررة للبحث عني وكانت تقوم بكشف الغطاء عن كل النائمين حتى خجل احدهم مرة وقال لزملائه يا جماعة عيب ديل كلهم عوائل!

● وذهبت قوة من الجيش إلى منزل صديقي العزيز وخلي الوفي السفير خليفة عباس اطال الله عمره ومتعه واولاده ابدا بالصحة والعافية بحثا عني لكنه اقسم الا يدخل احد منزله الا على جثته وتكهرب الجو في الجيلي الآمنة الوديعة واحاط به المئات من اهلي الاوفياء مما اضطر القوات على الانسحاب خوفا من العواقب.

● وقوة اخرى ذهبت لمنزل اخي الاكبر محمد رحمه الله ولكنها قوة يبدو انها كانت بليدة عندما طلبت منه فتح دولاب صغير كان في حجرته فضحك وقال لهم: (يظهر انكم ما عندكم فكرة عن عبدالرحمن كويس) يقصد ان ثلاثة دواليب من ذلك الحجم كما قال لهم لا يمكن ان (تحتويني) او تستوعبني.

لم يتركوا بيتا لاهل ولا صديق ولا رقيب الا وداهموه واخيرا جدا وفي المساء بدأت قوة من الشرطة في أكثر من (لوريين) تحيط بمنزل د. حسن عبداللطيف وانا قابع في سطوح الطابق الثالث اراقبهم بقلب اوشك ان يطير خاصة عندما توقفوا مما جعل د. حسن يجري داخل بيته مستعينا بسلم صغير وهو في اشد حالات الاعياء والارتباك ونادى على جاره الايطالي الاصل وهو سكرتير في السفارة الايطالية وباختصار شديد وفي اقل من دقيقة قال له عندي صديق عزيز كذا وكذا وهو مطارد وها انت تلاحظ القوات بدأت تحيط بمنزلي وانا اخشي ان يهجموا علينا ويقتلوه فهل تسمح بايوائه ان شعرنا بالخطر - وبدون تردد قبل الدبلوماسي الضيف والانسان الكبير رغم ما في ذلك من مخاطر وقال دعه يقفز داخل بيتي متى ما شعرتم بالضرورة بكل سرور دعه يحضر وأنا سعيد بذلك!!

جاء د. حسن وابلغني بما فعل وقال لي (تحت معاي اكثر من عشرة من اصدقائك وبينهم اخوك محمد وحسن مختار وعدد من اهلك وكلهم مشفق عليك وهم يتبارون في نقل الاخبار فمنهم من قال انك هربت لارتيريا ومنهم من قال انك اعتقلت او قتلت و... و.. والمهم ان لا احد يعرف مكانك حتى لا ينكشف الامر في النهاية نتيجة لخطأ صغير او (فلتة لسان).

وابلغني ايضا بان عباس فضل (مدير عام الشرطة) هو الوحيد الذي يعرف مكانك وقد اتخذنا العدة وبعد مشورته واعطاء الضوء الأخضر لتهريبك من البلد.

## يا ما انت كريم

كان عزائي الوحيد وسلواي ومتعتي في تلك اللحظات الحرجة الحاسمة من عمري والتي كانت رفيقة وحشتي وهلعي وخوفي عندما ينقلوا إلي كل لحظة مدى الاثر الذي خلفه العدد السري في الشارع السوداني وبعد ساعة ونصف وفجأة وبلا سابق انذار سمعت جلبة وضوضاء ظننت انها القوات داهمت المنزل فاذا بدكتور حسن عبداللطيف يطلق صرخات مجنونة وتسرع خطاه في السلالم، رأيته وهو مقبل علي يرقص ويتمايل بل ويزغرد ويغني كالمجنون أو الذي لدغه ثعبان وعلى انغام الصفقة بيديه كان يقول بلحن السيرة .

● الليلة والليلة هوى المجلس الاعلى حلوة ... الليلة والليلة هوى مجلس الوزراء كندكو ! ! واقبلنا نتعانق ونبكي ثم اتجهت مباشرة للتليفون وابغلت زوجتي وماهي الا لحظات حتى قامت القيامة وانفجرت الشوارع واتجهت العاصمة كلها (الاعمى شايل المكسر ) نحو القصر .. نحو النصر ...

كان المرحوم د . حسن عبداللطيف شخصية محبوبة (ومنتشرة ) تماما كمحمد توفيق وكان معروفا بعدائه للحكم العسكري في اي بقعة من العالم لانه كان ديمقراطيا بسليقته وكان اديبا ومتحدثاً ، ذرب اللسان حلو المعشر متجددا ناكرا لذاته وكان يحب جمع التراث والفولكلور ويعشق الادب والشعر ويتذوق النكتة كان وطنيا اتحاديا رشح مرة لمجلس السيادة كما رشح وزيرا لكنه أبىٖ وعندما ضاق (بمايو اتولد ) هاجر إلى نيجيريا لكنه وواأسفي وواحسرتي عليه عاد محمولا داخل صندوق رحمه الله رحمة واسعة .

## وعباس فضل من !؟

هنا لابد ان اقف قليلا عند المرحوم عباس فضل مدير الشرطة وما فعله فيه الكفاية لتحويله المكان الاسمى من التعظيم والتقدير والاجلال ولابد ان يتوقف المرء كثيرا عند دوره العظيم الذي يدحض كل افتراء وظلم وتجن على رجال البوليس فهم ايضا انسانيون ووطنيون وفدائيون متى ما كان ضروريا وانا لا املك غير الدعاء له بالرحمة والمغفرة وما كتبت الذي كتبت تسجيلا للتاريخ فقط وانما ايضا لاحيي فيه وعن طريقه رجال الشرطة حتى يكونوا خير خلف لخير سلف .

كما انا مدين بحياتي للمرحوم عباس فضل ومحمد توفيق وحسن عبداللطيف ولاسرهم واولادهم فالهارب ليس هو الرجل، وانما الرجل هو الذي يأوي الهارب فتحية لهم اجمعين وتحية حارة لكل من اسهم ووزع العدد السري وليعذرني الكثيرون والكثيرون جدا ممن لا قدرة ولا طاقة لي بذكر اسمائهم فهم خالدون في القلب والروح معا .

خرجت الجماهير وزحفت كالموج الهادر نحو القصر وكانت تزغرد وتغني وتهلل في غير توقف ولا هوادة وفي اقل من ساعة كان معظم محرري وعمال دار الصحافة قد وصلوا الدار وبدأنا جميعا في الاعداد للصحافة غدا في يوم عيدها الاغر وليلة زفافها السعيد .

## احمد سليمان وانا !!

حدث شيء لا يمكن ان اتجاهل ذكره لانه ملك للتاريخ المعمور والمشوه والمجهول الذي لابد ان يزال عن وجهه القناع ورداء التخفي ففي طريقي لبري استوقفني موكب صغير يصفق ويهلل ويحيط بالاخ احمد سليمان المحامي تكريما له وكان قد خرج من سجن كوبر لتوه ـ كان ذلك في شارع الطابية بين القوات المسلحة ومكتب الخطوط الجوية السودانية للحجيج وما ان رآني ورأيته حتى نزلنا وبالاحضان والقبلات وتبادلنا التهاني وكان في حالة هيجان وانفعال شديدين يردد على مرأى ومسمع من الناس عبارات لا ولن انساها : (يا عبدالرحمن مختار علي الطلاق انت ارجل راجل... وحياة شرفي الماركسي العملتو ده ما يعملوا راجل غيرك يا أب ضرس... يا اب ضراع) يا .. ويا .. وشكرته ووصفته بالبطل الخارج من العرين وذهب كل منا لحاله .

● وتدور الايام بكل ما فيها من حب وكره وحلال وحرام، وصدق وكذب، ونفاق ورياء وتبدأ القصص والحكايات والروايات والمناورات والمفاوضات بين جامعة الخرطوم والقصر الجمهوري وقبة المهدي فتنتصر (جبهة الهيئات للتجمع النقابي) على ضعفها وقلة عددها ويصبح الاخ العزيز احمد سليمان وزيرا ثم رئيساً للجنة التطهير ويبدأ القصاص الجبهوي التجمعي النقابي... وتشكل اللجان المتطرفة لا في البحث عن الحق والعدالة ومطاردة المجرمين والخونة واللصوص، وانما سلكت طريقا وعرا ومسدودا ومظلما في كيف تبتز الشرفاء وتطارد الآمنين وتلاحق الاحرار ..

## زيارة ساخنة جدا

في الساعة السادسة والدقيقة الاربعين من مساء يوم ٢ نوفمبر ١٩٦٤ وعلى غير

موعد مسبق قام بزيارتي في دار الصحافة كل من السيدين الوزيرين احمد سليمان والمرحوم الشفيع احمد الشيخ وقد استقبلناهم بحرارة تليق بهما والتف حولهما العاملون والمحررون يهنئونهما ثم دخلا مكتبي وبعد التحية وكانت فاترة على الاقل من جانبهما، اغلق الاخ احمد باب مكتبي بطريقة غريبة وابلغني بانهما يريدان طبع جريدة الميدان فاعتذرت لهما بادب جم وبسبب ضيق الامكانات لانني كنت اطبع جريدة الميثاق الاخوانية والمجلات الانجليزية بالاضافة إلى جريدة الصحافة كل ذلك والمرحوم الشفيع هادىء كعادته صامت لم يشارك الا في حدود ضيقة وبالنظرات التي لها الف معنى ومعنى!!

ما أن انتهيت من اعتذاري عن استحالة طبع الميدان الا وفقد الاخ احمد اعصابه ولم يتمالك نفسه فابتعد بحديثه وصراخه وتصرفاته قليلا عن حدود اللياقة وظن انه بسلوكه هذا انني ساجثو على ركبتي واخر عرقا خاصة عندما كان يكرر القسم بشرفه الماركسي وبدأت اصواتنا ترتفع كثيرا بدرجة لفتت انظار المحررين فدخل شيخ ادريس بركات فقطع علينا كل شيء بعدما فقدنا انا والاخ احمد منطق العقل والحكم واوشكنا ان نشتبك بالايدي لكنني استطعت والحمد لله اخيرا جدا وفي اللحظة المناسبة ان اتمالك نفسي واختصرت الطريق بان طلبت منهما بذوق وادب ان يخرجا من مكتبي غير مطرودين فخرجا في عصبية ظاهرة.

## وبدأت الملاحقات

بعد ايام قلية حذرني الاخ مبارك زروق مما يدور خلف الكواليس في مجلس الوزراء وسألني ان كان بيني وبين التجمع النقابي، آسف جبهة الهيئات اي سوء تفاهم فرويت له القصة حرفيا كما رويتها للعديد من اصدقاء الطرفين وعلى رأسهم محمد احمد محجوب الراجل العظيم والذي سأرويه لكم يعلمه جيدا الاخوان الاحياء من اعضاء مجلس الوزراء الاكتوبري وهم كثر... لن اتعرض في هذه العجالة لعلاقة الاخ احمد سليمان بمايو وصلاته بصناعها فقد روى هو قليلا من كثير عنها!

● بدأت ملاحقة مسيرة الصحافة وتاريخها في مجلس الوزراء من الوزراء الشيوعيين وبعض الممثلين لجبهة الهيئات فقالوا ان جريدة الصحافة عميلة وصاحبها جاسوس مخابرات شأن الضعفاء واسلوب الحاقدين وان العربة التي اركبها هدية من المخابرات الامريكية وقالوا... وقالوا... وقالوا وجاءوا بميزانية الصحافة وراجعوا تاريخها فاكتشفوا اولا ان العربة اشترتها دار الصحافة وهي (شفرليت) من متشل كوتش بـ ٢٤٠٠ وبالاقساط... واكتشفوا ان الصحافة رابحة جدا جدا لدرجة عندما وصلوا لراتبي وراتب زوجتي صرخ احدهم عفا الله عنه بعدما انهارت كل دعاواهم وجنايتهم

وحجهم (شوف مرتبه قدر ثلاثة وزراء ابن الـ ...!!

لم تتوقف المحاولات وبدأوا يبحثون ويتصيدون عن كل خطايا واخطاء الصحافة فوجدوا ايصالا في وزارة الثقافة والاعلام سلفية بألفي جنيه وبتوقيعي وبالرغم من انهم كان يعرفون حقيقتها الا انها كانت كافية لغايتهم واغراضهم ووجدوا فيها ضالتهم فاصدر وزير الداخلية كلمنت بعد قرار مجلس الوزراء بيانا عطل فيه ستة صحف سودانية على رأسها الصحافة بدعوى انها صحف منحلة وعميلة و .. و .. وقصة السلطة قديمة ابطالها مازالوا احياء وهو اللواء (م) طلعت فريد وزير الثقافة في نوفمبر متعه الله بالعافية والسيد احمد خير وزير الخارجية امد الله في ايامه ومحمد عبدالحليم ( وزير مالية سابق) وكان مستشاراً في مكتب الوزير ومن الذين فارقوا الحياة المرحومان محمد عامر بشير فوراوي ومتولي عيد . كان ذلك عندما استدعيت في مكتب الوزير بعد وصول المطابع لبورتسودان ولدهشتي وحيرتي معا وجدت اتفاقية وعقد شراكة جاهزين ٥١٪ للحكومة و٤٩٪ لي وقرأ الاتفاقية علي المستشار محمد عبدالحليم فرفضت جملة وتفصيلا وكنت اتساءل كالمجنون لكن لماذا؟!

● اختصر علينا الطريق اللواء طلعت الذي عرف بامانته وصرامته وبعدله ايضا فقال لي: (شوف يا عبدالرحمن يا اخي الحكومة شاكه في المطابع دي لانها حتستخدم حسب تقاريرها ضد الثورة فاما ان تقبل الشراكة واما سنرفض منحك رخصة الجريدة) وبعد اجتماعين متتالين قدمت فيهما للسيد الوزير جميع المستندات من بنك باركليز والبنك العثماني واثبت من خلال المراجعة ان وكالة الاخبار الافريقية حققت في ثلاث سنوات، ما يزيد عن الخمسة وعشرين الفا وكانت العشرين الفا منها هي القسط الاساسي للمطابع و... واخيرا اقتنع طلعت المؤمن العادل بسلامة موقفي لكنه قال لي حنديك قروش مساعدة فقلت له الحمد لله انا ما محتاج في الوقت الحاضر فاردف قائلا: (المابشيل قروش مننا ما معانا!!).

كل ذلك كان بحضور كل من ذكرت فكان الخيار صعبا وامام ضغط الاخ المرحوم والصديق الوفي متولي عيد قبلت المبدأ مكرها لكنني استطعت ان اخفض مبلغ المساعدة المقترح من عشرين الف جنيه إلى الفين وأصررت على اعتبارها سلفة وعلى كل حال فقد سددتها وانتهى الامر.

## دفاع هزمته الاغلبية الظالمة

علمت فيما بعد ان عددا من الوزراء ممن كانوا في صفي حاولوا جاهدين وبالمنطق السليم ابعاد الصحافة من كشف التعطيل بل قال مبارك زروق ان عبدالرحمن مختار مهما فعل ومهما اخطأ فالعدد السري يغفر له كل شيء بل ويجعله في مصاف الابطال

والمجاهدين ويستحق ان يشيد له تمثال لا ان يعاقب بهذه المرارة والقسوة لكن مع ذلك اصر الجانب المسيطر على الوزارة (تجمع الهيئات) على اجراء التصويت فامتنع رئيس الوزراء للتاريخ عن التصويت وهكذا غلب الباطل الحق، وقهر الظالم المظلوم وانتصرت الاغلبية الباغية على الاقلية الطاهرة وتعطلت الصحافة إلى حين لكنها عاودت الصدور بعد اسبوعين او ثلاثة من تشكيل حكومة ما بعد اكتوبر وكان مقدم اقتراح اعادتها مولانا الشيخ المرضي... عادت الصحافة اقوى مما كانت عليه فقد ضمها الشعب إلى صدره لانه كان يحس بها في نفسه فهي انيسته وحبيبته وصديقته وفي صفحاتها كل ما يشتهي ويريد ويتطلع اليه.

● انا لست في موقف اروي فيه قصص الابتزاز التي حدثت اثناء فترة ما بعد اكتوبر فهي كثيرة وعديدة ومحزنة ومخزية فكم خلفت من ضحايا ابرياء أعرف أسماءهم وتاريخهم ورواياتهم وحكاياتاتهم لكن الشيء الوحيد الذي بقي والذي مازال صداه يتردد في صدري هو صوت الاخ احمد سليمان عندما التقيت به عقب خروجه من السجن وهو يصرخ في وجهي بعصبية ووطنية:

علي الطلاق ياعبدالرحمن انت ارجل راجل... والعملتو ما يعملوا غيرك يا ابو ضرس... يا... يا..!؟

ما اردت والله الا ان اسجل التاريخ فهو الشيء الوحيد الضائع والمشوه في حياتنا وبعد هل اطمع في ان يغفر لي الأخ احمد وله العتبى حتى يرضى ولا اظنه يأبى بعدما هداه الله وعافاه.

## اية حكايتي مع الثورات !؟

● بقي سؤال لئيم وملحاح وغريب لكنه محق ظل يؤرقني منذ (رجب ـ ابريل) ومازال وسيظل يحوم فوقي وتحتي ومن يميني وعلى يساري وقد رأيت لذلك ان الجأ اليكم يا قرائي عسى ولعل ان تجدوا لي مخرجا:

(ايه حكايتي مع الثورات والانتفاضات!؟ فلما قامت ثورة اكتوبر ١٩٦٤ وبالرغم من انني قد ضحيت من اجلها بروحي واهلي.. وبالرغم من انها كان المفروض ان ترحمني وتحنو علي وتمحو معصيتي وتغفر لي خطاياي ـ ان كانت هناك ـ لكنها بدلا من ذلك مع الاسف الشديد والحزن العميق ظلمتني واذلتني عندما عطلت جبهة الهيئات صحيفتي... ثم جاءت انتفاضة رجب-ابريل وبدلا من ان تنصفني وترد إلي حقي المغتصب وكرامتي المسلوبة قتلت الفرحة في نفسي، واطفأت البسمة في شفتي عندما مضت في ظلمي وتجاهلي فقذف بي التجمع النقابي وحكومته الانتقالية إلى كوشة الغابة، ومستنقع النسيان!!

اللهم رد غضبك عني، والطف بي فانا عبدك الضعيف عبدالرحمن ود آمنة بت علي ساله!!

● خير ختام جال ويجول في خاطري هذه الايام هو زجل احمد فؤاد نجم الذي يقول فيه :

ولو احس الالم
يوشوش القلم
يصرخ على الورق
ويقول كل الكلام
عريان (مايزوقوش)
ويشرح الآلام للي ما اتألموش!!

# ﴿ الفصل الرابع عشر ﴾

- احاديث وتعليقات ثورية
- كيف التحم الجيش والشعب .
- ماذا نريد من حكومة الثورة
- نطالب بالتطهير  لحماية الثورة .

# صف واحد لن ينقسم

● كانت معركة الامس انتصارا كبيرا حققه الطالب والقاضي والمحامي والطبيب والجندي والاخ المسلم والشيوعي والتاجر والزارع والجنوبي والشيخ المسن والمرأة والطفل.

.. كان انتصارا لا تستطيع قوة في الارض ان تشكك فيه او تعزوه إلى فرد أو هيئة او جماعة.. ولا تستطيع كذلك ان تعزل عن هذا الانتصار قواتنا المسلحة لانها ارادت طوعا واختيارا ان تذوب في وسط الشعب، لانها جزء لا يتجزأ منه غير ان التاريخ القريب سيثبت إلى اي مدى تجاوبت مشاعر الجيش مع مشاعر المواطنين فاستجابت لصوتهم وآمنت بحقوقهم فجنبت بذلك البلاد مزيدا من المحن... ومزيدا من الدماء ومزيدا من الدموع..

ان صفوف الشعب السوداني التي سارت في الشارع الكبير في العاصمة وفي كل بقعة من السودان لم تكن تهتف لغير هذا السودان كانت تهتف وهي تخترق المصاعب والاهوال في الشارع الكبير شارع الحرية والبقاء والخلود.

« .. عاشت وحدة الشعب... وعاش السودان».

.. والآن اريد ان اقف قليلا قبل ان يستجم قلمي فيبدأ رحلة اخرى قد تتخذ طريقا مغايرا.. اريد ان اقف عند شعارات الامس الكبيرة حتى نتمعن معناها... ونتعرف على مدلولها ونتبين قدسيتها، قبل ان تضيع وسط الضجيج، ووسط الزحام..

.. هذه الشعارات القوية الموحدة التي اكتسحت امامها كل شي واهتزت من هديرها المدن والقرى والصحارى والوديان، نريد ان نترجمها الى افعال... إلى حقائق حتى لا تضيع وسط الزغاريد وطبول الفرح. ولا يمكن ان نترجمها إلى حقائق واقعة الا اذا توحدت في المفهوم والمدلول وفي القلوب والألسنة... وفي الارواح والمشاعر.. فاذا ما استطعنا دائما وابدا ان نوحد الصفوف والاقوال والافعال فاننا سننتصر دائما، وسنسير إلى الامام دائما... وسنكتسح امامنا الالغام دائما... وسنمضي إلى تحقيق اهدافنا دائما..

.. ان الانتصار الذي حققناه امس الاول وامس بالمحافظة على مكاسبنا لا يقل عن

الانتصار الذي حققناه يوم ٢١ اكتوبر لانه كان بالنسبة لنا اول لغم يتفجر تحت اقدامنا ونحن في أطراف الطريق لرحلة جديدة من اعمارنا .

.. انفجر اللغم تحت اقدامنا ولكن اقدامنا كانت اقوى من صوت الانفجار فخنقته تحت الارض وكتمت انفاسه قبل ان يؤذي اصبعاً واحداً من ملايين الاصابع التي داسته ، ولكن ليس معنى انتصار الامس انه انتصار لنا في بقية الرحلة فنحن ما زلنا نسير على الارض محفوفة بالمخاطر وما زلنا نتقدم في طريق لا نعرف كمية الالغام وعدد المتفجرات التي تحيط به حتى ندرك نهاية الشارع ولكننا مع ذلك لن نتخوف ، ولن نقف ، ولن نكف عن السير حتى ندرك نهاية الرحلة ، ولا بأس من ان نتبين معالم الطريق ، ونتحسس مواضع الاقدام دون ان نعبأ بالالغام والمتفجرات لان اقدامنا كثيرة وخطواتنا قوية منتظمة تستطيع ان تخنق تحتها اي صوت وتكتم تحتها اي انفاس .

.. لقد ادرك الآن الشعب السوداني شيئا واحدا لا يختلف فيه اثنان هو ان انتصاره هذا لم يحققه بغير التماسك والائتلاف ووحدة الصف والهدف والاخلاص ونحن نريد الآن ان نحول رصيدنا الضخم من هذه المعاني والمفاهيم الى حكومتنا التي جاءت عن طريق الجبهة الوطنية الموحدة البرلمان الشعبي الذي اجمعت عليه جميع قطاعات الشعب ... نريد ان نمنحها اليوم تأييدنا المطلق ونهيىء لها في الوقت ذاته الجو المناسب الذي تستطيع معه ان تؤدي اعمالها الكبيرة الضخمة في فترة الانتقال القصيرة الحرجة ... نريد ان نعد لها الجو المناسب حتى نمكنها من انجاز بقية مطالبنا وتكملة انتصاراتنا .

ولكننا مع ذلك يجب علينا ان نمضي في الحذر والترصد والترقب فنرهف الآذان ، ونفتح العيون ونشد السواعد حتى نحمي حكومتنا وجبهتنا الوطنية ففي ذلك حماية لنا ولمطالبنا القومية .

.. «والصحافة» وهي حريصة على مكاسب الشعب لن تتردد وهي ترقب الامور في ان تكشف للشعب الوفي المخلص وهو يسير في طريق الخلود .. لن نتردد في ان نتحسس الطريق ونكشف له مواضع الالغام حتى نكتم انفاسها دون ان نفقد اصبعا واحدا .

## شعب ... وجيش

● .. احسست بعبء كبير ينزل من صدري وانا اطالع سطور المذكرة الخالدة التي سلمتها قواتنا المسلحة الباسلة امس إلى رئيس الوزراء في نادي الضباط.

.. واحسست بالفخار وانا اتابع كلماتها ومعانيها التي تعبر عن وطنية صادقة ، ومشاعر قوية ترتبط كلها بجماهير الشعب ، وتمتزج بصفوفه ، وتتجاوب مع احاسيسه ،

رغما عن الدسائس والمؤمرات التي حسبوها قادرة على ان تفرق بين شعب وجيش وهما يجتازان اخطر اختبار في التاريخ.

.. قلت مرارا ان الايام ستثبت إلى اي مدى كان جيشنا النظيف الطاهر يتجاوب مع رغبات الشعب ومع هتافاته وصيحاته.. وكيف كان يتمزق حزنا والما على الرصاص الذي حصد ارواح الشهداء وعلى انين المصابين داخل الاسوار. ورغما عن الحواجز الشائكة التي كانت تفصل بينه وبين الشعب، فقد أبى جيشنا الباسل الا ان يدخل المعركة وهي في غليانها فاوقف كل محاولة آثمة وكل مؤامرة ضارة تهدد مكاسب الشعب، وتهز كيان الحكومة الشرعية وتعرض الشعب إلى مزيد من الاحزان والدموع والدم.

.. ولم يكتف جيشنا الباسل بذلك بل تجاوب مع الشعب والحكومة فاقتطع يوما من مرتبات ضباطه وجنوده، تبرعا للشهداء... لشهدائه وشهداء شعبه.

.. وامس قدمت قواتنا المسلحة وثيقة الشرف والخلود إلى الشعب السوداني في شخص رئيس الحكومة الشعبية القومية.

.. فبالاحضان جيشنا العظيم، وبالتهنئة الحلوة العطرة، ومرحبا بأياديكم الطاهرة، وارجلكم القوية وهي تسير متشابكة مع الشعب في رحلة الخلود.

.. عاشت وحدة الشعب والجيش والله اكبر والعزة للسودان.

## ٧ ايام تحت المجهر

●.. واجهنا مشاكلنا في الداخل بصراحة واصرار وايمان حتى انتصر الشعب والجيش ورجال الامن على عدوهم المباشر الذي تمركز في الحكم العسكري... وواجهنا في سبيل ذلك اختبارات عديدة كانت نتيجة طبيعية لمرحلة الكفاح بين شعب وحكومة.. واجهنا في الداخل الكثير من المشاكل، ولكننا حتى الآن لم نواجه مشاكلنا في الخارج او مشاكل الخارج منا..

.. الاسابيع القليلة الماضية كانت محشوة في الداخل بأحداث كثيرة لا اقول أنستنا ما يقال وما يكتب عنا في الخارج ولكن اقول بأنها صرفتنا إلى بعض الوقت... وان صرفتنا الى بعض الوقت فانها لا تستطيع ان تصرفنا إلى الابد..

.. ماذا قالت صحافة الدول الاجنبية عن ثورة السودان؟

.. هذا السؤال تقتضي الاجابة منا عليه ان نستعرض في ايجاز موقف الدول الغربية من السودان وعلى رأسها امريكا وليكن استعراضنا اليوم منحصرا في امريكا بوصفها دولة الاستعمار الجديد الذي يعود إلى الشعوب الجديدة (بالشبابيك) وفي يديه وحول اكتافه حقائب مليئة بالدولار كما نسميه نحن او المعونات الاقتصادية كما يحلو لامريكا ان تسميها.

.. كانت سياسة السودان الخارجية فيما يبدو حيادية اكثر مما يجب وسلبية اكثر من السلبية ولئن ارتضى شعب السودان سياسة الحياد الايجابي وصداقة الشعوب ... كل الشعوب على اسس المصالح المشتركة فان الحكومة العسكرية السابقة قد تبنت هذه الفكرة في الظاهر وحنطتها تحنيطا مباشرا في واقع الامر . فالنفوذ الاستعماري وعلى رأسه امريكا كان مسلطا تسليطا مباشرا على سياسة السودان الخارجية وتصرفاته في المحافل الدولية ولئن كانت هناك حسنة اذكرها للرئيس السابق عبود فهو انه رفض ان يستجيب للضغط الامريكي بعدم زيارة الصين ولكن يبدو ان قبوله للدعوة واذاعتها في الصين وفي العالم جعلت موقفه دقيقا وحرجا مما جعله يصر على زيارة الصين .. ان هذا الموقف يدل إلى اي مدى كان النفوذ الامريكي قريبا وعميقا في سياستنا الخارجية .

.. سمعت باسطورة اتفاق تم بين انجلترا وامريكا على ان تخرج بريطانيا من افريقيا بالابواب وتدخل لها امريكا من النوافذ ... يعني باختصار ان ينتهي الاستعمار السياسي المباشر ليأتي استعمار غير مباشر وانا شخصيا افضل الاستعمار السياسي المباشر لان معالمه واضحة في كل مكان تستطيع الكتل الشعبية ان تتبينه بوضوح، وتهاجمه بوضوح، وتطرده بوضوح .

.. اما الاستعمار الاقتصادي فهو كمرض السرطان يحس الجسد آلامه ولكنه غالبا لا يحس موضعه فيظل ينخر في الجسد وببطء شديد ولأطول مدة ممكنة حتى يقضي عليه تماما .

ان الحكومة العسكرية السابقة كانت لها سياسة مريبة (غير مدركة) مع العالم الخارجي ولكني استطيع ان أؤكد بانها كانت ضعيفة فاقدة المعالم والمعاني فنظرة وزير الخارجية السابق للعالم الخارجي كانت نظرة شخصية بحتة اتسمت بالضيق والجهل والغرور واستسلمت له الحكومة في لين حتى بدأت معالم السرطان تنخر في الحكومة وفي سمعة السودان وشعب السودان الذي تدحرج بسرعة البرق من فوق إلى تحت .

.. ليس هذا وقت التفصيلات فسأكتب في القريب العاجل ان شاء الله عن سياستنا الخارجية نحو الشرق والغرب مستعينا بما حدث في زيارة وفد السودان الرسمي وعلى رأسه الرئيس السابق عبود إلى كل من الباكستان والصين والهند وبريطانيا ... قريبا سأتحدث باسهاب عن هذه الزيارات فهي تحمل صورة قلمية وصوتية لسياستنا الخارجية المهتزة المضطربة .

.. اعود الان إلى موقف الصحف الاستعمارية التي تمثل الوجه الحقيقي للسياسة الامريكية نحو ثورة السودان فقد نشرت مجلة النيوزويك في عددها الصادر بتاريخ ٩ نوفمبر تعليقات وتحليلات لا ادري ان كنت اصفها بالجهل ام بالاماني ام بالتضليل ام بالجهل والاماني والتضليل معا ويستحسن ان اترك ذلك لتقدير القارىء وهو يستعرض

معي ما كتبته الصحيفة. قالت النيوزويك:

ارسلت الحكومة قواتها لتفريق ندوة طلبة الجامعة الذين تغلبوا على البوليس ومضوا يخربون المتاجر ويحرقون العربات.

طالب الرجل الثاني في الحكومة ان يسمح للجيش باسكات الطلبة.

.. من هو الرجل الثاني؟

قامت حكومة انتقالية ضمت جميع الاتجاهات من المسلمين في اقصى اليمين إلى الشيوعيين في اقصى اليسار وعلى رأس الدولة رجل غامض اعلن ان الانتخابات ستتم خلال خمسة اشهر.

... واختتمت المجلة الامريكية حديثها عن احداث السودان فقالت:

«ان المراقبين الذين يعرفون حقيقة الجيش السوداني واتجاهاته يستبعدون قيام تلك الانتخابات».. هكذا وبكل بساطة حللت النيوزويك احداث السودان.. حللتها بمنظارها هي وكما يحلو لها هي وكما تتمناه هي.

.. قلت سأترك للقارىء العزيز وهو يستعرض معي ما كتبته هذه المجلة فرصة التقدير.

أما تقديري انا فهو يتلخص في:

(١) ان السياسة الامريكية صدمتها أنباء ثورة السودان وأدارت رأسها تماما لانها لم تكن تتوقع حسب مفهوم (المراقبين السياسيين) ان ينتصر شعب على جيش.

(٢) افتقدت امريكا مع انتهاء الحكم العسكري قبضتها على السودان التي امتدت من الناحية الاقتصادية في اقصى اليمين إلى النفوذ السياسي في اقصى اليسار.

(٣) المراقبون السياسيون حسب المفهوم اتهموا الثورة الشعبية بأنها شيوعية او ذات ميول يسارية حتى يخففوا اللطمة على البيت الابيض.

(٤) تعدى نفوذ السفارة الامريكية في الخرطوم حدوده فأغلقت حكومة السودان السابقة الباب امام رأس المال الاجنبي الحر الذي لا يتمشى مع السياسة الامريكية الاستعمارية وركد بذلك التطور الاقتصادي والتجاري في كل ميادينا.

(٥) ساهمت السياسة الامريكية إلى حد كبير في تجميد سياستنا الخارجية (وتحنيط) سياستنا الداخلية وامتدت اصابعها إلى مختلف الاجهزة الحساسة وغير الحساسة وطوقتها تماما.

(٦) ساهمت إلى حد كبير في تحنيط (الصحف السودانية) لدرجة لم تستطع معها التعقيب على الاحداث العالمية فأمرت الحكومة جميع الصحف السودانية بالابتعاد عن التعليق على الأحداث العالمية وعدم التعرض لسياسات العدوان مهما كان نوعها.

.. تستطيع امريكا ان تدعى ان الصحف عندها تتمتع بحرية النشر ولا تمثل في ذات الوقت سياستها ونحن نستطيع ان نقبل هذا المنطق فيما يختص بسياسة الصحف

الامريكية الداخلية لكننا لا نستطيع ان نقبله مطلقا فيما يتعلق بسياسة صحفها الخارجية لانها مرتبطة ارتباطا كليا بسياستها العامة في افريقيا على الاقل ان لم يكن في العالم كله .

.. ان المشاكل الداخلية التي واجهناها يجب الا تصرفنا بعد اليوم عن المشاكل الخارجية التي سنواجهها غدا وبعد غد . فالاستعمار سيحاول ان يسترد انفاسه من جديد ليدخل الشبابيك من جديد وبسياسة جديدة .

.. الذي نريد ان نؤكد اننا حريصون على تحقيق مكاسبنا وتنفيذ رغباتنا وسنظل نسير في طريقنا الصحيح دون ان نغفل الخارج وسياسة الخارج ومع ذلك فاننا نؤمن بالحياد الايجابي وصداقة الشعوب من موسكو ... إلى بكين ... إلى لندن .. إلى بلغراد ... إلى واشنطن ونرحب بجميع الايدي التي تمتد الينا مهما كان لونها .. ومهما كان طولها وسمكها وعرضها لكننا لن نسمح بعد اليوم ليد تصفعنا ، او سياسة تملى علينا ، او تدخل يثنينا عن سيرنا .

.. ان السودان الذي قفل ابوابه امام رأس المال الاجنبي الحر ليفتح الابواب جميعها الان على اسس عادلة في قمتها مصلحة السودان أولا ، ومصلحة الاطراف المعنية ثانياً .

.. انني آمل ان يواجه الشعب السوداني التسلط الخارجي بنفس الحماس وبنفس الاصرار وبنفس التكتل ... وبنفس القوة التي انتصر بها في ثورة ٢١ أكتوبر لأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يحمي ظهورنا ونحن نسير بعنف إلى الامام .

● كانت ايام الاسبوع التي انتهت امس ١٩٦٤/١١/١٣ فاترة وساعاتها تمشي في تثاقل مثير وهي تحمل في كل لحظة مفاجأة كبيرة تدير الرؤوس وتمزق الاعصاب حتى عاش الشعب كله يزمجر كالزلازل ويزأر كالاسود .. ويغلي كالبراكين ، لكن الاقدار تدخلت ووعي الجماهير نضج فلم تحدث انفجارات خطرة ، ولم تحدث خسائر يخشى منها على ضياع مكاسب الشعب ، ولكن مع ذلك لابد لي من أن استعرض المراحل التي تسببت في الغليان ... ولابد لهذا الاستعراض ان يكون صريحا وقويا ومنطقيا وعادلا . فما هي الاسباب التي ادت إلى الغليان ... وما هي الخسائر التي تعرضنا لها وما المكاسب التي حققناها ؟

● .. دعوني اولا ابدأ من اللحظات الاولى .. من اللحظات التي اشتعل فيها عود الكبريت حتى اقترب من برميل البارود .. إلى اللحظات التي انطفأ فيها عود الكبريت واختنق فيها البرميل بعدما فار وتحرك وأوشك على الانفجار .

.. يوم الاثنين الماضي كان يوم الاحداث فقد نما إلى علمي ان هنالك اجتماعات منعقدة في رئاسة القوات بين القادة وكبار الضباط في الرئاسة وظللت اتابع هذا الاجتماع تساورني المخاوف ... وازدادت مخاوفي هاته عندما جاءتني رسالة في المساء محشوة في اعقاب طعام ... ثم تضاعفت مخاوفي عندما اتصل بي الضابط المواطن ( ... ) تلفونيا

وهو يبدى اكثر من المخاوف واكثر من الشكوك من هذا الاجتماع الذي وصفه بالخطورة إلى درجة يخشى معها ان تلعب المساومات دورا تطيح معه مكاسب البلاد..

.. اجريت اتصالات خاصة سريعة بكبار المسئولين في الحكومة وابلغتهم بأنبائي وطلبوا منى ان اتابع انباء الاجتماع، ويتابعونها هم بطريقتهم الخاصة وظللت اراقب كل حركة من حولي وانفض الاجتماع وتوجه القادة إلى قياداتهم وابلغوها بما دار واتصلت بضابط صديق في رتبة (الصاغ) فنقل إلي ما نقله اليهم قادتهم وهو يتخلص في موضوع الضباط المعتقلين، وتطهير الجيش، وضرورة ولائه للحكومة.

.. هكذا كانت طبيعة الاجتماع في رئاسة القوات المسلحة غير أن الظروف التي تجتازها البلاد آنذاك كانت دقيقة وحساسة إلى الدرجة التي تخيف أي مواطن بمجرد سماعه عن اجتماع في القوات المسلحة..

.. من المؤكد ان المخاوف التي اسر إلي بها الضابط (..) في محادثته التلفونية معي.. وفي الرسالة التي وصلتني من داخل الثكنات كانت خطيرة وكبيرة... ومن المؤكد ايضا ان مجرد اجتماع قادة الاسلحة وضباط الرئاسة في لحظات حرجة حساسة محشوة بالبارود بصرف النظر عما يدور في داخلها فيها الكفاية لاثارة المخاوف والشكوك.. ومن المؤكد ان هذه المخاوف قد انتقلت انباؤها إلى العديد من المواطنين بما فيهم رجال الجبهة... ومن المؤكد ان رجال الجبهة افرادا كانوا ام جماعة وهو يلمون بخطورة الموقف اكثر من غيرهم قد تجسمت المخاوف في عقولهم.

.. ومن المؤكد كذلك ان يتصرف الافراد او الجماعات تصرفات سريعة ومستعجلة ترتفع إلى مستوى الثورة... ومن المؤكد ان مستوى الاحداث في تلك اللحظات يجعل الواقفين على حقائق الامور في شبه هستيريا.. ومن المؤكد ان هذه الهستيريا قد احاطات برأس الفرد أو الافراد في الجبهة فكانت نتيجتها الحتمية هي اذاعة النداء للشعب من الاذاعة.

.. اريد ان اترك موقف الفرد أو الافراد الذين احاطت بهم (هستيريا المخاوف على الثورة) فاذاعوا النداء للشعب فقد اوشكت انا نفسي ان اصدر ملحقا خاصا انبه فيه الشعب للخطر حتى يحمي مكاسبه لان (هستيريا الثورة) في تلك اللحظات قد اصابتني وملأت عقلي وقلبي وروحي، ولكن الفرق بيني وبين الفرد او الافراد الذين اصابتهم (هستيريا الثورة) هو انني استطعت ان الم بحقائق الاجتماع وبتفاصيل الاجتماع وهم لم يستطيعوا ان يعرفوا شيئا فماذا كان يمكنهم ان يفعلوا؟

.. دعونا أولا وقد استقرت الأحوال الآن ان نتساءل هل كان هناك دافع سيىء وراء اذاعة النداء... وهل كان هناك غرض وراء ما حدث... اي غرض؟

الجواب بالبنط العريض «لا».

.. قلت اريد أن أكون صريحا وأنا استعرض الموقف.

.. ان الدوافع التي حدت بالفرد او الافراد الذين وجهوا النداء كانت كبيرة ونبيلة ... دعونا نتعمق في اللحظات التي كانوا يعيشونها فقد عشتها نفسي حتى الساعات الاولى من المساء.

.. انها لحظات يفقد فيها المواطن عقله واعصابه لان موطنه يواجه الخطر... وشعبه يواجه الخطر.

.. ومكاسب ثورته تواجه الخطر... واسرته تواجه الخطر... وهو نفسه يواجه الخطر وكما قلت فقد اوشكت وانا في لحظاتي تلك ان اصدر ملحقا خاصا انبه فيه لهذا الخطر.

.. وماذا وكيف كنا ننتظر من الفرد او الافراد في الجبهة ان يتصرفوا في تلك اللحظات والخطر يعيش في عقولهم وقلوبهم..

.. لا تقولوا لي كان من الاجدر ان يتصلوا بمجلس الوزراء.. ولا تقولوا لي كان من الاصوب ان يفعلوا كذا وكيت... ولا تقولوا لي كان من المنطق ان... وان... وان، فلم تكن تلك اللحظات لحظات منطق، ولم تكن الساعات ساعات اخذ ورد وتفكير وتحليل، لاننا كنا نعيش في ثورة لم تتركز بعد... ثورة امة تحيط بها المخاوف والمؤامرات... ثورة عارمة لم تعرف بعد منطق العقل والتريث والقانون والنظم ومن يدير الاذاعة ومن لا يديرها كانت ثورة منطقها الثورة.

ان اللحظات التي كنا نعيشها كانت كلها ثورة وقلق ومخاوف ومخاطر... وفي لحظات كهذه يفكر العقل بمنطق الثورة فقط ولن يلجأ لمنطق الروية والتحليل والتريث لا لانه لا يريد ولكن فقط لانه لا يستطيع ولن يستطيع.

.. دعونا مرة ثانية وقد استقرت الاحوال لان نتساءل عن مبلغ خسارتنا وارباحنا من نتائج اذاعة النداء للشعب يوم الاثنين... هل كان رصيدنا الخسارة... ام الربح؟

.. (قلت اريد أن أكون أكثر من صريح وانا استعرض الموقف).

.. ان خسارتنا قليلة جدا... فقد كانت نتائج الثورة الثانية في مساء الاثنين وصباح الثلاثاء ان ثار بعض المواطنين فاعتدوا مع الاسف الشديد على بعض السفارات احدثوا بها بعض الحرائق ونحن مع اعتذارنا لما حدث نرجو ان يقدر رجال السفارات ومن اعتدي عليهم الظروف الحرجة التي تمر بها البلاد.

.. أما جانب الارباح فقد كانت موازينة ثقيلة جدا لا يستطيع احد غير الشعب كله ان يحملها.. فقد كان النداء اختبارا عسيرا اكد على كل حال ان هذا الشعب لا يمكن ان ينهزم... ولا يمكن ان ينقسم... ولا يمكن ان يتراجع وفي ذلك كل الكفاية لتخويله المكان الأسمى من التقدير والاجلال والتعظيم.

.. دعونا مرة ثالثة ان نكتفي بالارباح التي حققناها يوم الاثنين الماضي وبالقرارات التنظيمية التي اتخذتها الحكومة على اثر ما حدث من تصرفات يبررها حسن النية لان

فترة ما قبل القرارات كانت فترة تريث ومنطق وفي ذلك ايضا كل الكفاية.

.. ارتفع اتحاد عمال السودان إلى ما فوق مستوى الاحداث ولو لم يفعل ذلك لما كان اتحاد عمال السودان الشامخ الضخم الذي يتصدر دائما طليعة الاحداث مع صفوف شعبه ومواطنيه فقد قرر يوم الاربعاء الماضي ان يتبرع كل عامل نقابي بمرتب يوم من مرتبات ديسمبر تدعيماً لموقف الحكومة المالي. وموقف الحكومة المالي كما تعلمون يحتاج إلى تدعيم منطقي لموقف الحكومة

فهل للموظفين والتجار والمزارعين والمرأة وكل طوائف الشعب ان تتخذ اي قرار منطقي يدعم موقف الحكومة المالي؟

.. السفارات وعلى رأسها سفارة الشقيقة مصر، والمفوضيات والاجانب الذين عاشوا وسط هذا الشعب وتنسموا هواء هذا البلد لابد وقد احسوا ما كنا فيه وما اصبحنا عليه لا اريد ان استعرض ما كنا فيه، فكفى اننا نعيش تحت الاحذية، ونتنسم هواء المداخن الاسود الفاحم حتى امتلأت صدورنا بالعلة والمرض والاثارة والثورة.

.. اريد فقط من جميع السفارات التي اعتدى عليها بعض الثائرين (دون ان اصفهم بأكثر من ثائرين).. واريد من جميع اخواننا الاجانب الذين اصابتهم شظايا الثورة في عرباتهم أو.. ممتلكاتهم... اريدهم فقط ان يعذرونا فنحن ما كنا يوما حاقدين ولا معتدين.. وما كنا يوما نسيء إلى ضيفنا او جارنا، وتاريخنا خير دليل وشهيد ولكننا كنا في حالة هستيريا ثورة عارمة فقدنا من اجلها الكثير، وكنا على استعداد ان نفقد من اجلها الاكثر، ومع ذلك فاننا نأسف لما حدث... ونستمحيهم العذر فيما جرى.

وقواتنا المسلحة هي الاخرى قد ارتفعت الى ما فوق مستوى الاحداث، ولو لم تفعل ذلك لما كانت جديرة بأن تكون قواتنا، فقد قرر ضباطها وجنودها التبرع بيوم واحد من مرتباتهم للشهداء.

وبعد هل يمكن لهذا الشعب ان ينهزم... وهل يمكن لهذا الشعب بعد الآن ان ينقسم؟

## لماذا طالبنا بالتطهير؟

.. قبل ان نستأنف رحلتنا في الطريق الطويل بعد انتصارنا الشعبي الكبير... دعونا نستجم قليلا لنريح انفاسنا اللاهثة ونزيل من على اجسادنا وارجلنا عبارة المعركة، ونمسح العرق والدموع والدم. ونغسل من عيوننا آثار دخان القنابل والرصاص.

.. حقق الشعب انتصاره الاكبر وانتخب بالاجماع حكومة قومية انتقالية تحمل العبء عنه وهو رقيب عليها وقد استجاب إلى ندائها واستأنف اعماله حتى يهيىء لها الهدوء

والاستقرار ولكن هل تستطيع الحكومة ان تمضي بأقدام ثابتة ومن تحتها وحولها الالغام؟

هل يمكن للحكومة ان تؤدي اعمالها وهي مطمئنة ومن حولها فساد يحيط بجدرانها الاربعة ويقبض على (حلقومها) بالاصابع العشرة؟

ان الهتاف الذي اجتمعت عليه طبقات الشعب هو المطالبة بالتطهير.. والمطالبة بالتطهير ليس هي حماية لمكاسب الامة فحسب وانما هي حماية للحكومة التي اوكل لها حماية المكاسب فهل يمكن للشعب ان يطمئن وحوله جيوش الفساد في كل ميدان؟

ان كلمة (تطهير) التي يطالب بها الشعب كلمة عريضة سنحاول ترجمتها كل يوم (فالصحافة) التي غسلت بالامس قلمها بالماء الدافىء ونظفت مدادها لن تجامل بعد اليوم شقيقا او صديقا او قريبا وستظل تسعى جارية لاهثة وهي تحقق مطلب الشعب في التطهير بكل معانيه الخاصة والعامة... ان الفساد الذي واجهناه في اعوامنا الستة الماضية فساد لم يغفل ميدانا من الميادين فقد كان فساداً في الاقتصاد، وفساداً في الأمن، وفساداً في استغلال النفوذ وفساداً في الاتجار وفي العطاءات والمقاولات والاخلاق و... و.. وكل ذلك سنتحدث عنه ولكن انواع الفساد المستعجلة التي تواجه وتهدر مكاسب الشعب تنحصر في:

(١) فساد الامن.

(٢) فساد في بعض عناصر جيشنا الباسل.

(٣) فساد الاقتصاد.

(٤) فساد العدالة.

(٥) فساد الخدمة المدنية.

.. خمسة انواع من الفساد كل منها يستطيع منفردا ان يهز كيان الحكومة، ويهدد مكاسب الشعب... خمسة انواع من الفساد لا تحتمل من الحكومة انصاف الحلول والتباطؤ، ولا يستطيع الشعب وقد منح تأييده المطلق للحكومة الشعبية ان يقبل منها انصاف الحلول والتباطؤ ومحاربة الفساد على مراحل فماذا تنتظر حكومة جاءت بارادة الشعب كله، ونالت رضاء الشعب كله وهي تستمع إلى مطالبة الشعب بالتطهير؟

.. وانفجر برميل البارود امس فنظف جهاز القضاء.

.. وانفجر البرميل بالامس القريب في جهاز الامن فأطاح بالاصابع والارجل، وبقيت اصابع وارجل، ولكنه لم يقتلع الرأس والجسد.

.. والبرميل ما زال يغلي دون ان تمتد جبال (الديناميت) بعد إلى جهاز الخدمة المدنية .. إلى فضائح الوزارات، وسفاراتنا في الخارج.. وتوزيع الابعديات في الضواحي واطراف المداين.

.. والبرميل ما زال يغلي ولكنه بعيد عن الفساد الاقتصادي الذي يؤثر بطريقة

مباشرة على كياننا المالي فالبيوتات التجارية (وبنك الكريدي ليونيه) وقصة شراكة الحكومة له وقصة السلفيات، وقصص معظم الشركات التي قامت في العهد الماضي بالاسهم وبعرق المواطنين ودموعهم.. كلها مازالت بعيدة عن برميل البارود... بعيدة جدا على الرغم من ان ما وصل اليه السودان من سوء اقتصادي يستحق اكثر من الاسراع في التحقيق.

والبرميل ما زال يغلي ولكنه خشي ان يمتد إلى جيشنا الباسل ليطهر صفوفه فاكتفى بأنصاف الحلول.

.. هذه هي انواع الفساد التي تهز الحكومة وتهدد مكاسب الشعب وتجعل (برميل البارود) يواصل غليانه، وتجعل اقدام الشعب والحكومة تسير في طريق خطير تحيط به انواع كثيرة من الالغام. وعلى الرغم من انني قلت اكثر من مرة ان أقدام الشعب كثيرة وقوية تستطيع ان تخنق الالغام، وتسكت الانفاس الا انني مع ذلك لا ارى ما يمنع ان تعد الحكومة الان مكنسة كبيرة وتزيل بها هذه الالغام حتى لا تصيب اصبعا واحدا ونحن نسير في الشارع الكبير ... من اجل هذا يطالب الشعب بالتطهير.

## منازل الزجاج

.. التطهير الذي يطالب به الشعب له جوانب عديدة.. جوانب بعيدة المدى وجوانب قريبة المدى.

.. الجوانب بعيدة المدى هي فساد المحسوبية، وفساد الاخلاق وفساد العطاءات، والنهب والاراضي والمقاولات... و.. هذا الجانب تستطيع الحكومة ان تؤلف له لجانا خاصة للتحقيق وتتوفر فيها كل معاني العدالة حتى لا يؤاخذ مواطن لمجرد الشبهات فهذا ما نحاربه ايضا.

.. اما الجوانب قريبة المدى فهي فساد الاجهزة الحساسة في الدولة والخدمة المدنية التي نطالب الحكومة ان تقضي عليه فوراً لان مجرد وجود الشكوك في هذه الاجهزة الحساسة كاف لهز الحكومة وزعزعة الثقة وتهديد المكاسب الكبيرة التي حققها الشعب بثورته. وفي ذلك نطالب الصحافة ايضا بالتحقيق العادل لان ثورة ٢١ اكتوبر لن تغمد رمحها في صدور الابرياء مهما لاكت سمعتهم الالسن حتى تثبت ادانتهم بالدليل القاطع.

.. هناك جهاز حساس آخر هو موضوع حديث اليوم وهو جهاز (الصحف) وانا لا اريد هنا ان اتحدث عن الافراد في الوقت الحاضر على الاقل ونحن نواجه هذا الظرف الدقيق، ولكنني اريد ان اتطرق الى الصحف السودانية بمعناها الكبير (كسلطة رابعة) ومدى ما تشكله من خطورة وهي تقود الرأي العام السوداني في لحظاته الحرجة.

.. انا لا اريد ان اجنح إلى التهاتر والتجني والتشفي، فليس في مجال اليوم مكان لحملات الوقيعة والاحقاد والنفاق والتلاعب بالالفاظ... وليس في عقول اليوم مكان لغير المنطق والحجة والصدق والامانة... وليس في مفهوم اليوم موضع لغير البناء والتعمير والتوجيه والتهذيب.

.. واجهت (الصحافة) السودانية في العهد السابق كبتا وضغطا لم تستطع معه ان تؤدي رسالتها كما ينبغي باستثناء قليل من الصحف التي حاولت ان تتمرد على الحاكمين في مناسبات مختلفة فأشهر عليها سلاح التعطيل والمحاربة في اعمالها التجارية محاربة رخيصة اوشكت ان تنتهي معها الى الابد، ثم استسلم بعضها على مضض واستسلم بعضها الآخر في لين ويسر ومبالغة فاصبح يهوديا اكثر من بن غورين وهنا موضع الخطر.

.. ليس هذا على اي حال تبرير لموقف (الصحافة) بالذات فلئن اتخذت جانب السلبية في كثير من المواضع مع العهد السابق، فان كثيرا من فئات الشعب باستثناء القلة القليلة منه كانت سلبية إلى الدرجة التي تسخر فيها من مواكب الطلبة وهم يهتفون ضد الوضع البائد بل إلى الدرجة التي كانت تساعد معهـــا (بوليس قمع المظاهرات) على اعتقالهم... فلكم والله شهدت المتاجر وهي تغلق دونهم عندما يحاولون الاحتماء بها... ولكم والله شاهدت المواطنين في الشارع وهم يحاصرون جموع الفارين من هراوات البوليس.

.. هذا ايضا ليس تبريراً لموقف (الصحافة) فلئن غفرت لها كل شيء، فانني لا استطيع ان اغفر لها وهي تصدر صبيحة الاربعاء المشئومة باهتة كئيبة مصفرة لا حلاوة فيها ولا طعم حتى اصبحت (الصحافة) على غير عهدها منعزلة عن الناس... بعيدة عن الميدان وهي ظلت وفية حريصة على ان تكون مع الناس طيلة حياتها القصيرة كانت ذلة فرضها عليها الحاكمون وارادت الاقدار ان تضعها في ذلك الموضع لا صاحبها. غير ان عزاء صاحبها الوحيد الذي خفف عليه الحزن والالم هو انه استطاع ان يلحق ركب الاحرار بعدما تمرد على السلبية ووقف مع خروجها على القانون وتحريضها لفئات الشعب ضد الحكم القائم آنذاك ودعوتها للاضراب السياسي.

.. قلت ان الصحف السودانية استسلم بعضها مرغما وعلى مضض، واستسلم بعضها الآخر في لين ويسر وعن رضا وطيب خاطر فكانت تطبع في مطابع الدولة، وتحرر في مكاتب الاستعلامات لتهاجم الاحرار ومواكب الطلبة ورجال الاحزاب المعارضة وتؤذيهم في اشخاصهم وعزتهم وكرامتهم كما شنت هجماتها بالامس القريب على موقف الشعب حتى في ادق ساعات حرجة ابان ثورة ٢١ أكتوبر ورددتها الاذاعة لتؤذي بها مشاعر الشعب الملتهبة وتعرقل سير الارجل القوية.

.. الصحف الموسمية التي تظهر لاسباب وتختفي لاسباب أيضاً، وبعض الصحف

الاسبوعية التي تسير مع كل ركب وتتابع كل عهد، وتعيش في الاسواق على ابتزاز وتهديد الاجانب والمواطنين وتعتمد على سرد الفضائح وفرض الاعلانات في موسم الشتاء والصيف ونوفمبر ... والأقلام الكبيرة والصغيرة الاجيرة والمستأجرة والتي تصنع للحكم المشاريع والخطط لتدعيمه في الداخل والخارج فتبتز عن قصد ورضاء وطيب خاطر الاموال الحرام.

هذا النوع من الصحف ... وهذا النوع من الاقلام وهي وهم غارقون حتى آذانهم في الفساد قد انقلبوا بين عشية وضحاها يتحـدثـون عـن الجـرائـم والفسـاد، ويطـالبـون بالقصاص والتطهير بينما هم احق الناس به ولكن الله اعمى قلوبهم وضمائرهم وهم لا يعلمون.

.. ان الخطر يتهدد المواطنين الان من الصحف الموسمية والاقلام المأجورة التي تصدر ان ارادوا لها الصدور، وتحتجب ان امسكوا عنها العطاء وهي لا تملك الا ان تصدر بما يريدون لا كما تريد هي، ولا كما تمليه مصلحة البلاد وارادة الشعب.

.. هذا ايضا لا يبرر موقف الصُّحف اليومية مجتمعة خشية منها في ان تساهم بعضها مع الاخريات في تقويض مكاسب الشعب وافساد الرأي العام اما بسبب عدم المسئولية، واما لاغراض ابعد ما تكون عن مصلحة البلاد ولا اظن ان الصحف اليومية تخالفني الرأي في ان تفتح صدورها وابوابها ومنافذها للتطهير بل وتطالب الحكومة بان تضعها جنبا إلى جنب في قائمة الاجهزة الحساسة باعتبارها الغاما تعرقل سير القافلة الشعبية.

## يوم القصاص وساعة الحساب

.. القرار الذي اتخذته الحكومة بتكوين لجنة التطهير قرار عظيم تستحق عليه الثناء والتقدير لانه يحمي الشعب من امتداد الفساد والثراء الحرام الذي كون من عرق الناس، ودموع المساكين.

.. ان المهمة الملقاة على عاتق لجنة التطهير مهمة كبيرة وخطيرة فهي تحتاج اول ما تحتاج الى سعة في الصدر، ورجاحة في العقل وعدالة في الحكم حتى لا يؤخذ مواطن بريء لمجرد الشبهات.

.. ان ثورة ٢١ أكتوبر قامت لتوفر العدالة والمساواة لكل مواطن حر نزيه، وهي ثورة تحققت بكل الوسائل الشريفة، وليس من بين اسلحتها الغدر والتشفي والاحقاد والشائعات والضغائن والظلم ولن تغمد حكومة الشعب خنجرا في صدور الأبرياء..

.. ان لجنة التطهير لا يمكن ان تؤدي أعمالها الخطيرة الكبيرة كما ينبغي الا اذا عرف كل مواطن واجبه نحوها فحتى لا نضيع الوقت في مد الاصابع نحو الناس يجب

ان نتأكد اولا مما نقول، ونحدد التهمة ونقيم الدليل فتكتمل كل عناصر الدعوة ثم نرفعها .

.. ان النظام يجب ان يسود هذه الفترة، فلا احقاد ولا تخريب ولا شائعات ستدعم ثورتنا الخالدة بل على العكس ستهز اركانها، وتعيد الزعزعة إلى الصدور، وتفقد صفوفنا الثقة ولا اظن ان المواطن الشريف الذي اسهم في هذه الثورة يعمل لغير تدعيمها وتقويتها ..

... الفساد الذي خيم على البلاد في الستة أعوام السابقة فساد كبير وعزاؤنا الوحيد ان الفترة لم تدم حتى يلف الفساد في جوفه مزيدا من الناس فقد انحصر في اعوامه الستة في مجموعة صغيرة يعرفها القاصي والداني وامتدت أيدي هذه الفئة الصغيرة وهي تتمتع بنفوذها ففسدت وأفسدت من حولها من التجار والمقاولين ثم امتدت ايدي هذه الفئة فأفسدت عددا من رجال الصف الثاني والثالث في الوزارات المختلفة وعلى رأسها وزارة التجارة التي سأتحدث عن فضائحها في مناسبة اخرى ..

تشابكت أيدي الفساد من داخل أجهزة الدولة وخارجها من المتآمرين والمتعاولين ... والنفعيين وصارت تنخر كالسوس في كل مرفق حتى اهتز كل شيء واضطرب .

... قلت ان الشعب السوداني شهد في سنواته الماضية اشياء لم يعرفها من قبل .. اشياء ليس بينها وبين تقاليده وعاداته وعراقته وأصالته مجرد العلاقة فقد بدأنا من حيث انتهت احقر انواع الحكومات في البلاد الاخرى فعرفنا لأول مرة في تاريخنا الذي اتسم بالعفة والنزاهة والرجولة والكرم، عرفنا الرشوة والمحسوبية والظلم والاستبداد، وادخلت على مجتمعنا معان جديدة شاذة من قواميس الفساد العالمي فأقيمت الندوات الفاجرة، وشيدت الصالونات (في الضواحي ... وطرف المدائن)، وانحدر منا من بدأ يستورد لحوم البشر ويعد مجالس الشيطان ... ويحوم بالكأس والطاس بين الموائد الحمراء والخضراء وقد تدلت شفاهه وانمحت من وجهه علامات الرجولة، وماتت في قلبه كل معاني الانسانية .. مجرد الانسانية ...

.. هؤلاء وامثالهم ومن حولهم يجب الا يقف التطهير حول ثرائهم الحرام، ولكنهم يجب ان يحاسبوا على الفجور والانحدار الذي هز مقدسات الشعب واستخف بقيمه وتقاليده واصالته .

.. هؤلاء وأمثالهم ومن حولهم يجب ان تمتد اليهم أكثر من يد التطهير لانهم آذوا الشعب في رجولته وعزته، وآذوه في خلقه وأصالته وظنوا في النهاية انهم يعيشون في جوف غابة يعتمد فيها كل انسان على قوته دون ان يتذكر قدرة الله وقدرة الشعب عليه فمنهم من تجبر وظلم ... ومنهم من بغى وتنعم ... ومنهم من استبد وحكم ... ومنهم من فسد واجرم .

.. ان الشعب جهز اليوم شباكه .. وأعد كلاب صيده للفاسدين والمجرمين والعابثين

والباغين وعليهم اليوم تدور الدوائر، وتؤخذ كل نفس بما كسبت رهينة فقد امهلهم الشعب بالامس ولكنه محال ان يهملهم اليوم لانه يوم الحساب.

... ويوم القصاص والله أكبر والعزة للشعب والوطن..

## التجربة الثالثة

.. مر السودان منذ ان نال استقلاله عام ١٩٥٦ بتجربتين مريرتين دفع فيهما الشعب ثمنا غاليا قضى على حلاوة الاستقلال... ثم تضاعفت المرارة فقضت على سمعة السودان... تضاعفت مرة اخرى بشكل امر فهزت الثقة بين النفوس ، وانعدم التعاون بين الناس، وتفشى الظلم والحقد بألوانه المختلفة... ثم ازدادت المرارة مرارة فأصبح القادر يتجنى على المسكين، والقوي يظلم الضعيف واللص يتطاول على الشريف.

.. وتضاعفت المرارة حتى لحقت بالعقول والافعال والتفكير والارادة فمسحتها بجرة قلم، واعدمتها بالاوامر وداستها بالاحذية.

.. وتجسمت المرارة من جديد فاصبح المفسد والمرتشي والظالم والطاغية والسارق والمنافق والدساس والاجير كلهم ظلوا يرجحون كفة الاقدار ويعاندون شريعة السماء.. ويقلبون مفاهيم الارض فأصبحوا كلهم عظماء وسادة، وأصبح العظماء والسادة تحتهم عبيدا وارقاء.

.. مضت المرارة تزداد وتتجسم فاهتزت العدالة واغلقت منافذ الهواء أمام وجوه المظلومين حتى انحصرت دعواتهم الى العادل الاكبر وظلت أياديهم مرفوعة إلى العلي ونظراتهم محدقة إلى السماء... إلى الله.

.. وتضاعفت المرارة فانعدمت قيم الانسان امام جيوش المحسوبية فاصبح الجاهل منعما والعالم محقرا فلا كفاءة توضع في الميزان... ولا قيم لها مكان.. حتى سارت مواكب المحرومين كلها تدق الابواب تستجدي وتستعطف فتقفل الابواب دونها فتعود إلى شارع الضياع وقد فقدت ماء وجهها وكرامة نفسها.

.. ووصلت المرارة قمتها ونهاية حافتها فتكورت وتجمدت وتراكمت حتى تدفقت في شكل خيوط تحز المعاصم... وسلاسل تشد البطون.. وسياط للظهور... وأحذية تدوس الكرامة.

.. قلت ان الشعب مر بتجربتين قاسيتين منذ ان نال استقلاله عام ١٩٥٦ ـ أما التجربة الاولى فقد كانت بداية تعرضنا فيها إلى اختبارات عديدة لم نستطع ونحن نسير في اول الطريق ان نتفادى الاشواك والمطبات والالغام فقد كانت ارجلنا ضعيفة،

وخطواتنا متضاربة وصفوفنا مبعثرة لذلك فاننا لم نستطيع ان نقوى على خنق الالغام فانفجرت تحتنا وتطايرت اقدامنا واصابعنا وودعنا الحرية والبرلمان بالنظرات والحسرات والاحزان ..

أما التجربة الثانية فقد بدأت بالحكم العسكري يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ فواصلنا شراب الكؤوس المريرة فكنا سكارى وحيارى نهيم على وجوهنا ونحاول ان ندير الكؤوس من افواهنا ولكننا مضينا نشرب الكؤوس ... نشرب، ونشرب ونشرب حتى أفقنا تماما وتداوينا بالتي كانت هي الداء ..

والآن ... نحن نواجه التجربة الثالثة والاخيرة التي بدأت يوم الاربعاء ٢١ أكتوبر، وبدأنا السير في رحلة شعب خطواته موحدة وصفوفه متراصة ... وأياديه متشابكة ... وقلوبه متحابة واهدافه واضحة وغاياته نظيفة .. واقدامه قوية تخنق الالغام وتسكت الانفاس .. وتدوس الرصاص كما تدوس أقدام الاطفال فراش الحرير ولكن .

.. ان الشعب القوي الكبير الذي انتصر يسير إلى الامام بقوة الصاروخ وهو يسير دائما لا إلى الوراء وانا لا اريده ان يعود خطوة إلى الوراء، وانما اريده ان يدير وجهه الى الوراء حتى يرى من يتعقبه .. حتى يرى من يغدر به .. حتى يرى من يدس له .. حتى يرى من يعطل سيره ... حتى يرى من ينحر كيده .. حتى يرى من يهدد مجده حتى يرى من يقوض نصره ... حتى يرى من يعصي امره .. حتى يرى من يهدد مجده .

.. ان الشعب يسير الان وراء حكومة جاءت بارادته وتسير بارادته فليمنحها كثيرا من الثقة .. ومزيدا من المحبة وليهيىء لها جواً تستطيع معه ان تخدمه، وتحقق هدفه . وتصون مجده وتحفظ عهده، وليمضي الشعب من خلفها يحرسها ويحرس نفسه وان يدير الوجوه مرة إلى الخلف وهو يسير في طريق الخلود حتى يؤمن ظهره، فيدرك نهاية الطريق وبداية الفجر دون ان يخسر اصبعا واحداً .

# ماذا قال الزعيم وليم دينق؟!
# لولا الثورة .. لتم الانفصال

## ثورة اكتوبر مهدت لحوار مفتوح بين الشمال والجنوب

لعل من اهم انجازات ثورة اكتوبر العمل على اعادة الامن والاستقرار للمديريات الجنوبية ... فالجنوب ايام الحكم العسكري كان مسرحا لاعمال الكبت والارهاب والعنف كان العساكر يعتقدون بان مشكلة الجنوب ستحل بقوة السلاح من غير ان يمنح الموطنون الجنوبيون حق ابداء الرأي وتقديم المشورة والنفع فيما يختص بمناطقهم... كان الحكم العسكري يرفع السلاح ويخنق الاصوات.. وحملت (الصحافة) اوراقها تبحث عن الزعماء الجنوبيين.. تسألهم رأيهم بعد انهيار الحكم العسكري وعودة الديمقراطية.

في بوفيه الجمعية التأسيسية وخلال فترة الاستراحة التقينا بالسيد وليم دينق النائب البرلماني ورئيس حزب سانو فقال لنا:

ان من أهم نتائج ثورة اكتوبر تمهيدها الطريق لحوار مفتوح بين الشمال والجنوب فساعد ذلك في انهاء الاضطرابات وايجاد التفاهم... وكانت اول ثماره (مؤتمر المائدة المستديرة) الذي انعقد في مايو ١٩٦٥م... وكل هذا لم يكن ممكنا ايام الحكم العسكري.

والفترة التي سبقت قيام ثورة اكتوبر شهدت معارضة الجنوبيين للحكم العسكري.. واوضحت ان الجنوبيين كانوا صادقين في الاستمرار في هذه المعارضة والتي انتهت بقيام الثورة... وجاءت الحكومات البرلمانية وبالرغم من ان سياسة هذه الحكومات تجاه الجنوب لم تكن تخلو من الاخطاء الا ان النظام الديمقراطي ظل يساعد على اصلاح هذه الاخطاء في شكل نصائح للحكومة او اقتراحات او حتى عزل الحكومة التي تخطىء..

.. وحتى الآن ـ وفي ظل النظام الديمقراطي سار الجنوب شوطا بعيدا نحو الاستقرار والسلام.. تكونت لجنة الاثني عشر ووضعت نظاما دستوريا للجنوب ثم قدمت قرارات اللجنة إلى لجنة الدستور القومية لتضمن في الدستور..

والآن لم يبق غير ان تجيز الجمعية التأسيسية الدستور الدائم بعد ان تنتهي اعمال لجنة الدستور القومية... ويصبح الجنوب يحكم بواسطة حكومات اقليمية... وكذلك مناطق السودان الاخرى.. وكان لابد ـ اساسا ـ في السودان ان لا يدوم النظام العسكري وان تقوم ثورة ديمقراطية... لأن ظروف السودان لا تقبل وجود نظام

ديكتاتوري ... فنحن جميعا سودانيون لكننا مختلفون عنصريا ودينيا وقبليا ... بالاضافة إلى ان الاتصالات بين سكان مناطق السودان المختلفة معدومة او قليلة ... نسبة لمساحة البلاد الشاسعة وصعوبة المواصلات واختلاف اللهجات ... زائدا الخلافات السياسية.

.. هذه العوامل كلها تحتم ان لا يحكم السودان حكم ديكتاتوري بالقوة يصدر الاوامر إلى المناطق الاخرى ... وكان لابد ان يعود النظام الديمقراطي ليفسح المجال امام حرية الرأي .. التي تساعد على تقليل الخلافات بين سكان السودان ولعل اهم خلاف بين السودانيين والذي يجب ان ينتهي بعد ان عادت الحياة الديمقراطية هو خلاف العرب والافارقة ... فالسودان ليس فيه افريقيون خالصون الا قلة ... وليس فيه عرب خالصون الا قلة .. وعلينا جميعا ان ننبذ هذه التقسيمات ونعلن اننا (سودانيون).

التقينا بالسيد فلمون ماجوك في مكتبه الفخم بالطابق الثاني بالقصر الجمهوري فقال:

.. ان ثورة اكتوبر ثورة عظيمة وخالدة ... وفيما يختص بالجنوب فانني اعتقد بان حكومة سر الختم الخليفة - بالرغم مما اعلنته من انها تريد السلام للجنوب ... الا ان احوال الجنوب في عهدها لم تكن تدعو إلى الرضى .. ولعل الفضل الكبير في عودة الهدوء الجنوبي يعود إلى حكومة محمد احمد محجوب الاولى حيث بدأ الامن والسلام يعودان تدريجيا للجنوب.

.. وعلينا ان لا ننسى دور الجيش السوداني ... فقد قام بمجهود هائل في اعادة الهدوء وانهاء التمرد وحالة الاضطرابات ... سلاح المهندسين الذي قام باصلاح الكباري والطرق .. وبقية وحدات الجيش ... ورجال السكة الحديد الذين ظلوا يعملون في اوقات عصيبة وغيرهم من رجال الوحدات الحكومية .. كل هؤلاء يستحقون الاشادة ولابد ان نذكر انهم لعبوا الدور الكبير في اعادة الهدوء للجنوب ..

.. ولعل اهم ما حققته الحكومات البرلمانية هو تنفيذ سياسة زيارة الدول الافريقية المجاورة للتفاهم مع زعمائها حول مشكلة الجنوب ... ولقد اتضح - بفضل هذه الجهود - للزعماء الافارقة المجاورين لنا ... اتضح لهم بان بعض الجنوبيين يبالغون في عرض مشكلتهم وان الشماليين هم الذين يودون السلام وانهم لا يضمرون نوايا سيئة نحو الجنوب كما يقول بعض الجنوبيين ..

.. ولا شك ان الهدوء قد عاد الان إلى الجنوب ويسير العمل نحو وضع انظمة اقليمية تحكم بها المديريات الجنوبية وبقية المديريات الاخرى .. والواجب الاساسي - بعد قيام النظام الجديد - يعتمد على الاداريين شماليين وجنوبيين وانا لا ادعو إلى سيطرة هؤلاء دون اؤلئك .. انما اعتقد بان الاداريين الجنوبيين والشماليين يجب ان يتعاونوا مع بعضهم البعض ..

.. وبهذه المناسبة فاني اذكر انني ذكرت في مؤتمر جوبا عام ١٩٤٧ بان السودان يجب ان يكون قطرا واحدا ... وكان المؤتمر انتصارا لدعوة الوحدة ... ويسرني ان الاحظ ان ما قلته قبل ٢٠ سنة قد اصبح الآن حقيقة وآمن به الجنوبيون.

**وفي دار الزميلة جريدة (الفيجلانت) التقينا بالسيد كلمنت امبورو وزير الداخلية سابقا:**

قال السيد كلمنت ان الوضع في الجنوب بعد ثورة اكتوبر قد تغير عما كان عليه قبل الثورة ... وان الظروف كانت مناسبة للاستفادة الى اقصى حد ممكن في ايجاد حلول دائمة لمشكلة الجنوب لكن ذلك لم يحدث ... والان اعتقد بان نفس الظروف المناسبة التي كانت موجودة بعد ثورة اكتوبر مباشرة ... قد عادت الان ... وعلينا ان نستغلها ونستفيد منها إلى اقصى الحدود ... علينا ان نستفيد من ظروف الامن والسلام الحالية حتى لا تفلت منها الفرص ..

.. ثم تحدث السيد كلمنت امبورو عن زيارته الاخيرة لجنوب السودان وانطباعاته .. وقال ان الوضع الان لا يمكن مقارنته باي حال بما كان عليه ايام الحكم العسكري ... بل وعما كان عليه خلال الايام التي تلت ثورة اكتوبر الاولى .. لقد بدأ الجنوب في العودة إلى حياة الاستقرار الاولى ..

وواجبنا ان نشيد بالاداريين في الجنوب الان ... فهم يبذلون جهدا لا حد له .. ويضعون الخطط والمشاريع فيما يختص بعودة اللاجئين واستقرارهم والنهوض الاقتصادي واعادة العمران واعمال الانشاء والتعمير ... وعلى الحكومة ان تولي العناية لهذه الخطط والتقارير ولا تهملها.

**.. وفي مكتبه بوزارة الري التقينا بالسيد بوث ديو وزير الري وسكرتير حزب الاحرار:**

فقال: ان ثورة اكتوبر بلا شك قد اعادت للبلاد الوضع الديمقراطي الذي يمكن ان يتفاوض فيه الناس ويتحادثوا ويناقشوا مشاكلهم في حرية ... واما فيما يختص بالجنوب فانني اعتقد بان الجنوب كان سيفصل ايام الحكم العسكري اذا لم تقم ثورة اكتوبر ... بمعنى ان الاحوال كانت قد وصلت إلى اسوأ درجاتها وكانت تتفاقم باستمرار لو لم ينته النظام العسكري.

.. ولا شك ان النظام الحالي ـ نظام الاحزاب السياسية احسن .. لانه يفسح الطريق امام الجو الحر .. وهذا ما حدث بالنسبة لمشكلة الجنوب ... ويبدو ذلك واضحا فيما حدث الآن بعد قرارات لجنة الاثني عشر ومؤتمر الاحزاب الجنوبية ولجنة الدستور ... والتخطيط لنظام حكم اقليمي ... والان يبقى اصدار قانون العفو العام ... والذي يضمن

للجنوبيين حياة استقرار وهدوء.

... وعلينا ان لا ننسى ان المشاكل لا يمكن ان تنتهي مرة واحدة .. فبعد وضع اساس الحكومة الاقليمية في المديريات ستبقى مشاكل القبلية والاختلافات في نطاق كل مديرية ... وهذا يعتمد على الاداريين واخلاصهم وصدق هدفهم.

# ﴿ الفصل الخامس عشر ﴾

- السودانيون المهاجرون كيف عاشوا انتفاضة الشعب ؟
- خلافات حول محاكمة قادة الانقلاب .
- عبود يتنازل عن جميع سلطاته .
- كيف واجهنا بالقلم مشاكلنا الملحة !

# كيف عاش السودانيون في الخارج انتفاضة شعبهم ؟

ابناء هذه الارض الطاهرة ترى كيف مرت عليهم ايام المعركة قبل الانتصار الظافر وبعده ؟ واخواننا في العروبة والدين واللغة هل كانوا يخوضون معنا المعركة ويشاركوننا الالم والفرحة ؟ . . لكي تعرف ذلك عن كثب فلتقرأ معي :

**كيف عشنا الاحداث في المانيا**

**من المانيا . .**

اخى عبدالرحمن . .

ان كل واحد منا نحن هنا الذين شاءت الظروف ان لا نكون في وسط المعركة الشريفة التي خاضها شعبنا ضد الظلم وضد الفساد وضد الجهل الذي كان يسود الوزارات ودواوين الحكومة ان كل واحد منا كان يتمنى ان يكون وسط هذه المعركة الجبارة الشريفة التي خاضها شعبنا وخرج منها منتصراً موفور الكرامة . كنا في أثناء هذه الظروف بكل أحاسيسنا ومشاعرنا مع شعبنا البطل الذي اوضح للعالم بأسره مدى قوته ومدى مقدرته قبل كل شيء مدى نضوجه فقد كانت دلالة هذه المعركة والطريقة التي عبر بها عميقة وكبيرة ودلت بكل وضوح عن ذلك الوعي الذي يتحلى به الشعب السوداني . فقد كانت فكرة الاضراب المدني فكرة رائعة بطريقة لا يمكن ان يستطيع الانسان تصويرها فقد علقت اكثر الصحف العالمية والاذاعات العالمية عن رأيها في هذا الموضوع ممجدة ذلك الدور المجيد الذي لعبه وعي الشعب السوداني في توجيه هذه الانتفاضة التوجيه السليم . . ونحن هنا . . كنا خلال المعركة هذه الايام التي كان يخوض فيها شعبنا معركته بشرف وبسالة كانت بالنسبة لنا ايام عصيبة وكنا كالمجانين نبحث عن الاخبار هنا وهناك ونحصل في كثير من الاحيان على اخبار متضاربة وكان هذا يثير في نفوسنا كثيرا من الحزن لعدم تمكننا من معرفة الاخبار الصحيحة ولكن يقيننا بانتصار شعبنا وبوحدته كان بمثابة المطمئن والمهدىء الوحيد إلى ان حملت الينا الاخبار ان الشعب انتصر وان ارادته قد غلبت وان الطغمة الباغية ، الجاهلة قد تساقطت تحت ضرباته الفولاذية .

وأما اسم احمد قرشي ذلك البطل الذي دمه لعنة على هذه الطغمة الفاسدة اصبح يردد على كل لسان وكم تمنى كل منا ان يحلي غرفته بصورة هذا البطل الشهيد الذي كان دمه بمثابة الشرارة لثورة الشعب على الظلم والطغيان وكذلك الشهداء الذين سقطوا صرعى في ميدان المعركة مازالوا على كل لسان ولكن من المسئول عن كل هذه الضحايا؟ اننا لا نعرف انصاف الحلول وهذا كلام اصدرته الجبهة الوطنية في احد بياناتها ولذلك نتمنى ان يسير هذا العمل حتى النهاية حتى يلقى اعداء الشعب جزاءهم العادل ويجب ان لا يرحم كل من تلاعب بمقدرات شعبنا ويجب ان يحاكم كل من كانت له يد في ان يقف التطور في السودان لمدة ٦ سنوات.

لقد مضت ست سنوات على ذلك الحكم المشئوم ذلك الحكم الجاهل وفي اثناء هذه المدة فقدت بلادنا الكثير من جميع النواحي من مادية واخلاقية وخلاف ذلك. فقد لعبت بلادنا في اثناء ذلك الوقت اقذر الادوار في المحيط الافريقي والعالمي.

ولكن الان لقد ادرك طريقه وادرك وظيفته في المحيط الافريقي والعالمي وما دام الامر بيد الشعب فلا خوف على ذلك.

- اننا مازلنا بعيدين عن الاخبار وعن ما يحدث في بلادنا التي حق لنا اليوم ان نفخر بها ونباهي، فقد ضرب شعبنا المثل الاعلى في الوعي والقدرة. لقد حدثت في العالم كثير من الثورات وكثير من الانتفاضات ولكن العمل الذي قام به شعبنا يحتل اليوم مكانا خاصا في المحيط الدولي وكم كنت اتمنى لو كنت خارج السودان وسمعت رأي القوم عن هذه الانتفاضة التي قام بها شعبنا اننا نشعر بالزهو وبالفخر ونحن نسمع كل هذا - وعلى الشعب ان يسير في هذا الطريق وان يوحد كلمته وكم نتمنى من كل قلوبنا ان تدخل الجبهة الوطنية المعركة الانتخابية بقائمة موحدة حتى تصون للشعب مكاسبه وحتى تربأ به عن المهاترات الحزبية وتقوده إلى بر السلام - وقد علمت بمزيد من الغبطة بانه ستوضع لوائح وتشريعات من شأنها ان تقفل الطريق إلى الابد امام الجيش من القيام بعمليات ضد ارادة الشعب.

ولست ادري ما هو مصير هؤلاء الذين كانوا يصدرون الامر للجيش لكي يتصدى هذا التصدى الغادر على الشعب. لا شك ان الجيش يحتاج الان إلى تصفية ويجب ان تعود العناصر الوطنية مرة اخرى للجيش حتى يصبح مع الشعب وليس ضد الشعب.

- فكل الهرج والمرج والجهل والفساد لا شك انه في طريقه إلى الزوال وقد سمعت عن انه ستشكل «محكمة الشعب» وكذلك لجنة لبحث الحالة المالية التي خرج بها الوزراء واعادة ما سلبوه إلى الشعب هذا جميل ايضا. ان فرحتنا بانتصار الشعب وعودة الحياة الديمقراطية إلى بلادنا بتطهير مرافق الدولة من العناصر المتآمرة وهذا ما تبقى وقد قمنا بمظاهرات وكذلك ارسلنا برقيات احتجاج وبرقيات تأييد للجبهة الوطنية. ان آراءنا هنا متفقة كلها على انه يجب ان تدخل الجبهة الوطنية الموحدة الانتخابات بطريق

موحدة واننا نرى انه لم يعد الوقت مناسبا في ان نخوض المعركة على اساس حزبي فهذا سيفرق جهودنا ويعود بنا مرة اخرى إلى الوراء .

ان تفاصيل المعركة لسنا على معرفة بها وكذلك التطورات السريعة التي تحدث في السودان هذه الايام خاصة وان مجلس وزرائنا يعد مفخرة من حيث الكفاءة والخبرة .

مع امانينا وتحياتنا إلى شعبنا البطل وتحية نابعة من قلوب صادقة إلى أمة كريمة اثبتت للعالم بأسره قوتها وارادتها ووعيها فهنيئاً لك يا شعب بانتصارك وسر في رعاية الله .

**من امريكا**

اخي محمد

يظهر ان ليس لي نصيب في الحوادث الكبيرة المتتابعة التي توالت عليكم دون انقطاع ولا شك انني احسدكم وانا اعبر لكم عن منتهى تهاني القلبية بعودة الهدوء والسلام والاطمئنان للبلاد وعودة الحياة الديمقراطية التي ارجو ان تقوم على اسس امتن وقواعد اقوى من ان تطيح بها الايام وأرجو ان يوفق الجميع لما فيه خير البلاد وتقدمها فان التاريخ الذي ظل منذ ان نلنا الاستقلال في عام ٥٦ يشهد ما نصنع بذلك الاستقلال والذي غض البصر حاسراً في حسرة واسف ها هو الان يعود في اشراق وامل يشهد مرة اخرى ما سنفعل وما سنحقق لسوداننا من حياة ديمقراطية مستقرة دائمة رضاها الجميع ويعيش في ظلها الجميع ويشترك في ارساء قواعدها الجميع ولا شك ان هذا الشعب السوداني شعب يحبه الله ويرعاه فقد ظلت عنايته تعالى دائما وابدا تقف وراءه كلما اسود الافق ولاحت ظواهر الانشقاق والتصدع ـ فان التوفيق الذي ناله شعبنا في خروج الانجليز وخدمة الظروف لتحقيق ذلك كان حدثاً فريداً من نوعه وكان حلما داميا تحقق دون دماء ـ كما ان العناية الالهية لم تتخل عن شعبنا حتى بعد ان نالت منه الظروف وافقدته ما نال وها هي العناية تعيد إلى شعبنا اوراق امتحانه بجميع اخطائها وجميع الاسئلة التي لم نتمكن من الاجابة عليها واني لارجو مخلصا ان يتمكن الشعب هذه المرة من الاستفادة بما مضى وان يكون اداة للامتحان كاملا شاملا وان يكون البناء هذه المرة راسخا متينا وان نسير إلى الامام وكلنا ثقة وعزم وحزم وان يكون رائدنا خير البلاد وتقدمها .

ولا شك ان استجابة الجيش بقيادة ضباطه الاحرار لرغبة الشعب الاكيدة وهو اعزل . لمن الاشياء التي سيذكرها التاريخ ويسجلها لشعبنا البطل ... والضباط الاحرار ... الذين وقفوا متكاتفين في وجه الطغيان اذ ان الظروف التي مرت بها البلاد كانت ادعى إلى نشوب حرب اهلية لولا الحكمة والوطنية الراسخة في قرارة جميع السودانيين مهما اختلفت مشاربهم ـ فالحمد لله على سلامة الجميع وعلى سلامة الحكم ونسأله التوفيق والسداد للتقدم إلى الامام .

## كيف عاش السودانيون في السعودية
## الاحداث العظيمة التي صنعها شعبنا ؟

كان الوقت في الرياض حوالي منتصف الليل ... وهو ما يقارب العاشرة والنصف بتوقيت امدرمان . وطرقت اذني من بعيد نغمات «يقظة شعب» وكانت سرعة الاداء مضطربة فعزيت ذلك ربما الى خلل في مسجل صديقنا محمد محمد صالح بركية الذي يسكن الطابق الثاني من نفس البناية .

كنت قد اطفأت انوار غرفتي في الطابق الارضي وبدأت انام وكان يختلط مع نغمات النشيد صفير حاد مألوف ... هو العلامة التي نميز بها .. نحن السودانيون في الرياض ... محطة امدرمان في اي راديو .. على موجتها المتوسطة ... ونسبت الصفير إلى راديو الاخ ابو الغيث .. الذي يشغل النصف الثاني من الطابق الاعلى امامنا ... فكنت منذ مغادرتي السودان .. قد عزلت نفسي عما يجري به ... ليس كرها فيه فالمرء لا يكره ارضه وبلاده ... ولكن الما ممضا ويأساً قاهراً مما صار اليه .

كانت الاوضاع قد انقلبت .. والمقاييس قد اختلت ... والقيم قد بهتت حتى اوشك المرء ان يفقد ايمانه بكل ما كان يملأ نفسه وعقله من صور الحق والفضيلة . كان الباطل يبدو وكأنه هو الحق الصراح القوي .. وكان الحق مهيض الجناح كالح الطلعة يتوارى تحت ركام الظلام وكأنه هو الذليل الحقير . وكانت الصورة ترتبط في ذهني دائما برباعيتين من قصيدة يناجي فيها الطاووس حبيبته «الشمس»! التي يهواها ولكنه لا يستطيع الاقتراب منها :

كم من حدآت ... للقمم طارت ونسورا ورخم
وهي الاكالة للرمم المستسقية من النجس
وانا الكيس حلو الشكل العف السقيا والاكل
في الطين اعيش وفي الوحل واراود طيفك في يأس

كانت الشمس هي حريتنا التي نتعشقها ، وعزتنا التي نهواها ، وكرامتنا التي هي كياننا كله ... وكان الطاووس هو نحن وكانت الحدآت ... هم وزمرتهم .

وفجأة ... ارتفعت اصوات «بركية» و«ابي الغيث» تناديني في حماس مجنون فخرجت لأسمع منها ان «عبود» قد حل المجلس الاعلى .. ومجلس الوزراء .

هكذا وبالنسبة لنا هنا في الرياض ، بلا مقدمات كافية . كنا نسمع من القادمين ... قصة الاوضاع في الجنوب وقصة الغي في الشمال .. وكيف كان مستمرا كما تركناه . وكان الوفد التجاري برئاسة احدهم ... في «جدة» .. ولم يكن هناك ما يشير اقل اشارة

او يدل اية دلالة على ان هناك مرجلا يغلي وبركانا يوشك ان ينفجر !

كانوا ثلاثتهم يتحدثون .. بركية وابو الغيث من الطابق الاول وحمدي ابني من سطح المنزل حيث كان يستمع إلى الاذاعة من هناك .. وانضممت انا اليهم ... وراحت جدران العمارة تهتز بصخبنا وصياحنا .

وصعدت مهرولا الى سطح البناية ... واتينا بمسجل ... وجلست مع حمدي ، واحضرنا الراديو ... وضبطناه على محطة امدرمان بصفيرها الذي كان يختلط بالموسيقى العسكرية ... وبدأنا نسجل كل ما يأتي به الراديو من امدرمان ... الموسيقى والصفير والخشخشة والكلام كل شيء يأتي من امدرمان في تلك اللحظات ... كان قد اكتسب لمحة من التاريخ وومضة من الخلود ..

وراحت محطة امدرمان تذيع بيان «عبود» بصوته ... وتتبعه بيقظة الشعب ... ثم الموسيقى .. ثم البيان ... ثم النشيد ... وهكذا ... ونحن قابعون بجوار الراديو .. نكاد ان ندخل فيه ونود لو نسير عكسا مع موجاته فنحط في العاصمة في تلك اللحظات .

واذا كان وردي يطربني بصوته وموسيقاه ... واذا كنت اسجل له كل اغنياته ... فانني اعترف له ... انه لم يحدث انني سجلت له اية اغنية مرتين .. سوى «الطير المهاجر». أما في تلك الليلة فقد سجلنا بيان «عبود» نحو خمس مرات في شريط واحد .. ويخيل إلي انه لو لم تتوقف امدرمان عن الارسال .. لمضينا نسجله عشرات المرات في نفس الشريط ... اذ كانت كلماته هي اعذب ما سمعناه منذ سنوات ... وكان صوته يثير في صدورنا تلك اللحظات ما لا تستطيع ان تثيره عبقريات مطربينا كلهم مجتمعين .

وفي اليوم التالي .. قبع بعضنا بجوار راديوهاتهم فلم يذهبوا إلى اعمالهم .. بينما حمل البعض راديوهاتهم إلى اماكن عملهم ... وحيث ان ارسال امدرمان على الموجات القصيرة لا يسمع بالنهار فقد رحنا نطارد نشرات الاخبار في جميع محطات العالم الكبرى ، وقد اكتسبنا خلال يومين معرفة تامة بأطوال الموجات وساعات الارسال ومواعيد نشرات الاخبار في كل المحطات الرئيسية .

وراحت اصالة شعبنا وعظمته تدفق كالبركان الثائر هادرة كاسحة وفرض السودان اسمه فرضا على الصفحات الاولى ... حتى النيويورك تايمز «الامريكية».. التي تصدر صفحتها الاولى في تقتير اليهودي اذا بخل راحت تفسح للسودان مكانا على صفحتها الاولى في اربعة اعداد في اسبوع واحد .

وفي اسبوع واحد ... اجاب الشعب اجابة عملية سطرها بدمائه وخطها بوعيه وادراكه ومزجها بشعوده الفياض ... على اسئلة كانت تراودنا منذ سنوات .

هل يمكن لهذا الشعب ان يصحو ؟ هل يستطيع ان يوحد صفوفه المتباينة البادية التنافر ؟ هل يستطيع ان يواجه قوة السلاح ؟ ام هل يسلح نفسه اولا ؟ هل يجد قائدا

رشيدا يستلهمه ويسير معه إلى الخلاص .

وجاءت الاجابات تترى ... قاطعة ... حاسمة ... شافية فاذا الشعب لا يصحو فحسب ... بل يثبت انه لم يكن نائما ... واذا به لا يوحد صفوفه فحسب ... بل يذيبها لتمتزج في كتلة واحدة متماسكة واذا به لا يواجه قوة السلاح فحسب ، بل ويقهرها بوحدته التي ضمت اليه عناصره الحرة الابية من داخل جيشه ، واذا به لا يحتاج إلى قائد وانما يوجه القادة ويرغمهم على السير في ركابه والانصياع لمشيئته .

وكانت المرة الاولى في تاريخ الشعوب ، فيما نعلم ، التي استرد فيها شعب حريته بيديه المجردتين ... وكانت المرة الاولى التي تبرز فيها لكل من يعي ويعتبر ... ان الوحدة والتماسك هما اقوى الاسلحة اطلاقا .

ورحنا نتقبل التهاني من الاخوان العرب من جميع الاقطار ... ونحن نحس بزهو عميق بسودانيتنا لاول مرة منذ سنين . شيء واحد ضايقنا هو عدم وجود سفارة لنا بالرياض نسير اليها هاتفين معبرين ! أو نحطم فيها صورة او صورتين .

ولم نقلق على مستقبلنا بعد ان شاهدنا من الشعب ما شاهدنا ... بل رحنا نذيب ارهاق السنين في فرحتنا الغامرة ... وسعدنا الجديد .

وراحت المشاعر تتجمع لتصوغ للشعب نشيدا جديدا اعددنا مقطعه الاول وارسلناه إلى الفنان محمد وردي .. متشاورين معه كعادتنا .. في المبنى والهيكل ... آملين ان نستطيع تقديمه للشعب الذي اوحى به ... حوالي مارس القادم ..

حسرة واحدة تغلبنا عليها بالفرحة الغامرة ... هي اننا لم نسعد بشرف وجودنا بالخرطوم او بالسودان خلال الفترة التي تمت فيها المعجزة ... فما يجعلنا نحسد في سعادة غامرة ... بني وطننا على ما انجزوه ... متغلبين على حسرتنا باننا منهم على البعد .. وانهم منا ... بل وفي قلوبنا .

## من هنا وهناك

● اكتمل الوضع الدستوري للبلاد بتشكيل مجلس السيادة الموقر بعد ان ظل تشكيله مدار بحث الحكومة والاحزاب والهيئات الوطنية لايام طويلة ولا شك ان انتخاب السادة اعضاء مجلس السيادة جاء ممثلاً لرغبات الشعب ومكملا لثقة المواطنين في الحكم الشعبي الجديد بمجلس السيادة والوزراء .

.. ان السادة الاعضاء الخمسة لهم ان يفخروا اليوم بهذه الثقة الشعبية الغالية ولا شك عندي ان كلاً منهم له تاريخه المشرف في الحقل الاجتماعي والوطني والسياسي مما يجعلهم جميعهم موضع ثقتنا وفخرنا واعتزازنا . ولا شك عندي ايضا ان السادة الاعضاء يدركون حساسية الوضع الذي يتطلب منهم تضحيات جسام غاليات لن يترددوا في ان يهبوها لهذا الشعب الذي وضعهم بالامس على الحياة وفوق الرؤوس .

.. تهنئة حارة نتقدم بها إلى السادة اعضاء مجلس السيادة سائلين الله ان يشملهم برعايته ويوفقهم في كل خطوة . . . وفي كل قولة . . . وفي كل حركة انه سميع مجيب .

● تفشت العطالة في الآونة الاخيرة بشكل مخيف ، وارتسمت علامات الضياع واليأس على وجوه الالوف من مواطنينا ، وتهددت اسر عديدة كانت تعيش على الكفاف والدموع والاحزان ومضت تدق الابواب كلها ونحن في الصحف نسمع طرقاتها اليائسة ومضينا ندق معهم الابواب ونبسط آلامهم ونعكس آهاتهم واحزانهم ونصور كل يوم على اعمدة صحفنا دموعهم وحرمانهم دون ان يحرك ذلك مجرد الواقفين حول الأبواب .

.. ومضى عهد الحرمان واشرق عهد جديد انبعث من صفوف هؤلاء المحرومين وكان ان صدر قرار الحكومة الثوري فحطم الابواب الصدئة التي ظلت مغلقة لستة اعوام عجاف لتفتح على مصراعيها فينبعث منها الضوء والهواء والامل الكبير .

.. اننا نطلب من اخواننا الباحثين عن لقمة العيش الشريف ان يسلكوا مسلك الشرفاء وقد ظلوا لاعوام طويلة هائمين في بحور من الفاقة والضياع وان يساعدوا حكومتهم الساهرة على مصالحهم بالنظام والصبر والهدوء حتى توفر لهم في غد قريب لقمة العيش الشريف لان الحكومة ما جاءت الا لتمسح دموع المحرومين ، وترفع الظلام عن المظلومين ، وترد لكل مسلوب حقه في العيش النظيف واللقمة الطاهرة .

● في اول يناير ١٩٦٥ ينتهي بنك الكريدي ليونيه ويحل محله بنك النيلين ونحن إذ نزجي التهنئة الخالصة للحكومة بهذه الخطوة الطيبة التي تعتبر انتصارا جديدا في محيطنا الاقتصادي ، نأمل صادقين ان يسهم البنك بوضعه الجديد في تقدم وتطور البلاد والمواطنين ولئن كان لنا رأي خاص في ادارة البنك الجديد فاننا ننادي بان تسودن جميع الوظائف التي يتبوأها اجانب ولنا في البنك التجاري وما حققه من نجاح مضطرد

لا ينكر خير دليل وشاهد على كفاءة واخلاص المواطنين السودانيين .

.. مرة اخرى نأمل صادقين ان تعطى كل الفرص للكفاءة السودانية المقتدرة حتى يشرق علينا صباح اول يناير ونحن نحتفل في مناسبة سعيدة .

وفق الله الجميع لما فيه خير البلاد واسعاد المواطنين .

## القراء والاحداث

من الرسائل العديدة التي كتبها المواطنون بعد ان سطرت الاحداث التاريخية انتصار ثورة ٢١ أكتوبر .. نلتقي اليوم اولا برسالة المواطن :

● محمد محي الين قرجة

جامعة القاهرة فرع الخرطوم

يكتب بعنوان « إلى اين نتجه بعد الثورة » فيقول :

هذا السؤال يتبادر إلى ذهن كل مواطن في هذه اللحظات التاريخية ترى هل نعود مرة اخرى إلى الوراء، هذا السؤال سؤال مأخوذ من التجارب السابقة التي مرت علينا في عهد الاحزاب ولكي لا نرجع إلى الوراء فعلينا اولا التأكد من ان الاحزاب نفسها قد وجهت إلى نفسها هذا السؤال وقد قررت اجراء تصفية تامة ووضع اسس قوية تجابه بها المشاكل التي قد تؤدي إلى رجوعنا إلى الوراء .

وانا كمواطن اقترح على احزابنا السياسية ان تتحد جميعا في جبهة موحدة تستوحي سياستها من الآراء المشتركة المستقاة من القاعدة الشعبية وفق منهج مدروس ترتضيه هذه الجبهة في الداخل وفي الخارج .

● يوسف محمد يوسف

نلتقى به في مقاطع من قصيدته « عرس القرشي » :

في حفل عرسه المزركش<br>
على فتاته الصبية<br>
على فتاته الحرية<br>
قفي ... انتشي<br>
وانت يا حريرة<br>
في ضجة الضريرة<br>
استرسلي ووشوشي<br>
هذا العريس القرشي<br>
وانت يا اخت العريس زغردي

وانت يا ام العريس رددي
فهذه الحريرة الحمراء في يده
اود لو شددتها إلى يدي
لسار بي ركب الغد

● فيصل بابكر الصافي
الصناعية الوسطى كسلا

نلتقى بجزء من موضوعه «ماذا نريد» الذي جاء فيه :

اننا نريد ان يستمر التحقيق في قضية التفسخ الكبرى التي كان لها دوي مشين جمد بياننا وهي تلك القضية التي عزل فيها القاضيان الطيب عباس وعلي محمود ... اننا نطالب بمحاكمات عادلة للذين صاغوا القوانين وسخروا الدساتير لمنفعتهم .. اننا نطالب بقانون «من اين لك هذا» .. اننا نطالب بتطهير شامل كامل في كل الاجهزة حتى لا يكون الوطن عرضة للهزات وحتى لا تتكرر المأساة .

● الاخ المواطن كمال يوسف محمد علي يرسل لنا كلمة ملتهبة يقول فيها :

ان الشعب السوداني هو وحده الذي حقق النصر ، واسترد حريته وكرامته ، وذاق الوانا من العذاب على يد الرجعية العسكرية وفجأة انفجر كالبركان وانقض كالاسد الهصور ، ووقف خلف شبابه المثقف طلبة الجامعة ، وقدم كل مرتخص وغال في سبيل الحرية فسقط الشهداء ، ونزفت الدماء غزيرة تغسل الارض من ادران ومفاسد الطغمة الباغية ، وبعد ان نظم الشعب صفوفه ووحد كفاحه .. وانفض الطغيان ظهر زعماء الاحزاب الذين اختفوا كالخفافيش ، ظهروا على مسرح الاحداث لكي يقتسموا الغنائم . وحسبوا هذا الشعب من الضعف بحيث ينسى استسلامهم للحكم العسكري .

كلنا ... وزراء .

● الاخ المواطن حسن سعيد بوزارة الحكومة المحلية .. تحت عنوان «كلنا وزراء» كتب يقول :

يخطىء من يقول ان حكومتنا القومية الانتقالية الحالية قوامها ١٤ وزيرا وحسب ان قوام هذه الحكومة ١٢ مليوناً من الوزراء! ١٤ شخصاً وزراء ذوو اختصاص والبقية وزراء بلا اعباء!

فانت يا اخي المواطن عاملا ومزارعا وموظفا وطالبا اصبحت مسئولا مسئولية كاملة منذ اللحظات الاولى التي تم فيها تشكيل حكومتنا هذه ـ حكومة الشعب .

انني اذكرك بعظم المسئولية التي القيت على كاهلك بل التي سعيت لها بنفسك .. وبذلت في سبيلها كل مرتخص وغال ..

فأريق دمك .. وبددت اموالك ... وحبست انفاسك ... عليك يا اخي المواطن ان تراقب وتكشف ما يقع في يدك وما تراه عينيك .. بلا مجاملة وبلا لف ولا دوران ...

فاخوتك من الوزراء ذوي الاختصاص يحتاجون إلى عونك الصادق وشجاعتك المعهودة ووطنيتك الحقة ويقظتك الدائمة ... لتتمكن قافلتنا من اللحاق بركب العالم المتحرر .

## لجنة التحقيق في انقلاب ١٧ نوفمبر

فرغت اللجنة القضائية الخاصة بالتحقيق في مسئولية احداث انقلاب ١٧ نوفمبر من الاستماع لاقوال كل الاشخاص وعددهم ١٦ الذين رأت اللجنة اهمية الاستماع اليهم قبل استجواب الضباط الكبار الذين قاموا بالانقلاب فعلا وذلك في اول مارس ١٩٦٥ .

هذا ولم تقرر اللجنة بعد ان كانت ستسافر إلى زالنجي لاستجواب المعتقلين هناك ام ستطلب احضارهم للخرطوم لذلك الغرض . وعلمت الوكالة ايضا انه بالتحقيق مع اعضاء المجلس الاعلى المنحل ستنتهي المرحلة الاولى في اعمال اللجنة وقد صرح مصدر وزاري مسئول للوكالة ان مجلس الوزراء قد ناقش موضوع محاكمة اعضاء المجلس الاعلى وأرجأ اتخاذ اي قرار بشأنها لحين فراغ اللجنة القضائية من التحقيق وتقديم تقرير بنتائج اعمالها للحكومة .

هذا وقد تقرر الافراج عن طلعت فريد واحمد رضا والبحاري والمقبول .

ـ اللجنة تقرر اضافة عبدالله خليل وستة من اعضاء المجلس الاعلى الاول للقائمة .

ذكرت وكالة الانباء السودانية ان لجنة التحقيق القضائية فرغت من التحقيق في البلاغ المقدم من النائب العام ضد اعضاء المجلس الاعلى المنحل تحت مواد الاتفاق الجنائي من قانون العقوبات وهو الاتفاق الذي ترتب عليه استيلاء القوات المسلحة على الحكم .

وتعيد وكالة الانباء إلى الاذهان ان ذلك البلاغ قد فتح ضد الاشخاص الآتية اسماؤهم :

١ ـ ابراهيم عبود ٢ ـ طلعت فريد ٣ ـ احمد رضا فريد ٤ ـ محمد احمد عروة ٥ ـ احمد مجذوب البحاري ٦ ـ المقبول الامين الحاج .

وتدل تحريات وكالة الانباء السودانية ان لجنة التحقيق القضائية بعد التحقق والاستماع إلى اقوال الشهود والمتهمين قررت :

أولاً : اخلاء سبيل الآتية اسماؤهم وشطب البلاغ ضدهم وذلك لعدم قيام الدليل على اشتراكهم في الاتفاق الجنائي موضوع البلاغ .

١ ـ محمد طلعت فريد ٢ ـ احمد رضا فريد ٣ ـ احمد مجذوب البحاري ٤ ـ المقبول الامين الحاج .

وقررت لجنة التحقيق القضائية الابقاء على المتهمين : ابراهيم عبود وحسن بشير نصر ومحمد نصر عثمان ومحمد احمد عروة في قائمة الاتهام .

كما قررت اللجنة اضافة عبدالله خليل وزين العابدين صالح إلى قائمة الاتهام.

هذا وستحيل اللجنة اليوم «الثلاثاء» اجراءات التحقيق إلى النائب العام بناء على طلبه وذلك قبل الانتقال إلى المرحلة القادمة وهي مرحلة احالة البلاغ إلى المحاكمة فور وصول الاوراق من مكتب النائب العام.

وذكرت وكالة الانباء السودانية ان قرار لجنة التحقيق القضائية الافراج عن بعض اعضاء المجلس الاعلى المنحل لعدم ثبوت اشتراكهم في تدبير انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ قد لا يؤدي إلى الافراج عنهم فورا وذلك لانهم اصلا لم يعتقلوا بأمر منها ولانهم معتقلون بموجب قانون الاعتقال التحفظي.

## خلاف في مجلس الوزراء

عقد مجلس الوزراء امس ١٩٦٥/٥/١٧ اجتماعا طارئا لاتخاذ قرار حول محاكمة مدبري انقلاب ١٧ نوفمبر وذلك على ضوء تقرير اللجنة القضائية المتضمن للتحقيق الذي اجرته مع العسكريين والمتهمين. وللظروف التي احاطت بوقوع الانقلاب والتهم التي وجهت للمتهمين منهم. وعلمت الرأي العام ان مجلس الوزراء لم يتوصل إلى قرار في هذا الشأن وذلك لان بعض الوزراء يرون عدم محاكمة مدبري انقلاب ١٧ نوفمبر نسبة للوعد الذي قطع من قبل بعدم تقديمهم للمحاكمة. ولكن اغلب وزراء المجلس يرون ان تقديمهم للمحاكمة لا يتعارض مع الوعد.

فالمحاكمة لن تتعرض إلى ما حدث خلال الست سنوات من الحكم العسكري ولكن تتعرض للمؤامرة والتدبير لانقلاب ١٧ نوفمبر ويرون ان الحكومة ملزمة باتخاذ قرار سريع حول المحاكمة باعتبارها مسألة تهم الشعب السوداني بأسره والوسيلة العملية لجعل الشعب في موقف يلم بصورة واضحة بالظروف التي احاطت بالانقلاب العسكري والدوافع التي قادت اليه بالاضافة إلى ان المحاكمة مطلب من المطالب التي نادت بها الجماهير بعد نجاح ثورتها الشعبية.

ونتيجة للنقاش الطويل الذي اثير حول المحاكمة ورفض عدد من الوزراء مبدأ التصويت على اتخاذ قرار.

فقد فوض مجلس الوزراء السيد سر الختم الخليفة رئيس الوزراء اجراء اتصالات سريعة مع قادة الاحزاب السياسية لمعرفة رأيهم حول هذا الامر على ان يستمر المجلس في بحث تقرير اللجنة القضائية.

● قرر مجلس الوزراء ليلة امس ١٩٦٥/٦/١٥ عدم التدخل في الامر الصادر من المحكمة العليا والقاضي باطلاق سراح السيد احمد مجذوب البحاري ووجه النائب العام للتقدم باستئناف ضد هذا القرار. كما قرر مجلس الوزراء عرض محاكمة مدبري انقلاب ١٧ نوفمبر على الجمعية التأسيسية لاتخاذ قرار بشأنه على ان يبقى المعتقلون بالحراسة. هذا وقد اصدر مجلس الوزراء بيانا ليلة امس جاء فيه ان المجلس وجه النائب العام ليعترض على قبول الضمان من بقية المتهمين المعتقلين تحت قانون الثراء الحرام.

● متى يبدأ التحقيق مع بعض اعضاء المجلس الاعلى السابق.

تقوم هيئة نيابة التظهير بدراسة الاتهامات الموجهة لبعض اعضاء المجلس الاعلى السابق وسيبدأ التحقيق في التهم الموجهة اليهم بعد اجازة التعديلات المقترحة في قانون الثراء الحرام.

## خلاف حول محاكمة قادة الانقلاب

.. قامت مشادة عنيفة بين السيدين الترابي ومحمد ابراهيم نقد في البرلمان عند طرح النقاش حول محاكمة مدبري الانقلاب يوم ١٩٦٥/٧/٦ ... قال السيد الترابي فيما قال بعد ان استعرض مراحل ثورة ٢١ اكتوبر اننا قطعنا وعدا لممثلي القوات المسلحة بعدم محاكمة اعضاء المجلس الاعلى بتهمة خرق الدستور اما الجرائم الاخرى فلا التزام لنا بها وقال ان الذين يطالبون بالمحاكمة فشلوا في الامتحان الاخلاقي لانهم كانوا شركاء في العهد ومنطق العدالة يقول بأننا يجب ان نحاكم الجيش كله بوصفه مشتركا.. كما نحاكم جهات سياسية معينة اشتركت في المؤامرة وثلاثة احزاب اخرى وجهات مدنية واقلام مأجورة مجدت العساكر والموظفين المدنيين.

.. واختتم الترابي حديثه قائلا انني اعرف الثورة منذ الشرارة الاولى والاخلاقيون في الجامعة كانوا يشعلون الثورة بينما البعض كان يعمل للرجوع بها الى الوراء... والاخلاقيون هم الذين يطالبون بعدم المحاكمة واللا اخلاقيون هم الذين يطالبون الان بالمحاكمة..

**نقد...**

● ورد السيد محمد ابراهيم نقد «الحزب الشيوعي» قائلا: ان السيد المتحدث يستحق ان يكون عضواً في المجلس الاعلى المنحل «اعترض السيد الترابي» ومضى

السيد نقد يقول ان القضية ليست وعظ في الاخلاق وانما هي قضايا وضعتها ثورة ٢١ اكتوبر ولا داعي انني كنت من قوادها ولكنني كنت احد الملايين الذين اشتركوا فيها وقد وقفت القوات المسلحة بجانب الشعب وطالبت بحل المجلس الاعلى وليس هناك تنكر للاخلاق ولكن يجب ان نصفي جميع مظاهر الحكم العسكري وضرب كل من تسببوا في الانقلاب احتراما للديمقراطية وعبرة لمن تحدثه نفسه للعبث بدستور البلاد واستجابة للرغبة الشعبية المطلقة.

● **محمد توفيق:**

وقال السيد محمد توفيق: ليسمح لي الرئيس ان اسأل ان كانت هذه الجمعية امتدادا لانقلاب ١٧ نوفمبر ام وليدة ثورة اكتوبر المضيئة وعندما نحاول الاجابة يجب ان نتذكر الست سنوات العجاف ونحن ايضا اخلاقيون واسلاميون وقال ان عبود لم يكن بعيد النظر عندما قال: «احكموا علينا بأعمالنا» واننا كرماء نحكم عليهم باعمالهم ومضى يعدد مساوىء الحكم العسكري ومن بينها مأساة حلفا التي لم ترد في خطاب رئيس الوزراء.

● **عثمان جاد الله:**

عارض السيد عثمان جاد الله المحاكمة وقال ان حزب الامة قد عارض الحكم العسكري من اليوم الاول للانقلاب واشار إلى وثيقة الامام الصديق الراحل وقال ان احدى عشرة جنازة قد خرجت في يوم واحد..

هذا وقد ايد المحاكمة السيد احمد دهب المحامي «وطني اتحادي» والاب فيليب عباس «جبال النوبة».

## كلمة الصحافة
## حتى لا ننجرف وراء العاطفة
## هؤلاء كلهم مسئولون امام التاريخ

ليس هذه كلمة افتتاحية بالمعنى المتعارف وانما هو حديث طويل يضيق مجاله هنا ويحتاج مني فوق ذلك إلى مقدرة وشجاعة تمكنني من خوض هذه الامواج المتلاطمة التي تحيط بنا دون ان يجرفني تيارها العنيف لذلك لابد من وقفة قصيرة استجمع فيها شتات الذكريات حتى استوضح معالم الطريق ثم ابدأ بعد ذلك.

والآن قبل ان ننجرف وراء العاطفة والشعارات التي تأخذ الابصار، وقبل ان نصدر احكامنا حول اطلاق سراح حكام نوفمبر من مدنيين وعسكريين وما ترتب عليه من اثاره، دعونا نعود قليلا جدا إلى الوراء لنبدأ بالايام الخمسة التي كانت جماهير الشعب تملأ فيها الشارع الطويل القابع أمام القصر الجمهوري.

كانت المفاوضات آنذاك في اعنف قمتها بين احزاب الامة والوطني الاتحادي والشعب الديمقراطي وجبهة الميثاق والحزب الشيوعي وجبهة الهيئات من جهة يقابلها من الجهة الاخرى ممثلو القوات المسلحة، ويقبل المتفاوضون من الجهة الثالثة جمهور الشعب الزاحف وقد طالت وقفته وبح صوته مطالبا بانهاء الوضع العسكري فانهارت دموعه ودماؤه وهو لا يعلم الا القليل جدا مما يحدث في قبة المهدي ونادي اساتذة الجامعة ورئاسة القوات المسلحة فقد طالت المحادثات التي حضرت جانبا منها في قبة المهدي حتى خفت مع الجدل البيزنطي على اصرار الشعب ان يفتر وتنتكس ثورته وان كنت هنا لست بصدد تحميل المسئولية الخطيرة لتلك الفترة للمتفاوضين في الوقت الحاضر لان الذي امامي الآن يأتي في قمة الاحداث التي تواجهنا.

**سيطرة:**

كانت القوات المسلحة في لحظات المفاوضات الاخيرة تسيطر على الموقف وكانت لا تزال تخضع لاوامر الضبط والربط الشيء الذي لولا حدث لما انتهت الثورة الى ما انتهت اليه بقليل من الضحايا، وهنا لابد ان اشير إلى ان قواتنا المسلحة ساهمت بنصيب كبير في القضاء على الحكم العسكري الذي كان ينفرد به السبعة الكبار لذلك فهي تستحق اكثر من مجرد الاشادة والتقدير.

كان لابد في مفاوضات خطيرة كالتي جرت بين امدرمان وشارع الجامعة ورئاسة القوات ان تحدث فيها خلافات وتقلبات وتغييرات تتطلب اسلوبا خاصا في الحديث كما

تحتاج إلى حذر شديد وذكاء غير محدود ومد وجزر في المجاملات والمساومات التي يسعى إلى تحقيقها الجانبان.

## مساومات خطيرة:

ان لفظة مساومات هذه تستوقف قلمي حتى يتبين المواطنون حقيقة امرها لانها ترتبط ارتباطا وثيقا بالموقف الذي نواجهه الآن وهو اطلاق سراح حكام نوفمبر من العسكريين والمدنيين فالحقيقة التي لا اريدها ان تضيع وسط العواطف والتيار الجارف والشعارات التي ظل المنادون يطلقونها مطالبين بمحاكمة القادة العسكريين والتي يطلقونها الآن مستنكرين اطلاق سراحهم... هذه الحقيقة المريرة تقول:

«اولاً»: اصرار ممثلي القوات المسلحة على بعض المطالب ومن بينها عدم التعرض للحكام ومحاسبتهم على اي عمل ادوه من ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ إلى ٢١ اكتوبر ١٩٦٥ وادراج ذلك في الميثاق وقد كان.

«ثانياً»: تدخلهم الواضح في اختيار رئيس واعضاء الحكومة الانتقالية مع استسلام الجانب الآخر الا في قليل من التفصيلات.

«ثالثاً»: ان يظل الفريق السابق السيد ابراهيم عبود رئيسا للدولة رغم انف الثورة وقد كان ايضا.

هذه ثلاث نقاط هامة من جانب ممثلي القوات المسلحة يقابلها من جانب ممثلي الاحزاب النقاط الاتية:

«اولاً»: رضوخ ممثلي الأحزاب وهم الامة والوطني الاتحادي والشعب الديمقراطي وجبهة الميثاق والحزب الشيوعي السوداني وجبهة الهيئات إلى البند الاول الذي ارتضوه ووقعوا عليه فاصبح بندا في الميثاق وقيدا حديديا ثقيلا.

«ثانياً»: الرضوخ إلى البند الثاني وهو قبول مبدأ تدخل ممثلي القوات المسلحة تدخلا واضحا في كيفية تشكيل الحكومة الانتقالية التي تعقب الحكم العسكري.

«ثالثاً»: مبدأ الاستسلام للفقرة الثالثة وهي التي تنصب الفريق السابق السيد ابراهيم عبود رئيسا.

## ثورة بدأت عرجاء:

من هنا بدأت الثورة تزحف برجل عرجاء وهي معصوبة العينين مقيدة الساقين ولا يستطيع الذين يعارضون الآن ما ترتب على استسلامهم آنذاك من مضاعفات ان يعفوا من المسئولية أو يخدعوا جماهير الشعب لانهم ارتضوا بكل شيء ووقعوا بامضائهم على هذه البنود التي اصبحت جزءاً من الميثاق الوطني.

لقد التزم حزب الامة وجبهة الميثاق بهذا العهد الذي اصبح قانونا واعترفوا به علنا

وفي شجاعة على الرغم من انه خطأ من اساسه ولن يعفيهم من المسئولية التاريخية وما تواجهه البلاد الآن من استنكار واضطراب غير انه من المحزن ان يتعهد حزب الشعب والديمقراطي والحزب الشيوعي وجبهة الهيئات ويوقع مندوبوهم على نفس الوثيقة التاريخية بخط جاهر المعالم ثم يحاولوا مواجهة الجماهير باسلوب المستنكرين لموقف بقية الاحزاب بعد اطلاق سراح القادة العسكرين من اجل الكسب السياسي المؤقت مستغلين بذلك انفعال الجماهير وبحور العواطف التي يغرق فيها المواطن السوداني لحساسيته ووطنيته المفرطة.

كنت اكبر موقف هذه الاحزاب ان هي ابت من البداية اسلوب المساومات على حساب الثورة وان هي كذلك رفضت التوقيع على قيود والتزامات هي ادرى بنتائجها وما يترتب عليها لكنها قامت بمعارضتها قبل ان تجف اسماء مندوبيها على الميثاق الوطني ومهما يكن من امر هذه المعارضة، ومهما يكن اسلوبها في الشدة والحرارة فانها ايضا لا تعفيهم من المسئولية التاريخية.

## الحكومة الاولى:

.. نعود إلى الحكومة الانتقالية الاولى التي اولاها الشعب ثقته وتأييداً لم تجده حكومة في العهد الحاضر وماذا فعلت هذه الحكومة وكيف واجهت الامور؟

.. كانت الحكومة الاولى التي ترأسها السيد سر الختم الخليفة حكومة ديمقراطية فريدة في نوع الحكومات فقد كانت تتمتع بالسلطتين التنفيذية والتشريعية واستطاعت في ايامها الاولى ان تقوم بحملات واسعة في التطهير لكنها ركزت كل اضوائها وقواها في اطراف جانبية دون ان تعنى بأخطر وأهم جانب هم قادة الحكم العسكري فماذا فعلت؟

«اولاً»: استطاعت ان تعزل كبار الضباط الذين كانوا طرفا قويا في المفاوضات.

«ثانياً»: انتقلت إلى الخدمة المدنية وبعض رجال الاعمال وحاولت ان تقوم بعملية تغيير كاملة لوجه الحكم في البلاد.

كل هذا جميل ولكن كيف يمكن ان تغير وجه الحكم وتستجيب لمطالب الثورة وقادة الانقلاب العسكري هناك بعيدا في زالنجي؟ الم يكن في مقدورها مثلا ان تقدمهم للمحاكمة بجريمة اقتراف خرق الدستور دون اي اعتبار لالتزام ما دامت تتمتع حتى تلك اللحظات ولأشهر اخرى بسلطات تنفيذية وتشريعية؟

والسؤال الآخر، إلى الذين يستنكرون الآن اطلاق سراح القادة العسكريين ويقودون المظاهرات ضد اطلاق سراحهم وقد كانوا اعضاء في الحكومة الانتقالية... السؤال هو:

.. ماذا كان يحدث لو بدأوا اولا بمحاكمة القواد العسكريين وقد كان في قمة المطالب الشعبية.

.. ماذا كان يحدث وبيدهم كل شيء وأضع تحت كل شيء هذه خطاً عريضا ؟

رب مجيب يقول ان هناك التزاماً او تعهداً او نصاً في الميثاق يتعارض مع هذه الرغبة وهنا لا بد من سؤال اخر وهو :

.. هل هذا الالتزام او العهد قد ضاع الآن وجف مداده ؟

## تعديلات كثيرة

لقد عدلت الحكومة الاولى التي ترأسها السيد سر الختم الخليفة الدستور اكثر من مرة فلماذا مثلا وثلثا أعضائها ان لم تخني الذاكرة كانوا من العاطفين على الشيوعيين والشيوعيون انفسهم وهم يعترضون مبدئيا على عدم محاكمة القادة العسكريين .. لماذا لم يعدلوا فقرة العهد والميثاق هذه ما داموا قد التزموا بها دون ايمان منهم ولاسباب يعلمونها وحدهم لماذا لم يستجيبوا لمفهوم الثورة التي طالبت بالقصاص ؟

هذا السؤال يحتاج إلى فهم اكثر دقة .

## قيد على القضاء :

لقد ذهبت الحكومتان الانتقاليتان الاولى والثانية بعدما وضعتا قيدا ثقيلا على القضاء فهو لا يستطيع ان يحاكم القادة العسكريين لانه يلتزم بالدستور والقوانين ، وفي الدستور نص صريح والتزام وقعت عليه جميع الاحزاب بلا استثناء يجعل يد القضاء مغلولة عاجزة لذلك فان مفهوم القانون المجرد قد قضى باطلاق سراح القادة العسكريين بل واعاد اليهم حتى رسوم المحكمة واعتبر الفترة بين ٩ نوفمبر حتى اخر لحظات لهم في السجن غير قانونية لان حكومة الثورة الاولى تناست وهي تجيز الدستور انه سينطبق على جميع افراد الشعب السوداني بما فيهم قادة الانقلاب ... بل واتضح ان مجلس الوزراء نفسه لم يكن يملك سلطة الحجز التحفظي عليهم وليس من المنطق بالطبع ان تستثنى القوانين وبعض المواطنين من المحاسبة ، ولكن ذلك ايضا حدث في حكومة سر الختم ؟

## ارتجال وتخبط

.. كل شيء في الحكومة الانتقالية كان يسير بالتخبط والارتجال ولا ادري ان كان هذا التخبط كان ينفذ عن عمد ام عن جهل .

المهم مهما يكن من سياسة الحكومة الانتقالية الاولى التي اولاها الشعب ثقته فقد تنكرت له وورطته وخلقت له كثيرا من المشاكل وعلى رأسها محاكمة القادة العسكريين .

والآن دعوني ان اختم هذا الحديث بتلخيص إلى السادة اعضاء الجمعية التأسيسية :

«اولاً» : لقد حدث انقلاب عسكري في ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ وكان ذلك خرقا صريحا

للدستور وقام هذا الانقلاب بمصادرة الحريات وتعطيل الصحف وكتم انفاس الشعب ولذلك فقد اصبح من الضروري ان يحاكم كل من ارتكب او ساعد على ارتكاب خرق الدستور حتى لا يكون خرقه في اي زمان سابقة تشجع الآخرين على اقترافها.

.. اقول هذا دون ان انجرف وراء العاطفة او العلاقات الخاصة التي يجب الا يكون لها وضع ان كنا فعلا حريصين على تأمين مستقبل البلاد الديمقراطي.

«ثانياً»: يجب ان يقدم للمحاكمة كل من تعاون مع الحكم العسكري من موظفين وسياسيين سواء كان ذلك بالمشاركة في مؤسسات الحكم البائد أم بالتأييد الظاهر لانه ليس من المعقول ان يبقى الحكم.. العسكري ستة اعوام دون ان يكون هناك من ساعد على تدعيمه... اقول هذا ايضا دون ان استسلم إلى العاطفة.

«ثالثاً»: يجب على السادة اعضاء الجمعية التأسيسية ان يعدلوا الدستور لكي يجيز محاكمة كل من يتآمر عليه حتى يتمكن القضاء من اداء واجبه دون ان يكون مقيدا او مغلولا.

وفي هذه العجالة اردت فقط ان يستوضح الشعب والحاكمون معالم الطريق ثم بعد ذلك نبدأ رحلتنا ونحن في مأمن من عاديات الزمن وغدر الايام.

والآن فان المنطق يقول بان التزام الأحزاب بعدم المحاكمة قد انتهى بانتهاء فترة الانتقال وحكومة الانتقال ونحن نواجه الآن فترة جديدة من حياتنا نستظل فيها بقبة البرلمان وبدستور نأمل ابدا الا يتمزق.

# تنازل الرئيس عبود

## انتقال سلطة رئاسة الدولة لمجلس الوزراء... تعيين الخواص قائدا عاما تكوين مجلس دفاع للجيش برئـاسـة السر وعضـويـة مخجـوب وزروق وكلمنت والخواص

اذاع في منتصف نهار الامس الاحد ١٥ نوفمبر ١٩٦٤ الرئيس الفريق ابراهيم عبود تنازله عن سلطاته كرئيس للدولة وقائدا اعلى للقوات المسلحة وانتقلت سلطاته الى مجلس الوزراء مؤقتاً حتى يتم التشاور على مجلس سيادة وفق دستور ١٩٥٦. وهذا هو نص البيان التاريخي الكبير الهام..

مواطني الاعزاء..

احييكم اطيب تحية، واشيد بوحدتكم والتفافكم حول حكومتكم الشعبية الانتقالية، واحتراما لرغبتكم، وانتم مصدر السلطات في انتهاء الوضع العسكري بكافة صورة، وبعد اقتناعي بأن هذه الحكومة القومية تمثل الرأي العام السوداني في كافة قطاعاته، وانها تحرص حرصا اكيدا على صيانة استقلال البلاد، وانها اهل للاضطلاع بالمسئوليات الخطيرة التاريخية الملقاة على عاتقها في تأمين سير البلاد باجراء انتخابات حرة نزيهة تنبثق عنها الجمعية التأسيسية التي ينتخبها الشعب انتخابا حرا لتضع الدستور الدائم للبلاد ونظرا لاقتناعي، ايضا بأنها حكومة يطمئن اليها الشعب وتثق فيها القوات المسلحة، وقوات الأمن الاخرى وترتضيها اجهزة الدولة المختلفة، وافراد الخدمة المدنية.

.. ومهما اختلف الرأي بين المواطنين، فأرجو ان تثقوا انه كان رائدي خير هذه البلاد، وهدفي تحقيق مصلحتها العامة والحفاظ على استقلالها ووحدتها. ولقد كان كل ما قمت به طيلة هذه السنوات الست انما هو من وحي هذه الاهداف وبحسن نية، في محاولة جادة مخلصة لاصلاح الامور بالصورة التي حددتها ظروف تلك الفترة.

مواطني الكرام/

اني اذ استودعكم الله، ادعو لكم بالاستقرار والازدهار، واتمنى دوام وحدتكم، وادعو الله من قلبي ان يشمل هذا البلد الامين برعايته وان يحقق امانيه في حياة حرة كريمة.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

● وكتب رئيس تحرير «الصحافة» في بابه اليومي المعروف عزيزي القارىء يقول:

اعلن الرئيس الفريق ابراهيم عبود يوم الاحد ١٥ نوفمبر ١٩٦٤ تنازله عن سلطاته كرأس للدولة، وقائد أعلى للقوات المسلحة وانتقلت جميع سلطاته لحظة تنازله إلى مجلس الوزراء فحقق الشعب بذلك نهاية انتصاراته وبدأ رحلة جديدة لتحقيق غاياته الاخرى وهي تتركز اساسا في تأييد الحكومة وتهيئة الجو الهادىء المستقر حتى تستطيع ان تؤدي مهمتها الكبيرة في مرحلتها القصيرة الخطيرة.. ان الشعب الذي بدأ ثورته ودفع من أجلها الدم والدموع والعرق والانين لجدير به الآن ان يتبصر أمره، ويتحسس نفسه دون ان يترك مجالاً ينساق فيه مع العواطف. او ينحرف عن جادة الطريق، او يعرقل عمل الحكومة. ولن يتأتى ذلك الا اذا انصرف كل منا إلى تأدية عمله باخلاص يدفعه إلى مضاعفة الانتاج، واستتباب الامن، ومحاربة الشائعات واحترام الرأى وحرية التعبير والتصرف في ميادين الجدل ومعارك الانتخابات.

ان الحكومة ستتجه منذ اليوم إلى تطهير الاجهزة الحساسة والاعداد للانتخابات حتى تتم في ميقاتها المحدود ولن يتسنى لها ذلك اذا مضينا في حصارها ومضايقتها بمشاكل جانبية هي أبعد ما تكون عن مصلحة الشعب والوطن.

.. لقد اجتاز الشعب القوي بالامس اختبارات مريرة قاسية وهو اليوم يواجه اختبارات جديدة قاسية، تتعلق بالاخلاق، والتصرف والتعامل والاحترام، واكرام الضيف وتبادل الثقة والامانة ونشر المحبة وجمع الصفوف..

.. ان الشعب يحتاج اليوم ان يترجم شعارات الامس، ووحدة الامس، واخلاص الامس إلى حقائق ومعان تعيش في صفوفه وتحيا ابدا في قلبه ومشاعره.

.. وتهنئة حارة لشعب اجتاز اختبارات اليوم وغدا وإلى الابد.

## تصريح من الصادق المهدي

● ادلى السيد الصادق المهدي رئيس حزب الأمة بتصريح هام لـ (الصحافة) يوم ١٩٦٤/١١/١٧ يدعو إلى اعداد مواثيق قومية للشمال والجنوب لتوحيد الصفوف الشعبية والحزبية والصحفية.. ونادى بضرورة التفكير في الجمهورية الرئاسية.

.. قال السيد الصادق المهدي ان الشعب باحزابه وهيئاته اذا ارتضى هذه المواثيق فان تسلط الأحزاب سيضعف واختلافاتها ستصبح شكلية وسيتجه الشعب لانتخاب الرجل الصالح خاصة للجمعية التأسيسية التي ستضع الدستور..

قال السيد الصادق ان اجماع الشعب السوداني بكل عناصره وفئاته في ثورة ٢١ أكتوبر ينفي اسطورة التفرقة واستحالة الاجماع التي مزقت الشعب في الماضي القريب ولابد للاحزاب ان تغير مفاهيمها وتأتي بجديد يتمشى مع مفهوم الشعب الحالي.

.. ومضى السيد الصادق يقول ان هذه المواثيق القومية لو اعدت بحيث تشمل

خطوطها العريضة على توحيد برنامج للسياسات الخارجية والاقتصادية والاجتماعية ووضع اسس سليمة تحفظ الديمقراطية وتوفر العدالة والمساواة وحرية التعبير والديانة والتصرف، فان الاحزاب ستصبح ملغية شكلا لا معنى.

.. واستطرد السيد الصادق يقول ان هذه المواثيق يمكن ان تعدل كل خمسة اعوام حتى تتمشى مع التطور الجماهيري مما يجعل المناداة بنظام الجمهورية الرئاسية منطقا سليما يقوي الاتجاه القومي ويضعف في نفس الوقت النفوذ الحزبي بعد انضمامه تحت لواء الميثاق مما يجعل الاحزاب كلها ملتزمة بنصوصه مجتمعة عليه فينصرف نشاطها إلى التنظيمات الداخلية والشكلية.

ومضى السيد الصادق يقول ان الشعب الواعي يجب ان يدرك اهمية الانتخابات وخطورة الجمعية التأسيسية التي ستضع الدستور ومن هنا كانت ضرورة انتخاب الصالحين والكفاءات امرا تحتمه الظروف.

واختتم السيد الصادق حديثه بأن هذه الدعوة الديمقراطية الصريحة ستحقق معاني الاشتراكية على اساس تقدمي وتحول الصراع الحزبي إلى مشاكل شكلية تنظيمية بحتة.

وتساءل السيد الصادق بعد ذلك:

«هل يمكن ان نبتدع هذا التخطيط السياسي على اثر المفهوم الجديد والتكتلات الشعبية التي حققت ثورة ٢١ أكتوبر؟».

## منطق سياسي...
## يستحق البحث..

.. هناك حقيقة واحدة يجب ان نواجه بها انفسنا بصراحة ونواجه بها احزابنا بصراحة اكثر وهي ان الجماهير الشعبية بمفهومها الثوري الحديث تنتظر من الاحزاب ان تنزل اليها بمفاهيم جديدة تتناسب ومفهوم الثورة لانها تعيش في تردد وشبه حيرة.

.. ان الشعب السوداني يقف الان في مفترق الطريق فلا هو قادر ان يستعيد ثقته الاولى كلها في الاحزاب، ولا هو قادر ان يدير لها ظهره. والحقيقة التي لا تحتاج إلى دليل هي ان الشعب السوداني يقف الان في قمة عالية وهو يتطاول بعنقه ويحملق ببصره نحو فضاء لا نهائي ويتحسس بأقدامه المواضع ليختار الطريق الذي يمشى عليه ولكنه مع ذلك يحس بالثقة والاطمئنان الى نفسه وإلى عزيمته واصراره وادراكه لما يجري حوله فهو لا يمكن بعد اليوم ان يتحرك في اتجاه سياسي يجهل دروبه.. ولا يمكن ان يستمع إلى شعارات والفاظ تعوق سيره... ولا يمكن ان يستجيب إلى نداء يحس خطورته... ولا يمكن ان يتبع سياسة يجهل خباياها وزواياها.

.. ان الاحزاب وبين رجالاتها من لهم تاريخ مشرف يجب ان تخرج اليوم من

جمودها حتى تزيل الحيرة من الافواه، والتعجب والتردد من العقول لتواجه الشعب بمفاهيم جديدة وبمنطق جديد وبسياسة جديدة واضحة، فالشعب الذي حقق ثورة ٢١ اكتوبر لن يعبد بعد اليوم غير الافكار والاتجاهات فقد مضى الوقت الذي يتسلط فيه الافراد والهيئات على الوعي الجديد وعلى المفهوم الجديد..

.. ساعة كاملة قضيتها امس الاول مع السيد الصادق المهدي ونحن نناقش المفهوم الجديد للشعب السوداني وقد اعجبني حديثه وصراحته وايد لي ان الاحزاب لابد لها بعد الان ان تخرج من جمودها القديم لتساير الوضع الراهن، وقال ان اجماع الشعب العظيم يوم ٢١ اكتوبر يحطم الاسطورة القديمة التي عاشت فيها العقليات القديمة.

.. ان الدعوة التي وجهها السيد الصادق ميثاق قومي خرج فيها بنفسه من المحيط الحزبي الضيق، إلى المحيط الجماهيري القومي وهي دعوة مواطن وزعيم فيها من الصراحة والوضوح ما يخولها المكان الاسمى من الاعتبار والتقدير والبحث، فان استطاع زعماؤنا في الاحزاب والهيئات ان يرتفعوا الى مستوى الشعب ويفكروا بمفهوم الثورة، لذللت امامنا العقبات ولمضينا إلى الامام ونحن ندق ابواب المستقبل بنفس القوة... وبنفس الاصرار الذي حققنا به ثورة ٢١ اكتوبر الخالدة..

.. و«الصحافة» تفتح ابوابها لكل ذي رأي سليم وسلام على هذا الشعب الابي الكريم.

## متى تلحق الاحزاب بقطار الشعب

.. الاحزاب السودانية.. جميع الاحزاب ساهمت بزعمائها ورجالاتها ومؤيديها من الكتل الشعبية في تحقيق الاستقلال الشامل الكامل الذي اعلن في يناير ١٩٥٦..

.. كانت فترة ما قبل الاستقلال فترة عصيبة شهدت تقلبات الرياح من كل جهة وكان الصراع القائم انذاك بين فكرتين اساسيتين تختلفان في كل شيء... المبدأ والمفهوم والاسلوب والمنطق والوسائل غير ان الفكرتين على اختلافهما قد التقتا تحت سقف البرلمان فاجمعتا اجماعا موحداً رائعاً يوم ١ يناير ١٩٥٦ ووقفنا بجانب الاستقلال.

.. من هنا كانت النهاية لصراع فكري طويل عميق... وكانت البداية لحياة جديدة تختلف في الاساس والمبدأ.. وكانت البداية ايضا للصراع نحو الحكم فتجاذبته تيارات كثيرة منها الظاهر ومنها المستتر... ليس هذا على كل حال مجال سرد للتاريخ الحزبي القديم وانما هو استعراض لما نحن فيه وما نواجهه في الغد فكان لابد إلى الاشارة فقط لا سرد التاريخ والاحداث.

.. ان الاحزاب السياسية تجمد نشاطها السافر طيلة الستة اعوام للحكم العسكري

ومر الشعب خلال السنوات بصنوف عديدة من المحن والتجارب ... وصنوف اخرى من الكبت الفكري والاجتماعي ... والوان شتى من الظلم والاضطهاد انتهت كلها إلى ثورة ٢١ اكتوبر .

.. في فترة الاعوام الستة تغير تفكير الناس ... وتغير مفهوم الناس ... وتطورت عقول الناس وثارت مشاعر الناس وتعلم الشعب خلال الفترة التي بدأت من يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ حتى ٢١ اكتوبر ١٩٦٤ دروساً جديدة ادخلت على عقولهم مفاهيم جديدة ابعد ما تكون عن مفاهيم ما قبل ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ فبينما (تحنطت) العقول والمفاهيم وانحصرت انذاك في الجدل البيزنطي، والقطيعة السياسية، وانقلبت الان الى جدل ثوري وانطلاقة تحررية لابد ان يقابلها من الجوانب السياسية الاخرى منطق اكثر ثورية ان لم يكن في مستوى الثورة نفسها .

.. ان الاحزاب السياسية يجب ان تضع في موازينها ان الدروس التي تعلمها الشعب خلال الاعوام الستة الماضية بالاضافة إلى الدروس التي تعلمها ابان ايام الثورة العشرة جعلته في وعي يتخطى عمره بمئات السنين والذي اهدف اليه من حديثي هذا لا يعني انني شخصياً لا أؤمن بوجود الاحزاب ولكنني اريد ان تتخطى الاحزاب مئات السنين في التفكير والبرامج حتى تدرك قطار الشعب .. ان وجود الاحزاب ضرورة يحتمها الوضع الديمقراطي الذي نعيش فيه وهي ضرورة تقتضيها المفاهيم السياسية والاجتماعية في الحاضر والمستقبل لكنني في نفس الوقت احس بان هناك مبادىء حيرة في الصفوف الشعبية قد لا تصل إلى درجة التخوف مما جعلني انبه لمخاطر مجرد الحيرة حتى تعمل الاحزاب على ازالتها فمما لاشك فيه ان الاحزاب لم توفق في ماضيها البعيد إلى الدرجة التي يرتمي فيها المواطن الثوري اليوم في احضانها دون ان يتردد ... ودون ان يتبصر .. ودون أن يتحسس نفسه ويتحسس طريقه .

.. ان وجود الاحزاب في بلد توحدت اهدافه القريبة والبعيدة أصبح شكليا بالمعنى العام ولكنه مع ذلك يستطيع ان يلعب دورا تنظيميا قياديا يعبىء فيه الشعب إلى تكتل ووحدة تنضوي تحت خطوط عريضة صريحة واضحة ومن هنا كان ضروريا ان تتفق الاحزاب فيما بينها على هذه الخطوط العريضة وتجمع على مواثيق تحدد الاهداف بطريقة يطمئن عليها الشعب .. ويقبل عليها الشعب ... وحتى تصل الاحزاب إلى نوع من التقارب يتمشى ومفهوم اليوم، فان تردد الجماهير سيظل باقيا على الرغم من المحاولات التي تعمل لازالته من النفوس؟

**١٩٦٤/١٢/٢٨م**

**عزيزي القارىء**

## الناس والاحزابْ والانتخابات والعناصر المأجورة

.. المعركة الانتخابية التي سنواجهها بعد قليل ستكون تاريخية فاصلة تقرر مصير البلاد إلى اجيال واجيال... ستكون معركة حساسة يصطرع فيها الضمير والعقل والقلب واللسان لانها معركة تتجاذبها اطراف مختلفة تستمد بعضها قواها وافكارها وسياستها وحركاتها من الطابع السوداني المحلي النظيف واطراف اخرى تستمد كل شيء حتى انفاسها من الخارج وعلى الرغم من الفارق الشاسع بين هذه الاطراف فان الصحافة السودانية الحرة عليها واجب ضخم هو التبصير ونشر الحقائق حتى لا يخدع مواطن ساذج بالبريق المزيف الذي يستمد ايضا شرارته بعيدا من هذه البلاد... بعيدا عن شعبها... وواقعها بعيدا من ارضها وسمائها!

.. لقد ظل المجتمع السوداني بكل فئاته وطبقاته يهتز اهتزازات خطيرة بعد ثورة ٢١ اكتوبر الخالدة التي صنعها بيده ودمه واعصابه.. اهتزازات اوشكت ان تعصف بمقوماته ومكاسبه نتيجة للفوضى وسياسة التغرير والاستغلال حتى وجد نفسه بين عشية وضحاها غريبا عن الثورة نفسها عن ميدانها!!

.. ومضت هذه الاهتزازات إلى درجة اصبح التمييز فيها بين الوطني والمتخاذل، وبين الخائن والحر، وبين الطاهر والفاسد امرا صعبا فقد اصبح الفرق بين هذا وذاك شعرة لا تكاد ترى مما جعل الاهتزازة تزداد وتزحف من الشارع إلى مكاتب الحكومة، إلى طبقات العمال والمزارعين وإلى كل ميدان من ميادين الحياة المتفرقة.

.. وظل الشعب في حيرة من امره... ظل يقف فوق ربوة عالية وهو يطل برأسه إلى ما تحت اقدامه ليتبين حقيقة امره وليرى اي طريق ينزل اليه فيسلكه، ولم يستطع في وقفته تلك بعد ثورة اكتوبر ان يرى معالم الطريق فقد كانت الاحزاب كلها في سبات ونوم عميق وكانت كلها في حاجة إلى غربلة ضخمة تطهر صفوفها حتى تعيد ثقة الناس فيها فيمضوا إلى مواكبها ويمنحوها العطف والتأييد... ولكن شيئا من هذا لم يحدث فطالت وقفة الناس على الربوة!!

.. لم تعلن الجبهة القومية حتى لحظات ما بعد الثورة انها حزب سياسي ولكنها كانت جبهة قومية موحدة انضم الناس تحت لوائها ومنحوها العطف والثقة ولكن بعض الناس توقف قليلا ليستجم ويرتاح ثم يفكر!!

.. وانقسمت الجبهة القومية وظلت جبهة الهيئات تعمل بمعزل عنها وسار معها بعض الناس لكنهم سرعان ما وقفوا ايضا وبدأوا يفكرون عندما سطا الشيوعيون على مقاعد الامانة وبدأوا يسرقون انتصارات الجبهة الوطنية نفسها مما احدث انشقاقاً وصل

حد تقديم صوت الثقة بسبب تكوينها للجان الاقاليم وبسبب اختلافات كثيرة اخرى!!

.. كل ذلك والناس في حيرة من امرهم يتطلعون من فوق الربوة العالية ليتبينوا معالم الطريق!

.. وخيمت على البلاد موجة عارمة من الارهاب والتهديد والمخاوف، ونزلت عليها عديد من المصائب اضطر معها الشعب ان ينزل إلى الشارع من ربوته العالية ليحمي مكاسبه وهنا فقط ادركت الاحزاب الخطر وبدأت بأضعف الايمان. بدأت بسياسة المذكرات إلى ان اضطرت الحكومة مع ما تواجه من خطر ان تستعين بها وتتشاور مع زعمائها.

.. حدث كل ذلك والايادي الاجنبية تعمل في الخفاء في شكل ظاهر وفي شكل مستتر ومضت اشباحها تنخر في الصفوف عن طريق العملاء والمأجورين الذين استطاعوا ان يوجهوا مخاوف الشعب إلى جانب واحد منه... إلى المعسكر الغربي وان يوهموا السذج والبسطاء بأنه الخطر الوحيد الذي يحدق بالبلاد.

.. ونسي عملاء الشيوعية وقد عرفوا بالذكاء المحدود ان الدول الشيوعية التي يستمدون منها كل شيء لا تقل خطرا عن المعسكر الغربي الذي ادناه واستنكرنا تدخله السافر هنا وفي الكنغو وفي كوبا وفي فيتنام وفي كل مكان... لقد استطاع الوكلاء الشيوعيون ان يوهموا هـذا الشعـب الطيـب إلى الحـد الذي يستعملـون فيـه عـربـات السفارات الشرقية في وضح النهار فيصفوا انفسهم بالرجولة والبطولة، او هكذا خيل اليهم!!

.. زارني قبل ايام المستر نيكولاي بودز نياكوف مراسل تاس الجديد وسألني عن الموقف الحالي... وعن الانتخابات وعن الاستعمار بمنظاره هو فذهل عندما اجبته بصراحة على غير ما ينتظر قلت له:

ان ثورتنا يتربص بها الاستعمار الاجنبي من كل جانب لانها لا تعجبه ولم تأت حسب هواه. فطرب المستر نيكولاي قبل ان يستمع إلى بقية رأيي في المحاولات التي تجري لتعطيل الانتخابات.

قلت له:

ان الخطر الذي يواجه السودان وثورته من المعسكر الغربي لا يقل عن الخطر الذي تواجهه من المعسكر الشرقي «والسوفييتي بشكل خاص» لانه لم يكن هو ولا عملاؤه في السودان يحلمون بمثل هذه المقاعد في الحكومة القومية لذلك فان الاستعمار الروسي يحارب بكل قواه اجراء الانتخابات ويعمل ما استطاع إلى عرقلتها. هذا من ناحية اما الاستعمار الغربي فانه يحارب الوضع كله ولا يثق فيه وما زال يحاربه!!

.. هذا ما قلته لمراسل تاس وهو يتابع حديثي بدهشة اذ يبدو انه لم يجد من يستطيع ان يسمعه رأيا واضحا صريحاً كرأيي.. هذا ما قلته له لأنه روسي وقد احجمت ان اقوله لوكلائه وعملائه!!

... تحركت الاحزاب بعد ما ادركت خطورة الموقف ونزلت إلى الميدان تزاول نشاطها في وضوح الشمس.

.. كانت الايام الثلاثة الماضية هي ايام حزب الامة الذي عقد مؤتمره العام واعلن دستوره على الناس وبين خطوطه العريضة وقد كان للخطاب القوي الصريح الذي القاه السيد الصادق المهدي رئيس حزب الامة وقعا كبيرا في صفوف المؤيدين والمعارضين... وصفوف الاصدقاء والاعداء والمشفقين والمخلصين على السواء لأنه كان خطابا قوميا اتسم بالمنطق والموضوعية فوق ان كل سطر فيه قد نبع من حقيقة هذا الشعب ومن واقعه وتراثه التليد.

كان الخطاب جامعا وضح معالم الحكم وحدد مستقبل البلاد وسياستها الخارجية ونظامها الاقتصادي الذي نظمه في ثلاثة قطاعات:

١ ـ قطاع عام وهو الذي تملكه وتديره او تشرف عليه او توجهه الدولة ويشتمل على منشآت الخدمات العامة والصناعات الثقيلة و... والخ.

٢ ـ قطاع تعاوني وهو المشروعات والمنشآت الزراعية والتجارية و... الخ.

٣ ـ قطاع خاص وهو يشمل المشروعات الزراعية في طور الانشاء والصناعات الخفيفة والتجارة الخارجية و... الخ.

تعمل هذه القطاعات الثلاثة بموجب خطة واضحة تهدف إلى بناء الاسرة والمجتمع والبلاد من تعليم وصحة ومطالب مختلف الفئات لرفع المستوى العام.

.. وجاء دور المزارعين فاعلن السيد عبدالرحمن نقد الله سكرتير عام حزب الامة في ثاني ايام المؤتمر بان نصيبهم سيرتفع إلى ٧٠٪ هذا في نفس الوقت الذي اعلن فيه بان حزب الامة لن يعتمد بعد الله في حملته الانتخابية الا على سواعد المواطنين وتبرعات الشعب.

.. هنا تحدد موقف حزب الامة من جماهير الشعب السوداني في خطاب رئيسه وفي حديث سكرتيره العام ونفس الشعب ينتظر خطوة مماثلة من الاحزاب الاخرى... ومن الاخوان المسلمين ومن الشيوعيين انفسهم!

.. ان الدستور قد كفل للاحزاب ممارسة نشاطها في النهار ونحن نرحب بالحزب الشيوعي الذي ظل طيلة حياته يعتمد على الستر وعلى بطن الليل والمنشورات في كفاحه السياسي لذلك فاننا ننتظر منه ايضا كما ننتظر من الاحزاب الاخرى ان تعلن برامجها للناس وان تعتمد في حملتها على الناس... وعلى حكم الناس.. وعلى واقع الناس فان فعل الحزب الشيوعي ذلك وجاء غدا إلى الحكم وهذا ما استبعده زعماؤه انفسهم فانه سيكون شرعيا بمحض ارادة الشعب.

مرة اخرى اكرر بان الفترة القادمة ستكون فترة فاصلة يتوقف عليها مستقبل البلاد من اقصاها إلى اقصاها ولذلك فان المواطن النزيه يجب الا يتأثر بغير ما يمليه عليه قلبه

وضميره وارادته والا يؤخذ بالبريق والكذب والتهديد والارهاب وحملات التضليل والخداع وان يتبين عدوه وصديقه ثم لا تأخذه بعد ذلك غفلة او تردد في أن يناصر صديقه ويسحق عدوه بكل قوته وارادته وبلا تهاون ولا رحمة!!

ان البلاد في حاجة إلى التطور والبناء... وفي حاجة إلى رحلة طويلة شاقة تحقق فيها كل آمال هذه الامة وغاياتها وامانيها ولن تستطيع ان تفعل ذلك الا في جو يتوفر فيه الامن والاستقرار والاطمئنان والعدالة ولا يمكن لهذا الجو ان يتوفر الا على ايد نظيفة وطنية خالصة تؤمن بحق هذا البلد وتستوحي سياستها من واقعه وتاريخه وتراثه وتخشى عليه وتخاف الله فيه!!

.. ان المواطن الحر عليه ان يعلم ان الحكومة الحاضرة التي ايدها وناصرها مهما طال بها البقاء فانها ستزول مع الانتخابات ونأمل ان تنجز اعمالها بنفس الامانة وبنفس الروح التي بدأت بها مهمتها الخطيرة حتى نستطيع ان نكرم اعضاءها بقدر ما قدموا لهذا البلد، وبقدر ما قدموا لشعبه يوم يأتي الحساب.

ليس امامي الآن الا ان ادعو بالتوفيق والهدى للجميع وبالخير والسعادة لهذا الشعب وهذا الوطن الحبيب!!

# ﴿ الفصل السادس عشر ﴾

## الثورة والصحف العالمية

- النيوزويك وعاصفة على النيل
- هيكل يتساءل : ثم ماذا بعد في السودان ؟ ونحن نجيب !
- محمود السعدني يتحدث عن موقف الصحف المصرية والمرأة السودانية ، ورقصة العروسة والكورة !
- ماذا قلت لعبد الناصر امام امير الكويت والرئيس العراقي ؟



## الثورة ...وصحافة العالم

.. صحافة العالم كانت تعيش بعيدا عن الاحداث .. قالت ان الثورة يسارية كانت تهتف ضد الاستعمار الامريكي ... وقالت ... وقالت ... وقالت ...؟

النيويورك تايمز - امريكية - مستقلة بتاريخ ٦٤/١٠/٢٩ في الصفحة الاولى:

هدد اللواء حسن بشير نصر نائب القائد العام في الجيش السوداني بان القوات الموالية له ستقوم بتدمير الخرطوم تدميرا كاملا في حالة صدور اي امر بعزله من منصبه. قالت الجريدة انها استقت هذه المعلومات من مصادر مصرية وان الحركة التي قام بها ما يسمونهم بالضباط الاحرار كانت نتيجة مباشرة لصدور هذا الانذار من اللواء حسن بشير ..

وكتبت جريدة النيويورك هرالد تربيون قبل يومين من هذا التاريخ ان الشعب السوداني انما ثار احتجاجا على الاجراءات التعسفية التي اتخذتها حكومة الجنرال عبود ضد انصار الانفصال من ابناء جنوب السودان الذين هم في الحقيقة زنوج مسيحيون لا يرضون بحكم الشماليين العرب الذين يعملون على نشر الدين الاسلامي في جنوب السودان.

وتناقض الجريدة المحترمة نفسها اذ تمضي فتقول ان الثوار كانوا يرددون هتافات معادية لامريكا وينادون بادانة الاستعمار الامريكي. وخلصت الجريدة إلى القول بانها علمت من المصادر الدبلوماسية الامريكية في الخرطوم ان احدى الفئات الشعبية المشتركة في التظاهر تقع تحت النفوذ الشيوعي او هي على الاصح شيوعية خالصة.

● **النيويورك تايمز:**

ورجعت النيويورك تايمز في عددها بتاريخ ٣٠ أكتوبر لتلحس قراراتها السابقة وتقول انها علمت من الدوائر البريطانية في الخرطوم ان الثورة موجهة ضد الحكم العسكري وليس للخلافات التاريخية القائمة بين جنوب السودان وشماله دخل فيها وتضيف ان عدم الرضا الذي عم البلاد لم يكن موجها لشخص الرئيس عبود ذاته.

● **جريدة التايمز :**

اما جريدة التايمز اللندنية فقد كتبت في عددها الصادر في السابع والعشرين من اكتوبر بان ثمانين طالبا سودانيا في بيروت قد توجهوا نحو سفارة السودان فحطموا صورة الرئيس ابراهيم عبود وتقدموا بمذكرة احتجاج دعوا فيها لانهاء حكم الظلم والارهاب كما انهم لبسوا الاسود حدادا على الموتى .

وقد ذكر القائم بالاعمال السوداني السيد مصطفى مدني لمراسل التايمز انه عرف من خبرته الطويلة انه لا جدوى من اعتراض سبيل الطلاب متى اقدموا على مثل تلك الخطوة .

وختمت التايمز حديثها بان الامبراطور هيلاسلاسي الذي كان ينوي زيارة السودان ليقوم بدور الوسيط بين الجيش والشعب قد اجل زيارته لفرصة اخرى .

● **وزير الخارجية يتحدث للاخبار القاهرية :**

جاء في تصريح للسيد محمد احمد محجوب وزير الخارجية ادلى به تلفونيا لمندوب صحيفة الاخبار القاهرية بان الحكومة الانتقالية قد حددت سياستها الخارجية المتمثلة في الالتزام والعمل على تدعيم التعاون التام الشامل في المحيط الافريقي ومناهضة الاستعمار في المناطق التي ما زال الاستعمار مسيطرا عليها بجانب العمل على دعم سياسة عدم الانحياز في النطاق الدولي وتدعيم المواثيق والمقررات التي اتخذت في مؤتمر عدم الانحياز ومؤتمر القمة الافريقي ومؤتمر القمة العربي .

● **مدير الاسوشيتدبرس يتحدث عن فرحة الشعب بانتصاره :**

عم الابتهاج شعب السودان لنهاية الحكم الذي استمر ست سنوات وسارت الجماهير في الشوارع والبسمات تعلو الشفاه غير مهتمة بشظايا الزجاج المتناثر تحت اقدامها او آثار الحرائق في الأندية الليلية ، تلك الآثار التي خلفتها ثورة الايام العشرة التي اسفرت عن ٣٠ قتيلا ومائتي جريح ..

هكذا بدأ المستر جورج ماك ارثر مدير وكالة الاسوشيتدبرس الامريكية للانباء مقاله الذي نشرته له جريدة الاخبار القاهرية ويعد ما كتبه المستر جورج ماك ارثر اول تحقيق صحفي يخرج من العاصمة السودانية يوضح الظروف التي مرت بالبلاد منذ انطلاق اول رصاصة بحرم جامعة الخرطوم مساء الاربعاء ٢١ اكتوبر حتى خاطب السيد سر الختم الخليفة رئيس وزراء الحكومة الانتقالية جماهير الشعب من راديو امدرمان معلنا نهاية الحكم العسكري .

● **اول تقرير صحفي من داخل السودان :**

جاء في جريدة الاهرام المصرية الصادرة بتاريخ ١ نوفمبر ١٩٦٤ وتحت عنوان «اول تقرير صحفي من داخل السودان» مايلي :

السودان بدأ يسترد منذ صباح امس مظاهر الحياة التي فقدها خلال عشرة ايام عاشها في اضطراب تام ومظاهرات عنيفة وصدامات دامية سقط ضحيتها ما لا يقل عن ٣٠ قتيلا و٢٠٠ جريح وكانت اول مظاهر النشاط السياسي قيام رأس الدولة ورئيس الوزراء واعضاء وزارته باداء القسم الذي كانت صيغته «اقسم بالله العظيم ان اناصر بكل ما في وسعي دستور السودان الصادر سنة ١٩٥٦ حسب التعديلات المتفق عليها بين مندوبي القوات المسلحة وممثلي الجبهة القومية الموحدة وان اؤدي واجبي بامانة دون خشية او محاباة».

وقد شرح رئيس الوزراء الجديد سياسته من خلال الاذاعة وقال ان الحكومة بدأت القيام بمسئوليتها واتخذت الاجراءات التي تكفل نقل السلطة إلى اجهزة الدولة المدنية وتحدث عن السياسة الخارجية قائلا ان هذه السياسة تتركز في مناهضة الاحلاف العسكرية وجميع صور الاستعمار ودعم سياسة عدم الانحياز ودعم التعاون في المحيط العربي وخاصة مناهضة الاستعمار في الجنوب العربي ودعم التعاون في المحيط الافريقي .

● **النيوزويك**

قالت مجلة النيوزويك الامريكية في عددها بتاريخ «٩ نوفمبر» في تحليل لانتفاضة الشعب السوداني ـ قالت ما معناه : ان الحكومة العسكرية في محاولتها لحل مشكلة الجنوب قد فتحت المجال للمواطنين لتقديم اقتراحاتهم لحل هذه المشكلة، ولكن «المثقفين في الخرطوم» قد استغلوا هذا التسامح استغلالا سيئا ووجدوا ثغرة يهاجمون منها الحكومة العسكرية .

وقبل اسبوعين ارسلت الحكومة رجال البوليس لتفريق ندوة اقامها الطلاب في الجامعة ! ولكن بعد فوات الاوان ! فقد تغلب الطلاب على البوليس وتدفقوا في الطرقات يخربون المتاجر ! ويحطمون العربات ! وفي اصرار مقصود اشعلوا النار في مكتب الاستعلامات الامريكي ! وعندما فشل البوليس في قمع المظاهرات تجمع السياسيون من كل الاتجاهات وكونوا الجبهة القومية المتحدة .

وبعد ان نفذ الاضراب العام، طلب الرجل الثاني في الحكومة السابقة ان يسمح للجيش باسكات الطلاب ! ولكن عندما كان ذلك الرجل يتكلم كانت الدبابات التي تحمل الضباط الموالين للجبهة القومية تحيط بالقصر الجمهوري وعندما تأزم الموقف اعلن الرئيس عبود حل الحكومة وتسلم زمام السلطة !

ولكن هذا القرار لم يرض قادة الجبهة الديمقراطية ولذلك استمر الاضراب وقامت مظاهرات جديدة! ونتيجة لاتفاقية بين الجيش والجبهة اعلن بقاء الرئيس في منصبه ولكن (بسلطات محدودة جدا!) وقامت حكومة انتقالية مثلت فيها جميع الاتجاهات من المسلمين في اقصى اليمين الى الشيوعيين في اقصى اليسار!

وعلى رأس الحكومة رجل غامض يدعى سر الختم الخليفة.

وقد اعلن ان الانتخابات ستتم في غضون خمسة أشهر.

واختتم الكاتب مقاله قائلا:

ان المراقبين الذين يعرفون حقيقة الجيش السوداني واتجاهاته السياسية يستبعدون قيام تلك الانتخابات!؟

كان هذا ما اوردته مجلة امريكية ذائعة الصيت يقرأها الملايين في جميع انحاء العالم!

وفي اعتقادي انها شوهت الحقائق بطريقة فاضحة:

أولا: لم تكن مشكلة الجنوب قد شغلت المثقفين في الخرطوم فحسب وانما كانت الشغل الشاغل للمواطنين في جميع انحاء السودان: كانوا يتحدثون في همس في المقاهي، وفي الطرقات، وفي البيوت! وكانوا يشعرون بان في الجنوب حربا تدور، وكانوا يستنكرون ان يقتل السوداني اخاه، وفي الخرطوم تطور هذا الهمس إلى ندوات علنية كان المشتركون فيها يحاولون ايجاد حل منطقي وعادل لمشكلة الجنوب!

ثانياً: وكبقية المواطنين فقد ادلى الطلاب في جامعة الخرطوم بدلوهم ونظموا ندوات كانت آخرها تلك الندوة التي اشارت اليها (النيوزويك) وقالت ان الطلاب الغاضبين قد تغلبوا على البوليس وتدفقوا في الطرقات يخربون ويعبثون فسادا خاصة في (مكتب الاستعلامات الامريكي!) كلام ملفق!! فاننا لم نتغلب على البوليس وليس التخريب في شرعتنا! وانما للبناء والتعمير كرسنا شبابنا! واعمارنا! لم نخرب! بل حملنا شهداءنا وجرحانا إلى المستشفى وسهرنا معهم الليالي بين الآهات والدموع!

ألم يكن الكاتب على علم بشهدائنا في الجامعة؟ ألم يعلم ان ارواحهم الطاهرة وارواح اخوانهم الشهداء خارج الجامعة هي التي غيرت مجرى التاريخ في السودان؟؟ الم يعلم ان الطلاب الغاضبين قد حيل بينهم وبين اسعاف جرحاهم؟ لماذا يحاول الكاتب ان يظهر تصرف الحكومة السابقة بالبراءة؟ وفي نفس الوقت يحاول ان يظهر للعالم الطلاب بمظهر التخريب؟ وخاصة في ممتلكات امريكا في السودان؟ فليعلم الكاتب ان الامور لم تكن قد استعصت على رجال الامن ولم تخرج من قبضتهم - ولكن لقد كانت ارادة الشعب فوق الرصاص وفوق القوة؟؟

ثالثاً: اورد الكاتب ان الرجل رقم (٢) في الحكومة السابقة كان يطالب بالسماح للجيش باسكات الطلاب؟ ولكن في ذلك الوقت كانت قوات من الجيش موالية للجبهة القومية تحيط بالقصر وعندئذ اعلن حل الحكومة السابقة! متى كان ذلك واين؟؟

وبماذا يفسر الكاتب «مجزرة القصر» التي استشهد فيها الكثيرون من ابناء الشعب الأعزل؟ هل هذه فعلة يمكن أن تقوم بها قوات من الجيش ولاؤها للجبهة؟

رابعاً: وتكلم الكاتب عن تكوين حكومة انتقالية على رأسها رجل غامض اين هذا الغموض؟؟ الا يدري الكاتب ان هذه الحكومة منذ لحظة تكوينها لم يجد الغموض اليها سبيلا؟؟ وقد كانت قراراتها واضحة للملأ وقد نصب الشعب نفسه رقيبا عليها..

خامساً: وقد اشارت «النيوزويك» في ختام عرضها المزيف «للعاصفة التي اجتاحت النيل»: اشارت الى الانتخابات المرتقبة وإلى المراقبين الذين يعرفون حقيقة جيشنا واتجاهاته السياسية ولذلك يستبعدون قيام هذه الانتخابات!

حديث في غاية الخطورة؟؟

ومعانيه عميقة ويجب ان نعتبرها بعين الحذر... من هم هؤلاء المراقبون؟ وكيف تعمقوا في دراسة جيشنا الباسل وعرفوا اتجاهاته السياسية؟!

فان كان هؤلاء المراقبون من ضعفاء النفوس في شعبنا فليأخذوا حذرهم؟ فالشعب لن يرحم؟ وان كانوا ليسوا بسودانيين فكيف سمح لهم رجال جيشنا بالاندساس والتجسس بين صفوفهم حتى درسوا جيشنا؟

وليعلم هؤلاء وأولئك ان شعبنا الاعزل الذي حمل اغصان السلام وعرض نفسه للرصاص لن تثنيه القوة مرة اخرى! وليعلموا ايضا ان دماء الشهداء دائما وابدا تنادينا ان نقدم ارواحنا قربانا لحياة حرة ديمقراطية كريمة! لا ديكتاتورية عسكرية تكتم انفاسنا! وقد صمم الشعب ان لن تضيع دماء شهدائه وارواحهم سدى..

وارجو ايضا ان يشمل التحقيق في مختلف الوزارات البحث عن هؤلاء المراقبين الذين يقض مضاجعهم نيل شعبنا حقه في حياة حرة كريمة!!

# ثم ماذا بعد في السودان ؟

.. والسودان مازال في غمرة افراحه بعد معاناة شديدة ومعارك اشد خرج علينا الاستاذ محمد حسنين هيكل في صحيفة «الاهرام» بموضوع اثار الكثيرين ... دعونا معا نطالع ما كتبه يوم ١٩٦٤/١١/٨ :

لا اعرف متى استطيع ان اكتب مقالا دون ان امهد له مقدمة! دائما مع كل بداية لابد عندي من وقفة قبل الموضوع .

وانا اريد ان اتخلص من هذه العادة التي تبدو لي كلازمة عصبية، ومع ذلك فلو استطعت ان استغني عنها في تناول اي موضوع فما اظنني اقدر على ذلك في حديث عن السودان وعن التحركات التي كان ميدانا لها في الاسبوعين الاخيرين، وعن معنى هذه التحركات ومقاصدها .

وفي مقدمة للموضوع ـ لا مفر منها ـ اريد ان اقول ما يلي :

«ان موضوع السودان احاطت به، ولا تزال ، من وجهة النظر المصرية شحنة من الانفعالات العاطفية المتشابكة والمعقدة، ولقد آن الأوان لكي تتبدد هذه الشحنة برواسبها الداكنة وان تشرق على العلاقات بين البلدين شمس جديدة بغير ضباب من رواسب الماضي وبقاياه» .

ولقد كان هناك دائما .. في السنوات الاخيرة تحرج في التعرض لاحداث السودان ..

كان موضوع السودان قد مر بأدوار مختلفة ومتناقضة :

في مطلع الوعي السياسي لجيلنا، هذا الجيل في مصر، كان الحديث دائما عن اسطورة ـ او خرافة ـ السيادة المصرية على السودان، يمثلها ويرمز لها التاج الملكي المصري!

ثم تطور الحديث إلى وحدة وادي النيل في الظروف التي تلت الحرب الكبرى الثانية والتي كانت فيها الثورة الوطنية العالمية من اجل الاستقلال تدق ابواب القارات بمطارق الفولاذ .

وحيث استقل السودان في جو مليء بالمناورات السياسية . وكان اعلان الاستقلال بواسطة الذين عاشوا حياتهم على شعار وحدة وادي النيل بدا كما لو ان الشعب المصري تلقى في ظهره خنجرا .

وبدا كما لو كان الهرب وحده هو الطريق المفتوح .

ولسنوات ظهر وكأن مصر لا تريد ان تتحدث في موضوع السودان ولا ان تسمع حديثا عنه مع كل امانيها الطيبة لاشقاء الجنوب .

ولقد كانت تلك كلها مواقف، وردود فعل عاطفية، نسيت الواقع وتاهت في التصورات.

ولست اريد ان ادعي لنفسي ما ليس حقا لي، ولكنني اشعر بايمان ـ ولقد اكون مخطئاً ـ بانني واحد من الذين يستطيعون الكلام في موضوع السودان بغير تحرج.

لقد كنت منذ اول علاقة مباشرة لي بالسودان ـ في الاربعينات ـ من انصار استقلال السودان في وقت كان فيه الحديث ـ في القاهرة ـ عن استقلال السودان شبه جريمة وطنية، ولم اكن في ذلك انفصاليا ولكنني كنت اعتبر ان استقلال السودان، وليس سيادة مصر على السودان، هو المنطلق الصحيح للوحدة خصوصا بعد كل الشباك والفخاخ التي احكم الاستعمار البريطاني اعدادها ونصبها في الجنوب.

ان مصر في عصور الضعف كانت قد تخاذلت عن طريق المقاومة الصلبة، ولجأت إلى اسلوب المساومة والتراضي مع المستعمر، وكان من المستحيل ان يحدث ذلك بغير تأثيرات على السودان وهكذا راحت عناصر كثيرة فيه ومؤثرة تبحث المصير مع من يملك المصير فعلا لا قولا... وواقعا لا ادعاء.

واذكر يوما في الخرطوم كنت اتحدث فيه مع السيد عبدالرحمن المهدي يرحمه الله، وكان مما قال لي وقتها وبقي في ذاكرتي إلى اليوم:

ـ لماذا يغضبون في مصر لاننا نتحدث مع الانجليز في امر مصيرنا... اليسوا هم ايضا يتحدثون مع الانجليز في مصيرهم ومصيرنا؟

واستطرد السيد عبدالرحمن المهدي يقول:

ـ ومع ذلك اريد ان اسألك.. كيف جاءنا السيد الانجليزي هنا في الخرطوم؟ ومضى يرد على سؤاله:

ـ لقد جاءنا راكبا عربة مصرية تجرها جياد مصرية... ومع من كنت تريدنا ان نتكلم؟ مع العربة؟ او مع الجياد التي تجرها؟ او مع السيد راكب العربة؟

واعترف انني ـ يومها ـ احسست بالحرج يغوص في كبريائي ولكن انكار الحقيقة لم يكن يجدي. فلقد كان ما قاله المهدي تصويرا صحيحا لعملية اعادة فتح السودان تحت قيادة «كتشنر»!

ولقد تلقيت اتهامات كثيرة عندما كتبت في ذلك الوقت ـ وكررت بعده في كل وقت ـ تأييدي لاستقلال السودان!

واتهمت بالانفصالية ولم يكن ذلك موقفي، بل كان موقفي: «ان الوحدة باعتبارها ارادة المصير، لا يقررها ولا يبرمها الا الاستقلال باعتباره ارادة الحرية.

ومن يومها إلى الآن عبرت من تحت جسور النيل مياه كثيرة رمت إلى البحر بطمي كثير.

وليس معنى ذلك اني اريد اليوم ان اطرح موضوع وحدة وادي النيل.

لا هو وقته الآن ولا هي مناسبته .

شيء واحد اريد ان اطرحه الآن هو انه قد جاء الوقت لكي نتوقف عن الاستمرار في طريق الهرب من كل ما يجري في السودان .

فات الوقت الذي كنا نستطيع فيه ان ندير عيوننا عما يجري في الجنوب ونتظاهر بانه لا يعنينا او اننا لا نهتم به .

هو موضوعنا ايضا من غير حساسية او تحرج .. من غير اقحام او تطفل .

وهو قدرنا الذي لا نستطيع ان نفر منه حتى بغير رباط سياسي خاص أو دستوري يجمع الشمال على الجنوب .

ان الحياة نفسها في استمرارها الذي لا ينقطع من الازل إلى الابد رباط قبل اي رباط »!

هذه هي المقدمة قلتها ـ وكان يجب ان اقولها ـ تمهيدا لحديثي عن السودان والتحركات التي كان ميدانا لها في الاسبوعين الاخيرين ومعنى هذه التحركات ومقاصدها .

واول شيء يخطر على بالي اليوم ، وانظاري كلها على السودان ، هو ان القصة فيه لم تبلغ ختامها بعد وان الرواية ـ كما يقولونها ـ لم تتم فصولها .

والصورة كما اراها في الخرطوم هي ان انتصارا شعبيا هائلا قد تحقق ولكن هذا الانتصار ليس حاسما وانما هو معلق بتوازن دقيق وخطير في نفس الوقت . لماذا ؟

نحدد اولا ما حدث في الخرطوم على حقيقته .

ملخصه بدقة كما يلي :

لقد حدث صدام بين الجماهير السودانية .. وبين المجلس الاعلى للقوات المسلحة الذي كان يحكم السودان وكانت النتيجة في صالح الجماهير .. حتى الآن ان الجماهير السودانية حققت مطالبها الاولية ولكنها حتى الان لم تفرض سلطتها فوق كل سلطة غيرها .

ان المجلس الاعلى للقوات المسلحة والجزء الذي يقف معه من الجيش السوداني ـ تردد عند لحظة الصدام الحاسمة وآثر ان يبتعد بغير ان يدخل الامتحان النهائي ، ربما ليحتفظ بقواه إلى فرصة مواتية .. اقول ربما ..

لقد حدث في السودان شيء يستوقف النظر :

« فجأة وفي لحظة نفسية مواتية ، استطاع الشارع السوداني بجماهيره ان يحقق وحدته ، وفي نفس اللحظة بسبب صراع السلطة كان الجيش السوداني بغير وحدة تواجه وحدة الشارع وتقمعها بمزيد من الارهاب اذا اقتضى الامر .

ولقد تحققت وحدة الشارع السوداني تحت ضغوط نفسية قوية ، وبغير قيادة تتولى التنظيم الدقيق وكان حظها السعيد ان ذلك حدث في ظروف انقسام السلطة المسلحة .

ولم تستطع السلطة المسلحة - بانقسامها - ان تضرب .

وتقدم الشارع مندفعا ليملأ الفراغ الذي احدثه الشلل الذي اصاب السلطة العسكرية وقيد حركتها وأحدث التغيير الكبير الذي حدث في السودان .

والسؤال الهام الآن :

- ولكن إلى متى ؟

والرد عليه يرتبط بسؤالين آخرين :

( ١ ) هل يستطيع الشارع السوداني ان يحتفظ بوحدته التلقائية التي وقعت في لحظة نفسية مواتية وبغير قيادة تتولى التنظيم الدقيق ؟

وبصيغة ادق هل يمكن استفادة مما حدث ان تقوم قيادة شعبية سودانية تحول هذه التلقائية الشعبية السودانية إلى قوة مستمرة ومنظمة تحميها وتحرص عليها عناصر ثورية من الجيش السوداني ؟

( ٢ ) هل يبقى هذا الانقسام في السلطة العسكرية ، هذا الانقسام الذي فاجأتها اثناءه الجماهير في لحظة غير مناسبة ، ولم تستطع ان تستجمع قواها لتضربها فجمعت حطام حكمها وتوارت عن الانظار تلعق جراح خيلائها المضروبة وتنتظر ؟

وبصيغة ادق هل يستطيع المجلس الاعلى السابق للقوات المسلحة او عناصر منه او عناصر غير قريبة منه او قريبة من فكره ان يجمع صفوف القوة العسكرية استعدادا لانقضاض جديد ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة عويصة ومحاولة العثور عليها اشبه بالسباحة ضد اندفاع الفيضان وقت ارتفاع مناسيب النيل .

عند تدفق الحوادث دائما ... يكون اصعب شيء هو محاولة الوصول إلى المنابع ! !

نجرب مهما كان ذلك صعبا .. بلوغ المنابع او على الاقل الوصول إلى حيث نستطيع ان نراها ولو من بعيد ؟

ان التغيير الذي وقع في الخرطوم فجر يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ والذي سقطت به حكومة السيد عبدالله خليل وقامت به سلطة المجلس الاعلى للقوات المسلحة السودانية لم يكن ثورة .. وانما كان انقلابا .

ولقد لمحت إلى ذلك اكثر من مرة فيما كتبت في معرض التفريق بين الثورة والانقلاب .

ان دور الجيش ، كجيش ان يحفظ الامر الواقع ويحميه لانه اداة القوة في يد الطبقة الاجتماعية المسيطرة على الدولة والحاكمة بها .

الجيش ، كجيش ، رمز للنظام وهو اداة الاجبار عليه حتى وان لم يستعمل ضد اي تحد تواجهه الدولة في الخارج او في الداخل .

وفي تجارب من الذخيرة الفنية لحركة الثورة الوطنية العالمية . حدث ان قامت الثورة او بدأت داخل الجيش او حدث ان شاركت فيها عناصر من داخل الجيش .

لكن ذلك شيء ... وان يقوم جيش باكمله ، اي جيش وبقياداته الطبيعية المتسلسلة - بالثورة ... شي آخر ..

ما الذي حدث في مصر مثلا لكي ندرس نموذجا على الواقع ؟

في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لم يتقدم الجيش كله ابتداء ليكون اداة الثورة . وانما في تلك الليلة حدث انقلابان مهد احدهما للاخر .

الانقلاب الاول: ان مجموعة من شباب الجيش ، تمثل فكرا اجتماعيا ثوريا قامت بانقلاب في الجيش واستولت عليه واسقطت قيادته التقليدية التي هي بالطبيعة صنيعة الطبقة المسيطرة على الدولة .

الانقلاب الثاني : ان القيادة الثورية الجديدة التي قامت بالانقلاب التمهيدي في الجيش قادته باكمله في انقلاب جديد - في نفس الليلة - ضد الدولة القائمة في ذلك الوقت والطبقة الاجتماعية المسيطرة عليها .

انقلابان في نفس الليلة .

عند منتصف الليل انقلاب للاستيلاء على سلطة الجيش ... سلطة الاجبار في الدولة .

عند الفجر انقلاب للاستيلاء على سلطة الدولة ... اداة الطبقة الاجتماعية المسيطرة .

ولو كان الفريق محمد حيدر مثلا - يرحمه الله - هو الذي احدث التغيير صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لكان ذلك امرا آخر !

لكن ذلك لم يحدث ؟

ما حدث كان شيئا يختلف عنه تماما .

ما حدث كان تغييرا مشبعا بالاحتمالات الثورية ، لانه كان تعبيرا عن تحرك طبقة اخرى غير الطبقة الحاكمة خرجت من تحت هرم الطبقات الراسخ واحدثت بخروجها من القاعدة تصدعاً في بنيان الهرم الاجتماعي كله .

تصدعا يمهد للتغيير الواسع لو توفرت له الارادة الثورية القادرة .

يختلف ذلك كل الاختلاف عن تغيير عند قمة الهرم يلون طرفها بلون آخر لكنه لا يقدم امكانية لاعادة البناء من جديد .

يضاف إلى ذلك شيء هام هو من اي طلائع تخرج من الجيش - اي جيش في العالم - لتشارك في ثورة شعبية يتعين عليها ان تواصل دورها من مواقع الثورة الشعبية وليس من ثكنات الجيش ومواقعه .

والا فانها تعاني ردة تعود بها إلى مجرد وضع الانقلاب حتى وان كانت لها بداية الامكانية الثورية . ومثل هذا حدث في العراق لثورة سنة ١٩٥٨ .

ذلك الوقت في العراق تحركت عناصر من الجيش العراقي اقرب إلى القاعدة منها

إلى القمة، واستولت على الجيش وخرجت به لاسقاط النظام القديم كله بامل اقامة نظام جديد.

لكن عبد الكريم قاسم بجنون السلطة المجرد عن اي هدف اجتماعي قبع في وزارة الدفاع يحكم بالقوة المسلحة.

وهكذا فان ثورة ١٤ يوليو التي بدأت كمشاركة في ثورة شعبية تراجعت الى الوراء لتمسخ نفسها ردة إلى شكل الانقلاب العسكري متخلية عن كل الجموع التي وقفت وسطها في شوارع بغداد متنكرة لهذه الجموع مهددة لها.

واذن فهناك ظاهرتان للتأكد من سلامة اي مشاركة في الثورة الشعبية من جانب عناصر عسكرية.

الظاهرة الاولى: انه لا يمكن ان يكون التغيير من القمة... ضد الطبيعة ذلك من المستحيل حدوثه... والا فهو انقلاب.

الظاهرة الثانية: ان اية عناصر من الجيش تخرج للثورة لابد ان تمارس عملها مع الجموع الشعبية وان تذوب في حياة مدنية اكبر منها واوسع.. والا فهي ترتد إلى مواقع الانقلاب.

ماذا حدث في السودان يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨؟

كل ما حدث كان ضد الظاهرتين الاساسيتين لأية امكانية ثورية.

١ ـ كان التغيير من قيادة الجيش التقليدية... واذن فهو انقلاب في حدود نفس الطبقة الاجتماعية المسيطرة على سلطة الدولة.

٢ ـ بقيت هذه القيادة التقليدية في مواقعها في الجيش باسم المجلس الاعلى للقوات المسلحة واذن فهو تأكيد آخر لمعنى الانقلاب على القمة لا يلمس القواعد العريضة للجماهير بتغيير... بل ولا يلمس هذه الجماهير بصلة... وانما يبقى دائما منفصلا عنها..

وفي يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ نفسه لم تكن الحقيقة في حاجة الى قياس بالظواهر يحدد هويتها الصحيحة وانما كانت هناك ملابسات تثير الشكوك حتى من قبل قياس الظواهر، وكان هناك من يقول صراحة ان السيد عبدالله خليل سلم الحكم تسليما للجيش وان هناك جهات كثيرة كانت وراء هذه الصفقة.. بل وكان هناك من حدد بالاسم وبالذات ادارة المخابرات المركزية الامريكية.

كان هدف الجهات التي التقت على صفقة تسليم الحكم إلى القيادة ـ التقليدية للجيش السوداني وقتها كما يلي:

١ ـ كانت حكومة السيد عبدالله خليل قد دخلت في مشكلات عنيفة بغير مبرر مع مصر وبالتالي فقد اضعفت نفسها امام جماهير سودانية غفيرة لديها ايمانها الثابت واعتقادها بصلات الحياة الابدية والازلية مع مصر.

٢ ـ كان السودان في عزلة عن التيارات القومية والاجتماعية المتدافعة في المنطقة العربية، وكان مستحيلا ان تستمر هذه العزلة طويلة وكان يمكن لهذه التيارات المتدافعة ان تكسر اسوار العزلة في اي وقت .

٣ ـ كان التغيير هو طابع تلك الايام، خصوصا بعد ١٤ يوليو في العراق وسقوط حلف بغداد بهذا اليوم العظيم ... وكان ٢٤ يوليو يومها ما زال احتمالا ثوريا لم يرتد بعد إلى منحدرات الانقلابات العارية من اي مضمون اجتماعي .

هكذا كان في السودان اغراء باجراء تغيير في الشكل .. يبدو وكأنه يجاري وهو في الحقيقة يجمد .

ومع ذلك ففي اعقاب الانقلاب في السودان كان هناك كثيرون يتصورون انه برغم الملابسات ـ وحتى ضد الظواهر الاساسية اللازمة لتوفر امكانية الثورة الأصيلة فان انقلاب السودان قد يستطيع تصوير نفسه وتغيير هويته، والتمرد على الشخصية المحددة له سلفا ! !

وفيما يتعلق بي فانني اعترف بأنني فقدت الامل تماما في امكان حدوث مثل هذا الاحتمال بعد زيارة للسودان في شتاء سنة ١٩٦٠ ..

يومها على الطبيعة كانت صورة الحقيقة امامي مفزعة .

جيش في ناحية، بالسلطة العسكرية يحكم من اعلى . وشعب .. على الناحية الاخرى اعزل من السلاح لكنه ليس اعزل من الايمان وشجاعة ابداء الرأي .

وصحيح ان اعلى الاصوات بالمعارضة ضد الحكم (الجيش في ذلك الوقت) كان صوت القوى التقليدية في السودان من الختمية والانصار ومن حزب الشعب (التعبير السياسي عن الطائفة الختمية ) ومن حزب الامة (التعبير السياسي عن الطائفة المهدية ) .

الا ان الجماهير العريضة للشعب السوداني، وبعيدا عن القوى التقليدية لم تكن تحبس صوتها .

واذكر مرة حديثا دار بين اللواء طلعت فريد وبيني ونحن على ضفة النيل امام شلالات «مارشيزون» الهادرة .

يومها سألت اللواء ـ وكان نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للاعلام ـ اذا كان ممكنا ان اتحدث اليه في الاحوال السياسية ورد بالايجاب وقلت له :

ـ وأتحدث بصراحة ؟

● وقال بحدة :

ـ ما نخشى الصراحة .

وعلى كثرة ما قابلت من الساسة في حياتي وعلى كثرة ما سمعت من العجب، فاني اشهد ان ذلك الحديث مع نائب رئيس الوزراء السوداني كان تجربة مدهشة !

قلت له :
ـ لقد علمت ان المعارضة تعد عريضة سوف توجهها إلى حكومتكم تطالبها بالتنحي ؟
قال :
ـ ما هي العريضة . . . اليست قطعة ورق . . اليست كل قطعة ورق قابلة للتمزيق ؟ !
قلت :
ـ لكن العريضة سوف يحملها لكم بشر . . . ووراءهم بشر آخرون .
قال :
ـ هل سمعت عن قدمي الشمال ؟
وادهشني السؤال وحقيقة لم اكن قد سمعت شيئا عن القدم الشمال للواء طلعت فريد وبدا لي سؤاله لاول وهلة قفزة خارج المناقشة . . .
واستطرد على اي حال يقول :
ـ كنت لاعب كرة قدم مشهورا في أيامي في انجلترا . . وكان المتفرجون يعرفون ان وقوع الكرة في قدمي الشمال يعني اصابة محققة . .
ولقد احسست بعدم جدوى المناقشة على هذا النحو ومن ثم واجهت المشكلة التي كانت تشغلني مباشرة وقلت للواء طلعت فريد :
ـ اريد ان استأذنك في سؤال :
لماذا تسمون ما قمتم به في السودان ثورة . . . الثورة في تقديري تعني تغييرا اجتماعيا شاملا . . . وانا لا اشعر ان ذلك قد حدث في السودان . . . وهناك تغيير بلا شك في شكل الحكم . . . ولكنه اقرب إلى تأثير الانقلاب منه إلى تأثير الثورة . . . ومع ذلك تصرون على استعمال كلمة الثورة . . . لماذا ؟
واشهد مرة اخرى انني توقعت كل رد من اللواء طلعت فريد الا الرد الذي تلقيته فعلا . .
سألني بعد ان فرغت من سؤالي :
ـ ما هو اسمك الشخصي ؟
قلت مترددا وانا لا افهم قصده :
ـ محمد . . اذا لم تخني الذاكرة فهذا هو اسمي ؟ !
قال :
من اطلقه عليك ؟
قلت :
ـ اذا لم اكن مخطئا فاظنه ابي هو الذي اختار لي اسمي !
قال :
حسنا . . نحن آباء ذلك الشيء الذي حدث في السودان يوم ١٧ نوفمبر ونحن احرار

نطلق عليه اي اسم نشاء.. وقد اخترنا له اسم الثورة.

ولم اواصل المناقشة بعدها... مقتنعا بان تأمل شلالات مارشيزون الهادرة في صمت اجمل من المناقشة وبالتأكيد انفع!

واحب ان اضيف انني لم اظلم اللواء طلعت فريد، ولا ظلمت غيره ممن اتيح لي التحدث اليهم من اعضاء المجلس الاعلى للقوات المسلحة..

لقد كانوا يتكلمون بمنطقهم وبمفهوم للاشياء في حدود هذا المنطق.

وكان كل خطأ في الموضوع خطئي انني حاولت افتراض ما لم يكن موجودا ورحت اتفلسف بغير طائل.

وبعد شتاء سنة ١٩٦٠، آخر تجربة لي في السودان، فان تحرك الحوادث لم يتوقف.

المجلس الاعلى مضى يتحرك في اتجاهه المرسوم والمقدر... للنظام..

والشعب السوداني مضى يتحرك في اتجاهه المرسوم والمقدر... للحرية..

واصبحت العزلة شاسعة وضاعفت من خطورتها اعتبارات كثيرة:

الحكم في السودان يجاهد قدر استطاعته ان يبتعد عن المجرى التاريخي الذي يتدافع عليه المد الثوري الاجتماعي والسياسي في المنطقة كلها... والشعب السوداني يريد ان يقترب..

الحكم في السودان يمكن للاستغلال الاجنبي بغير حساب حتى عتاة المغامرين الاجانب الذين طردوا من مصر لم يجدوا ملجأ لمضارباتهم خصوصا في القطن الا في السودان.. والشعب السوداني يبحث عن قيم اجتماعية جديدة تقيم الكفاية والعدل.

الحكم في السودان يعالج مشكلة الجنوب - كما يعالج تململ الشمال - بالقمع والضرب لكن القمع والضرب في الجنوب خير دعوة إلى الانفصال، والقمع والضرب في الشمال خير دعوة إلى الثورة.

وهكذا كان

بغير تقدير من احد ومن غير تخطيط... وبلا عيادة حدث كل شيء..

التقدير والتخطيط والقيادة لحقت بالحوادث فيما بعد ولم تسبقها.

بدأ التمرد من جامعة الخرطوم في رغبة لمناقشة مشكلة الجنوب ومنعت السلطة العسكرية اجتماع المناقشة بالقوة وسقط احد الشهداء واضربت الجامعة وسرى نداء الاضراب كالنار تندلع فجأة في الحطب الجاف.

وكان صراع السلطة داخل المجلس الاعلى للقوات المسلحة قد اوقف المواجهة الحازمة التي طلبها رجل كاللواء حسن بشير من انصار الانقضاض السريع.

وفي مهلة التردد كان الشارع السوداني قد حقق وحدة تلقائية مذهلة في وجه مقاومة من الجيش لم تستجمع بعد طاقتها الكاملة على القهر وان كانت في صدام واحد امام القصر الجمهوري قد صرعت اكثر من ثلاثين شهيدا.. اكثر من عدد الضحايا الذين

قدمهم السودان ليحصل على الاستقلال . .

اي ان الشعب السوداني دفع من ضريبة الدم ليتخلص من الحكم العسكري بأكثر ما دفع من ضريبة الدم ليخلص من الانجليز .

ومع ذلك فان التردد في المجلس الاعلى للقوات المسلحة عن توجيه ضربة القهر الكاملة إلى الشارع السوداني قد حقن دما غزيرا .

لكن لون الدم كان يظلل الافق كله انتظارا للقرار الاخير .

وعندما كان المجلس الاعلى للقوات المسلحة قد تغلب على تردده وقرر مساء يوم الاثنين الاسبق ـ والحاسم ـ ان يضرب بيد من حديد ، لم تكن الوحدة في الجيش متماسكة وجاءت مجموعة من الضباط إلى الفريق ابراهيم عبود ينقلون اليه رسالة من بضع مئات من ضباط الجيش تجمعوا في نادي الطيران في الخرطوم .

وقال حملة الرسالة وبينهم الاميرالاي ادريس عبدالله :

ـ ان قسما كبيرا من ضباط الجيش ليسوا على استعداد لضرب الجماهير !

وتطورت الحوادث إلى صيغة التوازن الدقيق والخطير الذي يحكم السودان الآن :

● جيش لا تريد الاغلبية منه ان تضرب الشعب ، لكن العناصر المؤثرة منه لم تقتنع بمبدأ عودة الجيش إلى ثكناته بمعناها الحقيقي .

● شارع حقق وحدة تلقائية في لحظة نفسية ملائمة ازاء انقسام في الجيش ومن ثم استطاع ان يتقدم في شلل السلاح إلى الوزارة يضع فيها القيادات التي ظهرت بعد المواجهة الحاسمة وليس قبلها ، في خليط من القوى التقليدية والقوى الجديدة .

لكن السؤال الحاسم يبقى يباشر الحاحه :

ـ ثم ماذا بعد ؟ !

# ثم ماذا قبل في السودان ؟ !

وماذا قبل !

وبعد يومين من ظهور مقال الاستاذ هيكل كان لابد لي وانا امثل وجهات نظر كثيفة من قرائي ان اجيب عليه فكتبت قائلاً :

.. وانا كذلك يا سيد هيكل لا استطيع ان اكتب مقالا دون ان امهد له بمقدمة .. ومع كل بداية لابد عندي من وقفة !

.. ما كنت وانا اطالع مقال صديقي الاستاذ هيكل الذي جمعتني به فترة دراسية في كلية الصحافة بجامعة كولومبيا بنيويورك عام ١٩٦٠ ... ما كنت احسبه يتيه هكذا في اجواء بعيدة شاهقة من التخيلات والتأملات وهو في قمة «الاهرام» العالية ... في قمة تتعذر معها الرؤية ، ويصعب معها السمع ! !

.. نقلت «الصحافة» كلمة الاستاذ هيكل كما كتبها وكما تصورها حتى يستطيع المواطن السوداني ان يرى من خلالها ما هو ظاهر ، وما هو باطن ... وما هو واضح ، وما هو مستتر . ولئن قصد السيد هيكل من تصويره المحشو بالبارود لما حدث بعيدا عنه ... وان قصد ان يفلسف احداث السودان بمنظار لم ير من خلاله احداث السودان ظنا منه ان اهل السودان سيسبحون معه في بحور التيه والتخيلات والضباب وقد صنعوا احداث السودان بانفسهم ، فهذا قصد جانبه التوفيق ! !

.. حاول الاستاذ هيكل في تحليلاته ان يفلسف بمفهومه معنى الثورات ، وان يضع لهذه المعاني ابعادا مختلفة تضيق في زاوية ، وتنفرج في زاوية اخرى ، ولكنه جعل في نهاية ابعاده الهندسية لثورة السودان دائرة متعرجة ضيقة خنق فيها انتصار امة كاملة ... وثورة شعب بطل ! !

... ومضى الاستاذ هيكل وهو في قمة «الاهرام» محاولا ان يزيح بيديه الضباب ليرى السودان ولكنه لم ير غير الضباب الاسود القاتم يعود إلى وجهه من جديد فيحجب عنه الرؤية فراح يتخيل حتى انتهى من تحليله دون ان يرى ايضا لان الضباب الذي يحجب عنه ما يجري في السودان لا يستطيع ان يزيحه بيديه ! !

.. ومضى الاستاذ هيكل وهو في قمة الاهرام يحلل مجرد تحليل ثورة شعب منتصر لم ير العالم مثلها من قبل ... ثورة شعب ابتدأت من الشارع ومشى فيها القانوني والطالب والطبيب والعامل والزارع والتاجر والعاطل والشيخ والطفل والمرأة ... ثورة خرجت من الشارع الكبير ... وسارت في الشارع الكبير ... وانتصرت في الشارع

الكبير ... انها ثورة شارع (على حد تعبير هيكل) لانها خرجت من الشارع!!

كنت احسب بادىء الامر ان الاستاذ هيكل وهو يكتب عن احداث السودان من قمة الاهرام انه يعتمد على مجرد الذاكرة والتخيلات والتصوير لان الشقيقة مصر كانت منعزلة تماما عما يجري في السودان ... كانت منعزلة عن الدماء التي سالت في شوارع الخرطوم ... كانت منعزلة عن الاضراب السياسي .. كانت منعزلة عن وحدة الاهداف والتقاء القلوب ومواكب الأمة المتراصة التي جمعت بين الشيوعي والاخ المسلم وبين الجنوبي والشمالي، وبين كل قطاعات الشعب الزاحفة، ولكنني تحسرت ان ارى الاهرام وهي تواصل العيش في هذه العزلة بعد ان رفعت الحواجز وفتحت الابواب والنوافذ!؟

كنت اعذر السيد هيكل ان كانت العزلة ما زالت باقية كما عذرت بالامس السيد موسى صبري كبير محرري «اخبار اليوم» عندما هاجمته هجوما واضحا سافرا ولمت فيه اذاعة مصر .. وصحافة مصر ونحن نتناول طعام الغداء على مائدة السيد محمد احمد محجوب وزير الخارجية ظهر اول نوفمبر .

.. قلت للسيد موسى ان موقف الاذاعة والصحافة المصرية ووسائل اعلامها لم يكن سلبيا فحسب، وانما كان بعيدا عن واقع الاحداث لان الحكومة السابقة لم يطحها الشعب بسبب موقفها من قضية فلسطين ... ولم يطحها بسبب عدم تفاعلها مع القومية العربية. وانما اطاح بها وشاركه في ذلك الجيش نفسه لانه يريد ان يتنفس حتى يستطيع ان يتحدث ويكتب ويختار طريقه بوضوح في دروب المستقبل!!

ويومها قال لي السيد موسى صبري يا استاذ ان مصر منعزلة تماما عن السودان ولم تعرف ماذا كان يجري فيه!؟

قلت له:

.. ومن اين لكم اذن بما كتبتم وصورتم!؟ فسكت ولكنني مع ذلك عذرته .. فهل يمكنني اليوم وقد زالت الحواجز وانفتحت النوافذ ان اعذر صديقي الاستاذ الكبير محمد حسنين هيكل!؟

ثم ماذا بعد!؟

.. ان تحليل الاستاذ هيكل اثار الشعب كله بمختلف طبقاته لانه اراد ان يشككه في نتائج ثورته، وحاول كذلك ان يشكك الجيش في نفسه وفي شعبه، ليس ذلك فحسب، وانما هناك دعوة تحريض مستترة غلفها الاستاذ هيكل دون ان يعلم ان مجهود جيشنا القوي الباسل غير مذكور في هذا الانتصار ودون ان يعلم ان الجيش لا يريد ان يدعي انه صنع الانتصار لانه جعل من نفسه وحدة لا تتجزأ من الشعب ولا يستطيع احد ان يفرق بينها مهما تصور وتخيل!!

ثم ماذا بعد؟!

.. ان حزن الشعب السوداني على حديث هيكل مرده علم السودانيين بمكانته وقربه

من السلطة الحاكمة في مصر مما جعل كثيرا من المواطنين السودانيين الذين تهمهم علاقات السودان الابدية مع الشقيقة مصر يتحسرون ويتخوفون ... ويشفقون ويقلقون!!

.. لقد حاول هيكل في تحليلاته ان يسند ثورة ٢١ اكتوبر إلى فئات ومعسكرات وهيئات خططها بأبعاده هو ... وبمفهومه هو مهملا بعضها عن عمد واصرار يشتم فيه القارىء المتبصر انها اقرب ما تكون إلى حملات القطيعة والانتقام..

ثم ماذا بعد!؟

اننا ان تغاضينا عن كل شيء في حديث هيكل، فاننا لا نستطيع ان نتغاضى عن تحليله لاحداث السودان وهو يقول:

«لقد جاء الوقت لكي نتوقف عن الاستمرار في طريق الهرب من كل ما يجري في السودان فان الوقت الذي كنا نستطيع فيه ان ندير عيوننا عما يجري في الجنوب (السودان) ونتظاهر بانه لا يعنينا او اننا لا نهتم به هو موضوعنا ايضا من غير حساسية او تحرج ... من غير اقحام او تطفل وهو قدرنا الذي لا نستطيع ان نفر منه حتى بغير رباط سياسي خاص او دستوري يجمع الشمال على الجنوب»

.. هذا هو جزء من المقدمة التي قالها وكان يجب ان يقولها الاستاذ هيكل ـ على حد تعبيره ـ تمهيدا لحديثه عن السودان والتحركات التي كان ميدانا لها في الاسبوعين الاخيرين تحت عنوان:

ثم ماذا بعد في السودان!؟

وليت الاستاذ هيكل قد كتب تحليله الطويل تحت عنوان:

ثم ماذا قبل في السودان!؟ اذن لاختلف مفهومنا لما كتبه وهو في قمة الاهرام ولعرفنا اين كان يقف قبل ان يتابع الرؤية إلى احداث السودان بمنظار يحيط به الضباب وهو يحاول ان يطرده بيديه!!

ثم ماذا قبل... وماذا بعد في السودان!

... ان مصر عزيزة على كل قلب وروح في السودان ... وان دورها الكبير الذي لعبته وشاركت به اشقاءها حتى تحقق الاستقلال دور لا ينكر ولا يغالط... وان افضالها الخيرة واياديها البيضاء.. دائما ممدودة لا للسودان وحده، ولكن لقضايا الشعوب الحرة في العالم اجمع وفي المحيط العربي بشكل خاص، لكننا نحن في السودان نريد دائما من مصر العزيزة ان تبقى شقيقة لنا، وان تحنو علينا وتحافظ على وحدتنا وتساعد في جمع كلمتنا حتى نصبح قوة متكاملة وفي ذلك قوة لها وللعروبة في كل مكان وزمان.

وتحيات شعب حر شقيق إلى اشقائه في الشمال مع آماله العريضة بان تظل سماؤنا ابدا صافية، وقلوبنا دائما متحابة وايادينا متشابكة حتى يحقق الله لنا النصر دائما وابداً انه نعم المولى ونعم النصير.

## بيننا وبين صحافة مصر

.. يذكرني كل الذي رويته بأول مؤتمر للصحفيين العرب الذي عقد في القاهرة عام ١٩٦٧ والذي دعا اليه الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بعد حرب الايام الستة وحضره صباح الجابر امير الكويت الراحل وعبدالسلام عارف الرئيس العراقي الذي رحل ايضا وقد مثل صحافة السودان في هذا المؤتمر الاستاذ بشير محمد سعيد نقيب الصحفيين وعبدالرحمن مختار نائبه والمرحوم الاستاذ محمد ميرغني سكرتير الاتحاد واذكر فيما سمعت ورأيت ان الصحفيين المصريين كانوا قد قاموا بحملة عنيفة ضد الاستاذ مصطفى امين صاحب اخبار اليوم والذي حكم عليه بالسجن اثني عشر عاما بتهمة التجسس على بلاده وقد كانوا يطالبون في اصرار شديد بضرورة اسقاط اسمه واسم اخيه التوأم علي كمؤسسين للاخبار واخبار اليوم لكن الرئيس جمال عبدالناصر رفض هذا الاقتراح ووصفه بالغباء والجهل فقال: « .. علي امين ما ذنبه؟ يمكن نسجن مصطفى امين او يحكم عليه بالاعدام ان نطرده من البلد كله، ويمكن كذلك ان نصفي ممتلكاته ونصادر مؤسساته اما ان نمحو حقه وتاريخه فهذا لن يحدث لان التاريخ هو الشيء الوحيد الذي يجب ان يبقى مع الانسان سواء كان لصالحه او ضده واما كونه كان صحفيا بارعا واسس دار اخبار اليوم فهذه حقيقة تحسب له ». وهكذا قضى الراحل العظيم بحكمته ولباقته واتزانه وعدالته .. قضى على حملات الزور والتجني والجنائية والاحقاد!

.. لا اريد بهذه المناسبة التي جاءت عرضا ان اتركها تمر دون ان اشير الى صحافة واعلام مصر وصحافة واعلام السودان كيف تتعاملان وكيف تسلكان وكيف تؤديان واجبهما المقدس نحو الشعبين الشقيقين وهل هناك فارق بين صحافة مصر منذ عهد الزعيم الراحل جمال حتى عهد الرئيس الحالي حسني مبارك؟!

.. عندما اتيحت لي فرصة الكلام تحدثت عن موضوع المؤتمر الذي لاداعي لذكره في هذه العجالة وانما ركزت على تقصير الصحافة المصرية في نقل ما يجري في السودان وقلت فيما قلت للرئيس الراحل ان صحافتنا في السودان تتابع عن كثب كل ما يجري في الشقيقة مصر وتنشر اخبار حكومتها والمسئولين فيها وعلى رأسهم سيادة الرئيس باهتمام بالغ ومتابعة متواصلة حتى ان الشعب السوداني بوعيه وحرصه ومتابعته لما يجري في مصر بكل ابعادها وتفاصيلها بينما نرى من الجانب الاخر - اي من جانب اعلام وصحف مصر اهمالا تاما وجهلا واضحا فاضحا ومخجلا بما يجري في السودان وقد لاحظنا مع مزيد الاسف ان صحافة مصر واذاعة مصر وكل اعلام مصر يخطئون

حتى في كتابة ونطق اسماء زعمائنا ومدننا وقرانا ولا يحفلون كثيرا بما يجري في السودان الشقيق ولا يتابعون انباءه وسألت الرئيس هل هذا الذي يجري هو سياسة الدولة ام شيء مقصود في وسائل الاعلام المصرية ؟

تململ الرئيس الراحل وصمت كثيرا ليستجمع ويرتب آراءه فقال :

سأجيب عليك يا استاذ مختار باختصار شديد فانا اعرف السودان والسودانيين معرفة لصيقة وقوية وقد عرفت فيهم وفي صحفهم وزعمائهم وقادتهم الحساسية المفرطة والزائدة ولقد وجهت بالفعل صحافتنا الا تخوض في مشاكل السودان بالذات حتى لا يؤوّل حديثها او يفسر تعليقها من منطلق العواطف والحساسيات فيخلق لنا ازمات نحن في غنى عنها اما الجانب الاخر من سؤالك وهو الجانب الاجتماعي والتعريفي للشعبين الشقيقين بعضهما ببعض فقد لاحظت فعلا ان هناك تقصيراً من الصحافة المصرية ارجو ان يزول قريبا وعلى كل حال ارجو الا تؤاخذوننا في هذه الظروف الصعبة التي نواجهها والتي آمل ان يتكاتف جميع الاخوة من الصحفيين العرب للعمل على ازالة اسبابها . فهل حدث تغيير في موقف الصحف والاعلام المصري وفي مسيرته الطويلة منذ عهد عبدالناصر حتى عهد الرئيس مبارك مرورا بالسادات ! ! ؟

لقد عرفت الرئيس الراحل معرفة شخصية واجتمعت به في لقاءات عامة وخاصة في الخرطوم والدار البيضاء ونيويورك «وبنزرت تونس» واكثرها في القاهرة . اما بصحبة رؤسائنا وقادتنا الرئيس الازهري او عبد الله خليل او محمد احمد محجوب او بمفردي وكان الصق واقرب هذه اللقاءات في الدار البيضاء حيث انعقد احد مؤتمرات القمة العربي وبرز فيه الخلاف العنيف المؤسف بين المرحومين الازهري والمحجوب وسأتعرض اليه فيما بعد .

.. لعل الكثيرين من شباب اليوم لا يعرفون ان الرئيس جمال عبدالناصر كان في فجر شبابه ضابطا في القوات المصرية بالسودان التي كانت تقيم في «قشلاقات عباس» المطافىء حاليا وقد ظل وقتا طويلا مقيما في الخرطوم فالتصق بأهلها وعرفهم عن قرب وكانت رياضته المفضلة ان يقطع «شارع فكتوريا» «القصر حاليا» مرتين في اليوم مشيا على الاقدام .

ارجو الا يتعجل القراء فيعتبروا ما كتبته خروجا عن الدائرة التي رسمتها لموضوعاتي فالحقيقة ان خيوط الاحداث كثيرة ومعقدة ومتشابكة بدرجة تفرض عليَّ احيانا الخروج قليلا لكني لست بعيدا عن الدائرة فخطوطها تضيق هنا وتنفرج هناك لكن المهم ان نصل في النهاية إلى الغاية المنشودة .

## ماذا قال السعدني ؟ !

بتاريخ ١٩٦٤/١١/١٨ كتب الاستاذ محمود السعدني الصحفي المصري المعروف يقول:

خبطات خفيفة على باب الغرفة (٤١) باللوكندة الكبرى انفتح على اثرها الباب وبدأ في فرجته «الولد الشقي».. شاب وسط نحيف الجسم.. شعرات متطاولة تقف عند مقدمة رأسه عاموديا... ويده تهرش رأسه من الخلف.. وقيل ان يتبين من نحن انسحب بحركة رشيقة وقفز إلى سريره واندس تحت الغطاء... وهو يتمتم.. معذرة ... اصلي كنت امبارح سهران وانا لسه نائم.. خذوا راحتكم.. اتفضلوا اهلا بيكم.. هذا اذن هو محمود السعدني يندس بلسانه الطويل اللاذع في وداعة تحت الغطاء وهو ببجامته.. بسيطا دونما كلفة ودونما تصنع وكأنه ليس الصحفي الشهير الذي دوخ (هذا الرجل) وصال وجال مع لعيبة الكرة ولعيبة الفن... ترى ما هو وجهه السياسي وما هو لون نظرته وهو يقلبها في اوجه نشاط المجتمع السوداني.. واي لعاب سيحرك لسانه اللاذع الطويل.. وهو يتصدى لأحداث السودان وللحياة الاجتماعية في بلادنا.. تساؤلات كثيرة كانت تحاصرنا انا والزميل الرسام فاضل الاسمر عندما دلفنا حجرة رقم (٤١) دونما اخطار دونما استئذان فكيف كانت «اجوبة هذا الرجل؟» .

نحن قادمان من النادي العربي حيث مازال حشد كبير ينتظر المحاضرة التي الغيت .

ـ ياه.. لكن اعمل ايه... السلطات لغت المحاضرة .

اي سلطات... ادارة النادي... ام...

ـ الحكومة... الحكومة هي التي اتصلت بالنادي وطلبت منه الغاءها نسبة للظروف الحالية فربما يحدث ما يعكر صفو الامن .

ـ ما يعكر صفو الامن ؟ وما الذي يدعو الى ذلك هل هو موضوع المحاضرة ؟

آه.. كنت حاتكلم عن موقف الصحافة المصرية عن ثورة ٢١ اكتوبر .

ـ وهل كانت محضرة ومكتوبة ؟

لا.. كنت حادردش مع اخواني السودانيين واناقشهم، اذن لندردش دردشة مكتوبة بدل الدردشة المسموعة .

آه ما في مانع... الحقيقة انا اتناقشت كثيرا مع بعض اخواننا السودانيين وقد سألني عديد منهم عن موقف الصحافة المصرية من ثورة السودان ٢١ اكتوبر ـ وشعرت في كلام هؤلاء الاخوة اشياء غير مفهومة وغير واضحة عن موقف الصحافة المصرية...

وتحميل بعض الصحفيين المصريين واعتبارهم ناطقين باتجاه معين . واحببت ان اوضح هذه النقاط كصحفي مصري يعمل بالصحافة المصرية ١٦ سنة وكثيرا ما أخطأت ونادرا ما اصبت وفي كلتا الحالتين كنت انا المسئول الوحيد فيما اصنع ـ وانت كصحفي واخوانك الصحفيين السودانيين يدركون تمام الادراك ان الصحفي معرض للخطأ كما هو معرض للصواب فاذا اخطأ صحفي سوداني في حق (العبد لله) فليس معنى هذا ان الشعب السوداني كله قد اخطأ في حقه وانا في هذه الحالة اعتبره رأياً شحصياً للصحافة السودانية وليس رأي المسئولين في السودان .

ـ هذا اعتراف بخطأ موسى صبري وبخطأ هيكل... فهل يعني خطأهما هذا انه رأي الصحافة المصرية كما تقول .

ـ الشيء الذي احب ان اقوله لاخواني السودانيين انه عندما يخطىء محمد حسنين هيكل فان محمد حسنين هيكل وحده هو المسئول .

حتى وان انغرس ذلك الخطأ كطعنات نجلاء في كبرياء شعب شقيق لكم كالشعب السوداني .

انا بقول.. وانا بعتقد انني شخصيا قريب جدا إلى الشعب السوداني وله ـ على نحو خاص منزلة في نفسي ـ انني اذا اخطأت يوما في حق الشعب السوداني ان تحاسبوني انا شخصيا وان تضربوني (بالصرمة) لان الخطأ صادر مني وحدي ولا يتحمله اي شخص غيري واذا احسنت للشعب السوداني فلا استحق شكره لانه واجبي ومن واجبي ان اقول الحقيقة وان اقف إلى جانب هذا الشعب العظيم في نضاله وفي ثورته لانه شعب شقيق وشعب عربي .

ـ ليس مهما ان يضرب الشعب السعدني (بالصرمة) اذا اخطأ في التعبير لكن المهم لماذا عبر وباسم من ؟

انت تريد ان تشير إلى الاعتقاد بان محمد حسنين هيكل يعبر في مقالاته عن رأي جمال عبدالناصر هذا الاعتقاد اعتقاد خاطىء من اساسه وغير صحيح.. والاعتقاد بأن الصحافة المصرية تحت رقابة اعتقاد خاطىء من اساسه وغير صحيح كل صحفي يكتب ما يريده واذا كتب غير الحقيقة يبقى (ابن احبا) لا اكثر...

الا يتدخل المسئولون اذا نال بقلمه من حق شعب شقيق واذا انحرف بحقيقة ثورته ؟

صمت السعدني وحدق طويلا ثم اعتمد رأسه بيده اليمنى وتحرك سبابته تعرك خده... بالرغم من انني (قرصته) بقولي وأنا اشير للفاضل انظر ( حيرة هذا الرجل).. بالرغم من هذا لم يغير من وضعه ولم يهدأ اصبعه قبل ان يقول..

المسئولون في الاتحاد الاشتراكي العربي هم وحدهم المسئولون عن الصحافة المصرية فان انا ارتكبت جريمة بقلمي ضد شعب او فرد تكون للمسئولين مواقف معي.. اما عندما اخطىء بحسن نية فهذا من باب الاجتهاد وانا لا اعدو ان اكون مجتهدا مخطئاً

مغفورا لي خطئي ومثاباً على اجتهادي .

وعندما اكتب شيئاً بسوء نية وعندما اخطىء عن عمد وعن تدبير فالموقف يتغير طبعا ولا اظن ان هناك احدا في القاهرة من الصحفيين يخطىء ضد الشعب السوداني بنية سيئة وينبغي ان يكون هذا هو الاعتقاد حتى اذا حدثت اخطاء فهي بحسن نية لا اكثر ولا اقل .

ونحن كصحفيين كنا نعتقد ان حضوركم إلى السودان في هذا الظرف لا يمكن ان يكون دافعه هو التغطية الاخبارية فقط وانما لتصوير ورصد ثورته بمجاهر الحقيقة والواقع .

ـ من اجل هذا حضرنا نحن عندما حضرنا للسودان في وسط الاحداث كنا مستعدين ان نموت وسط الشعب السوداني ومعه فنحن لم نحضر كصحفيين من كوريا الجنوبية او كصحفيين انجليز ... نحن تربطنا صلات اكبر واقوى تجعلنا لا نحضر للاخبار فقط .

ـ اذن ما هو رأيك كصحفي مصرى عاصر الاحداث في ثورة ٢١ أكتوبر ؟ .

انا كنت اود ان التقي باخواني السودانيين في المحاضرة لأحيي فيهم ثورة ٢١ اكتوبر العظيمة وان اقرر كشاهد عيان ان الشعب السوداني كان خلال الثورة على درجة عظيمة من الوعي والسيطرة على النفس ربما فاق غيره من ارقى شعوب العالم .

وان الهفوات البسيطة التي حدثت هنا أو هناك لم تكن الا اعمالا فردية لا تنال من روعة وعظمة الموقف كله وهناك حقيقة ان الشعب المصري وجمال عبدالناصر الذين ساندوا كل الانتصارات الشعبية لا يمكن ان يقفوا ضدها وينحرفوا بها .

لا هيكل ولا موسى صبري ولا غيره يستطيع ذلك ... وأحب ان اقرر ان ثورة السودان ثورة شعبية فريدة من نوعها استطاعت ان تضرب بشدة جميع اعدائها وان تسيطر وان تنتصر والشعب السوداني خلال اليومين ... اثناء التعبئة ... كان على مستوى عال جدا من الوعي والتنظيم وادراك الامور لانه لو حدثت هذه التعبئة في العالم لحدثت اشياء خطيرة ... وما حدث هنا عندكم دلالة عظيمة وهو يعني ان الشعب بلغ من النضج والوعي درجة عالية جدا وهي شهادة لا يمكن ان ينكرها احد ..

.. اما ما حدث خلال هذين اليومين من هفوات وانا اسميها هفوات ... اشياء بسيطة وفردية لا ترقى وتنال من متانة العلاقة بين الشعبين ..

كان السعدني يتحدث بانفعال صادق وكأنه على منصة النادي العربي يخاطب جماهير الشعب السوداني ليؤكد لهم مشاعر الشعب المصري تجاههم .

الحقيقة ان الصدق الذي لمسته من كلماته فجر في داخلي المشاعر الحقيقية التي تربطنا باخوتنا المصريين واحسست ان هذه المشاعر يجب ان تغرق وتجرف كل ما علق بالنفوس من هنات بسيطة تسبب ومن اجل هذا صمت وحدقت في وجه (الولد الشقي)

استقرىء انطباعاته وانطباعات (لسانك الساخر) عن الحياة الاجتماعية .. والمرأة ... والفن ... والكورة .

السعدني والمرأة السودانية :

كيف وجدت المرأة السودانية في المجال الوطني ... وفي المجال الاجتماعي ...؟

التماع غريب في لون عينيه بما يشبه الانهيار شأن الشخص المأخوذ الذي يتطلع إلى عالم رائع ومدهش قبل ان يقول :

المرأة السودانية ادهشتني جدا والحركة النسائية عندكم ينبغي تشجيعها والوقوف إلى جانبها خصوصا من القسم الثاني من المجتمع وهم الرجال ... وانه رغم العقبات الموجودة امامها الا انني واثق من نجاح حركتها للاصرار للحصول على حقوقها واعتقد ان الوقت مناسب جدا للحصول عليها لان الرجل لم يخرج إلى الشارع وحده في ثورة ٢١ اكتوبر خرجت معه الست ... والرجل لم (يتعور) وحده وتعورت معه الست ... فينبغي اذن ان نوزع المكاسب لهما على السواء والمرأة السودانية ليست اقل مستوى من شقيقتها في الجزائر وتونس والعراق ومصر وبقية البلاد العربية والمرأة في كل هذه البلاد حصلت على حقوقها .

وما هو رأيك في وضع المرأة في المجتمع وفي البيت ؟

- في السودان كما في البلاد العربية هناك انقسام في البيت نفسه ... قسم الرجال ... وقسم الحريم .. بالرغم من ان الأصل في كلمة «مجتمع» ان يجتمع الجنسان في المدارس ... في المؤسسات ... في الشوارع ... في اي حاجة ... فاذا حصل انفصال لا يصح «منفصل» .

وماذا عن جمالها ؟

مرة اخرى عاد الالتماع الغريب يفيض بنظرة عينيه وبدا كأنه يتحدث عن كائن يلمحه بعين خياله .. ونسي نفسه تماما .

- أوه .. نسبة الجمال في الشعب السوداني عالية جدا ... وفيما اعتقد من استقرائي ومن خبرتي البسيطة ولقاءاتي ان المرأة السودانية جميلة جدا ورقيقة وتتمتع بأنوثة ناضجة وست بيت ممتازة وتتمتع بحياء محبب تفرضه طبيعة المجتمع نفسه .. و ..

.. وعندما كان السعدني يتحدث بهذا الحماس كانت ابتسامة خبيثة تمسح وجهه وقهقهة مكتومة يخنقها فاضل .. فنحن نعرف انه متزوج واب ... لاحظ السعدني ذلك فانتشل نفسه وقال مستدركا . ضاحكا :

- وصدقوني انه لولا انني متزوج في القاهرة وعندي خمسة اطفال كنت اعمق العلاقات الوطيدة بين الشعب السوداني والمصري بزواج جديد ..

هل يخاف السعدني من الزوجة التي تنتظره بالقاهرة ؟

- آه .. فانا أسد في الصحافة ولكني في الزواج نعامة .

قلت ان المرأة السودانية ست بيت ممتازة فمن اين جاء حكمكم ؟
- انا دخلت بيوت سودانية كثيرة وأكلت الكسرة والملاح والويكة حتى ملاح الشرموط أكلته .. وحقيقة ان المائدة السودانية لا تختلف كثيرا عن المائدة المصرية .

وما هي اعظم اكلة اعجبتك ؟

ان اعظم ما اكلته مع اخواني السودانية العيش والملح ..

وهممت بالنهوض فوضع يده على كتفي وهو يقول :

لن اكتب كلمة وداع واحدة لانني سأعود مرات ومرات والحقيقة انني احس انني مخطىء لانني لم اجيء واعيش مع هذا الشعب الاصيل فمشاعر الحب التي لمستها من الجميع تجعلني اشعر انني سأنتقل من الخرطوم إلى القاهرة وكأنني انتقل من الجيزة إلى الاسكندرية .

وما هي انطباعاتك عن الخرطوم وعن الحياة الاجتماعية وعن العرس السوداني ؟

الخرطوم كنت اتخيلها اكبر من ذلك ومزدحمة اكثر لكنها نظيفة وجميلة والشعب السوداني شعب ودود تعاملت معه في المجتمعات وهو شعب أصيل له حضارة وله تقاليد ... شعب « طيب » ولكنه غير متهاون في حقه لانه شعب واع .

اما الفرح السوداني فانا اعترف بانه مدهش ومثير وغريب وانا حضرت أفراحاً في كثير من بلدان العالم العربي ولم اشاهد فرحا له مثل هذه الهيلمان غير السوداني ... لكنه اعجبني شيئاً واحداً لم يعجبني هو كمية الذهب التي كانت تلبسها العروس .. اموال مجمدة يمكن الاستفادة منها .

انطباعاتك عن الرقصة نفسها من الزاوية الفنية ؟

- الرقصة قطعا لها اصل ولا اعرف ان كان عربيا او زنجيا ام خليطاً من الاثنين ... والغريب فيها حقا .. انه العروس معروف عنها انها في تلك الليلة بتكون متوترة الاعصاب ومضطربة ولا يمكن ان يكون عندها الاستعداد لترقص .. اما العروس السودانية فانها ترقص لمدة طويلة ودا دليل على قوة اعصابها وعلى حسن صحتها .

والاغنيات ... هل أعجبتك ؟

انا لم اسمع اغنيات سودانية ... استمعت لاناشيد واعجبني نشيد (اقبل الصبح) فهو جميل جدا في كلماته وفي لحنه ...

## السعدني والكورة :

قبل ان اسأله عن رأيه في مستوى الكرة عندنا ترددت واشفقت على اعصاب لاعبينا الحساسة المغرورة من لسانه السليط .. لكنه كان واضحا لي ان لسانه يتحرك قلقا يبحث عن سؤالي عن الكرة ..

وسألته فاعتدل في جلسته وعلق على شفتيه بسمة انزلقت على جانب فمه ... في خبث .

ـ انا حضرت ماتش بين المريخ وابو حشيش .. في الملعب بدا ان جماعة ابو حشيش بيلعبوا الكورة بالنيات ... ويبدو ان نيتهم كانت وحشة عشان كدا لعبوا وحش .. المباراة الوحيدة التي اجادوها دقة تصويب الكورة على المتفرجين ولو أنهم لعبوا كرة بتيم جديد بحيث يصبح التوصيب والانتصار باحراز الاهداف وانما بتصويب الكورة نحو رؤوس المتفرجين كان ابو حشيش يغلب ما في ذلك شك .

... المريخ .. فيه مهارات فردية .. اعجبني جقدول وراجل اسمه مصطفى لكن يعيبه انه «حركلتي» ويبدو ان هدفه من لعب الكورة .. اضحاك المتفرجين .. واعجبني بشكل خاص ولد صغير اسمه برعي اتنبأ له بمستقبل كبير .

وماذا عن الجمهور الرياضي ؟

ـ مثل الجمهور المصري . جمهور نوادي وليس جمهور كرة متعصب للنوادي وليس متعصباً لفن الكرة ... نفس هذه الظاهرة عندنا وكنت قد اقترحت للمسئولين انهم بدل ان يستوردوا مدربين يستوردوا مشجعين . وأنا هنا أكرر هذا الاقتراح لاتحاد الكرة السوداني . جمهوركم جمهور نوادي لان جمهور الكرة هو الذي يشجع اللعبة الجميلة بغض النظر عن النادي .. حقيقة ان الكرة في مصر والسودان يتيمة في حاجة للمشجعين .

.. عند هذا الحد احسست ان الوقت الطويل الذي قضيته معه يأكل من اعصاب جمهرة كثيرة تشتت على المقاعد الوثيرة باللوكندة في انتظار ان تحظى بتحيته والحديث معه ... بعضهم شباب وبعضهم سيدات ... فلملمت اوراقي وقبل ان نخرج شد على يد الاستاذ فاضل الاسمر مهنئاً له على لوحة الشهيد القرشي التي رسمها ... ثم التفت نحوي وقال في سخرية حادة :

اخبرني الفاضل انك اعتقلت في مظاهرات ٢٢ اكتوبر وانك امضيت خمسة ايام في المعتقل .. احب ان اهنيك فالسجن للصحفي شرف وضرورة بس كان حقهم يدوك كام شهر كدة عشان تتشرف اكثر .

ثم ابتعد عنا ضاحكا ليندس بين مجموعة كانت تنتظره ويغيب في احضان شخص بدين وبدا لي مثل صورة «الولد الشقي» في مذكراته وهو بين فكري الحلو .. وخرجنا لطريق العودة للجريدة .

**التاريخ في ١٩٦٤/١١/٣م**

## ليس هذا الحديث عن انباء العالم
## ولكنه عن هذا الشعب الذي ما عاد يحكمه العساكر

شهورا وشهورا ... ونحن نتحدث ـ في هذه الصفحة ـ عن نضالات وكفاحات الشعوب المختلفة في انحاء العالم بأكمله ... تحدثنا ـ كثيرا ـ عن الحكومات الديكتاتورية العسكرية في الخارج التي استلمت السلطة بالليل ووسط الظلام ... ثم بدأت تحكم شعوبها ـ والدبابات في الشوارع والمدافع فوق الرؤوس والاغلال على الايدي .

وتحدثنا ـ كثيرا عن دور الطلاب في الخارج في محاربة تلك الحكومات الديكتاتورية العسكرية والعرائض التي رفعوها والمظاهرات التي سيروها والتضحيات التي وهبوها ... شهورا ونحن نتحدث عن كل ذلك في الخارج . والآن جاء الوقت عن هذا البلد .. عن حكومتنا العسكرية وطلابنا الذين ضحوا وشعبنا الذي ثار ..

.. وما أروع وامتع ان يتحدث الشخص عن بلده ـ بحرية واخلاص ـ خاصة اذا كان قد منع وقهر لسنوات عديدة من ان يتحدث ـ بحرية واخلاص .. وما اروع وامتع ان يرى الشخص ما كان يحدث في بلاد العالم الاخرى من ثورات وكفاحات وقد حدث في بلده ـ وهو يراه بعينه ويعيش في وسطه .. وما اروع وأمتع ان يرى الشخص بلده وقد قفزت إلى مقدمة الامم واصبحت حديث العالم كله بنضالها وكفاحها .. بعد ان كانت ذيلا بين الامم ونسيا منسيا ..

.. وقبل ان نبدأ الحديث عن ايام البعث الخالدة التي عاشها هذا البلد .. نقوم بجولة سريعة لنستعرض كفاحات بلاد العالم الاخرى ـ في محاولة لربط نضال هذا الشعب مع نضالات الشعوب في الخارج .. ولربط دور الطلاب في هذا النضال مع ادوارهم في تلك النضالات .

ضحى الطلاب وناضل الشعب في اليابان ... ففي يوليو ١٩٦٠ ثار الطلاب في طوكيو ضد حكم الجنرال (كيشي) الذي كان مكروها عند الشعب ومحبوبا عند امريكا ... وتكاتف الشعب والطلاب مظاهرات وتضحيات حتى اجبروا (كيشي) لاعلان استقالته ... وكانت (جامعة طوكيو) هي قاعدة هذا الكفاح .

ضحى الطلاب وناضل الشعب في كوريا الجنوبية .. في اكتوبر ١٩٦٠ ثار الطلاب في سيول ضد حكم الجنرال (ري) الذي ظل يحكم كوريا الجنوبية حكما ديكتاتوريا مدة ١٣ عاما .. وتكاتف الشعب والطلاب وتضحيات حتى سمعوا ذات صباح ان (ري) قد فر إلى جزائر هاواي وهناك اعلن استقالته ... وكانت (جامعة سيول) هي قاعدة هذا الكفاح .

ضحى الطلاب وناضل الشعب في فيتنام الجنوبية ... في شهر سبتمبر الماضي سير الطلاب في سايجون مظاهرات ضخمة قدموا بعدها عريضة للجنرال (خانة) يطالبونه بحقن دماء الشعب الفيتنامي وانهاء الحكم العسكري ... وقبل ايام قدم الجنرال (خانة) استقالته وتولت السلطة حكومة انتقالية تمهد لانتخابات حرة ... وطوال ايام هذا الكفاح الطلابي الشعبي المشترك كانت (جامعة سايجون) هي قاعدة هذا الكفاح .

● **الامثلة كثيرة**

.. والامثلة كثيرة ومتعددة في ايران ثار الطلاب والشعب ـ ومازالوا ـ ضد حكم محمد رضا بهلوي (شاه ايران) الديكتاتوري الرجعي .

في تركيا ثار الطلاب والشعب وما زالوا ضد حكومة الانقلاب العسكري الذي قام به الجنرال (جمال جورسيل) .

في فنزويلا ثار الطلاب والشعب ضد حكومة الرئيس (ليوني) الرجعية الموالية لامريكا .

في كوريا الجنوبية يثور الطلاب والشعب ـ مرة اخرى ضد حكومة الجنرال (بارك) التي جاءت الى الحكم بعد انقلاب عسكري قبل عامين .

.. وفي الاسبوع الماضي بدأت اذاعات وصحف العالم تتحدث عن الانتفاضة الكبرى والتضحية الغالية التي قام بها طلاب جامعة الخرطوم في معركتهم الطويلة ضد الحكم العسكري الديكتاتوري الذي ظل يخنق السودان طوال ٧٢ شهرا ... ثم بدأ العالم يتحدث عن تجاوب الشعب السوداني بكل قطاعاته مع هذه التضحيات .. والتفافه رجلا واحدا ومبدأ واحدا وضربة واحدة ضد الحكم العسكري ... في مظاهراته واضرابانه وتضحياته ... حتى استسلم حكامه ـ والجيش إلى ثكناته عاد ليواصل مهمته الاساسية في حماية البلاد والذود عنها ... والشعب إلى الحكم عاد ليواصل مهمته الاساسية في ان يحكم نفسه بنفسه ويقر دستور الشعب من اجل الشعب .

... وهكذا ـ فجأة ـ اصبح السودان حديث العالم ... غير ان النضال الذي قام به شعب هذا البلد لا يشابه النضالات التي قامت بها شعوب بلاد اخرى في العالم وحسب ـ بل يفوقها بطولة ويزيد عليها قوة .

● ماذا فعلنا ؟

شعبنا مسالم

لقد عرف عن اهل هذا البلد بأنهم أكثر شعوب العالم مسالمة وأقلهم استعمالا للعنف ـ حتى في حل مشاكلهم التي تنشب حول الممتلكات والافراد ... وفي الوقت الذي نجد فيه ان حمل الاسلحة يكاد يكون عاديا عند كثير من شعوب العالم ـ وخاصة في المدن ... نجد بان ذلك ليس عاديا عند هذا الشعب ـ وخاصة في المدن ... بل ان

قانون الطوارىء الذي ظل يحكم هذا البلد اكثر من ست سنوات كان يمنع حتى حمل العصي وان تلتهب نار الكفاح وسط شعب هذا حاله فذاك ما زاد نضالنا نضالاً وبطولتنا بطولة .

**● كفاحنا سلمي**

عندما ثار الشعب اللبناني ضد الرئيس كميل شمعون عام ١٩٥٨ ... اقام المتاريس في الشوارع وتسلح بالبنادق والمسدسات ... وشهدت البلاد اغتيالات وحوادث عنف لا حد لها ..

.. ونفس الامر - او مشابه له ما حدث عند ثورات الشعبين العراقي والسوري . وفي النضالات التي تشهدها فنزويلا وبوليفيا والبرازيل هذه الايام ضد عمليات الاغتيالات وتفجيرات حكوماتها الديكتاتورية تحتل القنابل والالغام - ونسف المنشآت المكان الاول في حركات الثورة الشعبية . ولأن شعبنا استطاع ان ينهى الحكم العسكري عليه من غير استعماله لهذه الوسائل فذاك ما زاد نضالنا نضالا وبطولتنا بطولة .

**● اضرابنا السياسي**

لم تشهد بلد ثار شعبها ضد حكم بغيض اضرابا سياسيا كالذي شهده هذا البلد خلال الاسبوع الفائت .. لقد نجح الاضراب السياسي الذي نادت به الجبهة القومية يوم السبت ٢٤ اكتوبر نجاحا منقطع النظير ... وعقدت الدهشة ألسن اذاعات العالم وصحفه عندما اعلنت اذاعة (هنا امدرمان) بأنها ستنهي ارسالها مشاركة للشعب في اضرابه العام - وقد كانت تلك الاذاعات والصحف تعتمد على (هنا امدرمان) كمصدر لانباء الثورة الشعبية بعد ان انقطعت اتصالات السودان بالخارج - كلها وبأنواعها - نتيجة الاضراب السياسي العام سيظل مفخرة لشعبنا الثائر امام شعوب العالم الثائرة ... ولانه كان سلمياً ... ولانه كان ناجحا .. ولانه اجبر الحكم العسكري على التنازل - فذاك ما زاد نضالنا نضالا وبطولتنا بطولة .

.. ست سنوات - من نوفمبر ١٩٥٨ إلى اكتوبر ١٩٦٤ - عشناها في ظلام دامس .. لا اعادها ولا اعاده الله كنا خلالها - غرباء وبالرغم من اننا في الديار التي ولدنا فيها - وكنا خلالها مستعمرين بالرغم من ان الاستعمار قد رحل عنا وترك لنا حريتنا ... وكنا خلالها صماً وبكماً وعمياً بالرغم من ان الله قد وهبنا آذانا وأفواها وأعينا .

**● افواهنا قيدوها**

لقد كان الشخص منا يتحدث وهو يتلفت يمينا ويسارا ... ومستمعوه يتلفتون -

ايضا يمينا ويسارا وكم اقتيد العشرات إلى السجون لا لسبب الا لانهم كانوا يتحدثون ـ ولا اكثر من انهم كانوا يتحدثون .

● **آذاننا قيدوها**

انعدم الكلام المخلص الصريح ... ولم يعد الشخص منا يسمع سوى النفاق والإفك والملق ... حتى مل الناس الاستماع واصبحوا لا يثقون حتى في اقرب المقربين اليهم ... وكثرت الاشاعات والدعايات والمجاملات .

● **اقلامنا قيدوها**

وهذه ما احس بها ناس مثل الذين ارادوا او حاولوا ان يكتبوا في الصحف باخلاص وفي صراحة ... كنا نكتب عن الديكتاتورية العسكرية في كوريا الجنوبية مثلا ونضع علامات استفهام وتعجب ـ ونحن نعني اكثر من شيء ... وكنا نكتب عن ثورة الطلاب ضد الحكم الديكتاتوري في بنما مثلا ونضع علامات استفهام وتعجب ـ ونحن نعني اكثر من شيء .

.. لقد كانت ست سنوات مظلمة قاسية لا اعادها الله .. عانى خلالها هذا الشعب ما عانى ... واستبد خلالها الحكم العسكري ما استبد ..

انتهى كل شيء وبقيت الدروس والعظات .

# ﴿ الفصل السابع عشر ﴾

- كيف جرت مفاوضات ٢٩ اكتوبر ١٩٦٤ ؟
- تشكيل حكومة الثورة .
- اعتقال اعضاء المجلس الأعلى
- الشعب يطالب بفتح القضايا «المختنقة»

٣٠/١٠/١٩٦٤م.

## كيف جرت مفاوضات ٢٩ أكتوبر ١٩٦٤

ظلت جماهير الشعب السوداني طيلة الايام الثلاثة الماضية تعيش على اعصابها وتتحرق في انتظار المفاوضات الجارية بين الجبهة القومية المتحدة ورجال القوات المسلحة التي ما زالت مستمرة في جو يسوده الهدوء والتفاؤل وحسن المقاصد وكانت جميع الاطراف المجتمعة حريصة إلى الوصول إلى نهاية طيبة تحقق للشعب السوداني العظيم أهدافه العليا التي قامت من اجلها، واكد المجتمعون بانهم يقدرون الحالة العصيبة التي يعيشها الشعب غير انهم يأملون ان يتذرع بالصبر ويتحلى بالاخلاق السودانية الكريمة مقدرا دقة واهمية المفاوضات حتى تخرج سليمة نظيفة من كل خطر.

عقد اول اجتماع بين وفد الجبهة القومية المتحدة والقوات المسلحة من الساعة الثانية ظهرا حتى السادسة مساء يوم ٢٩ أكتوبر ثم تفرق المتفاوضون للاجتماع بهيئاتهم لاستعراض الموقف معهم.

زال الخلاف الكبير بين الجبهة القومية وممثلي رئاسة الجيش حول السلطة الدستورية فقد اقترح في بداية الامر ان يكون مجلس سيادة مشترك ولكن بعد نقاش مستفيض توصل الطرفان إلى حل يحقق اهداف الشعب العليا ويحفظ للبلاد وحدتها وكرامتها وهو ان يقتصر رأس الدولة على شخص واحد هو السيد الفريق ابراهيم عبود على ان يمارس سلطاته من دستور عام ١٩٥٦ المعدل الذي يوافق بموجبه رأس الدولة على اي قرار يجيزه مجلس الوزراء بثلثي الاصوات.

● صرح «للصحافة» مصدران كبيران في الجبهة الوطنية للهيئات بانهم قبلوا برأس الدولة السيد الرئيس الفريق ابراهيم عبود ما دام يستمد سلطاته من دستور ١٩٥٦ المعدل الذي يحقق اهداف الشعب العليا.

●.. واصل وفد الجبهة القومية اجتماعاته مع جبهته لاختيار مرشحيهم من الوزارة وبعد نقاش طويل توصلوا إلى اختيار السادة الآتية اسماؤهم:

الانصار: محمد احمد محجوب.

الختمية: الدكتور احمد السيد حمد

الوطني الاتحادي: مبارك زروق.

الاخوان المسلمون : الرشيد الطاهر المحامي .

الشيوعيون : احمد سليمان .

● وفي الساعة الحادية عشرة اجتمعت الجبهة الوطنية للهيئات بمباني الجامعة واستمعت إلى تقرير واف من مندوبيها ثم اجتمعت بها مرة ثانية من الساعة السادسة والنصف حتى الساعة الثامنة حيث تمت الترشيحات الآتية :

المحامون : عابدين اسماعيل .

الاطباء : طه بعشر .

المزارعون : الشيخ الامين محمد الأمين .

العمال : الشفيع احمد الشيخ .

المهندسون : عبدالرحمن احمد العاقب .

السادة : الدكتور حسن الترابي وسر الختم الخليفة وعبدالكريم ميرغني .

هذا كما وضع كشف احتياطي للجبهة القومية المتحدة لاختيار من تريد في حالة عدم قبول أحد من الثمانية المرشحين الاوائل والكشف الاحتياطي هم :

الدكتور سيد احمد عبدالهادي .

مهدي شريف المحامي ..

مبارك شداد .

خلف الله بابكر .

محجوب محمد صالح .

.. علي طالب الله .

## ١ ديسمبر ١٩٦٤

# اسرار تشكيل الحكومة القومية

- **كيف سوي الخلاف في مشكلة رأس الدولة !؟**
- **من هو رئيس الوزراء الذي انتخب في الثالثة صباحاً ورفض .. بالتلفون؟**
- **حسن فحل يحضر سر الختم من منزله للرئاسة في الرابعة صباحاً**

.. هذه اسرار نذيعها لاول مرة علها تبتعد بالقارىء الكريم قليلا من جو التوتر الذي تعيشه الاعصاب هذه الايام .. ولعلها من الامانة الا نترك التاريخ يمر دون ان نسجل الاحداث التي شهدتها اللحظات الرهيبة ونحن في الشارع نعيش على اعصابنا في انتظار تشكيل الحكومة القومية بعدما انتصر الشعب في ثورته المباركة التي اشتعلت يوم ٢١ اكتوبر ١٩٦٤ ... نحن الان في امسية يوم الجمعة ٣٠ اكتوبر ١٩٦٤ نواجه أطول لحظات في حياتنا طيلة الليالي الاربع الماضية التي قضتها الجبهة القومية الموحدة في مفاوضات طويلة بينها وبين نفسها ... وبينها وبين مندوبي القوات المسلحة . السماء تغطيها السحب . والليل صامت .. والهواء قد توقف الا من انفاس المواطنين في العاصمة واقاليم السودان وهم يتابعون الاذاعة ويتطاولون باعناقهم كلما اعلن المذيع هنا امدرمان !!

.. الاعصاب كلها مرهقة ، والناس اصابهم الاعياء وقد بدأت اللحظات الثقيلة تمزقهم وتملأ رؤوسهم بالقلق والمخاوف .. كل شيء كان ثائرا ولكن في صمت . العيون كانت ثائرة ... والأنفاس كانت ثائرة .. وانطفأت في الوجوه كل معاني الابتسامة وكانت العيون .. كل العيون ترسل بريقا لامعا محمرا كله تساؤل ، وتحفز وترقب وانتظار وامل !!

.. وانتصف الليل ووفد الجبهة القومية الموحدة يتفاوض في جلسته الاخيرة في مبنى القوات المسلحة بالخرطوم ..

.. كانت جلسة حاسمة ارتفعت فيها الاصوات ، وثار فيها من ثار واحتدم النقاش في مواضع ، وهدأ في مواضع اخرى لكن الروح والهدف والآمال والغايات التي يسعى اليها الجانبان في تلك اللحظات كانت موحدة .

.. لم يكن ممثلو القوات المسلحة بأقل رغبة من ممثلي الجبهة القومية في انهاء الازمة وتشكيل الحكومة ولكن كانت هناك عقبات لابد ان تظهر وقد ظهرت وارتفعت الاصوات ولكنها سرعان ما تهدأ ويتفق الجانبان .

.. الموضوعان الكبيران اللذان اثارا جدلا كانا موضوعي رأس الدولة ورئيس الوزراء .

.. كان السيد بابكر عوض الله اكثر الناس اصرارا على الا يبقى عبود رأسا للدولة مهما كانت النتائج وارتفعت الاصوات من الجانبين وتبودلت الآراء حتى اعطيت الكلمة للسيد الصادق المهدي الذي قال:

.. ليس مهما ان نبحث الآن من سيكون رأس الدولة ولكن المهم ان نبحث ما هي سلطات رأس الدولة وما دمنا قد اجمعنا على اعادة دستور ١٩٥٦ المعدل فمعنى ذلك لا سلطات لرأس الدولة فلا مانع عندنا من ان يكون عبود رئيسا حتى نحفظ لجيشنا كرامته ونصون عزته.

... وسكت الجميع لأن الجميع قد اعتادوا ان يسكتوا لوجهات النظر ان كانت منطقية ومحترمة لان الجدل كان مستواه رفيعا لم يراع فيه غير المصلحة العامة.

.. عرض منصب رئيس الوزراء على السيد بابكر عوض الله بالاجماع ولكنه رفض ان يذكر مجرد اسمه لاي ترشيح وزاري... كان ذلك قبل الجلسة الحاسمة فاستجابوا لرغبته الملحة!!

.. ثم جاء بعد ذلك دور الترشيحات وكان الاساس في اختيار رئيس الوزراء ان يكون مستقلا متزنا له صفات ترتفع إلى مستوى الاحداث.

.. رشح السادة محمد احمد محجوب وعابدين اسماعيل وطه بعشر ولكن حدثت بعض الاعتراضات نسبة لما يقال عنهم بان لهم اتجاهات سياسية خاصة فوافق الجميع وتقبل المرشحون الاعتراض بروح عالية.. الم اقل ان مستوى النقاش كان رفيعا لم يراع فيه غير المصلحة العامة!!

.. وجاء اسم الدكتور مبارك شداد فوافق عليه الجميع وتناول السيد عوض عبدالرحمن صغير سماعة التليفون وكانت الساعة آنذاك تقترب من الثالثة صباحا واتصل بشداد وابلغه الخبر..

قال شداد:

من هو رأس الدولة؟

عوض:

اتفق الحاضرون على ان يكون رأس الدولة هو الفريق ابراهيم عبود.

شداد:

.. يؤسفني جدا ان ارفض المنصب ولكن لا مانع عندي ان اقبل منصب رئاسة الوزراء ان اتفق الجميع على ان يكون رأس الدولة مجلس السيادة..

.. وذهبت كل المحاولات لاقناعه ادراج الرياح ووضع عوض واخوانه الذين اشتركوا في الحديث سماعة التليفون وعادوا من جديد يبحثون عن رئيس وزراء آخر!!

.. نسيت ان اذكر ان خلافا نشب فيما يختص باعلان حالة الطوارىء وكان الاستاذ حسن الترابي هو الذي اثار النقطة.

.. من هو الذي يعلن حالة الطوارىء وكيف ومتى؟!

اتفقوا على ان من حق رأس الدولة ان يعلن حالة الطوارىء لمدة ٢٤ ساعة فقط في حالات الحرب او حدوث مخاطر على ان يبحث الموضوع مجلس الوزراء لاستمرارها وبالعدم فتنتهي تلقائيا في ٢٤ ساعة.

.. خرج مزمل سليمان غندور ومعه الاستاذ حسن الترابي من القاعة وعادا ليعلن الترابي بانهما قد اتفقا حول هذه النقطة.

.. انتهت المحادثات مع الدكتور شداد وعاد المتفاوضون من جديد يبحثون عن رئيس وزراء آخر واتفقوا على سر الختم الخليفة وشارفت الساعة آنذاك على الرابعة صباحا.

.. ذهب حسن فحل بعربته إلى منزل السيد سر الختم الخليفة وعاد به إلى القوات المسلحة في حجرة قريبة من صالة الاجتماعات فدخل اليه اللواء عوض عبد الرحمن صغير والطاهر عبدالرحمن وابلغاه بالنبأ فوافق في الحال واقبل عليه الاعضاء يهنئونه..

.. كان رأي وفد القوات المسلحة ان يكون منصب وزير الدفاع العسكري حتى يكون حلقة الاتصال بين الحكومة والقوات المسلحة للاستفادة بخبرته وعلاقته الفنية ولكن لم يؤخذ بهذا الاقتراح.

.. في تلك اللحظات كانت امام السيد سر الختم الخليفة مهمة صعبة في تحديد الوزارات لكشف الوزراء الجاهز الذي اعطي له وعلى الرغم من انه كان هناك شبه اتفاق على تحديد الوزارات الحساسة لاعضاء معينين فان السيد سر الختم الخليفة هو الذي شكل الوزارة واعلنها للمجلس دون ان يعلم احد اعضاء الوزارة اي وزارة ستعطى اليه..

.. ومع اشراقة الصباح هدأت الصالة التي شهدت اضخم مفاوضات في تاريخ السودان في مبنى القوات المسلحة وذابت علائم الحزم والثورة والاصرار لتحل محلها الابتسامة التي تشبه في اشراقتها اشراقة ذلك الصباح واعلن النبأ فأقبل الناس بعضهم على بعض يتعانقون وتشكل مجلس الوزراء وادى القسم وبدأ يوجه اعسر مهمة... في اخطر مرحلة واجهها السودان في تاريخه الحديث!!

## نص البيان التاريخي الذي اذاعه معالي السيد سر الختم الخليفة رئيس الوزراء للحكومة الانتقالية الجديدة يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٦٤

مواطني الكرام:

اليكم اطيب تحية:

لقد خط الشعب السوداني في الاسبوع الماضي صفحة ناصعة البياض في تاريخه وخطا خطوات نحو النضوج والكمال يشهد بها الجميع في داخل البلاد وخارجها.. وليس ادل

على هذا النضوج السياسي والعاطفي والاجتماعي الذي بلغه الشعب السوداني الابي، من ان يلتقى ابناؤه من القوات المسلحة وممثلي الجبهة القومية الموحدة تحدوهم مصلحة الوطن وارادة ابنائه في نقطة سياسية رئيسية واحدة هي العمل المخلص الجاد على تحقيق تلك المصلحة وتلبية تلك الارادة الشعبية التي تفوق كل شيء.

لذلك يسرني ان اعلن والغبطة تملأ جوانحي انه قد تم بحمد الله وتوفيقه، الاتفاق الشامل الكامل بين مندوبي القوات الوطنية المسلحة وممثلي الجبهة القومية الموحدة من ابناء هذا الشعب الابرار بعد سلسلة من الاجتماعات دامت طوال النهار والليل منذ يوم الاربعاء الموافق ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٦٤ حتى فجر هذا اليوم ٣٠ اكتوبر.

ويسرني ويسعدني اكثر من هذا انه قد ساد المفاوضات التي جرت في تلك الايام التاريخية الفريدة جو من المحبة والاحترام المتبادل والثقة الحسنة لم يسبق لها مثيل في بلد لم ينقض على الحكم الاجنبي فيه سوى سنوات لقد تم كل هذا ايها السادة بفضل وعي الشعب وكفاحه وبفضل اخواننا الابرار في القوات المسلحة وقوات الامن الذين تجاوبوا مع رغبات الشعب وامانيه لذلك فاننا نسجل لهم هذا الجميل لما ابدوه من تجاوب مع بني وطنهم ومن ادراك لقداسة الشعب وحقه في الحياة الكريمة التي تقوم على اساس الديمقراطية العملية النزيهة..

ايها المواطنون الابرار:

لقد تم الاتفاق بين ابنائكم واخوانكم في القوات المسلحة وممثلي الجبهة القومية الموحدة على ان تقوم حكومة انتقالية تتولى الحكم وفقا لاحكام الدستور المؤقت لسنة ١٩٥٦ وسيكون السيد الفريق ابراهيم عبود رأسا للدولة وسيباشر السلطات المنصوص عليها في ذلك الدستور والتي كان يباشرها مجلس السيادة من قبل على ان تكون مباشرته لتلك السلطات بمشورة مجلس الوزراء وسيتولى رأس الدولة بالاضافة إلى ذلك تصريف كل الامور المتعلقة بالقوات المسلحة.

ايها المواطنون الاعزاء:

كل هذا وضع انتقالي مؤقت ينتهي باجراء انتخابات حرة عامة تشرف عليها لجنة مستقلة في تاريخ لا يتعدى شهر مارس ١٩٦٥ لقيام جمعية تأسيسية يقع على عاتقها وضع الدستور الدائم واقراره وقيام حكومة يختارها الشعب، وحتى يتم وضع الدستور الدائم ستقوم الجمعية التأسيسية بمهمة التشريع وفقا لاحكام الدستور المؤقت وفي خلال فترة الانتقال ستقوم الوزارة الانتقالية بالاضافة إلى سلطاتها التنفيذية بمهمة التشريع على ان يخول لرئيس الدولة اعادة اي امر لم يجزه مجلس الوزراء باغلبية ثلي الاعضاء الا ان اي تشريع يجيزه مجلس الوزراء بأغلبية ثلثي الاعضاء يصير قانونا.

ايها المواطنون:

لقد اجمعت الجبهة القومية الموحدة ووافق السيد الفريق ابراهيم عبود على تشكيل

الحكومة الانتقالية على الوجه التالي:

سر الختم الخليفة

مبارك زروق

محمد احمد محجوب

احمد السيد حمد

محمد صالح عمر

احمد سليمان

عابدين اسماعيل

الامين محمد الامين

عبدالرحمن احمد العاقب

خلف الله بابكر

عبدالكريم ميرغني

رحمة الله عبدالله

امبروز وول

كلمنت امبورو

الشفيع احمد الشيخ

كما تم الاتفاق التام بين مواطنيكم ممثلي الجبهة والقوات المسلحة على المبادىء الآتية:

أولاً: تصفية الحكم العسكري الحالي.

ثانياً: اطلاق الحريات العامة كحرية الصحافة والتعبير والتنظيم والتجمع.

ثالثاً: رفع حالة الطوارىء والغاء جميع القوانين المقيدة للحريات في المناطق التي لا يخشى فيها من اضطراب الامن.

رابعاً: تأمين استقلال القضاة.

خامساً: تأمين استقلال الجامعة.

سادساً: اطلاق المعتقلين السياسيين والمسجونين من المدنيين في قضايا سياسية.

سابعاً: ان ترتبط الحكومة الانتقالية بانتهاج سياسة خارجية ضد الاستعمار والاحلاف.

ثامناً: تكوين محكمة استئناف من عدد من القضاة لا يقل عن خمسة تؤول اليها السلطات رئيس القضاة، القضائية منها والادارية.

تاسعاً: ان تكون لجنة لوضع قوانين جديدة تتمشى مع تقاليدنا.

مواطني الاعزاء:

هذه لحظة تاريخية فريدة رائعة، وكلي ثقة في انكم سترقون إلى مستواها، والله الموفق.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته



## حكومة قومية انتقالية

### سر الختم الخليفة:

ولد في عام ١٩١٧ في الدويم تخرج من كلية غردون مدرسا في عام ١٩٣٧.

عمل فترة في كلية غردون ثم نقل إلى بخت الرضا فكان من المشرفين على شعبة التربية الوطنية.

ذهب إلى المملكة المتحدة عدة مرات لتلقي كورسات في التربية وعلم النفس كما اشترك في مؤتمرات تربوية في جامعة اكسفورد في الاربعينيات وعدة جامعات بريطانية في الخمسينيات وكان من الاعضاء البارزين في المؤتمرات التربوية.

ذهب في عام ١٩٦١ إلى امريكا للتعرف على البرامج الفنية.

يجيد اللغتين العربية والانجليزية.. يهتم بقراءة العلوم السياسية والاجتماعية كما انه يواصل سير التيارات الفكرية في العالم فهو لا ينام الا بعد ان يقرأ ساعتين كل ليلة..

اشترك في الهيئة الانتخابية في عام ١٩٥٦ وفي عام ١٩٦٠ أصبح عميداً للمعهد الفني ثم تم اختياره نائبا لوكيل وزارة التربية والتعليم في عام ١٩٦٤.

هوايته المطالعة وميزاته الدبلوماسية واجماع الناس على حبه واحترامه.

من اكثر السودانيين معرفة بالجنوب وصداقة مع ابنائه المتعلمين خاصة انه كان مديرا للتعليم هناك خمس سنوات.

وطني غيور يعتبر اصغر من تولى رئاسة وزارة في السودان.

### مبارك زروق:

احد خريجي الدفعة الثانية من مدرسة الحقوق، اشتغل بالمحاماة.

اشترك في النشاط السياسي وهو احد اقطاب الحزب الوطني الاتحادي.

اشترك في اول حكومة وطنية وزيرا للمواصلات ثم وزيرا للخارجية.
اعتقل في الجنوب اثناء الحكم العسكري.
يبلغ من العمر حوالي ٤٧ سنة.
متزوج.

**محمد احمد محجوب:**

اول خريجي الدفعة من مدرسة الحقوق بالسودان.
عمل قاضيا وتدرج في سلك القضاة حتى اصبح قاضيا للمحكمة العليا.
استقال من منصبه ليتفرغ للنشاط السياسي، واشتغل بالمحاماة وكان من اقطاب حزب الامة.
كان وزيرا للخارجية في الوزارة القومية... احد الذين اعتقلوا في الجنوب خلال الحكم العسكري.من رجال الفكر والادب والشعر... متزوج وأب.

**خلف الله بابكر**

خريج كلية غردون القديمة عام ١٩٣٢ امضى عامين في مدرسة كتشنر الطبية، اشتغل بعدها ضابطا للصحة في وزارة الصحة تدرج في مناصبها حتى وصل إلى وظيفة كبير مفتشي وزارة الصحة.
اديب وشاعر مرموق كان من اقطاب حزب الاتحادين.
تجاوز الخمسين متزوج وأب.

**عبدالكريم ميرغني:**

ولد في عام ١٩٢٣ وتلقى تعليمه في مدرسة امدرمان الوسطى وكان يشترك مع زملائه بابكر احمد موسى ومكاوي مصطفى في اصدار مجلة خطية يشرف عليها الاستاذ الهادي.
التحق بكلية غردون في عام ١٩٣٩ وبعد تخرجه من القسم الثانوي التحق بقسم الادارة وعين عقب تخرجه نائب مأمور ولكنه استقال من منصبه وعمل مدرسا بالمدرسة الاهلية وكان يدرس علم التاريخ... تم اختياره في عام ١٩٥٦ في السلك الدبلوماسي حتى ترقى سفيرا.

**محمد صالح عمر:**

تخرج من كلية الشريعة بجامعة الخرطوم.
امضى عامين في لندن حيث نال درجة الماجستير في الشريعة الاسلامية.

عضو في جماعة الاخوان المسلمين.
عمره ٣٣ سنة متزوج واب.

**احمد سليمان:**

ولد في عام ١٩٣٤ وتخرج من مدرسة امدرمان الثانوية وعمل مدرسا لعام واحد في مدرسة بورتسودان الأهلية ثم عاد عام ١٩٤٦ إلى المدارس العليا والتحق بمدرسة الاداب.

نزح إلى القاهرة وتم التحاقه بكلية الحقوق بجامعة القاهرة وعاد إلى السودان والتحق واشترك في كل الحركات الوطنية وكان من طلائع الكفاح في صفوف الطلبة في القاهرة ووقف ضد كل المواقف الانتهازية، تعرض لكثير من الاعتقالات كما,سجن عدة مرات ونفي الى ناقشوط مع انه كان يعاني من المرض... ونقل بعد ذلك إلى مستشفى الخرطوم.

ميزاته وطنية صادقة وعدم مساومة وكرم اصيل وخلق سوداني عال له صداقات في كل قطاعات الشعب السوداني.

**الدكتور احمد السيد حمد:**

ولد بالكوة عام ١٩١٨ وتلقى تعليمه الاوسط بمدينة بورتسودان.

هاجر إلى القاهرة في عام ١٩٣٤ والتحق بمدرسة حلوان الثانوية وكان رئيسا لرابطة الطلبة السودانيين. اشترك في فك الحصار على النادي السوداني في عام ١٩٤١ وهدده وكيل حكومة السودان المستر هازالدين في ذلك الوقت بالطرد من مصر.

تخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة عام ١٩٤٤ ثم اختير في بعثة الى جامعة السربون فنال دبلوما في القانون العام كما انه نال دكتوراه الجامعة في القانون.

عمل بالصحافة بعد تخرجه من كلية الحقوق القاهرية وكان رئيسا لتحرير صوت السودان هاجم الاستعمار وشن حربا شنعاء على الجمعية التأسيسية التشريعية رجع إلى السودان عام ١٩٥٤ وعمل في الصحافة رئيسا لتحرير جريدة العلم فترة من الزمن. في الفترة الاخيرة كان رئيسا لجريدة صوت السودان حتى تخلى عن الصحافة وتفرغ للمحاماة.. متزوج وليس له اطفال.

**عابدين اسماعيل:**

ولد في عام ١٩١٥ والتحق بكلية غردون بقسم المهندسين ولكنه فصل في اضرابات الكلية فنزح إلى القاهرة وجلس لامتحان الكفاءة وتم قبوله بمدرسة حلوان الثانوية ونال شهادة البكالوريا بامتياز. تخرج من كلية الحقوق في عام ١٩٤١ وكان من الاوائل

فعرض عليه ان يكون معيدا بالجامعة المصرية ففضل الرجوع االى السودان واجتاز امتحان المعادلة .

افتتح مكتبا للمحاماة بمدينة بورتسودان في عام ١٩٤٣ وانتقل في اوائل الخمسينات إلى الخرطوم اشترك في كل الحركات الوطنية منذ ايام الدراسة كما انه اشترك في لجنة الكفاح وخطب في الجماهير ودافع عن الحقوق الوطنية والسياسية .

يرأس نقابة المحامين ... متزوج وأب .

**كليمنت امبورو :**

تخرج من مدرسة الادارة . اول جنوبي تدرج في المناصب الادارية حتى وصل الى وظيفة سكرتير مجلس مديرية دارفور . زار المملكة المتحدة والولايات المتحدة .

متزوج واب .

**الشيخ الامين محمد الامين :**

اول مزارع سوداني يتولى منصب الوزارة .

من مزارعي الجزيرة وقد لعب دورا هاما في تكوين وبناء اتحاد المزارعين الذي تولى رئاسته اكثر من مرة . من قرية معيجنة بالجزيرة وهو من الحلاوين .

اشترك في النضال السياسي قبل الاستقلال وبعده بنشاط وافر وكان عضوا في اللجنة التنفيذية للجبهة المعادية للاستعمار اول مزارع ينتخب ممثلا للمزارعين في مجلس ادارة الجزيرة وذلك بعد انتخابات اتحاد المزارعين الاخيرة .

**رحمة الله عبدالله :**

ولد في عام ١٩٢١ وتخرج من كلية غردون كما انه درس في مدرسة الاداب بجامعة الخرطوم وعمل مدرس فترة في المدارس الوسطى وفي بخت الرضا حتى بعث الى جامعة كمبريدج حيث نال درجة البكالوريوس في التاريخ وعاد ليعمل مدرسا في مدرسة حنتوب الثانوية .

تم اختياره بعد الاستقلال سفيرا للسودان في الهند ويعمل الان سفيرا في باريس .

هوايته قراءة الاداب والتاريخ ومشاهدة المسرحيات العالمية والاستماع إلى الموسيقى .

متزوج واب .

**عبدالرحمن احمد العاقب :**

ولد في عام ١٩٢١ وتخرج من قسم الهندسة كما انه درس في المملكة المتحدة وهو ابن الشيخ احمد العاقب اول سوداني بشر بالاسلام في جاوه والملايو وعلم اللغة العربية

هناك ولما عاد والده الى السودان عين ناظرا للمدرسة الاهلية الوسطى فلم يطلب مرتبا غير ان يضمن له ما يقيم اوده ويحفظ طعام ابنائه .

تعرض عبدالرحمن احمد العاقب الى الموت اذ سقطت به الطائرة التي كان يستقلها في ايطاليا فانقذه من الموت الجوال سعيد محمد نور وسبح به حتى شاطىء النجاة .

يمتاز بالهدوء والتأمل البعيد والعقلية العلمية المحايدة .

اخر منصب كان يقوم به هو كبير مهندسي بلدية الخرطوم .

**الصادق المهدي :**

.. عقد السيد الصادق المهدي مؤتمرا صحفيا يوم ٣٠ اكتوبر ١٩٦٤ بامدرمان تحدث فيه عن الجبهة الوطنية المتحدة منذ تكوينها في نوفمبر ١٩٦٠ ونضالها ووقوفها في وجه الحكم العسكري ، وقال اننا نؤيد الحكومة القومية الانتقالية بكل قوانا حتى تنجز الميثاق ، ونناشدها ان تراعي الحياد التام بين الاحزاب والاتجاهات الفكرية المختلفة . كما ناشد الحكومة ان تطلب من اخواننا الجنوبيين ان يضعوا السلاح فورا ويعدوا انفسهم للوصول لحل سياسي مع اخوانهم في الشمال ، وان تعين لجنة الانتخابات فورا لتمارس اعباءها وفق قانون الانتخابات لسنة ١٩٥٦ وتوجهت الجبهة للشعب بنداء تطلب فيه الصفح عما سلف حتى تقوم الديمقراطية في جو خال من الاحقاد وان يكون مرد الماضي للقانون وحده يحكم فيه بالعدل ، وان تقيد الحرية بمقاييس خلقية فلا نفسح سبيلا للمهاترات والشتائم والاستعداد لمعاونة اولياء من أدوا عنا واجب الفداء بدمائهم وارواحهم .

ان الجبهة ترى ان العمل السياسي في النظام الديمقراطي لا يستقيم الا اذا ارتفع التنظيم الشعبي إلى مستوى المسئولية في البلاد ، ولذا فانها سوف تعلن عن تنظيمها الذي سيكون مفتوحا لكل هيئة ولكل مواطن يريد ان يساهم في تعمير السودان وبناء الوطن وفق برنامج وطني محدد المعالم ..

**الازهري :**

وأصدر السيد اسماعيل الازهري بيانا يهنىء فيه الشعب السوداني بانتصاره الرائع .. ويعبر فيه عن فرحته بعودة الحياة الديمقراطية وتصفية الاوضاع السابقة ... ويدعو فيه إلى نكران الذات والتمسك بحرية البلاد ... ويناشد البيان جماهير الوطني الاتحادي بتنظيم صفوفهم لخوض المعركة الانتخابية المقبلة .

● اما رئيس تحرير « الصحافة » فقد كتب تحت بابه المعروف عزيزي القارىء يقول بهذه المناسبة بتاريخ ١٩٦٤/١١/٢ :

.. كان بيان الحكومة الذي صدر امس الاول بيانا قويا يتمشى مع ارادة الشعب ، ويتجاوب مع مصالح البلاد وقد حوى كل ما جاء في الميثاق القومي الذي تعاهد الشعب

على تنفيذه وبدأ به انطلاقته ومسيرته الشعبية الضخمة التي انتهت بالنصر المبين..

.. ان المستقبل الذي يواجهنا في غدنا المشرق يحتاج منا ان نرتفع ونسمو، إلى مستوى الاحداث وان نوفر للحكومة الهدوء والاستقرار، وان ننكر ذواتنا ونخلص في اقوالنا وافعالنا ونضاعف انتاجنا، ونغسل من نفوسنا وقلوبنا كل حقد وكره واثاره، ونحارب الدسائس والشائعات ونزيل من نفوسنا الخصومات وليكن لنا في الدماء والدموع والعرق والانين والتوجع والالم وتمزيق الاعصاب ابان ايام المنحة... فليكن لنا في كل ذلك عظات وعبر ترتفع بنا إلى مستوى الشهداء، وتدفعنا ابدا إلى مزيد من الاخلاص والحب والوفاء والامانة والتضحية..

.. ان حكومة الشعب هي اول حكومة تشرف الصحافة السودانية فتذكرها وتذكرها في بيانها التاريخي بواجبها المقدس.. ونحن اذ نشكر حكومتنا لهذه اللفتة المقدرة، نعلن في صدق وفي اخلاص... وفي شجاعة وايمان باننا سنقف إلى جانب الشعب ونعمل على تدعيم الميثاق القومي، وصيانة الدستور، وتحقيق العدالة والمساواة والطمأنينة والاستقرار..

.. ستكون «الصحافة» منبرا حرا لكل رأي حر بناء سليم دون ان تسمح بالمهاترات والتخريب والهدم.. ودون ان تضعف او تجامل او تلين.. ودون ان تحقر او تخدش مشاعر الفرد او هيئة او حزب او جماعة.

ستكون «الصحافة» في خدمة الشعب والوطن، فما صدرت الا له، ولن تبقى الا به... وفقنا الله على اداء مهمتنا العسيرة، وامدنا بنور الهداية والحكمة والرشاد والله اكبر والعزة للشعب والوطن.

## ١٩٦٤/١١/٥م

## عزيزي القارىء

# الشعب يطالب بفتح القضايا التي اختنقت !!

.. ناصر الشعب صحافته الحرة فنصرته وناصرته فتجاوبت الحكومة الوطنية مع رغبات الشعب واصدرت قرارها امس بايقاف مدير البوليس ونائبه ومساعده بغرض اجراء تحقيق فيما وجه اليهم من اتهامات. ونحن نأمل صادقين ان تتاح لكل مواطن اتهم في قضية من القضايا الفرصة التامة للدفاع عن نفسه في جو تتوفر فيه كل معاني العدالة.

.. اننا لا نهدف إلى ايذاء الناس، واخذهم بخطايا غيرهم ولكنا فقط نسعى للحقائق في جو بعيد عن الاحقاد والكراهية حتى تعود الطمأنينة إلى النفوس بعد ان فارقتها ردحا من الزمن.

.. والحديث عن الفساد كثير لا ينقطع.. فساد في استغلال السلطة... وفساد في الاخلاق... وفساد في التحقيق وتجبر وتسلط لا حدود له..

لم تكن بلادنا من قبل تعرف الرشوة.. ولم تكن تعرف المحسوبية.. ولم تكن تعرف الاستبداد لكنها اندحرت في سنواتها القليلة الماضية بسرعة الصاروخ إلى الهاوية.. إلى اعمق اعماق الفساد وكأنها لم تعرف في ماضيها البعيد والقريب اي معنى للفضيلة والرجولة والشهامة والعدل والكرم..

.. لقد بدأت بلادنا في سنينها القريبة الزائلة ما انتهت اليه اسوأ بلاد العالم من الفوضى والفساد والاضطرابات وكنت وانا اتابع الاحداث واستمع إلى المآسي التي تحدث كل لحظة في دواوين الحكومة.. وفي الاسواق.. كنت اتمنى المزيد من الفساد والفوضى والعبث حتى يكتوي الشعب في رجولته وعزته وكرامته فينتفض كالمارد ليحمي نفسه من نهاية المأساة.. من نهاية المسرحية التي اوشك ان يروح ضحيتها بعدما داست الاقدام على مقوماته فكان ان انفعل وانتفض فتحرر وبدأ يوما جديدا من عمره الطويل الزاهر باذن الله.

.. لقد عم الفساد جميع اجهزة الدولة وانعكس على شخصيتها العالمية بعد ان «تحنطت» جميع سفاراتنا وفيها طاقات وكفاءات كانت كلها تعيش في اجواء من الغيظ والحرقة، وبحورا من الدموع والتحسر والالم.

.. هناك قضايا عديدة. قضايا الاخلاق.. وقضايا الفساد.. وقضايا الرشوة.. وقضايا المحسوبية.. وقضايا الاختلاسات وعلى رأسها اختلاسات النويلة! قضايا جديدة امتدت اليها الايدي القوية فخنقتها في مهدها لدرجة انطمست معها معالم العدالة واوشكت ان

تضيع خيوطها وسط الرياح السامة العاتية.

ان الشعب الذي سلب بالامس كرامته وعزته وحقوقه ودفع في سبيل استعادتها الدموع والدم... هذا الشعب يطالب كذلك باسترداد حقوقه المغتصبة... كل حقوقه بلا مجاملة، وبلا مساومة.

.. الشعب يطالب بفتح جميع القضايا التي اختنقت في العهد الماضي قضايا الرشوة... وقضايا الاختلاسات .. وقضايا القتل!! الشعب يطالب باستعادة كرامته وحقوقه التي سلبت في كل ميدان وسيظل كله عيون ترقب الخطوات، وتعد الانفاس، وتحصي الحركات حتى يحقق اهدافه ويتوج انتصاره الذي بدأ بالامس القريب فيسير في طريق المجد والخلود دون ان تعترض سبيله الاشواك والاحقاد ومواكب المنافقين والمرتشين والمفسدين وانا لمنتظرون.

## الصحافة تتابع اعتقالات اعضاء المجلس الاعلى والمدنيين من البداية إلى النهاية - ١٩٦٤/١١/١٠

علامات استفهام كبيرة ظلت معلقة في سماء الخرطوم في الاسبوع الاخير بعد انتصار ثورة الشعب بعضها تخرج من ثكنات الجيش وترسم في الاذهان اسئلة حائرة... هل الوضع مستتب داخل الجيش؟ وما هو مصير الضباط الاحرار الذين ساندوا ثورة الشعب..؟ واعضاء المجلس الاعلى «المنحل» هل حملوا ادانة الشعب لهم وابتعدوا من مسرح الحوادث... ام انهم هناك وراء الكواليس؟.

اسئلة حائرة كانت تخرج بها بعض علامات الاستفهام من داخل الثكنات.. وعلامات استفهام اخرى كانت تخرج من داخل مجلس الوزراء... ما هو صدى اجماع الشعب ومطالبته بالتحقيق مع من صنعوا المأساة؟ وإلى اي مدى تمتد سلطات وزير الدفاع داخل رئاسة الجيش؟

كانت هذه العلامات وغيرها تنشر جوا من الضباب والغموض يكسو سماء السودان.

حتى كان امس الاول وبدأ الغموض ينقشع قليلا... وانطلقت اشاعات تقول ان بعض العناصر في الجيش قد قامت باعتقال بعض الضباط الاحرار كما ان حركة اعتقالات واسعة تشمل بعض الرتب الاخرى ستحدث... وعلى اثر هذه الاشاعات اجتمعت الجبهة القومية برئيس الوزراء وابلغته بأمر هذه الاعتقالات ومن جانب اخر فقد اجتمعت نقابة المحامين ورفعت مذكرة هامة اشارت فيها الى أخطار كبيرة تهدد ثورة الشعب ما لم تتخذ الحكومة خطوات حاسمة منها اعتقال اعضاء المجلس الاعلى السابق وجميع المشبوهين في جهازي الجيش والبوليس.

## مجلس الوزراء يجتمع:

في السادسة من مساء امس الاول اجتمع المجلس بكامل هيئته وانتدب رئيس الوزراء ومعه ثلاثة وزراء للاجتماع بالرئيس عبود وقال لهم الرئيس عبود بانه يعتبر توقيف الضباط امرا داخليا للجيش وانه اجراء عادي.ورد الوزراء بان هذا الاجراء موجه ضد الضباط الاحرار الذين ساندوا الحركة الوطنية وانه بادرة لافساد انتصارات الشعب وان هناك تحركات ونشاطا يقوم به اعضاء المجلس الاعلى السابق وبعض الوزراء السابقين ونفى عبود هذه المعلومات ورد عليه الوزراء بان الحفاظ على الوحدة القومية يقتضي اجراء اعتقالات عاجلة.

## مظاهرات عاصفة:

وفي الثامنة مساء خرج طلبة جامعة القاهرة فرع الخرطوم في مظاهرة ضخمة اتجهت إلى مجلس الوزراء حيث رفعت عريضة للسيد رئيس الوزراء تعبر عن تأييدها التام للمجلس وتطالبه بالحفاظ على المكاسب باعتقال بعض الشخصيات... ثم اتجهت المظاهرات إلى دار الرياضة فخرجت معها الجماهير الحاشدة وتدفقت بها الشوارع من جديد وانتظمت جماهير الشعب وعادت إلى مجلس الوزراء الذي اجتمع منذ الحادية عشرة حتى الثالثة صباحا وظلت جماهير الشعب ترابط بشارع النيل وهي تهتف وتنتظر قرارات المجلس.

## صدور القرارات

وفي الثالثة من صباح الامس صدرت قرارات تاريخية حاسمة تجاوبت مع رغبات الشعب وهي اعتقال اعضاء المجلس الاعلى اعتقالا تحفظيا مع احمد خير وزير الخارجية السابق وعباس فضل وأبارو.

## كيف نفذ الاعتقال:

كانت وزارة الداخلية منذ انعقاد مجلس الوزراء تراقب الموقف وفي حالة استعداد تام للحفاظ على الامن والقيام بواجبها وظل جميع الضباط من كل الرتب في مكاتبهم حتى صدور اوامر الاعتقال... في الثالثة صباحا كان قد تسلم قمندان وتسعة حكمدارات أمر الاعتقال التحفظي الصادر من السيد وزير الداخلية باعتقال اعضاء المجلس الاعلى السابق ووزير الخارجية وكبار رجال البوليس وحددت الثالثة والنصف موعدا لساعة الصفر ليكون كل ضابط امام منازل المعتقلين.

**ساعة الصفر**

في حوالي الثالثة والربع صباحاً انطلقت العربات من رئاسة وزارة الداخلية تحمل الضابط المسئول ومعه قوة مسلحة من رجال البوليس... وفي الثالثة والنصف هب المعتقلون من نومهم مذعورين على طرقات قوية تدق ابوابهم.

.. فكيف قابل المعتقلون الامر... هاكم وصفا تفصيليا لما حدث فجر امس.

**حسن بشير:**

في الثالثة والنصف صباحا كانت يد الحكمدار يحيى حسين تطرق باب منزل حسن بشير بشارع علي عبداللطيف بمنزله الحكومي الكبير واستيقظ منزعجا فسلمه الامر الصادر باعتقاله فدهش ثم غاب لحظات ارتدى فيها زيه الرسمي وحمل (جلابية) وركب في العربة في طريقه إلى المطار مستسلما.

**طلعت فريد:**

توجه إلى منزله بالقسم الشرقي الحكمدار عبدالعزيز محمد عثمان حيث سلمه الامر الصادر باعتقاله فارتدى لبسه الملكي وحمل معه جلبابه وركب العربة.

**رضا فريد:**

اعتقله الحكمدار فتحي حسن والي بمنزله الحكومي بالقسم الشرقي حيث سلمه أمر الاعتقال فارتدى ملابسه الملكية وتوجه نحو العربة وهو يحمل بعض الأدوية.

**مقبول الامين:**

اتجهت عربة تحمل القمندان احمد كرار بشارع الجامعة وتوقف عند منزله فخرج اليها بعد ان تسلم امر الاعتقال وهو يحمل معه (جلابية).

**محمد نصر عثمان:**

انعطفت عربة البوليس التي تحمل الحكمدار عصمت معنى بشارع السيد عبدالرحمن حيث يقع منزل محمد نصر عثمان وايقظه الحكمدار وسلمه الامر فارتدى ملابسه وحمل جلابية وعادت العربة به إلى مطار الخرطوم.

**محمد احمد عروة:**

وبضاحية الصافية التي كانت تغفو عند اطراف الخرطوم بحري توجه الحكمدار محمد عثمان عبدالرحمن الى منزل عروة الخاص وتعالت طرقات الباب في جوف الليل

فخرج عروة واستلم امر الاعتقال وركب العربة وهو يرتدي ملابسه الملكية ويحمل الجلابية وبعض الادوية.

**احمد مجذوب البحاري:**

وبالقسم الشرقي كانت عربة البوليس التي تحمل الحكمدار حسن صديق عيسى تقف امام منزل البحاري الذي خرج منزعجا حيث سلمه الحكمدار امر اعتقاله فارتدى ملابسه الملكية وحمل الجلابية وعادت به العربة.

**إلى كوبر:**

وانطلقت ثلاث عربات اخرى من رئاسة الداخلية تحمل اوامر الاعتقال لاحمد خير وعباس فضل وأبارو وعادت بهم لتدخل سجن كوبر وقد اعتقلوا على الوجه التالي:

**احمد خير:**

اعتقله الحكمدار محيي الدين حامد بمنزله ببري الشريف وقد قابل الامر في ذهول ثم ركب العربة التي اتجهت به الى كوبر.

**عباس فضل:**

اعتقله الحكمدار نكولا ايويا بمنزله الحكومي بالخرطوم وارسل إلى سجن كوبر مع خيوط الفجر الاولى.

**ابارو:**

وبمنزله خلف وزارة الزراعة بالقرب من وزارة الداخلية اتجه اليه الحكمدار سليمان ابو داود حيث سلمه امر اعتقاله... وغاب لحظات خرج بعدها إلى سجن كوبر.

**طائرة المعتقلين:**

وفي السادسة والدقيقة الثالثة والعشرين وبعد ان اكتمل عدد المعتقلين من اعضاء المجلس الاعلى بقاعة مطار الخرطوم صدرت اليهم الاوامر بالاتجاه نحو الطائرة ومرت لحظات دارت فيها محركات الطائرة ثم حلقت متجهة بهم إلى الفاشر... يرافقهم حرس خاص على رأسه حكمدار البوليس علي يسين والملاحظ القاضي بلبل وعدد من ضباط الصف ورجال البوليس.

**في سطور:**

كان امر الاعتقال مفاجأة لكل واحد من المعتقلين ولم يعتقدوا ان اعضاء المجلس قد اعتقلوا جميعا حتى اجتمعوا في المطار.

لم يسمح لهم بحمل حقائب وحاجيات خاصة ما عدا جلباباً لكل واحد..

حمل عروة ورضا معهم بعض الادوية.

كان حسن بشير الوحيد الذي ارتدى زيه العسكري وخرج يحمل معه جلابية..

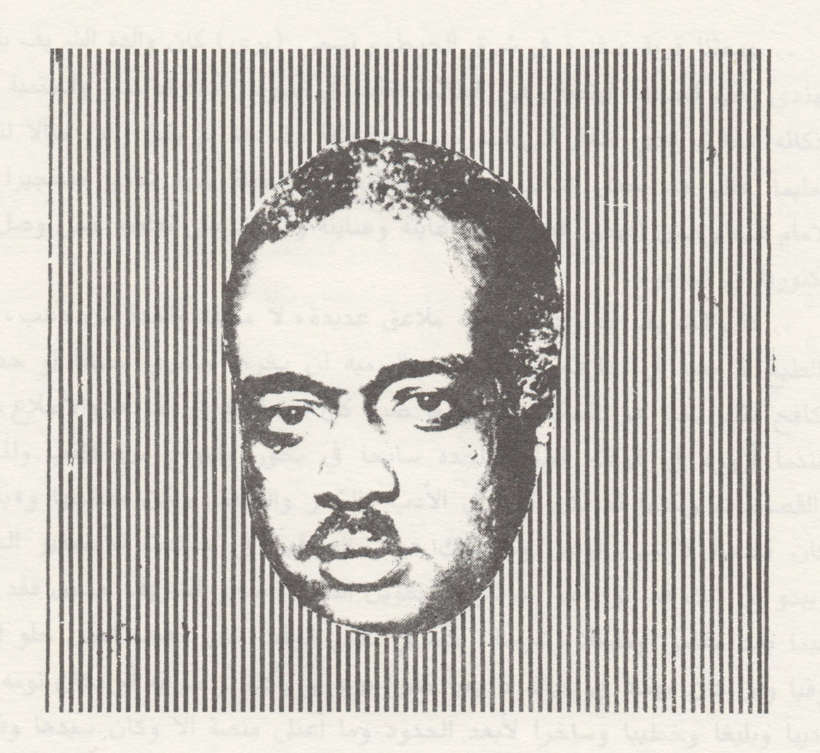
لم يبد اي واحد منهم مقاومة او اعتراضا وانصاعوا للاوامر في صمت.. وبهدوء.

سأل كل منهم الضابط المرافق له عن المكان الذي سيرسل اليه... وكانت الاوامر ألا يتحدث الضباط بذلك..

حسن بشير وطلعت ورضا ومحمد نصر والبحاري والمقبول اتجهت بهم الطائرة إلى الفاشر.

اما احمد خير وعباس وأبارو فقد حملتهم العربات إلى سجن كوبر.

# الفصل الثامن عشر



**الخطيب الاول .. والمناضل الاول ، وعدو النميري الأول والأسطورة الخارقة التي لم تعرفها الروايات ولم تقدمها المسارح والشاشات .**

- **خرج من السودان يوم انقلاب نميري وبعد خمسة عشر عاما من الكفاح عاد في صندوق الموت .**

.. جمعتنا قرية صغيرة في شرق الخرطوم تسمى (برى) كان والده الشريف يوسف الهندي زعيم الطائفة الهندية وهي الطائفة الثالثة في السودان بعد الانصار والختمية عرف بذكائه الخارق الذي انتقل الى ابنه حسين أضعافا مضاعفة لم يكن والده ميالا لتعليمه تعليماً عاليا مما جعل الشاب الصغير المتطلع الى الحياة يلجأ شاكيا مستجيرا بعمه الامام عبدالرحمن المهدي الذي تولى رعايته وعنايته وأشرف على تعليمه حتى وصل كلية فكتوريا في القاهرة.

.. كان الشريف قد ولد وفي فمه ملاعق عديدة، لا معلقة واحدة من ذهب، وكان بالطبع لا يعبأ في اجازاته أو في حياته اليومية ان يخرج ليشتري جلبابا او حذاء او يكافح مثلنا بحثا عن لقمة العيش وانما صب كل اهتماماته في القراءة والاطلاع. كنت عندما أزوره في غرفته الخاصة أجده سابحا في بحور وأمواج من الكتب والمجلات والقصاصات ولكنها لم تكن كلها في الأدب والشعر والثقافة، ولكن معظمها و«بالقفة» كان قصصا لارسين لوبين وشارلوك هولمز العريقين في حوادث الأساطير الخرافية ويبدو ان ذلك قد أثر تأثيرا مباشرا في تكوين الشاب الصغير الشريف حسين فقد اصبح فيما بعد مغامرا ومقاتلا وشرسا، لكنه في نفس الوقت كان خفيف الظل حلو المعشر وفيا وان كان مهملا في حياته لا يعبأ كثيرا بزيه أو بأكله أو شرابه أو مكان نومه. كان أديبا وبليغا وخطيبا وساخرا لأبعد الحدود وما أعتلى منصة الا وكان سيدها وفارسها وبطلها، فقد كان يعرف كيف يتصيد آذان وعيون الناس ويلعب بمشاعرهم وأحاسيسهم ويؤثر على عواطفهم تأثيرا يأخذ الألباب. نمت علاقاتنا منذ فجر الصبا ثم كان الشيخ محمد احمد المرضي قاسما مشتركا بيننا ثم مبارك زروق والدكتور حسن عبداللطيف فشكلنا خماسيا منسجما ملتصقا لا يستغني واحد منا عن الآخر مهما ادلهمت الخطوب وللشريف حسين حياة عريضة مليئة بالمغامرات تفوق حسب اعتقادي كل ما قدمه المسرحيون والمخرجون والممثلون ولو كتب لحياة الشريف ان ترى النور بتفاصيلها، فانني أكاد اجزم بانها ستحدث دويا هائلا في نفوس الناس.. كل الناس على مختلف أجناسهم ولغاتهم بل وسينال كل الممثلين فيها جميع جوائز الأوسكار والتلفزيون بلا

منازع كما حدث تماما في فيلم «غاندي» والفك المفترس وتي آي. سأحاول قدر جهدي أن أروي قصة أو قصتين عشتهما معه معايشة كاملة وقريبة ولصيقة.

.. في حوالي عام ١٩٦٠ وبعد مقتل لوممبا مباشرة كانت للشريف حسين علاقات وطيدة وغريبة بزعماء الكنغو وعلى رأسهم قائدهم باتريس لوممبا وكانت له ايام الأحداث والتطورات في تلك المنطقة صولات وجولات انتهت برحلته في طائرة خاصة هبط بها في مطار بيروت ثم استولت عليها السلطات اللبنانية آنذاك لأنه لم يستطع دفع مصروفاتها أو لأنه لم يرد ذلك وقيل ساعتها ان الطائرة كانت بها كميات من الذهب واللؤلؤ والمجوهرات الذي كانت تخص صديقه لوممبا زعيم الكنغو الذي قتل في تلك الأيام وبعدها عرج الشريف الى القاهرة وذهب للاسكندرية ليتسلم عدداً من اللاندروفرات واللواري واشياء كثيرة أخرى كان قد استوردها باسمه خصيصا لصديقه لوممبا وكانت القاهرة وهي محطة قديمة له اذ كان يصدر لها الجمال فاشترى في (حي امبابة) قطعة ارض فسيحة بحوالي المائة وعشرين الف جنيه (ايام زمان) وكان حسابه في بنك مصر يتراوح بين المائة والمائة وخمسين الف جنيه. لم يتمكن الشريف من استلام العربات التي دخلت ميناء الاسكندرية ويبدو أن المخابرات المصرية قد شكت في أمرها فاستولت قهرا على جميع ممتلكاته، العربات، قطعة الارض حتى أمواله في البنوك فقد جرى التحفظ عليها ويومها جاءتني منه رسالة خاصة يطلب الي فيها الحضور الى القاهرة لأمر جلل وكانت رسالاته دائما مقتضبة واحيانا يكتبها على ظهر ورقة علبة السجائر فركبت الطائرة على الفور ونزلت معه في فندق سميراميس قبل ان يحترق وأبلغني بالظروف الصعبة التي يواجهها لنتدبر الأمر معا وقمت فورا باتصالات مع أصدقائي كبار الصحافيين المصريين علني أجد مخرجا سهلا لمأساة الشريف فلم نفلح لأن الأمر كما يبدو صدر من جهات عليا ويومها حاول الشريف مرة ان يسحب خمسمائة جنيه من حسابه فابلغه مدير البنك وبلهجة قاطعة بأن التعليمات صدرت بالسماح له بصرف مائتي جنيه فقط لا غير في الشهر الواحد، وقمنا بمحاولة أخرى وأخيرة اذ اعطاني عربته «البونتياك» فسافرت بها الى الاسكندرية واجريت اتصالات خاصة مع بعض كبار رجال الميناء والجمارك في محاولة يائسة لاستلام العربات ولكنني ايضا لم افلح خصوصا عندما علمت ان التعليمات بوقف أجراءات التسليم كانت قد صدرت من وزير الداخلية نفسه وهنا صمت الشريف وصبر وكأن شيئا لم يكن واعتبر الأمر منتهيا حتى يهيىء الله له فرصة انقضاض كبيرة يعيد بها أمواله وممتلكاته المسلوبة. ومضت الأيام والشهور والسنون حتى جاءت الفرصة.. وكانت بحق ذهبية بل (بلاتينية) استرد بعدها جميع حقوقه بالعملة الحرة.. بالدولار وبأرباحها كاملة وفي بنك سويسري!

في عام ١٩٦٥ اي بعد أربع سنوات كاملات من قرار مصر بمصادرة أمواله وارضه

وعرباته أصبح الشريف وزيرا لمالية السودان وغادر الخرطوم الى القاهرة لتوقيع اتفاقية خاصة بمقايضة منتوجات مصرية للسمسم السوداني الذي يدر على خزائن مصر ما يقرب من العشرة الى خمسة عشر مليونا استرلينيا ـ ومصر كانت وقتها في أمس الحاجة الى العملات الحرة مهما كانت قليلة وضئيلة.

جاءني صديقي الشريف قبل يومين من سفره وكان معي مولانا شيخ المرضى الذي يبدو كان على علم مسبق بكل جوانب المؤامرة الغريبة التي دبرها الشريف.. قال لي الشريف، جهز نفسك لتقوم معي الى القاهرة فقد أصدرت أوامري بحجز غرفة لك تجاورني فيها اثناء اقامتي في فندق شبرد في القاهرة. قلت له وماذا هنالك؟ ماذا يا سيدنا الشريف.. فقال لي:

اريد ان أضع خاتمة سعيدة جداً لمأساة مفجعة جدا جدا، وارجوك لا تلح علي بالأسئلة فقط جهز نفسك للسفر معي وفعلا سافرنا معا وصدقوني انني نسيت كل شيء. وبدأ أعضاء الوفدين المصري والسوداني في المباحثات حتى أعدوا بعد يومين بروتكول الاتفاقية واصبحت جاهزة ليوقع عليها في الغد وزيرا المالية السوداني والمصري.

جاء الموعد المحدد وكان الساعة الحادية عشرة صباحا واستعد كل اعضاء الوفد السوداني لمغادرة الفندق وهم في أتم هندامهم في انتظار وزيرهم الا أنه أمرهم بالتوجه الى الوزارة وانه سيلحق بهم فيما بعد وكان ساعتها مسترخيا كعادته في جلبابه الفضفاض وانا انظر اليه بعينين حائرتين وقلب واجف وفي منتصف النهار دق جرس التليفون وكان المتحدث وزير المالية المصري الذي استفسر عن أسباب تأخيره متمنيا الا تكون قد ألمت به وعكة او مكروه فما كان من الشريف الا ان قال له في لهجة آمرة حازمة: انا عايزك فورا يا سعادة الوزير ارجو ان تضع السماعة وتحضر لي الآن ثم اغلق الشريف حسين سماعة التليفون في عصبية دون ان يمنح الوزير المصري فرصة للاستفسار عن السبب وبعد ربع ساعة دخل الوزير المصري حجرة الشريف حسين فانسحبت على الفور وتركتهما معا ولم تمض اكثر من خمس دقائق حتى رن جرس تليفوني وكان المتحدث الشريف حسين وهو يضحك ويضحك: قوم تعال الوزير المصري «غار في ستين الف داهية!!» وفعلا جريت على عجل وانا ما زلت بجلبابي حتى نسيت «الشبشب» ودخلت حافيا على غرفة الشريف الذي كان لا يزال يضحك ويضحك رافعا يده الى أعلى كأنه عثر على لؤلؤة في فضاء الحجرة ثم بادرني في لهجة خطابية قائلا: أنا يا أبو عوف الشريف حسين ولد الشريف يوسف الهندي رضي الله عنه وعني، لا يستطيع احد في هذه الدنيا العريضة مهما كبر، ومهما تجبر ان يستكردني او يغشني او يلعب على ذقني، اذا حدث هذا فلا يمكن الا ان يكون لحين من الدهر قد يقصر وقد

يطول، ولكنني لا بد ان أثأر وبعنف وبلا رحمة مهما طال أو قصر هذا الحين.. واستطرد الشريف يذكرني بأمواله المصادرة وعرباته و.. و.. وفاجأني عندما ابتدرني سائلا «تعرف أنا عملت ايه مع الوزير المصري!؟ مضى يجيب على سؤاله قائلا:

«جهزت مطالبي للوزير المصري ليسلمها لعبدالناصر وهي تحتوي على كل مليم لي في ارض مصر الحبيبة الغالية زائدا الفوائد الرسمية بما في ذلك سعر أرض امبابة التي زادت ثلاث او اربع مرات. المهم اصبح جملة ما أطلبه بالفوائد الكاملة تسعمائة وخمسين الف جنيه يعني «مليون قافل» استطرد الشريف يقول: «قلت شفاهة لا كتابة للوزير ان يبلغ الرئيس بانني ضحية كبيرة لاصحاب مناطق النفوذ والقوى ممن يسيئون الى حكمه النظيف الطاهر وقد جردوني في غفلة من الزمن وبلا سبب او مبرر وبلا محاكم جردوني من كل شيء حتى العافية والابتسامة رغم انني لم اكن مصريا وانما ضيفا على مصر العزيزة والصديقة والتي عرفت بأياديها البيضاء وحنانها وضيافتها للاجئين السياسيين كانوا ام صعاليك!! استمر الشريف يقول لي بطريقته الخطابية البليغة وقد انشدت أعصابي وتوترت احاسيسي الى درجة كنت اسمعها وهي «تتطقطق وتنتفض وترتعش». استمر يعيد ما أبلغه للوزير المصري قائلا: اذا لم تحول حقوقي المسلوبة المنهوبة قسرا الآن الى حسابي بعدما اتأكد من تنفيذ ذلك بنفسي في محادثة تليفونية عاجلة يتكرم بها علي وزير المواصلات او حتى مراقب التليفونات فانني ووفدي سننشد الرحال الآن عائدين الى الخرطوم دون ان نوقع حرفا واحدا في اتفاقية السمسم لا اليوم ولا غدا ولا ببعد غد وانا وزير للمالية وقد يطول مقامي بها!! قلت له «الله يجازيك» يا اخي دي خطة خطيرة جدا وكلام التهديد أخطر لا يمكن ان تعرف نتائجه. تفتكر ايه رأيك وانطباعك الشخصي يا سيدنا الشريف.. هل ستنجح خطتك!؟.

قال لي: (بالتأكيد والتأكيد المؤكد فمصر لا تستطيع في ظروفها الصعبة الراهنة ان تضرب بملايين الجنيهات الحرة عرض الحائط وخاصة وقد لاحظت وانا اتحدث للسيد/ الوزير المصري ان «ركبه سابت» ووجهه احمر كالخفاش وأعصابه توترت واصبح يهذي كالمجنون ربما من ابلاغ عبدالناصر برسالتي، لكنه في النهاية توكل على الحي الذي لا يموت وخرج مهرولا كأنما لدغه ثعبان من جبال كسلا ومضينا نتحدث بعد ذلك (خارم بارم) ونستعيد ذكريات الماضي وعندما قاربت الساعة الواحدة والنصف ظهرا طلبنا الغداء في الحجرة. ثمة ملاحظة عجيبة وغريبة اوشكت ان أنساها وهي ان الشريف عندما كان يتحدث الي كان يتلاعب دائما بجريدة الأخبار امام فمه وتحدث صوتا مشوشا يصعب معه فهم الحديث واعطاني الأهرام وطلب مني ان احاكيه وهنا جن جنوني لكن ما لبث ان قال لي ان جميع حجراتنا بالطبع ملغمة، بآلات التسجيل والتصنت وحركة «الخربشة والكركبة والوشوشة» التي تحدثها الجريدة تفسد أي تسجيل. هذا ما قرأته يوما في احد الروايات البوليسية!! هكذا كان الشريف حسين

حذرا وشكوكا ويضع الف حساب قبل ان يخطو خطوة واحدة.

ما ان بدأنا معركة الغداء حتى قطع علينا التلفون «اللقمة من الفم» فقال لي الشريف: اراهنك بان المتحدث هو وزير المالية وقد كان فلقد أبلغه بان الموضوع خلاص والحمد لله.. وان قدرك ومكانتك يا سيدنا الشريف عندنا كبيرة أوي.. أوي.. لكن الشريف عاجله قائلا: والمحادثة التليفونية اللي قلت لك عليها؟ فرد عليه الجانب الآخر بانها حالا وفي السكة ان شاء الله المهم كل شيء انتهى في مساء اليوم نفسه وفي العاشرة من صباح الغد وقعت الاتفاقية بين البلدين وتعانق الوزيران امام الصحافيين والمكرفونات وآلات التصوير من حولهما وعدنا الى الخرطوم في اليوم الثالث تودعنا كثير من هيئات الكبار في القاهرة. من الغريب المدهش ان عبدالناصر في لقائه مرة بالسيد اسماعيل ازهري بعد هذه الواقعة وقد سمعت هذا القول من الشريف حسين فيما بعد قال ناصر للازهري:

«انتم ما عندكوش حد غير الشريف يمسك وزارة المالية بتاعتكم.. هو السودان يا أخي عاقر ما فيهوش رجالة غيره؟» ولست ادري ولم ابلغ فيما بعد عما اذا كان عبدالناصر قد حكى للأزهري بتفاصيل هذه الواقعة او اكتفى باشاراته تلك الا انني موقن بأن الأزهري قد علم بكل تفاصيلها من الشريف نفسه وأطلق ضحكته القهقهية المعروفة لأن الشريف كان يضع دائما حسابا للمستقبل ولا يمكن ان يترك نفسه «مكشوفا وبلا ساتر!».

.. اما القصة الخرافية الثانية ـ وانا لا أروي عادة الا ما أراه بعيني رأسي وما أسمعه باذني ـ وقعت أحداثها في بيروت فكما هو معروف فان الشريف قد هرب من البلاد يوم قيام ثورة مايو ١٩٦٩، وبدأ يقاوم من الخارج وكان شرسا في مقاومته نشطا في دعاياته ومنشوراته واتصالاته. كانت بيروت في العام الاول لثورة مايو مركزا لنشاطه ولقاءاته وكان حوله عدد كبير من المعارضين كلهم او معظمهم الآن قد دخلوا في جوف المصالحة الوطنية فعادوا الى الخرطوم وزاولوا حياتهم الطبيعية.

اذكر انني في ذلك الوقت قمت بزيارة لبيروت والتقيت في فندق «الكمودور» حيث تطيب لي الاقامة بعدد من أصدقاء الطرفين من بينهم عمر نور الدائم وزير سابق في جناح الصادق ومحمد عثمان صالح تاجر وعثمان خالد أخ مسلم بالنائب العام سابقا ورجل اعمال بارز الآن بين السودان ولندن وسألتهم بالطبع عن الشريف وأخباره وان كان في بيروت فقالوا انه كذلك وقد سمع بحضورك وقد يتصل بك في أية لحظة وفعلا في اليوم الثاني اتصل بي وحياني ثم قال لي سيأتيك «يا أبو عوف» في المساء من يحضرك الي. وفي المساء زارني فعلا فلسطينيان عرفت فيما بعد انهما من بين حراسه المخلصين اذ كان يخشى على نفسه من الاغتيال او هكذا خيل اليه وخرجت معهما لأستقل عربتهما المارسيدس التي بدأت تنهب الأرض ثم توقفت بي في مقهى صغير في

اطراف الحمراء وهناك توقفت امام عربة التاكسي وقال لي تسمح سيدنا المختار تركب التاكسي وهو حيأخذك لسيدنا الشريف وركبت عربة التاكسي وصدقوني او لا تصدقوني بعد مسيرة ربع ساعة توقفت العربة امام عربة ثانية كانت فلوكسواجن صغيرة غير ان المفاجأة كانت أكبر عندما وجدت فيها صديقي الأولين اللذين زاراني في الفندق بعربتهما المارسيدس فضحكت وضحكا ولكن ضحكنا اكثر عندما حدثت مشكلة صغيرة في كيف أدخل عربة الفلوكسواجن ذات الباب الضيق وقد اعطاني الله بسطا في الجسد ولكن معليش كما كانا يقولان فادخلت رأسي وكتفي اولا ثم حشرت بقية أمعائي وجسدي فملأت المكان تماما ولم يعد هناك مجال لهواء او نسيم او تنفس .. المهم في النهاية وصلت الى حيث يقيم سيدنا الشريف وبالاحضان والقبلات ولا تخلو العيون من بعض دموع الشوق .

كان الشريف قد سبق عهده بسنوات عديدة فقد كان يخطط ويعد شباكه بحساب دقيق ومتصل ويبدو ان كثرة قراءته للروايات البوليسية منذ ان كان صغيرا يافعا قد أثرت فيه وتأثر بها كثيرا وكان لا يعرف التسامح ولا وجود له في قاموس حياته ان مسه شر رغم أنه يبدو وديعا كالحمل فان أساء اليه احد او ظلمه ، انتظر حتى تواتيه الفرصة فيأخذ بثأره أضعافا مضاعفة وبعنف لا يعرف الهوادة وقد ظهرت له حالات كثيرة أخرى بجانب واقعة مصر ، فعندما بادره الصادق المهدي بالعداء واستطاع في فورة حماسه وعنفوان قوته عندما شكل حكومته بائتلاف مع الأزهري ان يقصي الشريف من وزارة المالية ويمنحه وزارة الحكم المحلي رغم اعتراض حزب الأزهري الشديد انحنى الأزهري والشريف معا لعاصفة الصادق العنيفة باعتبار انها نزوة وفورة مرحلية لن تعمر طويلا وفعلا لم تعمر طويلا فقد دب الخلاف بين الفريقين المؤتلفين تماما كما تنبأ الشيخ المرضي ـ وتمكن الأزهري ومن ورائه الشريف حسين وبطانته من النواب من اقصاء الصادق المهدي لا من رئاسة الحكومة بل من الجمعية التأسيسية ذاتها عندما حلها الأزهري كليا بقرار صغير اتكأ فيه على الدستور المسكين وحاول الصادق أن يقاوم قرار الحل فنصب خيمة كبيرة امام داره اسماها البرلمان السوداني جمع في داخلها نوابه وعين لها رئيسا هو السيد احمد ابراهيم دريج ودعا الصحفيين لحضور جلساتها و .. و .. ولكن الخيمة قد انهارت خلال اسبوع واحد لجا الصادق بعدها للمحاكم في قضايا دستورية لا أول لها ولا نهاية !

وهناك قصة ثالثة وقعت أحداثها يوم ان كان الشريف وزيراً للمالية حين اقترض خمسة ملايين من الجنيهات من دولة عربية صديقة تأخر كثيرا وصولها للخرطوم مما جعل المعارضة في البرلمان والصحافة المحلية يوجهون حملاتهم الثقيلة المسعورة المشككة في ذمة الشريف والشريف صامت كأن الأمر لا يعنيه مما شجع المعارضة والصحف في مضاعفة الهجوم عليه والاتهام له بدرجة عنيفة وشديدة لفتت اليها أنظار الشارع

السوداني بأسره والشريف ماض في صمته، وما ان مضت شهور ستة على بداية الحملة حتى أصدر الشريف بيانا في الصحف والاذاعة والتلفزيون بانه سيرد في جلسة الغد في البرلمان على كل حملات التشكيك والاتهام، مما لفت الأنظار إليه. ويومها امتلأ البرلمان عن آخره بالنواب والسفراء وكبار الضيوف والصحفيين وأوعز الشريف كذلك الى جميع وسائل الاعلام وجميع الموجات العاملة في الاذاعة ان تركز عيونها وآذانها ومكرفوناتها وكمراتها على تلك الجلسة الخطيرة. وقف الشريف لحظات حتى تأكد من ان جميع العيون والآذان والقلوب قد اصبحت ملكه وبين اصابعه وبدأ خطابه في صوت حزين ونبرات مؤلمة «تقطع الحشا» والقلوب وهو يقول وببراعته المشهودة:

«سيدي الرئيس لقد التزمت الصمت والصبر وأنا اشهد الله على كل حملات الاتهام وللشكوك التي ثارت ضد شخصي الضعيف دونما سبب الا القصد السيء المركز والمخطط لتحطيمي واشافة سمعتي وانا بريء والله مما يقولون فان يدي لو حدثها الشيطان او حاول تحريك أطرافها لتمتد الى أموال هذا الشعب الفقير الجائع الذي ظللت العمر كله اجاهد واكافح لاسعاده لما ترددت والله في بترها باليد الأخرى وعلى مشهد من أهلي وعشيرتي».

لعل اخواني في الجانب الآخر وزملائي في الجانب العلوي (الصحفيين) الحريصين اكثر مني على مصالح (أهلنا الغبش) اندفعوا وهم محقون في سيل اتهاماتهم لي وتشكيكهم في مسلكي لكنهم والله لو علموا الاجراءات العقيمة المعقدة الطويلة العريضة المستطيلة عند اتمام مثل هذه القروض لما اندفعوا وثاروا وهاجموا واتهموا غفر الله لهم ولكم ولي.

سيدي الرئيس: «أود ان اعلن في هذه الجلسة التاريخية ان وزارة المالية قد تسلمت بالأمس الملايين الخمسة وهي مودعة في بنك السودان غفر الله لكم وسامح كل من حاول اهانتي والسلام و... وتصفيق.. تصفيق حاد.. استمر دقيقتين وفي الغد اعتذرت جميع الصحف للسيد/ الشريف كما اعتذرت المعارضة ولكن لم تمض ساعات على خطاب الشريف المؤثر الذي سحب فيه البساط لمصلحته وحده حتى اطلق بعض الخبثاء اشاعة بان الملايين ظلت قابعة في بنك سويسري كل تلك المدة وان جميع أرباحها ذهبت الى خزينة الحزب والله اعلم.

.. كنا يوم «الجمعة» نتناول طعام الغداء عادة في منزل الشيخ المرضى وكان اخانا الدكتور حسن عبداللطيف قد قرر ان يسافر في الغد الى بيروت وشكا من انه لم يتمكن من تحويل مصروفاته فما كان من الشريف وكان وزيرا للمالية الا ان قطع صندوق سجائر (الروثمان) وكتب عليه بالقلم حروف غريبة بالانجليزية (اكس اتش هللو خمسمايه) وناولها لحسن عبداللطيف بعد ان طلب منه كتابة عنوان الشخص الذي سيسلمه الورقة فيعطيه خمسماية جنيه استرليني فما كان من حسن الا ان قال له

ساخرا: سيدنا الشريف استهبالك كله عرفناه كمان عايز تجوطني بعد العمر دا، قال له الشريف انت حر.. وانت المحتاج على كل حال لو ما عندك ثقة في الورقة قطعها.. والغريب ان الدكتور عندما عاد بعد خمسة ايام ضحك وقال انه صرف المبلغ وبأوراق جديدة لنج خشي ان تكون مزورة ولكنه المهم انه صرفها والسلام.

اما القصة الأخيرة اذ لا يسمح المجال بمزيد من القصص.. وقصص الشريف كثيرة ومتعددة ومتنوعة تملأ كتبا بحالها لا صحيفة يومية.. القصة الأخيرة ان الشريف اختلف يوما مع زميل له مكر عليه واستولى على بعض أموال الحزب واخيرا انفصل هذا الزميل عنه وظن انه بذلك سيكون في مأمن خاصة وقد عاد الى الخرطوم فما كان من الشريف حسين الا ان كلف بعض جيوبه في طرابلس ـ وطرابلس كما تعلمون (الشحمة والنار) مع السودان.. كلفه بشحن ثلاجة كهربائية باسم زميله اودع في جوفها كمية من السموم والمنشورات والأشرطة المعادية للوضع في السودان فعثرت عليها سلطات الأمن واعتقل صاحبنا واودع الحراسة لفترة طويلة من الزمن.. وفيما بعد بعث الشريف الى زميله برسالة يقول له فيها (دقة بدقة ولو زدتم لزاد السقا).

مات الشريف حسين الهندي ميتة تشبة اسطورة حياته الحافلة بكل شيء في العام الأسبق في اثينا عندما وصلها ليترأس اجتماعا كبيرا للمعارضة. وصل الفندق وطلب من سكرتيره ان ينزل ويحضر له (بغاشة بالجبنة) فهو يحبها كثيرا وعندما عاد السكرتير ودق باب الشريف مرة ومرتين وثلاث ولم يرد عليه احد هرول المسكين الى مكتب الاستقبال الذي اكد له بان السيد/ الشريف لم يبرح الفندق مطلقا وأنه لا بد ان يكون قد نام فهو قد وصل لتوه من رحلة طويلة من السعودية والاردن وامام إلحاح السكرتير قام معه موظفو الاستقبال وكانت المفاجأة كبيرة ومذهلة ومؤلمة عندما فتح الباب ووجدوا الشريف راقدا على بطنه بعد ان فارق الحياة بكل ما فيها من آلام واحزان وغربة ووحشة وشوق وتطلع.. حياة حافلة لم يكن فيها مجال للأفراح والمسرات فقد ودعها الشريف دون ان يكمل زواجه فقد ظل طيلة حياته يعيش عيشة الفلاسفة والزاهدين ولا يهتم بقشورونعيم الحياة بقصورها وذهبها وكنوزها وأفراحها فقد كان كل جهاده لغيره من مواطنيه وأهله كما كان كريما وصامتا وأصيلا ومقاتلا من الدرجة الأولى.

ترك وراءه ثروة من المال تقدر بالملايين لم يستطع ورثته ان يعثروا إلا على جانب صغير منها في لندن في العام الماضي حوالي المليون ونصف المليون جنيه كما جاء في جريدة «التايمز» اللندنية فالشريف كانت له جوازات سفر كثيرة وبأسماء مستعارة لا حصر لها، ولا بد ان تكون له حسابات مخفية على ما اعتقد امتدت وانتشرت في عديد. في بنوك العالم حتى وصلت البرازيل وشيلي!

وبالمناسبة مازلت أحتفظ بعدد من «قمصان» الصديق الراحل لأنه كان يتركها في



الشريف حسين ومحجوب في اليسار

بيتي متسخة ويلبس قمصاني فتجمعت مع مرور الزمن وكثرة الزيارات حتى وصلت ما يقرب من الدستة ترحمت بها بعد وفاته على الفقراء والمساكين.

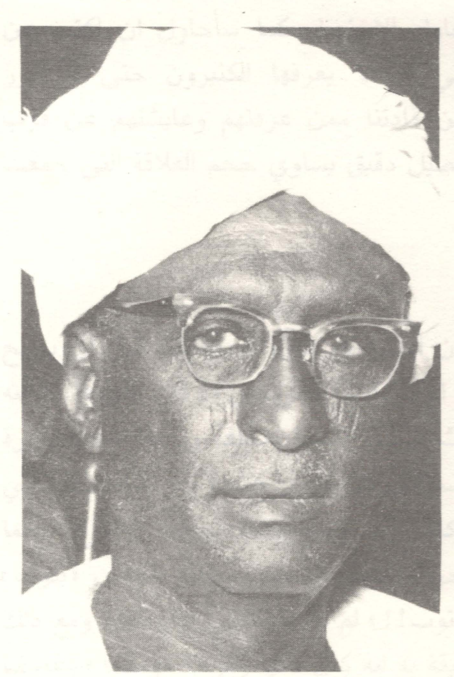
لم ينسه الناس وأهل طائفته ومريدو والده فقد ووري جثمانه بنفس الطريقة التي يودع بها السودانيون كبارهم وقادتهم.. دقت الطبول ودوى النحاس ونكست السيوف وبكى الرجال.. وودعته النسوة (بالحى ووبات التي تقطع الاكباد وتفتت القلوب).

اسم الشريف حسين الهندي سيظل معلما بارزا في حاضر السودان ومستقبله فقد منح السودان كل شيء ولم يأخذ منه شيئا على الاطلاق. فقد اعطاه كل حبه وقلبه وكيانه ووجدانه وضحى في سبيل اسعاد الآخرين اكثر مما ضحى في سبيل اسعاد نفسه وقد مضى الى ربه نداء وقربانا لكل معاني الانسانية والتضحية والوفاء.. كان الشريف انسانا وكفى.

# ﴿ الفصل التاسع عشر ﴾

- ساسة وقادة تحت دائرة الضوء
- بين الشيخ محمد احمد المرضي والصادق المهدي
- مبارك زروق وجريدة الصحافة
- كيف نبكي ونرثِي كبارنا ؟





.. لا يستطيع امرؤ مهما بلغ من القوة والذكاء والكمال ان يختزن في عقله وقلبه وجوفه وحواسه ذكريات تبلغ الأطنان في وزنها ومئات الأميال في طولها وعرضها وتسلخ من الزمن ثلاثين عاما واكثر ثم يسير صاحبها بعد ذلك وهو يرويها او يكتبها في خط مستقيم دون ان يتعرض لبعض التعاريج والتضاريس مما يضطره احيانا للقفز فوق الاحداث والزمان في خفة النمر او بطء السلحفاة لكن المهم انه في النهاية لا بد ان يعود إلى الخط المستقيم فيستقيم كل شيء ويدرك النهاية المرجوة .

.. نعود من جديد لنكمل تاريخ زعمائنا الذين ودعوا هذه الحياة بعد ان تركوا وراءهم بصمات واضحة وظاهرة في تاريخ البلاد تختلف من شخص إلى شخص حسب الدور الذي اداه في حياته السياسية وسأحاول الاختصار كما سأحاول ان اكتب عن الجوانب والسير التي لم تذكر عنهم والتي قد لا يعرفها الكثيرون حتى لا اكرر الآخرين .. سأكتب عن عدد قليل جدا من قادتنا ممن عرفتهم وعايشتهم عن قرب قريب يمكنني من الكتابة عنهم بصدق وبتفصيل دقيق يساوي حجم العلاقة التي جمعت بيننا .

**اسماعيل الازهري :**

تخرج من جامعة بيروت الامريكية وكان استاذا في علوم الرياضيات قبل ان يصبح زعيما سياسيا كان له نشاط كبير في نادي ام درمان «للخريجين» وكان معروفا بعربته الصغيرة جدا «ام بآبين» والتي كانت تحدث شخيرا شديدا وتخلف وراءها سحبا غزيرة من الدخان فيعرف المارة بان القادم هو اسماعيل الازهري . عندما بدأ نشاطه السياسي كان استاذا في مدرسة حنتوب الثانوية وكانت له جملة خالدة يرددها الشارع عندما حققت معه السلطات المدرسية لأول مرة حول نشاطه السياسي وطلبوا منه أن «يتوب» فقال : «حنتوب ولا مش حنتوب ، مش حنتوب !!» لم تكن علاقتي به وطيدة ومع ذلك فالذي عرفته عنه من علاقتي الصحفية الوثيقة به انه كان ذكيا ومرحا «ومقلبا» وغامضا فوق انه كان يصبر على الشدائد حتى اذا ما وجد فرصة للرد اغتنمها للنهاية . كانت

علاقاته الشخصية واسعة كان مثابرا ودؤوباً وأمينا عفيف اليد واللسان ويكفي انه مات ومنزله مرهون وحساباته في البنوك خاوية تماما .

له ابن صغير كان يحبه ويصطحبه معه حتى في المناسبات الرسمية وبعد مماته كرمته حكومة مايو فعينت ابنه «محمد» عضوا في برلمان وادي النيل رغم انه ليس سياسيا وانما له ميول موسيقية .

**احمد السيد حمد :**

الدكتور احمد السيد حمد من خريجي الجامعات المصرية وهو محام رغم انه لم يجد فرصة من مشاغل السياسة حتى يتفرغ للمحاماة . عرف بحبه وولائه وبميوله الشديدة لمصر وقضى فيها زهرة شبابه وحيويته حتى تأثرت لهجته فاصبحت شبه «المصرية» في مقاطع ومخارج كثيرة . عمل صحفيا ورئيسا لتحرير «صوت السودان» وكان يقود حملات شرسة وعنيفة ضد الاستعمار حتى لفظ آخر انفاسه وقد ساعدت احاديثه كثيرا على الصحوة الوطنية والوعي السياسي المتزايد .

قدم للمحاكمة عديدا من المرات بتهمة اثارة الكراهية ضد الحكومة الاستعمارية آنذاك . كان ولا زال قريبا من البيت الميرغني . عندما قامت ثورة مايو ١٩٦٩ قدم للمحاكمة بتهم الفساد والثراء الحرام ولكن اتضح في كثير من التهم انه برىء وسجن بتهم الفساد السياسي . لم يمكث طويلا في المقاومة «وظل الضحى» فدخل في المصالحة الوطنية واصبح وزيرا للمواصلات في حكومة الرئيس نميري ثم رئيسا لهيئة التضامن والسلام . عرف طيلة عهده السياسي بالمثل والاخلاق الطيبة الفاضلة وعفة اليد والنزاهة والامانة .

**احمد عبدالرحمن المهدي :**

● نجل الامام عبد الرحمن المهدي وعم الصادق ومنافسه في خلافة وامامة طائفة الانصار التي لم يعلن عن انتخابها منذ مقتل الامام الهادي المهدي .

اصبح وزيرا للداخلية في حكومة السيد محمد احمد محجوب التي يدعمها اخوه الامام الهادي وذلك رغم قلة تجاربه وصغر سنه مما اثار الكثيرين خاصة من تصريحاته العنيفة المتطرفة التي كانت تظهر في الصحف بسبب وبلا سبب كان اكثرها اثارة التصريح الذي هدد به اعداءه السياسيين والشيوعيين بانه «سيجز الرؤوس اذا ما دعا الامر»؟

في عام ١٩٥٤ قبل حركة تمرد الجنوب الشهيرة بقليل اوفده والده الامام عبدالرحمن المهدي إلى الجنوب مع السيد بوث ديو الزعيم الجنوبي المرموق ورئيس حزب الاحرار الجنوبي وكان ايامها ما زال طالبا . وقد رافقتهما ووقتها كنت سكرتيرا صحفيا لوالده الامام في تلك الرحلة المثيرة التي قمنا بها بطواف شامل على المديريات الجنوبية الثلاث وكان السيد احمد يعقد الندوات السياسية ويثير فيها المواطنين الجنوبيين اثارة شديدة

حتى اننا نجونا باعجوبة في «توريت» من كمين محقق يهدف الى اغتياله واغتيالنا جميعا . كانت حكومة الازهري الوطنية الاولى تراقب تحركاته مع الزعيم الجنوبي بوث ديو وترددت كثيرا في اصدار امر باعتقاله وعندما عدنا إلى مطار الخرطوم قابلنا شقيقه الاكبر السيد يحيى المهدي الذي مات في حادث تصادم بجنيف وبلغني رسالة من الامام المهدي بان احضر فورا وقبل الذهاب إلى منزلي لمقابلته مع ابنه احمد وقد طلب منا ان نتحمل مسئولياتنا وما بدر منا في الجنوب بثبات ورجولة ولكن تشاء الظروف الا تتخذ حكومة الازهري اية اجراء ضد السيد احمد المهدي فانتهى بذلك كل شيء ..

**عمر الحاج موسى:**

كان قائدا لسلاح الاشارة وهو كثير الانتشار كثير المعارف والاصدقاء كثير المعرفة والثقافة يعرف كيف يقوي ويمد حبال الود والثقة مع مجموعات متنافرة متباعدة في المزاج والافكار والسياسة والاسلوب . كان صديقا للختمية والانصار والشيوعيين في آن واحد . كانت علاقته وطيدة ووثيقة باللواء حسن بشير الرجل الثاني في انقلاب نوفمبر وباللواء طلعت فريد المنافس والمناوىء والمضاد له في كل شيء . اصبح وزيرا للثقافة والارشاد في حكومة نميري . مات بعد ساعة من القاء خطاب شعبي «فولكوري» رائع في المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي السوداني في فبراير ١٩٧٩ ترك المرحوم عمر بصمات عديدة مختلفة الوانها في المسرح السياسي السوداني .

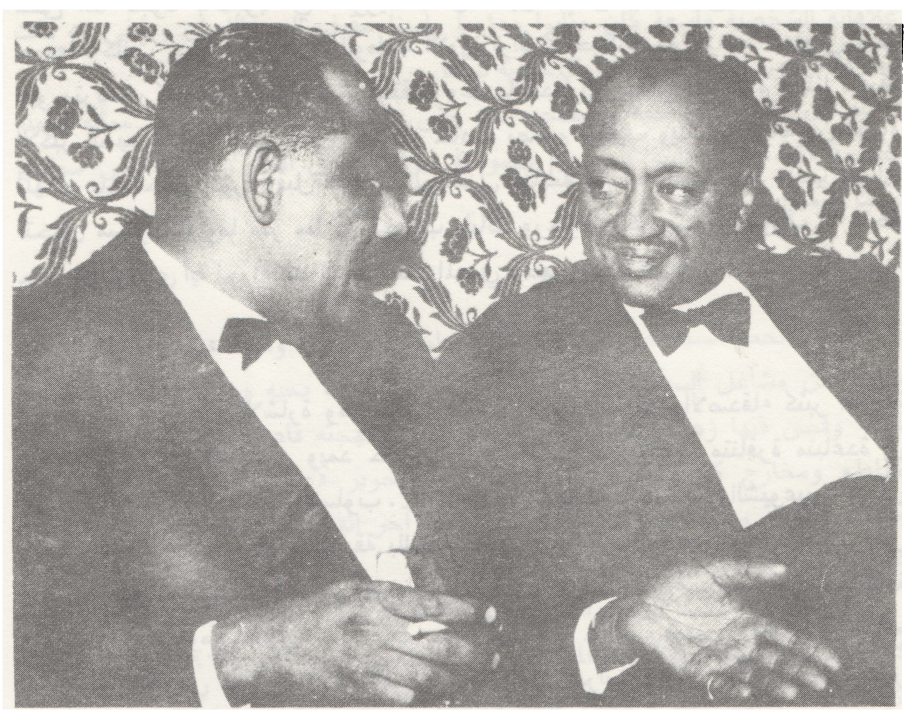
**الدكتور حسن الترابي:**

من قادة الاخوان المسلمين ظهر بوضوح في المسرح في انقلاب اكتوبر ١٩٦٤م عندما اشعل نار الثورة بخطاباته الملتهبة في جامعة الخرطوم التي كانت قلب الثورة النابض بعد تشييع جثمان فقيد الجامعة الطالب القرشي وقد تعرض لاعتقالات متعددة في بداية ثورة مايو ١٩٦٩ ولكنه دخل في المصالحة الوطنية واصبح النائب العام ففقد شريحة من جماعته بالرغم من انه حاول ويحاول في كثير من المناسبات والاجتماعات «المايوية» ان «يفرفر» ولكنها «فرفرة» محدودة لا تصل إلى حد العداء المباشر اذ ان الحريات الكلامية مسموح بها ما دامت داخل اطار الاتحاد الاشتراكي .

ترشح الدكتور الترابي يوم ١٩٦٦/٧/٢٥ لرئاسة الحكومة منافسا للسيد الصادق المهدي فنال ٧ اصوات فصفت له الشرفات .

**الرشيد الطاهر بكر:**

من قادة الاخوان المسلمين لكنه فقد موقعه المميز قبل قيام ثورة مايو ولم يقف طويلا خارج الاضواء والسلطة اذ عين سفيرا في ليبيا ثم قفز عموديا حتى اصبح رئيسا



محمد احمد المحجوب إلى اليمين مع صديقه مبارك زروق كانا يتناقشان في كل شيء تى الاناقة والفطور والابتسامات

للوزراء ووزيرا للخارجية ثم بدأ في العد التنازلي والهبوط عموديا ايضا تمشيا مع مبادىء الثورة بان المناصب ما هي الا اشياء مرحلية وظرفية وانها مهما كبرت او صغرت فهي في سبيل خدمة الثورة والشعب .

**مبارك زروق :**

كان من انجح المحامين السودانيين ذكي خطيب وبرلماني يتنافس على القمة دائما وابدا مع السيد محمد احمد محجوب المحامي . كان وسيما جميلاً وحلوا ينتقي بدله وكرفتاته واحذيته ، حتى مناديله من أشهر المحلات في لندن وباريس محلات (كرستيان ديور واوستن ريد وهردز) كان ارستقراطياً لا يميل إلى تعدد الاصدقاء والشللية والمعارف لدرجة تصل حد الانطوائية وكان اقرب الاصدقاء الى نفسه مولانا الشيخ المرضى والشريف حسين والدكتور حسن عبد اللطيف وشخصي ، ولكنه في دائرة صداقاته الضيقة المحدودة ، فانه يتفانى في وفائه ومودته إلى درجة اسطورية . كان الاكلشيه الثابت الذي وضعته له صحف المعارضة في وصفه هو «الشاب الانيق المعطر» لانه كان انيقا ومعطرا فعلا لكن ذلك في قاموس حياتنا غير مألوف ولا معروف في محيط رجالنا لذلك فهم يعيبون عليه حتى الوسامة . كان خطيبا ساخرا يعرف كيف ينزل الهلع والوجع باعدائه السياسيين .

## زروق وحرية الصحافة :

عندما تعطلت «جريدة الصحافة» للمرة الثالثة في عهد الحكم «العسكري النوفمبري» خلال الثلاث سنوات الاخيرة من عمره في نهاية عام ١٩٦٣ وكان قد مضى على التعطيل سبعة اشهر كاملة واجهت في نهايتها ضائقة مالية لا قدرة لي بها مما اضطرني الى فصل ما يقرب من المائة والعشرين من موظفي الدار على دفعات بعدما عجزت عن الوفاء بالتزاماتي وبديوني المتراكمة لاصحاب المطابع في انجلترا الشيء الذي انتهى وبعد انذارات عديدة لاخطار بنك باركليز وكيلهم في الخرطوم ليقوم نيابة عنهم باستلام جميع المطابع وبيعها بالمزاد العلني او شحنها الى عدن وقد فوضت امريِ إلى الله واسلمت اليه همومي واودعته آلامي وظللت ادعوه دعاء المسلم المظلوم الضعيف المنكسر القلب والخاطر ان يهيىء لي مخرجا وفي امسية لا أنساها ذهبت إلى منزل زروق فعلمت من خادمه انه سافر الى غرب السودان ليترافع في قضية هامة وسيعود خلال ايام. ومضت الايام وعاد زروق وكانت مفاجأة لي ما بعدها من مفاجأة عندما اجتمعنا في داره شيخ المرضى ودكتور حسن عبداللطيف وقد كان طبيبا للاسنان لكنه كان من زهرات المجتمع اليانعات في ميادين الادب والسياسة والشعر والفولكلور والسخرية والزهد والترفع والكرامة وقد رشحه الحزب الوطني الاتحادي يوما إلى عضوية مجلس السيادة فرفض كما رشحه وزيرا للثروة الحيوانية فرفض ايضا.

.. كانت المفاجأة في اجتماعنا ذاك ان اتفاقا قد تم وراء ظهري بان يسافر زروق إلى لندن وهو المحامي والمتحدث اللبق ومن أبرز ان لم يكن في قمة من يتحدثون ويجيدون اللغة الانجليزية حتى يقوم باتصالات مباشرة مع رئيس مجلس ادارة الشركة صاحبة المطابع يتحدث اليه بشأني وعاد وهو يحمل خطابا رقيقا يمنحني فسحة طويلة من الزمن لسداد الديون وبالارباح وقد علمت ان الاستاذ مبارك قد استطاع ان يثير عواطف الانجليز الباردة بانهم وهم سادة الديمقراطية في العالم لا ينبغي ان يساهموا في قتل صحيفة حرة خنقها حكم عسكري جائر.. وكانت المفاجأة الثانية التي اوقفناها في حينها ان الدكتور حسن عبداللطيف قد عرض منزله الوحيد بالحي الارستقراطي في الخرطوم وكان على وشك الاكتمال... عرضه للرهن او البيع كيما يقوم بسداد التزاماتي المالية وحتى يقضي الله امره، ولم تمض على ذلك ايام قليلة حتى عاودت الصحافة الصدور وقامت ولله الحمد بتسديد جميع التزاماتها القديمة في أشهر معدودات وذلك بفضل عطف واقبال القراء عليها اقبالا يتناسب مع مواقفها الوطنية مما جعلها عرضة للتعطيل المتواصل.

مات زروق قبل صديقه وحبيبه الشيخ المرضى بحوالي العام وبالرغم من ارستقراطيته لكن الشعب السوداني كرمه وودعه وداعا يليق بتاريخه السياسي النظيف كما مات الدكتور حسن عبداللطيف في نهاية عام ١٩٦٩ في نيجيريا وهو في بلاد الغربة وجيء

بجثمانه الطاهر إلى الخرطوم حيث ووري وودع ايضا وداعا كريما يليق بتاريخه الناصع .
كان زروق ومحجوب يتنافسان في كل شيء حتى ربطة العنق والعطور والوسامة .

**محمد احمد المرضي :**

● أما صديق العمر والدرب .. نفس الدرب الذي مشى فيه من قبلنا والدانا رحمهما الله فقد عرف بالذكاء الخارق وحبك المقالب والصرامة السياسية وعفة اليد والقلب واللسان كما عرف بالصدق والوفاء .كان سكرتيرا للحزب الوطني الاتحادي لفترة طويلة بعد ان طلق القضاء الشرعي بسبب تطرفه الوطني عرف المرضي بعلاقاته الطيبة مع كل خصومه السياسيين وكان له موضعا ومكانة خاصة عند الرئيس جمال عبدالناصر .
كان من اقوى احبائه وأصدقائه مبارك زروق والشريف حسين الهندي والدكتور حسن عبداللطيف وان كان الكثيرون يجدون في قلب المرضى متسعا لهم ولاصدقائهم معا .

**المرضِي والصادق المهدي :**

من قصص الوفاء الغريبة التي قطعا لا يعرفها غيري انه مرة وعندما احتدم الخصام وباعدت الفرقة بين الصادق المهدي وعمه الامام الهادي واوشك الصادق في ذلك المنحنى الخطير من عمره السياسي ان يمد يده للازهري ويتعاون مع حزبه بعدما يسقط حكومة الائتلاف التي كانت قائمة تحت رعاية عمه الامام الهادي ويرأسها السيد محمد أحمد محجوب مقابل ان يصبح هو رئيس الوزارة التي يدعمها ويباركها الازهري ... في ذلك الجو السياسي المرتجف والمرضى كان سكرتيرا للوطني الاتحادي جاءني يوما يطلب إلي ان احدد له موعدا عاجلا وخاصا مع الصادق المهدي على ان يكون بعد الواحدة صباحا وفي مكان أمين لا تصل اليه اذن ولا تدركه عين وفعلا ابلغت الصادق فاندهش جدا لهذا الطلب وهو لا يكاد يعرف المرضي لكن دهشته ودهشتي ازدادتا معا عندما تم اللقاء في منزل السيد اسحق محمد الخليفة شريف وهو من اسرة المهدي «بالعباسية» وكان في تمام الواحدة والنصف من صباح ١٨ يوليو ١٩٦٦ والصراع انذاك بين الصادق وعمه الامام قد وصل طريقا مسدودا .
قال الشيخ المرضي وقد كان قلقا ومستعجلا كعادته :

«اسمع يا سيد صادق .. الذي اقوم به قد يعتبر نكسة وخيانة ما بعدها خيانة لحياتي السياسية وقد يصدقه ولا يصدقه الناس ، لكنني بعد جهاد ومشاورات مع النفس رأيت غير ذلك واقتنعت بيني وبين نفسي انني لست خائنا وانما اقوم برد جميل كبير طوقني به (ابوك الصديق) في حياته دون ان استطيع رده اليه وهو حي ، فرأيت ان أرده اليه وهو ميت في شخصك انت وانت ابنه ، وابنه الاكبر ووريثه الشرعي ومن حقك ان تأخذ ارث ابيك حتى يرتاح ضميري .

مضى السيد المرضى يحكي ونحن نسمع الذي يقوله وعلى رأسينا طيور الدنيا كلها رغم انه لم يشر ولم يفصل من قريب او بعيد (نوعية الجميل) الذي طوقه به الامام الصديق المهدي والد الصادق ولم أسأله بعد ذلك اطلاقا عن سر هذا الجميل وتفاصيله ... مضى المرضى يقول وفي كلمات موجزة:

(اسمع يا ابني اراك قد خالفت عملك «وكسرت معه القحف».. يعني كسروا الفخارة التي لن يعاد اصلاحها .. واراك قد اوشكت ان تدخل في حلف وتآلف مع حزبنا وانا... انا سكرتير ذلك الحزب أنصحك بالابتعاد عن الازهري فهو خبير ومحنك ومجرب وعنيف في آن واحد، وانت صغير وبلا تجارب ولا اي شيء... والله يا ولدي (اللي حيعملوا فيك الازهري سيكون له جلاجل وسيتفرج عليه القاصي والداني وسيمرمط بك الارض في أول لحظة تتاح له فانصحك للمرة الاخيرة بالابتعاد عنه والرجوع إلى عمك واهلك وطائفتك ولا داعي لخلق المشاكل والخلافات فهذا اضمن وابقى وابرك لك «الا هل بلغت اللهم فاشهد!»

انتهى اللقاء المثير وخرجنا الشيخ المرضى وانا في حوالي الثانية والنصف من ذلك الصباح نفسه ولم يفتح احدنا فمه للآخر بكلمة حتى ادركنا الخرطوم وأنزلت شيخ المرضى في بيته وذهبت لبيتي وكانت تلك الليلة من أطول ليالي عمري!

المدهش حقا ان الصادق رغم احترامه واعجابه بمسلك المرضي لم يستمع للنصيحة الغالية التي كسر بها شيخ المرضي طوقه وفك اسره وبعد ايام من ذلك اللقاء الفريد تم الائتلاف بين الصادق والازهري وشكل الصادق حكومته المؤتلفة بعدما اسقط حكومة عمه ومحجوب.

.. رسم الصادق لمسيرته السياسية خطا واحداً بلا تعاريج ومنذ فجر صباه ظل يسير في خطه المرسوم الذي آمن به دون ان يسمح او يستسلم لاي قوة او ضغط مهما كان نفوذه ومكانة صاحبه ولقد دفع الصادق ثمنا غاليا وباهظا في سبيل ما يؤمن به ولقد ضحى باقرب الاقربين اليه ممن لم يستطيعوا ان يفهموه او يدركوا مقاصده رغم انه حاول وحاول لكنه احس في نهاية الامر ان القوم في واد غير واديه، وديار غير دياره وعالم غير عالمه فتركهم لحالهم ومضى ومضى ومضى.

.. في يوم ٢٤ يوليو ١٩٦٦ كنا آنذاك الشيخ المرضي وانا في لندن نقيم معا في شقة واحدة بعدما هربنا سويا من حرارة الطقس وعنف السياسة وفي مساء يوم جاءنا السفير السوداني جمال محمد احمد مهرولا ليبلغ الشيخ المرضي بانه عين وزيرا للتجارة في حكومة الصادق المهدي الجديدة فكان تعليقه الساخر بأنها ستكون حكومة سياحية للنزهة لن تزيد على الأشهر وأذكر انني قلت للصادق فيما قلت قبيل سفري انني اكره جدا ان اراه يبدأ من القمة! وقد كان أن حدث وبمرارة شديدة وبالحرف الواحد كل الذي توقعه الشيخ المرضي في حديثه ونصائحه للصادق لانها كانت من رجل عاشر الازهري

طول عمره وعايشه سياسيا وحزبيا واجتماعيا واخلاقيا معايشة تجعله في موضع القوي الواثق والعارف عندما يقدم مثل تلك النصائح الغالية ليفك بها قيده ويحل بها دينه. لم يكن المرضي عند حديثه للصادق يستكشف الغيب وانما كان حديث العارف بكل شيء.

مات الشيخ المرضي في اليوم الثاني لانعقاد مؤتمر القمة الافريقي باديس ابابا يوم ٤ نوفمبر ١٩٦٦ ويوم جاء النبأ المفجع للرئيس الازهري أقبل عليه أعضاء وفد السودان والسفارة والاصدقاء والسودانيون المقيمون يعزونه في فقده الغالي وما ان دخلت حتى قام الازهري ليضمني اليه معزيا والتفت نحو جميع الاخوان قائلا لهم: ارجوكم ان تقدموا تعازيكم للاستاذ عبدالرحمن ففقده كذلك عظيم لان الشيخ المرضي كان اخلص اصدقائه وأحب احبائه وما ان تفرق الجمع حتى طلبت من الازهري ان يسمح لي بقطع الرحلة والعودة للخرطوم في مساء نفس اليوم لانوح مع النائحين وابكي صديق عمري وانيس وحشتي ورفيق هنائي وهمومي واوجاعي الذي رحل عني فجأة (بالذبحة الصدرية) دون ان يمكنني من وداعه الاخير. لكن الازهري قال لي وقد اغرورقت عيناه الجامدتان بالدموع ان عودتي للخرطوم تحرجه جدا ويستحسن ان نكمل مهمتنا في المؤتمر الافريقي من أجل وطننا ومن أجل الشيخ المرضي نفسه الذي لن يرضى علينا ان نحن قاطعنا جلسات المؤتمر.

## كيف نبكي زعمائنا ؟

في السودان عندما يموت عزيز قوم او قائد او زعيم فان العادة قد جرت بان تدق الطبول (النحاس) دقات عنيفة تهز الكيان فيتجمع حوله الرجال وهم ينكسون سيوفهم ويحزمون بطونهم وينوحون ويبكون ومن حولهم يلتف الناس في دوائر وحلقات وهم يقفزون بسيوفهم معددين مآثر الفقيد، اما النساء فيدقن (الدنقر) ـ بشد وكسر الدال وكسر القاف ـ وهو عبارة عن (قرع) فخار مجوف نصف دائري يضعنه على «الاطشاط، او طشاطه» مليئة بالماء ويضربنها بالعصي في عنف شديد يمشين في حلقات دائرية متعددة ومتفرقة وقد حزمن بطونهن بالثياب بعد ان يكلن على رؤوسهن الرماد او التراب ثم يبدأن مسيرة النواح في سجع ونغم وبكاء حزين يختمنه بين الفينة والاخرى بصراخ عال كصهيل الجياد وانين النوق بـ(حي ووب).. حي ووب (الليلة انكسر المرق واتشتت الرصاص) والمرق هو الكتلة الرئيسية في سقف المنزل التي تحمل بقية الكتل الخشبية الصغيرة والأصغر واسمها عندنا «الرصاص» ويتناوب النسوة خاصة الطاعنات في السن في تعدد مآثر الفقيد وتستمر مواكب النواح والبكاء والصراخ والتشنج حتى يشيع الجثمان إلى مثواه الاخير وقد يستغرق هذا النواح الساعات الطوال بل قد يمتد إلى الليل كله حسب مكانة الفقيد في اهله وذويه وما ان يوارى الجثمان حتى تبدأ ايام

العزاء التي كثيرا ما تمتد في مثل هذه الحالات إلى عشرة ايام وذلك حتى يتمكن الذين يسكنون في اقاليم السودان المختلفة من القدوم لاداء العزاء وكثيرا ما تقال الخطب والمراثي والاشعار عن الفقيد خاصة في المساء وبعد صلاة المغرب .

هذا كله حدث في وفاة مولانا الشيخ المرضي ومبارك زروق والشريف حسين الهندي كما حدث بصورة اكبر وأعظم عند وفاة الامام المهدي ونجله الصديق من بعده ثم مولانا الميرغني وفي الحالات الاخيرة امتدت ايام العزاء الى الشهر والاربعين يوما بالتمام والكمال وذلك حتى يتمكن المريدون والمحبون المشتتون في جميع ارجاء السودان والذين قد يبلغون مئات الالاف من تقديم عزائهم وولائهم ومبايعتهم للخليفة الجديد وفي مثل هذه الاحداث تنتعش المطاعم والمتاجر بدرجة تغلق معها في مساء مبكر على غير العادة وتزدحم المواصلات والجوامع والشوارع والاسواق .

سردت كل هذه التفاصيل حتى يلم القارىء العربي الكريم بعاداتنا وطبائعنا في مثل هذه الحوادث والكوارث، وحتى تكتمل الصورة انقل فيما يلي فقرات من الرثاء الذي نشرته يوم ١٩٦٦/١١/١٩ في صفحة كاملة من جريدة الصحافة التي ايضا افتقدت في الشيخ المرضي الصديق الوفي والممول الاخباري الثر لصفحاتها الرئيسية والداخلية فكان لا يبخل عليها بالخبر والتعليق مهما تأخر به الليل لذلك فقد بكته المحابر وآلة الطباعة وافران الرصاص وتراقصت كل احرفها وسطورها تنعيه وتبكيه وتودعه وداع الإبدية . كتبت فيما كتبت :

**وافجيعتي فيك يامولانا الشيخ ! !**

«رتبت نفسي وانا اغادر الخرطوم إلى اديس ابابا لحضور مؤتمر القمة ان اسافر بعد نهايته رأسا إلى لندن لاكون بجانب صديقي واخي الشيخ المرضي اقاسمه آلام المرض بقدر ما قاسمني الخبر والدموع والافراح، ولأدعو قدرة الله في خشوع واصرار ان تحنو عليه، وتترفق به فتمسح الدموع والالم عن وجهه الصبوح وصدره الحنون وقامته السمهرية الملائكية .

مضيت أتحسس ما حولي بحثا عن الطائر الذي هاجر وانا اتطاول بعنقي وارهف الاذنين علهما تسمعان لحنا جديدا من الحانه الشجية لكن الصمم قد اصاب الاذنين، فلم اعد اسمع الا وشوشة اغصان ذابلة وصفير هواء بارد يردد الحان فاترة خافتة حزينة فوق هضاب اثيوبيا وجبالها العاليات وتملكني الرعب، واحتوتني رعشة باردة خوفا من ان يكون طائري المهاجر قد أصابه مكروه، أو زلت قدماه من أعلى الغصن فمسه الاذى، لكنني ما حسبت قط انه اذى يصل إلى الصمت الابدي المطبق .

وجاءني صديق في الفندق الاثيوبي ونحن في جمع من رجال الصحافة والقلم، كانوا يموجون في حركة وحيوية لا تعرف للراحة طعما ... جاءني صديقي هذا ليقول لي في

صوت حزين خافت ان الطائر قد وقع وهو يعزف آخر الحان الصفاء والوفاء .

لقد مات اذن . . . مات الشيخ المرضي .

هكذا ثلاث كلمات وضعت افجع نهاية بين عالمنا هذا وبين رجل عظيم عاش لغيره ووهب حياته في سبيل المبدأ والعقيدة والمثل والوفاء وكرامة الانسان . .

لم استطع ان اتمالك نفسي فخرجت إلى بلكونة الحجرة واجهشت بالبكاء واحسست بان الحاجز الذي فصل بيني وبين مولانا يفوق الجبال التي اواجهها طولا وعرضا وقوة ولا سبيل لأسير كسير حزين مفجوع مثلي ان يقوى على مصارعة الحواجز خاصة ان كانت من صنع الله القوي الجبار وازددت ضعفا وانا اواجه الحقيقة المفجعة فأحسست بحاجتي إلى مزيد من البكاء فبكيت . . وبكيت . . وبكيت . . . ثم رفعت وجههي وتطلعت إلى الفضاء فاذا بقمم الجبال تغطيها سحب سوداء داكنة تتلوى تحتها كأنها ترقص رقصات الموت :

« يا ايتها السحب السوداء . . يا مياه الله التي تعوم فوق قمم الجبال الشاهقات . . ايتها الأرض المخضرة . . . أيتها النسمات الحلوة . . . يا أصواتا لا تكف عن الضحك ، عن الغناء . . يا رجالاً في كل مكان ، يا حسناوات اثيوبيا ، يا كؤوسا مترعات فارغة تتعانق في وسط الليل . . ايتها الطبول التي تئن وترن . . . يا راقصات السامبا . . . يا أفاعي تتلوى يا اوتارا تنتحب في غير ما توقف .

« قفوا أرجوكم وكفوا عن الضجيج ، وودعوا عوالم المسرة ولو للحظة صغيرة قصيرة ، فقد وقع الطائر الذي جاءكم في العام الماضي وهو يصدح في قصور سبط يهوذا داعيا للمحبة والحياة والسلام ! مضيت ابكي وابكي وقمم الجبال امامي ما زالت تتلوى تحت السحب الزرقاء وهي ترقص في عنف وتصرخ في عنف وتهطل في عنف وتثور في عنف كان كل شيء حولي يصرخ ويتلوى ويبكي ويولول حتى العمارات والمقاعد والشوارع ووجوه الناس والعربات . دفنت رأسي في يدي وحجبت وجهي عن الكون والحياة وبدأت صور مولانا تتحرك امامي في شريط سريع فرأيته وهو يدخل علي كعادته في مكتبي ويجلس على الاريكة ويضع عمامته على المائدة ثم يخلع نعليه ويرقد دون ان يحدثني حتى اذا ما اكملت عملي ذهبنا سويا الى داره او داري .

كان ذلك بعد ان خرج من معتقل جوبا الضيق المحصور ليواجه معتقلا كبيرا عريضا كله حرب ومطاردة ، قال لي يوما : « بصراحة يا عبدالرحمن هل تخشى زيارتي لك في الدار ؟ » قلت له لماذا يامولانا ؟ قال :

« والله ما عارف لكن بعض الاصدقاء بدأوا يتضايقون من زياراتي خوفا من (العساكر ) . وبعد ايام من حديثه هذا عطلت الصحافة لاجل غير مسمى فجاءني في منتصف النهار وهو يضحك فدهشت لأمره ، لكنه سرعان ما قال :

« اوعك يا سجم تكون زعلان من التعطيل ؟ دا شرف كبير ليك . . . ما هو اذا ما كل

واحد دفع ضريبة، الجماعة ديل (حيستمرأوا) المسألة» وضحك مولانا، وضحكت معه فبادرني سائلا: انا عارف بضحك ليه، انت البضحكك شنو؟ قلت له: بضحك عشانك. قال: «لكن تعرف انا بضحك عشان شنو؟ عشان بعد دا ما في خوف عليك مني. لاننا خلاص ركبنا في سرج واحد فاضل بس اخونا حسن عبداللطيف حنتحول عليه لغاية ما يعطلوا عيادته!! ومضى مولانا يضحك وقد انطفأت النار في داره قبل يومين!

مضى يضحك وهو محارب في رزقه ومطارد في خطواته يحصون أنفاسه ويتابعون حركاته فلم يلن ولم يجبن ولم يستسلم فقد كان بينه وبين الرضا والنعيم خطوة او خطوتين ولكن مولانا آثر حياة التضحية وواجه خصومه في عناد واصرار ووقف من أجل الديمقراطية وكرامة الانسان كالطود الشامخ ومضى في طريقه الطويل الشاق المليء بالأشواك والصخور والعقبات... مضى يسير باصرار وعزيمة دون ان يتأثر بجروح قدميه... مضى في دربه يغشى المنتديات والاصدقاء ليوقظ في نفوسهم الثورة ويبعث في صفوفهم الامل الكبير، مضى وهو يحمل راية العناد والايمان والدعوة السافرة لمحاربة الحكم العسكري الجبار.

مضى وهو يقسم لكل عدو وصديق في المنتديات.. في حفلات الأفراح في بيوت المآتم الا مكان لحكم العساكر ان نحن وحدنا الصفوف وشددنا الخناصر وعقدنا العزائم، مضى يقول ويردد في كل لحظة:

«الجماعة رايحين رايحين!»

ومضى يمشي في دربه الطويل رغم كل الصعاب حتى استجابت السماء لدعوته وامانيه ورأى بعينيه نور الله وهو ينبعث دافئا من شمس ثورة اكتوبر ليبدد بها الظلام الذي خيم على سمائنا ونفوسنا لستة اعوام عجاف طوال «وراح العساكر»!!

.. قبل تشكيل الحكومة الحاضرة احس مولانا ببعض الضيق فصحبته إلى القاهرة، ثم إلى لندن ونصحه الاطباء بصراحة ان يستريح ويعتزل السياسة وتحدثت معه طويلا فكان يرد بسخرية علي وعلى نصائح الاطباء وفي ابتسامته المعهودة قائلا: «انتو قايلين انا ماشي أموت ليكم بي هين... دي طرطشة ساكت منكم!»

.. سافر مولانا في رحلة طويلة بلا عودة ومضى إلى ربه راضيا مرضيا وان اختطفته منا يدر القدر فان عزاءنا فيه انه ترك من ورائه ذخيرة ضخمة من الأصدقاء والاخوان والاحباب الذين سيحملون راية كفاحة وجهاده واخلاصه ووفائه ويمضون في نفس الطريق وهم يرددون اغانيه واناشيده، فكم هي كثيرة وكم هي شجية، وكم هي حلوة وعذبة.

.. وداعا ايها الطائر الذي هاجر إلى السماء... وداعا ايها الصديق الحبيب البعيد القريب إلى كل نفس.. يامولانا:

«وافجيعتي فيك... واحسرتي عليك فعلى الرغم من انك هجرتني بلا وداع، فانك

ستظل ابدا اقرب إلي من كل قريب، واحب الي من كل عزيز فستظل روحك ابدا مشعلا للطريق تبدد لنا ظلام النفوس والعقول.

وداعا يامولانا..

يا أخلص الاصدقاء واوفى الاوفياء.

وداعا وعما قريب سنلتقي!!»

## الشيخ محمد احمد المرضي يروي لمحات من تاريخ الكفاح السوداني

تحدث الاستاذ محمد احمد المرضي عن الملامح الرئيسية للتاريخ السوداني وقصة كفاحه من اجل الاستقلال: وشخصية الاستاذ المرضي تبعث على حب واحترام كل من حوله... فهو رجل غاية في التواضع، يضيق بالدعاية لشخصه ولا يحب المظاهر.. في حديثه عذوبة تنم عن كثير من الثقة بالنفس وكل من اقترب منه ويتحدث اليه. يحس بحيوية الرجل الذي ناهز الستين عاما وصفاء ذهنه، وكثيرا ما يشترك في احاديث متعددة مع الجالسين معه... والاستاذ محمد احمد المرضي يشغل منصب سكرتير عام الحزب الوطني الاتحادي.. وهو وزير التجارة والصناعة والتموين والتعاون في الوزارة السودانية.

ليس من السهل ان اتحدث عن الحركة الوطنية في السودان حديثا تاريخيا وافيا في مقال... انما سأحاول ان اضع بين يدي القارىء موجزاً قد يمكنه من معرفة المعالم البارزة في تاريخ هذه الحركة.

يعتبر عام ١٨٩٨ عندما انتصر اللورد كتشنر في معركة كرري بامدرمان على القوات السودانية بقيادة الخليفة عبدالله، بداية العهد الاستعماري في السودان، وبالرغم من ان ذلك الحكم كان يسمى بالحكم الثنائي ـ الانجليزي المصري ـ الا انه كان في واقعه انجليزيا صميما ولم تكن مصر الا مجرد رمز يمثله بصفة موظفين مصريين يمثلون مناصب صغيرة ليست بذات اثر في الحكم وكان حاكم السودان العام وسردار الجيش المصري ـ وهذا لقبه الرسمي ـ انجليزيا ترشحه انجلترا ويعينه خديو مصر! كما كان كل معاونيه الكبار من الانجليز، كما كان كل حكام المديريات والمراكز من الانجليز.

ولما كانت الناحية الدينية هي الطاغية على مشاعر وتفكير السودانيين آنذاك، فقد كانت مقاومة هذا الاستعمار الوافد تلبس مسوح الدين ولهذا ظهر اكثر من شخص في

مختلف انحاء البلاد يقودون ثورات محلية باسم الدين ومحاربة الحكام «الكفرة» ولما كان الصراع غير متكافىء لان هؤلاء الثوار ليست لديهم اسلحة حديثة فقد كانت قوات الحكام تدمر هذه الثورات في عنف وتنصب المشانق في الميادين العامة تشنق قادتها والمشتركين فيها امعانا في ارهاب المواطنين .

وعندما انشأ الانجليز كلية غردون التذكارية في الخرطوم بهدف مد مكاتب الحكومة بالموظفين الذين توكل اليهم صغائر الاعمال المكتبية اخذ جيل جديد من المتعلمين يبرز من المجتمع السوداني يحمل بعض معالم الحضارة الحديثة ويتحدث اللغة الانجليزية بجانب لغته العربية ، ويتصل عن طريق هذه اللغة الجديدة بمصادر غير العربية لتفهم الحياة من حوله في العالم الخارجي واخذ هذا الجيل يعنى بتثقيف نفسه ، وبدأ يحس شيئاً فشيئاً بمسئوليته الوطنية رغم قلة عدده .

## سعد زغلول واثره على السودان

وعندما نشبت الثورة المصرية في اعقاب الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٩ وخرجت جموع المصريين تدافع عن زعيمها سعد زغلول التقت هذه الفئة المتعلمة في السودان بكل مشاعرها مع الثورة المصرية وتتبعت سعدا وصحبه في السجن والمنفى وبهرتها ثورة الشعب المصري على الاستعمار البريطاني في تلك الفترة ، وكانت صيحة الشعب المصري في ثورته الابيه تلك تنادي بطرد المستعمرين من وادي النيل كله ، مصر والسودان وكان هذا النداء يجد تجاوبا صادقا مع مشاعر السودانيين آنذاك وخاصة الفئة الواعية المتعلمة .

وتجاوبا مع هذه المشاعر الوطنية التي كانت تغلي في مصر ظهرت الجمعية السرية لاول مرة في تاريخ السودان ، تعد العدة في الخفاء وتهيىء الاذهان لثورة مماثلة تتفاعل مع ثورة الشعب المصري لطرد الاستعمار الانجليزي من وادي النيل .

نشأت اولا جمعية الاتحاد السوداني السرية بالعاصمة السودانية ، وامتدت إلى بعض الاقاليم ، وكان من ابرز اعمالها ان قامت بتهريب بعض الطلبة السودانيين إلى القاهرة لينالوا المزيد من التعليم في معاهدها وكان الانجليز يحرمون على السودانيين تلقي العلم في مصر ، ومن يفعل ذلك يمنع من العودة للسودان مرة اخرى ولا يسمح لاي من افراد اسرته ان يرسل له اي قدر من العون المادي .

وفي عام ١٩٢٤ ، عندما اشتد الصراع بين الشعب المصري بقيادة سعد زغلول وبين الانجليز ، أخذ الانجليز يدبرون لفصل السودان عن مصر والانفراد بحكمه كأوصياء عليه حتى يبلغ رشده واستغلوا بعض السودانيين الموالين لهم لكي يوقعوا على عرائض تطالب بانفراد الانجليز بالوصاية على السودان ، وفي هذا الجو نشأت «جمعية اللواء الابيض» السرية برئاسة الضابط السوداني علي عبداللطيف ، وكان قد سبق ان حوكم

بالسجن والتجريد من وظيفته في الجيش لقيامه باعمال ضد الحكم الانجليزي .

ولما رأت هذه الجمعية ان الحركة الانجليزية الرامية للانفراد بحكم السودان تسير في قوة تحت رعاية الانجليز، ولما سمع اعضاء الجمعية تصريح السيد مكونالد رئيس الوزارة البريطانية في مجلس العموم البريطاني والذي قال فيه: «ان ٩٠٪ من السودانيين ينادون بالوصاية البريطانية وحدها عليهم» ثارت ثائرتهم وقرروا الخروج في سلسلة من المظاهرات الصاخبة ضد الوصاية البريطانية وتضامنا مع شعب مصر في ثورته لطرد الاستعمار عن وادي النيل .

وخرجت المظاهرات هادرة تجوب شوارع الخرطوم والعواصم الاخرى وامتلأت السجون حتى فاضت - وقتل السير لي ستاك حاكم السودان وسردار الجيش المصري في القاهرة - وانتهزت بريطانيا الفرصة لتنفيذ مخططاتها الاستعمارية في السودان فامرت بطرد الجيش المصري في السودان في مدى اربع وعشرين ساعة، وكذلك طرد سائر الموظفين المصريين وضاعف هذا من حدة الثورة في السودان حتى شملت قطاعات من الجنود والضباط السودانيين فثاروا ضد القرار، وحدثت تلك الملحمة المشهورة في شوارع الخرطوم بين قوة من الجنود السودانيين بقيادة خمسة من الضباط الشجعان ابادوا فيها عددا ضخما من الجنود والضباط الانجليز عندما تصدوا لهم ليحولوا بينهم وبين الاتصال بالقوات المصرية التي كانت تتأهب للتحرك صوب القاهرة، واعدم الضباط الخمسة رميا بالرصاص فيما بعد وكان من بينهم الضابط علي البنا الذي استبدل الحكم عليه في اللحظات الاخيرة إلى السجن والنفي لجنوب السودان .

## نار الثورة لا تخمد

ولم تستطع انجلترا عقب ثورة الشعب السوداني عام ١٩٢٤ ان تردد القول بان ٩٠٪ من السودانيين يريدون انفرادها بالوصاية عليهم فقد كانت كل الصحف العالمية الكبرى قد نشرت انباء ثورة السودان على الحكم الانجليزي، بما في ذلك الصحف الانجليزية نفسها .

واستطاع الانجليز عن طريق الكبت والارهاب والتنكيل بالاحرار ان يخمدوا الثورة الى حين . وصبوا جام سخطهم على المتعلمين . ووضعوهم تحت الرقابة الشديدة وصاروا يأخذون اكثرهم بالشبهات والظنون ويحاكمونهم في قسوة حتى يخيفوهم .. وظل هؤلاء يعملون في الخفاء لتنظيم صفوفهم وتهيئة انفسهم للمعركة التالية واستطاعوا في عام ١٩٣٨ ان يخرجوا بفكرة مؤتمر تنظيمية جديدة باسم «مؤتمر الخريجين العام» مهتدين بتجربة الهند في «حزب المؤتمر».

وكانت عضوية مؤتمر الخريجين بادىء ذي بدء مقصورة على المتعلمين وحدهم وسمع الانجليز بقيام المؤتمر بامل ان يكون اداة طيعة في ايديهم ولايجاد مجال لتنفس فيه الحركة الوطنية خوفا من انفجار عام ١٩٢٤ .

وسار المؤتمر وئيدا ، يجمع الشعب حوله ، ويتحسس طريقه في حذر ، واوشكت الحرب العالمية الثانية ان تضع اوزارها ، وتهيأت الشعوب المغلوبة على امرها لكي تسترد حريتها وكرامتها ، وتدارس اعضاء مؤتمر الخريجين امر بلادهم على ضوء الاحداث العالمية ، وكان ان قدموا مذكرة لحاكم السودان العام يطالبون فيها بحق تقرير المصير وبقيام مجلس تمثيلي في الحال . وجن جنون الانجليز وردوا مذكرة المؤتمر على اعقابها ومن هنا بدأت المعركة السافرة بين المؤتمر ومن خلفه الشعب السوداني وبين الانجليز . وظهر الصراع في صور شتى حتى قضي على الاستعمار . بدأ الصراع عندما اراد الانجليز ان يتقدموا خطوة للالتقاء مع السودانيين بعد ان احسوا بطلائع الثورة فاعلنوا عن قيام مجلس استشاري لشمال السودان وحده دون الجنوب وكان هذا اعلانا وتأكيدا واضحا لسياستهم التي ترمي لفصل الجنوب عن الشمال ـ وهي السياسة التي ما زلنا نعاني منها حتى الآن ـ واعلن المؤتمر بدوره مقاطعة المجلس الاستشاري وقرر فصل اي شخص من عضويته يشترك في هذا المجلس الاستشاري ، وكان من اثر هذا القرار ان استقال من عضوية المجلس كل اعضاء المؤتمر الذين اختارتهم له الحكومة ، فكانت ضربة قاضية عجلت بنهايته .

## نشأة الاحزاب السياسية

وكان لابد تحت تأثير اصطراع الآراء والاتجاهات السياسية في السودان ان تنشأ بينها احزاب سياسية تمثل فيها هذه الاتجاهات ، ومن داخل المؤتمر خرجت الاحزاب السياسية الجديدة ، تدعو لمبادئها وتعمل وفق مخططاتها . كان هناك حزبان رئيسيان ـ حزب الاشقاء الذي يرأسه السيد اسماعيل الازهري ـ وكان يرى وجوب الاتحاد مع مصر لتوحيد كفاح الشعبين ضد الاستعمار الانجليزي ـ وقد حمل هذا الحزب اعباء الكفاح الثوري ضد الانجليز في السودان . وحزب الامة الذي كان ينادي باستقلال السودان ويتخذ من مهادنة الانجليز وسيلة للحصول على هذا الاستقلال شيئاً فشيئاً .

ولهذا عندما اراد الانجليز انشاء مجلس تشريعي في السودان على انقاض المجلس الاستشاري الفاشل ، تقدم حزب الامة للتعاون مع الحكومة على قيام هذا المجلس بهدف تطويره حتى يبلغ السودان مرحلة الحكم الذاتي .

ووقف حزب الاشقاء ومعه الاحزاب الاخرى التي كانت تقف في صلابة ضد الاستعمار الانجليزي ـ ضد هذه الجمعية منادين بتحرير البلاد من الانجليز ، وهبت

معهم جماهير الشعب من المؤيدين لهم يعقدون السياسية لنشر الوعي الوطني، ويخرجون المظاهرات الصاخبة المنادية بسقوط الاستعمار، وامتلأت السجون حتى فاضت وعلى رأسهم السيد اسماعيل الازهري وعدد كبير من القادة الوطنيين والمثقفين ومن عامة الشعب. ولم تبق مدينة او قرية في السودان لم تشترك في تلك الثورة العارمة. وفقد المستعمرون وعيهم، فامروا باطلاق الرصاص على المتظاهرين بعد ان فشلت الوسائل العادية من الهراوات والقنابل المسيلة للدموع في تفريقها واستشهد عدد من المواطنين في المعركة الوطنية المحتدمة، فكان استشهادهم حافزا قويا آخر لكي يشتد السخط على الانجليز ويندفع الشعب اكثر في محاربتهم تحت قيادة حزب الاشقاء.

ولم تضع المعركة اوزارها، بل اخذت تزداد حدة وضرامة وانتقلت من داخل السودان إلى النطاق العالمي اذ خرج قادة المعركة إلى الميادين العالمية ينددون بالاستعمار البريطاني في السودان ويصدرون النشرات والكتب ضده، وينشرون الاحاديث التي تكشف عن سيئاته واخطاره في الصحف ووكالات الانباء واينما وجدوا الفرصة ووقف الشعبان السوداني والمصري، في هذه المعركة موقفا موحدا صلبا ضد هذا الاستعمار البريطاني.

## الاثر الخالد لثورة ٥٢ المصرية

وفي عام ١٩٥٢ حدث ذلك الانفجار الثوري الذي هز العالم كله عندما هب جيش مصر بقيادة ابنائه البررة يزيل عهد الطغيان والفساد، ويقيم عهدا جديدا يرد إلى الشعب الشقيق عزته وكرامته.

وكان الانجليز، قبل هذه الثورة ، يجدون منطقهم في المحافل الدولية مقبولا، عندما يقولون اننا نريد لشعب السودان ان يقرر مصيره وحده وبمحض رغبته ـ اتحادا مع مصر او استقلالا ـ ولا نقبل ان تفرض عليه وحدة وادي النيل كما كان يطالب ساسة مصر آنذاك.

ودخلت الحركة الوطنية السودانية عهدا جديدا بعد ثورة مصر، اذ قرر قادة الثورة ان يقارعوا المستعمرين بنفس حجتهم ويقطعوا عليهم الطريق الذي عبدوه بمنطق مقبول لاطالة عهد بقائهم في السودان فاعلنوا انهم يقبلون هذه الحجة، ويوافقون على ان يقرر السودان مصيره وحده بعد ان يخرج منه الانجليز والمصريون في فترة معينة، وكان ان تم الاتفاق المعروف الذي قرر فيه الانجليز والمصريون الخروج من السودان بعد ثلاث سنوات من توقيع الاتفاقية وبعد قيام انتخابات عامة تقوم على اثرها حكومة سودانية تتولى تنفيذ الاتفاقية وتعمل لاستفتاء عام يعلن فيه السودان قراره بشأن مستقبله، في نهاية السنوات الثلاث وانضمت الاحزاب الاتحادية المختلفة وعلى رأسها

حزب الاشقاء ـ تحت لواء حزب واحد وهو الحزب الوطني الاتحادي ـ واختير لرئاسته السيد اسماعيل الازهري الذي قاد المعركة ضد الاستعمار بصلابة وقوة سجن خلالها اكثر من مرة .

وبالرغم من ان الانتخابات الاولى جرت في ظل العهد الانجليزي وانهم كانوا يسيطرون على كل اجهزة الحكم الا ان القوى الوطنية استطاعت ان تنتصر عليه اذ اعطى الشعب ثقته للحزب الوطني الاتحادي فجاء باغلبية برلمانية مكنته من الحكم منفردا ، وتولى رئاسة اول حكومة وطنية السيد اسماعيل الازهري وكان لي شرف الاشتراك فيها وزيرا للحكومات المحلية . وبدأنا معركة اخرى لاتقل عنفا وضراوة عن سابقتيها ، معركة تصفية الحكم في السودان من كل الموظفين الانجليز والنفوذ الانجليزي ، وبالرغم من انه ـ بحكم الاتفاقية ـ كان مقررا ان يتم اجلاء القوات والموظفين الاجانب في مدى ثلاث سنوات الا ان حكومة الوطني الاتحادي استطاعت ان تنجز هذه المهمة القاسية في مدى عامين فقط رغم الصعوبات العديدة التي وضعها الانجليز محاولين بها الابقاء على ادارتهم ونفوذهم إلى اطول مدى يستطيعونه . .

لقد قلت في مستهل هذه الكلمة انه من العسير جدا ان اتحدث حديثا وافيا عن تاريخ الحركة الوطنية في السودان لان المجال لا يتسع لذلك وارجو ان اكون قد وفقت في اعطاء فكرة عامة لهذه المرحلة من تاريخ السودان .

## مات عبدالله خليل

مات عبدالله خليل أحد ابطال ثورة ١٩٢٤ وسكرتير عام حزب الامة ورئيس الوزراء السوداني الاسبق . . مات فقيراً ومعدما •كغيره من عظمائنا بيته مرهون وحساباته في البنوك ثلاثة أرقام « حمراء » .

من الاشياء التي لفتت نظري واستوقفتني كثيرا وانا اقلب واراجع في آخر عدد في الصحافة قبل التأميم والذي صدر صباح الاربعاء ٢٦ اغسطس ١٩٧٠ رثائي السيد عبدالله خليل الذي لاقى ربه يوم الاحد ٢٤ اغسطس ١٩٧٠ والذي كان لي نعم الاب والمربي والموجه والمرشد كيف لا وقد حضر يوم مولدي وظل يرعاني ويحنو علي حتى وفاته .

كان مولدي بامدرمان في حوش جدي لامي (علي ودسالة) المعروف (بحوش البقر) والذي يقع في منتصف المسافة بين منزلي عمي الشيخ الطاهر الشبلي رحمه الله وعبدالله خليل من الجهة الشمالية وعمي محجوب عثمان رحمه الله والد عثمان وعبدالخالق واخوانهما من الجهة الجنوبية .كان جدي ذاك من رفقاء المهدي وامام جامعة في الجزيرة أبا حتى لقي ربه وهو شقيق (يمه بت حاج) زوجة المهدي الاولى التي خلفت السيدة ام



إهداء إلى ابني الوفي عبدالرحمن مختار
عبدالله خليل ١٩٥٧/٥/٢٣

كلثوم فعائشة زين العابدين حسين شريف واخوانه واخوته وبينهم احدى زوجات الامام الصديق وقد ترعرع وتربى في هذا البيت عدد من آل المهدي ثم سطا عليه المرحوم زوج خالتي وباع بالنيابة عن الجميع متره بمليمين للسيد محمد الخليفة شريف ثم الى الجبلابي وكانت مساحته حوالي الثلاثة آلاف متر. كنت انذاك في السادسة عشرة من عمري ولما سمع الامام عبدالرحمن المهدي الذي اطلق عليَّ اسمه يوم مولدي بهذه الواقعة لام عليها السيد محمد وأخذ وعدا حرا منه بان يبقي احفاد (على ودسالة) ويعني امي وخالاتي وأبناءهما وبناتهما في هذا المنزل حتى يقضي الله امره وفعلا استمر بنا المقام في منزلنا المباع دون اجر ولا مقابل حتى هدَّته الامطار فوق رؤوسنا وبدأت بعد ذلك رحلة جديدة في عمري ... انتقلت بعدها لبري المحس مع اخواني لابي.

انطلاقا من هذا التاريخ النر البعيد لعلاقاتي بالمرحوم العظيم والدي عبدالله خليل الذي اعطى لبلده كل شيء ولم يأخذ منها شيئاً على الاطلاق كان رثائي له في آخر عدد بجريدة الصحافة صباح يوم الاربعاء ٢٦ أغسطس ١٩٧٠ كأنما ارادت روحه لي ان اودع كذلك صحيفتي إلى الابد فماتت بموته وخنقها النميري بقرار التأميم يوم ٢٧ اغسطس.

● عزيزي القارىء

عاش عبدالله خليل حياته كلها للناس، كانت رحلته عامرة بالاخاء والوفاء والحنان، كان جنديا داخل الجيش وخارج الجيش فتطبع به وبنظمه وشرب من تعاليمه السامية،

ومفاهيمه العظيمة كل معاني الصبر والنظام والشجاعة والامانة والوفاء . كان رحمة الله نظيفا في صداقاته وخصوماته يحترم الجميع ويثق بالجميع ويحب الجميع .

امتلأ قلبه الكبير بالعطف والحنان والكرم فكان يقتطع اللقمة من افواه صغاره ليطعم بها المحتاجين والجائعين وكانت داره العامرة ابدا ملاذا لاصحاب الحاجة وملجأ للمساكين ، ومنتدى لا يفرغ ولا ينفض للاصدقاء والاعداء معا .

وامس مات عبدالله خليل فقيرا لا يملك قوت يومه .. بيته مرهون لدعم الاصدقاء والاحباب ، ورصيده كله ذهب للناس وفوق ذمته ديون وديون ومع ذلك فقد ترك وراءه ثروة من التعاليم والمثل والاخلاق وهي وحدها الباقية الخالدة .

رحم الله عبدالله خليل الجندي العظيم الذي راح شهيدا للاخاء والوفاء والكرم .

**عبدالرحمن مختار**

## إلى متى يظل مقعدك خالياً

**رحم الله مبارك زروق :**

.. من حقك علي والصحافة تعاود الصدور اليوم ان اكتب عنك كلمة بعدما ذرفت عليك بالامس دموع اللوعة والحرقة والفراق .

.. ومن حقك اليوم على قلمي ان يرثيك ويبكيك هو الآخر بقطرات يعتصرها من جوفه واطرافه بعد ان لانت اليوم من جفاف طويل .

.. ومن حقك على (الصحافة) وهي تطالع اليوم الآلاف العديدة من اصدقائك واخوانك ومواطنيك ان تشاركهم مشاعر الحزن بفقدك الاليم وتسوق اليهم الذكريات ، وتعيد عليهم مآثر مهما ظهرت جوانب منها ، فان ما اخفيته في صدرك وبين ضلوعك اكثر واكبر مما ذكر ... أوليس من حقك على صاحب الصحافة اليوم ان يفي دينا في عنقه فيستميحك المعذرة وهو يفضي بسر من مآثرك لا ينبغي ان يظل دفينا ، ولا يليق ان يمضي في بطون الارض لتنهال عليه حبات الحصا وذرات التراب فيصبح نسيا منسيا ..؟

.. ان المآثر الكريمة مهما اراد لها صاحبها ان تظل حبيسة في صدره قابعة بين جدران قبره فلا بد لها يوما من ان تثور على الستر ، وتتمرد على الكتمان وتمل الصمت الموحش فتنبت على سطح الارض زهرات جميلات يفوح اريجها العطر ليداعب الجفون الحزينة ويريح الانفاس اللاهثة الباكية .

..لا اريد بهذا ان اعيد سيرتك فهي غنية تفيض بالخير والنعم وقد ظهرت آثارها ومعانيها في الصحف وفي الطبيعة المزمجرة ، وفي صفير الرياح وفي دموع الرجال ونواح

الصبية وصيحات النسوة التي تشق السماء لما مضيت في يوم عاصف وهن يلطمن الخدود ويهلن فوق رؤوسهن الرماد ويولون رائحات غاديات وهن ينحن «بحى ووبات» تفتت الأكباد وتهز المشاعر حزنا عميقا على فراق عزيز لا لقاء بعده ! ؟

.. لا اريد شيئاً من هذا، وانما اردت فقط ان افي دينا في عنقي طوقني به مبارك ـ هذا الصديق الوفي الذي ظل يزن معاني الوفاء والصداقة بمعاييره الذهبية الخالصة وفلسفته المعروفة فيترجم هذه المعاني في صمت وهدوء وابتسامة دون ان يثير من حولها وحول نفسه ضجيج التبجح والافتعال فتظل آثاره تحمل من هذه المعاني والقيم ما يبقى راسخا في القلوب والعقول معا .

... في يوم مرير وما أكثر ايامنا المريرة آنذاك وفي اثناء تعطيل الصحافة الثاني تسلمت خطابا من مدير شركة المطابع ينهي فيه إليَّ عزم الشركة على استرداد المطابع بعدما صدر الامر إلى بنك الباركليز ليبدأ الاجراءات .

.. كنا آنذاك في منتصف المحنة العسكرية التي عانى منها مبارك واخوان مبارك وامثال مبارك... عانوا منها في صمت وبلا ضجة ولا شكوى.. لم اجد مناصا من ان اسلك الطريق إلى «مبارك» عله يوقف الكارثة فظل يقرأ الخطاب وهو يردد قوله :

دي مصيبة دي ... ديل مجرمين يا اخي «وكان يقصد العساكر»!

.. وتركت امري اليه كما طلب، ووليت وجهي إلى صديق عزيز آخر هو السيد محمد احمد محجوب الذي سخر مكتبه في خدمتي وساهم في ايقاف الكارثة .

.. وسافر مبارك إلى اثينا في عمل من اعماله ثم توجه إلى لندن دون علمي لا لشيء الا ليقابل مديري الشركة هناك لانه رأى وقد تحرج موقف صديق له الا سبيل الا لاقناعهم بالعدول عن فكرة الاستيلاء او البيع واستطاع مبارك بذلك ان يوقف بيديه سقف دار الصحافة قبل ان ينهد على رؤوسنا .

.. وعاد مبارك بعدما انجح مهمته وهو يحمل حلا نهائيا بان اقوم بدفع الف وستين جنيها عبارة عن ارباح للمبالغ المعطلة خلال السبعة اشهر التي عجزت عن سدادها ..

.. ولم يكتف مبارك بهذا وهو العليم بحالي آنذاك ولكنه بدأ محاولة لجمع هذا المبلغ.. كان يفعل ذلك في صمت كعادته وبلا مشورة ولكنه قبل ان يكمل محاولته علمت بامرها من صديق فرجوته ان يوقفها فقبل في صمت ايضا ..

قال لي مبارك رحمه الله قبل عشرة ايام من تعطيل الصحافة الاخير «انهم يتعقبونك بعنف ويحصون انفاسك على الرغم مما رواه عنك محجوب داخل مجلس الوزراء... وعلى الرغم من شهادتنا في لجنة التطهير والمجلس بما عانته «الصحافة» من ظلم واجحاف وتعطيل وتشريد ابان الحكم العسكري».

ومضى مبارك يقول :

.. انهم جميعا يعلمون بقصة «الصحافة» في العهد العسكري والدور الكبير الذي لعبته

في ثورة ٢١ اكتوبر ... ولكن كل هذا لم يغفر لك فهم مازالوا يبيتون لك امرا !

وقال لي بدعابته الحلوة ولعله اراد ان يخفف عليَّ وقع ما قال :

ياخوي احسن تبل رأسك ! !

وكان مبارك رحمه الله يردد بين كل عبارة واخرى عندما كنا نتحدث في مجالسنا الخاصة آنذاك في السياسة .. كان يقول :

والله الحالة صعبة خلاص ... بس ربك يستر ! !

قلت له مرة :

وكيف تطيقها يا مبارك ! ؟

قال :

اهو .. لكن والله حالة تقصف عمر الواحد ! !

ولم يمض على قوله هذا سوى اسابيع حتى خر مبارك شهيدا في ميدان المعركة وانطفأت ابتسامته الحلوة وغابت عن اعيننا قامته السمهرية ، وانقطعت عن حلقاتنا احاديثه العذبة وجاور ربه تاركا مقاعده بيننا ابدا خالية .

... لقد بارح مبارك دنيانا الضيقة الفانية في رحلة طويلة بعيدة بلا عودة ولكن مقاعده العديدة ستظل خالية من جسده ، ممتلئة بروحه وابتسامته .. وستظل مآثره العديدة الظاهر منها والمستتر ابدا مضيئة ، ابدا حية ، فان المآثر مهما اراد لها صاحبها ان تظل مطوية في صدره ، قابعة بين جدران قبره فلا بد لها يوما من ان تمزق الستر ، وتتمرد على الكتمان فتنبت على ظهر الارض زهرات جميلات تداعبها نسائم الذكريات الحلوة فتفوح ابدا بالمسك والعطر .

عطر الله قبر مبارك مثلما كان عطرا في حياته وعطرا على اصدقائه ومواطنيه وانزل عليه السكينة والسلوى والرحمة والمغفرة .

# ﴿ الفصل العشرون ﴾

- بين تمرد جنوب السودان وانفصال بيافرا نيجيريا
- ابن السمكري الذي أصبح رئيسا للجمهورية ثم أله نفسه فهوى .

.. دعونا نهرب بعيدا إلى غرب القارة الافريقية لنحط الرحال في نيجيريا مقتفين آثار الداهية السياسي السير جيمس روبرتسون نائب حاكم عام السودان والقابض على زمام اموره والذي قضى أكثر من نصف عمره وزهرة شبابه وهو يعربد ويصول ويجول في اراضي السودان الشاسعة الواسعة منذ ان كان مفتشا للمركز حتى اصبح السكرتير الاداري وهو المنصب الذي يلي الحاكم العام مباشرة والذي يقبض عادة على مفاتيح وخزائن البلاد والعباد... دعونا نتابع خطى هذا الرجل الكبير الخطير الذي نقل الى لاغوس «نيجيريا» مترقيا هذه المرة إلى حاكم عام عموم نيجيريا والذي شهد فترة الحكم الذاتي ومرحلة الانتقال حتى اعلن استقلالها.

.. قلت مرارا ان التعاريج والتضاريس التي تعترض سبيلي وانا اسجل مذكرات ثلاثين عاما مضت قد تجرفني لبعض الوقت عن الخط المستقيم فاضطر إلى القفز ولو إلى حين من خاطرة إلى خاطرة ومن ذكرى إلى اخرى ومن حدث إلى حدث، لكني دائما اعود راجعا لألتقي من جديد بخط السير الذي رسمته.

.. الحديث عن السير جيمس روبرتسون متصل ببداية ونهاية الاستعمار البريطاني في السودان وبنهايته في نيجيريا، لذلك فلا اعتقد بان ذلك سيخرجني مرة واحدة عن دائرة الاحداث والذكريات فتاريخ السودان مرتبط إلى حد كبير بهذا الداهية البريطاني العريق الذي كان يخطط وينفذ سياسة امبراطوريته العجوز التي لم تكن تغرب الشمس عنها ففي عهده تمكنت الادارة البريطانية من احكام اغلاقها تماما للجنوب وفصله عن شمال السودان، وفي عهده كانت سياسة فرق تسد المعروفة هي السائدة والنافذة في البلاد فاشتدت معها النعرة الطائفية والقبلية والدينية وزرع كميات كبيرة من القنابل الموقوته ظلت تتفجر بعنف وتدوي بعنف ونحن على مشارف الاستقلال فوقع التمرد الشهير في جنوب السودان ثم جاءت أحداث مارس التي غيرت مسار البلاد ثم ظهرت الفتن والاصطدامات القبلية في غرب وجنوب السودان والتي لا تزال آثارها عائشة بيننا حتى الآن..

.. في السادس من يناير عام ١٩٥٨ توجهت الى زيارة نيجيريا تلبية لدعوة من

مكتب الاعلام الخارجي وذلك قبل الاستقلال واثناء فترة الانتقال وقد مكثت فيها اربعة عشر يوما تمكنت خلالها من الطواف على معظم مقاطعاتها الشاسعة الواسعة الغنية والتي تشبه في كثير من جوانبها السودان ويومها كان الرجل الثاني الذي يلي السير جيمس روبرتسون الحاكم العام هو المواطن النيجيري الدكتور ناماد ازيكوي والذي اصبح فيما بعد أول حاكم عام نيجيري والدكتور ازيكوي هو دكتور بشري بجانب انه دكتور في الاقتصاد السياسي وهو من خيرة شباب نيجيريا ثقافة وعمقاً وعلما ووطنية مما أهله لتسلم جميع مقاليد الحكم والسلطة من السير جيمس روبرتسون الذي رحل من افريقيا كليا وأصبح فيما بعد - واظن حتى الآن - عضوا في مجلس ادارة بنك باركليز البريطاني في لندن.

.. وجه لي الدكتور ازيكوي عديدا من الدعوات واللقاءات حيث تمكنا معا من بحث كل الظروف والجوانب السياسية التي عشناها في السودان والتي يعيشونها في نيجيريا وقد التقيت كذلك بالسير جيمس روبرتسون في مكتبه في قصر الحكومة المنيف (القصر الجمهوري الآن) وتبادلنا عبارات التحية والمجاملة وعندما لاحظ التصاقي الشديد بنائبه قال وهو يودعني ويشد على يدي:

«Do Not Spoil My Boys» لا تفسد علي ابنائي!!

.. وكانت هذه الجملة التي لا تتعدى كلماتها أصابع اليد الواحدة قد أثارت في نفس الدكتور أزيكوي كثيرا من عوامل الرغبة والالحاح وحب الاستطلاع لتقصي الحقائق ومعرفة الكثير عن السير جيمس روبرتسون ودوره وسياسته في السودان وقد قابلت رغبته هذه بترحيب حار فمضيت اروي له التاريخ والمكائد وتمرد الجنوب وكل ما يتعلق بسياسة فرق تسد ولم أترك شاردة ولا واردة الا وقصصتها عليه حتى يستفيد من كل تجاربنا وبلاده الشقيقة العزيزة مقبلة على مشارف الاستقلال وفترة الانتقال وكان اهتمام الدكتور ازيكوي واضحا لدرجة انه كان يسجل كتابة بجانب آلة التسجيل كل حرف وكل كلمة قلتها الشيء الذي شجعني على الاسترسال ثم اشعرني في النهاية براحة نفس عميقة وانا أضع بين يدي شقيق عزيز كل تجاربي حتى يتحسس مواقع اقدامه جيدا وهو ينتقل ببلاده العزيزة إلى مرحلة الاستقلال الصعبة.

.. ثمة سؤال كبير بعد كل هذا اللقاء ظل يلوح في خاطري كل ما نقل إلي المذياع أنباء ذلك القطر العزيز... هل استطاع الدكتور ازيكوي وزملاؤه في المعارضة الدكتور والمعلم تفاوا بليوا الذي اغتيل فيما بعد في انقلاب غادر مشؤوم... هل استطاعوا ان يستفيدوا من تجارب السودان!!

الاجابة مع الاسف وبالبنط العريض لا !!! ولكن لماذا وقد قدمت لهم المخزون من كل تجاربنا ومشاكلنا في طبق من الذهب!

.. هل كانت الفترة قصيرة وضيقة!؟ هل كانت الالغام والمتفجرات قد بثت بليل

دون ان يتمكن المواطنون النيجيريون من معرفة مواقيتها وكمياتها ووجهاتها!؟

اعتقد انه لكل هذه الاسباب مجتمعة او متفرقة ـ «لان الاساليب الاستعمارية وخبراتها وتمرسها في هذه المجالات كانت أقوى وأقدم وأعرق» ـ فان النيجيريين لم يستطيعوا تبيانها وتلافيها فوقعوا في نفس المآسي التي مررنا بها بل وتكاد تكون حرفيا ونسخة طبق الاصل!

.. بدأت نفس الخلافات القبلية والطائفية والدينية وتطلعات زعماء القبائل والمندسين في الصفوف من الانهزاميين وأذناب الاستعمار والمستفيدين من الشقاق والخلاف وبحور العرق والدم. وتطورت الخلافات إلى اصطدامات مسلحة ثم انتهت بالانقلاب المأساوي العنيف الذي كان أول ضحاياه ذلك الرجل العلامة والمتحدث الذي هز منابر الامم المتحدة والذي وصفه تشرشل يوماً ما في جملته المملوءة بالغرور والعزة بالنفس عندما قال: «اربعة في هذا العالم يتحدثون اللغة الانجليزية بطلاقة. انا وبرنارد شو ونهرو وتفاوا بليوا من نيجيريا»!

.. أخذت الأحداث المأساوية تتطور في نيجيريا بشكل خطير هز ضمير العالم كله عندما أعلن اجوكو الانفصال عن الحكومة المركزية التي واجهته بحزم وعنف لتوقف صلفه وتحديه، ولكن المواجهة انتهت إلى حرب شرسة لئيمة نصب قائد التمرد اجوكو من خلال دخانها ودمائها وجثثها المحترقة نفسه حاكماً على «بيافرا» التي تربعت أخبارها على صدارة صحف العالم ووسائل اعلامه من إذاعة وتلفزيون.

.. كانت مأساة نيجيريا التي خطط لها الاستعمار منذ قديم اخطر وأعمق من تلك التي نفذها في السودان وقد ساعدته في ذلك عوامل كثيرة على رأسها تفرق القبائل وتعدد اللهجات وكثرة النعرات الدينية المسلمة المتشددة منها في الشمال والمسيحية المتسلطة في الجنوب والغرب.

بهذه المناسبة أذكر انني في اليوم الثامن والتاسع والعاشر من يناير ١٩٥٨ حضرت المؤتمر الكنسي العام لافريقيا الذي عقد في لاغوس وحضره مندوبون من جميع كنائس الدول الافريقية بما فيها السودان. واستمعت في الايام الثلاثة دون انقطاع وباهتمام بالغ إلى خطب وكلمات رؤساء الوفود الكنسية فكانت لهجتهم لا تسر، وايحاءاتهم لا تعجب، وتعليقاتهم تخيف وترفع علامات استفهام وتعجب كثيرة لا تنقطع ولا تكف والغريب ان احدا لم يتدخل ليوقف هذا الذي يجري فقد كان المتربع آنذاك على قمة السلطة التشريعية والتنفيذية هو السير جيمس روبرتسون حاكم عام نيجيريا ونائب حاكم عام السودان السابق!

مع كل المآسي التي وقعت في دولة نيجيريا الشقيقة وبكل القنابل الزمنية التي ظلت تتفجر الواحدة تلو الاخرى فقد نالت نيجيريا الجارة الشقيقة استقلالها ورفرف علمها الحبيب في نفس السارية وفي قصر السير جيمس روبرتسون بعد ان انزل العلم

البريطاني ورحل الحاكم عن البلاد ... نالت الاستقلال ولكنها دفعت الثمن غاليا جدا وهي الان وبعد ان اكتملت الصحوة الشعبية وتوحدت البلاد وعرف اهلها كيف فرق الاستعمار بينهم وفرق وحدتهم وشتت صفوفهم، عرفوا بعد ذلك كله اساليبه، وكشفوا الاعيبه، وخبروا حيله وتآمره فوجدوا اخيرا انفسهم ومضوا يشقون طريقهم في طليعة الموكب الافريقي وهم عصبة، وهم قوة يعمل لها الف حساب وحساب.

## اللؤلؤة الجميلة

.. قبل ان اقفل عائدا لا إلى تونس وانما إلى الخرطوم اود ان اعرج قليلا إلى غرب نيجيريا سعيا إلى غانا تلك اللؤلؤة الجميلة التي كانت تسمى فيما مضى «ساحل الذهب» وظن البسطاء من اهلنا آنذاك ان ساحلها ملىء بالذهب مما دفع الكثيرين لشد الرحال اليها ليملأ الواحد منهم ولو قدحا صغيرا من ذهبها ولؤلؤها ويرجع إلى اهله سالماً غانماً وثريا يشار اليه بالبنان. لم تكن زيارتي إلى اكرا لغرض سياسي او سياحي، وانما كانت تلبية لدعوة كريمة وجهها إليّ الزعيم الافريقي الكبير المناضل كوامي نكروما لحضور حفل زواجه من فتحية المصرية. قد يتبادر إلى بعض الاذهان غرابة هذه الدعوة، رئيس جمهورية كبير يدعو صحفيا عاديا لحضور مراسم زواجه. والحقيقة انها لم تكن كذلك بالمعنى السطحي او الحرفي فقد جمعتني مجرد الصدفة الحلوة بالدكتور نكروما عندما كان يعمل ويكافح في لندن من اجل قضية بلاده وقد كان آنذاك يصول ويجول في حدائق (هايد بارك كورنر) حيث الحديث مستباح لكل من يريده ويهواه وهذا الركن الذي ظل ومازال يستقبل العديدين من عشاقه وخطبائه صباح الآحاد كل يعزف ما يشتهي من الالحان شريطة ان لا تكون مشروخة او جارحة، التقيت في حديقة الخطباء هذه بنكروما وزميل كفاحه ودربه الدكتور بوسيا الذي اصبح فيما بعد زعيما للمعارضة ونمت بيننا علاقات وطيدة استمرت حتى اقصائه من الحكم.

وقصة الدكتور نكروما كما عرفتها وشاهدتها عن قرب كانت ولا تزال بالنسبة إليّ مصدر حيرة وبحث وتقصٍ وتساؤل... فنكروما العالم والخطيب والرجل الكادح الطيب الذي يتدفق عطفا وشعورا قبل ان يعتلي منصة الحكم في بلاده، اصبح شكوكا وشرسا وحذرا، وماتت في قلبه الكبير كل قطرات الحب والعطف ولذلك قصة أعود اليها بعد ان نكمل معا مراسيم الزواج التي غنت ورقصت لها غانا كلها بعد مظاهرة معادية لم تستغرق اكثر من ساعة واحدة حتى انضمت هي نفسها إلى حلبات الرقص والغناء والفرح والزينات.

قبل ان تتم مراسيم الزواج وكان نكروما آنذاك ما زال بين قديمه وحديثه واشعاعات الوفاء في قلبه ووجدانه كانت لا تزال متقدة، أقبلت عليه مظاهرة كبيرة معظمها من



نكروما وفتحية في طريقهما إلى افتتاح البرلمان

طالبات المدارس والجامعات تدين زواجه من أجنبية وتهتف له بأن كل فتاة في غانا تتمناك زوجا لها فلماذا اذن اجنبية... لماذا؟ كانت المظاهرات صاخبة لدرجة انها غطت على كل شيء فلم يثر نكروما، ولم يغضب ولم يستدع قوات الشرطة او المدفعية او المطافي، لتفريق الجمع، وانما قابل اخواته المتظاهرات بابتسامة عذبة وهو يتطلع الى الموكب ثم طلب من حراسه الذين كانوا يستخدمون مكبرات الصوت منذرين الموكب بالتفرق والا..! طلب منهم جميعا ان يحضروا كل مكبرات الصوت إلى المنصة الرئيسية حيث يجلس ثم نهض وفي صوت متهدج نبراته صادقة وواضحة ومعبرة قال:

«اخوتي وأهلي لقد استمعت اليكم وعلمت ماذا تريدون فارجوكم ان تمنحوني فرصة اتحدث فيها اليكم حديث الاخ المؤمن الصريح الصادق!» فصمت الجميع كأنما نزلت على رؤوسهم جبال الهملايا وبدأ نكروما وهو الخطيب المفوه البارع الذي يعرف كيف يتصيد مستمعيه ويلعب بعواطفهم ومشاعرهم، بدأ يتطلع إلى الوجوه هنا وهناك كنوع من التشويق وهو يقع ضمن فنون الخطابة حتى لا حت له فرصته فبدد ذلك السكون الغريب مستطردا حديثه قائلا في نبرات حزينة تحرك الصخر.. قال:

«لقد منحتكم قلبي وشبابي وأحلى ايام عمري وناضلت معكم وبكم حتى توجنا كفاحنا المرير بنيل الاستقلال والآن جاء دوري فارجوكم يا احبائي ان تمنحوا قلبي حريته، ولا تقسو عليه. وان تساعدوا حبي ان ينمو فبالحب استطيع ان اسعد ونستطيع جميعا ان نحيا حياة كلها ورود وابتسامات ثم جلس». ولم يمض الصمت لبضع ثوان

حتى دخلت المظاهرات كلها إلى حلبات الرقص وموكب الكرنفال وسهرت شوارع اكرا وغانا كلها حتى الصباح وكانوا كلهم شهرزاد وشهريار فادركهم النعاس واستسلموا لنوم طويل طويل!!

.. اعود إلى حيرتي وتساؤلي لا عن حياة نكروما، وانما عن هذا المقعد السحري الغريب الذي يسمى بكرسي الحكم او آفة السلطة ماذا يمكن ان يكون فيه حتى ينسى الانسان تاريخه ورحله كفاحة ورفقاء دربه «والسندوتش» الهمبيرقر والبيزا والبيرة والمكرونة.

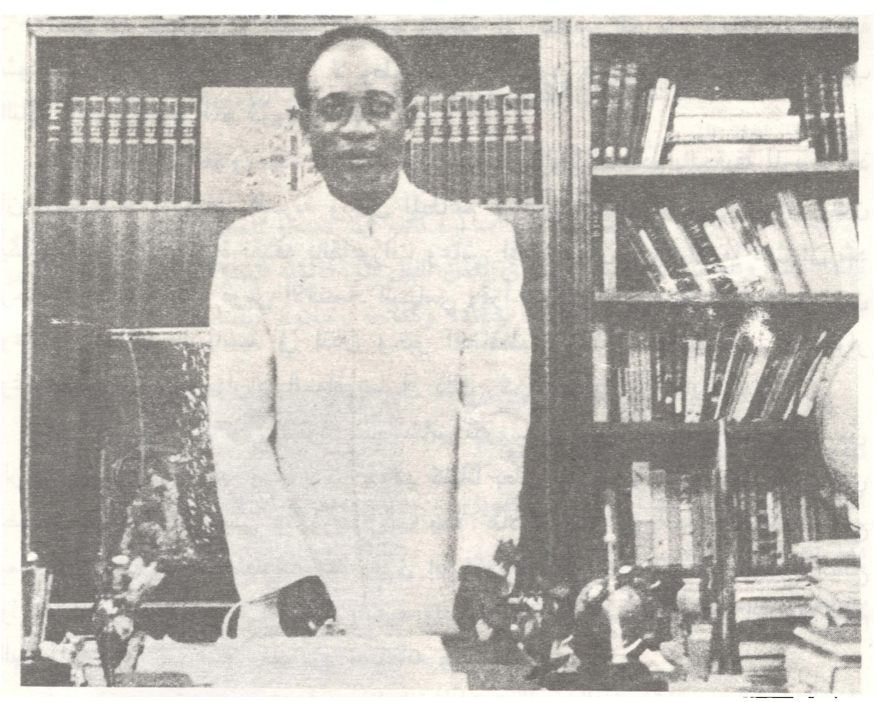
.. كنت حتى انتهاء مراسيم الزواج أجلس في الجانب المخصص لاسرة نكروما ولم اشعر بفارق كبير بين نكروما هايد بارك ونكروما رئيس الجمهورية اللهم الا اذا استثنيت ابهة الحكم وبهرج الرئاسة والعربة والعلم والدراجات البخارية بصفافيرها وسحر بريقها!!

لم تمض على نكروما الوديع فترة زمنية طويلة وهو يراقب الشياطين في رقصاتهم المحمومة مكتفيا بالتفرج عليها من خارج الحلبة وهو يهز قدميه واحيانا رأسه وكتفه، لكنه لم يستطع ان يقاوم ذلك طويلا خاصة عندما أفرغ كأسه الممتلئة في جوفه الملتهب. فمال رأسه قليلا ثم كثيرا وشعر بالنشوة ثم بالانتفاضة وبرغبته الحارة في الرقص بعد ما لعبت الايقاعات المجنونة بكل عواطفة وحواسه، فدخل الحلبة الصاخبة وظل يرقص ويرقص وينتفض حتى أصابته الحمى الملاريا أو «الحمي ام برد» - كما يسميها أهلونا - وقد لازمته هذه السكرة طويلا طويلا ولم يستطع ان يصحو من اغماءاتها الا على أصوات المدافع والرصاص وهنا اكرا، واعلان حظر التجول واغلاق المطارات والمارشات العسكرية ثم سقوطه من المقعد الرئاسي!!.

قال لي مرة نفر من الاقربين اليه ممن جمعتنا سويا ظروف لندن وبردها القاتل:
«الحق صاحبك مستر مختار... صاحبك خلاص حيروح في ستين داهية ونروح نحن معاه في ستين الف داهية!!»

.. جاءتني هذه الرسالة قبل وصول نكروما إلى السودان باسبوع في نهاية عام ١٩٥٧ ابان تولي عبدالله خليل رئاسة الحكومة كأنما اراد اصحابها او مرسلوها ان يستغلوا زيارته الرسمية ولكنني شعرت بالتغيير الكبير المفاجىء لنكروما الذي وضح على ملامح وجهه وطريقة حديثه حتى مشيته وعصاه الابنوسية كانت دخيلة عليه. لم أتمكن بالطبع من مفاتحته في امر كهذا حتى لا افسد عليه جو الزيارة الودية ولكنني وانا اودعه على سلم الطائرة قلت له:

«يا سيادة الرئيس اريد ان ازورك في اكرا خلال اسبوع فأجابني مهللا:
«بالطبع فأنت تعرف بأنني ارحب بك دائما وسأنتظرك!».



نكروما في مكتبه عند توليه رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٠

بعد عشرة ايام كنت في اكرا وقوبلت في المطار كالعادة مقابلة كريمة اذ رحب بي نيابة عن الرئيس نكروما وزير الاعلام وصحبني حتى الفندق حيث التقيت بالعديد من اصدقاء هايد بارك ومن حديثهم ومرارتهم شعرت بأن الموقف أصبح صعباً ومعقداً لا يجدي معه تدخلي خاصة وانا مجرد صديق قديم وضيف عابر لا ينبغي ان يحشر انفه اكثر مما يجب في اشياء حساسة وخطيرة كهذه وفعلا مكثت اسبوعا كرمني خلاله الرجل نكروما في داره فلم افتح معه فمي بكلمة، ولكنني في رحلة العودة وانا أرقب من نافذة الطائرة لؤلؤة البحر وساحل الذهب بدأت استعيد صدى احاديث اصدقاء نكروما المريرة وما حصدته من معلومات خطيرة ومغلقة ستقود حتما الى كارثة او نهاية مأساوية رغم الضباب الذي يحجب رؤياها وتبيانها آنذاك!!

.. قصة نكروما هي قصة غانا وشعب غانا الذي كافح طويلا للتخلص من الثلاثي اللئيم الفقر والجهل والذل الاستعماري البغيض.. نكروما ابن الحداد «السمكري» الفقير الذي ضحى من اجل ابنه بالعرق والدموع عندما لاحظ منه بوارق الذكاء والامل والرجاء فادخله مدارس القساوسة التبشيرية لكن الشاب الطموح صدمه ابناء البيض باحتقارهم له ولرفقائه السود وما ان انهى الفتى دراسته الثانوية حتى هاجر إلى أميركا بعد ان استدان عشر جنيهات استرلينية سافر بها في قوارب العبيد وعمل على ظهرها كناسا وما ان اشرفت المركب على ابواب نيويورك وشهد الفتى تمثال الحرية حتى اكلت عيناه

العبارة المنقوشة عند قاعدة التمثال:

«اعطوني جماهيركم المتعبة الفقيرة التواقة إلى تنفس الحرية، ابعثوا إليّ بنفاية شواطئكم المزدحمة اولئك الذين لا وطن لهم، ولا مأوى فها انا ذا أرفع مشعلي قرب الباب الذهبي لينير لكم دروب الحياة!!».

.. بالرغم من حلاوة هذه الكلمات فان الشاب نكروما اصطدم بالحقيقة المريرة منذ ان وطئت قدماه أرض الحرية ودخل المطاعم لا ليأكل وانما ليغسل الاطباق وكان يكنس الشوارع، والمارة تقذفه بالقاذورات وعاش اقسى سنين حياته ثم ما لبث ان شد رحاله إلى لندن حيث درس الاقتصاد السياسي وقرأ لماركس وآدم اسميث وروبرت اوين وعاصر المعارك السياسية في لندن وخبر المحافظين والعمال والشيوعيين والاحرار وغيرهم ودخل كل مدارس الحياة بما في ذلك ركن الخطباء في هايد بارك!

كان أول مؤتمر افريقي اشترك فيه الشاب نكروما في لندن هو الذي اقيم بدعوة من الزعيم ديبوا وساهم فيه بقدر كبير جومو كنياتا بطل الماوماو ودكتور نامادي ازيكوي حاكم عام نيجيريا ورئيس جمهوريتها فيما بعد. عاد نكروما الى بلاده وبدأ نشاطه ولمع بسرعة البرق كما انخطف بسرعة البرق ايضا وبعد فترة من النضال والكفاح اصبح واجهة لغانا وتجاوب مع الشعب بأسره وبسبب نشاطه الملحوظ أصدر الحاكم العام البريطاني امرا باعتقاله ومصادرة ممتلكاته وحل حزبه.

وفي عام ١٩٦٠ اجريت في غانا انتخابات رئاسة الجمهورية ففاز ابن الحداد السمكري البائس كوامي نكروما بمنصب اول رئيس لجمهورية غانا المستقلة واصبحوا يطلقون عليه «اوساجيبفو» نكروما ومعناها بلغة الاشانتي «القائد الذي لا يقهر ابدا» وكان شبهه الشديد للاعب البرازيلي بيليه كثيرا مما سبب له بعض المشاكل والمضايقات... ثم ماذا بعد كل هذا!؟

نكروما الطيب الودود اصبح دكتاتورا لا يجارى ففقد كل احبائه وزملاء كفاحه ورفقاء دربه. ملأ بهم المعتقلات والسجون وعلى رأسهم الدكتور بوسيا ثم لازمه الهوس الديني فأصبح راعيا للكنيسة ثم كبير الاساقفة ثم راعي الجامعة وراعي اي شيء وزعيم اي شيء وكبير اي شيء! آمن بالتعاويذ ونصب لنفسه التماثيل وبدأ الناس بعد ذلك ينفضون من حوله. والحب الكبير المتبادل بين الشعب وابنه حطمه البوليس السياسي وزوار الفجر فذبلت كل أوراقه، واصفرت عروقه، وجفت من العطش وخريفه اصبح غاضبا ورعوده مزمجرة وبروقه تخطف الابصار لكن السماء لا تمطر ابدا، وظل نكروما يدور ويدور مع الشياطين في حلبة الرقص المجنونة، وايقاعاتها المحمومة حتى اذا ما ارتفع يوما آذان الفجر زمجر الرصاص، وحوصر القصر، واعلنت حالة الطوارىء وسطا الجيش على السلطة وأذيع البيان رقم واحد وانتهى كل شيء، ولم يبق شيء!!

زالت حمى نكروما «وراحت السكرة وجاءت الفكرة» ولكنها جاءت متأخرة جدا جدا

حيث هرب الى غينيا لاجئا سياسيا حتى ودع الحياة ودخلت سيرته بطون التاريخ فأصبحت مجرد ذكريات!!

ترى فبماذا ، وكيف كان يفكر نكروما وهو في طريق الهرب الى غينيا.. في رحلته الاخيرة رحلة النسيان!؟

•

لقد مات نكروما وماتت معه كل اسراره لكنه ليته يصحو للحظات ليروي لنا مشاعره واحاسيسه وهو يبتعد رويدا رويدا في بطن الليل عن لؤلؤته الحلوة ساحل الذهب، وعن اهله وخلانه واحبائه وكل ذكريات جهاده وكفاحه وحلاوة انتصاراته!



تمثال نكروما في ميدان النجمة الزرقاء امام البرلمان

بقي شيء اخير لابد من ذكره وهو نتاج طبيعي لحالات عدم الاستقرار التي ظلت تعيشها غانا منذ وقت طويل فقد انبعثت من الاحداث والمآسي ذكرى نكروما من جديد وكأني بشعبه يقول:

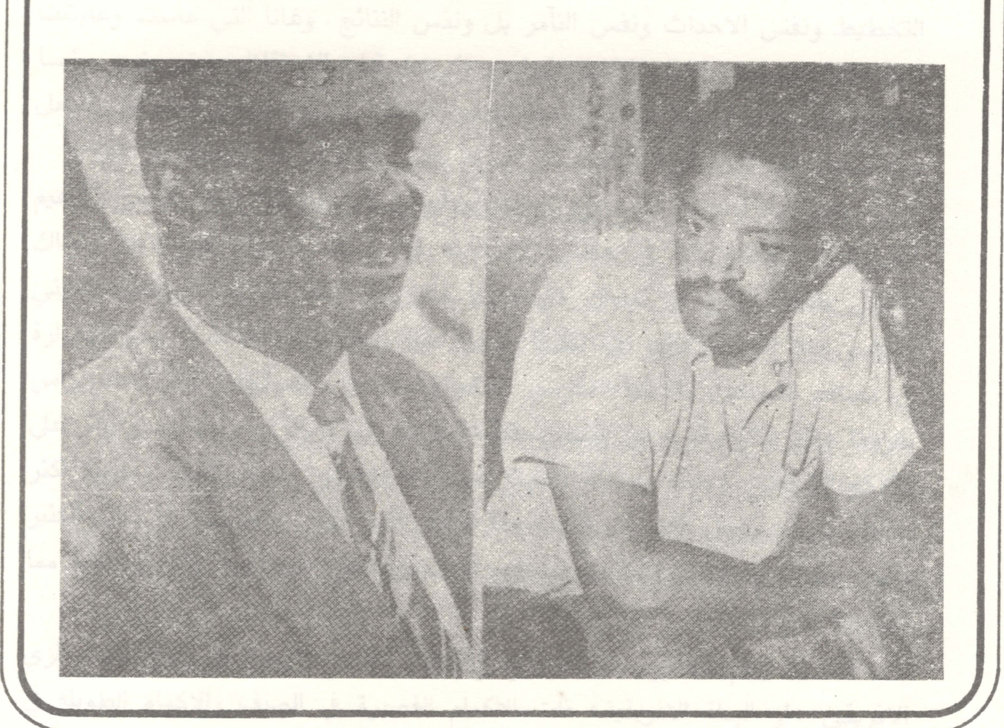
«الجن الذي تعرفه خير من الجن الذي لا تعرفه!» تحسروا على ايامه رغم مرارتها وآلامها واكتسحت ذكراه كل شيء فأعيد رفات الزعيم المهاجر المغترب إلى اكرا ليوارى في ارضه وترابه وكأني بأهله يقولون وهم يوارون

ويودعون رفاته:

«كان نكروما بالنسبة لنا قدراً، ولكنه أخف من اقدار كثيرة!!».

# ﴿ الفصل الحادي والعشرون ﴾

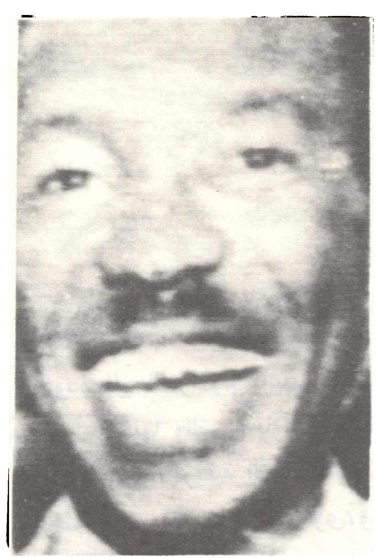
- نايريري القديس ينتشل امته من القاع
- كرومي ذبح عرب زنزبار ثم قتلوه «بـ ١٥ مدفعاً رشاشاً»
- بابو يذل الاجانب بشكل قبيح
- السودان صاحب فكرة مؤتمر القمة الافريقي ولكن!



كم انا تواق ومشتاق للعودة إلى الخرطوم باعتبارها المنبع المصب ومصدر الوحي والالهام لشحنة الذكريات التي عايشتها والتي احاول الان تسطيرها علها تفيد غيري، لكن الطواف يحلو على بعض الدول الافريقية الصديقة والشقيقة التي ترتبط بالسودان ارتباطا متفاوتا تتشابك خيوطه تارة وتنفرج تارة اخرى، وحتى نقف على اوجه الشبه بين ما جرى في السودان في تلك الحقبة من التاريخ وما كان يجري في بعض الدول الافريقية قبل وبعد استقلالها، فان الضرورة تستلزم التوقف ولو بشكل قصير وعابر حتى نستبين هذه الملامح. فالذي كان يجري في السودان ابان عهد الاستعمار البريطاني هو نفس الذي جرى في نيجيريا وبالتفصيل قبل وبعد استقلالها. نفس السياسة ونفس التخطيط ونفس الاحداث ونفس التآمر بل ونفس النتائج. وغانا التي عاشت وعايشت قصة كفاح وجهاد ابنها المناضل كوامي نكروما قبل الاستقلال حتى توج رئيسا للجمهورية واصبح واجهة صادقة نظيفة لبلاده، انتكس عندما استجاب للشيطان فجعل من نفسه الها لكل شيء وزعيما لكل شيء حتى سقط ثم مات وفقد كل شيء!

.. هذه المرة اريد ان اعرج إلى تنزانيا وجوليوس نايريري ذلك المعلم المقتدر والزعيم النقي الذي يختلف كلياً في حاضره لا بدايته عن زميله وصديقه نكروما بل وهناك تناقض ظاهر وبارز في سلوك كل منهما فنايريري رغم انه عرف بتعصبه الديني والكنسي، الا انه ظل قائدا نقيا نظيفا طاهرا امينا ومخلصا لدرجة تضعه بحق وبجدارة في مصاف القديسين والانقياء فكرسي الحكم والسلطان والصولجان الذي لعب برأس نكروما حتى سكر وغاب عن نفسه وحقيقته، لم يله يوما نايريري او يسكره او يؤثر على سلوكه الشخصي فحياته بسيطة للغاية وقصره الجمهوري بسيط للغاية وملبسه اكثر بساطة بل قد يجهل الكثيرون فلسفة هذا الرجل الذي يقول دائما نحن لا نملك الكثير ولكن بعقولنا واخلاصنا وتجردنا نستطيع ان نفعل الكثير فهل فعل نايريري شيئا مما يقول!؟

.. قد لا يعلم الكثيرون ان نايريري في نطاق التفكير المتجرد هو الذي ابتدع الزي الافريقي «او البدلة الافريقية» ذات الاكمام القصيرة في الصيف والاكمام الطويلة في



الرئيس الضاحك نيريري

الشتاء فالغى القميص والكرافتة والجاكته المعقدة التي لا تتناسب والطقس الافريقي فوفر بذلك على شعبه وبلاده الملايين من العملات الصعبة التي كانت تستنزفها البدل الاسموكنج الكاملة والقمصان الحرير والزرائر والكرافتات والياقات البيضاء والزرقاء، كان ذلك في نهاية الخمسينات وسرعان ما اصبح زي نايريري موضة افريقية ظلت تنتقل من بلد إلى اخر حتى وصلت السودان مع ثورة اكتوبر ١٩٦٤ وتعمقت بعد مايو ١٩٦٩ ثم لم يمض عليها زمان طويل حتى انتقلت إلى مصر والخليج وعدد كبير من دول اسيا وأوروبا وأميركا اللاتينية. ولابد ان الكثيرين قد لاحظوا في مؤتمرات القمة والزيارات الرسمية تمسك نايريري واصراره على البدلة الافريقية، والمدهش ان العاصمة السودانية التي كانت تتباهى قديما بالبدل الاسموكنج والساتان والحرير والجبردين في الحفلات والمكاتب لم تعد تعرف هذا الزي الذي اختفى كليا ومرة واحدة من الشارع السوداني فوفر بطريقة مباشرة الملايين من العملات الصعبة كما اثر صحيا وانتاجيا على الفرد السوداني.

.. عرف جوليوس نايريري بحبه للنكتة كما عرف بضحكه الكثير المتواصل من النكتة التي يسمعها والنكتة التي يرويها. ونايريري عندما تواتيه النكتة لا يستطيع مطلقا ان يحبسها او يخفيها حتى ولو كان في حضرة الملكة اليزابيث او عرش الطاووس او امام ماوتسي تونج او حتى في اروقة الامم المتحدة ومؤتمر عدم الانحياز. قال لي مرة في قصره المتواضع في دار السلام:

« لو حسبت اللحظات التي ضحكتها في حياتي وبصوت مرتفع لكانت ثلثي عمري، فالضحكة بالنسبة لي فلسفة تطيل العمر وتبدد الأحزان وتضاعف الانتاج وتساعد على

التفكير المستقيم وتعلم الحب والصفاء والمرونة وتكسب فوق كل ذلك الاصدقاء»!

.. اما عن نزاهة هذا الرجل التي تشبه الاساطير فقد حدث في منتصف نوفمبر ١٩٦٨ ان فاجأ المرض احد اصدقائه من كبار رجالات السودان فأخذ على عجل الى لندن حيث ظل اياما في غرفة الانعاش وهو بين الحياة والموت واستغل بعض افراد اسرته هذه المأساة فبدأوا الاتصالات بعدد من الملوك والرؤساء العرب والافارقة عن طريق سفاراتهم في لندن طالبين العون والمساعدة، واستجاب الكثيرون منهم وعلى رأسهم الرئيس الراحل جمال عبدالناصر والملك الحسن والحسين وامير الكويت وامراء سعوديون كان بعضهم بالصدفة في لندن في طريقهم إلى أميركا ولما جاء دور نايريري بعث لهم برسالة رقيقة وغريبة عن طريق سفارته بلندن هارتفورد ستريت مكنني صديق فيها من الاطلاع عليها. قال نايريري في رسالته التي تروي قصة الطهر والنقاء في اسمى واروع معانيها... قال بالحرف:

«آلمتني كثيرا انباء الوعكة التي المت بصديقي العزيز وسأصلي حتى يمنحه الرب العافية ليتمكن من مواصلة كفاحه واتمام رسالته.

اما بخصوص طلب الاعانة فانا بالطبع لا استطيع ولا قدرة لي على اعتمادها من مال الدولة والشعب لأن هذا ليس من حقي ولا من سلطاتي، اما مالي الخاص فقد اقتطعت منه «رغم بؤسي» عشر جنيهات بعثت بها لسفيري في لندن ليشتري بها باقة من الزهور ليقدمها نيابة عني لصديقي العزيز» واختتم نايريري رسالته قائلا:

«آسف جدا فهذا اقصى ما استطيع ولو كان لدي المزيد لما ترددت في تقديمه» انتهت الرسالة!

صدقوني انني قرأت هذه الرسالة اكثر من مرة.. قرأت فيها معاني قد لا يستطيع تبيانها من يقرؤها على عجل ودون توقف وبلا روية وكلما قرأتها كلما احسست بحاجتي إلى قراءتها من جديد وفي كل مرة تتضح لي فيها رؤية جديدة وتبرز امامي صورا متحركة ناطقة تختلف عن سابقتها في الوجه والمعنى حتى شبهتها آنذاك بقوس قزح بالوانه الجميلة الزاهية الاخاذة التي تبهج النفس والروح معا.

.. من منا يمكن ان يصدق ان رئيس جمهورية في هذا العصر المتردي وفي يده السلطة ومفاتيح الخزائن يعجز عن تقديم بضعة الاف من الجنيهات لصديق عزيز وهو على فراش الموت.. من منا يمكن ان يصدق بان رئيسا في عصرنا هذا يفكر في الشعب ويكون حفيظا امينا على ماله بهذه الصورة الاسطورية؟!

.. ما كان لي ان اروي الذي رويته لولا ان الامانة تقتضي ان اعطي كل ذي حق حقه، وعلى الرغم من انني قد استنكرت آنذاك وانا في لندن هذا السلوك المؤسف الا انني وجدت نفسي مضطرا ان أتعرض لهذه الحادثة رغم ما فيها من أوجاع وأحزان حتى اقدم الدليل القاطع على نزاهة ونظافة شريك آخر هو جوليوس نايريري عل في

ذلك ما ينفعنا وينفع الآخرين ممن في شأنه ومقامه.

كان اسم تنزانيا في الماضي هو تنجانيقا واحدة من المستعمرات البريطانية التي عبث فيها وشتتها ومزقها بالخلافات كعادته ثم تركها في النهاية خالية من كل شيء الا من ايمان بنيها وتطلعهم لحياة افضل ومستقبل أكرم، وفي اليوم الذي اعتلى فيه المعلم جوليوس نايريري مقعد الحكم بدأ يواجه مشاكله ومشاكل اهله بعقلية صافية وقلب نظيف وجهاد متواصل واخلاص لا تحده حدود وكانت اكبر مشاكله هي الثالوت الخبيث الجهل والفقر والمرض ثم جيوش الاسيويين ممن كانوا يمثلون في عهد الانجليز الطبقة الثانية المفضلة تماما كما كانت الجالية اليونانية في السودان.

كان الاسيويون في تنجانيقا يتمتعون بكل خيراتها وفي يدهم مفاتيح التجارة والاقتصاد وبناتهم وأولادهم يحتلون جميع مناصب الدولة من الآلة الكاتبة حتى المدير. لم يتركوا للوطنيين شيئا سوى كنس الشوارع والاعمال اليدوية البسيطة وشرب الخمور والقات ومداعبة الذباب والحشرات ووحوش الغابة والفراغ القاتل والفاقة المقيتة التي تذيب في الانسان كل طموح وتطلع.

ادرك المعلم نايريري انه يحمل عبئاً تنوء به الجبال فشمر عن ساعده ودخل الغابة ونظف ظلال اشجارها وبدأ هو شخصياً موكب النور وظل يتنقل من قرية إلى قرية يعلم الجهلاء ويحكي لهم قصة الكفاح وقصة تنجانيقا كيف كانت وكيف اصبحت وماذا تريد في الغد واحس نايريري وعدد من زملاء دربه المخلصين بضخامة المسؤولية وخطورة الواجب وشراسة المعركة فاطلق نايريري النفير واستدعى كل شباب تنجانيقا ممن كانوا يتلقون العلم في الخارج فاستجابوا لندائه وقطعوا دراساتهم ودخلوا معه معركة الجهاد في الغابة ولم تمض فترة طويلة حتى تولى حزبه المسؤولية كاملة. كان نايريري يعتقد بل ويؤمن بان التعليم بمراحله التقليدية يحتاج الى زمن طويل ومال كثير وجهد لا طاقة لهم به وحتى لا يضيع عمر الشعب مع دوامة البيروقراطية، انتشرت حملات التوعية ودخلت الغابات والقرى ونزل الطلبة والجامعيون والموظفون يرصفون الشوارع ويبنون بسواعدهم وسواعد أهلهم القرى، وانتشرت الجمعيات التعاونية واصبح نايريري ناظرا لمدرسة كبيرة اكثر منه رئيسا للجمهورية فراح يجوب بنفسه الشوارع والقرى والأرياف ويدخل الغابات وهو يسوق عربته اللاندروفر. كان آخر شيء يفكر فيه نايريري وهو يقود حملة البعث الجديد هي الدراجات البخارية والصفافير والحراسة المشددة وهيلمان الرؤساء. كان واحدا منهم يعرف مشاكلهم القريبة والبعيدة ويلمس باصابعه مواجع الالم، ومواضع الفرح فنذر نفسه لقضية الكفاح الاكبر وبدأ المواطنون قليلا قليلا يحتلون بعض المراكز لكنها لم تكن كافية فالاستعمار لم يكلف خاطره ليعد حتى كتاب الآلة الكاتبة فسلم كل شيء عند خروجه للاسيويين الذين استولوا على كل شيء الاقتصاد والتجارة والوظائف الكبيرة والعربات الفارهة والقصور الشاهقة ومفاتيح كل الخزائن لدرجة بدأت

تظهر معها في المواطنين روح الحقد والتشفي ضد هذه العناصر الدخيلة، لكن نايريري القديس حتى يجنب بلاده ويلات مثل هذه الروح الشريرة استطاع ان يقتلها في مهدها بتعاليمه، كان يقول لاهله دائما وفي كل لقاءاته:

«لا تضيعوا وقتكم في الاحقاد وتجنبوا الفتن واتركوا هذا الطريق لأنه وعر وخطير فقط جاهدوا وصابروا واعملوا وانتجوا وغدا ستجدوا انفسكم احسن منهم، ولكن حتى تحققوا ذلك فلا تضيعوا الوقت حتى لا يقطعنا ويمزقنا.»

في سنوات قليلة وبالفكر المتجدد والخلق والابداع لا بالارقام والميزانيات والمدفوعات والمنصرفات استطاع نايريري ان ينتشل اهله رغم فقرهم وبؤسهم وشح مواردهم، واستطاع ان ينتشلهم من مرتبة الحيوان إلى مرتبة الانسان فادخل في نفوسهم معنى الوطن وحب الوطن والتضحية والاخلاص ونكران الذات، وفي هذا كل الكفاية للبداية المطمئنة وهم يستعدون لرحلة السفر الطويلة لتدعيم الاستقلال وتحقيق الوفرة والعزة والكرامة.

فوجئت تنجانيقا التي تنبع منها بحيرة البرت نيانزا في عام ١٩٦٤ بثورة جارتها الصغيرة جزيرة زنزبار او جزيرة القرنفل بقيادة عبيد كرومي شيخ الحمالين في الميناء.. تلك الثورة المأساوية التي ذبح فيها العرب ونساؤهم واطفالهم على قارعة الطريق وفي بيوتهم وفي شواطىء الجزيرة مما كان له دوي هائل في العالم لانها ثورة كانت تمثل الوحشية في اقبح وابشع صورها مما هز الانسان في كل بقعة من بقاع العالم.

في عصر ٣١ اغسطس ١٩٦٥ وصلت دار السلام مع وفد سوداني رسمي وقمت على الفور بزيارة الجزيرة المنكوبة وكانت رائحة الجثث والدماء مازالت عالقة باجوائها وشوارعها وحيطانها وارصفتها لدرجة افسدت معها رائحة القرنفل المعتق الذي يهب مع كل نسمة ومن كل اتجاه. كانت زنزبار الصغيرة الجميلة الوديعة اشبه ما تكون بمقبرة كبيرة دفن فيها الشيخ والمرأة والطفل مع القطط والماعز والكلاب ومخلفات الاسماك وقاذورات الميناء! انضمت الجزيرة بعد الثورة في وحدة مع تنجانيقا واطلق عليها منذ ذلك اليوم اسم جمهورية تنزانيا واصبح عبيد كرومي نائبا لنايريري.

## السفاح كرومي

كان مرافقي وهو من رجال اعلام زنزبار لا يقوى على كل اجابة خاصة ونحن نجوب حجرات بعض قصور العرب ومتاجرهم التي لطخت حيطانها وابوابها بدمائهم ودماء اسرهم وكل ما سألت عن شيء يقول لي بأن الشيخ عبيد كرومي سيجيبك على كل تساؤل. ربما كان مرافقي خائفا او ربما كان حانقا مثلي من كل ما رأى ويرى وتركته لحاله لكنني مضيت أطوف بنظري وعقلي وانا اشاهد بعض البصمات الدامية

الصغيرة منها والكبيرة عالقة على الابواب واطراف الحيطان والستائر وهي تحكي مأساتها مما افقدني القدرة على متابعة مسيرة الموت فقفلت إلى مجلس البلدية حيث كنت على موعد مع الشيخ عبيد كرومي زعيم المأساة ونائب رئيس جمهورية تنزانيا.

لم يعجبني منظره من الوهلة الاولى فقد كانت ملامحه فعلا هي ملامح حمال متعب اثقلت ظهره جوالات الميناء واكياس الاسمنت وامتلأت روحه بكل معاني الكراهية والحقد. وحتى اصبح نائبا لرئيس الجمهورية كان لا يعرف القراءة والكتابة وقد علمت انه كان يتلقى بحكم منصبه الجديد «ا. ب. ت. ث» والقراءة الرشيدية لكنه أصر على مدرسيه ان يعلموه اولا كيف يوقع اسمه! مازلت اذكر زيه المضحك عندما قابلته. كان يلبس جاكته بني وكرافته بمبي وقميص مقلم احمر واسود وبنطلون بيج ومركوب كخف الجمل، وقف ليستقبلني وضغط على يدي بيده الضخمة كأنها «مرزبة» فقد كانت خشنة للغاية والرجل كما تعلمون ضخم الكراديس منتفخ له عضلات مفتولة اشبه بعضلات شمشون الجبار الذي هدم المعبد عليه وعلى اعدائه.

الرجل كما قلت لم يقرأ ولم يكتب حرفا واحدا لذلك فان مقابلتي له لم تستغرق اكثر من خمس دقائق احسست بعدها بالغثيان والدوران لأن لغة التفاهم بيننا كانت مفقودة ومعدومة.

قلت له:

كيف حالكم... وكيف حال ثورتكم.. وكيف بدأت ولماذا انتهت بشكل مأساوي هز العالم؟!

اجابني باختصار وبصوت فيه حشرجة غريبة... اجابني قائلا:

العالم ضعيف يهزه اي شيء.. نحن لم نفعل اكثر من غيرنا فقد فجرنا ثورتنا الشعبية العظيمة وقتلنا العرب الكلاب وخلصنا منهم ومن غطرستهم إلى الابد.

قلت له:

والاطفال والنساء والشيوخ.. لماذا ذبحتوهم!؟

قال: «كلهم كلاب وقطط»!!

وخرجت من مقر عبيد كرومي على عجل واصداء كلماته السامة القبيحة تتردد في اذني وجوارحي مدى العمر، قلت في نفسي اليس هناك من عاقل يمكن ان اتحدث اليه فالعرب في زنزبار قد انتهوا عن آخرهم وعندما عدت إلى دار السلام لمقابلة الرئيس نايريري شاهدت معه شخصا ألفت منظره وبدأت اتطلع اليه في شراهة وما أن قدموه لي حتى تذكرت لقائي الوحيد به في لندن تم في طائرة عابرة.

## بابو الثائر

الشيخ عبدالرحمن بابو وزير التجارة وهو من أهالي زنزبار مسلم وعمره آنذاك ٣٤ عاما وبالاحضان تعانقنا وكنا نردد معا عبارة واحدة وهي كيف اصبحت الدنيا صغيرة ومن يعيش يرى... وفعلا عشت ورأيت ياهول ما رأيت!!

قيل قديما اذا دقت الطبول في زنجبار تلك الجزيرة الخضراء رقصت على أنغامها افريقيا الشرقية، وفي منتصف يناير ١٩٦٤ دقت الطبول ولكن هذه المرة كانت المدافع الرشاشة ورائحة البارود هي التي رقصت فقد قام انقلاب عسكري دموي في الجزيرة الصغيرة الحلوة الوادعة.

.. كان العرب اول من اكتشف جزيرة القرنفل فقبل ٢٧ قرنا عندما كانت افريقيا سرا غامضاً.. كانت السنابيك العربية تبحر من جنوب الجزيرة العربية بمساعدة رياح «المنسون» الشمالية الشرقية حتى زنزبار تجلب الجلود والصوف وتعود بالقرنفل والروائح العطرية وقليلا قليلا بدأ العرب يهاجرون اليها حتى اصبحت مركزا اسلاميا هاما... كان ذلك قبل اكثر من عشرة قرون من مجيىء «فاسكو داجاما» اول مكتشف اوروبي.

قبل ان تنال زنزبار استقلالها كان للعرب القدح المعلى في اشعال الحماس والشعور الوطني ضد الاستعمار وكانت (الرابطة العربية) أول تنظيم سياسي يدعو للاستقلال في الجزيرة. كان الاستعمار البريطاني يخاف أكثر ما يخاف من العنصر العربي خاصة المسلم لانه اكثر ثقافة ووعيا، واقدر تنظيما من العناصر الافريقية والاسيوية التي بدأت تحاكي العرب في مقاومة الاستعمار وعندما نالت زنزبار استقلالها في ديسمبر ١٩٦٣ كنا نتوقع الكثير من عرب زنزبار وذلك بان يستفيدوا من بقايا التراث العربي ويبنوا دولة عربية اسلامية تعيد للعرب مجدهم وللاسلام ازدهاره وان يجعلوا من جزيرتهم قاعدة انطلاق كبيرة للثقافة والوعي والحضارة العربية وان يتوسعوا في ثورتهم حتى ترتبط بالثورة والوعي في شمال الصحراء الكبرى ثم بالعالم العربي كله ولكن ذلك لن يتم. فقد قامت الثورة الدموية وطرد السلطان واسرته تحت تهديد «السنوكي» فغادروها الى الابد ثم بدأ التقتيل والذبح في بقية العرب حتى آخرهم. ان الذي حدث في زنزبار كان نتيجة متوقعة للتنافس العنصري والثقافي والحضاري في البلاد ذات العناصر العربية الافريقية بالاضافة إلى مؤامرات المستعمرين.

من المؤسف جدا ان هذه الثورة الدموية قامت في الوقت الذي بدأت تذوب فيه الخلافات العربية وفي نفس اليوم الذي تجمع فيه الملوك والرؤساء العرب في القاهرة.

قالت صحيفة المانشستر جارديان يومها «لقد اصبحت زنزبار قاعدة للنظرية الشيوعية» وقالت الديلي تلغراف: «لقد تسلم آكلوا لحوم البشر مقاليد الحكم في زنزبار!» وقالت التايمز: «لن نعترف بجمهورية بلا دستور».

# مسلك الوزير غريب

اعود من جديد الى صديق الصدفة الشيخ عبدالرحمن بابو احد زعماء ثورة زنزبار واليد الثانية لعبيد كرومي، عمره آنذاك ٣٢ عاما، وقد كان وزيرا لداخلية زنزبار ثم وزيرا للتجارة في الحكومة المركزية وهو الذي قام بتوزيع الاراضي والمزارع في زنزبار وله مدرسة معروفة في الاشتراكية ورئيس حزب الامة اليساري الذي اسسه عندما استقال من الحزب الوطني العربي بعد ان كان سكرتيرا له وهو ايضا شيوعي المبادىء والافكار وقرأ في موسكو وبكين وكان مراسلا صحفيا لوكالة الانباء الصينية في زنزبار.

قال لي في زيارتي تلك:

«ان الاستعمار الخبيث قد ورط اقتصاد الاقطار الافريقية إلى درجة تحتاج إلى مجهود كبير لتداركه ولقد واجهنا هذه الورطة فجأة عندما اكتشفنا ان الاقطار الافريقية يشترك معظمها في انتاج محصولات متشابهة كالقطن والكاكاو والسايسيل والبن والصمغ حتى يشتد بينها التنافس ويصعب عليها التبادل التجاري فتلجأ إلى الاسواق الخارجية مكرهة وقال لقد جاء الوقت الذي يجب ان تصحو فيه القارة الافريقية فتنسق سياستها الاقتصادية وتنوع في انتاجها حتى يسهل التبادل التجاري فنغلق وبعنف شديد الابواب في وجه الغرب والاستعمار!» انتهى حديث بابو.

ترى هل فعلت القارة ذلك بالرغم من انه مضى على حديث بابو حوالي عشرين سنة بالتمام والكمال!؟

ألح عليّ الشيخ بابو الذي كان يعانقني بشوق بان أكون ضيفه في نفس الامسية فدعاني إلى نادٍ ليلي كان يؤمه الانجليز والآسيويون ومحرما على الوطنيين تماما «كسودان كلوب في الخرطوم»!

.. النادي لا زلت اذكر ملامحه فهو على بعد مسيرة نصف ساعة من العاصمة دار السلام اسمه «نادي الرمال الفضية» انيق يمتاز بحدائقه الواسعة الغناء ويديره بعض الاجانب. وما ان دخلنا حتى فارت الارض ووقف كل رواد النادي صغيرهم وكبيرهم «زنهار» وجاء المدير يجري لاهثا كأنما ثعبان قد لدغه وهو يصرخ في هستيريا محمومة:

«السيد بابو.. معالي الوزير اتفضل نحن تشرفنا كثيرا وسرعان ما حمل المدير ومساعدوه أفخم وأطول طاولة ووضعوها في مقدمة النادي والكل بما فيهم من حسان وجمال مازال واقفا حتى اقعدني بابو وجلس وبحركة من يديه كمدرس الفصل اذن للرواد ان يجلسوا فجلسوا!!

لم تمض ثوان حتى جيىء بجميع انواع الخمور واصنافها ثم المشهيات المختلفة واصبحت مائدتنا تكفي لعشرين ضيفا. ومع كل هذا الود والاحترام والهيلمان فاجأني

الوزير الثائر بان رجع بمقعده نصف متر إلى الوراء ثم رفع قدميه وقذف بهما المائدة بكل ما فيها وما عليها فاحدثت ضجة وفرقعة وقف لها من جديد جميع الرواد. وجاء المديرون على عجل وهم يعتذرون للوزير الخطير عما حدث «تصوروا» اعتذروا هم وبدأوا في اعداد مائدة جديدة بنفس السرعة ونفس المستوى. اقبل بعدها الوزير بابو على الشراب بشراهة ثم امر الموسيقى ان تعزف الحانا وطنية بعد ذلك فاجأني بطلب غريب هو.ان اختار من الحسان اي واحدة تعجبني لأراقصها.. اي واحدة زوجة كانت ام طفلة... كان المدير واقفا ليلبي طلبه فورا وفي الحال، ولكنني اوشكت ان اروح في اغماءة طويلة من هول ما أرى وأسمع فالمفاجأة بالنسبة لي كانت اكبر من ان اتحملها وسلوك الوزير كان لا يمكن ان تحتمله اعصاب بشر خاصة ان كانت لا تؤمن بالعنف والأذى والاعتداء على الغير!!

بدأت ارجو صديقي الوزير لاجل خاطري ان يعدل عن اقتراحه وطلبه وان اراد ان يحترمني فليغير ايضا من سلوكه وشراسته، لكنه صرخ في وجهي بعنف وبالانجليزية سمعها كل الرواد. صرخ قائلا:

«الا تهينوا هؤلاء الكلاب في بلادكم كما نفعل!؟ الا تضربوهم في رؤوسهم ورؤوس نسائهم بالاحذية القديمة؟! لقد استعمرونا مع الانجليز وأحالونا إلى حطام بشري..»ثم بدأ الوزير يقذف بالزجاج الفارغ كل ما تقع عليه عيناه وبدأ الرواد ونساؤهم وبناتهم ينسلون جزعين خائفين إلى ان اوقفهم بصرخة مرعبة قائلا:

«ستوب كل يرجع إلى مكانه!» وعاد الجميع إلى امكنتهم ولكنني بعد جهد جهيد استطعت ان اهدىء صديقي الثائر واحاول استدرار عطفه وقد ساعدني في ذلك انه بدأ يفقد توازنه إلى ان سكر وفقد كل شيء ونام في مقعده، ثم جاء سائقه يساعده مديرو النادي وحملناه جميعاً إلى عربته وعدنا إلى دار السلام. وفي الصباح جاءني سائقه واخذني إلى وزارة التجارة حيث قضيت لحظات مع الوزير الخطير الثائر ولما طلب مني ان انتظره في المساء لنذهب إلى نادي الرمال الذهبية صرخت في وجهه:

ثاني يابابو؟! فقال لماذا؟ ثاني وثالث ورابع!!

المهم لم يمض عام ونصف العام على زيارتي تلك حتى هبت ثورة اخرى مزقوا فيها جسد عبيد كرومي شيخ الحمالين ونائب رئيس الجمهورية بالمدافع الرشاشة وقيل ان خمسة عشر مدفعا قد اطلقت عليه في آن واحد حتى اصبح كومة من اللحم جمعوا بقاياه في «قفة» ثم حمروه.. وشووه!!

أما الشيخ عبدالرحمن بابو فقد ألقي عليه القبض في محاولة انقلاب ودخل السجن وانقطعت اخباره عني مرة واحدة وإلى الابد وقد علمت فيما بعد انه قتل او انتحر بعد ان فقد عقله وكان لابد لهما معا من ان يذبحا فالله يمهل ولا يهمل.

كانت الصين الشعبية قد احكمت قبضتها آنذاك على جزيرة القرنفل بشكل جعل المشفقين يخشون على المعلم نايريري وعلى جمهوريته الفتية ولكن اتضح فيما بعد ان المعلم نايريري كان بعيد النظر .. كان ينحني للعواصف مهما كانت قوية حتى تهدأ ثم يتحسس مواضع أقدامه ويبحث عن طريق السلامة .. احتمل كل الذي كان يجري واستطاع في النهاية ان يأخذ من الصينيين اكثر مما اخذوا منه .

قلت في البداية ان الرئيس جوليوس نايريري من الطف وأظرف الرؤساء ولا يعرف ان يتحدث الا سبق او توسط او انتهى حديثه بنكتة مجنونة ثم يطلق ضحكة تسمع من بعيد دون ان يهتم اذا ضحك الآخرون او لم يضحكوا ولكن غالبا ما يضحكون وبشدة .

المعلم نايريري له علاقات مختلفة بالزعماء السودانيين فهو يحب عبدالله خليل «حبا سياسياً» لأن عبدالله خليل كان متطرفا في علاقاته الافريقية الودودة بقدر ما كان متحفظاً في علاقاته العربية وكان يعتقد بأن السودان قطر افريقي وان عروبته مشكوك فيها لأن العرب يعاملونه معاملة من الدرجة الثانية، اما الافارقة فيعتبرون السودان مفخرة لهم وقدوة حسنة .

## السودان وافريقيا

كانت صلة السيد عبدالله خليل وحزب الامة وزعيم وطائفة الانصار والامام المهدي بزعماء العالم الافريقي قوية ومتطورة ولا اريد ان ابالغ بان فكرة مؤتمر الدول الافريقية نبعت اساسا من الخرطوم كرد فعل طبيعي وعاجل للجامعة العربية وحركات الوحدة وظلت الاتصالات السرية والعلنية بين عبدالله خليل وزعماء حزب الأمة وبين المعلم نايريري ونكروما والامبراطور هيلاسلاسي وجومو كنيانا واحمدو بيللو مستمرة وكلها كانت تهدف إلى اقامة تجمع افريقي ولما كان طبيعيا ان تظهر الدعوة للعلن فقد تطورت واستولى على دعوتها وقيادتها الامبراطور هيلاسلاسي ثم ظهر الرئيس عبدالناصر في مسرح الاحداث وقوى علاقاته بالزعماء الافارقة وبعث لهم برسله في ميادين الهندسة والمعمار والصناعة والتعليم وكان عبدالله خليل يعتقد بان البساط قد سحب من تحت قدميه باعتبار ان السودان هو الداعي الاول بفكرة المؤتمر الافريقي . لم يستسلم عبدالله خليل ولكنه بدأ اتصالات جانبية مع نايريري وابوتي وهيلاسلاسي وكنياتا ليقيم تجمعاً إقليمياً آخر وكان عبد الله يهدف أولاً وأخيرا لوقف النشاط الوحدوي ومخاوفه من عبدالناصر الذي اصبح زعيماً عربياً واسيوياً وافريقياً .

لقد كان السودان اول من بعث بابنائه المتخصصين لجمهورية تنزانيا خاصة في مضمار الهندسة حتى ان سكك حديد تنزانيا اصبحت ولا تزال تعتمد لدرجة كبيرة على المهندسين السودانيين .

في اغسطس ١٩٦٥ عندما كان محمد احمد محجوب رئيسا للوزراء وصلت احداث الجنوب إلى قمتها وبدأ المتمردون يقودون حملات حربية منتظمة وعندما غزا الجيش السوداني مركزا للمتمردين عثر على وثائق خطيرة تدين الكنيسة والفاتيكان والبابا وعددا من الدول الاسكندنافية لتدخلهم السافر ومساعدتهم غير المحدودة للمتمردين وقد كانت تنزانيا ضمن الدول التي آوت عددا كبيرا من المتمردين وقادتهم لكن مع ذلك ظل نايريري يؤيد السودان بلا تحفظ ويدين التدخل الاجنبي في شؤونه، وقد لعبت علاقات المحجوب الشخصية بنايريري دورا اساسيا وهاما في موقفه وتأييده للسودان.

.. أما علاقة المعلم نايريري بالسيد محمد احمد محجوب فقد كانت علاقة حب «اكاديمي» او فلسفي فكلاهما يتحدث بلغة الآخر ويفهم ابعادها ومراميها وبقدر ما كان المحجوب فارس مجالس بقدر ما كان ولا يزال نايريري زهرة مجالس.

كنا مرة ضيوفا على مائدة الرئيس. المعلم نايريري وكنت تواقا باجراء تحقيق صحفي معه عن جزيرة زنزبار ونفوذ الصينيين فيها وعلى غير ما أتوقع كان الرئيس نايريري على وشك الخروج لرحلة انتخابية بعيدة واللاندروفر جاهز وهنا استعنت بالمحجوب وضغطت على يده ليهيأ لي فرصة فما كان من محجوب الا ان قال بصوت مرتفع:

يا اخي ما تجنني وتضغط ايدي اهو نايريري قدامك كان عايزه كلمه والعجيب المحرج ان محجوب كان يتحدث بالانجليزية ومضى موجها حديثه لنايريري قائلا:

«يا سيادة الرئيس عبدالرحمن السمين ده مجنني وقال عايز يدردش معاك شوية بالله ممكن تاخذوا دقيقتين؟!

بدأ نايريري يضحك ويضحك وبشدة وانفعال وينظر إلى محجوب ثم إلي يصفق يديه ويضرب بهما احيانا ركبته دون ان يتكلم وظل يضحك ويضحك مما اثارنا اجمعين ولما اصر محجوب على معرفة سبب الضحك قال نايريري وهو لا يزال يضحك قال:

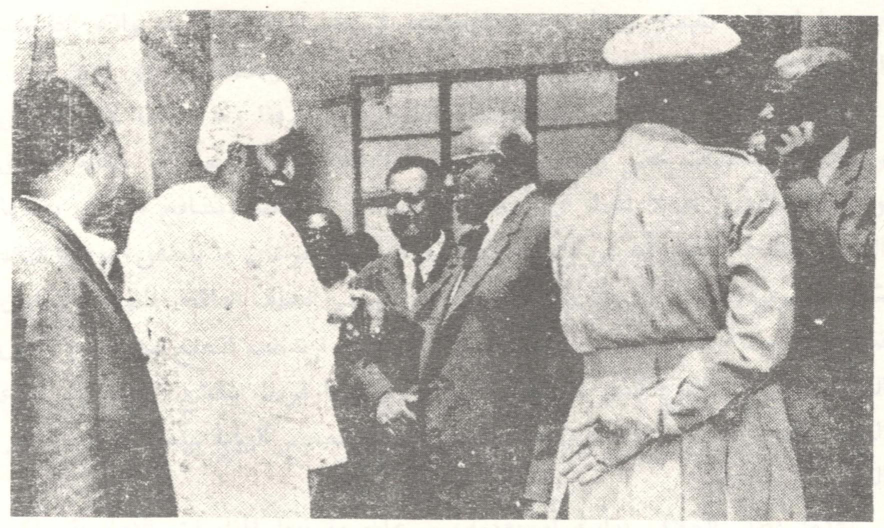
«يا صاحب السيادة انا ما قادر آخذ نفسي أقوم آخذ مائة وعشرين كيلو!؟» وظل يضحك ويؤشر علي بكل اصابعه ثم تقدم نحوي واخذني بالحضن وتوجهنا إلى غرفة صغيرة بالقصر حيث يحلو السمر والحديث. وهكذا فان فلسفة نايريري تؤمن بالضحك والنكت وباستعمال العقل والتجرد من الانانية يقول دائما:

«لو حسبت اللحظات التي ضحكتها في حياتي بصوت مرتفع لكانت ثلثي عمري لأن الضحك يطيل العمر ويبدد الاحزان ويضاعف الانتاج ويساعد على التفكير المستقيم ويعلم فوق كل ذلك الحب والصفاء والمرونة!»

## ﴿ الفصل الثاني والعشرون ﴾

# مؤتمرات القمة العربية

- صعود ثم هبوط الى القاع
- خلاف مؤسف بين ازهري محجوب وبين ناصر وأمين الحافظ
- أول رئيس يسمع بمحاولة انقلاب العراق
- سؤال سخيف يوجه للملك فيصل.



الازهري في طريقه للدار البيضاء والصادق المهدي يودعه
٩ سبتمبر ١٩٦٥

## مؤتمرات القمة العربية

### ● اسرار داخل الصالونات لكنها لم تمت!
### ● صعود إلى القمة وهبوط إلى الحضيض

في بطون كل مخلوقات الله حتى النمل والصراصير والشجر والحيوان «خزانات» تحفظ اسرارهم وحياتهم الخاصة لكن الانسان وهو أكرم وأعظم المخلوقات يتمتع بخاصية تخزين وتفريغ اسراره متى اراد ومتى ما اتيحت له الفرص، والصحفي ورجل الاعمال وصاحب الصناعة هم أكثر الناس معرفة واختزانا للاسرار. لكن الصحفي هو أكثر هؤلاء إنتشارا بحكم عمله وممارسته اليومية لانه يلاقي تحت كل حجر، ووراء كل صالون او صالة او زقاق او حارة او شبح او انسان خبرا او سرا يتفاوت نوعه وكمه وحجمه وتأثيره حسب مكانة الصحفي. والصحفي هو أكثر مخلوقات الله اختزانا ومعرفة للاخبار وما وراء الاخبار لكن مع ذلك وتحت ظروف خاصة قد تكون خارجة عن ارادته وقدرته، قد لا يتمكن من نشر بعض الاسرار التي تدخل في دائرة الخطر الحمراء اما خوفا عليها او خوفا منها لكنه مع ذلك يلجأ دائما إلى يومياته ومذكراته حتى يودعها اسراره بايجاز بينما يختزن تفاصيلها في صدره حتى اذا ما واتته الظروف المناسبة نشر تفاصيلها اما اذا واتته المنية ماتت في صدره ودفنت معه إلى الابد..

منذ ان عرفنا وسمعنا بمؤتمرات القمة العربية، ما عرفنا وما سمعنا غير المشاكل والخلافات والنكبات حتى أصبح مجرد التهيؤ لانعقاد مؤتمر عنوانا او خلفية للتمزق والشتات والتفرق ثم لا نلبث ان نستمع إلى البيانات الختامية وتصافح الايادي بعضها البعض ويفرح الشعب العربي بالوفاق، لكن فرحتنا بها سرعان ما ينطفىء بريقها فبعد شهر، شهرين، عشرة وفجأة وبلا مقدمات تبدأ سحب الصيف الداكنة الملتوية كالثعابين تتجمع في سماء العالم العربي بلا سبب او لاي سبب، سحب تتجمع من النوع الثقيل الداكن ليس من النوع الذي لا يلبث ان يزول او عما قريب ينقشع، وانما من النوع الكثيف الذي تصحبه عواصف رعدية واتربة وزوابع تحجب الرؤية وتصم الاذان وتفور الدم.

بعدما يطل الخلاف برأسه او بقدمه، سرعان ما تبدأ المناورات الاعلامية ولكن بطريقة خفية (مطاعنة ومحامرا ومشاحنة) ثم يقرع من هنا، وبيان من هنا، وادانة من هناك وخذ وهات من اليمين وعن اليسار (فيصفر الحكم) دون ان يستمع اليه او يعبأ

به احد وتبدأ بسم الله وباسم الشعب الاذاعات والتلفزيونات في (الفاولات) وتبادل الاتهامات ثم التجريح والشتائم والمهاتـرات والانـاشيـد والاشعـار ... ثـم اعلان سحـب السفراء وقطع العلاقات و.. و.. وما ان تصيبنا كارثة من جديد كحرب الايام الستة حتى يحس الرؤساء والملوك بحاجتهم الماسة للتضامن والوئام فتدور (ساقية جحا) وتبدأ وفود الوساطات ـ كما فعل محجوب ـ ثم حملات التمهيد لاجتماعات وزراء الخارجية العرب ثم تحديد موعد لانعقاد مؤتمر الملوك والرؤساء وتبدأ ساقية جحا تدور وتدور من جديد لتحرث في البحر على انغام موسيقى حسب الله الشهيرة ونبدأ نطالع الابتسامات المصطنعة الصفراء والاخذ بالاحضان من خلال شاشات التلفزيون لوجوه الملوك والرؤساء العرب.

## صورة خلاف

.. دعوني ابدأ بصورة محلية مضغوطة توضح مدى الخلافات والمشاكل في الحكومة الوطنية الواحدة ، ففي اوائل سبتمبر ١٩٦٥ عاد وفد السودان برئاسة السيد اسماعيل الازهري ومحمد احمد محجوب من مؤتمر القمة الافريقي الذي عقد في اكرا عاصمة غانا بعد خلاف بين الازهري والمحجوب بدأ بالسرية والتكتم ثم مالبث ان اصبح عاريا في الصحافة والشارع السوداني. ذلك ان رئيس مجلس السيادة آنذاك الازهري أصر على رئاسة الوفد السوداني والحديث باسمه في المؤتمر بينما كان المحجوب رئيس الوزراء يرى انه أحق بالرئاسة لان الدستور يمنحه الصلاحيات في الوقت الذي لم تحدد مثل هذه الصلاحيات بالنسبة للازهري.

عاد الوفد من اكرا ليبدأ بمواجهة خلاف جديد وكبير وخطير ومماثل لما حدث في مؤتمر اكرا هو من سيقود وفد السودان إلى مؤتمر القمة العربي في الدار البيضاء وقد وصل النزاع بين الزعيمين حدا هدد فيه بفض الائتلاف القائم بين حزبيهما وسقوط الحكومة الا ان الوساطات وهي كثيرة في السودان استطاعت في اللحظات الاخيرة والحرجة والحاسمة ان تجد حلا تحفظ للطرفين مكانتهما. فتم الاتفاق على ان ترأس السيد اسماعيل الازهري وفد السودان إلى الدار البيضاء ويلقي خطاب السودان في الجلسة الافتتاحية ثم ينتهي بذلك دور الازهري ليبدأ السيد محجوب رئيس الوزراء دوره كرئيس للوفد اليوم الثاني.

.. مضى اليوم الاول وكان الاثنين الثالث عشر من سبتمبر ١٩٦٥ بسلام وامان حيث ترأس المؤتمر الملك الحسن الثاني والقى السيد الازهري خطاب السودان شأنه في ذلك شأن بقية رؤساء وملوك الدول ورفعت الجلسة على ان تعقد في اليوم التالي.

.. في صبيحة يوم الثلاثاء بينما كنت خارجا من حجرتي في طريقي للسيد محمد

احمد محجوب لتحية الصباح ، عقدت المفاجأة لساني وأوشكت انفاسي ان تتوقف بعدما توقفت خطاي تلقائيا وانا ارى السيد اسماعيل الازهري يمتطي العربة الرئيسية ويغادر الفندق وحوله الدراجات البخارية وهو في طريقه الى قاعة المؤتمر الشيء الذي لم يكن متوقعاً ولا محسوباً .

دخلت على صديقي المحجوب في اللحظات التي كان يهيأ فيها «ربطة العنق» وأبلغته في حيرة بما رأيت وأنا لا أكاد أصدق ما رأيت فما كان من المحجوب الا ان خلع ربطة العنق في عصبية حادة واتجه فورا إلى التليفون ليلقي أوامر حازمة وجازمة ومؤسفة على وزير خارجيته السيد محمد ابراهيم خليل ، بل ويشفع أوامره الشفوية كتابة بمنع جميع اعضاء الوفد السوداني بما فيهم وزير الخارجية نفسه من حضور الجلسات . حاولت في تلك اللحظات الحرجة ان اتدخل لاوقف الفضيحة المرتقبة المجلجلة لكن حال السيد محجوب لم يكن يسمح بمجرد المناقشة والحديث ناهيك عن التدخل في امر يحسبه هو خطير وجلل .

كان لابد لي ان اسعى جديا لاشاهد المسرحية الخطيرة قبل ان يرفع الستار وتدق الاجراس في قاعة المؤتمر وما ان اعتدلت الوفود العربية برؤسائها وملوكها حتى بدأت الرؤوس والنظرات كلها تدور نحو مقاعد وفد السودان التي خلت تماما الا من الرئيس الازهري ووزير التجارة الشيخ محمد احمد المرضي سكرتير حزبه وانتظر رئيس الجلسة الملك خمس وعشر وخمس عشرة دقيقة وهو يقلب اوراقا امامه او يتشاغل بها انتظارا لوفد السودان وهنا اسر له أحد مسؤوليه ويبدو انه ابلغه بالحقيقة المؤسفة فما كان منه الا ان اعلن عن افتتاح الجلسة .

.. النظرات التائهة ، والهمهمات المتواصلة ، ثم الهمسات التي ارتفعت فيما بعد إلى ما يشبه الجلبة من كل الوفود وهي تتجه بكليتها إلى مقاعد وفد السودان وهي متسائلة حيرى تبحث عن السر ومعرفة الاجابة اضطرت الملك الحسن ان يرفع الجلسة لفترة وجيزة ويبدو انه فعل ذلك حتى يجد لنفسه وللاخرين فرصة يتعرفون من خلالها على السر الغامض وراء مقاطعة رئيس وزراء السودان وجميع اعضاء وفده لجلسات المؤتمر . كل ذلك والسيد اسماعيل الازهري ثابتا في مقعده دون ان تحركه الاحداث وكأن شيئا لم يكن . انفضت الجلسة والتف جمع كبير من الصحفيين حولي باحثين عن الاجابة ، لكنني لم اضيع وقتي فيما لا يجدي فجاءني الشيخ المرضي مسرعا متعجلا في محاولة لتطويق الخلاف المحزن فأكدت له ان محجوب لن يحضر وقد اصدر أوامره لبقية اعضاء الوفد بمقاطعة المؤتمر .

كان من بين من تحدثت اليهم من الصحفيين العرب الاخ محمد حسنين هيكل آملا ان يقوم بمحاولة لابلاغ الرئيس عبدالناصر حتى يستغل صداقته للطرفين المتنازعين فيوفق بينهما الا ان الاخ هيكل اكد لي بان الرئيس عبدالناصر يزعجه كثيرا ان يتدخل

بين الزعماء السودانيين خوفا من حساسيتهم المفرطة وصدق هيكل الذي كان يقرأ أفكار عبدالناصر بل ويعرف كل اتجاهاتها ومواقفها ومراسيها لاننا عندما قمنا بالمحاولة مع الشيخ المرضي وقابلنا عبدالناصر كان رده لا يختلف كثيرا عن استقراءات هيكل لكنه زاد عليها بان روى لنا قصة وقعت له في شبابه عندما كان ضابطا صغيرا في الخرطوم ضحكنا لها كثيرا، لكن يبدو ان عبدالناصر جعل من تلك القصة ارضية وواقعا بنى عليها كل سياساته المستقبلية في تعاونه مع السودان. قال الرئيس عبدالناصر لنا:

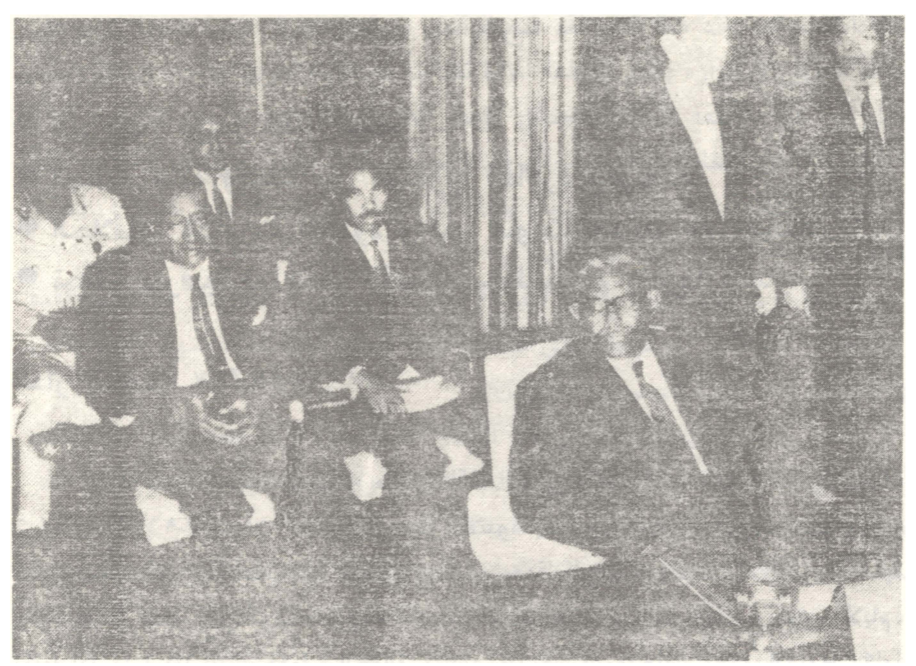
«زمان عندما كنت في الخرطوم اسير مع زميل آخر لي في شارع «فكتوريا» القصر الآن رأينا اشتباكا عنيفا بين اثنين من المواطنين السودانيين أمام سينما كلفديوم وقد هالنا ان نرى أحدهما وهو ينزف بغزارة من فمه وما ان حاولت انا وزميلي ان نفض الاشتباك، الا ان استدار نحونا الشاب الذي كان ينزف والقمنا حجرا كبيرا عندما قال لنا في عصبية:

«انتم ايه اللي دخلكم يا أولاد الريف؟!» ومن تلك الحادثة التي لن انساها ومن معايشتي لاهل السودان والحديث مازال لعبد الناصر شعرت بانهم أصحاب حساسية شفافة ان اردت إخاءهم فابعد عن مشاكلهم وخلافاتهم».

.. لملمت اطرافي انا والشيخ المرضي وتوجهنا إلى المغفور له جلالة الفيصل وقد عرف بذكائه وصداقته للازهري والمحجوب معاً فأبدى اسفه للذي حدث ولملم عباءته وفي يده المسبحة التي لا تفارقه واستطاع بعد لقائين صغيرين قصيرين مع الطرفين المتنازعين حتى استطاع ان يحسم بينهما الخلاف وانتهى كل شيء لكن الآثار التي ترتبت على هذا الخلاف المؤسف كان لها صدى كبير وواسع في المؤتمر.

.. لم يكن السودان وحده سيد الخلاف وصاحب البدعة وخلاق المشاكل وانما كان معظم الرؤساء وبعض الملوك نجوما بارزة في المهاترات والمشادات الكلامية وتبادل الاتهامات في اعنف واقبح صورها، بل ووصلت درجة من التدهور اوشك معها الرئيس السوري الاسبق امين الحافظ وجمال عبدالناصر ان يتشابكا بالايدي والكلمات لولا لطف الله. ليس ذلك فحسب فقد كانت خاتمة الكوارث وفضيحة الفضائح عندما اعلن الرئيس عبدالناصر وكان رئيسا للجلسة وهو ينعي كل الفضائل والاخلاق للمؤتمرين بأن راديو «اسرائيل» قد اذاع كل اسرار اتفاقية الدفاع المشترك بل واذاع الخلاف حول القيادة المشتركة الأمر الذي يؤسف له أشد الاسف، وقال من المؤكد ان واحداً منا هو الذي مد العدو بهذه المعلومات الخطيرة التي بحثناها معا وفي سرية تامة فاذيعت حرفيا في المساء من راديو اسرائيل.

هذه بعض الصور وبالرغم من انها مضغوطة الا انها تمثل جزءاً صغيرا ويسيرا مما كان يجري في صالونات مؤتمرات القمة العربية التي تظل كل الاعناق مشدودة اليها، كما تظل كل الآمال معقودة عليها ومع ذلك وبكل المقاييس السيئة فانها كانت محاولات



الازهري يترأس وفد السودان في جلسة الافتتاح الاثنين ١٩٦٥/٩/١٣ وقبل الاشتباك

للالتقاء اكثر وأفضل بكثير من عدمها الشيء الذي يحز في نفس كل مواطن عربي فلقد وقعت احداث كبيرة ومؤثرة ومؤسفة الا ان القادة العرب عجزوا وفشلوا في عقد مؤتمر قمة واحد بالرغم من ان الأمل العربي والرجاء الشعبي في مثل هذه اللقاءات قد انخفضت درجاته وماتت حرارته.

مع كل الذي رويته ومع الصور المؤسفة التي رسمتها ، فان التاريخ يفرض علي ان انقل ولو في ايجاز مجريات واحداث بعض دقائق هذه المؤتمرات علنا نجد فيها شيئاً مشرقا ومضيئاً.. من يدري؟!

- هل نجح مؤتمر الدار البيضاء..
- أحداث هامة وقعت بين مؤتمري القاهرة وكزبلانكا
- الخلافات تجاوزت الحدود ولكنها سويت حفاظا على الوحدة
- تخلف بورقيبة لم يخدم القضية... ولكنه لم يضرها أيضا.

**الدار البيضاء ١٩٦٥/٩/٢٧:**

.. قبل أن أتحدث عن نتائج مؤتمر القمة العربي الثالث الذي عقد في الدار البيضاء في سبتمبر ١٩٦٥ أود أن أقف وقفة قصيرة لاعود بالقارىء قليلا إلى الوراء حتى تتجمع أمام عينيه صور الأحداث في تسلسل يسهل معه متابعتها، فالاحداث السريعة منها والبطيئة لا تعدو ان تكون مجموعة خيوط قد تضيع بعض اطرافها مع مرور الايام، لكننا اذا ما اردنا ان نستكمل الحقائق، لابد لنا من ان نحاول جمع الخيوط كلها حتى تكتمل امامنا الصورة فنتعرف على جميع ملامحها واركانها وزواياها دون طمس وبلا تشويه ومن أجل ذلك سأحاول أن أضع أمام القارىء صورا سريعة عامة تمكنه من استعادة الحوادث تباعا..

كان مجرد انعقاد مؤتمر القمة العربي الاول بالقاهرة حلما كبيرا طالما تمناه العرب من المحيط إلى الخليج.. كانت الخلافات يومها تهدد وحدة الصف وتضامن الشعوب مما اضعف الامل في ايجاد حل لقضية فلسطين، ولعل الناس قد لاحظوا ان المؤتمر الاول على الرغم من ضعف ما حققه في المحيط العالمي الا انه استطاع ان يواجه الخلافات بصورة هددت نجاح المؤتمر غير ان بعض القادة تجاوزوا كثيرا عن الكيفية التي نوقشت بها الخلافات حرصا على وحدة الصف العربي ويومها وانا اتجول بين ردهات الجامعة العربية وفندق هلتون وكثيرون غيري من الصحفيين والمراقبين كانوا يتوقعون حدوث مضاعفات قد تعصف بالمؤتمر، ومع كل هذا فقد كانت النتائج بشكل عام فيها ملامح الانتصار لتصفية الخلافات...

.. وجاء مؤتمر الاسكندرية وكان امتدادا طبيعيا لمؤتمر القاهرة فبين انعقاد مؤتمري القاهرة والاسكندرية وقعت احداث كبيرة في العالم العربي تطورت على أثرها الخلافات خاصة بين سوريا والقاهرة من جهة وبين صنعاء والرياض والقاهرة من جهة اخرى غير أن مؤتمر الاسكندرية استطاع ان يهدىء ثورة الثائرين ولكن إلى حين..

ومضت الاحداث تتطور مرة اخرى بين انعقاد مؤتمري الاسكندرية والدار البيضاء

وازدادت الخلافات حدة بين القاهرة ودمشق وبين القاهرة والرياض وصنعاء ولكن الخلافات لم تنته عند هذا الحد فقد فتح الرئيس بورقيبة فجوة جديدة عندما خرج على الصف العربي في قراره بعدم مقاطعة المانيا تضامناً مع الأمة العربية وازداد الخلاف حدة وصل إلى حد مقاطعة الرئيس التونسي لمؤتمر الدار البيضاء مع الاسف الشديد.

وفي كل هذه الخلافات لم يستعمل المتنازعون اسلحة الحروب ولكنهم اعتمدوا كليا على وسائل اعلامهم كالاذاعة والصحف ووكالات الانباء التي لعبت دورا كبيرا في تعميق الهوة واستحالة التفاهم بين المتنازعين.

وبين مؤتمري الاسكندرية والدار البيضاء وقع حدث كبير لا يقل عن مؤتمرات القمة وهو مؤتمر عبدالناصر ـ فيصل الذي عقد في جدة ووضع نهاية لحالة التوتر التي سادت جو البلدين الشقيقين بسبب حرب اليمن.

.. ليس هنا مجال الحديث عن هذا المؤتمر الكبير على الرغم مما حققه من انتصار واضح للقضية العربية كلها مما أعاد وحدة القلوب والصفوف لمواجهة عدو غادر اكبر يتربص بالعرب كلهم دون تمييز وبلا مجاملة. المهم ان الرئيس عبدالناصر والملك فيصل قد حققا أمل العرب وقضيا على فتنة كبرى تقبع وراءها أحلام اسرائيل والمستعمرين.

.. أعود مرة أخرى لمؤتمرات القمة بعد ان جاء عرضا ذكر مؤتمر جده وكان لابد من الاشارة اليه لانه أكبر حدث وقع بين مؤتمري الاسكندرية والدار البيضاء.. اعود لاقول بأن هذه المؤتمرات مهما تحققه من نجاح متفاوت الا ان مجرد انعقادها في اي صورة يحقق جانبا كبيرا من تدعيم وحدة الصف العربي لذلك فمهما يحدث من خلافات ومشادات بين الرؤساء والملوك العرب فان ذلك لا ينبغي ان يحتل مكانا للتشاؤم في نفوسنا لان هذه الخلافات والمشادات التي تصل احيانا درجة العنف والتجريح الا انها مع ذلك رصيد ضخم حالم يعقبه الصفاء والعناق والقبلات..

ان الصفاء والعناق والقبلات حدثت في مؤتمر القاهرة.. حدثت ايضا في مؤتمر الاسكندرية لكنه صفاء وعناق وقبلات كثيرا ما تنقلب مع تطور الاحداث ومرور الايام لجفوة ودموع وحسرة لا لشيء الا لان مؤتمري القاهرة والاسكندرية لم يضعا من الضمانات ما يجعل هذا العناق والصفاء أمرا دائما.. ولم يضعا الالتزامات ما يجعلها حقيقة ثابتة لا تؤثر عليها الاحداث ولا تهزها الرياح مهما كانت قوية، ومهما كانت عاصفة، وقد ادرك الاستعمار ومن يدورون في فلكه نقاط الضعف المحزنة المريرة فاستغلوها وظلوا يصطادون في الماء العكر ويدسون المؤامرات والمكائد بين دول العالم العربي فتجد عند بعضها ارضا خصبة واستجابة وقد تكون عن سذاجة أو عدم ادراك فتطل الخلافات رأسها من جديد في انتظار مؤتمر اخر يصفيها إلى حين موقوت.

.. أما ما حدث في مؤتمر الدار البيضاء فقد كان جديدا على المؤتمرات، جديدا في المعنى والاسلوب على الرغم من ان اسلوب الخلاف وطريقة نقاشه لم تختلف كثيرا عن

المؤتمرين السابقين فقد تمادى بعض الزعماء إلى اتهامات وهجمات حدا بعيدا تماما كما حدث في المرات السابقة لكن الرؤساء والملوك ادركوا هذه المرة فقط ان اسلوب التفاهم بينهم ان سار على ما سار ويسير عليه فان الامل سيضعف اكثر مما كان في تقريب وجهات النظر وتوحيد الصف العربي لمواجهة فلسطين فعمدوا على وضع النهاية الفاصلة لكل ما تسبب في هذه الخلافات. فكان ميثاق التضامن العربي الذي اقترحه السودان فوجد من الرؤساء والملوك الاستجابة وانتهت بذلك مأساة الخلافات وما يترتب عليها من خصومة واصطدام.

لا أريد أن أعود إلى بنود الميثاق ولكنني اعتقد أن أهم ما جاء فيه هو التزام الدول المشتركة بعدم التدخل في شؤون الشقيقات الاخريات وسن التشريعات اللازمة للصحف والاذاعات بأن تسلك مسلكا يحفظ التضامن العربي والوحدة العربية حتى تتفرغ بعد ذلك الى مشاكلها الكبرى وعلى رأسها مشكلة فلسطين والحديث في مؤتمر القمة الثالث لا يمكن ان يخلو من اشارة للرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، فقد ظل رسوله الخاص السيد المنجي سليم يقوم في فندق المنصور باتصالات واسعة مع أعضاء الوفود عله يجد من يناصر وقفة رئيسه فلم يجد غير الاستنكار، وحتى البيان الذي وجهه للرؤساء والملوك العرب قد رفضه مؤتمر وزراء الخارجية ولم يدرجه في اجندة المؤتمر.

لقد اطلعت على بيان الرئيس التونسي وقرأته سطرا سطرا وقد حوى عبارات هجوم شديدة على الجمهورية العربية المتحدة وعلى رئيسها جمال عبدالناصر وعلى الرغم من حرارة الهجوم الا انني اريد أن أؤكد للقراء أن هجوم الرئيس التونسي على الرئيس العربي في مؤتمر القاهرة كان أقسى واشد ومع ذلك فقد ظل سرا حبيسا بين جدران الجامعة العربية.

كان الرئيس التونسي يستطيع ان يحضر مؤتمر الدار البيضاء.. وكان يستطيع كعادته ان يقول ما يشاء ـ فقد قيل في المؤتمرات أكثر مما يشاء ـ أما أن يقدم على خطوة المقاطعة فهذا في رأيي لا يخدم القضية العربية كما لا يعرقل سيرها ايضا..

.. أنا لا أريد أن أبحث هنا دوافع الرئيس التونسي ولكنها مهما كبرت، فانها لاعتبارات كثيرة أهمها وحدة الصف العربي كان ينبغي الا تحدث ومع ذلك فالامل كبير بعد الاتصالات التي جرت ان يعود الرئيس التونسي إلى الصف حتى لا يفوته الركب الذي بدأ مسيرته هذه المرة فاقسم الا يعود بعدها او يلتفت الى الوراء.

.. ومرة ثانية فان الحديث عن مؤتمر القمة العربي لا يمكن ان يخلو من الاشارة إلى قضية فلسطين التي جاءت في المؤتمرات الثلاث في المرتبة الثانية على الرغم من ادراجها دائما في قمة الاجندة لان الخلافات دائما تأتي في المقدمة. قال أحد الرؤساء العرب في مؤتمر الدار البيضاء «لا فائدة من مناقشة اي موضوع قبل ان نصفي ما بيننا من خلاف اذ من المستحيل ان تعتدل خطواتنا، وتتوحد قلوبنا وهي مليئة بالجفوة

وعدم الرضى » وفعلا واجه المؤتمر خلافاته بصراحة وقضى عليها بنفس الصراحة لان المؤتمر كان هذه المرة أكثر جدية وأكثر واقعية.

هذه كانت الحقيقة الكبيرة التي تختفي دائما وراء الامل فقد اصبحت اليوم حقيقة كبرى اثلجت صدور العرب من المحيط إلى الخليج بعد ان سويت الخلافات تماما واصبح ميثاق التضامن العربي صمام الامان الذي يكبح جماح الغضب ويقف عقبة امام كل محاولة تقوم لهدم الصف العربي.

لقد نجح مؤتمر الدار البيضاء اكثر من مؤتمري القاهرة والاسكندرية ولكنه استمد نجاحه منهما لان المؤتمرين السابقين كانا اكبر تجربتين يخوضهما الرؤساء والملوك.

ان نجاح المؤتمر هذه المرة يعزى لشيء واحد لم يكن متوفرا في المؤتمرين السابقين هو الصراحة مع الايمان والاخلاص والاصرار على الوقوف والتحرك، فالخطوات التي كانت غير منسجمة في الماضي قد اعتدلت اليوم والعقبات التي كانت تعرقل المسير قد ازيلت بقوة وباصرار.. والآمال التي كانت بالامس سرابا بعيدا قد اصبحت الان حقيقة واقعة..

.. ليس امامنا الا ان نمضي إلى الامام ملتزمين بميثاق التضامن العربي اللهم الا اذا حادت دولة عن الطريق المرسوم الذي حدد معالمه الميثاق الخالد فانها ان فعلت ذلك فلن تؤثر على الاخرين ولكنها فقط عندما تصحو من اغماءاتها ستحس بالغربة والوحشة والفراق وغداً نتابع حديثنا.

- **لا يمكن ان تحل قضية فلسطين ما لم يحدد مصيرها**
- **المساومات والمناورات السياسية تهد قضية فلسطين**
- **عبدالناصر يخطىء ويصيب ولكنه دائما يخلق الاحداث**
- **مهما قالوا عن عبدالناصر فانه غير وجه العالم العربي.**

**الدار البيضاء ١٩٦٥/٩/٢٨**

.. ظلت مشكلة فلسطين دائما وابداً والى ما قبل عام ١٩٤٨ يوم ان اقرت هيئة الامم شطرها إلى جزئين.. ظلت مشكلة تواجه العالم العربي، وأكبر مأساة تواجه الضمير العالمي ولقد واجه العالم العربي يومها المشكلة بالسلاح ولكنه اندحر امام جيوش الاستعمار لا لانه ضعيف ولكن لانه كان محاطا بالدسائس والمؤامرات.. كان العالم العربي آنذاك ضعيفا في قادته وحكوماته لا ضعيفا في قدرته وايمانه..

وتحرر العالم العربي في الفترة ما بين ١٩٤٨ ـ ١٩٦٥ من قيود ثقيلة كثيرة ولكنه لم يتحرر بعد من قضية فلسطين، فقد أصبحت تشكل خطرا على كيانه ووحدته ومستقبله.. والصراع بين الكتلتين العربية والاستعمارية في قضية فلسطين مازال في قمة مرارته ولكنه صراع اختلف في الشكل والاسلوب دون ان يتغير الجوهر ودون ان تتغير الاهداف.

فالجوهر هو أن العرب قد سلبوا قطعة من جسدهم وهم في غفلة من امرهم والأهداف هي وجوب استعادة هذا الحق المسلوب..

ان العالم العربي كله متفق حول الجوهر والهدف ولكنه مختلف في الوسائل والتنفيذ فقضية فلسطين منذ قديم الازل كانت خاضعة لمساومات عديدة كما كانت تحيط بها مطامع ذاتية لا تقف عند حد الحصر ففي الماضي كان لسوريا مطامع خاصة في فلسطين وكان للقاهرة ايضا مطامع خاصة... هذه واحدة. أما اسرائيل ذاتها فقد لا يقف مطمعها عند حد البقعة التي سلبها لها الاستعمار وانما قد تمتد هذه المطامع بعيدا إلى تهديد ما حولها من أرض وماء وخضرة وبشر مما يجعل امر مواجهتها ضرورة ملحة تقتضيها المصلحة العربية كلها.

ان سلب ارض فلسطين مأساة كبرى ولكن حياة اسرائيل وبقاءها في قلب العالم العربي مأساة اكبر، يهون في سبيل القضاء عليها كل خلاف وكل جفوة.

.. لقد قلت في حلقة الامس أن مؤتمر القمة الاخير قد حقق انتصاراً كبيرا بميثاق

التضامن العربي ولكنه بعد هذا الانتصار يجد نفسه وجها لوجه امام مشكلة فلسطين التي أصبحت لعبة سياسية كبرى في السنوات الاخيرة في محيط المؤتمرات والمناورات السياسية المختلفة.

.. ان العرب يجب ان يواجهوا هذه المشكلة بنفس الصراحة التي واجهوا بها خلافاتهم، وفي رأيي أن العرب لا يستطيعوا ان يفعلوا ذلك قبل ان يحددوا أولا مصير فلسطين ذاتها، فلقد سمعت في ردهات مؤتمر الدار البيضاء ان بعض الدول العربية مازالت لها مطامع مستترة تجعل الاخرين يسبحون بدورهم في محيط الشكوك والهواجس، وعلى الرغم من ان هذه المطامع غير واضحة الا ان البعض يحسونها. من هنا وحفاظا على وحدة النضال ومستقبل القضية الفلسطينية اصبح تحديد مصير فلسطين هو بمثابة الاساس بنقطة البداية... ان الرؤساء والملوك العرب كثيرا ما اختلفوا في المؤتمرات حول قضية فلسطين لا في الجوهر ولا في الهدف كما قلت وانما في تفصيلات لا ينبغي ان تظهر على السطح وفلسطين مازالت نهبة كلاب الاستعمار واذنابهم.

والحديث عن مشكلة فلسطين يقودني إلى الخلافات التي كانت دائرة فيما مضى بين دمشق والقاهرة وبين الاردن والقاهرة وبين الرياض والقاهرة والتي اتهموا بسببها الرئيس جمال عبدالناصر الذي اصبح حدثا لحملات كثيرة من الملوك والرؤساء العرب.

لقد تعرض الرئيس عبدالناصر في جميع المؤتمرات بما فيها مؤتمر القمة الاخير إلى هجمات كثيرة وصلت حد التجريح، وأنا هنا لست بصدد الدفاع عن الرئيس العربي فهو اقدر مني بالطبع على ذلك ولكنني بصدد سرد حقائق كبرى لا يجوز أن تضيع وسط الضجيج والصراخ. فالرئيس عبدالناصر قد يكون مخطئا في حملته على اليمن، وقد يكون مخطئا في هجومه على السعودية... وقد يكون مخطئاً في كثير مما ذهب اليه الرؤساء والملوك ولكننا مع كل هذا لايمكن ان ننكر على عبدالناصر انه غير وجه العالم العربي واصبح رمزا واضحا لكفاحه ضد الاستعمار. فعبد الناصر لم يدخل التاريخ من ابواب بلاده فحسب وإنما دخله من ابواب العالم العربي الذي كان فيما مضى نهبة للاستعمار ضعيفا في ارادته وحكوماته وفي وسائل كفاحه، دعونا نواجه أنفسنا بصراحة فقد جاء الوقت الذي يجب ان نزيل من على اعيننا التراب ونعطي كل ذي حق حقه..

.. ماذا كان عليه العراق قبل ان يجيء عبدالناصر؟

.. ماذا كان عليه امر الجنوب العربي قبل ثورة ٢١ يوليو؟

ماذا كان امر الجزائر قبل أن يظهر عبدالناصر؟

ماذا كان في العالم العربي كله قبل ان يظهر هذا الرجل؟

أنا لا اريد أن أعود إلى ما كان عليه عالمنا في الماضي البعيد فقد كان كله صورة قاتمة سوداء وجهها مشوه، وقلبها ضعيف واحساسها ميت، يتصرف في امرها من هم

ليس منها وتلعب بقاربها المياه في كل جانب فتسير بلا ارادة وبلا غاية وبلا هدف.

.. ان عبد الناصر الذي واجه في مختلف المؤتمرات الهجمات المريرة التي تصل أحيانا درجة التجريح ليس إلهاً وانما هو بشر مثلنا يخطىء ويصيب لكننا ونحن نواجه الرجال يجب أن نتصف بالعدالة، فأخطاء عبدالناصر مهما كبرت فانها لا تساوي شيئا مع ما حققه من انجازات وانتصارات وكفى ان العالم العربي اصبح له اليوم ذاتيته وشخصيته... وأصبح يصنع اليوم الاحداث بعدما كان منزويا بعيدا وراء اطرافها.

.. صحيح أن عبدالناصر لا يستطيع ان يصيب دائما.

لانه بشر مثلنا ولكنه دائما يسبق الأحداث ويصنع الأحداث وهو مؤمن بما يفعل دون ان يهتم لما يترتب عن ايمانه واقدامه هذا من اخطاء يحسبها عليه الاخرون.

.. لقد دفعني إلى كل هذا الحديث مشكلة فلسطين التي يعرف الرئيس عبدالناصر موضع الخلاف فيها تمام المعرفة فوق انه يدرك تمام الادراك أنها قضية لا يمكن ان تحل الا اذا اتفق العرب على تحديد مصيرها، وانا وان كنت واثقا ان مجرد الحديث عن تحديد مصير فلسطين سيجلب كثيرا من المتاعب والخلافات الا انه لابد منه فخير لنا ان نبادر بمواجهته منذ الان قبل ان تفرض علينا الاحداث مواجهته في وقت تصبح هذه المواجهة امرا محفوفا بالمخاطر.

.. ان عملية تحديد المصير الفلسطيني ستوقف كثيرا من المنازعات العربية وستقلص الخلافات فوق انها ستتيح الفرصة لابناء فلسطين ان يثبتوا وجودهم في مرحلة التحرير وان يخوضوا التجارب المريرة التي سيواجهونها ان عاجلا أم آجلا وهم يقفون على ارض صلبة ويعرفون معالم طريقهم فيكسبون مزيدا من الثقة والايمان بقضيتهم وبكفاحهم.

.. ان العرب كما قلت يتفقون معا في جوهر القضية وفي اهدافها القريبة والبعيدة وهم يشتركون في المشاعر الحلوة والتضحيات الكبيرة من أجل تحرير فلسطين ولكنهم سيزدادون أكثر تمسكا وايمانا ان هم خطوا خطوة واحدة إلى الامام في سبيل تقرير قضيتهم وهذه الخطوة هي بالخط العريض:

«تحديد مصير فلسطين»..

- **من هو اول رئيس سمع بمحاولة انقلاب العراق؟**
- **كيف امضى عارف لحظات استماعه للنبأ.**
- **عبدالرازق مش ممكن يعمل كدة ... ده أعز صديق لي..**
- **القومية العربية خرجت من طور الولادة لكنها لم تبلغ مرحلة النضوج:**

**الدار البيضاء: ١٩٦٥/٩/٢٩**

.. كان كل شيء هادئا في امسية ١٦ سبتمبر ١٩٦٥ وردهات فندق المنصور تشهد كعادتها أفواجا من أعضاء الوفود يتحدثون في وقفات متعددة ويجلسون جماعات جماعات حول الموائد ... وفي اركان الردهة الواسعة يقف وزراء الخارجية وهم يتحدثون في همس وعيون الصحفيين تتطلع اليهم في تحفز وتساؤل واستطلاع .. وفي مدخل الباب يصطف على جانبيه كالعادة الحرس القومي والسيوف في الايدي تلمع مع الثريات التي امتلأ بها المدخل... كل شيء كان عاديا ومألوفا لا يلفت النظر ... وتقدم الليل بخطواته البطيئة فاذا برنين التلفون يمزق ارجاء الطابق الرابع حيث يسكن فخامة الرئيس جمال عبدالناصر.

.. كنت في الخرطوم اتلقى انباء الانقلابات اما عن طريق المذياع كبقية المواطنين او عن طريق الة الانباء الكاتبة التي تذيع الاخبار رأسا من لندن وهي تقرع احيانا اجراسا خفيفة او تشير إلى النبأ بكلمة «هام»، وبعد ذلك نتابع انباء الانقلاب من الناحية الخبرية دون ان نعرف التفصيلات الهامة التي تحدث عادة وراء الانقلابات، يتلقى الذين يجلسون على كرسي الحكم انباء الانقلاب عندما تفاجئهم في بلادهم وتهز من تحتهم المقاعد فتهوي في لحظات التيجان من رؤوسهم او تهوي في بعض الاحيان رؤوسهم نفسها..

.. هذا ما كان من امرنا اما ما حدث في فندق المنصور فكان شيئا جديدا علي، فقد شهدت في صباح اعلان محاولة الانقلاب في العراق وجه الرئيس عبدالسلام عارف وهو يخرج من الاسانسير .. وهو يخرج من الردهة ... وهو يخرج من الفندق .. وهو يركب العربة في طريقه إلى المؤتمر، وفي طريقه الى جامع الملك محمد الخامس حيث ادى فريضة الجمعة..

... لقد قرأت كلاما كثيرا في خطوات الرئيس عارف وفي حركاته وفي نظراته وفي تعبيرات وجهه ولكنني لم استطع ان انفذ بنظراتي لاقرأ ما في قلبه حتى اعرف وقع

النبأ وما خلفه من آثار على نفس الرجل.. كل الذي استطعت ان اقرأه في وجهه هو التعب والاجهاد وابتسامة عريضة جدا حاول الرئيس الكبير ان يخفي وراءها آلامه وحقيقة مشاعره..

.. كانت العيون كلها في ذلك اليوم حتى عيون رجل الشارع ناهيك عن السياسيين والصحفيين تبحث في مواكب عربات الرؤساء والملوك عن عربة الرئيس العراقي حتى تستطيع هي الاخرى ان تقرأ في ملامح وجهه اثار محاولة الانقلاب في بلاده.

وكانت الاعناق في الردهات الكبيرة في فندق المنصور وفي قاعة المؤتمر بدار العمالة وفي الطرقات المؤدية له وفي البلكونات.. كانت كلها تتطاول في تساؤل غريب وفي استطلاع شديد وفي محاولات يائسة لتقرأ شيئا على وجه الرئيس عارف الذي اصبح رجل الانباء الاول في ذلك الصباح، ولكن كل هذه الاعناق قد عادت إلى مكانها بعد ان قرأت وجه الرجل من زاويتها الخاصة وباسلوبها الخاص، وعلى كل فان اوضح المعالم في وجه الرئيس عارف كانت ابتسامته العريضة التي قلت بانه حاول ان يخفي وراءها حيرته وتساؤلاته. فالرجل نفسه كان بعيدا عن مسرح الاحداث.. بعيدا عن بغداد عاصمة بلاده التي جرت فيها محاولة الانقلاب، وهو نفسه في ذلك الوقت كان يبحث عن اجابة لاكثر من سؤال يحلق في رأسه ليعرف ماذا وراء المحاولة.. وكيف جرت وكيف.. و.. و.. .

.. هذه مقدمة كان لابد لي من سردها وهي مقدمة تنقل في ايجاز ما كان عليه الرئيس العراقي وما كان عليه المتطلعون من رجال فندق المنصور، ودار العمالة، ورجل الشارع وهو يقف اياما خمسة يتطلع فيها إلى مواكب الرؤساء والملوك قبل ان يحتل الرئيس العراقي صدارة الانباء فانصرفت اليه كل العيون.

.. سأعود إلى ما قبل ذلك الصباح ساعات عديدة إلى الوراء حينما دقت الاجراس في جناح الرئيس العربي وقد كان الرئيس الاول الذي علم بمحاولة الانقلاب في العراق وبعدها بعشرين دقيقة وصلت نفس الانباء من بغداد إلى الرئيس العراقي وكما علمت من بعض المصادر الوثيقة في ردهات فندق المنصور فان الرئيس العربي لم يشأ ان يبلغ الرئيس العراقي بالانباء التي وصلته حتى يستوثق من صحتها ولكن بعد ان وصلت الانباء الى الرئيس العراقي، بدأت كذلك تصل إلى بقية الرؤساء والملوك العرب فأضيئت ردهات الفندق بعد ان كانت مطفأة، ودبت الحركة في كل جناح ثم انتقلت إلى كل ركن بعد ان كانت ميتة تماما، استسلم فيها معظم الاعضاء إلى نوم عميق واحلام وردية..

عارف يجتمع بالرئيس عبدالناصر.. بومدين يبحث عن عارف... الملك الحسن ينتظر مزيدا من المعلومات.. رسل عديدة من الرؤساء والملوك امام جناح الرئيس العراقي يستطلعون النبأ.. حركة دائبة وخطوات مستعجلة تمزق هدوء الليل وصمت

الجدران.. العيون كلها تتطلع باحثة عن مزيد من المعلومات، والمعلومات قصيرة مقتضبة لا تزيد على ان بعض الضباط حاولوا القيام بانقلاب ضد نظام الحكم في العراق ثم تمضي الساعات ثقيلة متباطئة فتأتي اضافات جديدة تقول ان رئيس الوزراء هو على رأس تلك الجماعة التي قامت بالمحاولة.. وتمضي الساعات اكثر تثاقلا واكثر بطأ فتقول بان رئيس الوزراء قد حاول الانتحار... ثم تتقدم الدقائق قليلا قليلا نحو الفجر فتقول بان رئيس الوزراء ومن معه قد اعتقلوا بعد ان كشف شقيق عارف المؤامرة.. ثم تمضي اللحظات بخطوات اخرى نحو الفجر فتقول بان رئيس الوزراء ومن معه قد قبض عليهم وارسلوا في طائرة خاصة إلى القاهرة... وتزداد العيون تساؤلا فتجيبها اللحظات المتبقية من خروج الفجر فتقول بان رئيس الوزراء وعائلته ومعه بعض الضباط قد هربوا إلى القاهرة.

هذه هي اللحظات القلقة التي عاشها الرؤساء والملوك العرب بما فيهم الرئيس العراقي نفسه والاجتماعات تعقد هنا وهناك بحثا عن مزيد من الحقائق وكثير من التفصيلات..

قرر الرئيس العراقي السفر رأسا إلى العراق.. سمعت من مصادر فندق المنصور وهي كلها بالمناسبة ذات صلات وثيقة ومراكز كبيرة.. سمعت بان شخصية كبيرة نصحت الرئيس العراقي بان ينزل في القاهرة عند سفره الى بغداد حتى يستقصي الحقائق من رئيس وزرائه!!

.. وسمعت ايضا ان الرئيس العراقي قال انه لن يعمل بهذه النصيحة خوفا من ان ينتحر رئيس وزرائه وقد حاول ذلك عندما فشل في حركته!!

.. وسمعت ايضا ان الرئيس العراقي عندما تلقى النبأ كان يقول بأعلى صوته وهو يضرب كفا بكف:

.. مش معقول عبدالرازق يعمل كده... دا اعز صديق لي.. ده آخر من يطعنني في ظهري..

... وسمعت ان الرئيس العراقي كان يقول:

انا فضلت عبدالرازق على شقيقي وما تداخلتش حتى في اختيار وزرائه... ده مش معقول.. وهو يمضي يصفق يدا بيد ويردد عبارة «لا حول ولا قوة الا بالله».

.. ونزلت الى ردهة فندق المنصور لابحث عن مزيد من التفصيلات.. وبعيدا لمحت الاستاذ محمد حسنين هيكل وهو يجلس مع شخص ثان فوليت وجهي نحوهما فاذا بهما في عراك وجدل سياسي لا ينقطع.

.. اخذت مكاني بينهما وبدأت استمع إلى ما يقولان، ولم أشأ ان اشارك في الحديث لانه كان كما يبدو شقه الاخير او في نهايته وفجأة استدار نحوي الاستاذ هيكل قائلا:

والا ايه رأيك ياسي عبدالرحمن؟

قلت له انا لا اعرف عم ماذا تتحدثان لقد جئت الآن.

كان دكتور البزاز يتحدث عن القومية العربية فقال وهو يتحدث بقلبه ولسانه ويديه: يا استاذ هيكل القومية العربية خرجت من طور الولادة ولكنها لم تصل بعد مرحلة النضوج... انها مازالت في مرحلة التكوين.

قال هيكل:

أنا موافقك جدا جدا وبلا تحفظ.. لكنني سبق ان قلت لك ان الحركة البعثية في الشرق العربي ولا اقصد سوريا بالذات كانت ولم تزل..

فقال الدكتور البزاز دون ان يعطيني فرصة معرفة رأي هيكل في الحركة البعثية.. قاطعه قائلا:

ما هو أنا يا أستاذ هيكل فهمت كلامك..

.. وهنا كان يقف على رأسي الاستاذ محمد احمد المرضي اذ كنا على موعد للخروج فتركت هيكل والبزاز يتجادلان واستأذنت منهما فقطعت ردهة الفندق الطويل وانا اطوف ببصري حول الوجوه التي كانت كلها نظرات تتساءل عن احداث العراق وما يجري في العراق..

.. وعلى غير العادة تضاعفت الجماهير في الطريق من الفندق الى دار العمالة حيث يعقد المؤتمر وكلها جاءت هذه المرة لا لتحيي الرؤساء والملوك فحسب، بل لترى رجل الانباء الاول الرئيس العراقي علها تقرأ في وجهه تفسيرا لما يجري في العراق!!

**● سؤال استعماري سخيف وكريه ومغرض**
**● صحفي اميركي يسأل الملك فيصل هل عدوكم الاكبر اسرائيل ام مصر؟**
**● المفاوضات بين السودان واثيوبيا وضعت خطوطها العريضة مع الامبراطور.**
**● استقلالنا سيظل مسيخا ومشوها ما لم نحرر اقتصادنا.**

**الخرطوم ١٩٦٦/٦/٢٥**

عاد الخلاف المؤسف من جديد في المنطقة العربية وهو اكثر عنفا وشدة مما كان عليه في اي وقت مضى. لقد ظللنا نتابع هذا الخلاف وقلوبنا تتقطع ومشاعرنا تهتز من فرط الحزن والالم ونحن نتطلع في كل يوم جديد الى مجرد خيط رفيع نعلق فيه أمل القضاء على هذا الخلاف، ولكن يبدو ان خيوط الامل كلها ذابت وسط النيران المتأججة التي يزيد من اشعالها الاستعمار والصهيونية. وعلى الرغم من ذلك فانني لعلى يقين من ان الظروف والمصائب وحدها ستجمع المصابين وتوحد بين صفوفهم وقلوبهم من جديد.

.. اقول هذا الحديث بمناسبة سؤال سخيف مغرض وجهه احد الصحفيين في واشنطن للملك فيصل قبل ثلاثة ايام ـ وكأنى به يريد ان يستغل مواضع الخلاف بينه وبين الرئيس جمال عبدالناصر غير ان الملك فيصل قد كبر في نظري وهو يلقن الصحفي درسا قاسيا في الاخلاق.

قال الصحفي الصهيوني للملك:

هل تعتبرون عدوكم الاول اسرائيل ام الجمهورية العربية المتحدة؟

.. الحقيقة لقد قمت فزعا من سريري وكانت الساعة تقرب من الواحدة صباحا وانا استمع من الراديو لهذا السؤال.. قمت وارهفت سمعي وكل مشاعري بعدما رفعت الصوت حتى اتبين كل كلمة وكل حرف وكل همسة.. وساد الصمت في القاعة الضخمة التي عقد فيها المؤتمر الصحفي وانتقل الصمت المطبق إلى الراديو والى آذاننا.

وتمهل الملك فيصل اكثر من دقيقة ليرد على هذا السؤال الاستعماري المغرض الذي يهدف إلى مزيد من القطيعة والجفوة.

.. وبعد لحظات طويلة من عمر الدهر قال الملك في صوت مرتفع:

.. يؤسفني غاية الاسف ان استمع إلى هذا السؤال الغريب حقا واريد اولا ان استفسر عما قال لكم ان الجمهورية العربية المتحدة عدونا... وبالتالي اريد ان أؤكد انها ليست كذلك وانما هي شقيقتنا وصديقتنا وتربطنا بها روابط تاريخية ودينية كثيرة وعميقة ـ ووجه الملك بعد ذلك هجوما مريرا على اسرائيل والصهيونية.

وعدت استلقي من جديد بعدما تنفست الصعداء وانا استمع الى تصفيق حاد عنيف

كاد ان يمزق شبكة الراديو..

لقد اعجبت كثيرا باجابة الملك فيصل لانه فوت على الاستعمار وهو يتربص بالعرب فرصة الدس والوقيعة التي ظل يبحث عنها كلما واتته الظروف فكان الملك فيصل أمينا حفظ للعرب كثيرا من ماء الوجه والحياء..

قلت في نفسي صحيح ان الخلاف بين الاشقاء قد يصل درجة من سوء التفاهم يجد المرء الا لقاء بعده غير ان الخلافات مهما كبرت وظلت بين العرب فانها لا محالة ستنتهي وفي التاريخ دلائل كثيرة على ذلك.

.. المهم انني حزنت كثيرا ومازلت احس بالحزن لهذه الخلافات العميقة التي يمكن ان تعالج عن طريق التفاهم.

.. لقد حضرت عديدا من مؤتمرات القمة العربية واذكر انني كتبت من مؤتمر الدار البيضاء اشيد بالرئيس عبدالناصر ذلك العملاق الذي مهما قيل عنه فانه قد غير وجه العالم العربي وجعل له وزنا افتقده الشعب العربي خلال عشرات السنين الاخيرة ولقد ذكرت ان الرئيس عبدالناصر قد تعرض إلى كثير من الحملات الجائرة، ولكنه كان اطول واعرض منها فلم تغير ما بنفسه لانه رجل يؤمن بقضية العرب ايمانا فاق حد التصور، غير انني مازلت ارى ان عبدالناصر وهو يقود مصر ام الشعوب العربية ورافعة راية النضال والكفاح عليه مسؤولية كبرى.. مسؤولية اكبر من معارك الخصام الصغيرة مسؤولية تحتم عليه ان يفوت على الاستعمار كل فرصة للوقيعة بين الشعوب العربية، وأنا لعلى يقين من أن جمال عبدالناصر سيسد كل ثغرة تهدف إلى ضعف الصف العربي كما انني واثق من ان خلافات العرب مهما كبرت فانها لابد ان تتلاشى امام عدونا المشترك وكما يقول المثل:

«انا واخويا على ابن عمي... وانا وابن عمي على الغريب»

**السودان واثيوبيا:**

بدأت امس المفاوضات بين الجانبين السوداني والاثيوبي حول مشاكل الحدود على مستوى كبير واذكر ان لم تخني الذاكرة ان الخطوط العريضة للمشاكل التي تعترض البلدين قد اثيرت مع جلالة الامبراطور ابان زيارة وفد الصداقة السوداني برئاسة السيد محمد احمد محجوب وقد تبودلت بشأنها مختلف وجهات النظر فالتقت عند نقاط كثيرة الشيء الذي يمهد الطريق امام المباحثات الحاضرة.

.. ونحن اذ نرحب ترحيبا حاراً بالسادة اعضاء الوفد الاثيوبي نأمل ان يتمكن الجانبان من الوصول الى تسوية حاسمة بشأن المشاكل القائمة في الاطار الذي يحقق مصلحة البلدين الشقيقين ومع ذلك فلابد من ان نشير الى الجانب الذي يهم الشعب السوداني ومصلحته.

# الفصل الثالث والعشرون

## مؤتمر القمة العربي في الخرطوم

- السعودية بين حرب ٦٧ والمفاعل العراقي .
- محجوب بين الوزير السفيه ، والأمير الحائر .
- هل خرج الشعب السوداني لاستقبال فيصل أم ناصر ! ؟
- الصحافة العالمية كانت عسكري شرطة .





## مؤتمر القمة العربي في الخرطوم ١٩٦٧

● المدينة المنورة ـ رمضان ١٤٠٤ ـ ١٩٨٠ .

لابد لي من مقدمة صغيرة وهي أنني والله ما جئت للمملكة السعودية إلا بغرض العمرة والتمتع بليالي رمضان بين بيت الله الحرام، ومسجد رسوله الأمين الكريم فلقد والله أحسست بحاجتي لهذه الزيارة التي اعتدت أن أقوم بها خلال رمضان الكريم لسنوات متصلة. كنت قبل زيارتي الأخيرة هذه التي بدأت قبل أسبوع في رحلة عمل وترويح بأوروبا وفجأة وبلا مقدمات شعرت بجسدي يخور كما شعرت بحمل ثقيل على كتفي لعله مجموعة الذنوب والخطايا التي عادة ما نرتكبها بالحديث أو بالصراخ أو الهمس أو اللمس أو النظر أو المشي أو مجرد التفكير فتضاعفت وتثاقلت مع مرور الأيام حتى لم أعد قادراً على حملها وعندئذ أحسست بحاجتي إلى الله .

● في أول ليلة من ليالي رمضان ذهبت إلى بيت الله الحرام وأنا حافي القدمين متشحاً برداء الملائكة الأبيض واتكأت على حائط البيت بجسدي المكدود المتعب وروحي المنهارة ورفعت يدي حتى تمكنت أظافري من التشبث والتعلق بكسوة البيت ورحت في إغماءة كأنها الموت وظللت أبكي ولكن في صمت، وأصرخ ولكن في صمت أكثر، وأدعو في براءة الأطفال فخالجني الشعور في تلك اللحظات بأن أقفز عالياً عالياً كما يفعل القط الجائع حتى أكون أكثر قرباً وتقرباً إلى الله .

وتمر لحظات الصفاء الملائكية السماوية فأحس أحياناً وأنا أدور وأدور بأنني شيء ما ثم أحس بأنني لا شيء على الإطلاق وبين هذين الإحساسين، أشعر بالضعف والتعب وأمتلىء بالضيق والخوف والرهبة معاً ثم يزداد بكائي الصامت وحزني الصامت فأدور وأدور وأدور حول البيت ثم أجري مهرولاً جزعاً وخائفاً مضطرباً وأجلس تحت ماء زمزم لتغسل خطاياي وتزيل ذنوبي.. وينهال الماء الطاهر على رأسي وجسدي فأشعر لحظتها بشيء ثقيل يخرج من صدري، وأشعر بالطين ينزل من رأسي وجسدي وينهال كالعجين تحت قدمي فأراه لزجاً كأنه جسد حيوان ميت ومسوداً كأنه جوف الليل، وساعتها فقط أدركت وأنا في أوروبا المحمومة الصاخبة لماذا شعرت بذلك الحمل الثقيل الذي لم أعد قادراً على حمله، ثم لماذا شعرت بحاجتي إلى الله ! .

● كان لابد لي من هذه المقدمة حتى تكون شفيعة لي إن أخطأت أو نسيت وأنا أقلب صفحات التاريخ المطوية التي مضى عليها زمان طويل، فكم أنا بحاجة إلى منظار قوي نافذ أستعين به على اختراق الزمن أو (مروحة) ضخمة أزيل بها الغبار المكدس من أمام عيني حتى أستوضح الرؤية وأتمكن من قطع المسافة بين عام ١٩٥٧ و١٩٨١ بيسر وسهولة. ولما لم أكن في وضع يمكنني من الرجوع إلى مذكراتي الخاصة في الخرطوم وأنا مجرد حاج معتمر يطلب الرحمة والغفران، فإنني سأستعين في سرد الأحداث التاريخية الكبيرة على مجرد الذاكرة ودون الدخول في تفصيلات، فأرجو مخلصاً ألا تخونني الذاكرة وقد أصبح عقلي بعد العمرة وبحمد الله في صفا سماء المدينة المنورة.

● قبل حرب إسرائيل في عام ١٩٦٧ وغزو أجزاء من مصر وسوريا والأردن وضياع القدس، كان الموقف العربي غائصاً إلى أخمص قدميه في الوحل السياسي وكانت الخلافات العربية قد وصلت مرحلة شبيهة بالتي آلت إليها عندما وقعت مصر اتفاقية كامب ديفيد (قبل عامين).

● الموقف العربي زمان لا يختلف كثيراً مما كان عليه قبل ١٩٦٧، ومما هو عليه الآن. وصدقوني بأنني عندما أتصفح جرائد اليوم وأسمع إذاعات اليوم وتعليقات اليوم، بل وأشعار اليوم وأناشيد اليوم فإنني لا أشعر بالجديد المثير - إن كانت هناك إثارة - الشيء الوحيد الذي تغير وتبدل وتجدد هو الحكومات وأسماء الرؤساء والوزراء والشعراء والملحنين والمنشدين والمغنين والمطبلين والمزمرين.

هذه صورة كاريكاتورية مصغرة ومضغوطة لما كنا فيه وما نحن فيه. المارشات العسكرية من راديو القاهرة، صوت أحمد سعيد وأناشيد الله أكبر من إذاعات صوت العرب ودمشق وبغداد وعمان، وأشعار نزار قباني وصوت فيروز وفلسطين ونشيد المآذن والكنائس ثم بعد أيام ستة توقف كل شيء ومات كل شيء حتى الابتسامة وأعلنت النكسة كما كنا نسميها..

● بإعلان النكسة أو الانتكاسة رفعت أعلام الحداد وتوقفت الأناشيد وتطايرت الإشاعات وتبودلت الاتهامات واختفت وجوه، واستقال عبد الناصر ثم عاد وبدأ العالم العربي يصحو من سكرات الموت ويفيق إلى نفسه فيحس بحاجته الماسة إلى التضامن والوئام من أجل الصمود فتبدأ الاتصالات وتهيأ الرحلات وتنتهي كلها بأن يقف الملوك والرؤساء على جبل التوبات بكرري (الخرطوم) فيعلنون الصفاء وتطير من فوقهم حمامات السلام والحب ويقبل بعضهم على بعض يتلاومون ثم بالأحضان يتقابلون ويتعانقون ويفلح في نهاية المطاف والطواف والسعي الطويل العريض صديقنا الكبير المغفور له محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان آنذاك بأن يهيىء للقاء أول مؤتمر قمة عربي بعد حرب ٦٧ في الخرطوم، ذلك المؤتمر الذي انتهى إلى قراراته

المعروفة التي ما عادت ولم تعد سراً يستحق منا الاسترسال أو حتى مجرد الإشارة .

● أريد قدر جهدي ألا أتعرض إلى ما تعرضت وما تتعرض له الصحف ووكالات الأنباء والإذاعات قبل وعقب كل مؤتمر قمة عربي . لأن الصحف أو الوكالات لا تستطيع أن تنشر الحقائق الكبيرة والأسرار الخطيرة التي تجهلها الأمة العربية إما لأنها لا تريد أو لأنها لا تستطيع وما ينطبق على قادة الرأي والصحف الملتصقة بالأحداث وما يجري خلف الكواليس ينطبق كذلك على القادة والزعماء العرب ، فكم من قائد وزعيم مات فماتت معه الأسرار ، وكم من صحفي مات فدفنت معه حقائب أسراره مرة واحدة وإلى الأبد ! .

البيانات التي عادة ما تبدأ بحملات التمهيد لاجتماعات وزراء الخارجية العرب ثم باجتماعات وزراء الدفاع العرب ، ثم بتجديد موعد لعقد مؤتمر القمة منذ مولده وحتى انعقاده الأخير في بغداد .. ثم القرارات والبيانات التي ينتظرها العرب من الخليج إلى المحيط على أحر من الجمر حسب ظروف وواقع الأحداث (وترموميتر) الأحوال .. هذه البيانات والقرارات كلها أو بتبصير أدق كان معظمها لا يعدو أن يكون مجرد حقنة مخدرة مسكنة ما إن ينتهي مفعولها إلا وتعود (ريمة لحالتها القديمة) كما يقول الأذكياء من أهلنا .

## قلق قبل الاجتماع !

● قبل انعقاد مؤتمر القمة في الخرطوم بدأ السيد محمد أحمد محجوب بوصفه المضيف بالزيارات التقليدية للملوك والرؤساء العرب في محادثات استطلاعية استكشافية تهدف إلى تقريب وجهات النظر وحصر الخلافات الطاحنة والمزمنة إلى أضيق حيز ممكن ولما كانت الخلافات العربية قبل المؤتمر حادة وعنيفة ومعقدة ومتشابكة ، فإنني كنت أرثي فعلاً لحال الصديق الوفي محجوب إذ كانت مهمته صعبة وشاقة خاصة فيما يتعلق بجوهر الخلاف أو قمة الخلاف العربي آنذاك بين المغفور له الملك فيصل والرئيس الراحل جمال عبد الناصر وذلك بسبب الصراع والخلاف حول حرب اليمن ثم النكسة ! ! .

● قال لي السيد المحجوب وهو يحدثني في منزلي في الساعات الأولى من الصباح وقبل أن يقابل الفيصل وكان يتكوم بكل جسده المكدود على الكرسي .. قال لي وهو في حالة شديدة من الإعياء والهم .

(إنني أكثر الناس حاجة في هذا العالم إلى الدعاء والرثاء معاً .. صدقني يا عبد الرحمن لم أخف في حياتي من مواجهة شيء قدر خوفي من الغد ؛ وقال لي ان الوفد السوري حتى هذه اللحظة وقد بقي على انعقاد المؤتمر ساعات يرفض الاشتراك ويهدد بالمقاطعة ويحاول وزير خارجيته إبراهيم ماخوس كما سمعته أمس في منزلي

إفساد المؤتمر بالشتائم الرخيصة البذيئة والمهاترات اللاخلاقية التي قضت علينا بالأمس والتي ستقضي علينا اليوم وغداً). ومضى المحجوب يقول :

الرئيس السوري لم يحضر ووزير خارجيته يسبب لي صداعاً وسرطاناً في آن واحد وكما رأيت وسمعت وشاهدت أمس فإن صديقنا عبد الماجد أبو حسبو أوشك أن يضربه (بالشلوت) في منزلي. كيف اوفق بين عبد الناصر وفيصل والعراقيل مازالت تنفجر كل لحظة كأنها قنابل زمنية.

ومضى المحجوب يقول : (المدهش أن وزير الخارجية السوري وهو مهزوم ومغلوب على أمره وفي موقف الضعف لا يحلو له أن ينال من شخص إلا الذي هو في موقف القوة «يقصد الفيصل» وهو بالنسبة لي شخصياً وللكثيرين من إخواننا العرب الأمل الوحيد، والرجاء الأوحد في إنقاذ الأمة العربية من حالات الانهيار السياسي والمعنوي والمادي وأخشى ما أخشاه أن الملك فيصل وهو رجل حساس ورقيق وعربي أصيل يعتز بكرامته أن يسمع هذا السفه!!) ومضى المحجوب يسرد لي مخاوفه وآلامه وهو يتأوه بآهات كأنما يريد أن يودع همومه ومخاوفه في جوف الظلام وفي ذلك الصمت الذي كان يحيط بنا.

ودعني المحجوب وتبعته إلى عربته وكان مهدوداً منهوكاً مهموماً يجرجر ساقيه في ثقل شديد وكأنه يسبح في الظلام بلا سفينة ولا مجداف.

قلت له وأنا أودعه :

لا تخشى شيئاً (يا أبا سامي) نحن معك والشعب معك والله معنا أجمعين والله ناصرك، ثم لف الظلام عربته وأنا أتمتم بالدعاء له بالتوفيق والنجاح. وفي اليوم التالي وكان يوماً لا ينسى أنزل الله الغيث ونفخ في صدور الأمة العربية فرددته ألحاناً شجية دخلت دار المحجوب في اللحظات الأخيرة لخروج الملك فيصل. هل يمكن أن تتصوروا أن ذلك الاجتماع الخطير المثير الذي حبس العالم (في مغربه قبل مشرقه) أنفاسه ليعرف نتائجه التي سيترتب عليها مستقبل العالم العربي كله.. هل تتصورون أنه انتهى بالخير في دقائق معدودات وبدون بروتوكول وبلا كاميرات ولا أضواء ولا زمامير ولا يحزنون!!؟

## كيف يتصرف زعماء العرب!؟

● عرفت والتقيت بعدد من الملوك والرؤساء العرب منهم من ترددت عليه كثيراً فعرفني وعرفته، ومنهم من لم أتردد عليه كثيراً فلم يعرفني ولم أعرفه ولكنكم تعرفونهم جميعاً من وجوههم وأصواتهم في الإذاعات والتلفزيونات ومن خلال أحاديثهم في الصحف والمؤتمرات، فمنهم من تبهره الصورة وتعجبه الكلمة، ومنهم من يعجبه الصراخ ومنهم من يهوى الصراخ والتشنج و.. المغفور له الملك فيصل كان مختلفاً في

كل شيء فبالرغم من أنه إعلام متكامل متحرك، فإنه يكره الأضواء. كان مؤمناً وشجاعاً وقوياً وصريحاً وبسيطاً. كان يستمع لكل ما ينشر ويقال عنه وفيه وضده فلا تظهر في وجهه أي انفعالات أو تأثير. كان يكره التشنج والغوغائية مما لاحظته عنه من خلال مؤتمر القمة العربي في الدار البيضاء ومن خلال مؤتمر الخرطوم.

عرفت جلالة الملك الفيصل عن قرب قريب فأكبرته وقدرته وأحببته، وكنت أتمنى أن تعرفوه كما عرفته فتحبونه أكثر وأكثر وتترحمون كل يوم على روحه، فقد كان مهندساً للسياسات العربية واللقاءات العربية حتى استشهد. كان للفيصل دور عظيم طوق به عنق السودان عندما احتدم الخلاف بين الأزهري ومحجوب في مؤتمر الدار البيضاء والذي عاصرت أحداثه وأسراره من لحظة انفجاره حتى لحظة إطفائه. ليس هذا على كل حال مجال الحديث عنه فقد أفردت له فقرات وفقرات في مكان آخر.

## لقاء الفيصل والمحجوب..

● أعود مرة أخرى إلى حديثي لأواصل ما انقطع منه.

استقبل المحجوب جلالة الملك الفيصل في داره ورحب به؛ والمحجوب كما تعلمون أو قد لا تعلمون كان قبل أن يكون رئيساً للوزراء محامياً بارعاً، وقاضياً عادلا، وشاعراً موهوباً، وأديباً فذاً، ومتحدثاً لبقاً، ومهندساً بارعاً، وكان عندما يتحدث يصمت الآخرون وكفى!!.

كان جلالة الملك الفيصل يعرف في محجوب كل هذه الصفات وكثيراً ما استمع إلى أشعاره وأحاديثه وطلب المزيد والمزيد ولذلك أعجب به وأحبه، كان جلالته يستمع إلى المحجوب عندما راح يشرح له بلباقة وأدب سوء الحال العربي نثراً وشعراً مركزاً على ضرورة تضامنه وهو مواجه بظروف محزنة ومخزية، وأطال المحجوب وأطال وفيصل يستمع إليه في صمت وهو يداعب مسبحته والمحجوب يحاول بذكائه الوقاد أن يقرأ ردود الفعل، ثم ضحك الفيصل وقال فيما قال بهدوء وفي بساطة متناهية ولكنها بساطة المقتدر وهدوء القوي قال:

● «يا أخي محجوب إيش بيني وبين عبد الناصر.. أنا قلبي لا يعرف العداء والحقد الشخصي لأننا لسنا صغاراً. الآن لنترك صوت العرب وحرب اليمن وخلافاتنا وعداواتنا الشخصية مع هذا أو ذاك. المهم الآن أننا أصبحنا في وضع لا يحسد عليه. القدس راح وهو لابد أن يعود.. أراضينا العربية راحت.. كرامتنا أذلت وهذا المقام الآن ليس مقام حزازات ومناورات شخصية وفتح جروح لا داعي لها وحكايات لا تقدم ولا تؤخر بل تزيد الطين بلة. ليس هذا الوقت وقت بيانات واتهامات فقد شبعنا منها كثيراً» واستطرد الملك يقول (إن كان غيركم في العالم العربي والأجنبي يعتقد أننا ندخل مسائلنا العامة «بعد المصيبة التي نزلت علينا» في المسائل الشخصية فهذا خطأ..

نحن انجرحنا ودمنا ينزف وخجلانين على أنفسنا ونسأل الله أن يرفع غضبه وبلاءه عنا وأن يعيد لنا بحول الله وقوته أمجادنا وانتصاراتنا ) وفاجأ الملك مضيفه المحجوب قائلا :

يمكنك يا أخي محجوب تعلن الآن إن شئت وقبل انعقاد المؤتمر وكذلك قبل أن أقابل جمال عبد الناصر أو غيره بأن حكومة المملكة السعودية مستعدة أن تتحمل على أكتافها جميع الخسائر التي تسببت فيها الحرب وأنا أخص هنا إخواننا الشعب المصري وغيره من الشعوب العربية المسلمة بأننا في المملكة لن تطيب لنا لقمة العيش حتى ولو ربطنا بطوننا بالأحزمة بدونهم وإننا مستعدون أن نقتسم اللقمة الحلال مع كل إخواننا العرب والله يوفقنا ويزيل محنتنا وينصرنا (بحول الله وقوته) - وهي مما سمعت ولاحظت - الجملة المفضلة عند جلالة الفيصل والتي يستعملها كثيراً جداً في أحاديثه رحمه الله بقدر ما قدم للأمة العربية من خير .

● صمت المحجوب طويلاً وهو يستمع إلى كلام الفيصل الذي كان يفيض بالرجولة والأصالة والتجرد وما ان توقف جلالة الملك من حديثه حتى تهللت أسارير المحجوب وكاد أن يطير من الفرحة والمسرة فرد عليه بكلمات تناسب المقام والمقال وقد اغرورقت عيناه بالدموع ثم أقسم وبأغلظ الأيمان بألا يحملوا الشعب والحكومة السعودية وحدها هذا العبء الثقيل من المسؤولية والعالم العربي زاخر بالخيرات والأموال ورجا المحجوب ضيفه العظيم ألا يعلن لا هو ولا غيره هذا النبأ حتى يتمكن في صبيحة الغد من زيارة الملوك ورؤساء الدول البترولية لإعداد نسبة مئوية حتى يشاركوا ويساهموا أجمعين في (شيل الهم والغم) وانتهى الاجتماع الأول عند هذا الحد .

● ذهب المحجوب للأمير الرضا ولي عهد المملكة الليبية سابقاً وكان اجتماعه به لا يخرج من بعض الفكاهة والطرافة مما جعلني أختاره مثلا لما كان يدور خلف الكواليس المغلقة والمظلمة في مثل هذه المؤتمرات التي لا يسمع ولا يعرف المواطنون العرب إلا على جوانبها المشرقة والمزركشة وما أن قص المحجوب على الأمير حكاية الإسهامات من البداية للنهاية وطلب تحديد نصيب ليبيا حتى انتفض الأمير كمن لدغه ثعبان وقال في عصبية ظاهرة :

(لا ، لا يا سيد المحجوب لا شيء عندي .. أنا جيت أحضر مؤتمر القمة فقط نائباً عن الملك للتشاور والتباحث كما أنني لا أستطيع أن أكتب ديناراً واحداً لأنني غير مفوض وليست لدي صلاحيات و .. و ..) ورد عليه المحجوب في عصبية لا تقل عن عصبيته :

أمال جيت هنا تعمل شنو وتبحث شنو ! ؟ إحنا يا سمو الأمير عايزين فلوس ، عايزين فلوس وسأمهد لك الآن بل اللحظة طريق الاتصال بالملك إدريس وعندما تتحدث إليه بلغه تحياتي وقل له محجوب بقولك عاوزين فلوس عاوزين فلوس ! ! .

● وانتهت الاتصالات والمناورات والمحادثات التي جرت وراء الكواليس والأبواب

المغلقة بعيداً عن عيون الناس وعيون الصحافة وكان أن أذيع البيان الختامي بعد انفضاض المؤتمر الذي كلكم تعرفونه أو لعلكم تذكرونه .

شيء آخر هام وكبير تذكرته حتى لا يروح في بطون التاريخ ويصبح ذكرى مخنوقة وهو أن جلالة المغفور له الفيصل في لقاء عاجل وخاص مع محجوب وبعدما وزعت الأنصبة على الدول التي أضيرت من الحرب . استأذن المحجوب في أن يقترح على عجل وضع السودان في قائمة المتضررين لأنه سيتضرر كثيراً بسبب إغلاق قناة السويس وكل موارده ستأتي عن طريق جنوب افريقيا إلا أن المحجوب شكر الفيصل قائلا :

(نحن يا طويل العمر شعب اعتاد على التضحية وربط الأحزمة ولا يضيرنا ان نشدها قليلاً فإخواننا العرب هم أحوج بها منا وأقسم باسم الشعب السوداني ألا يقبل الإعانة ، وامام إصرار المحجوب ما كان من الملك فيصل إلا أن قبله وأكد له أن السعودية ستقف دائماً وأبداً مع الشعب السوداني الأصيل صاحب الكبرياء والشموخ و . . و . . ومع ذلك فقد كانت ولا تزال أفضال السعودية على السودان كثيرة وجليلة ومقدرة .

● يخيل إلي أن الحديث الهام الذي يتطلع إليه كل قارىء عربي وبلهفة الشوق إلى معرفته بعد الذي رويته وهو كيف كان وكيف تم ذلك اللقاء التاريخي بين الملك فيصل وعبد الناصر في منزل المحجوب ، وقبل أن يقبض القارىء العزيز أنفاسه أقسم له بأن اللقاء كان بنفس بساطة لقاء الفيصل الأول مع محجوب الذي كان يمهد لهذا اللقاء التاريخي المرتقب ولكن هناك حقائق تلازم الإنسان مهما كان مقامه ومكانه ، لذلك فإنني أطلب من قارئي العزيز وهو يتصور جسامة وضخامة هذا اللقاء أن يضع نفسه موضع عبد الناصر آنذاك لا كرئيس جريح ولا كزعيم متألم ولكن كمجرد إنه إنسان . فإن استوعب القارىء هذه الصورة الطبيعية البسيطة فلن يأخذ وقتاً طويلاً حتى يصل إلى النتيجة الحتمية المتعارف عليها والتي أقرتها تقاليدنا الموروثة وهي أغلى الكلام وأحلى السلام . . وبالأحضان والقبلات والعفو والعافية تنتهي دائماً بعدها خلافاتنا وعداواتنا ونغوص عميقاً في بئر النسيان ولكن إلى حين .

## هكذا خطرت الفكرة :

● . . في أمسية يوم ١٠ يونيو ١٩٦٧ والعالم العربي يتشح كله بأردية الذل والهزيمة والانكسار وجرحه العميق ينزف عرقاً ودموعاً ودماء غزيرة سقت الأرض العربية من خليجها إلى محيطها ، والنفوس كانت محطمة ومنهارة تبكي وتولول وتصرخ على مجدها الآفل وتاريخها المسحوق في أكبر مأتم عربي في تاريخه الحديث . . في تلك الأمسية كان الرجل الكبير (أبو سامي) كما يحلو للبعض أن يسميه «والبوص» كما يحلو للبعض الآخر . . كان يتحدث بمرارة وألم عن الكارثة التي مرغت وجوهنا بالتراب

وأبدى ساعتها عزماً أكيداً في اتخاذ إجراءات عاجلة وسريعة لعقد مؤتمر قمة عربي وقال إن أنسب مكان له في هذه الظروف بالذات هو الخرطوم لأنها تملك كل الصلاحيات لتبنيه والإعداد له، وفي صبيحة الغد أبلغ أبو سامي الرئيس الأزهري الذي بارك الخطوة وتحمس لها بغير تحفظ ولا حدود ثم بدأ الراحلان العظيمان وراءهما الشريف حسين الهندي وجميع أجهزة الدولة المعنية الاتصالات المكثفة عن طريق السفراء العرب والرسائل والمبعوثين والمكالمات الهاتفية المباشرة، وكانت الفكرة بالنسبة «لأبي سامي» هي الحلم الأكبر والأمل الأخضر الذي تعلق به إلى أن حققه.

● .. كان المحجوب يعلم بأنني سأقوم بعد أيام للسفر إلى أوروبا لمعاينة بعض المطابع والماكينات فطلب إلي - ان أمكن - أن أنزل في القاهرة ليوم أو يومين أحاول فيهما مقابلة الزعيم جمال في حملة أو دردشة «لجس النبض» واستيضاح الرؤية وأن أكون عاملاً من عوامل الدفع والإقناع بضرورة المشاركة في المؤتمر. وقال لي إنه كان بإمكانه أن يتصل بالسفير المصري ليسهل مهمتي للمقابلة لكنه رأى ألا يحملها الطابع الرسمي حتى تفقد معناها المستور وقال لي أيضاً إذا استطعت أن تقابل جمال فلا تشعره أبداً بأنك مبعوث مني إلا إذا اقتضت الضرورة ثم إن محجوب كان يعلم بأنني سوف لن أجد صعوبة مطلقاً في مقابلة الزعيم الخالد إما عن طريق سكرتاريته المباشرة أو عن طريق أصدقائي من ذوي النفوذ.

● .. لازمني الحظ - كما يلازمني دائماً والحمد لله رب العالمين - فتشرفت بمقابلة الزعيم وبدى لي ذلك الأهرام الشامخ والجبل الراسخ، والبحر الهائج، والموج العاتي، والبركان الثائر .. بدى لي كالحلم، كالشبح، كالخيال، فقد انهد عوده، وذبلت عيناه، وانطفأت ابتسامته، وفقد ظله وما ان مد لي يده وبدأ يهز بها يدي وينظر إليَّ نظرات حزينة زائغة تائهة وفي فمه شبه ابتسامة حتى انشلت قواي ولم أستطع أن أتمالك نفسي فضعفت، ضعفت وانهمرت عيناي بالدموع ثم مالبثت أن أجهشت بالبكاء والأهرام الحزين يربت على كتفي ويقول في صوت حزين :

« .. معليش يا مختار بكرة حننتصر .. نحن أملنا في الله وفي الشعب وفيكم كبير أوي!!» قضيت معه حوالي العشر دقائق وقد كانت بعمر ذلك الزمن وبالظروف وبالمسؤوليات التي تحيط بالرجل كثيرة جداً لأنها اقتطعت منه وهو في حاجة كثيرة وماسة لثانية واحدة .. المهم وباختصار شديد قال لي فيما قال : «ومحجوب عامل إيه مع فيصل!؟ وجملة أخرى قالها حزينة مؤلمة قالها بابتسامة : «اوعى الشعب في السودان يحدفنا بالطوب!!».

فرددت عليه قائلاً وأنا أودعه :

« .. تأكد يا ريس أن الشعب السوداني الذي تعرفه ويعرفك وتعزه ويعزك سيقابلك بالأناشيد والزغاريد ويضعك فوق الأكتاف (ويشيلك يا ريس في العين كان ما شالك

الراس ) وودعني وهو يبتسم مع السلامة سلم لي عا السودان وأهل السودان ! .

● .. لم تكن بدعة ولا غريبة على رؤساء التحرير آنذاك أن يوفدوا مبعوثين شخصيين في مهام معينة أو يسافروا لاستطلاع الرأي فيما يهم السودان وما يعود عليه بالنفع والخير العميم، وفيما يخصني على الأقل فقد قمت بمثل هذه الرحلات والواجبات المقدسة لا على أساس حزبي أو طائفي أو سياسي وإنما على أساس قومي ووطني .. فقد شرفني الإمامان الراحلان العظيمان عبد الرحمن المهدي ونجله الصديق ومولانا العظيم السيد علي الميرغني وعبد الله خليل ومحجوب - ثم نميري في مهمتين قبلت الأولى والثانية لم أقبلها - شرفني كل هؤلاء القادة الكرام العظام في مهام مختلفة وفي مرات عديدة للإمبراطور هيلاسلاسي وكوامي نكروما رئيس غانا ودكتور ناماد أزكوني حاكم نيجيريا ثم تفاوا بليو رئيس وزراء نيجيريا وللملك الليبي السابق إدريس السنوسي وللسيد عبد المجيد كعبار أحد رؤساء وزراء ليبيا والشيخ سلطان محمد القاسمي حاكم الشارقة والزعيم الزنجي مارتن لوثر كنج وأخيراً .. للأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل الصحفي الكبير والحبيب الوفي واللصيق والقريب إلى روح وعقل وقلب عبد الناصر .

## نميري وهيكل !

● .. في فترة من فترات التيه والغرور ساءت العلاقات بين نميري شخصياً وبين الصحفي المعروف هيكل وقد تدهورت بشكل خطير أحس به القريبون ثم مالبثت أن وضحت آثاره في الأهرام. انفجر هذا الخلاف مرة بشكل خطير وغريب لا يمكن أن يخطر على بال بشر وذلك في الطائرة التي كانت تقل الرئيس جمال عبد الناصر ونميري وهيكل .. وكان آنذاك وزيراً للثقافة بجانب مسؤولياته في إمبراطورية الأهرام وهم جميعاً في طريق العودة من ليبيا بعد حضور احتفالات ذكرى الفاتح من سبتمبر .. كان الرئيس نميري يجلس مع مضيفه جمال في المقعدين المجاورين الأماميين بينما كان هيكل يجلس في المقعد الخلفي لجمال وكان النقاش عادياً (ونسة) مالبث فجأة أن انقلب بين نميري وهيكل إلى خلاف حاد لأن هيكل كان يصر على أن الذي حدث في السودان كان انقلاباً وليس ثورة، بينما الذي حدث في ليبيا هو ثورة وليس انقلاباً وعندما تأزم الخلاف واحتد النقاش لم يستطع نميري أن يتمالك نفسه ويتماسك فوقف في عصبية جنونية متشنجة وصفع هيكل (بونية) فوقف عبد الناصر وفض المعركة المؤسفة وظل يردد :

«مش كده يا أخ نميري .. ده عيب يا نميري ! ».

**وهكذا دعوني للوساطة :**

● .. عدت من أوروبا ونزلت في فندق الشيرتون ولم تكن دماء وصفي التل.. رئيس وزراء الأردن الذي اغتيل في مدخل الفندق قبل وصولي بيوم واحد قد جفت بعد.. وفي اليوم الثاني قابلت فجأة ومن غير توقع الرائد أبو القاسم هاشم الذي كان قد عاد لتوه من احتفالات أعياد استقلال دولة الإمارات ومعه الشيخ سحيم وزير خارجية الإمارات وبعد يومين طلب مني بإيحاء من نميري أن أتوسط بينه وبين هيكل لإزالة سوء التفاهم الذي طال واستطال وبضرورة إقناعه لحضور احتفالات ذكرى ٢٥ مايو، ويومها كان هيكل امبراطوراً بكل معنى الكلمة ولما فاتحته بعد لقاءات متكررة في الأمر أجابني بعنف قائلاً :

«نميري ده رجل متوحش وبلطجي مش ممكن يكون رئيس جمهورية.. أنا مش عارف انتو محتملينو إزاي!!؟؟» وحديث كثير وممتع وونسة طويلة إلى ما قبل منتصف الليل بقليل.. المهم أخيراً وأخيراً جداً أقنعت الرجل المترفع عن الصغائر الأثير عند جمال باحتمال غير مؤكد بحضور احتفالات مايو على شريطة أن يكون ضيفي لا ضيف الحكومة غير أن كل هذه الجهود التي كانت في شكل مقدمات استطاع أن ينسفها منذ البداية وفي النهاية د. منصور خالد وزير الخارجية آنذاك بالاشتراك مع عمر الحاج موسى عن طريق السفير محمد سليمان.

.. ليس هذا على كل حال مجال التفصيلات فقد أوشكت أن أخرج إن لم أكن قد خرجت بالفعل عن موضوعي الأساسي لكن مقصدي قد يغفر لي عند القراء عندما يقودهم كل الذي سردته إلى حقيقة هامة تؤكد مكانة الصحفي في قلوب قادتنا وزعمائنا وعظمائنا السابقين وكفى.

.. أعود من جديد للراحل الكبير محمد أحمد محجوب وقصة مؤتمر القمة فأقول ان الذي أكتبه اليوم ما هو إلا خواطر وانفعالات وانطباعات فرضت نفسها عليَّ وعلى قلمي كنتيجة مباشرة للاعتداء الإسرائيلي الآثم على المفاعل النووي العراقي والتي أبت إلا أن تسجل في المدينة المنورة في الأسبوع الأخير من رمضان المعظم عام ١٩٠٤هـ الموافق ١٩٨٠م وهي التي كانت سبباً مباشراً لخواطري التي عادت إلى الماضي فكان حديثي عن مؤتمر القمة العربي في الخرطوم عام ١٩٦٧. وقبل أن أسجل هذه الخواطر والانطباعات أريد أن أبرر لماذا أطلت.. ولماذا لم أدخل مباشرة في موضوع المؤتمر ومن حق السائلين والمتسائلين أن أجيب عليهم بأنني ما قصدت من الإطالة في قص الرسائل التي بعثني بها كل قادتنا وكبارنا وزعمائنا للملوك والرؤساء والعظماء إلا أن أعطي صورة واضحة وجلية خاصة لأبنائي الصحفيين الذين ما عايشوا ولم يعايشوا فتراتنا الذهبية التي كان الصحفيون فيها مكان الثقة والتجلة والاحترام علّ في ذلك ما يسعدهم وينير لهم دروب الخير والتجرد ونكران الذات فيتسلموا منا الراية البيضاء الملائكية

ويسيروا بسم الله وباسم الشعب وباسم شرف الكلمة والمهنة جيلا بعد جيل حتى يقضي الله أمره. الآن إليكم خواطري التي سجلتها حرفياً في المدينة المنورة في إحدى ليالي رمضان الكريم العامرة بالحب والوفاء والعبادة :

«بالطبع كلكم تذكرون زمان وأيام زمان.. أيام كنا صغاراً في المدارس نردد كالببغاوات كثيراً لما نسمع ونقرأ من الحكم والعبر والمواعظ.. كنا نحفظها لمجرد إيقاعاتها الموسيقية (والسجعية) على أذواقنا المرهفة، ولكننا مع مرور الزمن ونضج العقول، وتوسع المدارك، وتفتح البصائر نقف شيئاً فشيئاً على أعتاب المعاني السامية لتلك الحكم والأقوال فتهضمها عقولنا.

.. أمس خرجت من المسجد النبوي الشريف بعد صلاة العشاء كأنقى ما يكون البشر، كنت أسبح في جو سماوي ملائكي لا أفكر إلا في لحظات الصفاء التي أعيشها وتعايشني، ووقفت كعادتي أمام بائع الصحف فإذا بالمفاجأة تصعقني فتهز كياني وتثير مشاعري، وإذا بالأرض تفور وتمور تحت قدمي، ثم إذا بالصمت يلفني ويبلد إحساسي حتى لم أعد قادراً على مجرد الحركة ناهيك عن التفكير والتمييز وأنا أسائل نفسي :

« .. أيا سبحان الله هل يعيد التاريخ نفسه حقاً وفعلاً!؟».

.. مرت بي لحظات كأنها الدهر كله فإذا بي أحلق تائهاً في سراديب الماضي البعيد فيلاحقني شريط طويل من الأحداث يرجع تاريخه إلى أربعة عشر عاماً كانت صور الأحداث مرتبكة ومتشابكة ولكنها كانت «واضحة ومثيرة».

لم أصح من هذه الغيبوبة والشرود الذهني إلا على صوت بائع الصحف :

«مالك ياخينا .. إيش تبغي بتبحلق في الجرايد إيه عايز!؟».

قلت معليش لا شيء فقط أعطني مجموعة كاملة من الصحف!.

قربت العنوان المثير إلى عيني رغم أنه كان واضحاً وبارزاً وكبيراً وبدأت ألتهم أحرفه كما يلتهم الصائم حبات من التمر وقطرات من ماء زمزم ساعة الإفطار وهاكم عناوين الصحف الصادرة في ذلك اليوم :

(المملكة تبني المفاعل العراقي!) الأمير فهد يوضح بأن جلالة الملك المفدى خالد قد أمر بأن تتحمل المملكة تكاليف إعادة بناء المفاعل العراقي إلخ .. إلخ.

وفي عام ١٩٦٧ وبعد حرب الأيام الستة كما أسماها اليهود، والنكسة كما أسميناها نحن وفي مؤتمر القمة العربي بالخرطوم وفي منزل صديقي الغائب محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان آنذاك ونحن نغوص في أوحال الخلافات العربية وجراحاتها الدامية الموجعة كعادته أبداً أصر جلالة المغفور له الملك فيصل على أن المملكة العربية السعودية ستتحمل كل خسائر وأوجاع الحرب؟.

وهكذا فإن التاريخ قد أعاد نفسه.

● استقبل الشعب السوداني جميع الملوك والرؤساء العرب استقبالاً تتفاوت في

حماسها وقوتها ولكنه خرج عن بكرة أبيه (وأمه) لمقابلة عبد الناصر وفيصل.. كان (الأعمى شايل المكسر) كما يقول المثل وكانت تلك المواكب ظاهرة جديدة ولكنها قطعاً ترجع أسبابها للحرب الإسرائيلية التي طعنت العالم العربي في ظهره وقلبه وعقله ووجهه.

سألت أول من سألت صحفياً مصرياً كان دائماً في دائرة الضوء هو الأستاذ محمد حسنين هيكل الرئة التي كان يتنفس بها عبد الناصر في اعلام بلاده، كان هيكل، ولا يزال صديقاً عزيزاً على القلب والنفس وزميلاً جمعتنا فترة دراسية في كلية الصحافة الأميركية بجامعة كولومبيا بنيويورك عام ١٩٦٠ ـ قبل ستة وعشرين عاماً ما فرقنا فيها خلاف إن كان هناك خلاف وما تباعدت أرواحنا رغم كل الذي حدث في حياته وانصرافه فقط لكتابة الكتب، ففارق كل شيء بعد فراق عبد الناصر الذي مازال وسيزال مطبوعاً في عقله وقلبه وقلمه دائماً وإلى الأبد.

سألت هيكل بعد وصوله مع عبد الناصر كيف كان وقع الاستقبال على الأسد الجريح قال: وسأحاول هنا ومن الذاكرة أيضاً أن أتصيد ألفاظه بالدقة. قال صديقي الصحفي الكبير:

(الحقيقة يا عبد الرحمن إن الريس كان متعب أوي أوي، وماكنش حييجي.. كان متردد أوي أوي بالرغم من محاولات الإقناع التي كنا نقوم بها لكن الحمد لله ألف حمدا لله اللي جا.. ده استقبال الشعب أدى للريس شحنة كهربائية غريبة ومش مأعولة.. ده شباب الريس رجع وابتسامتو اللي اختفت من مدة رجعت تاني.. إيه ده مش مأعول ياساتر يارب!) (وبالمناسبة إضافة جديدة للقارىء فهيكل رجل متدين ومؤمن ويخاف ربه ويذكره كثيراً).

● وسألت صحفياً مصرياً كبيراً كان مرة في دائرة الضوء، ومرة في دائرة الشرطة من أكبر أساتذة ومخططي الصحافة الحديثة أستاذي وأستاذ الجيل الحديث القديم الذي بدأ يشيخ. كان ولا يزال من أقرب وأعز الأصدقاء على نفسي الأستاذ مصطفى أمين مؤسس مدرسة أخبار اليوم.. سألته في مساء نفس يوم الوصول ونحن نجلس في منزل محمد أحمد محجوب رئيس الوزراء عن انطباعه فأجاب كعادته وبسخريته المعروفة: (الريس ماكانش حاييجي لغاية آخر لحظة وبعدين غير رأيه مش عارف ليه مع أنه متعب أوي أوي لدرجة الإرهاق والموت بس أبل ما أجيب على سؤالك الاستقبالات الرهيبة دي كانت لينا ولا لفيصل!؟ وإيه حكاية العشر دقائق اللي كانت فوق بين وصول طائرة الريس ووصول فيصل للمطار.. كانت مطبوخة ولاقات صدفة!!.

رددت عليه باللهجة المصرية: أنا ماليش دعوة اسأل محجوب (أبو سامي) أهو قدامك!!.

فقاطعنا المحجوب قائلاً: أرجوكم بلاش خباثة صحفيين سيبونا نشوف شغلنا..

سيبونا في حالنا ياهوو . كان معنا أيضاً الصحفي الكبير إحسان عبد القدوس وبالرغم من أننا نعرف بعض لكن معرفتنا حدودها ضيقة (حبتين) بعض الشيء لست أدري لماذا ! ؟ .

● امتلأت جميع فنادق العاصمة حتى السدادة خصوصاً بعد إلغاء قرار استيعاب الملوك والرؤساء العرب في بعض منازل المواطنين التي انتقاها محجوب وطاف عليها بنفسه وكان من حسن حظي وشرفاً وفرحة لي لم تكتمل أن خصص منزلي في شارع ١١ امتداد الدرجة الأولى تجاه المطار لسكن المغفور له جلالة الفيصل إلا أن القرار ألغي في آخر لحظة وبعدما قمنا بكل اللوازم والاستعداد للضيافة الكريمة وذلك لأسباب أمنية بحتة فخصص للزعماء كلهم فندق السودان مما أصبح معه عسير على أي صحفي مهما كان مركزه أن يجد سريراً في شوارع الخرطوم ناهيك عن حجرة في فندق لذلك كان لزاماً علي ونسبة لهذه الظروف أن أستضيف في منزلي ثمانية من زملاء المهنة والقلم من الصحفيين الأجانب .

## الصحف الأجنبية :

● كتب مراسل النيويورك تايمز في صحيفته أن السودان الذي يتوسط قلب القارة الإفريقية والذي ليس فيه سوى فندقين من الدرجة الأولى لا يتسعان لأكثر من خمسمائة نزيل قد دخل دائرة الضوء السياسية كما دخل التاريخ من أبوابه الواسعة وذلك بالمفاجآت التي حدثت في مؤتمر القمة العربي بإزالة الخلافات (المتأصلة والمتحجرة) بين ناصر وفيصل الشيء الذي لم يكن متوقعاً ولا في الحسابات نسبة لحملات الإذاعة المصرية الشديدة (والبذيئة) وهجمات ناصر الفظيعة والشخصية على الملك فيصل بسبب حرب اليمن ! ! .

● وكتب إريك داونتون مراسل التلغراف لصحيفته يقول : كان الفرق بين هبوط طائرتي فيصل وناصر لا يزيد على الثماني دقائق وكان استقبال الشعب السوداني قوياً وحاراً وعاصفاً كطقس وأتربة الخرطوم تماماً لذلك فمن الصعب علينا أن نحدد بصفة جازمة وقاطعة إن كان الشعب السوداني يقصد باستقبالاته هذه ناصر أم فيصل أم الإثنين معاً رغم أن الاستقبالات لبعض الملوك والرؤساء كانت صغيرة وأحياناً فاترة المهم أن العبرة دائماً بالنتائج فهل يكمل مؤتمر القمة العربي في اجتماعاته الصاخبة أفراح وآمال الشعب العربي الذي يترقبها وينتظرها بفارغ الصبر . . ! ؟

● أما مراسل التايمز ج . ماكيل فقد كتب يقول ما كنا نتوقع وأظن لم يكن الرئيس ناصر نفسه يتوقع استقبالاً حاراً وعاصفاً ومؤثراً كاستقبال السودان له أولاً لأنه خسر معركة حربية كبيرة ومؤثرة مع إسرائيل وثانياً لأنه فقد سلاح طيرانه وقناة السويس بعوائدها المالية الكبيرة وثالثاً لأنه فقد جزءاً لا يستهان به من أرضه . . أما استقبال الملك

فيصل فلم يكن مستغرباً لأنه في هذا الوقت العصيب والمحنة المذلة التي تعيشها الشعوب العربية بعد الهزيمة فلم يكن هذا الاستقبال مستغرباً لفيصل باعتباره الأمل الوحيد والرجاء المتبقي لكافة شعوب المنطقة لإعانتها مالياً حتى تتمكن ثانية من الوقوف على أقدامها، ومن بين هذه الشعوب السودان نفسه الذي سيتأثر مباشرة لإغلاق قناة السويس وتعطيل الملاحة. واختتم الصحفي تقريره بأن الشعب السوداني كما عرفت وشاهدت وسمعت شعب طيب وكريم لكنه مرهف وزائد الحساسية!!.

● الأسرار التي دارت وتدور عادة وراء الكواليس وداخل الحيطان الأربع بين الرؤساء والزعماء والقادة من جهة وبين كبار وكبار الصحفيين المؤثرين من جهة أخرى ستظل حبيسة الصدور وستظل كذلك بعيدة عن عيون وعقول الشعوب العربية وذلك إما لأنها أسرار لا يستطيعون نشرها أو يخافون نشرها وكلما مات رئيس أو صحفي كبير ومؤثر ماتت معه أسراره ودفنت تحته إلى الأبد!!.

لكن عندما يعيد التاريخ نفسه لبعض المناسبات فإن بعض الأسرار المخنوقة لا كلها قد تظهر في شكل مذكرات أو ذكريات ثم تدخل التاريخ أو تروح داخل صفحاته المطوية.

## السعودية :

● هذه الرحاب المقدسة التي نطلق عليها اسم المملكة العربية السعودية حباها الله بخصائص وظواهر نادرة وخالدة وعزيزة ومقدسة فقد وضع فيها بيته الكريم وأخرج من بين أبنائها نبياً حمل أضخم رسالة، وأنبل مهمة في تاريخ البشرية فأزال الوثنية، وبدد ظلام الجاهلية، وحقق العدالة وختم جميع رسائل الأنبياء وانتشرت بعد ذلك دعوته التي بدأت برجلين وامرأة وانتهت بملايين الملايين من البشر ومن بينهم الرؤساء والملوك العظماء والأباطرة والأثرياء والمعوزون والصعاليك والمقهورون والمحتاجون والضعفاء والفقراء وكلهم، كلهم يولون وجوههم شطر البيت الحرام وقبر المصطفى حبيبي وقرة عيني.. وكلهم يركعون ساجدين خاضعين خمس مرات في اليوم.

● المملكة العربية السعودية لابد أن تهيىء نفسها ومنذ اللحظة (والحديث مازال منقولاً من انطباعاتي التي سجلتها في المدينة المنورة في رمضان ١٩٨١ كرد فعل سريع للاعتداء الإسرائيلي على المفاعل النووي العراقي) لابد أن تهيىء نفسها لقدرها المرتقب الذي سيفرض عليها إن عاجلاً أو آجلاً موقعاً مميزاً وفعالاً في عالم العرب.. أنا لا أقول كل ذلك على سبيل الترف الصحفي أو الذهني أو لمجرد الأماني والأمنيات، ولكنني ومن استقراءاتي الشخصية وملاصقتي لما يدور ويحدث خارج وداخل ووراء الكواليس، ومن واقع التجربة والظروف التي مر ويمر بها العالم العربي والتي عايشت معظمها من قرب قريب، ومن واقع الدراسات والتحليلات الدقيقة، ومن خلال منطق



فهد بن عبدالعزيز



خالد بن عبدالعزيز

الأحداث فإنني أكاد أجزم بأن المملكة وهي تتمتع بالرخاء والاستقرار والأمن والأماني إن لم تهيىء نفسها لهذا القدر منذ الآن فإنه سيفرض عليها فرضاً بل وستفاجأ به لتجد نفسها أمام الأمر الواقع رضيت أم أبيت، قبلت أم تمنعت. ولمزيد من إلقاء الضوء على افتراضاتي واستقراءاتي أضيف الأسباب الآتية :

أولاً : المملكة العربية السعودية تتمتع باستقرار سياسي وعقائدي واقتصادي واستراتيجي لا تتمتع به أي دولة أخرى في المنطقة .

ثانياً : المملكة العربية السعودية لم تعرف يوما بالتشنج والتسرع والهياج والتهريج الإعلامي، كما لم تعرف نظم الأحزاب والاضطرابات والتظاهرات وتحطيم العربات وقذف المارة بالحجارة، كما لم تمارس في حياتها المديدة الاضرابات والتظاهرات والمكرفونات والليالي والندوات السياسية ويسقط فلان ونحن وراؤك، وإلى الأمام أو الوراء أو إلى الجحيم أو النعيم.. هذه الأشياء التي كم هدت دولاً وأطاحت بحكومات ورؤوس ونظم!!.

ثالثاً : المملكة السعودية منحها الله بسطاً في الرزق والموارد وفجر في أرضها الطاهرة خيراته من البترول وجبال الذهب والرخام وجعل معينها كبئر زمزم لا ينضب ولا يجف مما جعلها تتمتع بمركز اقتصادي قوي له وزنه الكبير والمؤثر لا في المنطقة وحدها ولكن في جميع أنحاء العالم. مما جعلها في موقف قوي ومستقر .

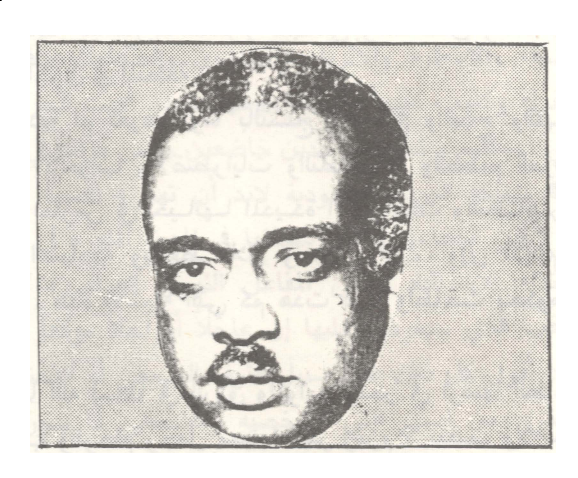
رابعاً : ومن الذاكرة أيضاً وانا أقلب صفحات التاريخ العربي منذ نهاية الخمسينات سمعنا وقرأنا وعايشنا حكومات كثيرة كانت تنطح برأسها الصخر ، وبرؤساء وعظماء كانوا يزلزلون الأرض تحت أقدامهم وأقدامنا ، ولكن أين هم الآن ، لقد راحوا ، وأسقطوا ، أو ماتوا ، أو قتلوا وأسحقوا والعملية تبدأ أصلاً باتهامات ومهاترات وفوضى واستهتار هنا وهناك ثم تنتهي عادة بمارشات عسكرية وانقلابات واغتيالات ثم أناشيد ومزامير وأشعار . .

● راحت وجوه كبيرة وكثيرة ، وظهرت وجوه كبيرة وكثيرة ! أخرى ، وزالت حكومات لها صولاتها وجولاتها ، وجاءت حكومات مازالت تصول وتجول . زعماء خلقتهم الأحداث ، وزعماء خلقوا الأحداث . . كل ذلك وضع بصماته على خريطة المنطقة بصمات كثيرة ومثيرة بعضها ظاهر وبعضها الآخر باهت .

شهدت المنطقتان العربية والإفريقية في نهاية الخمسينات وبداية الستينات عديداً من الانقلابات فتعرضت المنطقة إلى إفلاس سياسي وإفلاس اقتصادي وإفلاس أخلاقي وامتلأت السجون بالساسة والقادة والزعماء والنقابيين تماماً كما حدث عندنا في عهد مايو ـ حتى فقدنا الأمل في تحقيق أي نوع من الاستقرار ، بل وفقدنا كل رجاء في الإصلاح .

كل هذا حدث ويحدث حولنا والمملكة العربية السعودية هي الوحيدة الثابتة والمستقرة لكنها مع ذلك لابد أن تؤثر وتتأثر بما حولها من أحداث ولابد كذلك وهي التي عايشت ما يدور في المنطقة داخل وخارج الكواليس والصوالين المغلقة وهي لصيقة وقريبة من كل حدث مما يجعلها وهي العليم بكل شيء في وضع مستقبلي كبير وخطير لابد وأن تهيىء له نفسها وتعد له عدتها اليوم قبل الغد .

(المدينة المنورة رمضان ١٤٠٤ ـ ١٩٨٠)



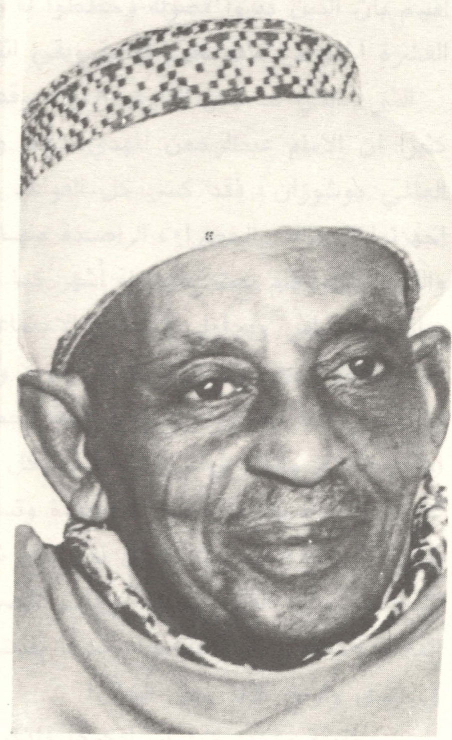
الشريف حسين الهندي

**وبعد .. وبعدما :**

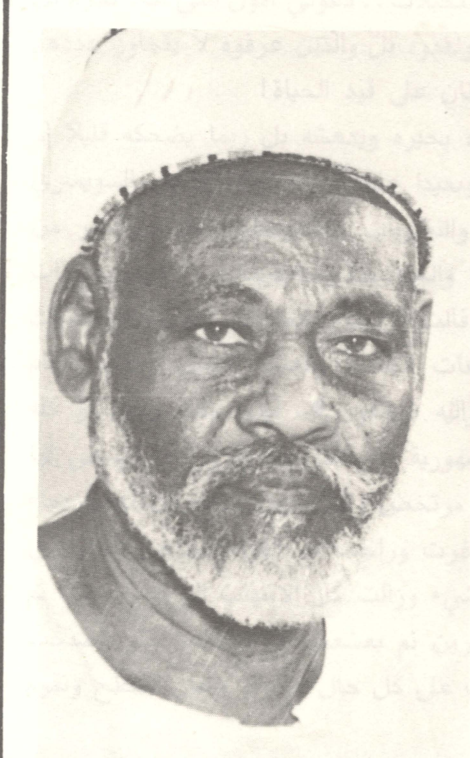
وبعد ما اخترقنا حواجز الزمن والتاريخ من مرحلة إلى مرحلة ومن حادثة إلى واقعة بداية من الاعتداء الإسرائيلي على المفاعل النووي العراقي وإعلان الملك خالد بأن السعودية ستعيد بناءه على نفقتها مما أثار القلم حتى عبر السنوات رجوعاً إلى مؤتمر القمة العربي الذي أعلن فيه الفيصل استعداد السعودية لتحمل كل خسائرها المادية .. كل ذلك قادني في النهاية لسرد كل صغيرة وكبيرة دعماً للتاريخ مؤكداً الحقائق التي تشير في اعتراف واضح وصريح بأن الرجل العظيم محمد أحمد محجوب كان المهندس والمخطط لمؤتمر اللاءات الثلاثة ووراء الجندي المجهول السيد الشريف حسين الذي لعب الدور الأساسي في رحلات مكوكية حتى أقنع العاهل السعودي وكان بصدق وأمانة رائد المؤتمر وأباه الشرعي . كل ذلك حتى لا تضيع أمجاد الرجال وسط الدخان والضباب فتنسحب من تحت رؤوسهم الطاهرة وهي تتوسد الثرى أردية التاريخ والخلود . رحم الله كل رجالاتنا وقادتنا بقدر ما قدموا لهذا البلد من عمل وتضحيات ستبقى دائماً وأبداً .

# ﴿ الفصل الرابع والعشرون ﴾

- حلقات الفراغ في السودان
- بين الامام عبدالرحمن ومولانا الميرغني
- بورقيبة يستقبل عبدالناصر ببرود
وناصر يرد عليه بابتسامة باهتة



مولانا السيد علي الميرغني
زعيم طائفة الختمية



الامام عبدالرحمن المهدي
زعيم طائفة الانصار

دعوني اخرج بكم قليلا من دائرة الاحداث التي تثير الأعصاب لنستريح ولو للحظات في عنائها وضوضائها ثم بعد ذلك نستأنف مسيرتنا الطويلة.

أقول لك بعد كل الذي سردته تفصيلا وتبيانا عن ذلك السر الخطير الذي كان سببا مباشرا في اللقاء والمصالحة بين السيدين الكبيرين المهدي والميرغني باعتباره أضخم وأكبر حدث لانه كان كما قلت في نطاق المستحيلات.. دعوني اقول انني اكاد اجزم بل اقسم بان الذين دبروا فصوله وخططوا له ونفذوه بل والذين عرفوه لا يتجاوز عددهم العشرة اشخاص مات منهم ثمانية وبقي اثنان على قيد الحياة!

الشيء الذي قد يثير القارىء ويهزه وقد يحيره ويدهشه بل ربما يضحكه قليلا او كثيرا ان الامام عبدالرحمن المهدي خلافا وبعيدا عما أقره وخطه الطبيب السويسري العالمي دوشوزان، فقد كسر كل القواعد والنظريات والفحوصات الطبية وسخر من اجهزتها الحمراء والخضراء، الراصدة منها والحاسبة بما فيها من «كمبيوترات والكترونيات» فلم يمت بعد ستة أشهر كما قالت الالات، وانما بقي حيا معافي يضحك ويأكل ويتسامر ويجامل ويحضر الاجتماعات الخاصة والعامة لعامين ونصف العام ﴿وسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون﴾، ليس ذلك وحده او كله فحسب، وانما العرش والملكية ورئاسة الجمهورية التي ظل يجري وراءها ويسعى لها الامام المهدي وأنفق في سبيل تحقيقها كل مرتخص وغالٍ، بل ودفع من أجلها دماء غزيرة وكثيرة وغالية ذهبت بلا عودة وتبخرت وراحت مع الهواء الساخن لتذوب في اعماق الصحراء الكبرى. ما ان تغير كل شيء وزالت كل الاسباب التي من أجلها تم اللقاء حتى بدأ الفتور يقتحم بوابات القصرين ثم يعشعش في نوافذها حتى اصبحت العلاقة «محنطة» او شبه ميتة ولكنها بقيت على كل حال «تفرفر» على السطح وتقوم في كسل وتراخ كلما دعا الحال!

.. حقيقة مؤكدة لابد ان اذكرها واذكرها بتفاصيلها هي أن أهلي في السودان وهم يقرأون هذه الاسرار الكبيرة الكثيرة المتفرقة لابد ان يضعوا أيديهم على رؤوسهم وان يضربوا اكفهم وهم يحللون ويتغالطون في وقائعها وظروفها خاصة والمجتمعات في

سوداننا الحبيب مازالت تعيش نصف عمرها في فراغ رهيب رتيب ممل قاتل، فما ان تغيب الشمس حتى يتجمع أهلونا كبيرهم وصغيرهم، فقيرهم وغنيهم، وشيوخهم وشبابهم في القرى والمدن يتجمعون في الأندية او في حلقات دائرات مفرغات أمام بيوتهم او في المآتم او الافراح ويظلوا يتسامرون ويتغالطون ويضحكون ويتبادلون الاراء في كل مناسبة وفي اي مناسبة، فلعبة كرة القدم بنجومها وحكامها واقوالها وفاولاتها تأخذ نصيب الاسد في هذه الحلقات، تليها مباشرة (القطيعة) والقيل والقال ثم في النهاية يأتي الجدل البيزنطي السياسي وتبدأ التحليلات والانطباعات والاجتهادات والادعاءات فالنقاش كثيرا ما يبدأ باحداث الساعة، لبنان... فلسطين.. الاسد.. الجميل... عرفات.. القاهرة جنوب افريقيا.. ثم يميل شرقا او غربا إلى ان يصل إلى نيكاراجوا وهندوراس وكمبوديا وايران والعراق وفيتنام وزنجبار - وبلاد تركب الافيال، وقد يصل النقاش درجة من العنف والمغالطة والمد والجزر والجذب يخيل اليك معها انك في البرلمان التركي او الايطالي او أواسط غابات الهنود الحمر و... و.. وما ان يفرغ الجميع البرىء الطيب الودود من تناول العشاء الذي يختصر وينحصر في الغالب الأعم على طبقي «الفول والطعمية» حتى يتفرق على ان يلتقي غدا وبعد غد في نفس الساعة وفي نفس المكان ليبدأ نفس الجدل والحوار. هذه هي مجتمعاتنا وهذه هي حياتنا في المساء امس واليوم وربما الغد والعاصمة المثلثة (الخرطوم بحري والخرطوم وام درمان) تأتي في مقدمات المجتمعات السودانية بالطبع وهي سيدة المجالس وزينة حلقات القطيعة والنقاش البيزنطي والعالمة ببواطن الامور وبخفايا الاسرار. أظن ان شعبنا هو الوحيد الذي ينفرد بهذه الخصائص والعادات دون شعوب الارض قاطبة والنتيجة التي وصلت اليها في النهاية ان شعبنا يعمل نصف عمره فقط ويضيع النصف الآخر كله في الحلقات المفرغات!!

أعود من جديد وانا نفسي انتمي بالمناسبة إلى واحدة من هذه الحلقات المسائية المعروفة والمشهورة فاؤكد بل وأجزم بان الذي اكتبه سيتربع على عرش هذه الندوات واللقاءات... وأنا اؤكد بل واجزم مرة ثانية وثالثة ورابعة ان جانبا كبيرا منا سيتساءل ويستفسر في غير ما توقف - لا عن الأسرار التي وردت، والتي اشك في انها عرفت او اذيعت من قبل، وانما سينحصر التساؤل في كيف عرفتها.. وكيف حصلت عليها وممن؟!

**اذن من اين!؟**

.. من حق أهلي وقرائي في السودان وغير السودان ان يستفسروا ويتساءلوا. ومن واجبي نحوهم ان اجيب وسأفعل ذلك بصدق وامانة حتى اريحهم اولا واريح نفسي ثانيا فازيل مباعث حيرتهم علني بذلك اخفض او اخفف قليلا من درجات الحرارة والغليان أو هكذا اتمنى.

.. لقد ذكرت في مراحل سابقة ان الاسرة الواحدة في السودان قد تجمع بين الانصاري والختمي والشيوعي والأخ المسلم دون ان تؤثر خلافاتهم الفكرية او العقائدية او السياسية على علاقاتهم وحياتهم الخاصة الاسرية وقد كنت ومازلت امثل هذا الذي اقوله أصدق تمثيل مما جعلني في وضع مميز «لم تكن لي فيه يد» وانما الأقدار هي التي رسمته وخطته فوالدتي يرحمها الله بقدر ما أحسنت وقدمت إلي ـ كانت أنصارية من أعماق بيت الامام المهدي لحما ودما واخلاصا ووفاء مما اعطاني ومنحني وضعا خاصاً ومريحاً ووثيقا بالطائفة والحزب معا.

.. إما في الجانب الوطني الاتحادي فقد كانت علاقتي الشخصية بالازهري طيبة لكنها لم تكن عميقة، ولكن علاقتي كانت وثيقة ومميزة مع الشيخ محمد احمد المرضي القطب الاتحادي لان جذورها في الأصل كانت ترجع إلى صداقة والدينا العميقة منذ ان كانا زميلين في الدراسة والقضاء الشرعي معا. كما كانت علاقاتي ببقية كبار رجالات الوطني الاتحادي وعلى رأسهم مبارك زروق والشريف حسين الهندي وعبدالماجد ابو حسبو قريبة جدا ووثيقة جدا جدا حتى السيد عبدالخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي لم يكن صديقا قريبا فحسب، بل كان اخي في الرضاعة او هكذا قيل لي.

.. والحقيقة ان علاقات المجتمع السوداني كلها تسير على هذه الوتيرة باشكال مختلفة ومتفاوتة. الم اقل لكم ان المجتمع السوداني مجتمع اسري اشتراكي تعاوني!

.. اعرج بكم في سطور قليلة إلى الجانب الآخر ـ المعارضة فقد كان السيد عبدالله خليل جارا عزيزا لأهلي واسرتي يعرفني منذ ان قدمت للوجود واطلقت أول صرخة، اما السيد محمد احمد محجوب فهو عم لزوجتي .. وزوجتي الاخرى هي حفيدة مولانا الشيخ ابو القاسم احمد هاشم شيخ «الازهر السوداني» والذي كان وسيطا بين الانجليز والمهدي بعد سقوط السودان.

## وضع فريد!

.. هذا الوضع الفريد والغريب والذي لم تكن لي فيه يد، كما قلت، منحني ظروفا طيبة ومواتية استطعت في حدود امكانياتي المتواضعة ان استثمرها إلى حد ما في دنيا الصحافة والسياسة مما سبب لي وللاخرين كثيرا من المشاكل ومواضع الحرج والفكاهة معا. وما زلت اذكر اجتماعا للحزب الوطني الاتحادي كان صاخبا وثائراً عندما هاجم صحفيو الحزب الرئيسي (الازهري) واتهموه واتهموا غيره دون تحديد بانه يخصني ويخص صحيفتي دائما وابدا وفي أحرج المواقف السياسية بأسرارها وتفاصيلها دون صحفهم مما سبب لهم حرجا وفضيحة امام قرائهم، وحاول الازهري ان يحتوي الثورة بالصمت والاعراض عن الاجابة ولكنه لم يستطع امام حملات الهجوم واللوم الذي طال

واستطال والذي ايده عدد من نواب الهيئة البرلمانية لحزبه، ولما لم يجد الازهري مجالا «للفرار والزوغان» اطلق ضحكته المقهقهة الكبيرة والمجلجلة المعروفة التي على خلاف العادة والمألوف كثيرا ما تكون مقدمة لنكتة او فكاهة او قنبلة او مقلب أخذ الازهري يتفحص بعدها الوجوه ويتلفت يمنى ويسرى ليقرأ ردود الفعل ولما احس بان الجمع كان في حالة (زنهار) وصمت تام قال بصوته الجهوري:

(يا جماعة انا سمعتكم كويس ولاحظت ملاحظاتكم لكن ارجوكم ان تسألوا مولانا شيخ المرضي «واخوانا» زروق وكذلك خضر حمد سكرتير الحزب «وخال» الاستاذ عبدالرحمن مختار «في نفس الوقت».. ارجو ان تستفسروا منهم عن حكاية تسرب اسرار الحزب والحكومة، يمكن تلقوا عندهم الاجابة الشافية باذن الله الواحد الصمد).

وهنا ساد الصمت والوجوم وظهرت علامات الحرج على بعض الوجوه كما ارتفعت علامات الحيرة على الاخرين لانهم لم يعرفوا او يتصوروا لا من قريب او من بعيد ان ثمة صلة او علاقة تربطني هكذا بقادتهم الكبار جدا، ولما شعر الازهري بان الصمت قد طال ضحك مرة ثانية ضحكة طويلة وطويلة جدا. ومن التساؤلات التي ستأخذ نصف عمر المجالس في العاصمة هي كيف عرفت كل هذه الاسرار وراء لقاء السيدين؟ وحتى لا تدور هذه الحلقات حول نفسها وهي تلجأ الى التخمين وتغوص في بحور الاستنتاجات والاجتهادات فتذهب بعيدا وتتوه في غير ما قرار، اوفر عليها العناء وأقول لها بكل الصدق والأمانة والصراحة:

## اول لقاء

.. في عام ١٩٥٥ وعندما تم اللقاء بين السيدين الذي تربع على قمة الأحداث وغير الأوضاع وقلب موازين السياسة في السودان، بل وخط له مسارا جديدا.. عندما تم هذا اللقاء كنت سكرتيرا صحفيا للامام المهدي ومازلت اذكر وسأظل اذكر إلى نهاية العمر ان الذي فتح باب الغرفة الخاصة التي انفرد فيها السيدان بأول لقاء كنت انا... وقد اراد الامام المهدي مبالغة منه في تكريم ضيفه العزيز ان اقوم شخصيا بتقديم المشروبات والفاكهة «والتمر» إلى مولانا الميرغني وقد كنت سبباً مباشراً لضحكاتهما العالية عندما أصبحت هدفا لنكاتهما حتى اغرورقت عيونهما بالدموع من كثرة الضحك والمجاملة.. قال الامام المهدي لمولانا الميرغني:

هل تعرف يامولانا ولدنا المبروك عبدالرحمن هذا؟ لقد قمت (بتسميته) باسمي في عام ١٩٢٦ ومازلت أذكر ما حدث لي بسببه اذ انني كنت على ظهر حماري (وفي عز النهار) يعني منتصف النهار عندما غاصت قدماه الاماميتان في بركة من الطين امام منزل والده فوقعت من على ظهر الحمار وقعة لا انساها واتسخت ملابسي كلها «قه.. قه... قه... قه».



الرئيس الازهري والمؤلف عبدالرحمن مختار في افتتاح وكالة الاخبار الافريقية عام ١٩٥٧م

رد مولانا الميرغني عليه قائلا:

«كان والد عبدالرحمن هذا ياسيادة الامام ختميا ميرغنيا أصيلا وكان مريدا ومحبا ومخلصا لنا مائة في المائة، لكنه ما أن تزوج من اسرتكم الكريمة حتى طار منا (طيرة ابو ريش من الدريش) قه.. قه.. قه. قه.. (طير أبو ريش هو النمل الطائر الذي ما ان يفرغ الدريش اي العيش المدروش حتى يجفل ويطير كله خوفا وطلبا للنجاة في آثار الدقيق المدروش!!).

الامام المهدي رد عليه قائلا:

«ان بناتنا يامولانا فيهن خاصية غريبة وعجيبة وهي انهن يجرفن معهن دائما وابدا ازواجهن اليا ولم يستطع غريب تزوج منا ان يجرف زوجته لاحد غيرنا. وضحك السيدان واختتم المهدي دعاباته بان قال ان اصل ولدنا المتفرغ يمثل حقيقة هذا اللقاء الكريم «فهو مبروك» وما ان تركتهما وانسحبت إلى الخارج واغلقت باب الحجرة السرية حتى التف حولي كثير من كبار القادة وصغار الساسة وعدد من الزملاء الصحفيين المحليين والاجانب يسألونني في شغف وشراهة عن ماذا يحدث في الداخل فلم اجبهم بشيء، ولكنني حاولت ان أدعي من حركاتي وتصرفاتي ونظراتي وانا في حالة انتفاخ شديدة بانني عليم ببواطن الامور دون ان يعرف كل من كانوا حولي انذاك انني كنت مجرد (اراجوز) وكنت هدفا مباشرا (لنكات وضحكات الزعيمين الكبيرين)!

.. الظروف والاقدار وقد يكون الحظ قد لعبت كلها دورا كبيرا ومؤثرا ورئيسيا في

تكويني وتاريخي ومساري، فانا لم أكن أقدر ولا أكفأ صحفي، ولكن القدر السعيد الطيب كان أمامي وورائي ولم تكن جريدتي توزع مرة ونصف المرة قدر الصحف السودانية مجتمعة لانني كنت (الرجل الخارق) ولكن العوامل التي اشرت اليها قد ساعدتني كثيرا ومهدت امامي الطريق السهل المنبسط.



## محمد حسنين هيكل!

الذي حدث لي في الخرطوم يشبه كثيرا ما حدث لصديقي العزيز الاستاذ محمد حسنين هيكل في القاهرة وقد سمعت عنه في اواسط الخمسينات شابا ذكيا متطلعا إلى الحياة ويعمل في دار اخبار اليوم بهمة ونشاط ومثابرة، والدليل الواضح كان في تحقيقاته الجيدة عن شرق اسيا التي أثارت اعجاب قرائه ولفتت اليه الأنظار - كان ذلك كله برعاية استاذي واستاذه مصطفى امين - اطال الله عمره - وهو الذي اخذ بيدي قليلا جدا، وأخذ بيده كثيرا جدا جدا حتى تفجرت ثورة ٢٣ يوليو التي كان الاستاذ هيكل يلم بأدق أسرارها وبواطنها ويعرف قادتها وزعماءها مما أعطاه وضعا فريدا ومميزا فيما بعد.

الاخ الاستاذ هيكل باخلاصه وتفانيه وكفاءته ومقدرته وتمكنه، ثم بحبه الفريد واخلاصه غير المحدود ووفائه المكتمل للرئيس جمال عبدالناصر استطاع ان يكون دائما وابدا في منتصف دائرة الضوء، وفي بطن الأحداث لانه كان قريبا جدا من صناعها ومما لاشك فيه ان اي كاتب او صحفي تتاح له نفس الفرص ونفس الظروف التي اتيحت للاستاذ هيكل في القاهرة ولي في الخرطوم قد يلعب نفس الدور وبنفس القدر - وقد يبزنا الاثنين معا ان كان يتمتع بقدر اكبر من المواصفات التي نمتلكها والتي يحتاج لها مثل هذا الوضع.

المسألة كما تتبادر لبعض الاذهان ليست شطارة او عنفا او فهلوة او خرقا للطبيعة والنظريات والمعادلات، وانما هي فقط ظروف وقدر وقليل او كثير من الحظ يواتي الصحفي او اي شخص في اي مجال او ميدان اخر فيستثمرها جيدا وحتى النهاية او يعجز عن استثمارها كليا.

والاستاذ الكبير هيكل كان صحفيا شابا وواعدا وهذه سنة الحياة التي تبدأ مسيرتها دائما بالخطوة الاولى وكان قد تتلمذ على يدي الاخوين علي ومصطفى أمين وعندما واتته الظروف وسنحت له الفرص استطاع ان يستثمرها حتى «قاع البئر ونهاية القدمين» فتربع على عرش الصحافة العربية من محيطها إلى خليجها لأنه لم يكن كغيره ممن يعيشون على هامش الأحداث، وانما كان قريبا منها وملتصقا بها وفي داخلها بل وكان أحيانا يصنعها او يؤثر فيها.

جمعتني ظروف دراسية قصيرة بالاستاذ الكبير هيكل بكلية الصحافة الاميركية بجامعة كولومبيا عام ١٩٦٠ سعدت بزمالته وواتتني الفرص الطيبة لمعرفته عن قرب اكثر فأحببته في صدق واحترمته كثيرا وظلت حبال الود ممدودة وموصولة بيننا ومازالت حتى اليوم رغم ان حادثا عارضاً وقع لنا ونحن في كلية الصحافة بجامعة كولومبيا الاميركية عندما بدأت جلسة الامم المتحدة الصاخبة المشهورة ايام افتتاحها عام ١٩٦٠ والتي خلع فيها خرتشوف حذاءه الأيمن وأخذ يضرب به المائدة امامه في حركة هستيرية فقد معها الاحترام والوقار!

في تلك الايام وقد أخذت أحداث افريقيا وثورات الكنغو ومقتل لوممبا الاضواء فقد أعد التلفزيون الاميركي «بانوراما» الشهير برنامجا هاما وكبيرا عن افريقيا نقل على جميع شاشات التلفزيون الاميركية والكندية والاوروبية وشارك فيه دهاقنة وعمالقة رجال الصحافة العالميين الذين قدموا مع رؤساء حكوماتهم لحضور تلك الجلسة الصاخبة التاريخية، اذكر منهم مدير وكالة تاس السوفياتية واليونايتدبرس ورويتر ونواب رؤساء النيويورك تايمز والديلي تلغراف والواشنطن بوست.

ولم ينقص «العقد الفريد» الا صحفي افريقي فبعث التلفزيون برسول يحمل رسالة عاجلة جدا إلى المستر «مونتقمري كيريس» عميد كليتنا وكان فيما مضى رسولا خاصا للرئيس إيزنهاور في الشرق الاقصى وهو رجل فارع الطول والعرض مغرور لكنه متمكن من عمله.. جاءته الرسالة تطلب منه اختيار صحفي افريقي ليشترك في البرنامج الكبير، ولما وقع اختياره على شخصي البسيط الضعيف، ثار الاستاذ هيكل في وجه العميد وهو يعترض على اختياري ويؤكد له في غرور أكثر وأكبر انه رئيس تحرير اكبر جريدة في الشرق الاوسط وانه عملاق الصحافة العربية - وهذه حقيقة واقعة اقتنعت بها وكنت مقتنعا بها ووافقت عليها صديقي العزيز بصراحة، لكن الغريب في الامر ان المستر كيريس العميد لم يقتنع بها رغم تأييدي لما قاله هيكل ورغم استعدادي للتنازل وليتني عرفت السر وراء الاختيار اذن لقاومته. وفي تمام الساعة الثامنة مساء بتوقيت اميركا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٠ انطلق في الهواء البرنامج التلفزيوني الكبير (بانوراما) وقد ترك لي ادارة النقاش والاشتراك فيه ايضا لانه كان خاصا بالقضية الافريقية اساسا والقدر والظروف واحداث الساعة وربما الحظ ايضا الشيء الذي لا يدلى فيه - كل هذه العوامل

قد منحتني وضعا بارزا في ذلك البرنامج الهام مما جعلني نجما في الشارع الاميركي وبالطبع فقد سعدت كثيرا جدا بهذا الوضع، ولكنني سعدت اكثر وأكثر عندما تسلمت في اليوم التالي شيكا بمبلغ خمسمائة دولار «خمسمائة زمان التي كانت تشتري الطاووس والجاموس والفيل والكاديلاك»!

وبالمناسبة فان الفترة التي قضيناها في جامعة كولومبيا كانت حلوة وجميلة ومفيدة استطعنا ان نتعرف خلالها على احدث وسائل الاعلام وفنون الادارة والاعلان.

.. المناسبة دائماً قد تقود إلى مناسبات اخرى وتتفرع هنا وهناك وقد تجرف معها القلم ولكن آمل ان تكون دائما بمثابة المحطة التي نستريح فيها من عناء السير فالحديث عن الاستاذ هيكل الذي ظل يكتب كثيرا جدا جدا عن الناس والأحداث دون ان يكتب عنه احد قد يثير فضول القراء ويعجب من قرأوا له كثيرا ولم يقرأوا عنه شيئا حتى الآن!

## بورقيبة وناصر!

في ديسمبر عام ١٩٦٣ وجه الزعيم التونسي دعوة للرئيسين جمال عبدالناصر وبن بيللا لحضور الاحتفالات التي اقيمت لذكرى شهداء بنزرت ورافقت الدعوة بعض الهدوء النسبي في الأجواء العربية بعد ان كانت متدهورة ومتدنية كعادتها بين الفينة والاخرى يوم ان كان المذيع الالمعي المعروف احمد سعيد يتربع على عرش اذاعة صوت العرب ويصول ويجول بصوته الجهوري المميز ويصرخ في تشنج وتهيج باننا سنقذف باليهود في البحر ونصلي الجمعة في القدس الشريف و.. و.. وقد امتدت حملات صوت العرب فلم ترحم صديقا ولا عدوا ولا مليكا ولا رئيسا ولا قائدا ولا حزبا ولا طائفة. وكان الحبيب بورقيبة في مقدمة من أصابهم الاعلام المصري بأهرامه واخباره واذاعته والله اكبر ... الله اكبر وكيد المعتدين! والمعروف ان بورقيبة امعانا في الغيظ والتشفي كان يأمر اذاعته ووسائل اعلامه المحلية ان تعيد وتنقل شتائم واهانات الاذاعة والاعلام المصري وتجنيها عليه، وبالطبع لا يقوم على هذا التصرف الخطير الا زعيم متمكن وواثق من نفسه ومن شعبه ايضا. ويبدو ان فرصة الرد والانتقام والتشفي قد واتت بورقيبة وجاءته في عقر داره وانه عزم على الا يضيعها او يتركها لحالها. ففي صباح يوم ١٢ ديسمبر عام ١٩٦٣ على وجه التحديد وصلت طائرة الرئيس بن بيللا مطار (العوينة) واستقبله الرئيس بورقيبة بالقبلات والأحضان ثم استقبله الشعب التونسي استقبالا منقطع النظير وظلت (كلاكسات) العربات والبكاس واللواري تصيح وتزمر في غير ما توقف ولا هدنة وهي تشارك الشعب هتافاته التي ارتفعت إلى عنان السماء وهزت الارض تحت الاقدام.

## لقاء عبدالناصر!

.. وبعد ساعات قلائل هبطت طائرة الرئيس عبدالناصر وكانت نفس الكتل الشعبية والعربات واللواري مازالت متراصة في فناء المطار وفي الطريق الى القصر. وكانت المفاجأة المثيرة التي عقدت الألسن واوقفت دقات القلوب، وجمدت الدماء في العروق، ان نفس الكتل البشرية المتراصة التي هزت الأرض والسماء معا وهي تستقبل بن بيللا، ظلت صامتة ساكتة كأنما على رؤوسها الطير الأبابيل وهي نستقبل موكب عبدالناصر. لا تلويح بالأيدي، لا ابتسامة، لا هتاف، لا سلام، لا كلام، لا حركة، لا شيء على الاطلاق الشيء الوحيد الذي كان يبدد ذلك الصمت المدهش الرهيب هو صوت الدراجات البخارية التي تتقدم موكب الضيف ناصر حتى خيل إليّ وإلى الكثيرين ممن شاهدوا ذلك الاستقبال وعلى رأسهم من الصحفيين المرافقين لعبدالناصر هيكل ومصطفى امين واحسان عبدالقدوس وكانت تلك الكتل البشرية المتراصة مجرد أصنام وحجارة صماء.

كان الرئيس بورقيبة كما لاحظت وشاهدت وسمعت محبوبا من شعبه بدرجة كبيرة وقوية وهذه حقيقة لا تنكر وقد لاحظت في كثير من المناسبات في زيارتي تلك الاولى والاخيرة لتونس.. لاحظت انسجام بورقيبة ومعرفته الشخصية بالناس وبالشارع وسمعنا روايات وروايات كثيرة عن تعلق امته به، ولكن ملاحظتي الشخصية وانطباعاتي عنه «وقد تكون متسرعة» انه كان نشطا رغم تقدم سنه بقدر ما كان جريئا ومتهورا ومواجها بل ومحرجا من الطراز الأول. كانت جرأة بورقيبة قد ذهبت بعيدا إلى اقصى الدرجات التي لا يصدقها عقل بشري ولا يمكن ان تصدر من مضيف عادي ناهيك عن مجاهد وأكبر قائد ومعلم ورئيس جمهورية، فقد وصل الحد بالذين شاهدوا وسمعوا الذي جرى مبلغا من الدهشة والتأثر إلى درجة فقدوا معها القدرة على النطق والحركة.

ثلاثة احداث كبيرة وخطيرة ومجنونة تؤيد كلها ماذهبت اليه، ففي يوم ١٣ ديسمبر ١٩٦٣ توجه الرؤساء الثلاثة إلى مدينة بنزرت وكانوا يستقلون عربة مكشوفة والقى بورقيبة خطابا في عشرات بل ومئات الالوف من مواطنيه الذين تجمعوا في بنزرت، وبعده اعتلى المنصة الرئيس جمال عبدالناصر فصفق بعض الحاضرين (ويبدو ان الاوامر قد صدرت بذلك) لان ردود الفعل لاستقبال المطار كانت غير محببة وصعبة الهضم.

ظل بورقيبة واقفا على يمين الرئيس المصري كناظر الفصل تماماً، وبالمناسبة فهو يحب التدريس ويمارسه في بلاده... ظل يستمع إلى خطاب عبدالناصر باذنيه وعقله وقلبه وجسده وكل حواسه، وتوقف عبدالناصر برهة ليمسح العرق من وجهه ثم انحنى قليلا وهمس في اذن بورقيبة وبعدها اعتدل ليواصل خطابه، وكانت المفاجأة الكبرى التي لا يمكن ان يحتملها بشر مهما كان هذا البشر صغيرا او ضئيلا او تافها وذلك

عندما اعتلى بورقيبة نفس المنصة في عصبية مسعورة وشديدة وملحوظة وازاح بكلتا يديه عبدالناصر وقبض على جميع الميكروفونات وكل عضلات جسده تهتز ليعلن على هذه الجموع الغفيرة المحتشدة قائلا:

«اسمعوا فخامة الرئيس عبدالناصر بيوشوشني» ويقول لي ممكن اتحدث عن القومية العربية.. لم يقف بورقيبة عند هذا الحد من اصطناع الحرج وخلق المتاعب والمشاكل، وانما ذهب إلى ابعد من ذلك عندما اشار بيديه وكتفيه وجميع اصابعه للرئيس عبدالناصر قائلا:

«اتفضل يافخامة الرئيس اتكلم زي ما انت عايز... هي القومية العربية بتاعت حد دي كلنا بنسعى اليها وبنحبها».

.. أما عبدالناصر فقد استقبل كل هذا الذي يجري امام عينية وعيون الجميع بهدوء غريب وبصمت أغرب وابتسامات أحلى وأعذب مما جعله موضع احترام وتقدير الكثيرين هذا اذا لم تصل درجات هذا الاحترام الى مراحل الشفقة والرثاء والصلاة معاً.. لم يتمالك صديقي الاستاذ هيكل نفسه فقد شاركه في ذلك الكثيرون. كان هيكل متوتراً وعصبيا حينما سمعته يتمتم وانا في المعقد الملاصق له ويردد عبارة واحدة وهي:

(الله... دا اراقوز... دا مقنون... مؤكد مقنون)!

# ﴿ الفصل الخامس والعشرون ﴾

- الضحية البورقيبية الثالثة من السودان .
- قادتنا ماتوا فقراء وبيوتهم مرهونة .

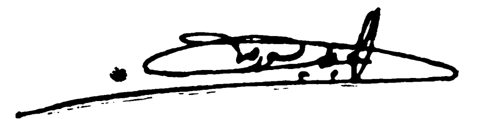
من بورقيبه

للصحافة

تحية من فخامه الرئيس الحبيب
بورقيبه بخط يده وممهورة
بأمضائه الكريم الي الشعب
الذي وقف الي جانب شعب تونس
بمناسبة اعياد الجلاء .

الى جريدة الصحافة السودانية

مع تحياتي القلبية للشعب السوداني النبيل



الواقعة البورقيبية الثالثة والاخيرة في رحلة تونس بعد واقعتي الرئيس عبدالناصر والاستاذ هيكل لن تخطر على بال بشر، فقد قامت كل الاعراف والقوانين وقواعد البرتوكول، فاصبحت اشبه ما يكون بالاساطير واحاجي (الغول) على الرغم من أنها لم تكن على الهواء مباشرة كواقعة عبدالناصر، ولم تكن أمام مئات الالوف من النظارة والهتافة والمشاهدين والمستمعين، فقد كانت على العكس تماما داخل الجدران وفي حجرة مغلقة، لا تلفزة ولا اذاعة ومع ذلك فقد كانت مريرة وموجعة وغير محتملة، هذه المرة كانت الضحية البورقيبية الثالثة من جنوب الوادي في شخص الممثل الرسمي لحكومة السودان «النوفمبرية العسكرية» وهو السيد يحيى الفضلي عضو المجلس المركزي وليحيى قصة كفاح طويلة بدأها مع بداية الأحزاب السودانية فقد كان رفيقا للازهري حتى قبل انشاء مؤتمر الخريجين ثم شاركه في تشكيل حزب الأشقاء وكان يعتبر حتى اندماج الأحزاب الوحدوية في الوطني الاتحادي وقبل انقلاب نوفمبر بيوم واحد الرجل الثاني لازهري لنشاطه وسرعته في الحركة وذكائه المفرط وقدرته الفائقة على التخطيط، ووضع المقالب حتى اطلق عليه اسم عرف به وهو (يحيى الدينمو). كان بجانب ذلك كله كاتبا فذا، وأديبا متمكنا وشاعرا مرموقا لا يجارى وكانت بصماته واضحة في كل قرار سياسي او عمل عام، لكنه ما ان قام انقلاب نوفمبر ١٩٥٨ حتى زلت قدماه، وجانبه التوفيق وانكفأت قامته بعدما كانت منتصبة، وانخفض صوته بعدما كان عاليا وتخلى عنه الحظ بعدما كان حليفه.. كل ذلك حدث للسياسي القوي الصارم يحيى الفضلي حين أيد الانقلاب باسلوب غريب لا يشبهه، وبطريقة خفية لم تلبث طويلا حتى ظهرت ملامحها وبانت ابعادها عندما اشترك في المجلس المركزي صنيعة انقلاب نوفمبر فهبطت اسهمه هبوطاً شديدا في كل ميدان، وعندما انتدبته حكومة نوفمبر ليمثل السودان في احتفالات ذكرى شهداء بنزرت في نهاية عام ١٩٦٣ كان رفيق دربه وكفاحه اسماعيل الازهري معتقلا في جوبا بجنوب السودان مع جميع قادة حزبه وأحزاب المعارضة وعلى رأسهم السيد عبدالله خليل ومحمد احمد محجوب ومبارك زروق والشيخ محمد احمد المرضي ونقد الله وكذلك عبدالخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي ولم

ينقص هذا العقد الفريد الا اللؤلؤة المكسورة «يحيى الدينمو»!

.. اذكر عندما اطلق سراح زعماء وقادة الأحزاب وعلى رأسهم الازهري قام السيد يحيى الفضلي بزيارته في داره التي امتلأت عن اخرها بالزوار والمهنئين وبالمئات من مريدي ازهري ورجال حزبه ويومها تململ الجمع ولم يرحب به وظن الكثيرون ان السيد الازهري نفسه لن يتردد في اهماله ولكن ما ان التقى الصديقان الكبيران اللذان اصبحا في مفترق الطرق، الا وتبادلا العناق الطويل والقبلات الحارة على غير ما كانوا يتوقعون لكن الجميع لاحظوا ان السيد يحيى الفضلي بدى عليه التعب والاعياء والانهيار النفسي والجسدي حين أخذ يمسح عرقه المتصبب ودموعه الغزيرة التي حاول عبثا ايقافها. من يدري لعله وهو بشر كان في تلك اللحظات الثقيلة يستعرض امجاده وتاريخه وجهاده الذي فرط فيه واضاعه في غفلة من النفس او في حالة من حالات الضعف البشري يوم ان مهدت له تلك الأمجاد الطريق الى الزعامة وكانت الجماهير ترفعه على الأعناق والأكتاف بعد كل خطاب او قصيدة وطنية مثيرة وما أكثر خطب واشعار يحيى المثيرة والمبدعة!!

شاء الله ولا راد لمشيئته ان يبعث بالسيد/ يحيى الفضلي لتونس مندوبا عن الحكومة خصيصا ليقع في مصيدة الحبيب بورقيبة التي لا ترحم والتي يصعب الخروج منها، فقد سعى اليها بقدميه ولعله استفاد من اللحظات القصيرة الطويلة الثقيلة المثقلة المرهقة التي قضاها وحيدا محبوساً في مصيدة بورقيبة؟!

## بورقيبة ويحيى!!

في مساء اليوم السابع عشر من ديسمبر ١٩٦٣ وذلك بعد مغادرة الرئيسين عبدالناصر وبن بيللا مطار العوينة في تونس كنت على موعد للتشرف بمقابلة الرئيس بورقيبة وقد انبهرت جدا عندما وقفت بي العربة الرسمية امام منزله الخاص وهو منزل عادي في شكله وأثاثه ومظهره... انبهرت أكثر وأكثر عندما استقبلني شخص في مدخل الباب ظننت انه الحارس فاذا به الرئيس بورقيبة شخصيا. لا حرس ولا غفر ولا مدافع ولا حراسة، واصطحبني ممسكا بيدي مرحبا بي في غير ما توقف وبدأ يتحدث إليّ عن علاقاته وعلاقات بلاده بالسودان وعن ثورة الامام المهدي الكبرى التي اصبحت أعرق وأكبر الثورات في تاريخ افريقيا و.. و.. وعندما دخلت غرفة الاستقبال فوجئت بالسيد يحيى الفضلي جالسا في الداخل فحييته، فقال بورقيبة مقاطعا: طبعا تعرفوا بعض و لا حاجة لي ان اقوم بهذه المهمة، ثم جلس وصب لي قدحا من الشاي واعتقدت من لحظات الصمت القاتلة التي خيمت على رؤوسنا، انني قطعت عليهما خلوتهما وحديثهما



السيد يحيى الفضيلي
نائب الأزهري وضحية بورقيبة

فشعرت بكثير من الحرج، الا انني تأكدت من ساعتي انني جئت في الوقت المحدد ولكن يبدو ان السيد يحيى الفضلي ممثل حكومة السودان في الاحتفالات هو الذي سرقه الكلام فتأخر أكثر مما ينبغي!

.. فجأة استدار بورقيبة نحو السيد يحيى الفضلي قائلا:

«نعم أتمم كلامك ياسيد يحيى الفضلي.. لكن السيد الفضلي اصيب بالصم مرة واحدة (وقد كان بالفعل ضعيف السمع).. وما كان من بورقيبة ولا ادري ان كان عن عمد مقصود او لجرأة يحسد عليها... ما كان منه الا أن أعاد ما كان يسره به السيد الفضلي في خلوتهما فقال:

«نعم ياسيد الفضلي قلت ان الشعب السوداني قد تنكر لكم وانكم تبحثون عن وسيلة لازاحة حكمه الدكتاتوري البغيض.. واستطرد بورقيبة يفجر قنابله المتواصلة التي تهز الحيطان لا الانسان حين مضى يقول:

ياسيد الفضلي ارجوك اسمح لي شوية... عمرها الشعوب ما تنكرت للقادة وانما بعض القادة يتنكرون للشعوب... خذ مثلا سيادتك انت هنا في تونس على العين والرأس واهلا ومرحبا بك، ولكنك جئتنا مندوبا وممثلا للحكم العسكري البغيض الذي تبحث عن وسيلة «.. في تونس وأنت ممثله» لازاحته، واخوانك وزملاء كفاحك ورفقاء دربك في المنفى.. في السجن بعيدا في (الجوبا).. في أحراش الجنوب مع الافاعي والحيوانات المفترسة. واستدار الرئيس فبادرني سائلا:

«ولا ايه ياحضرة الصحفي الكبير بذمتك ان غلطان ولا صح!»

وبالطبع كان من الصعب علي ان اجيب.. بل ومن الصعب عليّ ان استمع إلى الذي استمعت اليه وقد أحسست ساعتها بحرج ما بعده حرج وجالت عيناي المفتوحتان الجاحظتان ببلاهة شديدة في سقف الحجرة وارضها وحيطانها علني أجد ثقبا ولو صغيرا انفذ منه او فيه حتى اريح اعصابي التي مزقها المجاهد الاكبر، ومهما يكن من أمر، فان مثل هذه اللقاءات الخاصة حتى بين الأصدقاء والناس العاديين ـ مادامت مغلقة وبين الجدران، فان أسرارها وتفاصيلها ينبغي ذوقيا وأخلاقيا الا تتعرض للضوء ولا إلى الهواء (نسأل الله الستر) لكن ماذا يمكن ان نفعل مع الحبيب بورقيبة؟!

اعتقد انه من الانسب وقد واتتني فرصة تحدثت فيها عن الاستاذ يحيى الفضلي وعن لقائه المشؤوم بالرئيس بورقيبة فان الجواد الكبير السريع عادة ما يكبو، فالسيد يحيى الفضلي رغم سقطته السياسية وهو مريض وفي نهاية العمر قد لا يقوى على مواجهة (وملاواة) العساكر وقد لا يتحمل المنفى وحياة الوحدة والسجون «على الأقل اتمنى ذلك»! مادامت وقد واتتني فرصة الحديث عن الاستاذ يحيى، اعتقد من الأنسب بعد ذكر هذه المساوىء والمآسي العديدة التي انتهت اليها الأحزاب وسقط بعدها كثير من الساسة... من الانسب ان نذكر محاسن بعضهم ممن برزوا في مسرح الأحداث السياسية ولعبوا دورا كبيراً ورئيسيا في حركة النضال إلى ان توج كفاحهم باعلان الاستقلال.

## السيد محمد نور الدين

.. كان موظفا كبيرا في أحد البنوك ثم ظهر فجأة وانخرط في الأحزاب الاتحادية وكان اكبر داعية للاندماج مع مصر ويؤمن به ايمانه بالله وبنفسه وحاول عبثا في لقاءاته السياسية الجماهيرية ان يعد الطوارىء (والبلدوزرات) ليهد الحائط الكبير الذي يفصل بين السودان ومصر حتى يتم الاندماج التام وقد كان موضع ثقة المسؤولين المصريين وفي مقدمتهم الصاغ صلاح سالم مما يسر له الملايين التي كان يصرفها للدعوة الاندماجية ولكن يبدو انه بعد جهاده المرير واصراره الشديد عجز عن تحطيم الحائط السميك بين مصر والسودان والذي كان فيما يبدو جامدا كأبي الهول قويا كالهرم وليس لينا وهشا كما كان يعتقد نور الدين.

كان نور الدين يسكن في أعظم وأفخم منزل في الخرطوم، لزوم الزعامة والدعاية، ظهر فيما بعد ان مصر هي التي استأجرته له حتى يستقبل فيه اعضاء الوفود القادمة من الاقليم والذين يتأثرون الى حد كبير بالمظهر، والدليل على ذلك انه عندما اخلاه بعد «فوران» الانتخابات، احتله من بعده اللواء محمود سيف اليزل خليفة أول سفير مصري

في السودان. السيد محمد نور الدين كان امينا وعفيفا وطاهرا وبسيطا، ولو اراد الثراء الحرام لامتدت يده لتلهف ولو جزءاً يسيرا من حقيبة الصاغ وفي ذلك الكفاية ليضمن له حياة رغدة غير ان المجاهد نور الدين الذي كان اول وزير للاشغال في حكومة الوطن الاتحادي هاجمته يوما ما لأنه بنى في منزله الحكومي غرفة اضافية، فما كان منه الا ان سدد تكاليفها إلى وزارته في صمت وبلا ضوضاء.

مات نور الدين فقيرا معدما ولم يترك من بعده منزلا ليرهن، انما شيع جثمانه الطاهر من منزل ابنه في الاحياء الشعبية بالخرطوم بحري في موكب كبير يليق بمكانته رحمه الله رحمة واسعة فقد كان امينا ومخلصا ومؤمناً.

## خضر حمد

.. كان محاسبا في مصلحة المالية ولكنه كان من المثقفين المطلعين يوم ان كان الشباب المتحمس والمتعطش للمعرفة يلجأ إلى الاندية والجمعيات الادبية والثقافية عندما كانت الادارة البريطانية المستعمرة تخنق الانفاس وتمنع اي تحرك سياسي. كانت شلته من اشهر واعمر الشلات الثقافية في «حي ابوروف» بأم درمان وعندما ظهر مؤتمر الخريجين يدعو لفتح المدارس الاهلية ليتزود السودانيون بنور العلم والمعرفة لان المدارس كانت شحيحة جدا لا تفي بالحاجة المرجوة، نشط السيد خضر نشاطا ملحوظاً ومقدرا حين اشرف اشرافا كاملا مع لجنته على المدرسة الاهلية بام درمان - مواجهة منزل الزعيم الازهري - التي تخرج فيها نخبة ممتازة نشطة اسهمت في الحياة الثقافية والسياسية فيما بعد. قضى السيد خضر فترة طويلة من حياته موظفا كبيرا في الجامعة العربية بالقاهرة بعد استقالته من حكومة السودان بسبب نشاطه السياسي والثقافي ثم عاد ودخل المعترك السياسي. من ابرز اشعاره «نشيد المؤتمر» الذي كان يتغنى به التلاميذ في كل انحاء البلاد كما تغنى به الشارع السوداني حتى صار نشيدا وطنيا وقوميا واصبحت له ذكرى عطرة في نفس السودانيين جميعا.

.. عندما انشدته مجموعة من الطلبة والطالبات في القصر الجمهوري بمناسبة اليوبيل الفضي لذكرى الاستقلال ١٩٨١ اجهش الكثيرون من الحاضرين بالبكاء الحار لانه كان يمثل بالنسبة لهم ايام الشباب الحلوة العطرة بكفاحها المرير من اجل حياة العزة والكرامة والاستقلال وهذه مقتطفات من ذلك النشيد، من يدري فلعلها تثير في نفوس القراء السودانيين الذكريات العطرة:

للعلا ... للعلا        وابعثـــوا مجـــدنـــــا الافلا
واطلبـــــوا لعلاه المزيـــــد        .... للعلا
امـــــة اصلهـــا للعـــــرب        دينهـــا خيـــر ديـــن يحـــب

عــزهــا خـــالـــد لا يبيــد | قــد نفضنــا غبـــار السنيـــن
ومضينـــا بعـــزم مكيـــن | لنعيـــد فخـــار الجـــدود
نحـــن في الجـــلى اســـود | وبذا المؤتمر للمعالي يسـود ... للعلا

عند ظهور الاحزاب السودانية انخرط السيد خضر في حزب الاتحاديين الذي كان يرأسه السيد حماد توفيق وكان معظم مؤسسيه واعضائه من شلة «حي ابوروف» عبدالله ميرغني وابراهيم عثمان اسحق وابراهيم يوسف سليمان «عضو مجلس سيادة سابقا».. والتوأمين حسين وحسن الكد وغيرهم لكن في النهاية كان حزبهم من بين الأحزاب الوحدوية التي اندمجت في مـؤتمـر القـاهـرة في الوطنـي الاتحـادي بـرئـاسـة الزعيـم الازهري.. كان السيد خضر سكرتيرا للحزب المندمج لفترة من الزمن واصبح وزيرا للري في اول حكومة وطنية برئاسة الازهري.

كان السيد خضر يميل إلى الانطوائية رغم انه مواظب ودؤوب ومجتهد لكنه لم يكن ذا اثر كبير وفعال في المعترك السياسي، وقد كان يميل إلى اللين والمسالمة ولا يحب العنف السياسي والدخول في متاهاته ومضاره، لم يتزوج ومات وهو في عقده السادس تاركا وراءه ذخيرة حية من الادب ومؤلفاته قيمة تزخر بها المكتبات السودانية.

## العم الشيخ ازرق

.. قالوا ان الديمقراطية لحن عذب لانها تؤمن بحرية الفكر والقول والعقيدة ولكنها في بعض الاحيان قد تذهب بعيدا فتنقلب إلى فوضى وصراع شديد تماما كالحرية الفردية التي اذا ما تجاوزت حدودها ضايقت الاخرين وسببت لهم «فوران الدم».. اقول هذا لاننا حينما مارسنا الديمقراطية الليبرالية غير المحدودة انحرف بعضنا كثيرا عن خطها وتعاليمها، ربما كان ذلك بسبب الجهل او التخلف الفكري، وبالرغم من ان الاحزاب كانت جادة ومؤمنة بالديمقـراطيـة في اجـوائهـا العنيفـة المشحـونـة بـالاثـارة والانفعالات والجدية تظهر بعض «الطرافات الديمقراطية المهرجة» فتضفي نوعا من المرح والمسرة واحيانا الضحك الشديد المتواصل مما يخفف درجات الغليان والتوتر.

.. بهذه المناسبة اذكر حزب «العم ازرق» وهو رجل كان معروفا جدا في الشارع السياسي السوداني حين وضع دستورا لحزبه الرسمي يطالب بعودة الانجليز للسودان وبلا شروط بدعوى ان الاحوال قد تدهورت وان السودانيين ما زالوا في حاجة الى مزيد من الوعي والمعرفة وان الانجليز الذين خبرناهم هم اقرب الناس إلى نفوسنا وأحق بمساعدتنا حتى نستطيع الوقوف على اقدامنا وعلى ارض صلبة. كان العم أزرق وهو يعمل جزارا ان لم تخني الذاكرة قد سبب صداعا مستمرا للحكومة البريطانية وفرحة ومرحا للملكة اليزابيث ببرقياته المتواصلة التي يطالبهم فيها بالعودة السريعة قبل ان

تغرق السفن، والغريب ان الملكة كانت ترد عليه احيانا ببرقيات اطرف من برقياته. ولم تخل صحيفة آنذاك الا وكان فيها حديث او تصريح او بيان من العم ازرق رئيس حزب السودان!.

العم أزرق أصبح صديقا حميما لرجال الصحافة والقلم ومن المدهش انه كان مثقفاً ومتحدثاً لبقاً بالرغم من أنه غير متعلم ويملك مئات الحجج ليدعم بها آراءه المشوشة التي كثيرا ما أضحكت المجالس والمنتديات. الذي ساعد ومهد للعم ازرق إلى وسائل الاعلام والدعاية والظهور والانتشار هو «خفة دمه» وحلاوة حديثه وقوة منطقه وحججه الطويلة العريضة التي لن تتوقف ولم تنته!!

على كل حال استطاع العم أزرق بصرف النظر عما يدعو له ان يترك وراءه بصماته الحلوة وذكرياته العطرة التي ابهجت واسعدت الكثيرين امد الله في عمره ان كان حيا.

## آخرون

السيد / حماد توفيق اول وزير مالية في عهد الازهري كان مناضلا جسورا الا انه لم يظهر في الاضواء السياسية اللامعة وكانت درجات نفوذه واثاره ضئيلة. اما السيد/ حسن عوض الله وزير داخلية الازهري فقد مات قبل ثلاثة اشهر وكان قبل السياسة من نجوم الكرة السودانية ولاعبا كبيرا في فريق الهلال. والشيخ علي عبدالرحمن وزير معارف الازهري وهو اصلا من بطانة مولانا الميرغني فقد كان مقاتلاً «ومقلبا» من الدرجة الاولى وله علاقات طيبة ووطيدة مع مصر وكان عضوا كبيرا مؤثرا ومصدر صراع دائم في الميدان السياسي والغريب انه ايضا مات قبل اشهر وكأنه على موعد مع زميله حسن عوض الله. وهناك عدد كبير كريم اخر كلهم ماتوا شرفاء وكرماء وفقراء مخلفين وراءهم بصمات بارزة وذكريات عطرة تعتبر في ذاتها ثروة خالدة باقية اكثر من القصور وحسابات سويسرا التي كثيرا ما يفوتها أصحابها بلا وريث ولا وكيل!!

## زعيم الجنوب

أما الزعيم الجنوبي المرموق السيد/ بوث ديو فقد كان موظفا مغمورا في الجنوب لكن يبدو انه كثير القراءة والاطلاع ومن المعجبين جدا بتشرشل وقلادستون البريطانيين فقد كان رئيس حزب الاحرار كما كان من أبرز وأعظم البرلمانيين السودانيين بعد محمد احمد محجوب ومبارك زروق والشريف حسين الهندي. كان رجلا ذكيا وخطيبا بارعا عرف بتأثيره القوي على مشاعر مستمعيه خاصة ممن يجيدون اللغة الانجليزية وقد كسب دون غيره من زعماء الجنوب صداقة العديد من الشماليين بطيب معشره وحلاوة



بوث ديو برلماني من الطراز الاول

حديثه مما اكسبه الاحترام، قضى معظم سنواته الاولى بجانب الحركة الاستقلالية ثابتا لا يتزحزح وعرف بعدائه الشديد لمصر والوحدويين ولكن في نهاية المطاف انتكس انتكاسة مريرة وخيب ظن الناس فيه عندما بدأ يتقلب ويتأرجح مع كل بورصة سياسية، فتارة يعلن الانفصال وتارة ينضم للكومنولث ومرة يدافع عن وحدة ثم انفصال الشمال من الجنوب واخيرا وهذه هي التي قضت على حياته وتاريخه السياسي اعلن الوحدة مع مصر شأنه في ذلك شأن بعض النواب الجنوبيين والشماليين ممن سال لعابهم ولم يستطيعوا مقاومة الصاغ صلاح سالم وحقائبه المنتفخة دائما وابدا..

جاءني السيد بوث ديو مرة في منزلي «وقد كان صديقاً حميما لي» وعلى غير العادة كانت زيارته لي في الساعات الاولى من الفجر ولم يمض معي اكثر من دقائق اودعني خلالها حقيبة قال ان بها ثلاثين الف جنيه. وبعد يومين جاء واخذها وذهبت معه استجابة لالحاحه الشديد إلى جراج ميشيل كونس فاشترى في الحال عربة شفرليت امبالا جديدة وعزل من منزل المهدي بعدما استأجر منزلا له في الخرطوم اسسه اثاثا فاخرا فقد توج بعد ذلك نفسه زعيما للجنوبيين واصبح قبلتهم بخدمه وحشمه وشرابه ومأكله الا ان ذلك لم يدم اكثر من شهور فقد تدهورت اسعار البورصة، وانتكس السوق، كان

له من زوجاته الثلاث حوالي العشرة صبيان وبنات اسماهم تشرشل ووندر والمهدي وماري وفاطمة واندروز والصديق و.. ومات بوث ديو فقيرا معدما ودون ان يسمع به سوى نفر ضئيل بينما كان في حياته ملء السمع والبصر!!

لعله من الملاحظ جدا ان معظم القادة السياسيين ممن وضعوا اللبنات الاولى لمسيرة الكفاح والنضال في السودان وعلى رأسهم الازهري وعبدالله خليل والمحجوب وشيخ المرضي ونورالدين وبوث ديو وغيرهم وغيرهم كلهم ماتوا فقراء معدمين «رغم القيل والقال والكلام النقال» حساباتهم في البنوك صفر وبيوتهم مرهونة، لا شقق ولا حسابات ولا عمارات في الخارج، بل ان بعضهم ممن لا يزالون على قيد الحياة لا يملكون حتى مجرد عربة صغيرة لتنقلاتهم الشيء الذي لا وجود له في عالم غير عالمنا اذ المعروف في اي بقعة من العالم ان الذي يصل إلى المقعد الوزاري مهما كان فقيرا وضئيلا وتافها، فانه لا يلبث ان يغتني ويقوى ويتبجح!! اعتقد انه لا حاجة بي ان اسوق الدليل والشواهد على القائد السياسي في السودان فقد يعربد وقد يهاتر، وقد يشتم، وقد يضرب وقد يكذب الا ان يده دائما وابدا عفيفة نظيفة طاهرة لا يمكن ومهما كانت دوافع الحاجة ان تمتد إلى المال العام او الخاص، قلب السياسي السوداني صاف وطيب وطاهر لا يعرف الحقد والضرر او الدس، والمرارة والكراهية.

.. رحم الله قادتنا وزعماءنا بقدر ما قدموا واعطوا لهذا الوطن... لقد جاهدوا وصبروا وصابروا حتى تحقق للسودان استقلاله ومضوا إلى ربهم راضين قانعين بما تركوا وخلفوا من آثار وذكرى ستظل خالدة مع الزمن.

## ﴿ الفصل السادس والعشرون ﴾

- مصطفى امين ... وهيكل ... وانا !
- إلى اي مدى امتد نفوذ هيكل ! ؟
- قصص وحكايات عن الامبراطور !



مصطفى أمين وعبدالرحمن مختار في دار اخبار اليوم ـ فبراير ١٩٦٠

في اليوم الثالث لزيارتنا لتونس قام الرئيس بورقيبة بصحبة ضيفيه الكبيرين ناصر وبن بيللا بافتتاح مجلس بلدي (او قاعة البلدية) وعند خروجهم كنا نقف امام المدخل مباشرة مصطفى امين واحسان وهيكل وانا وما ان واجه بورقيبة الاستاذ هيكل حتى هرع او الحقيقة هرول اليه في خطوات مسرعة لا تليق بسنه ووضع يده على كتف هيكل وهزه هزا شديداً قائلا ومن حوله الرئيسان ناصر وبن بيللا مشدودان مشدوهان قال بورقيبة:

«الاستاذ هيكل مش كده والاّ ايه»

نعم سيادة الرئيس/ اجاب هيكل!

بورقيبة:

«يا سيدي أنا سعيد جدا بزيارتك لتونس التي كان لها نصيب الأسد من قلمك الموجع وياحبذا لو بقيت ضيفا علينا بعد سفر الرئيس عبدالناصر وانتهاء الاحتفالات حتى تتعرف علينا وتعرف كل شيء على الطبيعة وتكتب بعد ذلك حقيقة ما ترى وتسمع وتشاهد....، وفي حركة شيطانية سريعة غريبة حرك الرئيس بورقيبة معها كتفيه ويديه وكل أعضاء جسده قال لهيكل ساخرا:

ولا بلاش لانك مش حتقدر تكتب الحقيقة. نسيت انك موظف صحفي «أجير» يعني بياخذ مرتب وبطيع الأوامر فقط وكثيرا وبل غالبا يكتب ما لا يريد ومالا يؤمن به احياناً!!

.. تكهرب الجو وارتعش ووجم كل الواقفين وساد صمت موحش ثقيل ويبدو ان الرئيس بورقيبة قد أحس به وشعر من الوجوم بان الذي بدر منه ما كان يليق به كضيف ناهيك عن كونه رئيسا فسارع بنفس العصبية وأخرج ساعته الفضية من جيبه وقال لهيكل «انا ما أقصدش شيء بس يمكن هظاري جاف شوية بحكم المرض والسن «ثم ناوله الساعة «ام سلسلة» قائلاً:

وعلى فمه ابتسامة كبيرة مصطنعة كابتسامة المضيفات الجويات:

«يا استاذ هيكل خذ ساعتي التي اعتز بها هدية مني لتذكرك بي وبتونس الخضراء» وضحك عبدالناصر وبن بيللا ثم ضحكنا جميعا بما فينا هيكل نفسه ربما لا لأننا نريد الضحك فلم يكن هناك ما يدعو له، ولكن لاننا فقط نريد ان نخرج من الموقف الصعب ونقتل لحظات الحرج والدهشة ونطرد سحابات التوتر والغضب التي دبرها وصنعها ونفذها بورقيبة عن رغبة وعمد وسبق اصرار!

.. تعودت كل ما زرت القاهرة وكثيرا ما أفعل ذلك - أن أزور اخي وصديقي الاستاذ هيكل والحقيقة ان الذي شجعني على ذلك هو حرارة استقباله وحسن معاملته وبشاشته لي وقد كانت ابواب الاهرام المغلقة تفتح لي بعد لحظات من محادثتي الهاتفية معه مباشرة وفي وقت كنت اعلم فيه علم اليقين ان الوزراء من عرب ومصريين كان

يحتاج الواحد منهم لاسبوع بحاله لمقابلته في امبراطوريته العريضة الواسعة «دار الاهرام» مما جعلني اقدر حفاوته لي واهتمامه بي.

.. سألته مرة عن استاذنا مصطفى امين عندما كان في السجن فكان رده انه لا يعرف عنه شيئا لكن يبدو انه بخير.. ما سمعتش حاجة عنه!!

قلت له مرة والله يا استاذ هيكل لو عملت معروف وسعيت وتوسطت لاستاذنا الكبير وهو كما علمت مريض وبدأت الشيخوخة تهرول اليه بعجل قال:

والله «ياعبدالرحمن» حاولت كثيرا لكن يبدو ان الريس واخد منه كثير على خاطره وكان التليفون وما اكثر تليفونات الامبراطور (أحمر وأخضر وابيض واسود) جميع الوان قوس قزح ـ كان أحدهم يقطع علينا «الدردشة» كل خمس او عشر دقائق فيرد هيكل:

نعم ياريس... حاضر ياريس... بس انا رأيي.. طيب حاضر ياريس ثم يضع السماعة ويلتفت إليّ من جديد.. ومن كثرة استعماله ويبدو انه كان خطا مباشرا مع عبدالناصر عرفت انه (التليفون الاخضر الزرعي).

.. كلما تحدثت معه وباختصار شديد عن استاذنا الكبير مصطفى امين تعود بي الذاكرة إلى اعوام مضت وبالتحديد قبل تأميم الصحافة المصرية باسبوع او اسبوعين على الأكثر عندما كنت جالسا مع الاستاذ مصطفى امين في مكتبه بدار اخبار اليوم اطلعني على آخر مقال كتبه أظن في مجلة الاثنين يتوسطه رسم كاريكاتيري (لجبل او اهرام) لا اذكر، رسم في قمته رأسا يشبه رأس مصطفى امين بينما رسم في قاعه قزماً صغيراً ممسكاً بفأس او (مرزبة) وكتب تحته عبارة (القزم قرقل) يحاول تحطيم الاهرام وروى مصطفى امين في ذلك العدد قصة ايحائية كاملة عرفها كل من حوله وكان الاستاذ مصطفى امين على ما اعتقد قد عرف مسبقا بان النهاية قد قربت وبعد يومين أو ثلاثة لا أذكر اممت الصحف المصرية.

... ومرة من المرات العديدة المتكررة وصلت القاهرة من لندن ونزلت في فندق شيراتون بعد يومين فقط من مصرع وصفي التل، وكانت آثار دمائه المبعثرة مازالت معالمها ظاهرة وواضحة في مدخل الفندق رغم المحاولات التي بذلت لازالتها وفوجئت آنذاك بالسيد ابو القاسم هاشم عضو مجلس الثورة السودانية ووزير التخطيط آنذاك ينزل في نفس الفندق وعلمت انه عائد لتوه من ابوظبي بعد ان مثل السودان في احتفال قومي من احتفالات الامارات الكبيرة وفي صباح اليوم الثاني جاءني أبو القاسم في حجرتي وطلب مني بحكم علاقاتي وصدقاتي بهيكل ان اكون وسيطا بينه وبين السودان لازالة بعض اسباب التوتر والجفاء الذي ساد علاقاته بالسودان وفعلا قمت بالوساطة وقبل الاستاذ هيكل بتحفظ شديد ان يزور السودان لحضور اعياد ثورة مايو وكانت على الابواب وقد اقترحت عليه ان ينزل في ضيافتي.

.. وما ان وصلت هذه الانباء الى الخرطوم حتى بدأ البعض ممن لم ترق لهم هذه الفكرة وبدأوا محاربتها بطرق خفية وقبل اعياد مايو بايام جاءني ابو القاسم هاشم في منزلي وطلب مني (بان الحق اخوك) يقصد الاستاذ هيكل وقد علمت ان دعوة قد وجهت له فرفضها واحترت في ذلك وايقنت ان ثمة شيئاً قد حدث في الخفاء وبعد يومين ركبت الطائرة وتوجهت إلى القاهرة وقابلت صديقي هيكل في نفس يوم وصولي. وعند سؤالي واستفساري قال لي: طلب السفير السوداني مقابلتي فاذنت له وعندما دخل عليّ في مكتبي كان مظهره (لا يليق بسفير على الاطلاق) مما ازعجني واثارني تماما ثم وضع امامي كرت دعوة (لجنة احتفالات مايو) تدعوني للحضور وكان الكرت من الكروت العامة التي وزعت بالالاف مما لا يليق بي فاعدت اليه الكرت ورفضت الدعوة لان اتفاقي معك وقبولي للدعوة كان كافيا اذ انني اعتبرت تلك الدعوة الاخوية التي الححت علي في تقديمها إليّ نيابة عن اصدقائك في السودان لا تحتاج الى تدعيمها بكرت يقدمه سفير بصورته تلك ورفض الاستاذ هيكل الحضور بدعوى ان الحركة التي قام بها سفير السودان لابد ان تكون مرسومة ومقصودة وكان مجرد اثارتها كافياً لرفضه الدعوة ووساطتي معا وهذا ما حدث بالفعل وماخططه المعارضون لها في الخرطوم عمر الحاج موسى ومنصور خالد وزير الخارجية.

.. لعل كل الذين يحبون هيكل ويعشقون كتاباته وتحليلاته يقرأونها بشغف ونهم ثم ينتظرون في المساء صوت العرب والقاهرة وجميع موجاتها وهي تذيع كلمته الاسبوعية بأصوات خطابية مميزة وقوية تعرف مخارج الحروف والكلمات فتشبع تطلعات ورغبات الكثيرين فيستمعون اليها بكل حواسهم لانها كانت والصدق يقال: تعكس أحداث الساعة وكل ما يجري في الخفاء والعلن وهي فوق كل هذا وذلك كانت تعبر عن أفكار وآراء عبدالناصر نفسه او هكذا تعتقد الغالبية العظمى في العالم العربي.

.. ولعل من الملاحظات التي استنتجتها وتوصلت اليها عن قرب قريب ان عبدالناصر لم يحب بصدق بل وبانجراف كاتبا او صحفيا مثل الاستاذ هيكل، فقد وصل ناصر في علاقاته بهيكل حدا اودعه فيه كل اسرار قلبه الكبير بما فيه من آمال واحلام، وبما اختزنه كذلك من احزان وآلام. كان الاستاذ هيكل يضع في جيبه وقلبه كل المفاتيح السرية لخزائن عبدالناصر. أما الكاتب الذي كان يلي هيكل مباشرة ولكن بفارق وفراغ طويل وعريض من الهوامش والفواصل والحسابات فلم يكن عربيا، وانما كان اجنبيا وبريطانيا على وجه التحديد هو المستر «انتوني ناتنج» وزير الدولة البريطاني للشئون الخارجية الذي ارتبط بعبد الناصر روحيا لدرجة لم يتردد معها من تقديم استقالته بعد العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الاسرائيلي عام ١٩٥٦ الذي اطاح بايدن رئيس الوزراء البريطاني وابعده مرة واحدة والى الابد من مسرح الحياة السياسية ثم من الحياة نفسها.

.. نمت وترعرعت هذه العلاقة حتى وصلت حدا من القوة والالتصاق جعلت عبدالناصر يستقبل صديقه الكاتب والأديب الكبير والوزير السابق انتوني ناتنج في مخدعه الخاص؟ غرفة نومه (وهو بالبيجامة) واستمرت هذه العلاقة تقوى مع الزمن حتى سافر عبدالناصر في رحلته الاخيرة وبلا عودة ولم تمض اشهر حتى تدفق على الاسواق كتاب انتوني ناتنج الذي سماه (ناصر) كان يقع في حوالي الخمسمائة صفحة وهو (في رأيي) من أعظم ما كتب عن عبدالناصر واسرار عبدالناصر رغم انه كان في بعض فقراته صريحاً وواضحا إلى درجة بعيدة لا تألفها الحساسية العربية ولم تهضمها كثير من العقول، على الرغم من أنها فيما يبدو لي كانت صحيحة وفي رأيي ان الاسلوب الذي صاغ به (ناتنج) كتابه هذا كان مشوقا للغاية ولكنه على كل حال كان أكثر وقارا وتهذيبا مما ذهب اليه (مايلز كوبلنج) في كتابه المثير (لعبة الامم).

.. اذكر ان صديقي العزيز كامل زهيري الصحفي المصري المعروف كان قد ترجم هذا الكتاب ونشر في صحيفة (الجمهورية) وقد لاحظت انه كان يركز على كل الجوانب المشرقة ثم يقفز قفزا عمودياً وصاروخيا في صفحة مائة وسبع وثلاثين إلى مائتين وثلاثين مثلا. وعندما تقابلنا أيامها بالقاهرة وأخذتنا الدردشة (قفشته) عندما أبديت له ملاحظاتي فقال مبتسماً: «يا سيدي هو حد غيرك عارف ولا بيقرأ زي الكتب دي؟.. بالمناسبة انت قريتوا متى وازاي؟ ده صدر بس قبل شهر!!

قلت له: لا تنسَ انني قادم من لندن ولا تستغرب ان قلت لك انني اشتريته وقرأته طازجاً (ويادوبك طالع من الفرن).

.. اعود للحديث عن الاخ العزيز هيكل فهو حلو وطويل ولعلي بذلك اشبع كثيرا من محبيه وعشاقه لمن قرأوا له كثيرا جدا جدا، ولم يقرأوا عنه شيئاً على الاطلاق فارجو من اخي الصحفي وزميل المهنة المقدسة هيكل ان يستميحني العذر وانا اكتب عنه بل ويغفر لي ان اخفقت او قصرت في حقه او تجنيت عليه وهذا مالم ولن اقصده، وانني لعلى يقين بأن هيكل الذي سلخ جزءاً كبيرا من عمره في مهنة (النكد) او ان شئت فقل مهنة السعادة وكتب الكثير والكثير عن الآخرين لن يضيره او يثيره ان كتبت فيه ما لم يعرف ويقرأ عنه من قبل!

.. الاخ العزيز هيكل عندما كنا سويا في جامعة كولومبيا عام ١٩٦٠، انقطع فجأة وبلا انذار ولا مقدمات عن الدراسة وعلمت فيما بعد من الاستاذ قاسم جودة انه عاد مع الرئيس عبدالناصر في طائرته واخذت على خاطري لانه لم يحفل بوداعي رغم انه كان يسكن طيلة الوقت الذي قضاه معنا في الغرفة الملاصقة لغرفتي في مبنى كبار الزوار والاساتذة الزائرين الملحقين بجامعة كولومبيا غير ان حيرتي لم تدم طويلا عندما استدعاني العميد المستر منتوغمري في مكتبه وقال لي:

« .. هل تعرف ان صاحبك هيكل غضب علي كثيرا جدا إلى درجة تشاجرنا فيها

وأوشكنا ان نقطع كل حبال الصداقة والزمالة! ؟ هل تعرف ان كل الذي حدث كان بسبب اختياري لك للندوة التلفزيونية الكبيرة في بانوراما عن المشكلة الافريقية؟ ومضى العميد يقول: لقد حاول مستر هيكل أن يعطيني درسا لكنني اوقفته عند حده وأكدت له أن اختيار صحفي افريقي للمشاركة في ذلك البرنامج هو من حقي وحدى فكلكم في نظري هنا تلاميذي ولا تنس ان الجامعة قد دفعت لكم ثمن التذاكر والاستضافة ومصاريف الجيب ولا يهمني بعد ذلك ان كنت أكبر صحفي في الشرق الاوسط او أقرب مستشار للرئيس عبدالناصر او حتى ايزنهاور - فاذا عجبك هذا عجبك والا فيمكنك كما طلبت ان تنحسب بعد ما ترد الينا ما دفعناه لك مع تمنياتي الطيبة (وبون فوياج) رحلة سعيدة.

.. شكرت السيد العميد ولم أسأله ان كان مستر هيكل قد دفع ما عليه ولكن أغلب الظن انه فعل ذلك وسافر غاضبا وثائرا ومحتجا ولم افاتحه او أسأله فيما بعد لماذا ترك الجامعة ؟!

.. الاخ العزيز هيكل يتمتع بذكاء غير محدود وفيه ومضات مشرقات تحس بها وتلمسها كلما «دردشت» معه رغم انك ايضا تلاحظ انه «وهو بشر» يحس بكثير من الغرور والاعتداد بالنفس. فمن منا لا يفعل ذلك إن وصل حداً تفرش فيه الأبسطة الحمراء في الكرملين ويستقبله خرتشوف عند مدخل بابه ثم يرحب به مندوبون عن وزارات الخارجية في كل مطار يهبط فيه ويدخلون صوالين كبار الزوار؟

.. من منا لا يشعر بشعوره واحساسه ان وصل درجة يقف فيها الوزراء والسفراء بالصف «كيو» ليختطفوا لحظة او لحظات من وقته الثمين؟! من منا لا يواتيه هذا الشعور وهو الذي ظل قريبا وفريدا ومميزا ومصدر ثقة (ودلال) للرئيس جمال عبدالناصر اكبر وأضخم شخصية سياسية في التاريخ الحديث في العالم العربي؟! من منا يخرج عن نطاق البشرية ويحطم كل المعادلات والنظريات ليصبح بعد كل هذا متواضعا وهينا وسهلا وضعيفا يجرجر قدميه ببطء واعياء ان كان مجرد ظهوره في شوارع او فنادق بلده بل وان كان مجرد ذكر اسمه يحدث ضجة وهزة وتفاعلات وفعل ورد فعل! ؟

.. من الوقائع التي مازالت عالقة بذهني انني كنت معه ذات مساء في مكتبه بامبراطورية دار الاهرام - ومكتبه كان يشبه كثيرا - «مكتب الرئيس الامريكي في البيت الابيض» وبالمناسبة فان الذي يحتله الآن وبعد ما انكمش وتقلص الى مقاطعة او ولاية او مركز هو الاستاذ ابراهيم نافع الذي كان فيما مضى مراسلا لوكالة أنباء الشرق الاوسط وكان يغطي بنفسه كل أحداث الخرطوم مما جعلنا وثيقي الصلة به. تلك الواقعة التي هزتني وأحرجتني (وأدخلتني في اظافري) كما يقول مثلنا السوداني حدثت مساء يوم من الايام عندما كنت مع هيكل في الأهرام ثم نزلنا معا ليوصلني

كعادته إلى الفندق . وكان يرافقه ساعتها السيد وزير الداخلية المصري آنذاك ممدوح سالم ورئيس الوزراء فيما بعد وفتح السائق باب العربة فادخلني الاستاذ هيكل ثم دخل بعدي واغلق وراءه الباب ولم يجد السيد وزير الداخلية مفرا من الركوب مع «السواق» وهمست في اذن هيكل قائلاً: «يا اخي انا محرج غاية الحرج، وما تخلي السيد وزير الداخلية يركب معانا ... فرد علي وقد بدأ في اشعال سيجارته وأوشك (رأسه ان يخرج من رقبته) قال لي: (كفاية عليه كده)!!

.. وبهذه المناسبة وحتى يتعرف القارىء العربي على الجوانب الاخرى في حياة هيكل كاتبهم الكبير ومدى أثره ونفوذه في بلده أروي قصة قصيرة حدثت لي في القاهرة فقد كان هناك سوداني قريب لي في زيارة لها وكان قد دعاني إلى حفل تكريم اعده له نفر كريم من اصدقائه المصريين منهم الضابط اللواء، وفيهم المقاول المليونير، وفيهم التاجر ومدير البنك.. و.. وما ان دخلت عليهم حتى بدأ يعرفني بهم واحدا واحدا وجلست وعاد الجمع يستأنف محادثاته (ودردشته) دون كبير اكتراث واهتمام بي حتى فجر صديقي قنبلة ما حسبت انها كبيرة وثقيلة ومزعجة وداوية الى حد اخرست فيه جميع الالسن وركزت على وجهي كل نظرات الحيرة وعلامات الاندهاش والانبهار!

.. قال لي صديقي عبدالقادر يوسف وكان اول وكيل لوزارة الشئون الاجتماعية في السودان بعد الاستقلال وهو الآن رجل اعمال معروف.. قال في جملته الصغيرة التي قتلت الحياة في تلك الجلسة الصافية:

كيف حال صديقك هيكل؟

.. لقد اوشك ان يصيبني الجنون والذهول عندما استدارت الرؤوس كلها نحوي وراحت الاسئلة تتدفق عليّ كالمطر ... هيكل مين!؟ تقصد محمد حسنين هيكل ـ فرد صديقي ايوه «هيكل بتاع الجرائد بتاعكم»... ما هو انا عرفتكم بالاستاذ وما اخدتوش بالكم منه وهو برضو بتاع جرائد في السودان لكنه صديق شخصي لهيكل بتاعكم وزميله في الدراسة؟!

.. تقصد انك بتعرفو ويعرفك وبتسلم عليه؟! ويسأل آخر هو هيكل ياحبيبي بتكلم ازاي وبياكل ازاي.. وبيضحك ازاي؟ وقبل ان اجيب يقول اللواء يا بختك ياعم دا انا نفسي امنيتي «ادردش» وياه بس فين ولا فين ولا منين؟!

.. الشخص الوحيد الذي لم يتحدث ولم يشترك لا في الاسئلة ولا في الكلام هو السيد المقاول فقد ظلت نظراته ومشاعره وأحاسيسه كلها مركزة عليّ كما ظلت ابتسامته تكبر وتعرض وتنكمش وتطول في وجهي حتى بدأت احسس وجهي علّني اجد فيه (شيئا غلط) كان فيما يبدو لي يفكر كثيرا كثيرا حتى اضمر في نفسه شيئاً هاما وكبيراً.

.. انتهت الجلسة وكانت حلوة... واحلوت أكثر وأكثر عندما اصبحت نجمها وموضوع عنايتها واهتمامها، ومصدر الهامها وتأملاتها حتى اذا ما انفض الجمع تسابقوا

(يجرجروني) وبلا استثناء وكل يقسم اغلظ الايمان بانه هو الذي سيوصلني بعربته إلى «الشرتون» حتى انهم في غمرة تسابقهم، نسوا ضيفهم الاساسي الذي ظل يضحك لي انه الم بكل مواطن الضعف فيهم!

.. في الصباح ... الصباح الباكر حوالي السابعة والنصف دق جرس تليفوني في فندق شرتون ليبلغني موظف الاستقبال بان المقاول فلان الفلاني (صدقوني نسيت اسمه) يود محادثتي واندهشت كثيرا لانني لا اعرف مقاولا في مصر ولكن دهشتي لم تدم طويلا عندما جاءني صوت وقور يقول لي صباح الخير ياسعادة البيه ده انا محسوبك فلان الفلاني المقاول ياسعادة البيه! مقاول مين ياعم!؟

.. ده انا يا سعادة البيه اللي اتشرفت أمس بمقابلتك مع سيد عبدالقادر يوسف وتشرفت بتوصيلك للفندق.. ده انا جيت أصبح عليك واطمئن على صحتك بس فاندهشت ولكنني عندما استقبلته زادت دهشتي وتضاعفت حيرتي وفقدت القدرة على التفكير والتركيز بل وانشل عقلي تماما وأصبحت (كالأبله) وذلك عندما قال لي: شوف يا سعادة البيه (وعلى طول ودخل في الموضوع مبتدئا باسم الله وبارك الله في من نفع واستنفع) انا عاوز منك خدمة صغيرة اوي اوي يا تعزمني معاك عند هيكل بيه بس اشوفه بعينيه واتعرف عليه يا اعزمكم أنا في بيتي عشان الست والعيال يفرحم «وتقول لو» اني صديقك وتعرفني من زمان اوي من السودان واطلب بعد كده اللي انت عايزو.. عيني يا سعادة البيه ماتغلاش عليك!

.. كيف يمكن ان يواجه الانسان مثل هذا «الاقتحام الصاروخي الغريب» الذي يشل كل شيء غير ان يقوم بعد ان يجمع قواه المنهارة وعقله المشتت ويمشي لحاله هذا اذا لم يختصر الطريق ويطرد ضيفه او يركب رأسه ويستدعي البوليس؟!

.. هذا ما كان من نفوذ هيكل في الشارع المصري وهو يزداد قوة ومناعة وجسارة اذا ما امتد ووصل دواوين الحكومة او ميادين القطاع العام.

.. عدت مرة في ساعة متأخرة قليلا وما أن دخلت بهو الفندق حتى ساد الهرج والمرج وارتفعت الصيحات والصرخات من موظفي الاستقبال وخرج المدير ونائبه والمراقب و.. و.. وبصوت واحد قال الجمع الغفير وهو يطوقني ويحاصرني في شكل حلقة دائرية محكمة: ياسعادة البيه كنت فين؟ حصل شيء ليه وقعت مصيبة؟! لا كفا الله الشر دي سكرتيرة هيكل بيه سألت عنك وبتقول لك لما ترجع تبقى تتصل بسعادة هيكل بيه وبس!!

.. وبدأت اتطلع اليهم في وجوم وعيونهم تحاول ان تنفذ إلى صدري وتخترق قلبي من شدتها وقوة تركيزها.

.. «طيب شكرا» وخرجت لساعة من الزمن وعندما عدت حوالي منتصف الليل وطلبت مفتاح غرفتي فاجأني كبير موظفي الاستقبال قائلا وقد وضع على وجهه

ابتسامة حلوة ومريحة:

« .. لا يا بيه السيد المدير أمرنا بنقل عفشك لجناح كبار الزوار وحولناه خلاص وعلي افندي حياخذك لمطرحك الجديد الفخم ان شاء الله يعجبك وبالسلامة ان شاء الله.

قلت له: في لهجة لا تخلو من الحدة.

.. يا اخي أرجوك أعطني مفتاح غرفتي وانا لم اطلب منكم تحويلي إلى جناح خاص او عام وان كنت اريد ذلك لفعلت بدون تدخل احد!

« .. بس يابيه ده فخم اوي فيه حجرة استقبال كبيرة وحجرة نوم انما ايه، وسفـرة وحاجة آخر قيافة تليق بمقام سعادة البيه وكمان من غير فلوس خالص... ده انت ضيف عزيز عندنا!! عند «الشرتون» اللي اتشرف بسعادتك!!

.. كان لا بد لي من ان اقضي ليلتي تلك في جناح كبار الزوار لان موظفي الاستقبال رفضوا رفضا باتا وملحا ان يعيدوني الى حجرتي المسكينة بدعوى ان هذه هي اوامر البيه مدير الشيراتون الذي خرج وانهم لن يخالفوها حتى لا يفقدوا وظائفهم.

.. المهم تحولت وبالقوة في اليوم الثاني ورغم اصرار والحاح السيد المدير الذي فعل كل ذلك وبطريقة عفوية لعبت فيها الحالة النفسية والتأثير المغنطيسي المكهرب بسبب محادثة تليفونية لا من هيكل ذاته وانما من سكرتيرته فقط! تحولت جريا وخوفا من الجناح الرهيب خصوصا عندما علمت مؤخرا أن السيد رئيس الوزراء الاردني الذي صرع بالرصاص في بهو الفندق كان يسكن فيه.. ومرة في جلسة جمعتني بعدد من «البهوات» سألتهم بالله ان يبحثوا لي عن شقة اشتريها من احدهم إلى ان صرخ قائلاً: ياعالم دي سكرتيـرة هيكـل بـالتلفـون تجبلـك عمـارة بحـالهـا، امـا اذا فتـح هيكـل بيه تلفون حيجبلك المريديان او قصر..

.. هذا هو التأثير (الالكتروني) المباشر عندما ينفذ إلى العقول الباطنية والنفوس المخدرة فسرعان ما تشعر بالهيبة او الخوف وبالرهبة من الشخص او شبح الشخص السحري المؤثر عندما يصل إلى هذا الحد العظيم من القوة والنفوذ والسيطرة كما وصل الاستاذ هيكل وقد يكون في عدم ظهوره وقلة اصدقائه وابتعاده عن الناس والحفلات التي كثيرا ما تجر الى القيل والقال من اسباب قوته، فهيكل رجل صعب لا يمكن معاشرته ومصادقته بسهوله، وبالرغم من انني مؤمن بان الاخ هيكل لم يستغل جبروته وعمله في بلاده استغلالا يعيبه او يسيء اليه او يخدش سمعته وكرامته، الا ان ردود الفعل على نفسيته كانت كبيرة ومؤثرة إلى درجة زادت عن عمره عشرين سنة عندما اعتقل ولاول مرة في حياته في اواخر ايام السادات، ولعل ذلك قد اثر على نفسيته كثيرا جدا الى الحد الذي بدأ يوضح ويبرز بطريق مباشر وغير مباشر في بعض كتاباته والشيء الذي كذلك احسست به في طريقة كلامه وتصرفاته لان هيكل الذي تعود ان

يضبط حساباته جيدا ويخطو بحذر ويكتب بدقة متناهية ويتحدث كذلك بالميزان، لم يضع ابدا في دفاتره لا في الهوامش ولا في اطراف الهوامش ان قوة في الارض مهما كانت وكبرت تستطيع ان تمد يدها اليه ناهيك عن ان تعتقله وتضعه في السجن!!

.. لاحظت كل ذلك في اللقاء الاخير بعد يوم واحد من الافراج عنه فقد وصلتني رسالة خاصة من صديق عزيز من القاهرة تبشرني باحتمال اطلاق سراحه خلال ايام. ولما كنت اثق جدا في صاحب الرسالة فقد أعددت حقائبي وتوجهت فورا إلى القاهرة لأكون اول مهنئيه ومستقبليه خاصة وقد اهتم باعتقاله عدد كبير من قرائه في الخرطوم وبعثوا البرقيات للقاهرة محتجين ومطالبين بالافراج عنه وعن جميع الكتاب والصحفيين والادباء الاخرين.

.. قمت عندما تم اعتقاله بمحاولات اتصلت فيها بعدد من أصدقائي المسئولين في الخرطوم ودول عربية وافريقية اخرى كثيرة للتوسط اولا لدى الرئيس انور السادات ثم لدى الرئيس حسني مبارك ولكن معظمها كانت فاشلة لاسباب لم تذكر لي ولم اسأل عنها.

.. بعد ثلاثة ايام من وصولي القاهرة اذيعت انباء الافراج عن المعتقلين السياسيين ومن بينهم الاستاذ هيكل وفي العاشرة من صباح اليوم الثاني قمت بزيارته في داره فاحتضنني بحنان مبديا شكره العميق على الزيارة خاصة عندما عرف انها بغرض تهنئته ولم امكث معه اكثر من خمس دقائق لان شقته كانت خالية من اي اثاث وعلمت انهم بصدد تجديدها ثم دعاني إلى فندق المريديان الذي كان يسكن فيه بشكل مؤقت وحتى يكتمل اعداد شقته.

.. وفي منتصف نهار اليوم التالي استقبلني في الفندق هاشا باشا يسأل عن اخبار السودان (وبدأت الدردشة) وانا ارقب في نوع من الأسي كل معالم الشيخوخة التي هجمت عليه فجأة وبشدة وقوة حتى بدا لي وكأنه زاد سنوات كثيرة من عمر الزمن قلت له وقد اعتدت ان استشيره عند الضرورة:

.. يا اخي لدي عرضان من صحيفتين لم اسمهما له بان اصدر لهما ملحقا اسبوعيا خاصاً بالسودانيين المغتربين في الخليج والسعودية وطلبت رأيه ومشورته فقال لي: طبعا انت اللي خسران فان جاءك العرض من «الشرق الاوسط او الحوادث» فبالطبع هم الرابحون. القريب انه لماح وذكي كما قلت فقد أصاب في تخمينه واحدة منهما، وكان العرض أساساً صحيفة واحدة لا صحيفتين:

قال لي وهو لا يضن علي برأي ولا ،مشورة :.

«شوف الصحيفة التي قبلت عرضك هذا.. قبلت اسمك لان السودانيين سواء في الخرطوم او الخليج او امريكا هم قراؤك انت وحدك ولا حاجة بالطبع لاي صحيفة تقبل عرضك ان تدعو أو تروج لك او تقوم بتعريفك فانت لا تحتاج إلى ذلك ومضى هيكل ينصحني قائلا:

« .. اعتقد انك اذا قمت بهذا العمل لحسابك الخاص فإنك ستكون الرابح أصلا بدلا من ان يقتسم احد معك هذا الربح او الجهد في اخراج الملحق وعين العقل ان تجيء إلى القاهرة وتفتح مكتبا بها وتصدر صحيفة خاصة بالمغتربين فالطباعة والورق والمواصلات في القاهرة ارخص بكثير من اي مكان آخر ثم الأهم والمهم انك ستكون على (فركة كعب) من مصادر اخبارك وتعليقاتك في الخرطوم.. واقنعني فعلا بهذا الرأي ولكنني لم انفذه حتى الآن..

.. في احدى زيارات عبدالناصر المتكررة للسودان مصطحبا معه عمالقة صحفيين، كان ضيف السودان البارز بالنسبة للشباب والشابات في تلك الزيارة الفنان عبدالحليم حافظ وفي مساء ذات يوم توجهت كالعادة اليهم في الفندق الكبير ودهشت عندما وجدت ما يقرب من المائة شاب وشابة كلهم من المدارس العليا والجامعات يقفون على تراس اللوكاندة واخذوا يصفرون ويصرخون في وجه الحلقة التي ضمت محبوبهم عبدالحليم حافظ ومصطفى امين وهيكل واحسان عبدالقدوس.. يصرخون باصواتهم الحلوة البريئة «نار.. نار ياحبيبي» وقد حزت في نفسي كثيرا لان عبدالحليم لم يكلف خاطره حتى مجرد الالتفاتة اليهم ناهيك عن الابتسامة وكان ذلك أول لقاء مواجهة لي بالفنان الراحل الذي كان مكانه في قلبي الرابع بعد ام كلثوم وعبدالوهاب وفريد الاطرش فحييته وانضممت إلى الحلقة ولحظتها تقدم شاب وشابان وثلاثة .. و.. نحو عبدالحليم وهم يحملون صورة يطلبون اليه بكل عبارات الترحيب والحب والاعجاب ان يوقع لهم على الصور فما كان منه الا ان «شخط» في وجوههم البريئة بين حيرتنا ودهشتنا أجمعين، والشباب المعجب اخذ يتقهقر واجفا حائرا فلم اتمالك اعصابي وجاءني (فوران الدم) السوداني فصرخت في وجه الشباب المتجمع (يلا بره... قطعوا صوره وحطموا اشرطته وقاطعوا افلامه... بره.. بره..!!)

.. ووجم الحاضرون جميعهم لتصرفي بما فيهم بالطبع عبدالحليم وهنا قال لي استأذنا مصطفى امين ايه ده يا سي عبدالرحمن ما يصحش ياأخي وانت كمان ياحليم بعدين وياك ونهض مصطفى امين بوداعته وسماحته وابوته ولحق (العيال) ولملم منهم صور عبدالحليم وأخرج قلمه واعطاه عبدالحليم، الا ان ذلك جاء متأخرا ومتأخرا جدا فقد ابلغ (العيال) المقهورون اخوانهم واخواتهم الذين تكبدوا مشاق الرحلة بما حدث فانصرفوا جميعا تاركين وراءهم صور عبدالحليم وعبدالحليم نفسه بعد ما احرقوا بناره.. نار.. نار ياحبيبي!! ومنذ ذلك التاريخ البعيد لم احفل أو أهتم يوما باشرطته وغنائه رغم انني ترحمت عليه من كل قلبي يوم ان فارق الحياة بما فيها من عذاب ولهيب ونار!

# ﴿ الفصل السابع والعشرون ﴾

- نهاية العربدة السياسية
- صحافتنا في الميزان

# نهاية العربدة السياسية

.. كنا نعتقد ان الاحزاب السودانية قد وعت تجربة الحكم العسكري الانقلابي النوفمبري الذي اضاع الديمقراطية ومزق الدستور لكنها سرعان ما اجهزت على حكم تجمع الهيئات بعد انتخابات ديمقراطية حرة منحها الشعب عن طريقها تفويضا كاملا وثقة بلا حدود وبدلا من ان تأخذ العبر والدروس من الماضي البغيض وتتجه كليا إلى وضع تخطيطات وبرامج اصلاحية وتنموية يعود خيرها على الجميع، وبدلا من ان تنصرف، في الاعداد لدستور دائم للبلاد فتقيم الحوار وتتبادل وجهات النظر إلى ما هو اقيم وانفع واجدى، وبدلا من ان تخترق الاقاليم والارياف لتتعرف على مآسي الناس عن قرب قريب وتعيش ظروفهم ومظالمهم، بدلا من كل هذا انشغلت عنهم وعن همومهم بنفسها وانحصرت في دائرة الذات الضيقة ثم لم تكتف بكل هذه السلبيات لكنها تمادت في الانسلاخ من القواعد الشعبية وتنكرت حتى للتقاليد والاصول والاخلاق فدارت في فلك المهاترات والسباب والشتائم وكيل الاتهامات بعضها ضد بعض بأسلوب غير متحضر فانحدرت بذلك إلى مستنقع الرذيلة والانحطاط فانصرف عنها الشعب وادار لها عنقه كليا وظلت الشقة تبعد والجفوة تتعمق بين الشعب والحكومة من جهة وبين الحكومة والصحافة من جهة اخرى مما جعل الناس يضيقون ذرعا بالاحزاب بل وبالديمقراطية ذاتها .

لم يقف التدهور السياسي والحزبي عند هذا الحد فحسب وانما تعداه إلى علاقاتنا الافريقية والعربية والدولية بمنابرها ومحاورها المتعددة، لان سياستنا نحوها كان طابعها الارتجال والارتباك وعدم التخطيط والتنسيق مما جعلها باهتة بلا لون ولا طعم ومرد ذلك كله يعود في الغالب الأعم الى الصراعات الشخصية الضيقة، كما يعود بالتالي اما للعاطفة او الجهل او التردد او الاغراء الذي ظل يؤثر تأثيرا مباشراً وخطيرا على مسيرة السودان الشيء الذي فقدنا معه وزننا في كل محيط ومنبر ومكان .

ومن منطلق سياسة الارتجال والعفوية اتفاقية الوحدة الاقتصادية بيننا وبين دول الجامعة العربية التي لم تدرس بوعي وعقلانية ففازت في الجمعية التأسيسية بسطحية شديدة، لكنها على كل حال لم تر النور كما خطط لها . وفي يوم ١٦ ابرايل ١٩٦٩ اي

بعد ايام قليلة من طرحها على الجمعية التأسيسية كتبت في الصحافة حديثا مطولا تحت عنوان :

وهكذا فان نعم أغلبية قلت فيه مايلي :

**● اتفاقية الوحدة الاقتصادية تغرقنا في التزامات ومتاهات لا قدرة لنا بها .**
**● الطريقة التي عرضت بها الاتفاقية على الجمعية تثير الحيرة والجدل**
**● كيف يمكن ان نقرها ونحن غير متكافئين في القدرات والامكانيات ؟**
**● او تعلمون ان الاتفاقية تسد امام السودانيين كل فرص الحياة والانتاج ؟**

.. يا جماهير العمال في المصانع .. يا مزارعينا في الاحراش ... ايها التجار .. يا مثقفينا وطلابنا في المدارس والمكاتب ... ايها العاطلون والمشردون في كل مكان .. يا شعبنا الكادح يا اهلنا الطيبين .

.. انتم كلكم مدعوون اليوم لمطالعة بنود اتفاقية الوحدة العربية التي اسموها مجازا بالوحدة الاقتصادية ، تعالوا معى لنناقش فصولها وبنودها بعقولنا وقلوبنا بعيدا عن العواطف والمزالق ، بعيدا عن الشعارات والمناورات . بعيدا عن الدجل والشعوذة ، بعيدا عن كل بريق يخطف ابصارنا ويخدر احاسيسنا ويميت مشاعرنا فيعقد حركتنا ويشل تفكيرنا ويباعد بيننا وبين الحقائق التائهة الضائعة في دروب السياسة وسراديب الضلال .

.. قبل ايام معدودات قدم السيد الرشيد الطاهر وزير العدل للجمعية التأسيسية اتفاقية الوحدة الاقتصادية بين دول الجامعة العربية وفي دقائق معدودات كانت نعم اغلبية فاجيزت الاتفاقية .. واقسم جازما ان معظم النواب حكومة ومعارضة ممن قالوا نعم وممن قالوا لا لم يطلعوا على بنودها ولم يقرأوا سطورها لا .. لانهم جهلاء ولا لانهم اغبياء . ولكن لان الطريقة الغريبة التي قدمت بها الاتفاقية والتي تدعو إلى كثير من الحيرة والتساؤل والشك هي التي باعدت بين النواب وبين الاطلاع عليها .

.. فالاتفاقية المشار اليها على كبر شأنها ومحتوياتها وخطورة ابعادها ونتائجها لم تظهر في الجدول الاسبوعي وانما وضعت في جدول اليوم الذي وزع على صناديق السادة النواب وفي نفس اليوم ايضا وبالتالي فلم تكن هناك فرصة للاطلاع وللدراسة ولم يكن هناك مجال للبحث والمشورة مما حرم الاعضاء جميعهم من دراستها وفحصها وتمحيصها وابداء آرائهم فيها شأنها في ذلك شأن اي امر كبير توضع له مراحل القراءة الاولى والثانية ومرحلة اللجنة ثم القراءة الثالثة حتى يستوفى البحث .

## نعم أغلبية

.. قلت لم يعلن عن هذه الاتفاقية كبيرة الشأن الا يوم تقديمها للجمعية فلم يعرها النواب مجرد الالتفاتة بدليل قلة عدد الحاضرين فهل قدمت للجمعية كأية اتفاقية خطوط الطيران وأصوات الشكر والثناء عمدا وباصرار مسبق ومسبب حتى تمر هكذا بلا مناقشة وبلا دراسة وبنعم اغلبية ؟

.. وهنا ونحن نسير في دروب الحيرة والضياع من حقنا ان نتساءل اين كانت المعارضة التي ملأت الدنيا ضجيجا وعجيجا في ما لا ينفع الناس ؟ لعل الهرج والمرج اللذين صاحبا صوت الثقة ثم المناورات التي تقدمت توحيد حزب الامة ثم حفلات الابتهاج باعلان التوحيد قد شغل المعارضة عن هذا الامر الجلل فانشغلت به وانشغل معها الناس .. وكانت نعم اغلبية فمرت هذه الاتفاقية الخطيرة الكبيرة ونحن في غفلة من امرنا اجمعين .

## خلفية الاتفاقية :

.. هذه مقدمة كان لابد لي من سردها قبل الدخول في بحث بنود الاتفاقية ونحن مجردون الا من مصالحنا العليا والان تعالوا معي لنقف على خلفية هذه الاتفاقية حتى نلم بابعادها التاريخية والسياسية .. فالاتفاقية الاقتصادية هذه وضعت عام ١٩٥٧ اي قبل اثني عشر عاما وهي واحدة من اتفاقيات عديدة تكدست بها ادراج الجامعة العربية فاصبحت غذاء للفئران والحشرات والقطط .وسؤالنا الان بعيد عن رأينا في الجامعة العربية وما قالوا عنها قبل وبعد هزيمة يونيو .. سؤالنا هو لماذا عرضت على الجمعية بهذه الصورة الغريبة التي حرمت السادة النواب من حقهم في بحثها ودراستها وبالتالي حرمت الرأي العام السوداني صاحب الوجيعة من بحثها ودراستها ؟

.. لا تقولوا انها حرب يونيو فالاتفاقية الاقتصادية لا شأن لها بذلك لانها وضعت عام ١٩٥٧ وهي تهدف كما نصت بنودها على تدعيم التنمية في البلدان العربية وتوطيدها على اسس تلائم الصلات الطبيعية والتاريخية ولم تجد من العرب من يضيع وقته في مجرد بحثها ناهيك عن دراستها واقرارها .

.. ياشعبنا الكادح وأهلنا الطيبين الغافلين حتى نضع اصابعنا على الحقيقة اليكم اهم ما جاء في بنود اتفاقية الوحدة الاقتصادية .

# الفصل الاول
## الاهداف والوسائل

**المادة الاولى :**

تقوم بين دول الجامعة العربية وحدة اقتصادية كاملة تضمن بصورة خاصة لتلك الدول ولرعاياها على قدم المساواة :

١ ـ حرية انتقال الاشخاص ورؤوس الاموال .

٢ ـ حرية تبادل البضائع والمنتوجات الوطنية والاجنبية .

٣ ـ حرية الاقامة والعمل والاستخدام وممارسة النشاط الاقتصادي .

٤ ـ حرية النقل والترانزيت واستعمال وسائل النقل والمرافىء والمطارات المدنية .

٥ ـ حقوق التملك والايصاء والارث .

**المادة الثانية :**

للوصول إلى تحقيق الوحدة المبينة في المادة السابقة تعمل الاطراف المتعاقدة على الاتي :

١ ـ جعل بلادها منطقة جمركية واحدة تخضع لادارة موحدة وتوحيد التعريفة والتشريع والانظمة الجمركية المطبقة في كل منها .

٢ ـ توحيد سياسة الاستيراد والتصدير والانظمة المتعلقة بها .

٣ ـ توحيد سياسة الاستيراد والترانزيت .

٤ ـ عقد الاتفاقيات التجارية واتفاقيات المدفوعات مع البلدان الاخرى بصورة مشتركة .

٥ ـ تنسيق السياسة المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة الداخلية وتوحيد التشريع الاقتصادي بشكل يكفل لمن يعمل من رعايا البلاد المتعاقدة في الزراعة والصناعة والمهن شروطا متكافئة .

٦ ـ تنسيق تشريع العمل والضمان الاجتماعي .

٧ ـ (أ) تنسيق الضرائب والرسوم الحكومية والبلدية وسائر الضرائب والرسوم الاخرى المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة والعقارات وتوظيف رؤوس الاموال بما

يكفل مبدأ تكافؤ الفرص .

(ب) تلافي ازدواج الضرائب والرسوم على المكلفين من رعايا الدول المتعاقدة .

٨ ـ تنسيق السياسات النقدية والمالية والانظمة المتعلقة بها في بلدان الاطراف المتعاقدة تمهيداً لتوحيد النقد بها .

٩ ـ توحيد اساليب التصنيف والتبويب الاحصائية .

١٠ ـ اتخاذ اية اجراءات اخرى تلزم لتحقيق الاهداف المبينة في المادتين الاولى والثانية .

.. هذه يا اهلنا الطيبين بعض بنود الاتفاقية التي اسموها زورا وتضليلا بالوحدة الاقتصادية .

## حقوق المواطن

.. اولا وقبل ان نناقش بنود هذه الاتفاقية في هدوء نود ان نشير في صراحة ووضوح بان الاتفاقية الجديدة منحت المواطنين العرب كل الحقوق التي يتمتع بها المواطن السوداني ولكنها لم تشر ولم تنص على احتمال اخواننا العرب للواجبات حتى المفروضة على المواطن السوداني ولم تشترط كذلك الاقامة المستديمة للمواطن العربي في حالة تملكه للارض او الزرع مما يمكن اي ثري عربي خارج السودان من شراء اكبر قدر من الاراضي السودانية ويحول عائده وارباحه ورأسماله دون ان يسأل .

صحيح ان بلادنا في حاجة الى رأس المال الاجنبي للانشاء والتعمير لكن بالشروط التي يستثمر بها ولا يملك عن طريقها .

## الاضرار والفوائد

.. والان نعود للمناقشة الهادئة الهادفة بغية الوصول إلى اضرار وفوائد هذه الاتفاقية فأقول :

.. المعروف ان ميزانية جمهورية السودان تعتمد اساسا على عائدات الجمارك التي تصل في بعض الاحايين إلى حوالي ٢٥٠ في المائة بينما تنخفض الرسوم الجمركية في بعض الاقطار العربية إلى ١٥ في المائة ، فكيف يمكن ان تكون بلادنا وهذا حالها منطقة جمركية واحدة تخضع لادارة موحدة ؟

أما فيما يختص بالتشريعات فمما لا شك فيه ان الاقطار العربية متفاوتة اقتصاديا ومتفاوتة في الاعتماد الاساسي الاقتصادي وفي القدرات والانتاج فكيف يمكن ان توحد التشريعات ؟

.. كيف يمكن للدول العربية ان توحد سياسة الاستيراد والتصدير والانظمة المتعلقة بها وتصدير البضائع المستوردة وحاجة وظروف كل بلد تختلف اختلافا جذريا ؟

فاذا ما طبق نظام تصدير البضائع المستوردة فان السودان بموجب هذا يستورد بضائعه بالعملات الصعبة ثم يصدرها للدول المحتاجة ومعنى ذلك ونحن مواجهون بالظروف الراهنة التي يحسها كل انسان ان رصيدنا الاجنبي سينعدم في وقت وجيز .

.. هناك بعض الاقطار تعاني صعوبات كبيرة في رصيدها الاجنبي مما جعلها غير قادرة على استيراد كثير من السلع كالعربات والاسبيرات والثلاجات وادوات الكهرباء فكيف يمكن اذا ما طلب منا حسب منطق الاتفاقية ان نسدد لها حاجتها بعملتنا الصعبة ؟

.. ان ميزانية التنمية في بلادنا تعتمد على فائض الميزانيات فاذا كنا سنحمِّل ارصدتنا الاجنبية هذا العبء الكبير ثم نخفض دخولنا الجمركية حسب الاتفاقية إلى المستوى الذي يلائم الدول الاخرى فمعنى ذلك اننا سنوقف نهائيا جميع مشاريع التنمية اللهم الا اذا اعتمدنا اساسا على القروض والمعونات الاجنبية الشيء الذي لا يمكن الاعتماد عليه .

.. ان الزراعة هي اساس التنمية في السودان وفتح ابواب الهجرة الينا مع حق التملك مع التفاوت الشديد بين فقر السودان وبين اغنياء بعض الاقطار العربية يجعل ارضنا معرضة لخطر داهم وجلل .. ان الحكم الثنائي رغم استغلاله البشع للانسان والارض لم يقو على وضع تشريعات كهذه . بل وضع تشريعاً عكسيا بعدم تملك الارض لغير السوداني ولولا ذلك لكنا اليوم كحال جيران لنا استغل الاجانب والاستعماريون اراضيهم وتملكوها بنص القانون حتى يومنا هذا .

.. ان اخشى ما اخشاه ان نحن سلمنا بحق التملك كما نصت الاتفاقية مع التفاوت البين الواضح بين المواطنين السودانيين الفقراء الطيبين وبين بعض اثرياء العرب ان نكون بعد اعوام قليلة اشبه بعرب فلسطين عندما غزاهم اليهود والصهاينة في بادىء الامر فاغروهم بالمال ونهبوا ارضهم وشردوهم من ديارهم وذلك لانهم كانوا اقدر منهم ماليا واقتصاديا فرسخوا بذلك اقدامهم ومهدوا لقيام اسرائيل .

.. ان الاتفاقية تعطي حق التملك لكل مواطن عربي ولكي اضرب مثلا للمواطنين ليعيشوا في داخل المأساة اقول :

**كيف يمكن للمزارعين الفقراء اصحاب الفدادين القليلة والمشاريع التي ترويها السواقي البدائية ..**

**كيف لاصحاب الامكانيات البائسة الذين يضربون الارض بارجلهم ويروونها بعرق جباههم ان يواجهوا في الغد اغراءات اثرياء البترول ومليونيرات البنوك العرب المشتتين بين الريفيرا وكان ولوزان ؟**

**هل ادركتم ابعاد هذا الخطر الذي يهدد الارض والانسان السوداني ؟**

**هل يمكنكم يا جماهير المزارعين ان تواجهوا هذا الخطر ؟**

**وانتم يا جماهير العمال في كل مكان من يشك في ان السودان الحبيب مازال في**

ميادين الصناعة يعتبر في اولى العتبات وان مهارة العامل والمزارع السوداني مهما كانت درجتها فانها اذا ما قيست بمهارة العامل والمزارع العربي تعتبر ايضا في بداية الدرج ؟

.. كيف يكون المصير اذا ما فتحت الابواب والمنافذ لمن سيكون له الإرث وكل الحقوق الممنوحة للمواطن السوداني ؟

ياجماهير العمال . . . ياشعبنا الطيب .

.. اننا الان نشكو من البطالة وقلة موارد الانتاج والرزق كما نشكو لطوب الارض من هجرة السودانيين والاقليميين إلى الخرطوم ناهيك عن هجرة جيراننا من الافارقة والعرب ممن قللوا دخل المواطن السوداني فيكف بالله عليكم يكون حالكم وحالنا اذا ما فتحنا قلوبنا الطيبة وصدورنا الحنونة للعامل اليدوي الاقوى والاقدر ، والعامل الزراعي الاقوى والاقدر والعامل الصناعي في مختلف المهن والحرف . اليس معنى ذلك ان نسد الطريق امام العامل السوداني ونقلل فرصه فيخرج من الميدان صفر اليدين لمن هو اقوى واقدر منه خاصة وهو في أوضاعه وظروفه الحالية البائسة التعسة ؟

.. او تذكرون قبل سنوات قليلة الازمة العنيفة عندما غزا عدد من (السماكة) المصريين نيلينا في الخرطوم وتمكنوا بقدرتهم وقوتهم وتمرسهم في العمل ان يطردوا السمّاك السوداني لضعفه في المواجهة وعدم قدراته على التنافس .

.. ايها العمال .. يا جماهيرنا الطيبة ..

.. ان المنطق المعروف في ميادين العمل وفي ميادين الانتاج هو البقاء للاقدر والاصلح فكيف يكون حالكم اذا فتحت الابواب والصدور كما تنص اتفاقية الوحدة الاقتصادية في بلاد لا تزال بكرا فيدخلها الوافدون العرب من نجارين ومزارعين وحدادين وترزية وحلاقين وطباعين وسائقين وحفارين ثم يغزوها من جهة اخرى رأس المال وهو الاكثر والاوفر ثم يحيط بها الاطباء والمقاولون والمهندسون والمزارعون والمعماريون والمخططون والفنانون والراقصون والضاربون على الطبول والمرتزقة والمجرمون واللصوص وهم الاقوى والاقدر .

.. افبعد هذا كله يمكن ان يكون امام السودانيين حتى اللصوص والنشالين منهم امل في المنافسة الحرة للقمة العيش الجاف ناهيك عن فرص الرفاهية والسعادة والامل المخضر في مستقبل مشرق زاهر ؟

# صحافتنا في الميزان

لم تكن الاحزاب وحدها المسئولة عن ضياع الديمقراطية وانما شاركتها بعض الصحف غير المسئولة وبعض الصحفيين الذين نصبوا من انفسهم أنصاف آلة مما دفعني يوم ٦٩/٥/١٠ وقبل انقلاب مايو بعشرين يوما فقط ان اكتب في الصحافة منذرا ومحذرا :

.. ايها الناس ياقراءنا الاعزاء الاوفياء في كل مكان .. ماذا تريدون منا .. ماذا تريدون من صحافتكم اليوم وغدا وبعد غد ؟! ونحن معشر الصحفيين ورجال القلم ماذا يجب ان نقدم للناس .. ماهي رسالتنا نحو المجتمع .. ثم ماذا نريد ؟! اسئلة كثيرة ومتشابكة خطرت لي في لحظة من لحظات التفكير العميق وانا اتابع ماتكتبه صحافتنا كلها في الماضي البعيد والقريب وكان لابد لهذه الاسئلة من ان تستوقفني طويلا طويلا حتى اتمكن من مواجهتها رغم ما تتطلبه من شجاعة واعتراف قد يصلان درجة المرارة وبعد :

.. اصبحت الصحافة السودانية تتمتع بمكانة سامية في نفوس الناس مما جعلها محل ثقتهم واحترامهم فوضعوها على العين والرأس والقلب وصاروا ينتظرون صدورها مع مطلع كل صباح جديد بالصبر ويقبلون عليها في شهية كما يقبل الظمآن على الماء وهم يتابعون اسطرها ويلتهمون موادها في ثقة تفوق الحدود ..

.. من هنا كان تأثير الصحافة على الرأي العام كبيرا وخطيرا مما يضاعف مسئولياتها ويضع فوق اكتافها عبا ثقيلا وكبيراً لابد وأن يجعلنا نقف كثيراً ونفكر كثيراً في كيفية ارساء القواعد السليمة التي تقابل حاجة الصحافة اليوم وتنبني عليها صحافة الغد .

.. قبل ان ابدأ عملية المواجهة والنقد الذاتي لابد من كلمة صغيرة انصف بها الصحافة السودانية .. والعاملين فيها نسبة للدور البارز الذي لعبته في حياة الشعب السوداني وما قدمته من تضحيات جسام قبل وبعد الاستقلال عندما كان ميدانها صعبا وعرا ومجذباً خالياً من الخضرة والماء والوان المسرات وصنوف المغريات مما جعل الكثيرين من المثقفين يحجمون عن دخوله والعمل فيه وعلى قلة امكانياتها آنذاك وانعدام اسباب الاستقرار النفسي والاقتصادي فقد استطاع العاملون فيها ان يحققوا بعرقهم

ودموعهم واخلاصهم وايمانهم الكثير، حتى استطاعوا ان يفتحوا النوافذ الموصدة والابواب المغلقة امام التطور والتقدم الصحفي، فقد اصبح ميدانه اكثر رحابة واوفر دخلا فارتقع توزيع الصحف من الفي نسخة قبل خمسة عشر عاما إلى خمسة وثلاثين الف نسخة وبدأت الصحف تسترعي انتباه المواطنين وعلى رأسهم المثقفين كما بدأت هي نفسها تغري الجامعيين والمثقفين واهل الرأي للالتحاق بها .

.. ان التطور الذي حدث في محيط الصحافة لابد ان يقابله من الجانب الآخر تطور في المفاهيم وفي صفوف العاملين والكتاب حتى تتمكن من مواكبة المسيرة وحتى تحافظ على مكانتها القيادية مما يتطلب فتح الآبواب والافاق امام الدماء الجديدة النظيفة ذات الوعي والمستوى والثقافة ؟

.. انا شخصيا اؤمن بهذه السياسة قدر ايماني بتضحيات الكثيرين ممن ارتضوا بهذا الميدان يوم ان كان في الماضي مجرد عرق يتصبب من الجباه . ومرد ايماني هذا يرجع إلى ضرورة التسليم بسنة التطور وفتح الابواب خوفا من ان تصيبنا نكسة او علة نعجز معها آنذاك عن ايجاد الدواء .

.. ان التطور الهائل الذي حدث في ميدان الصحافة حتى اصبحت ذات اثر بعيد وكبير وعميق وخطير على المجتمع السوداني بأسره لم نعدَّ له نحن معشر الصحفيين الوسائل والنظم التي تسايره فنصب كل منا نفسه الها صغيرا يتصرف بارادته وحده كما يحلو له . وكان لابد من ان ينزلق بعضنا وينحرف بعضنا الاخر فتقع من الاخطاء والمخالفات ما يصعب تقديرها بثمن !

.. لقد ظللنا العمر كله نهاجم ونهاجم، وننقد وننقد، نهاجم الاحزاب ونهاجم القادة، وننقد الحكومات والنقابات والهيئات بل وارتضى بعضنا لنفسه اسلوب التهاتر والاثارة، والكذب والاختلاق والتضليل والتهويش، بل وانحدر آخرون فنهشوا الاعراض واساءوا للمعتقدات وعبثوا بالفضيلة وحطموا كل معاني المثل والقيم والاخلاق وهددوا نظم الحكم والأمن وهزوا الثقة في النفوس كل النفوس ..

.. كل ذلك يحدث امام بصر وسمع صاحبة الجلالة الصحافة فلا تتحرك ولا تتململ ولا تتكلم ولا تحاسب ولا تعاقب حتى اذا ما تدخلت الحكومة وعطلت صحيفة من هذه الصحف تحركنا وتململنا وتكلمنا وملأنا الدنيا صراخا وضجيجا لا دفاعا ولا شفقة منا على الصحيفة وانما حماية للمبادىء وحفاظا على الحريات ومقاومة لقوانين التعطيل كما نقول وندعي . ولو كنا حقا جادين في حرصنا على الحريات والمبادىء والمثل .. ولو كنا فعلا جادين على حماية الاخلاق والفضيلة والقيم لما وقفنا منها موقف المتفرجين وهي تذبح امام اعيننا كل صباح على قارعة الطرق ! !

.. من هنا ـ وكما قلت ـ تبرز الحاجة الملحة لحماية المجتمع من الصحافة المنحرفة بعدما اصبحت الصحافة ككل ذات آثار بعيدة وكبيرة وعميقة وخطيرة ... وحماية

المجتمع كان جديرا وحريا بها ان تنبعث من واقع الصحافة ذاتها وتأتي من صفوف العاملين فيها قبل ان تأتي في شكل قوانين مقيدة لا تجد الحكومة مفرا من استعمالها وقت الضرورة القصوى مما يحدث عادة الخلاف والصدام بينها وبين اتحاد الصحافة والذي كثيرا ما نشعر فيه بموقف الضعف ونحن نواجه انحرافا ظاهرا وواضحا في صحيفة ما لا نستطيع ان ننكره او ندافع عنه، ولكننا مع ذلك نتمسك بالمبادىء العامة حفاظا على حرية الصحافة في شكل مقاومة لقوانين التعطيل ونصر على مطالبنا بتقديم الصحيفة إلى المحاكمة .

.. من هنا يتضح ان موقفنا ازاء الصحف المنحرفة لا يمكن ان يوصف بغير السلبية التي تصل حد التواطؤ والدفاع غير المباشر بل والتسليم المطلق بمبدأ الانحراف ! !

.. هذا الحديث الخطير يقودنا إلى اسئلة كبيرة وكثيرة نحصرها فيما يلي :

اولاً : ما هو واجب الصحافة في حماية المجتمع من الصحف المنحرفة ؟

ثانياً : ما هو واجب الدولة في حماية المجتمع من الصحف المنحرفة .

ثالثاً : هل هناك تنظيمات صحفية لحماية المجتمع واين هي وما هي واجباتها واهدافها ؟

رابعاً : كيف تحارب هذه التنظيمات الصحف التي تخرج عن حدود اللياقة والادب ؟

.. قبل ان اجيب عن هذه الاسئلة أود اولا ان اعرف معنى الانحراف حتى نكون على بينة من امرنا ونحن نبحث في طريقنا عن شمعة تبدد الظلام من امامنا ..

.. الانحراف الصحفي كلمة مطاطة ذات معان كثيرة ومتباعدة لكنني استطيع ان الخصها في الاتي :

.. الارتشاء والكذب وعدم الدقة والاثارة والمهاترات والتضليل والمبالغة واستغلال العواطف والهاب المشاعر إلى آخر هذه القائمة من الصفات المؤسفة، والآن اعود إلى اجابة الاسئلة المطروحة :

اولاً : اقول نعم على الصحافة واجب كبير في حماية المجتمع من الصحف المنحرفة .. واقول نعم وعلى الدولة واجب كبير كذلك لكنني اؤكد جازما ان المسئولية الاولى في توجيه الصحف وحماية المجتمع من آثامها وشرورها تقع اولا على عاتق الصحف وتنظيماتها ولو استطاعت الصحف ان تضع التنظيمات واللوائح التي تحقق هذه الحماية لتضاءلت مسئولية الدولة ولما أحوجناها الى التدخل ولما وقع بيننا خلاف ولاستطعنا بتعاون مشترك ان نضع الأسس السليمة لصحافة سليمة لمجتمع سليم ولكن الحقائق المريرة كلها تصرخ في اوجهنا وهي تديننا على ضعفنا وتفككنا واستهتارنا بالمسئولية وعجزنا عن وضع هذه التنظيمات واللوائح التي ينبغي ان تقوم عليها ابجديات العمل الصحفي .

.. قد يسألني سائل فيقول واين اذن اتحاد الصحافة وماذا يعمل ؟ !

.. فاجيبه وانا اشعر بالخجل والنقص معا وبصوت خافت هامس لا يكاد يسمع بان اتحاد الصحافة مجرد اسم لامع ولافتة كبيرة على جدران خرابة تسكنها الديدان والحشرات وتملؤها الاقذار!!

.. انا عضو في اللجنة التنفيذية للاتحاد ومع ذلك فانني اقر واعترف بانني ارتضيت ان اعيش في هذه الخرابة اتوسد الديدان والحشرات!!

. اتحاد الصحافة القائم الان - والجاثم على الصدور رغم الانوف - هو اتحاد مؤقت كانت مهمته ان يضع الدستور الذي ينظم مهنة الصحافة ثم يحل لتجرى انتخابات جديدة.. واتحاد الصحافة في كل زمان ومكان من واجبه ان يضع اللوائح التي تنظم مهنة الصحافة ورسالة الصحافة.. وسلوك الصحفي... واتحاد الصحافة من واجبة ان يحمي المجتمع من الانحراف ويقدمه للمحاكمة بل ومن واجبه ان يفصل الصحفي المنحرف ويتابع ما ينشر في الصحف ويحقق في شكاوى الناس ضد الصحف ويراقب مسلك الصحف والصحفيين و.. فهل فعل اتحادنا شيئا من ذلك؟

.. الخجل يطوقني والعبرة تملأ حلقي وانا اجيب في صوت هامس لا.. ولا!!

.. ان اتحاد الصحافة الان «ضيعة» بلا خضرة ولا نبات ولا ماء ولا حياة ولا روح ومع ذلك فما زلنا نتشبث بمقاعده المتهالكة التي اكلتها ديدان الارض.

.. اتحاد الصحافة رفض الانصياع لرأي الاغلبية بضرورة اجراء الانتخابات.. اتحاد الصحافة لم يحقق للعاملين من الصحفيين اي مكسب او مطلب حتى انشقوا عنه وخرجوا عليه فكونوا نقابة بهم.. اتحاد الصحافة اصبح ملكا لفرد واحد ومعه لجنة وهمية وانا من بينها استمرأنا جميعا الجلوس على عروش من الخرائب.. اتحاد الصحافة لا يجتمع الا اذا الم به محنة او تعرضت مصالحه للهزات.. اتحاد الصحافة فقد ثقة اعضائه وانشقوا عليه بعد ان حدثوه كثيرا وعاتبوه ولاموه وطالبوه باجراء الانتخابات ومع ذلك فهو يلوي عنقه في كبرياء وتحد دون ان يلبي رغبات وتطلعات الاغلبية وفضل الجلوس على مقاعد الغرور.

.. هذه صورة من صور محزنة كثيرة لواقعنا الأليم الذي رسمناه لصحافتنا المترنحة وارتضيناه لأنفسنا الضعيفة ومع ذلك فنحن نهاجم ونهاجم وننقد وننقد.. نهاجم الاحزاب والقادة وننقد الحكومات والهيئات والافراد وليتنا كنا أمناء فيما نقول!!

.. كيف يمكن لاتحاد هذا واقعه المحزن ان يحمي نفسه ناهيك عن حمايته للمجتمع.. اتحاد لا ترتفع نظرته إلى اكثر من اصابع قدميه.. اتحاد يرتضي لنفسه ان يجثم على صدور الصحفيين رغم أنوفهم ودون ان يرسم لهم ولمهنتهم الخطيرة الكبيرة معالم الطريق؟!

.. اتحاد الصحافة هذا الهمبول الوهمي الكبير تجري من حوله الاحداث الجسام صحف تهاتر وتشتم وتكذب، وصحف تبالغ وتهول وتضلل، وصحف تنهش العروض

وتحطم التقاليد والمثل والاخلاق، وصحف مجهولة الهوية والمصدر والتمويل، وصحف تجمع في جوفها صحفيين بلا اخلاق وبلا مثل. كل ذلك يحدث دون ان يتحرك هذا الهمبول الوهمي الكبير او اللافتة المزركشة التي تدعى اتحاد الصحافة .!!

.. كل هذا الذي ذهبت اليه .. وكل هذا الذي سطرته خطر لي في لحظة من لحظات التفكير والتأمل وانا اتابع ما كتبته الصحف وما اثارته من قضايا وأنباء وتعليقات خلال الاسابيع القليلة الماضية فكان لابد لها من ان تستوقفني طويلا لانها تثير الرأي العام بلا مبرر وتجعله يتخبط في حيرة بحثاً عن الحقيقة، مجرد الحقيقة الضائعة بين الصفحات والسطور وبين المطامع والاغراض.

.. لقد درجت بعض الصحف ان تخلق من الحبة قبة كما قلت في الاسبوع الماضي واعتمدت كليا على الاثارة في نشر انبائها وفي تعليقاتها وليتها اكتفت بهذا القدر، وانما تعدته إلى التعجل والتسرع في احكامها وتعليقاتها قبل ان تتبين معالم الحقيقة جريا وراء البطولات وارضاء لبعض الفئات على حساب التقاليد والمثل والامانة الصحفية وعلى حساب مصالح البلاد والمواطنين ..

.. ولئن استمرأت مجتمعاتنا هذا النوع من الاثارة حتى اصبحت الحياة لا تروق ولا تسير الا بها ... ولئن الفت مجتمعاتنا اسلوب التهويل والمبالغة والنقد الصارخ الجارح، فان مسئولية ذلك كله تقع علينا نحن معشر الصحفيين الذين ارتضينا لانفسنا هذا الاسلوب دون ان نتقي الله في مهنتنا وفي مواطنينا ودون ان نحسب حساب الزمن او نعبأ بالنتائج او نهتم بالخسائر فأفسدنا عن جهل او قصد افكار الناس وجعلناهم ينجذبون إلى حياة الإثارة كالسكارى وماهم بسكارى.

.. الصحيفة التي تعالج المشاكل العامة من زاويتها الشخصية ووفق مصالح معينة وتحت الحاح العاطفة ودون اعتبار للنتائج .. والصحيفة التي تكتب لترضي بعض الطبقات او الفئات او الافراد دون ان تدخل في حسابها المصلحة العامة والصحيفة التي تجبن عن مواجهة الحقيقة مهما كانت مريرة لحاجة في نفسها .. والصحيفة التي تتعمد الباس الباطل ثوب الحق او الباس الحق ثوب الباطل عن جهل او عمد، والصحيفة التي تستجيب للضغط او الاغراء او الارتشاء او المساومة على حساب المثل... الصحيفة التي ترتضي لنفسها هذا الوضع وتسلك هذا الطريق هي صحيفة قبيحة عارية جردت نفسها وجسدها وروحها من كل مواضع المسئولية والامانة والشرف والطهارة ..

.. كم من صحيفة سلكت مثل هذه المسالك الوعرة على حساب الحريات وباسم الديمقراطية المفترى عليها دون ان تبحث في اعماقها لتعرف بان للحريات حدودا اذا ما تجاوزتها وخرجت عنها انقلبت إلى فوضى وخراب ودمار ولابد ان يواجه بعنف وشدة وقوة مخافة العواقب الخطيرة التي تترتب عليه.

.. أو تذكرون كيف اعتادت بعض الصحف ان تعالج مشاكل الناس ومشاكل

البلاد ... او تذكرون كيف تكتب عن محنة الجنوب وانباء قوات الجيش والأمن ومسائل الاقتصاد .. او تذكرون كيف تعالج مشاكل الحدود .. ثم او تذكرون بالامس القريب كيف واجهنا الخلاف بين القاضي ومحكمة الاستئناف العليا ، وكيف عرضنا ازمة المطافىء واضراب نقابة البنك الاثيوبي ؟!

.. لقد ظن بعضنا ونحن نعالج هذه المشاكل الخطيرة الكبيرة ان اسلوب الاثارة والتحدي والتهديد والوعيد والعبارات العنيفة والنقد الجارح الهادم هو اسلوب البطولات او «الموضة الحديثة» للكاتب الوطني الثائر الحريص على مصالح البلاد والعباد فاستمرأ بعضنا هذا الطريق على حساب الديمقراطية وباسم الحريات وتحت نشوة التصفيق وبعبارات الحمد والثناء التي يكيلها الساذجون المخدوعون بعدما خطف البرق ابصارهم واستسلموا لعمليات التخدير فاصبحوا ينجذبون لحملات الاثارة كالسكارى وما هم بسكارى! ولنا في مشكلة القضاء وازمة المطافىء واضراب البنك الاثيوبي خير دليل على ما نقول!

.. لقد ثارت جميع الصحف عندما تقدم السيد وزير العدل يشكو قاضيا .. ثم ثارت عندما قررت محكمة الاستئناف العليا نقل هذا القاضي .. ثم ثارت بل وصفقت عندما رفض القاضي قرار النقل وعندما رفض كذلك المثول امام مجلس التأديب .. ثارت واثارت معها الرأي العام كله بدعوى الحرص على استقلال القضاء وظلت تدبج المقالات وتبرز صور القاضي الذي تمرد على رؤسائه ورفض الاوامر وادار عنقه متحديا ساخرا لقرارات محكمة الاستئناف العليا ، وهي اكبر سلطة قضائية في البلاد فماذا كانت النتيجة ؟

.. لقد البست هذه الصحف الباطل ثوب الحق وخدعت المواطنين وضللتهم واسكرتهم بالعبارات والصور والمقابلات حتى اصبح القاضي الذي رفض اوامر رؤسائه في نظر المجتمع المخدوع بطلا وقائدا وزعيما يشار اليه بالبنان .

.. لقد بدأت ازمة القاضي بالحيثيات التي يضعها في احكامه وقد كنا اول من اشاد بها ولكنه مشى بعيدا بعيدا فصدرت اليه الاوامر من سلطاته العليا ولكنه رفضها فهل تريدون منا ان نقره ونؤيده على الرفض وهو في جهاز حساس ؟!

.. لقد وجهت الصحف كل حملاتها باعتبار ان تدخلا قد مس استقلال القضاء ولو كان هذا الزعم صادقا وامينا لكانت محكمة الاستئناف العليا ولكان قضاتنا في كل مكان اول من هب وثار لحماية القانون وصيانة القضاء ومع ذلك فما زالت بعض الصحف تمنح نفسها حق الولاية والوصاية حتى على القضاء والقضاة وهي بذلك تتدخل عن جهل او عن قصد في استقلال القضاء ..

.. ثم جاءت ازمة قوات المطافىء وبدلا من ان تعالجها الصحافة المحلية كظاهرة خطيرة تهدد انظمة الضبط والربط .. وبدلا من ان تنتقد الحكومة في تباطئها في اصدار

قانون لهذه القوات.. وبدلا من ان توجه المعتصمين من ابنائنا في قوات المطافىء وتبصرهم بخطورة عملهم.. بدلا من كل هذا لجأت لانباء الاثارة والهمز واللمز الذي لا يخدم قضية ولا ينفع الناس..

.. ثم جاءت الكارثة الاخيرة وهي اضراب نقابة موظفي البنك الاثيوبي التي تبنتها بعض الصحف ووقفت معها وايدتها بلا تحفظ دون ان تعرف او تحاول ان تعرف موضع النزاع حتى تكون على بينة من الحقيقة.فعلت ذلك ـ لست ادري ـ أحبا في التأييد الاعمى ام سعيا وراء ارضاء النقابات ام جريا وراء الاثارة وتصفيق الساذجين. لم تكتف هذه الصحف بمجرد التأييد ولكنها قامت بحملة ظالمة جائرة على ادارة البنك الاثيوبي اثارت بها خواطر الناس بل وخلطت عن عمد او جهل بين السياسة والعمل وبين الحق والباطل وبين الواجب والعاطفة.. حتى ضاعت الحقيقة لبعض الوقت لا لكل الوقت..

.. كل هذه الاثارة وحملات النقد والهجوم صبت عليها الحقيقة ماء باردا وعرتها تماما عندما كتب رئيس وسكرتير نقابة البنك الاثيوبي اعترافا خطيا يبديان فيه الاسف عما حدث كما تعهدت النقابة تعهدات كثيرة وكانت هي الخاسرة لانها ضللت فيما يبدو الصحف فوقعت فريسة سهلة لها.. ولو بحثت الصحف عن الحقائق واستمعت الى الجانبين المتخاصمين، لما وقعت فريسة لبعض النقابات التي لا تعرف واجباتها الاساسية ولا تبحث الا عن التأييد حتى ولو كان باطلا لا يستند على حقيقة واحدة.

.. والله ما دفعني إلى كل هذا غير حرصي على حاضر ومستقبل الصحافة في هذا البلد ومصلحة البلاد والمواطنين وما اردت بهذا الذي قلته ان اهاجم احداً بعينه او صحيفة بعينها.. وما قصدت ان ابرىء نفسي وانصب منها ملاكا طاهرا فأنا اعترف هنا امام الله والزملاء والقراء بمسئوليتي التضامنية المشتركة عن كل ما يكتب ويثار في اعمدة الصحف، كما اعلن مسئوليتي التضامنية المشتركة عن كل انحراف او خطأ ترتكبه زميلة عاملة في الميدان.. فنحن اسرة واحدة ذات مسئوليات متشابكة لا يمكن ان تنفصل..

.. والله ما اردت بهذا الذي قلته ان انصب نفسي وصيا او خطيبا او ناصحا او مرشدا، وانما هي انفعالات امينة عشتها بروحي ونفسي وعقلي وقلبي وحاولت جاداً ان اضغط عليها لكن القلم سبقني وسطرها بدافع الاخلاص والاشفاق معا.

.. يا زملاء القلم والورق والمداد ان مهنتنا لقاسية ومريرة. ورسالتنا لخطيرة وكبيرة فانبذوا خلافاتكم وتعالوا معا في صعيد المحبة والزمالة والواجب ننظم الصفوف ونرسم الطريق ونضع الاسس السليمة النظيفة لصحافة سليمة نظيفة لامة سليمة نظيفة.

انها دعوة ما قصدت بها والله سوى الخير لنا ولمهنتنا ولبلادنا ولامتنا..

.. وفقنا الله وطهر قلوبنا وارواحنا واقلامنا، وامدنا بنور الهداية والحكمة والصدق والمعرفة ومنحنا القوة والامانة والعافية حتى نهبها بدورنا لمهنتنا المقدسة وشعبنا الوفي الامين.

# الفصل الثامن والعشرون

# أحزابنا في الميزان

- ديموقراطية الغرب ، الطاقية التي لبسناها فغطت آذاننا وعيوننا .
- الطائفية تستعيد مواقعها وحصونها بعد أن عاد إليها الأزهري والصادق .
- على الواعين والمدركين أن يملأوا المقعد الشاغر ! !

؟

## المقعد الشاغر

**الصحافة ١٧ مايو ١٩٦٩ قبل أسبوع من الانقلاب.**

... ضاق الناس بالاستعمار وضاقوا بالحكم الوطني الأول وضاقوا بلقاء السيدين كما ضاقوا بالحكم الائتلافي والحكم القومي ثم ضاقوا بالحكم العسكري وضاقوا بالحكم الاكتوبري ذي السمات الشيوعية وضاقوا مرة ثانية وثالثة بالحكم الائتلافي والحكم القومي وهم يواجهون اليوم ضيقاً بلا حدود. وضيقاً في كل ميدان. فلماذا كل هذا الضيق، ولماذا كل هذه الململة.. ولماذا كل هذه الصيحات والصرخات التي تنبعث من الصدور وتتبادلها الألسن والموائد وتتناقلها المدائن والقرى.. ثم أليس لكل هذا الضيق من آخر.. أليس له من نهاية!؟

● ● ●

.. كل هذه الأسئلة الكبيرة لابد وقد عايشها الكثيرون، ولكن قليل من الناس ممن لهم إلمام وإدراك بطبيعة المسائل من استوقفتهم مرة أو مرات وألحت عليهم باحثة عن الإجابة، وأنا ككل مواطن يعمل في ميدان السياسة والصحافة لابد وأن تستوقفني مثل هذه الأسئلة وهي تلح في إصرار بحثاً عن الإجابة التي تحتاج إلى مقومات كثيرة قد لا تتوفر لي لكنني حتماً سأحاول بدافع الإيمان المجرد والإخلاص المطلق أن أجيب عليها مع علمي مقدماً بأن الإجابة الصريحة تحتاج لبعض المواجهة ولكثير من الشجاعة التي قد تصل درجة المرارة ولكن لا بأس من ذلك كله إن وضعنا أصابعنا على الحقيقة أو جانباً يسيراً منها!.

.. قبل أن أبدأ الإجابة أريد أن أعرج قليلاً إلى موضوع الأسبوع الماضي الذي تحدثت فيه عن الصحافة السودانية وذلك بالنسبة للترابط والتشابه بين الموضوعين لأن الصحافة السودانية جزء لا يتجزأ من المجتمع السياسي الذي سأتحدث عنه اليوم وهي ليست إلا مرآة صادقة تعكس كل انفعال سياسي. ومن هنا فإن الانحراف الذي نلمس ظواهره على بعض الصحف هو في الواقع صورة مصغرة أو مجسدة للانحراف السياسي الذي نعيشه. فإذا ما ساورني مجرد الأمل وأنا أنقد الصحافة السودانية بأنها بقليل من الجهد والبذل تستطيع أن تنسلخ من المجتمع السياسي المنحرف وتلعب دوراً بارزاً في

التوجيه والتوعية فإن الأمل هذا لم يساورني ولن يساورني مطلقاً في تطهير انحرافات المجتمع السياسي لأنه قام أساساً على الاعوجاج والانحراف والخطأ. وليس هناك من سبيل لإصلاحه بعمليات الترقيع والترميم والطلاء التي لن تغير شيئاً من الجوهر مهما كانت قوية وبراقة وبعد :

.. أعود من جديد إلى الأسئلة المطروحة والتي تقول في اختصار شديد لماذا ضاق الناس بكل الأوضاع والحكومات السياسية منذ أيام الاستعمار حتى اللحظات التي يتفاوض فيها الحزبان الكبيران في صالات القصر الجمهوري لتدعيم الائتلاف القائم؟.

● ● ●

.. الحقيقة المريرة هي أن الناس.. كل الناس لا يواجهون ضيقاً بالمعنى المعروف وإنما يواجهون ضياعاً سياسياً جعلهم يعيشون في عزلة نفسية مقيتة، وفراغ سياسي قاتل لا يرون من خلاله غير الفاقة والأوهام والأشباح والضباب ومع ذلك فالناس سائرون هائمون على وجوههم داخل سجن كبير مستدير دروبه متعرجة مليئة بالأوحال والأقذار وهم يحاولون بين الفينة والأخرى أن يجدوا طريقهم إلى النور والهواء فلا يرون إلا مزيداً من الأشباح والضباب ولا يتنفسون إلا الهواء الفاسد، ولكن التشبث بالحياة يجعلهم دائماً يواصلون المحاولات ويجدون في البحث فينخرون الحيطان بأظافرهم أملاً في إحداث كوة صغيرة يطلون من خلالها على النور والهواء!.

● ● ●

.. هذا الضيق الذي يواجهه الناس حتى أصبح يلازم بعضهم ملازمة الظل لا يعود إلى قصص الفساد والارتشاء والمحسوبية التي تنتقل من مائدة إلى مائدة ومن مدينة إلى قرية.. وليس مرده الضائقة الاقتصادية التي يشكو منها الحاكمون والمواطنون.. وليس من أسبابه تدهور الإنتاج والخدمات وكثرة المطالب النقابية والفئوية.. ولا انحرافات الحكومات والساسة ومفاسد الأحزاب والهيئات.

وإنما الأسباب الحقيقية لهذا الضيق ترجع إلى جذور نظام الحكم والأسس التي ارتكز وقام عليها. فالديموقراطية التي استوردناها من وستمنستر وأشدنا عليها نظام الحكم هي طاقية فضفاضة لا تناسب حجم رؤوسنا ومع ذلك فقد لبسناها حتى غطت عيوننا وآذاننا فلم نعد نرى ولم نعد نسمع!.

.. وديموقراطية وستمنستر التي يقوم عليها نظام الحكم في بريطانيا مرت بمراحل عديدة.. مراحل ثورات دموية وفكرية واجتماعية وثقافية قاربت الثلاثمائة سنة، ونحن في السودان استوردها لنا المستعمرون يوم مولدنا وقبل أن نبلغ سن التبصر والرشد فدثرونا بها «كلفافة» الأطفال نلعب تحتها بأصابعنا وأرجلنا ونتبول فيها ونبصق عليها.

● ● ●

.. ديموقراطية وستمنستر هذه تقول صوت واحد لكل واحد بينما ديموقراطيتنا هنا

تعطي مليون صوت لشخص واحد!.

.. ديموقراطية وستمنستر تمنح رئيس الوزراء كل المسؤولية في اختيار وزرائه بينما ديموقراطيتنا تسلب رئيس الوزراء كل حقوقه!!.

.. ديموقراطية وستمنستر تأتي بحكومة واحدة رئيسها واحد ومسؤولياتها معروفة ومحددة بنص القوانين، وديموقراطيتنا تأتي بحكومة وهمية مسلوبة الإرادة والقوة تسيرها حكومات كثيرة مسؤولياتها غير معروفة وغير محدودة!.

.. ديموقراطية وستمنستر تمنح رئيس حزب الأغلبية الحق في تشكيل الحكومات، وديموقراطيتنا تأتي بزعيم الأقلية ليرأس حكومة فرضت عليه رغم أنفسه وإرادته!.

.. ديموقراطية وستمنستر تمنح رئيس الوزراء الحق في إبعاد أو فصل أي وزير، وديموقراطيتنا يعجز فيها رئيس الوزراء عن الحركة والتنفس ناهيك عن فصل وزير!.

.. ديموقراطية وستمنستر الكلمة الفاصلة فيها لنواب الشعب، وديموقراطيتنا كلكم تعرفون من هو صاحب أو صاحبا أو أصحاب الكلمة فيها!.

.. ديموقراطية وستمنستر تتبناها أحزاب ذات مبادىء وأهداف وأفكار وتخطيط وبرامج ولجان تخصص ودراسات ومحاسبة، وديموقراطيتنا تتبناها لافتات وهمية أطلقنا عليها اسم أحزاب!.

.. ديموقراطية وستمنستر تمارس أحزابها الديموقراطية في أجهزتها المختلفة ويؤخذ الرأي فيها بالشورى ونظام الأغلبية وهي صاحبة الكلمة والجول والقول، وديموقراطيتنا أحزابها وأجهزتها كلها من برلمانية ولجان تنفيذية ومجالس قيادات.. كلها مسلوبة الإرادة والعافية معدومة الشخصية صوتها خافت لا يسمع وقراراتها حبر على ورق. وكلمتها يأخذها الريح كما يأخذ التراب من البلاط!.

.. ديموقراطية وستمنستر يحترم فيها قادة الأحزاب رأي الناس ولا يتخذوا القرارات صغيرة كانت أم كبيرة إلا إذا عرضت على أجهزة الحزب المختلفة، وديموقراطيتنا يحتقر فيها قادة الأحزاب رأي الناس ولا يجعلون اعتباراً للأجهزة التي أصبحت كالزوج آخر من يعلم!.

.. ديموقراطية وستمنستر يختلف فيها قادة الأحزاب والهيئات ولكنهم يختلفون حول المبادىء والأفكار فيقارعون الحجة بالحجة وديموقراطيتنا يختلف فيها القادة حول المكاسب الشخصية والمصالح الفئوية وتوافه الأمور وصغائرها ويلجأون في خلافهم إلى أسلوب المهاترات والتنابذ البغيض والاتهامات السوقية ويتفرقون ويلتقون ثم يتفرقون ويلتقون على غير هدى وبلا مبررات!.

.. ديموقراطية وستمنستر يحترم فيها السياسي كرامته وشخصيته ومبادئه وأفكاره ويستقيل إذا ما تعرضت للخدش وديموقراطيتنا يعمل فيها السياسي بلا خلق ولا كرامة وإذا ما تعرضت مصالحه الخاصة أو مصالح أسرته إلى أضرار أو أحس باهتزاز المقعد

تحت صلبه قبض عليه بفمه وأسنانه وانحنى أمام الأسياد بعد أن خلع حذاءه وقبل الأيدي والأرجل طمعاً في الرضى!

.. ديموقراطية وستمنستر تأتي بحكومة متجانسة متعاونة مسؤوليتها تضامنية مشتركة وديموقراطيتنا تأتي بحكومة أشبه بالمرارة لا يحميها شيء غير المصلحة والمنفعة فينصِّب كل وزير من نفسه إلها على وزارته فيصول ويجول فيها بلا حسيب ولا رقيب يعبث فيها كما شاء له العبث.

ديموقراطية وستمنستر تأتي بحكومة سياستها الداخلية والخارجية واحدة لأنها مدروسة ومحددة، وديموقراطيتنا تأتي بحكومة باهتة مجهولة الهوية داخلها حكومات وحكومات.

.. أو تذكرون يوم أن أدان السيد رئيس الوزراء الغزو التشيكوسلوفاكي وجاء نائبه في اليوم الثاني يؤيد الغزو ويعلن للعالم بأن تصريح رئيس الوزراء لا يمثل إلا نفسه وأنه سيتعرض للمحاسبة عند عودته من الجزائر!؟.

.. هل تعلمون بأن هذا التصريح نسف قرضاً بثلاثة ملايين جنيه كانت إحدى الحكومات قد اعتمدته للسودان ولكنها عادت وأوقفته لأن السودان لم تعد هويته معروفة!؟

● ● ●

.. تلك هي القاعدة التي يقوم عليها نظام الحكم في ديموقراطية وستمنستر وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها نظام الحكم في ديموقراطية السودان وشتان ما بين الديموقراطية عندهم والديموقراطية عندنا إن جاز لنا أن نسميها ديموقراطية. ومن هنا كان لابد أن ينبعث الضياع ويتزايد مع مرور الزمن متخذاً ألف لون وشكل وصنف!!.

.. ومن هنا كان لابد للنظام كله أن يترنح ويتأرجح تحدث الثغرات التي تتفرع منها كل المساوىء والمفاسد والأخطاء التي تمتد وتزحف كالسرطان إلى جميع أجهزة الحكم فتنبعث من الناس صيحات الوجع والأنين والضيق والآلام وترتفع الأكف إلى الوجود لتزيل من العيون أشباح الحيرة والضباب وسحائب الخوف والقلق وتبدأ الأظافر داخل السجن الكبير المغلق تنخر الحيطان بحثاً عن النور والهواء!.

.. إذن ما العمل.. وما هي الحلول.. وما هو البديل للنظام الديموقراطي الراهن الذي ضاق الناس به!؟.

● ● ●

.. هذا هو السؤال الكبير الذي ظل يحلق فوق الرؤوس بحثاً عن إجابة، بل هو السؤال الكبير الذي ينبغي أن يطرح ويناقش في أوساطنا ومجتمعاتنا المختلفة بدلاً من ضياع الزمن والجهد في الحديث عن قصص المفاسد والانحرافات والارتشاء وأحاجي التزوير والتراخيص و.. و..!

.. والحقيقة الأولى التي يجب أن ينطلق منها نقاشنا هي أن الطائفية في بلادنا ما زالت قوية ومسيطرة رغم الهزات التي أصابتها إبان عنفوانها وشدتها يوم أن خرج عليها السيد الأزهري وتبعته الغالبية العظمى من المثقفين والمستنيرين في أوساط الموظفين والعمال والطلبة. والطائفية مازالت قوية ومسيطرة رغم الهزات التي أصابتها يوم أن خرج عليها السيد الصادق المهدي وتبعه العديد من أنصاره ومن أوساط المثقفين والمستنيرين معاً، ولكن خروج الأزهري والصادق كان مرهوناً فيما يبدو بزمان محدد ومصالح معينة ما إن لاحت تباشيرها في السماء وألحت الحاجة إليها حتى عادا من حيث جاءا! فأوصدا بذلك المنافذ والأبواب أمام «آمال الأمة» في نظام ينبع من تطلعات الناس ورغباتهم في حياة تقوم على العدالة والمساواة والرأي والمشورة. ليس هذا مجالا للحديث أو خلق المبررات التي عاد بها الأزهري والصادق من حيث جاءا! ولكن النتيجة هي أن الطائفية ازدادت بقوتهما قوة وسيطرة وأصبحت يدها قوية وكلمتها نافذة وبدأت تستعيد مواقعها القديمة في الثلاثينات عندما كان يتزعمها السيدان الجليلان المغفور لهما عبد الرحمن المهدي وعلي الميرغني.. ولست في حاجة إلى أن أضع مقارنة بين العهدين لانعدام أوجه المقارنة، لكنني أستطيع أن أتبين ملامح الخطر والطائفية تستعيد مواقعها وحصونها ونفوذها وأسلحتها تحت قيادتين مهما بالغنا في احترامهما فإنهما لن تصلا إلى مكانتي سلفيهما العظيمين مما يجعل ملامح الخطر بارزة وواضحة لكل ذي عقل وبصيرة.

• • •

.. من هنا يتضح لنا أن هناك مقعداً شاغراً لابد من ملئه حتى يحفظ التوازن السياسي الذي انعدم بعد اندماج الوطني الاتحادي في الشعب الديموقراطي والتئام جناحي حزب الأمة. أما كيف يملأ هذا المقعد الخالي ومتى، فهذا ما يحتاج إلى تفاكر جاد وبحث واع ودراسات مستفيضة يقوم بها المدركون من داخل وخارج الأحزاب ممن يلمسون بأصابعهم ويحسون بمشاعرهم بضرورة خلق هذا التوازن السياسي حفاظاً على مستقبل الديموقراطية في هذا البلد.

.. هنا وعندما أفكر بعقلي في دور المثقفين تصيبني خيبة الأمل بل ويطوقني الخوف وأشعر بكثير من الدوار، ذلك لأن بعض المثقفين ولا أقول جميعهم استسلموا لمرض السلبية والنرجسية واستمرأوا الحديث والنقاش حول الموائد ومع ذلك فإنني عندما أعود بالذاكرة أعواماً إلى الوراء يوم أن التف المثقفون حول مؤتمر الخريجين الذي لعب دوراً بارزاً في حياة السودان وشق طريقه الوعر وسط النفوذ الطائفي حتى أدرك بر السلامة والأمان.. عندما أذكر هذا يرتد إلى قلبي الأمل في محاولة جديدة تجمع المثقفين والواعين على مصلحة البلاد لملء المقعد الشاغر!

.. أما بعض المثقفين الذين ينتمون إلى الأحزاب ولا أقول جميعهم فلا امل يرجى

منهم لأنهم، استمرأوا حياة النفاق وأساليب التزلف والقربى مما جردهم من كل فضيلة وخلق فأصبح كل همهم إرضاء سادتهم والانحناء لأوامرهم وتنفيذ رغباتهم حتى ولو على حساب المصلحة العامة التي لا يعرفون أين هي وأين تكون!.

.. هؤلاء لا أمل فيهم لأنهم جردوا أنفسهم من كل سيف وقلم ولسان وأصبحوا تبعا لا يقوون على المواجهة ولا يقدرون على الحركة، ولا يعرفون غير الانحناء وكلمة نعم!.

.. قلت: إننا نحس بحاجتنا إلى ملىء المقعد الخالي بعد أن استعادت الطائفية مواقع سلطاتها ونفوذها وعلى الرغم من أن الطريق شاق ووعر وطويل إلا أن الضرورة تحتم على كل واع ومدرك ومثقف في هذا البلد أن يبدأ المسيرة حتى يدرك الهدف وإن كانت الظروف الملتهبة التي تواجهنا الآن قد تدفع بهذا الاتجاه خطوات كثيرة وكبيرة في سبيل إدراكه وتحقيقه!

.. والآن أعود إلى الديموقراطية هل ضاق الناس بها ولماذا؟.

●●●

.. إن الديموقراطية في حد ذاتها وتعاليمها لا غنى لنا عنها وقد بذلنا في سبيل إعادتها وإرساء قواعدها الكثير من العرق والدموع والكفاح، لكنها قطعاً بالصورة الراهنة وتحت الأوضاع الراهنة لا يمكن أن تحقق لنا الغاية المنشودة لأنها لاشك تحتاج إلى تعديل جذري يتم بالبحث والتشاور وحملات التوعية حتى تنبع من واقعنا وأصلنا ومن عاداتنا وتقاليدنا. ذلك أيضاً يحتاج إلى التضحية لكن المهم ألا نكف عن المحاولات أو نضعف أمام اليأس والاستسلام!.

.. والآن بودي أن أعبر بكم الأعوام عاماً بعد عام منذ أن خرج الاستعمار من بلادنا إلى اللحظات التي يتفاوض فيها الحزبان الكبيران في القصر الجمهوري لوضع الأسس التي يقوم عليها الحكم الائتلافي، إلا أنني لا أريد أن أضيّع الزمن في سرد هذه المراحل السياسية التي ضاق بها الناس والتي يمكن لكل سوداني متتبع للأحداث أن يستعرضها من الذاكرة في شريط لا يتجاوز بضع دقائق، ولكنني أريد أن أستخلص عصارة الأوضاع السياسية والنظم التي سرنا عليها عبر الأعوام ونحن في حالة الململة أو المخاض التي نعاني منها الآن!!.

## هبوط إلى القاع

## العد التنازلي للديموقراطية « أ »!

● الشريف حسين يهدد بنسف الائتلاف وبعد أسبوع نسف كل شيء حتى السودان .

● ماذا قال الصادق للصحافة قبل الانقلاب بساعات!؟

لعل.. الصورة المضغوطة التي عرضتها عن التدهور المستمر في المسرح السياسي بسبب الخلاف المؤسف الذي وقع بين الحزبين المؤتلفين الحاكمين الحزب الاتحادي الديموقراطي وحزب الأمة والذي وصل إلى طريق مسدود يحتاج مني إلى مزيد من إلقاء الضوء عليهما ، وذلك من خلال التصريحات المتبادلة والتي آمل أن يكمل القارىء بعد قراءتها تصوره ونحن على بعد خطوات من وقوع القارعة . ففي يوم ١٨ مايو ١٩٦٩ نشرت جريدة «الصحافة» تصريحاً للشريف حسين. اتهم فيه حزب الأمة بأنه يخطط لإحلال الاستعمار الحديث مكان الاستعمار القديم وأكد بأن الأسبوع القادم سيشهد نهاية الائتلاف وأن حزبه الاتحادي الديموقراطي يقف ضد الاقطاع ويؤيد الدستور الإسلامي والاشتراكية وقال : إنهم سيقفون ضد الإقطاعيين وأصحاب القصور والسرايات. وصرح الرشيد الطاهر وكان من أبرز رجالات العهد بأن الخلاف بين جناحي حزب الأمة (الهادي والصادق) لم يكن بسبب أفكار سياسية أو للمصلحة العامة وإن محاولات التوحيد والتوفيق بينهما قد تمت بوحي خارجي ومن جهات ظلت تستخدم حزب الأمة لتحقيق مصالحها .

نواصل «حوامتنا» ومسيرتنا في دهاليز الحكم والأحزاب في تلك الظروف الصعبة ومن خلال ما يقوله الزعماء والقادة ونحن قبل يوم واحد من وقوع الكارثة نشرت الصحافة في يوم ٢٤ مايو ١٩٦٩ بأن الهيئة البرلمانية للحزب الاتحادي الديموقراطي في اجتماعها أمس الأول قد وجهت نقداً عنيفاً لقيادة الحزب (الإشارة هنا للأزهري) لاتفاقها مع قيادة حزب الأمة في اجتماعات القمة بين الحزبين على تحديد جدول زمني وإجراء استفتاء حول الدستور وقالت الهيئة : إن الدستور المؤقت لم ينص على ذلك وأن الجمعية لم تتخذ قراراً بالجدول الزمني أو الاستفتاء وأوضحت الهيئة صعوبة إجراء الاستفتاء في بلد كالسودان وأن الجدول الزمني ينطوي على صعوبات كثيرة وأكدت

الهيئة حرصها على إجازة الدستور وذلك بمواظبة أعضاء الحزب على حضور اجتماعات لجنة الدستور.

● .. وفي يوم ٢٢ مايو ١٩٦٩ نشرت الصحافة تحت عنوان «أربع نقاط في أجندة اللجنة الرباعية مع الأحزاب الجنوبية» جاء فيه:

علمت «الصحافة» أن اللجنة المنتدبة من الحزبين المؤتلفين لمقابلة الأحزاب الجنوبية قد اتصلت بهم مساء أمس الأول وقد ضم الاجتماع السادة علي عبد الرحمن والصادق المهدي والدكتور توبى مادوت والدكتور عبد الحميد صالح وأبيل الير والفريد برجوك وقد اتفق الجانبان على وضع أجندة للاجتماع الذي سيعقد يوم الجمعة القادم (٣٠ مايو ١٩٦٩)!!!؟؟ وقد وضعت أربع نقاط في الأجندة تضمنت الاتفاق الذي توصل إليه الحزبان المؤتلفان وهي الحكم الإقليمي والجدول الزمني للدستور والضمانات المكفولة للمسيحيين في حالة وضع دستور إسلامي للبلاد.

كان الخبر الرئيسي الذي نشر في الصحافة بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٦٩ هو تصريح من السيد الصادق المهدي وكانت خطوط عناوينه البارزة هي:

الاتحادي الديموقراطي وسانو وجبهة الجنوب يوقعون اتفاقاً بالحكم الإقليمي وصلاحياته المالية:

صرح السيد الصادق المهدي «للصحافة» بأن اجتماع اللجنة الرباعية المنبثقة عن اجتماعات القصر الجمهوري قد استأنفت ليل أمس الأول اجتماعاتها مع حزب سانو وجبهة الجنوب وقال: إن الحزبين قد تقدما ببعض الملاحظات حول ماجاء في الفصل الأول من الدستور والخاص بالحكم الإقليمي والصلاحيات المالية وقال: إن اجتماعاً آخر ستعقده الأحزاب الأربعة مساء الأحد (٣١ مايو ٦٩)!!! لمناقشة المواد الإسلامية في الدستور والجدول الزمني لإجازة الدستور الدائم وتدل تحريات «الصحافة» على أن الاتفاق يشمل وضع الحكم الإقليمي في الباب الأول من الدستور وأن تكون للأقاليم سلطات مالية.

.. نفس عدد «الصحافة» بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٦٩ وتحت تصريح السيد الصادق وقد كان هناك تصريح آخر للشريف حسين الهندي عنوانه «الشريف حسين يتحدث عن رئاسة الوزارة» جاء فيه:

قال السيد الشريف حسين وزير المالية رداً على سؤال من «الصحافة» حول ما إذا كان لديه اعتراض على رئاسة الشيخ علي عبد الرحمن لأية حكومة يكونها الاتحاديون قال: إن الحزب لم يعلن للآن فض الائتلاف وبالتالي فهو لم يبحث أمر الوزارة ويعتقد أن لا يكون هناك خلاف في الحزب في هذا الأمر. وقال: انه لم يحدد شخصياً للآن أي بديل للائتلاف الحالي الذي قد أعلن في ود مدني الأسبوع الماضي أنه سيفض هذا الأسبوع.

## سوني ومنظمة الزنوج :

● وتحت تصريح الشريف وبالبنط العريض هناك خبر كبير لابد أن يلفت النظر وعنوانه :

منشور من سوني ومنظمة الزنوج الأحرار.. سلطات الأمن تكشف أسماء أعضاء المنظمة!!

علمت الصحافة أن سلطات الأمن قد عثرت على منشور موجه من أعضاء منظمة سوني في لجنتهم التنفيذية يدعوهم فيه لاتخاذ مواقف معينة ضد الشماليين وقد تطرق المنشور إلى حرق قرى أبناء الغرب في خشم القربة في العام الماضي وإلى تهديد أصحاب الباصات لسكان العشش عند اضراب الباصات الأخير . وقد وضح من تحريات البوليس أن المنشور يربط بين ما يسمى بمنظمة الأحرار ومنظمة سوني وشخصيات سياسية بارزة . وصرح مصدرنا بأنهم قد تمكنوا من معرفة عدد من الأعضاء العاملين في المنظمة وبعض نشاطاتهم إلا أن المصدر لم يكشف عن معلومات أكثر غير أن الأيام القليلة القادمة ستشهد تطورات كبيرة .

يبدو أن العدد الأخير من الصحافة الذي صدر يوم ٢٥ مايو يوم أن وقعت الواقعة كان يحمل في صفحته الأولى وحدها تلخيصاً سريعاً ومركزاً ومضغوطاً ومختصراً للزعزعة والخلاف وعناصر التفرقة ولكل المعاناة التي كنا نواجهها آنذاك.. ترى هل كان سيدنا الشريف الذي هدد بفض الائتلاف بين الحزبين في الأسبوع القادم أن كل شيء كان سينفض في ذلك التاريخ حتى سامرنا ومجالسنا وندواتنا وذواتنا ثم أقلامنا وحريتنا وسوداننا!!!؟

## ماذا كنت!؟

اسمحوا لي بعد ذلك أن نعود معاً إلى «المسبحة» ذات الألف حبة لنديرها بسرعة إلى الأمام أو إلى الوراء لا يهم لأننا مهما أدرناها فإننا حتماً سنصل إلى «مئذنتها» ثم نعاود الكرة من جديد لنواصل السير وندرك نهاية الطريق.

مهما طال بي الزمن فإنني لا يمكن أن أنسى وبل ومن الصعب عليَّ أن أنسى الجرح العميق الذي أصابتني به الحكومة الانتقالية وتجمعها النقابي عفا الله عنهما في كل ما أسلفت تدوينه في مقالاتي السابقة، مما سبب لي صداعاً مستمراً وإحساساً بالظلم بلا مبرر معقول ولا جناية ارتكبتها وعلى الرغم من أنني متيقن من أن الذي أصابني منهما لم يكن بدافع سوء النية ولا بالغرض ولا بالقصد المبيت أو الحقد الدفين شأنها في ذلك شأن عديد من الأخطاء التي ارتكبتها، لكن كل ذلك لم يمنع تجنيها عليَّ انتهى بي إلى عقدة مستعصية اسمها الشك مما جعلني أتحسس نفسي كثيراً وأعيد سيرة حياتي وأدير شريط الذكريات لأسمع وأرى من خلالها مواقفي في مايو خاصة بعد عام

١٩٧٢ حين بدأت تتململ وتضطرب فانزلقت أقدامها وانحرفت مسيرتها وأنا الذي لم أدق يوماً طبلاً أو أعزف قيثارة أو مزماراً، أو أغني أنشودة أو قصيدة لمايو، وأنا الذي لم أكن خفيراً ولا مديراً ولا أميناً ولا منظراً ولا داعية لمايو رغم كل الفرص التي أتيحت لي في مناسبات عديدة ومتكررة من وزير إلى سفير إلى مبعوث شخصي كانت كلها مفروشة تحت أقدامي كالأحذية القديمة.

## العد التنازلي للديموقراطية (ب)!

- ماذا بين محجوب والشريف حسين!؟
- وماذا بين الصادق والشريف!؟
- الجمعية التعاونية تتحول إلى مجلس ثورة.

قبل أن يتساءل القراء ولماذا كل هذه التفصيلات الدقيقة والشخصية والخاصة، لابد لي من مقدمة أبرز فيها موقفي حتى لا يجنح بعضهم إلى التأويلات والتفسيرات التي قد تقودهم إلى نتائج خاطئة ومتجنية أقول: إن في صدور الصحفيين والسياسيين أسراراً كثيرة ومثيرة قد لا يستطيعون نشرها إما خوفاً عليها أو خوفاً منها خاصة إذا كانت الظروف غير ملائمة.والصحفي الأمين لابد أن يدون مذكراته مهما كانت إيفاء لرسالته المقدسة والتزاماً بواجبه الكبير واحتراماً لقرائه ومواطنيه حتى إذا ما عاش أو مات خلف وراءه ذكرى عطرة بإسهامه مهما كان محدوداً، في إثراء مكتبة التاريخ. ولكم آلمني وحز في نفسي وأنا أودع كل مرة راحلاً عزيزاً مقتدراً أن فارق هذه الحياة وفي صدره الكثير المثير دون أن يسجله فتضيع بفراقه ثروة غالية لا تقدر بثمن!!

● هويت الصحافة منذ أن كنت صغيراً، وأحببتها عندما صرت شاباً، وعشقتها عندما أصبحت رجلاً وكل أمنيتي في الحياة أن أموت وأنا صحفي فالصحافة أصبحت هي زادي وروحي وحياتي والصحافة (الصحافة) كانت ولا زالت وستظل حبيبتي وصغيرتي وابنتي خاصة ولم ينعم عليَّ الله بولد ولا بنت فأصبحت بالنسبة إليَّ هي الأهل والولد وكل شيء في الوجود ومنذ أن مارست حياة الصحافة وضعت مبدأ سرت عليه وآمنت ولازلت أؤمن به وهو أن أحطم جميع الحواجز والفواصل بيني وبين القراء حتى يروني ويعرفوني كما أنا، فالصحفي الذي يريد أن يرتبط بقرائه ارتباطاً روحياً لا انفصال بعده لابد أن يتجنب المساحيق والمكياج والبودرة حتى لا يغطي عنهم وجهه ليخفي حقيقته. من أجل ذلك ظللت طيلة عهدي بالصحافة أشرك القراء في مشاكلي العامة والخاصة وفي مشاكل أهلي وبيتي. وسرائي وضرائي وأسفاري ومرضي فما وجدت منهم إلا كثيراً من الالتصاق الروحي وكثيراً من المشاركة الوجدانية التي تؤنس وحدتي، وتزيل همي، وتبدد خوفي وتضاعف أمني ومن هنا ينبعث الشيء الهام والأهم

وهو الثقة المطلقة التي إذا ما تركزت بين الصحفي وقرائه كان ذلك قمة النجاح ونهاية التوفيق .

● .. من هنا وانطلاقاً من هذه المقدمة وربطاً للأحداث والوقائع الكثيرة التي خصصت جانباً كبيراً منها لتقييم ما قبل وبعد الانتفاضة فإنني أستسمح القراء أن أعود بعيداً إلى الوراء إلى ما قبل انقلاب مايو بقليل، لكنني سأختصر الطريق وأنا أعدد الأسباب التي من أجلها قامت مايو فعند رجوع الديموقراطية بعد أكتوبر استقبل الشعب عودتها بالزغاريد وبالأحضان ولكن بحذر شديد لم يقطع معه شعرة معاوية ولكن الأحزاب بدأت تنخر أحشاءها بأظافرها وانشغلت بهمومها وخلافاتها فانصرفت بذلك عن الشعب وانصرف عنها الشعب . وهنا لابد لي كذلك وأنا أصوغ مسلسل الأحداث في أن أروي قصة ولو أنها شخصية لكنها تدخل بالضرورة في دائرة الأحداث وبشكل مباشر جداً حتى يتمكن القارىء من متابعة كل الزوايا والأركان والأسرار التي لا قبل له بمعرفتها .

تجمعني علاقة المصاهرة بأبي القاسم محمد إبراهيم وأبي القاسم هاشم، فعندما تزوجت أختهما عام ١٩٥٠ أي قبل ستة وثلاثين عاماً كانا صغيرين في المدارس الثانوية وقد رعيتهما كأب وكأخ أكبر وتابعت سيرتهما عن قرب قريب حتى تخرجا ودخلا الكلية الحربية وكانت علاقاتنا الشخصية والأسرية قوية ولصيقة . ففي عام ١٩٦٧ رحلت من منزلي في بري إلى امتداد الدرجة الأولى ورحل أبوالقاسم محمد إبراهيم إلى منزلي واستمر فيه إلى ما بعد قيام الانقلاب وعلاقة هذا شأنها لابد أن تزول عنها كل الحواجز والحساسيات والتكلف .

● في مساء يوم من الأيام وعلى وجه التقريب قبل الانقلاب بشهرين دخلت منزل أبي القاسم محمد إبراهيم كعادتي كل يومين أو ثلاثة ولقد شد انتباهي على غير العادة أصوات كثيرة ومختلطة من داخل الصالون بينما لم يكن في الخارج أي آثار لعربات وعندما دخلت وأنا أتحدث لأهله خرج أبوالقاسم من الصالون كالصاروخ واضعاً كلتا يديه على رأسه وهو في حالة مضطربة رغم أنه حاول أن يخفيها بابتسامة حلوة وقال لي بالحرف : أهلاً بيك وأين الحاجة .. اتفضل بس الحقيقة معاي بعض الإخوان لأننا بنضع في مسودة قانونية لجمعية تعاونية خاصة بالمظلات والله (شاغلانا لصوف راسنا) وقلت له أنا الحقيقة على عجل وكنت أعتقد أن الحاجة معكم فعد لإخوانك . ثم قال لي طيب سنتعشى معكم الليلة .

لم تترك هذه الزيارة أي أثر واضح في داخلي رغم بعض الشكوك الهامشية لكنها سرعان ما تلاشت وتبددت مع مرور الأيام .

## المفاجأة الكبرى :

● ودخلت منزلي - منزل أبو القاسم محمد إبراهيم مرة ثانية ولكنني دخلت هذه المرة من الجراج على غير مقصد مسبق وكان متاخماً للصالون فسمعت أصواتاً كثيرة تعلو في همهمة وهمس وتنخفض وتختلط في كثير من الأحيان، ولما لم تكن هناك عربة واحدة في الشارع شدني شيء في داخلي لعله حب الاستطلاع الصحفي اللعين الذي يجرد الإنسان أحياناً من بعض فضائله وخلقه. فتجسست وأنا آسف وحزين لكنني مرغم ومتطلع في آن واحد ونظرت من ثقب الباب فأنا أعرف بالطبع كل فتحاته وثقوبه وأركانه وزواياه فرأيت عجباً!! الضوء خافت جداً والجو مملوء ومحشو بدخان السجائر مما لم أستطع أن أتبين معه ملامح الوجوه، والحديث هامس خافت مما لم أتمكن من معرفته إلا في شكل كلمات متقاطعة لكنني ومن ثقب آخر في زاوية حادة من الشباك كانت المفاجأة وأية مفاجأة!!!

● .. رأيت وجها لا أنساه بشحمه وعظمه ولحمه الضابط جعفر نميري الذي أجرت معه (الصحافة) تحقيقاً صحفياً مصوراً في منزله بودنوباوي عام ١٩٦٧ عندما برىء من محاولة انقلاب سابقة في محكمة كان يترأسها العقيد عمر الحاج موسى الذي أصبح أخيراً (حواراً وهاجيا) للنميري. الغريب والمدهش الذي قد لا يعرفه الكثيرون إن السيد الصادق المهدي كان قد لعب دوراً كبيراً في تبرئة النميري ثم دارت الدوائر وانقلبت الموازين فحكم على الصادق بالإعدام كما هو معروف!!.

وأنا أتمعن أكثر من ثقب الشباك سمعت حركة فجريت مسرعاً لأدخل (البيوت من أبوابها) وسلمت على أهل البيت وجاء أبوالقاسم على عجل فحياني بنفس صورة الارتباك الأولى لكنني قلت له هذه المرة: أنا مستعجل وأرجو أن تعود لأصدقائك لتكملوا استعداداتكم للجمعية التعاونية ولا تنسونا من (السكر والرز) وضحك ثم عاد أدراجه بينما توجهت للجريدة، وبعد تفكير عميق وكان الموقف بالنسبة إليَّ مرتبكاً جداً وصدقوني حتى تلك اللحظات لم تكن الصورة قد اكتملت أمامي بشكل جازم وقاطع لكن الشكوك والظنون ظلت الهاجس الوحيد الذي سبب لي صداعاً متواصلاً وما لبثت أن أخذت القلم وسطرت كل خواطري لكنني أخيراً وبعد تعمق حبست المقال في درجي ثم توجهت بعد ذلك إلى منزل الأخ العزيز محمد أحمد محجوب رئيس الوزراء فوجدت معه الأخ العزيز الشريف حسين المهدي يرحمهما الله.

كانت تربطني بهما علاقات قوية وصادقة ومخلصة كيف لا وهي علاقات رحم ودرب وحب ومودة ووجدت معهما عدداً من الأصدقاء والوزراء فمنزل المحجوب كان منتدى فقهياً وأدبياً وسياسياً يلتقي فيه كل مساء الأصدقاء والأحباب وقد لاحظ محجوب وهو سريع الخاطر قوي الملاحظة أنني كنت منزعجاً بعض الشيء فهمس في أذني:

مالك يا أبو عوف في حاجة!؟

قلت له :

نعم أرجو أن ننتقل على انفراد في حجرة أخرى فوقف وأمسك بيدي ، ولكن ما إن اتجهنا نحو الغرفة حتى ناديت على الشريف لأشركه في النقاش وكانت الشائعات التي ينفثها ذلك الجو السياسي المشحون بالتوتر والغموض والمواجهة قد بدأت تتناقلها المجالس ولكن في تحفظ شديد .

قلت لهما إيه حكاية الشائعات والهمسات التي تدور في الصالونات ووراء الكواليس فرد عليَّ المحجوب في ثقة قائلاً :

إن كنت تقصد (يا أبو عوف) حجوة الانقلاب فاطمئن لقد سمعت بها وطلبت على الفور من اللواء الخواض أن يجري تحقيقاً سرياً ومكثفاً ولحسن الحظ ـ وحتى لا تنزعج ـ فقد أكد لي اللواء الخواض قبل حضورك بساعة واحدة أنه تلقى تقارير تؤكد هدوء الأحوال في الجيش وتدحض كل إشاعة خبيثة ..واستدرت نحو الشريف مؤكداً له إنني أعرف بعض التحركات ـ لكنني وللتاريخ لم أرو لهما تفاصيل ما شاهدت خوفاً من أن تكون كل استقراءاتي وانطباعاتي في النهاية خطأ في خطأ أعاقب على نتائجها في الدنيا قبل الآخرة واستدرت نحو الشريف وسألته عن رأيه فيما يقال فأجابني قائلاً :

(شوف كونو الحالة سيئة ورديئة ومتدهورة ونحن مسؤولون قطعاً عنها فهذه حقيقة ثابتة .. وكونو مثل هذا الجو الخانق الملتهب قد يشجع والله (فرقة كشافة) لتسطو على الحكم وقد نبهنا وأنذرنا كثيراً دون أن يسمعنا أحد وكأننا نؤذن في مالطا ) لكنني عادة لا أريد أن أصل إلى النتائج قبل أن أتأكد من صحة كل المعلومات التي تصلني وهي فعلاً مزعجة وانضم إلينا في نهاية الجلسة الأخ المرحوم عبد الماجد أبو حسبو الذي لم يخف مخاوفه أيضاً من الموقف ـ خاصة عندما استشهد بكلام اللواء حسن فحل للمحجوب ولما كانت هذه المعلومة جديدة علي ولما سألت المحجوب عن تفاصيلها قال لي :

(يا أخي حسن فحل أنت عارفو مبالغ جاءني أمس الأول في الثانية والنصف صباحاً وأزعجني وأزعج الأولاد غاية الإزعاج وأصر إصراراً بلا حدود على مقابلتي ولما فعلت وجدته (في حالة صعبة) فمسك بيدي وحكى عن تفاصيل وأحاجي محاولة انقلاب تجري في الخفاء وكلام فارغ كثير )!!! ووالله الجيش ما فيه واحد يقلب طربيزة ..!!!

حدث ذلك كله في أمسية يوم ١٥ مايو ١٩٦٩ وفي تمام الرابعة والنصف من ظهر اليوم الثاني أي ١٦ مايو جاءني الشريف حسين في منزلي ضمن زياراته المتواصلة التي لا تنقطع وكان كعادته دائماً في حالة إعياء شديد وطلب أن يجهز له الغداء إذ المعروف أن الشريف كان لا يأبه كثيراً ولا يهتم كثيراً بالمأكل والمشرب والملبس والنوم فهو يأكل أي شيء ويلبس أي شيء وليس هذا مجاله فقد أفردت له صفحات كثيرة في كتابي هذا .

● كان الشريف يتحدث إلي وهو شبه نائم فالرجل كما هو معروف عنه كان يحمل على كتفيه هموم الأولين والآخرين ولا يأبه بصحته أو راحته فقد كان كله ملكاً للجميع وخادماً مخلصاً للجميع وظللنا للحظات طويلة نتحدث عن أدق المشاكل الكبيرة والخطيرة التي كانت تواجه البلاد كيف بدأت ومن هم وراءها وما هي أسبابها وتفاصيلها وكيف ستكون نهايتها. المهم وبدون الإثارة أو الدخول في تفصيلات راح سيدنا الشريف يغط في نوم عميق لم يصح منه إلا في التاسعة والنصف مساء فدخل الحمام وقذف بعيداً بقميصه ليلبس كعادته واحداً من قمصاني رغم أن حجمي ضعف حجمه لكنني كما قلت لكم إنه لم يكن يأبه بأي شيء ولأي شيء!!.

## المقعد الشاغر!!؟

● ذهب سيدنا الشريف لحاله وتوجهت أنا لدار الصحافة ثم ذهبت بعدها لأم درمان لزيارة أخي وصديقي وحبيبي الأمير عبد الله عبد الرحمن نقد الله رحمه الله وتحدثنا سوياً وكعادتنا عن هموم البلد والإشاعات وما يدسه لنا الغدر وعدت إلى الخرطوم في الحادية عشرة والنصف مساء مروراً بمنزل المحجوب فوجدته زاخراً متوهجاً كعادته ثم انتهى بي المطاف في دار الصحافة (وكانت بسوق الخرطوم ٢).

● كانت حصيلة يومي ذاك أن الهمس بشائعة الانقلاب قد ارتفعت حرارتها كثيراً في الأوساط الصحفية بينما الغفلة تكبر وتزداد في الأوساط السياسية والحزبية مما جعلني أعيد قراءة المقال المحبوس في درجي مرة ومرتين وقبل أن أعيد قراءته للمرة الثالثة دفعت به إلى جوف المطبعة لتأكله بشراهة وبلا رحمة تحت عنوان صارخ (المقعد الشاغر) وما إن ظهر السبت ١٧ مايو ٦٩ تحت عنوان صارخ هو (المقعد الشاغر)؟ حتى أحدث ردود فعل كبيرة في المسرح السياسي. كان ذلك قبل ثمانية أيام فقط من انقلاب مايو. بعد ظهور المقال بساعات اتصل بي الشريف تليفونياً معلقاً على المقال ووصفه بأنه مخيف وفيه إشارات واضحة وقبل أن يكمل حديثه اتفقنا على العشاء في منزلي وجاء في المساء ومعه الأخ محمد أحمد محجوب ثم عبد الماجد أبو حسبو ثم شيخ المرضي فزروق فنقد الله وامتلأ المنزل وظللنا نتسامر ونتحدث إلى وقت متأخر من الليل.هكذا كان حالنا الحاكمون والمعارضون إخوة وأحبة.

لا أريد بهذه المناسبة أن أعبرها قبل أن أذكر واقعة محددة تأكيداً لعمق الارتباطات الأخوية والعلاقات الحميمة بين رجال الصحافة ورجالات الدولة والأحزاب فقد كانوا جميعاً يشكلون حلقة واحدة حباتها مزيج من الإخلاص والحب والاحترام. والواقعة كانت عندما احتدم الخلاف بين السيد الصادق المهدي رئيس وزراء الحكم المؤتلف مع الشعب الديموقراطي وبين وزيره الشريف حسين وزير الحكومات المحلية ذلك الخلاف العاصف الذي كان يهدد الاستقرار والأمن ومصلحة البلاد. من هذا المنطلق ومن منطلق

ما يربطني بكليهما من ود وصداقة، وحسماً لأية مضاعفات أقنعت السيد الشريف بضرورة اختصار الزمن والمسافات بقبول لقاء مع السيد الصادق المهدي في دعوة غداء مختصرة في منزلي ليحسما كل خلافاتهما بالمواجهة والصراحة، خاصة وأن تلك الخلافات - في رأيي - لم تكن ذات جذور عميقة وإنما يرجع أصلها وأساسها لتعيين السيد الصادق للشريف حسين وزيراً للحكومات المحلية بدلا من المالية التي عرفها وتعشقها وكان يصر عليها من هنا بدأ أساس الخلافات لكنها ما لبثت أن تشعبت وتزايدت وتطورت.

قبل الإثنان دعوتي مشكورين وكان الشريف أول من حضر وانتظرنا ساعة ونحن نتحدث ثم قال لي:

(يا أخي أنا جعت خلاص هل انت متأكد بأن السيد الصادق سيحضر؟ فأكدت له ذلك فقال إن شاء الله (ننتظر شوية كمان)!! وفي الساعة الثالثة والربع تماماً دق جرس التليفون وسرعان ما رفع الشريف اصبعه قائلاً: أؤكد لك أن هذا هو السيد الصادق وفعلاً كان المتحدث هو السيد الصادق الذي اعتذر عن الحضور لأسباب قاهرة وقد كانت كذلك.

● بعد قيام الانقلاب المايوي يوم ٢٥ مايو عرفت أن زعماءه وقادته كانوا قد أبدوا حذرهم ومخاوفهم وشكوكهم بعد ظهور مقالي (المقعد الشاغر) يوم ١٧ مايو إلى الدرجة التي وجه بعضهم فيها اتهامات لأبنائي فأقسم لهم أبو (القاسمان) بأنهما لم يتحدثا معي مطلقاً ولم يطلعاني على أي شيء.وفي صباح قيام الانقلاب نفسه وفي الثامنة والنصف على وجه التحديد كنا في المقابر بأم درمان نوري الثرى جسد فقيدة عزيزة فقابلني عدد كبير من الأصدقاء وعلى رأسهم فضيلة مولانا الراحل الشيخ محجوب عثمان إسحق قاضي القضاة وأشاروا إليَّ بأصابعهم واتهموني أجمعين بأنني كنت على علم مسبق ومعرفة تامة بالانقلاب من مقالي (المقعد الشاغر) ولكنني والله كنت بريئاً مما يقولون.

ودارت الأيام لتكشف ستورها وأسرارها فعلمت فيما علمت أن كل المعلومات التي وردت في التحقيقات المكثفة التي أجراها اللواء الخواض القائد العام وبنى عليها رئيس الوزراء محجوب كما بنت عليها الحكومة كل حساباتها ومواقفها ومواقعها ونتائجها وسياساتها كانت كلها ملفقة ومضللة، لأن الذي كان يعدها ويتابعها ويكتبها ويصوغ ألفاظها لم يكن سوى (الرائد مأمون عوض أبو زيد) في الاستخبارات العسكرية!!!!.

أرجو ألا يضيق القارىء إن هو ظن أنني خرجت بذلك عن الطريق لكنني أؤكد بأنني مازلت داخل الدائرة وأنا أقيم فترات ما قبل وبعد الانتفاضة وهي لابد أن تكون لها روابط قوية ومباشرة قد تعيدنا أو تقودنا إلى تاريخ ما قبل مايو، فالأحداث كلها مترابطة ومتشابكة كالعقد والمسبحة تدور حباتها بين الأصابع وتدور ولن يتوقف دورانها

أبداً ، ثم الأهم من ذلك أنني قصدت من إبراز الصور في حياتنا السياسية والاجتماعية والصحفية حتى يتعرف شبابنا من الجيل الحديث على ماضينا الشامخ .ثم الهدف الثاني الذي أرمي إليه هو أن يتعرف كذلك أبناؤنا خاصة من الصحفيين والعاملين في ميادين الإعلام من إذاعة وتلفزيون الذين عاشوا وعايشوا عهد الكبت والإرهاب والاضطهاد والضغط والإذلال والخوف (والرجفة) والأوامر ستة عشر عاماً من السنوات العجاف على ماضينا العريق عل في ذلك ما ينفعهم ويرشدهم في حاضرهم ومستقبل أيامهم حتى لا يكونوا من الخاسرين .

أرجو بذلك أن أكون قد أجبت على بعض الأسئلة التي طرحتها .. ونفس المخاوف والمحاذير أوجهها للزملاء والأصدقاء في عالمنا العربي المتدهور في كل مرفق وميدان علهم بذلك يسهمون في محاربة كل محاولة تهدف إلى تقويض «الديموقراطية» وهي أحلى وأعظم ما في الوجود حتى لا يواجهوا الذي واجهناه يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩ ونحن نعيش لحظات الأفراح الديموقراطية والحرية التي سطا عليها أصحاب الياقات الحمراء واقتلعوها منا بالمدافع الرشاشة والمصفحات فانهدت الزينة ، وانطفأت المصابيح ، وتوقفت الزغاريد ، وتكسرت الأقلام ، وجف المداد ، وصمتت الحناجر ومات في داخلنا كل شيء حتى الحياة ذاتها .

## الفصل التاسع والعشرون

### خاتمة

- من أنت .. ومن تكون!؟
- أنا مزيج من الخير والشر.
وخليط من كل شيء، وأي شيء..!



(١) الامام عبدالرحمن المهدي (٢) السيد عبدالله الفاضل (٣) عبدالله خليل (٤) مختار الشفيع (٥) عبدالرحمن مختار وعمره تسع سنوات.
اخذت الصورة في الجزيرة ابا عام ١٩٣٦م

# خـاتمة

## من أنت .. ومن تكون!؟

● حوار مع جريدة السياسة السودانية أجراه بكري خضر ١٩٨٦/١٠/١٨ .

بمناسبة انتهاء حلقات الأستاذ عبد الرحمن مختار وحتى نشبع رغبات وتطلعات العديد من شبابنا ممن لم يعاصروا الأستاذ واستجابة لاستفساراتهم المتلاحقة والمتكررة يسر (السياسة) نيابة عن قرائها أن توجه سؤالاً واحداً للأستاذ عبد الرحمن مختار وتتركه يجيب على راحته دون مقاطعة والسؤال نفسه يكفي للإجابة على كل التساؤلات .

استاذ عبد الرحمن مختار :

من أنت؟ ومن تكون؟ وما هي قصة مسيرتك في الحياة من بدايتها حتى كتابة حلقاتك لجريدة (السياسة)؟؟

حوار : بكري خضر

● قصة حياتي طويلة وعريضة فيها كثير من الآلام والدموع والعظات والعبر والدروس والمشقة والعذاب، وفيها الإحباط والفرح . قصة حياتي مزيج من الخير والشر والسرور والغضب ومن الفضيلة والرذيلة ومن الصواب والخطأ لأنني بشر ولأنني إنسان! ذقت الفشل كثيراً فوجدته مراً وقاسياً وعندما ذقت النجاح وجدته أمر وأقسى . سأروي لكم من حياتي الجوانب الخيرة التي تضيء القلوب وتفيد أكبر قطاع من الشباب الحزين البائس حتى يؤمنوا بأنفسهم فلا ييأسوا إن فشلوا، ولا يضيقوا إن أصيبوا، ولا يتبرموا بالقدر المكتوب فالثقة بالله وبالنفس ثم بالناس مع الإصرار والاجتهاد والإخلاص والمثابرة والصبر والتضحية والبر بالوالدين والأهل والحب والإخاء في الله ولله كل ذلك هو بمثابة بداية الطريق إلى المجد والنجاح فهو كم طويل وعريض ووعر وشاق وهيهات أن ندرك نهايته .

● أنا عبد الرحمن مختار الشفيع ود آمنة بنت علي ساله مثلي مثل الآلاف من عبيد الله ومختاريه في هذا البلد .. أنا خليط من كل شيء وأي شيء حفظ والدي القرآن في خلاوي الشيخ ودبدر والتحق بمدرسة الشريعة وعين قاضياً شرعياً ثم فصل وخفض إلى

درجة مأذون الخرطوم لأنه ذهب إلى الحج بدون إذن وهو من زملاء ورفقاء الشيخ أحمد المرضي وعلي أبو قصيصة والشيخ يوسف هاشم وعثمان وخوجلي ود إسحق والفكي النخلي وكان صديقاً مقرباً للإمام عبد الرحمن المهدي وبجانب أنه كان إماماً لجامع الخرطوم العتيق كان أيضاً إماماً مناوباً وبالجامع السيد عبد الرحمن بودنوباوي والسيد علي المهدي كما كان جدي لأمي علي ودساله رفيقاً للإمام المهدي وزوجة شقيقة وكان إماماً لجامع الجزيرة أبا حتى مات عام ١٩٣٦ .

● أسرتي كانت من الطبقة الوسطى بتعريف أهل زمان يوم لم نسمع ولم نعزف الراديوهات والتلفزيونات والمكيفات والحافلات، طبقاتنا كانت كلها فقيرة نولع بلمبات الجاز المسرجة ونسكن بيوت الجالوص وننام على عناقريب بدون مراتب تسند أرجلها أحياناً قوالب الطوب أو جوالين الجاز الفارغة .. لم تكن في العاصمة آنذاك إلا عربة الحاكم العام والإمام عبد الرحمن المهدي ومولانا السيد علي الميرغني والشريف يوسف الهندي ثم سوار الذهب وأبو العلا والبرير . أما والدي الشيخ مختار فقد كان يمتلك عربة (حمارسيدس) بفروة بيضاء وكناتل حمراء وخضراء في الرقبة (والرقبة قزاز) ولكم تمتعت وراء ظهر أبي من الديوم حتى ودنوباوي كل جمعة حيث اعتدنا تناول طعام الغداء بعد الصلاة مباشرة مع الإمام عبد الرحمن المهدي وأخيه السيد علي والشيخ أحمد حسون وعدد من علية القوم والأحباب .

● كان أبي مضيافاً للغاية خصوصاً في ليالي الخميس حيث حلقات الطار والمديح وتلاوة القرآن الكريم حتى صلاة الفجر . لا أذكر أنني رأيت أمي يوماً وهي تتمخطر في الشوارع أو حوالي محلات الكوافير أو حديقة السطح في الهلتون أو قصر الصداقة .. لا أذكر أنني رأيتها إلا وهي تكنس البيت أو تغسل وهي قضت ثلثي عمرها في (التكل) وهو بلغة العصر يعني المطبخ (أو السيرفيس) تلخ العجين وتخمره ثم تعوس الكسرة (والابريه) وتفرك الملحات وتقلي اللقيمات يومياً حيث لا توجد بالطبع فريزرات ولا ثلاجات (ولا ثلج) .

● أكملت خلوة (الفكي أزرق) بديم التعايشة وحفظت على يديه القرآن وقد ساعدني أبي كثيراً في حفظ الأحاديث ومعرفة الفقه وقواعد اللغة العربية من نحو إلى صرف إلى بلاغة مما جعلني أقوى وأميز طالب في المدرسة الأهلية بام درمان في اللغة العربية وأذكر يوم أن زارنا معالي دولة علي ماهر باشا رئيس وزراء مصر في الفصل ضمن زيارته للعاصمة في عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، كتب الناظر مولانا الشيخ علي أبو قصيصة الجملة الآتية على السبورة وأشار علي لأعربها :

(زار المدرسة الأهلية في صباح هذا اليوم الأغر معالي الرئيس علي ماهر باشا) وكان يقصد بالطبع الفاعل المؤخر . ومع ذلك كنت ثاني أبلد طالب في الحساب وكانت أكبر نمرة تلقيتها في سنواتي الأربع هي ١٨ من مائة ومع ذلك لم أتخط العشرة الأوائل فقد

كنت فصيحاً في العربية والإنجليزية حيث يندر أن أحصل على أقل من الدرجة الكاملة يليهما التاريخ والجغرافيا.

● كان من أبرز زملائي عبد الله عبد الوهاب مدير شركة الإمارات والوكيل السابق لوزارة المالية والأستاذ العم الكبير محجوب عثمان وزير ثقافة مايو والقطب الشيوعي الكبير والمسئول الآن عن إعلامه وكان يتقدمني بعام أو عامين وكان مصيبة كبيرة منذ طفولته!

● كان عددنا في الفصل ثمانية وعشرين طالباً ومن الطرائف أن زميلاً لنا إسمه عبد الله حسن الصائغ لم أره ولم أسمع عنه منذ فترة الدراسة كانت قد وصلته برقية من دنقلا تزف له البشرى بأنه رزق ولداً!؟

كان طيش الفصل في الحساب (يعني الطالب الوحيد الذي يأتي دوني) وعلى ما أذكر أن اسمه علي م.ا. كان مصدر صداع بالنسبة للأستاذ محمد حمزة رحمه الله الذي تعلم في وجهه كل فنون اللكم والصفع والبصق وذات مرة طلب منه أن يحدد بالضبط موعد لقاء قطارين قاما في اتجاه معاكس بسرعة كذا في الساعة كذا فوقف حبيبنا علي كعادته كحمار الشيخ والأستاذ يصفع وجهه ذات اليمين وذات اليسار ويكرر سؤاله متى يلتقي القطاران يا جنس الكلب، فما كان من زميلنا الهمام إلا أن توكل على الله وبحرقة وعصبية وزهج أجاب:

(يا أفندي أنا ناظر المحطة!؟) فضحك الأستاذ ولكنه خرج في التو حتى لا يقهقه ويفقد وقاره أمامنا!!

● أكملت الأهلية الوسطى عام ١٩٤٢ وفي يوم ١٩٤٢/١٢/١٥ والطائرات الإيطالية تلقي بقنابلها فوق شركة النور ومدرسة الأحفاد بأم درمان كان أبي في مستشفى الخرطوم العتيق في الجناح الغربي زاره الإمام عبد الرحمن المهدي والسيد عبد الله الفاضل في الرابعة عصراً وما إن خرجا حتى ناداني ووضع رأسي على صدره بعدها أمرني بإغلاق الباب وبدأ يقرأ ويده اليمنى فوق رأسي سورة يس بصوته الجهوري الجميل حتى سمعه أهلي في فرندة المستشفى فانزعجوا وكان على رأسهم أخوالي عبد الله حمد وخضر حمد ويحيى علي ساله ومحمد وأحمد مختار وبعد ما انتهى من التلاوة قال لي بصوت حزين والدموع تتساقط من عينيه كحبات العيش:

(يا ولدي كنت أتمنى أن أعيش وأرعاك، لكن قدر الله نافذ فأوصيك بألا تواصل الدراسة وتشتغل حتى تعيش أمك وإخوتك وحذار أن تستمع للعواطف المؤقتة التي سيبديها أهلك ولا تحزن على المدرسة والدراسة فالذي كنت ستتحصله فيها يمكنك أن تتحصله في البيت والشارع وتحت الحيطة وأنت ولد شاطر الله يخليك ويرعاك وأنا عافي منك.. واختتم والدي الرجل الصالح نصائحه الغالية بجملة ما عرفت مغزاها وفك طلاسمها إلا بعد عشرات السنين وهي:

(يا ولدي أهلك كلهم فقراء ومساكين وأنت حتكون نوارتهم وحتبقى ليهم شجرة كبيرة كلهم يستظلوا تحتها). وبعد ساعة واحدة وفي تمام السادسة مساء لقي وآلدي ربه وأنا في الخامسة عشرة من عمري وبدأت من بعده رحلة الضياع والكفاح والصبر والمثابرة والتضحية.

## في كشف الفقراء:

● كان ترتيبي متقدماً جداً ودرجة نجاحي عالية بين ثلاث آلاف وأكثر للدخول إلى الكلية، إلا أنني تمسكاً بنصيحة أبي رفضت رغم إلحاح صديق والدي الشيخ سنادة المربي والمعلم الكبير رحمه الله الذي تحدث إلى المستر (سكوت) مدير الكلية ورئيس لجنة الاختيار عن ظروفي ووفاة أبي وكان أن حاولا إغرائي فوافقا بأن أوضع في كشف الفقراء الذين يمنح الطالب منهم جلابيتين وعمة كل ستة أشهر مع مصروف خمسين قرشاً شهرياً وتقدمت للالتحاق بالبريد والبرق وكنت على ما أظن الأول فقبلت وكان راتبي الابتدائي ثلاث جنيهات وستين قرشاً بالتمام والكمال. كنا آنذاك قد رحلنا من منزل جدنا علي ود ساله بعد أن هدته الأمطار.. رحلنا إلى منزل مجاور لمدرسة عمي المغفور له الشيخ الطاهر الشبلي بإيجار قدره ثمانون قرشاً. وبهذه المناسبة خطر لي أن أذكر سكنانا الأولى فقد كانت بين أمدرمان وديم التعايشة وكان الإيجار الذي يدفعه أبي للمنزل هو سبعون قرشاً فقط وأذكر خلافاً حاداً نشب بين المالك والمؤجر الذي هو أبي لزيادة الإيجار خمسة قروش أو شراء المنزل بثلاثين جنيها فكان رد أبي للمالك: (يا شيخ اتقي الله) ثم تلا عليه بيت شعر مازلت أحفظه لكنني لا أعرف حتى الآن مصدره أم من قائله وفي أي مناسبة قيل:

لقد كان في ظل الأراك كفاية ومكانك فيه لو ترتديه قليل!

فما كان من الشيخ إلا أن قال يا مولانا ما تكلمني بالنحوي أنا زي كلامك ده لا بعرفوا ولا بجيب خبره أنا داير الزيادة ومن أغرب وأعجب العجائب والخرطوم آنذاك تنتهي بالسكة حديد وقشلاق عباس (المطافىء الآن وبعملية رصد ومتابعة للمسافات تأكدت ويا للقدر أن ديم التعايشة يقع بالضبط في سوق نمرة ٢ وإن دار الصحافة قد تكون في نفس منزلنا القديم. أبو ٧٥ قرشاً وسبحان الله جلت حكمته!!).

● ظروف عصيبة كان علي أن أواجهها وأنا في السادسة عشرة من عمري فالتجأت إلى بعض أصدقاء أبي ومنهم الأستاذ رشدي بطرس المحامي الذي استجاب لرجائي فألحقني بمكتبه في أوقات فراغي حسب الوردية يوم مع الصباح ويوم في المساء وذلك براتب قدره خمس جنيهات. كان لرشدي هذا أخ مقاول طبعه حاد واسمه الكوسا بطرس كان يومها نعيب المراسلة وجاءه ضيف فأمرني بالذهاب للحلواني (البنك التجاري) حالياً لإحضار (اثنين قهوة سكر خفيف) كانت هذه أول مواجهة لاختبار

الكرامة (ورفع النخرة) والشهامة لكنني سقطت ودست على كرامتي ونخرتي بالحذاء المتسخ من أجل الجنيهات الخمسة ومن أجل أمي واخوتي.. ومن أجل الحياة.

● استغل الخواجة الكوسا ضعفي وحاجتي وظل يمعن في إذلالي بإرسالي للمقهى كل يوم وفجأة قابلني مرة رشدي المحامي وأنا أحمل الصينية فثار ثورة لازلت أسمع صداها وقذف بالقهوة من يدي فأحدثت الصينية صوتاً مزعجاً ودخل على أخيه وأنا أسمع لصراخه:

(حرام عليك يا أخي ده ابن ناس ومسكين يعني عشان فقير تستغله بدل المراسلة ده ابن عمنا الشيخ مختار.. حرام عليك يا راجل ثم دس في جيبي جنيهين ويبدو أن ثورته قد أثمرت فدس أخوه الكوسا كذلك في جيبي ثلاث جنيهات وقال لي معليش يا ابني والله ما كنتش عارفك ابن الشيخ مختار مأذون (الحقانية) يعني القضائية.

● كثيراً ما حدث لي وأنا في انتظار ترام أم درمان في المحطة الوسطى بالخرطوم أن أخير نفسي بين الركوب بالخمسة عشر مليماً التي في جيبي وبين شراء ثلاث قطع بقلاوة معسلة ومندية لأمي وأختي وأخي حسن مختار وبين أن أذهب (كداري) ما شاء الله؟ وصدقوني كثيراً ما انتصرت البقلاوة المغربية التي تسبح في بركة من العسل والسكر على ترام أبوروف.

● كنت أقضي الفترة بعد خروجي من البوستة بين الثانية ظهراً والخامسة مساء موعد عملي الثاني في مكتب المحامي.. كنت أقضيها في الحديقة الحالية التي تقع بين القضائية والبرلمان القديم وفي يدي بواقي سندوتشات وهي عادة ما تكون رخيصة للغاية ألتهمها تحت ظل الشجرة كما قال أبي تماماً ثم أبدأ في التهام الكتب والمجلات وعلى رأسها سلسلة إقرأ والرسالة حتى حفظتهم عن ظهر قلب كنت أستمتع بالخلاف البيزنطي والمناظرات بين الزيات والرافعي ومحمد حسنين هيكل وكنت أحفظ القصائد والأشعار والمراثي وألتهم كل شيء تقع عليه عيناي.

● تعلقت بالصحافة منذ طفولتي.. كنت أحبها وأشعر أن هناك شيئاً ما يجذبني إليها ويجذبها إليَّ وقررت منذ طفولتي المبكرة أن أكون صحفياً ووجهت (بوصلتي) منذ تلك الفترة نحو هذا الهدف فأكملت وأنا في السابعة عشرة (كورساً) عن الصحافة من مصر ونلت شهادة جيد جداً وأكملت كل دروس شهادة اكسفورد لكنني لم أمتحنها وكان أول مقال ينشر لي في جريدة الرأي العام في عام ١٩٣٩ فاشتريت منها عشرة أعداد بخمسة قروش لأوزعها على أصدقائي كما أصدرت صحفاً حائطية كثيرة في بري وسنار وكسلا.

● لحقت والدتي بعد عامين بزوجها الشيخ مختار وكان لابد أن نبدأ رحلة جديدة فخيروني بين أخوالي في أمدرمان وإخواني لأبي في بري فلجأت لوالدي الشيخ الطاهر الشبلي وعبد الله خليل اللذين عقدا اجتماعاً أسرياً ضم كل أهلي وقررا من منطلق

الشرع أن نرحل إلى بري ففعلنا نزولاً عن رغبتهما السامية لكن علاقتي بأمدرمان لم تنقطع، ومضيت أقرأ وأطلع وأنقب وأترجم وأعد المحاضرات وأستمع إليها في الأندية وفي الشارع سرت في طريقي بعزيمة وإصرار حتى قادني في النهاية إلى أكبر صرح في عالم الصحافة وهو كلية الصحافة الأمريكية بجامعة كولومبيا في عام ١٩٦٠ واختارني العميد السيد منتقمري كرتس (وقد كان مبعوثا شخصياً لايزنهاور في الشرق الأقصى)، اختارني من بين العديد من كبار الصحفيين الأفارقة تلبية لدعوة التلفزيون الأمريكي محطة (إن.بي.سي) للاشتراك في ندوة استغرقت ساعة ونصف الساعة مع رئيس تحرير النيويورك تايمز وتايم ورئيسي قسم الأخبار للديلي تلغراف والتايمز اللندنيتين ومدير وكالة تاس السوفيتية واليونايتدبرس وأذكر يومها أن الزميل الأستاذ محمد حسنين هيكل دخل على العميد محتجاً على هذا الاختيار باعتباره رئيس تحرير أكبر جريدة في العالم العربي وهذه حقيقة لا يمكن أن ينكرها أحد غير أن العميد قال له وهو يخفف من حدة ثورته أنتم هنا كلكم طلبة وقد تم اختيار عبد الرحمن مختار من منطلق أنه طالب مثلك تماماً هذا يأتي ضمن مسئولياتي الشخصية فخرج الأستاذ هيكل ثائراً ثم استدعاني العميد وأبلغني بما حدث لكنني لم أخبر هيكل حتى كتابة هذه السطور (خريف الفرح)!.

## خرتشوف بالجزمة:

● كان موضوع الندوة عن افريقيا التي بدأت صحوتها آنذاك وكثرت ملماتها وانفجاراتها وكان آخرها مقتل الزعيم لوممبا. وقد شهدت الأمم المتحدة آنذاك أكبر تجمع في تاريخها إثارة وعنفاً خاصة في تلك الجلسة المشهورة التي دخلت التاريخ يوم أن خلع الزعيم السوفيتي خرتشوف حذاءه ومضى يضرب به المنضدة بشكل هستيري وهو يصرخ (يوتو.. يوتو) وشهدته أيضاً بعيني رأسي خارج قاعة المؤتمر وفي الفناء الواسع وهو يخلع جاكتته ويقذف بها على الأرض وينجه جرياً نحو مظاهرة عنيفة من الكوبيين المنفيين ويلوح بقبضتي يديه ويمسكهما تماماً كمحمد علي كلاي ولما أوشك أن يتسلق (الدرابزين) الفاصل بين الفناء والمتظاهرين جرى وراءه بوليس الأمم المتحدة وحراسه من الأمريكيين والسوفييت وأوشك الزعيم كاسترو أن يلحق به لولا أن أعادوه إلى وعيه والتفوا به حتى ركب عربته.

في صبيحة اليوم الثاني وجدت ظرفاً جميلاً تحت باب غرفتي كان خطاب شكر من التلفزيون وشيكاً بمائتي دولار نظير الزمن الذي أضعته في الندوة (يا لرخص الزمن) كانت فرحتي أكبر من كل مال عندما أوكل إليّ التلفزيون إدارة النقاش باعتباري

الإفريقي الوحيد ثم فرحتي الثالثة بعد الدولارات هي إنني أصبحت مايكل جاكسون في الشارع الأمريكي، أما فرحتي الرابعة كانت عندما التقيت بالأخ العزيز الدكتور حمدنا الله الأمين أطال الله عمره الذي كان يتلقى بعثة في لندن فأعرب لي عن ابتهاجه ومفخرته وهو يراني في تلفزيون لندن في نفس اللحظة بالقمر الصناعي لأول مرة ـ مع العديد من زملائه الغربيين والعرب فعبروا جميعاً عن إعجابهم!!

## الصحافة موهبة :

● الحقيقة الواقعة والمدهشة التي آمل أن يستفيد منها أبناؤنا المتطلعون والراغبون في العمل الصحفي هي أن الصحافة موهبة أولاً تماماً كالحساب في المدارس والدليل على ذلك أنني لم أستفد مطلقاً من محاضرات فطاحلة الصحافة في الولايات المتحدة وطلبت أن أحول إلى دراسات أخرى هي كيف تدير صحيفة وكذلك فن وإدارة الإعلان وهنا وللتأكيد على ما أقول كانت جامعة اكسفورد في أواسط الخمسينات قد أعدت فصلاً للصحفيين، فوق الجامعة وتخرجت الدفعة الأولى والثانية والتحق العديد منهم بالصحف لكنهم فشلوا جميعاً باستثناء من كانت لديهم الموهبة مما دعا عميد الكلية أن ينعيها ويغلق أبوابها!!

● ودليلي الثالث أن (لورد بيفربروك) امبراطور ومالك العديد من الصحف البريطانية والذي مات قبل أكثر من عشر سنوات لم يدخل لا كلية ولا جامعة ولا أظن (ثانوي) حتى فقط كان موزعاً للصحف ومع توزيعه للصحف بدأت رحلة حياته لأكبر مجد صحفي في عالم اليوم وحقق ما لم يحققه السابقون والادعياء وحملة الشهادات والمغالطات!!

● إذا أحس أحدكم (بأنه حشري) وبأنه يستطيع أن يسمع بكلتا أذنيه جهتين مختلفتين ويفهم ويستوعب ما يصدر عنهما في آن واحد، وإذا استرعت انتباهك إبرة أو دبوسة تقع من المنضدة، وإذا جريت مسرعاً نحو حادث تصادم أو استطعت أن ترى في الظلام، أو لفت نظرك تجمعاً أي تجمع، وإذا لبيت أي نوع من الاستغاثة، أو ساعدت مقعداً في الطريق، وإذا شاهدت منظراً حزيناً بكيت له ولو في صمت وبلا دموع، وإذا أنصفت مظلوماً من ظالم وإذا أسعفتك ذاكرتك فحفظت في رأسك عدداً كبيراً من أرقام التليفونات والعربات، وإذا عرفت أناساً كثيرين في مختلف الميادين فتأكد وثق بأنك صحفي وصحفي له مستقبل ثم إذا زدت حصيلتك من العلم والثقافة والمعرفة واللغة والشهادات وقد تأتي في مرحلة متأخرة فيمكنك بعد ذلك أن تقفز إلى مرحلة

الصحافة الثانية وهي التعبير عما في نفسك ونفوس الآخرين من آلام وأفراح ومشاكل بل وقد تضع لها الحلول فتصبح لساناً صادقاً يعبر عن ذاتك وعن شعبك ثم يمكن بعد ذلك أن يطلق عليك اسم (صحفي)!

● في بداية حديثي قلت ان والدي الرجل الصالح حافظ القرآن والأحاديث كان قد قال لي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة لغزاً حيرني وما عرفته إلا بعد عشرات السنين وهو أن أهلي كلهم مساكين وسأكون نوارة العائلة وسأبقى لهم شجرة يستظلون تحتها إلخ إلخ.إلى أن جاءني في بداية دار الصحافة شيخ وقور يحمل إليَّ خطاباً كتب (بالعمار الأسود) من شيخ صالح إسمه الفكي النخلي من أحد قرى الجزيرة وكان صديقاً صدوقاً لأبي كثيراً ما حضر ليالي الذكر وحلقات القرآن كتب يقول لي كلاماً غريباً أرويه لذوي العلم والمعرفة وعلى رأسهم مولانا الشيخ عوض الله صالح شيخ العارفين حتى يفك لي هذه الطلاسم الغريبة. كتب هذا الشيخ الوقور يقول لي:

(حلمت أن أخي الشيخ مختار والدك جاءني وأنا في أشد حالات الضيق لأنني نويت الحج ولا قدرة لي به، وقال لي اذهب إلى ابني عبد الرحمن في الخرطوم وسألت عنك ناس البلد فقالوا لي أنك أصبحت ذا شأن كبير فهل تحقق لي أمنيتي وأمنية أبيك والسلام على من اتبع الهدى والهداية. أنا لم أرك منذ خمس وعشرين سنة ولا أعرف عنك أي شيء حتى علمت من الناس).

## أحلام الصالحين:

في اليوم الثاني أرسلت مع رسوله عربة من دار الصحافة فأحضروه لي وما أن رأيته حتى تذكرته تماماً وقضى الليل كله معي في قراءة القرآن والصلاة.

وفي حوالي الرابعة صباحاً صفق بيديه واستدعاني لصلاة الصبح وبعدها طلب قهوة و (لقيمات) وما ان قال لي مستوثقاً ربنا مارزقك بوليدات.. قلت له رزقني بأربعة لكنه أخذهم مني جلَ جلاله فسقطوا جميعاً قبل أن تنفخ فيهم الروح فصمت ثم فجر في وجهي قنبلة هايدروجينية حينما سألني: أنت أبوك ما كلمك بي كل شيء! بخصوص شنو يا عمي الشيخ (وبالمناسبة لم يكن عمي الشيخ النخلي حاضراً وفاة أبي!) قال لي: احكي لي بالحرف ماذا قال لك أبوك مختار أخي وحبيبي في الله والرسول وروحه تزورني وتكلمني دائماً. استجمعت ذاكرتي فرويت له أن والدي وضع رأسي على صدره وقرأ يس ثم رويت له قصة الشجرة. فما كان من عمي الرجل الصالح الذي لا يعرف كيف يولع نور الحائط وما سمع بالمكيفات بل طلب إطفاءها وما حضر للخرطوم خلال

**الثلاثين عاماً إلا مرة كان معتكفاً في خلوته يعلّم جيرانه القرآن . ما كان منه إلا أن قال لي أبوك ما قال ليك انك ما بتلد يعني ما بتخلف ذرية .. أها الشجرة البتظلل أهلك منو البظللها ؟** (مابتكون عريانة ومتوحدة) (يعني الشجرة التي تمنح الظل للأهل .. من الذي يمنحها الظل فهي عارية تماماً تحت وهج الشمس والمطر والبرد وهي وحيدة ومتوحشة) ومعنى ذلك كما أوضحه لي عمي الفكي دون أن يخاف أو يخشى غضبي وثورتي وبكل بساطة وبالسليقة قال لي : إنني إذا رزقت بأطفال فسأكون جباناً وقابضاً وشحيحاً ، فتحرم كل أهلك من (خير الله وحق الله) وهم ما عندهم غيرك .

● ما أغضبني الشيخ الوقور فرويت القصة لزوجتي حتى تطمئن وتتوقف من إجراء العمليات التي بلغت أكثر من اثنتي عشرة عملية في مختلف دول أوروبا والعالم . الحقيقة (يا أهل الله الكمل) ان شقيقتي قد أنجبت سبعة أولاد وبنات وزوجها موظف عادي وفقير - وأخي لأمي كان سائق تاكسي غلبان لكنه مؤمن ومجتهد ومكافح رحمه الله ، وقد أنجب ثمانية أولاد وبنات كلهم وكلهن أكملن الجامعة وتقلدوا وتقلدن وظائف مهندسين وقضاة وقاضيات وضباط فأنجبوا وأنجبن حوالي الأربعين ولداً وبنتاً ، ومن الجانب الآخر هناك عماتي وخالاتي وأولادهم وبناتهم وهناك أيضاً كان (مراحاً) آخر من الذين رعتهم دار الصحافة وعددهم يزيد على الأربعين أو الخمسين من الطلبة والأسر الفقيرة التي لا تجمعني بهم علاقة أو رابطة وأذكر أن كشفهم قد سلمته برسالة رقيقة لرئيس وأعضاء مجلس الثورة ثم حولوه بدورهم إلى السيد السفير جمال محمد أحمد الذي خلفني في دار الصحافة بعد التأميم ولم يكن من السهل أن تعتمد الإدارة الجديدة مثل هذه الحسنات أو التبرعات بعدما أصبحت خاضعة للدولة وللقوانين والمراجعة ! !

● التحقت بالاتصال العام كضابط اتصال المسئول عن وضع برامج الصحفيين الأجانب وذلك طيلة عام ١٩٥١ وعن طريق هذه الوظيفة تعرفت على كل السياسيين والقادة والزعماء واستمعت إلى أحاديثهم وتعليقاتهم لمراسلي الصحف . ثم جاءني الأخ والأستاذ الكبير بشير محمد سعيد وعرض عليَّ أن أعمل معه لإصدار الأيام فحضرت ميلادها وشربت شرباتها لكنني تركتها بعد شهور قليلة لأعمل سكرتيراً صحفياً للإمام عبد الرحمن المهدي ثم الإمام الصديق المهدي ثم تخليت عن هذا العمل لأبدأ بتشييد وكالة الأخبار الإفريقية عام ١٩٥٧ وهي التي منحتني فرصاً عظيمة في مقابلة رؤساء وزعماء الدول الإفريقية وبعد ثلاثة أعوام من النجاح الذي لم أكن أتوقعه بدأت الإعداد لجريدة الصحافة التي تأسست وصدرت في يوليو ١٩٦١ .

● المرحلة الثانية في تطوير (الصحافة) كان من المنتظر أن تكتمل عام ١٩٧٠ بعدما قمنا بطلب الماكينات وأخذنا تصديقاً بقطعة أرض أربعة آلاف متر مربع غرب مصنع العملة، وأعددنا الخرائط لدار الصحافة الجديدة وهي من طابقين وطابق بدروم للمطابع ومكاتب الإدارة والتحرير وشقة للضيوف وصالة للتدريس والمحاضرات وحوض سباحة وملعب تنس ومنزل للمهندس المقيم ومطعم ومقهى. ثم أعددنا كل الترتيبات لقفزة عالية لإصدار الأفريكان ستار الإنجليزية ورشحنا لها السفير خليفة عباس لرئاسة التحرير ومجلة عزيزي القارىء وكتاب الشهر على غرار وحجم سلسلة اقرأ نعهد به كل شهر لكاتب في ميدان من الميادين ثم أخيراً (سيدتي).

ولم تكن آنذاك (دار التسويق الشرق أوسطية) وصاحبة سيدتي الآن قد ولدت بل ولم تكن حتى في رحم الغيب ولو قدر لهذه الخطوة أن تتم لكانت دار الصحافة اليوم من أكبر الدور في افريقيا والشرق الأوسط لأنها كانت ستنمو أكثر وأكثر خصوصاً في الستة عشر عاماً من التيه والضياع لكن يد مايو الغليظة الفولاذية قد قضت عليها بالتأميم في أغسطس ١٩٧٠ فماتت الكلمة وخنقت حرية الرأي وتهشمت الأقلام واندلقت جميع المحابر وكسرت المنابر ولكن إلى حين.

● واجهت الضيق مرة ثانية بعد التأميم بأربعة أشهر فأجرت منزلي الكبير الفاخر، منزل رئيس تحرير الصحافة - لا عبد الرحمن مختار - لأنني لا أقوى على الصرف عليه.. أجرته بستمائة جنيه ورحلت في منزل بشارع ٣٣ بثمانين جنيهاً ويومها أحدث هذا التحول موجة عارمة من السخط والعطف والشفقة فكان حديث المجتمعات والأصدقاء فاتصل بي الأخ المرحوم السيد عمر الحاج موسى وكان وزيراً للثقافة ليقول لي في صوت حزين وبنغمة مؤثرة وتساؤل مشفق:

إيه ده يا عبد الرحمن ليه رحلت من بيتك؟ يا أخي نحن ماجينا نفقر الناس والإخوان كلهم منزعجين وكان الأحرى بك أن تكلمنا بمتاعبك لنساهم في حلها ولكن قبل أن يكمل المحادثة أودعت سماعة التليفون في بيتها فصمتت وصمت عمر!!

● دخلت سوق الله أكبر وعملت في بيع وشراء العقارات حتى ١٩٧٣ وحققت والحمد لله نجاحاً لا بأس به ثم اشتريت مصنعاً قديماً للألواح العازلة للسقوفات والثلاجات وغيرها.. ثم.. ثم.. ثم جاءت ثورة السماء في رجب ومضى عام الضياع الانتقالي فوجدت نفسي وعادت إليّ ذاتيتي وقلمي ومحبرتي.

## طبائعي في سطور :

● عندما أواجه أي نوع من الضيق أصحو مبكراً وأتوجه في خشوع العبد الضعيف ولم ولن يخيب الله يوماً سؤال الضعيف والمستجير به .

● وعندما أثور أصمت أو أتشاغل بأي شيء حتى لا أنفجر ـ أثق في كل الناس ، وأحب كل الناس وأفرح مع الناس وأبكي مع الناس وقد سبب لي ذلك مشاكل لا حصر لها لأن الأعداء كثيراً ما تمكنوا مني مستغلين طيبتي المفرطة وثقتي غير المحدودة ومع ذلك ففي النهاية دائما أنا الذي يضحك كثيراً .

● أخاف أصدقائي وأبكي بسرعة وأضحك بسرعة أحب كل شيء لكنني أكره النفاق ، كما أكره الملوخية بالأرانب وبالضفادع في فرنسا .. أحب القراءة والتنس وأهوى مراقبة الكورة من التلفزيون فقط .

● أمتع لحظات حياتي هي صيام رمضان بين الحرمين بعدها أشعر بأن جميع خطاياي قد غسلت فأعود إلى الدنيا لارتكاب الخطايا من جديد وعندما يثقل كتفاي أحس بحاجتي إلى الله فأطير فوراً إلى بيته ليحميني ويطهرني .

● أحب المأكولات إلي (أم رقيقة) وملاح الشمار والبامية بالمصارين واللحم المحمر (والرشوشة) وملاح القرع مع إضافة الماء والكسرة وخلطها .

● الحكمة التي أحبها : إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك . وقد كانت شعاراً في منضدة المرحوم الأخ عمر الحاج موسى رحمه الله رحمة واسعة .

● أجمل صورة أحبها وأتطلع إليها في براءة الأطفال هي صورتي مع الإمام عبد الرحمن المهدي وخادمه باب الله الأمين والسيد عبد الله الفاضل ووالدي وذلك بالجزيرة أبا في عام ١٩٣٥ عندما كنت في التاسعة من عمري وقد أهداني إليها مولانا الإمام عبد الرحمن عام ١٩٥٣ عندما كنت سكرتيراً صحفياً له .

● أكثر شيء أحبه في الوجود بعد الله الصحافة العلم والقلم زوجتي وأهلي ثم كل الناس وشكراً أحبائي .

# المحتويات

خريف الفرح

أسرار السودان ١٩٥٠ - ١٩٧٠ م

عبد الرحمن مختار